الماضِى الحىّ

حضارة تمتد سبعة آلاف سنة

بقلم: الدكتور إيفار ليسنر

ترجمة: شاكر ابراهيم سعيد

مراجعة: الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الماضي الحي

حضارة تمتد سبعة آلاف سنة

بقلم : الدكتور إيفار ليسنر

ترجمة : شاكر ابراهيم سعيد

مراجعة : الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨١

السومريون والبابليون والمصريون والحيثيون والاشوريون
والفينيقيون والفرس والاترسكيون واليونان والقرطاجيون
والرومان والمغول الصينيون اليابانيون والانكا والمايا
وغيرهم من الشعوب القديمة ٠

تمهيد

لا يمر يوم بحياتك الا مرة واحدة ولا سبيل الى استعادته ، فهل تدع هذا اليوم يمر هباء ؟ ولن تدرك الفرص التى تتيحها لك حياتك القصيرة وتحسن استغلالها الا اذا أدركت ما سعت الأجيال من قبلك الى تحقيقه وفكرت فيه وانجزته .

عندئذ فحسب تدرك أنك انما تقبع فوق جبل حقيقى من تاريخ وحضارة الانسانية التى بناها من أجلك غيرك من الناس عبر آلاف السنين .

فهل خطر لك يا من تعيش فى القرن العشرين هذا الخاطر من قبل ؟

ايغار ليسنر

مقدمة

بقدر ما كان الكاتب عميقا وشاملا ودقيقا فى الفصول الخاصة بمصر وبابل والهنـــد والفرس ••• و ••• و الخ كان هامشيا وغير مدقق فى الفصل الخاص بفلسطين ، فهـذا الكاتب الذى يركز اهتمامه على الماضى السحيق والحضارات الانسانية الموغلة فى القدم لم يبدأ فصـل فلسطين الا حين وفد ابراهيم من أور الكلدانيين وكاد أن يقصر بحثه على اليهود وتاريخهم وأنبيائهم وكتبهم ، فحين تحـــدث عن المسيحية لم يأت بشىء يستحق الذكر ، كما أنه أغفل الحضارة الاسلامية تماما • ولقد كانت نظرته حتى بالنسبة لليهـــود أنفسهم نظرة علمانيـــة أكثر منها دينية اذ اعتبر أنبياءهم زعماء مصلحين وعباقره وأشار الى بعض أسفارهم مثل سفر أيوب على أساس أنه قصة منقولة عن بابل وأن بعض أجزائه وجدت فى مكتبة أشور بانيبال بنينوى •

ولعل هذا راجع الى قصور فى ثقافة الكاتب وفى مدى المامه بتاريخ فلسطين وتاريخ حضارتها وما قدمته للانسانية جمعاء ، وربما كان ، شـــأنه فى ذلك شأن غالبية كتـاب الغرب والمستشرقين ، متحيزا ضـد الحضـــارة العربية ، وربما اعتبر الحضـــارتين الاســلامية والمسيحية من الحضارات الحديثة وان الذى يعنيه هو الحضارات القديمة • وقد تكون كل هـذه الأسباب مجتمعة هى التى حالت دون أن يوفى الكاتب هـذا الفصل حقه من البحث الموضوعى والقراءات المستفيضة •

وأعتقد أن الكاتب كان يشعر بالقصور فى هذا الفصل ، والدليل الواضح على ذلك انه حتى في عبارة التقديم التى أوردها على غلاف الكتاب اغفل فلسطين حين ذكر :

« السومريين والبابليين والمصريين والحيثيين والأشــوريين والفينيقيين والفرس والاترســكيين واليونان والقرطاجيين والرومان والمغول والصينيين واليابانيين والانكا والمايا وغيرهم من الشعوب القديمة » ٠

لقد كان فى استطاعتنا أن نعامل الكاتب بالمثل ونغفل هذا الفصل ، لكن الأمانة العلمية اقتضت ابقاء هذا الفصل مكتفين بهذا التنبيه تاركين للقارىء المتخصص المستنير أن يستوفى ما عجز الكاتب عن استيفائه ٠

شاكر ابراهيم

كلمة شكر

أود أن أعرب عن صـــادق امتنانى لهؤلاء الباحثين البارزين الذين قدموا لى يد العون فى مؤلفى هـذا باسداء النصـــح وتقديم الكثير من المقترحات القيمـة فضـلا عن مراجعتهم للأبواب التى تخص كل حضـارة على حدة .

دكتور هانز ستوك ـ أســتاذ المصريات بجامعـة ميونخ ، ومدير مجموعة الآثار المصرية التابعة للدولة بميونخ ، وذلك لقيامه بمراجعـة واستكمال الأبواب الخاصـــة ببلاد ما بين النهرين ومصر وفينيقيا وبلاد فارس .

دكتور كامنهوبر ، المساعد الأول لمعهد اللغات الهندية ـ الجرمانية بجامعة ميونخ ، لتصفحه الفصل الخاص بالحيثيين بكل دقة وأمانة .

الأستاذ الدكتور لودفج السدورف من جامعة همبورج لاطلاعه على الفصول الخاصة بالحضارتين الهندية والفارسية وادلائه بمقترحات قيمة حول الأبواب المتعلقة بموهنجود أرو وهارابا .

دكتور رتشارد شروتر ، مدير قسم بمتحف الأجناس والســلالات بهامبورج للملحوظات التى أبداها حول وضـع تخطيط للفصـــل الخاص بحضارة خمير بكمبوديا .

دكتور بيتر فيلهلم مايستر ، بمتحف الفنون والصناعات بهمبورج لاستكماله الفصول الخاصة بالصين واليابان .

الأستاذة الدكتورة آن مارى فون جابيان استاذة اللغـــة التركية بجامعة همبورج لاطلاعها على الفصل الخاص بمنغوليا ٠

دكتور هربرت تشنر ، أمين ومدير القسم الهندى الأوقيانى بمتحف علم الأجنـــاس وما قبل التاريخ بهمبورج ، لمراجعته الأبواب الخاصـــة باستراليا وبولينيزيا وميلانيزيا ٠

دكتور هانز ديتريش ويزيلهوف ، مدير متحف علم السلالات ببرلين لملحوظاته الطريفة حول معالجة نشأة الحضارات الأمريكية الأولى ٠

الأستاذ الدكتور ارنست سيتيج ، لمقترحاته العديدة حول معالجة لغة كريت القديمة وكتابتها ٠

دكتور و ٠ براندنشتاين ، أستاذ فقه اللغة المقارن بجامعة جواتس لقراءته الدقيقــة للفصـــل الخاص بطروادة وما أدلى به من معلومات لها أهميتها حول تخطيط المدينة الهومرية ٠

دكتور رينهارد لوليز ، الأمين العام بميونخ لتفسيراته القيمة لبعض نماذج الفنون التشكيلية اليونانية ٠

دكتور سيجفريد لاوفر ، بجامعة ميونخ لمراجعة الفصول الخاصـــة ببلاد اليونان القديمة وروما ٠

دكتور هانز ٠ ل ٠ شتولتنبرج ــ أستاذ علم الاجتماع والحجة فى فقه اللغة الالمانية وشـــارح اللغة اللوكية ، لما قدمه من عون فى مضمار تأليف الفصول الخاصة بالأتروريين وهانيبال وقرطاجة ٠

لقد أسهم كل هؤلاء الباحثين فى نجاح مؤلفى هذا ، واذا ما كان قد ورد بالنص ما يدل على أن الصياغة اللفظية التى استخدمتها لا تتفق تماما مع تفسيراتهم فانهم لم يألوا جهدا فى سبيل ضمان عدم اختلاف الصورة التى أعرضها للحضارات الانسانية العظمى عن الفكر العلمى ٠

مقـــدمة

قبل ان يكتشف اى شيء من تلك الأشـياء المفيدة في الحياة ، عاش اول البشر حياة بؤس وشقاء دون ثياب تستر اجسادهم وبلا معرفة بفائدة المسكن والنار كما كانوا يجهلون المواد الغذائية المزروعة جهلا تاما ، ومع أن الأصوات التى كانوا يصدرونها كانت اول الأمر غامضة غير مفهومة الا انهم توصلوا تدريجيا الى أن يجعلوا منها حديثا مفهوما

ديودور الصقلي (نحو ٢٥ ق٠م) تاريخ العالم

قال الصياد العجوز « هناك مدينة بأكملها على مقربة منا » ، وكان على صواب ، اذ أنك لو خطوت من القارب الى الماء لوجدت نفسك واقفا فوق ألواح عريضة من الرخام ، تمثل حطام شرفات وجدران ومنازل ، كذلك حدثنى هذا الشيخ أنه غالبا ما كان فى الليالى الصافية يرى المعالم غير الواضحة للمدينة الغارقة تحت سطح الماء ٠

وغادرنا كوماشيو (Comachio) حيث تغطى المياه الساكنة لبحيرة وادى ميزانو (Valle del Mezzano) الضحلة ، أنقاض عاصـــمة اســـبينا (Spina) القديمة ٠ وتحدثنا الأساطير التى يرجع تاريخها الى آلاف خلت من السنين عن مدينة أترووريا العظيمة التى بلغت ذروة مجدها قبل ميلاد المسيح بخمسمائة عام وكانت تسيطر يوما ما على الادرياتيك ، وفى المنطقة المنخفضة التى تقع عند مصب نهر البو ، وهى منطقة تغص ببحيرات ضحلة ومستنقعات لا تنتهى ، تم العثور على كميـــات هائلة من الأدوات التى صنعت بمدينـــة أترووريا مثـــل : الزهريات والمرايا

والشمعدانات والتماثيل الفخارية الصغيرة والأواني البرونزيه والحلى ونماذج من المصوغات الذهبية وجبانه يونانية ـ اترورية تضم قرابة آلف قبر ، كل هذه الأدوات التى يمكن مشاهدتها فى متحف اسبينا (Museo di Spina) بمدينة فيرارا (Ferrara) أما مدينة اسبينا ذاتها فمازالت مطموزة حيث حدد موقعها بالتخمين غير أنه لم يتم التنقيب عنها بعد ٠

ولقد استبد بى احساس غريب وأنا أقف فوق أنقاض هذه الحضارة العظيمة التى بلغت ذات يوم ذروة التطور والازدهار ، فكم هى عدد المدن الأترورية التى لم تكتشف بعد ؟ وأين تقع بالضبط مدينة تيرسا (Tyrsa) فى آسيا الصغرى ، وهى المدينة الأسطورية التى انحدروا منها ؟ ومن أين وفد أولئك القوم الذين أطلقوا على أنفسهم اسم التيرسانيين أو التيرانين نسبة الى مدينتهم ؟ فمع أن بحرا بأكمله ، هو البحر التيرانى ، يحمل إسمهم الا أن مكان مدينة تيرسا نفسها مازال مجهولا لنا ٠

أما الأتروريون أو التيرانيون الذين هاجروا من ليديا بآسيا الصغرى واستقر بهم المقام فى ايطاليا فقد خلفوا لنا فى مقابرهم دليلا واضحا على ما يسفر عنه التقاء الشرق بالغرب من نتائج رائعة ، فنادرا ما وجد فن ذو طابع يفيض انسانية وتمثيلا مثل الفن الاترورى ، أو فن أكثر منه حماسا فى التماس الخلود وعدم الفناء ٠٠

وما زالت الغالبية العظمى من أفكار الإنسان وأحلامه وأعماله وانجازاته المادية قابعة تحت سطح الأرض ، أسفل المستنقعات مثل مدينة تارتيسوس (Tartessus) المختفية عند خوز نهر « وادى الكبير » أو تحت البحار مثل جوندوانا (Gondwana) التى كانت ذات يوم حلقة وصل بين جنوب آسيا واستراليا ٠

ومتى تكتشف واشوكانى (Wasukanni) عاصمة امبراطورية التيانيين التى لابد وانها كانت تقع فى مكان ما على المنحدرات الجنوبية من الجبال الأرمنية ؟ ومتى نعثر على كوسارا (Kussara) التى كانت يوما ما مقرا لأنيتاس أول ملوك الحيثيين ؟ ومن الذى سيكتشف مدينة نيسا (Nessa) التى مازالت تحت سطح الأرض شرقى الأناضول أو يتعرف على موقع ارزاوا (Arzawa) المملكة التى ازدهرت فى غربى آسيا الصغرى حوالى سنة ١٤٠٠ ق٠م ؟ ومتى تكتشف سدوم وعموزه وغيرهما من المدن الواقعة فى وادى سيديم (Siddim) عند الطرف الجنوبى من البحر الميت ؟

ففي سنة ٤٠٠ ق.م تقريبا وصل الى أثينا رجل طار صيته في تلك الأيام عينها ولجده وتعطشه للمعرفة عقد العزم على أن يوسع دائرة معرفته حول أعماق الطبيعة ، بيد أنه كان لا يهتم بالشهرة ، حريصا على ألا يتعرف عليه أحد من الناس في أثينا .

غالبا ما كان ينسحب ليعيش منعزلا في احدى الجبانات التي كانت من الأماكن المحببة الى نفسه ، لقد تحدث الى سقراط أعظم فلاسفة اليونان وسقراط ، برغم ذلك ، لم يعرفه . وكان يرى ان العالم مكون من ذرات دقيقة لا حصر لها ولا يمكن تحديدها الا كميا . أما الأشكال التي تتخذها فلا نهـــاية لتغيراتها (١) ، وهي تدور بسرعة في الفضـــاء غير المحدود ويتسنى لها أن تتحد أو تتفرق بل وتصبح من الكثافة بحيث تكون كواكب برمتها .

والرجل الذي أخرج هذه النظرية هو ديموكريتوس (Democritus) الذي ولد في ابدير بطراقيا وقد عاش في الفترة ما بين ٤٦٠ و ٣٧٠ ق.م لقد مات وهو في التسعين من عمره ، وتضمنت ميادين نبـوغه العـديدة علم المرئيات وفن بناء الأقواس كمـا انه كان مهندسا نابها ومخترعا بارعا رفع من شأن العلوم الطبيعية فبلغت شأوا لم يكن يحلم به أحد آنذاك ، بفضل معرفته الغزيرة بالرياضيات وعلم الفلك ، ومع ذلك فان نظريته في الذرة هي التي حققت له شهرته الواسعة ، فلقد استخدم بالفعل لفظ « ذرة » أو (Atomos) وهو التعبير اليوناني الدال على عـــدم القابلية للانقسام ونادى بأن هذه الذرات التي تخترق الكون في دوراتها قادرة على تكوين كل ما يمكن للعقـل تصــوره من مادة كالنار والمـاء والهـواء والأرض .

وكان ديموكريتوس قد أخذ بدوره نظريته في الذرة عن لويكيبوس من ميليتوس Leucippus بيد أن عقله كان أكثر تحررا وكان معلما فاق معلمه السابق ، ولشـــدة شغفه بمعرفة العالم طفق يجمع المعلومات من جميع الأنحاء وأنفق الجانب الأكبر من دخله الخاص على أسفاره . فشاهد بابل وزار مصر وطاف ببقاع واسعة في آسيا ، ولعله بلغ بلاد الفرس والبحر الأحمر بل والهند أيضا . والواقع ، ان ديموكريتوس قد اكتسب الجانب الأكبر من معرفته العلمية من علماء اللاهوت الكلدانيين في معابد بلاد ما بين النهرين ، ومن علماء الفلك في بابل ومصر .

---

(١) يقصد بذلك ما توصل اليه المحدثون من أن الذرات محدودة الكم ولكنها غير محدودة الكيف — المراجع

وهناك رحالة آخر طاف كثيرا بانحاء الشرق ، هو طاليس Thales الذى ينتمى الى ميليتوس وكان يعيش حوالى سنة ٦٠٠ ق ٠ م وقد نقل عن المصريين تقسيم السنة الشمسية الى ٣٦٥ يوما وتعلم عن البابليين كيف يتنبأ بكسوف الشمس فهو الذى ثبتت دقة تكهنه عن كسوف الشمس الذى حدث فى الثامن والعشرين من شهر مايو عام ٥٨٥ ق ٠ م ـ كذلك نقل أناكسيماندر (Anaximander) فكرة الساعة الشمسية من بابل حوالى سنة ٥٦٠ ق ٠ م وكان أول من حاول رسم خريطة للعالم المعروف ٠

وتزود فيثاغورس Pythogoras برسالة توصية الى الملك أمازيس (١) ورحل الى مصر حيث تلقن اللغة المصرية ، كذلك قضى فترة من الزمن بين الكلدانيين والمجوس فى بابل وفارس ـ أما هيبارخوس Hipparchus ولعله أعظم علماء الفلك اليونانيين كافة فقد تعرف على أكثر من ثمانمائة وخمسين نجما ٠ ولقد ولد هذا العالم فى بيثينيا Bithynia وهى جزء مما يعرف اليوم بتركيا الحديثة وكان الشرق تأثيره الحاسم على ما قام به من أبحاث علمية ، أما بطليموس الذى عاش فى الفترة ما بين ١٠٠ و ١٧٨ م فقد ولد فى مصر ، وهو آخر علماء الطبيعة العظام القدامى ٠

وهكذا فان عدد العلماء اليونانيين البارزين الذين استقوا أسس معارفهم من الشرق ليبلغ حدا يدعو الى الغرابة ، تلك المعرفة التى انتقلت من اليونان وروما إلى العالم الغربى بعد تطويرها وتوسيع دائرتها ٠ لقد كان اليونان والرومان معلمينا وهم الذين ، برغم ذلك ، دفعوا على نحو ما ثمن تعليمنا اذ انهم أنهكوا قواهم وأضعفوا أنفسهم فى عملية تبادل الآراء ونشرها على نحو أطاح بهم فى نهاية المطاف ٠ لقد كان المسيح يتحدث الآرامية وهى لغة سامية ، وغزت تعاليمه الغرب على أجنحة المبادىء الهيلينية ، وما زلنا فى ميدان الأدب نستخدم تلك الموضوعات مستمرا فى معظم الأفكار الأساسية التى يعالجها سائر الروائيين المحدثين الى ذلك ان أثينا وأولمبيا تعدان موطن مثلنا العليا فى عالم الألعاب زمن بعيد مضى ، اذ يمثل يوريبيديس Euripides عاملا مشتركا صامتا كما أن أفلاطون وأرسطو وضعا أسس الفلسفة وعلم الأخلاق أضف عينها التى طورها الأدباء فى اليونان القديمة حيث فسروها ومثلوها منذ الرياضية ٠

لقد ارتبطنا معا منذ آلاف السنين ، والروابط التى تجمعنا ليست

---

(١) من الأسرة السادسة والعشرين المصرية ـ المراجع

راسخة فحسب بل أنها كذلك بعيدة المدى فقد أمدت حتى شملت العالم بأسره تقريبا قبل مجيء عصر الاكتشافات العظيم فالمساخة التى تفصل بين بلاد ما بين النهرين والصين ممثلا سادتها حضارة شعوب أسيا التى انشأها الاسكينيون الذين استخدموا ما كان سائدا فيما بين النهرين والصين من نماذج فى ايجاد فن خاص بهم ، ولم يعمر هذا الفن زمنا طويلا فحسب بل انتقل ايضا عبر مسافات شاسعة تحمله عربات الاسكيثيين وظهور دوابهم ، اذ بسط الاسكيثيين سلطاتهم على الجزء الأكبر مما يعرف اليوم بروسيا فيما بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد ، ومن المدهش أن تكون السمكة الذهبية التى يبلغ طولها ست عشرة بوصة ، التى عثر عليها فى فبترسفيلد ببراندنبورج بألمانيا عام ١٨٨٢ ميلادية ، قطعة من الفن الأسكيثى ترجع الى حوالى سنة ٥٠٠ ق . م وأن يكون هؤلاء الاسكيثيون على اتصال ثقافى ببلاد بعيدة مثل تركستان والصين .

وفى الصين يرجع تاريخ النحاس والبرونز الناتج عن خلطه الى سنة ١٤٠٠ ق . م . والجدير بالذكر ان فكرة انتاج البرونز قد استمدتها الصين من « الغرب الأقصى » مما يدلنا على أن الشرق والغرب كانا يتبادلان الأفكار الثقافية منذ ٣٥٠٠ عام خلت .

ولكن مازالت هناك مفاجآت أعظم . ففى عهد أسرة شانج Shang وهو عصر ثقافة مزدهرة امتد من سنه ١٥٠٠ الى سنة ١٠٥٠ ق . م على وجه التقريب ، كثيرا ما نرى صورة تاو ــ تاى Tao-Tie على انية القرابين . . ونقل صورة تاو ــ تاى هذه صناع البرونز المهرة فى عهد أباطرة أسرة « شو » التى ظلت سلالتها تمسك بأعنة الحكم فى البلاد زهاء ألف عام حتى أطيح بآخر حكامها فى ٢٤٩ ق . م ، أما صورة تاو تاى فهى رأس لحيوان مجهول قد يرجع أصله الى ما قبل التاريخ . ولعل فكرة تلك الصورة نبعت من ذكرى غامضة لغول أو أحد الوحوش الضارية آكلة لحوم البشر التى انقرضت منذ أمد بعيد . ومما يدعو للغرابة ان صورة هذا الوحش قد انتقلت عبر مسافات بعيدة حتى بلغت أمريكا حيث تعود صورة تاو ــ تاى الى الظهور فى شكل قيتزال كوتل Queizalcoutl اى حية ذات ريش . والادهى من ذلك ان هذا الحيوان المجهول لا يوجد فى الحضارة الاولمية Olmec على ساحل خليج المكسيك بل وفى الحضارة الشافينية Chavin فى بيرو أيضا حيث تعود صورته الى الظهور كقناع من الذهب فى هيئة حيوان مفترس .

وقبل ميلاد المسيح بخمسمائة عام انطلق أتباع فيثاغورث ينادون

بأن الأرض لا تحتل مركز الكون وليس لهـا ما يميزها عما عداها من الأجرام السماوية ، مما هي الا بقعة غبار في الكون كغيرها من ملايين الملايين الأخرى ، ويعلن أولئك العلماء أن منصف الكون كانت تشغله « نار مركزية » تحومت عنه أجزاء الأرض الآهلة بالسكان بينما اتجهت نحوء الشمس والقمر ، وفي سنة ٢٦٠ ق ٠ م تقريبا أعلن ارستارخوس Iristarchns من ساموس ان الشمس ثابتة والأرض هي التى تدور حولها على محورها انخاص وكان نصيب هذا الاكتشاف المذهل أن طواه النسيان زهاء ألفي عام حتى القرن السادس عشر حين انتهج كوبرنيكوس Copernicus أسلوب التفكير الفيثاغورثى وتحدى الرأى الدينى المعاصر بأسره بما قدمه من تفسير لنظرية مركزية الشمس ٠

وعلى هـذا النحـو انتقلت الأفكار والاكتشافات والاختراعات الى ربوع الارض قاطبة عكسا وطردا ، فأسلوبنا الغربى فى الحيـاة بأسره انما هو مستمد من حضارات ازدهرت يوما فى بلاد ما بين النهرين ومصر ووسط آسيا وجزر ايجه ، ومع ذلك فان عمر الحضارات المتقدمة المعروفة لنا قصير الى درجة لا تصدق اذ ان عشرة آلاف سنة من تاريخ التطور البشرى تمر كأنها يوم واحد من حياة الانسان (١) ، فنحن الآن نستخدم مثلا ابر الحياكة والانابيب والمزمار والشبص وعصبا السـاحر التى يرجع تاريخها الى عشرين ألف عام منذ الحقبة المادينية (٢) التى سميت باسـم كهف La Madeleine الذى يقع على مقربة من تورسـاك في دوردونى بفرنسا ومنذ العصر الجليدى الأول ، أى منـذ نحو ٦٠٠ ألف عام كان الانسان يسعى فى الأرض كمخلوق ذى ساقين تميز بالذكاء ـ فنحن أهل هـذا الزمان لا نرزح تحت محن آلاف السنين الحوالى التى لا حصر لهـا واخطائها السرمدية فحسب ، لكننا أيضا ورثة ما حملته فى أعقابها من حكمة ومعرفة ، فضلا عن اننا مدينون بسعادتنا المحدودة فيما نطلق عليه اسم حياتنا ـ الى ملايين لا حصر لها من الرجال الذين استحالوا رغاما منذ زمن طويل مضى ٠

ويخال كل عصر انه أهم العصور التى مرت بتاريخ العالم ومن جراء هذا الغرور والمغالطة صرت أمقت عبارات مثل : « لقد بلغنا الآن نقطة تحول ٠٠ ٠٠ » أو « اننا نعيش فى عصر خطير ٠٠ ٠٠ » وهى العبارات

---

(١) يقصد بذلك أننا لو قدرنا تاريخ البشرية على نحو يماثل حياة (عمر) الفرد فان عشرة آلاف سـنة من تاريخ البشر تعادل يوما واحدا من تاريخ الفرد ـ المراجع

(٢) جرت عادة بعض الكتاب على تسمية هذه الحضارة بالماجدلينية ـ أو المجدلينية فى حين أنها سميت باسم كيف المادلين وعلى ذلك يستحسن تسميتها بالمادلينية ـ المراجع

التى يتجر بها الخطباء ، فمتى وجد عصر بغير « نقطة تحول » أو « تغير خطير » إن العصور الذهبية للحضارات العظيمة لم تكن سوى قمم برزت وسط المحيط البدائي غير المحدود بل ان أعظم العصور الخلاقة المبدعة لا توحي بسموها العظيم ، فاروع الفنون وأكثرها تقدما غالبا ما توجد جنبا الى جنب مع أشدها تخلفا وانحطاطا ولذا نحتاج الى فوارق زمنية تقدر بالقرون وآلاف السنين قبل أن نتمكن من معرفة متى واين تسلق الانسان العاقل أشد سفوح الانجازات الانسانية وعورة ، ولا ينطبق قولى هذا على الانتصارات الفنية وليست العلمية اذ أن العمل الفنى فريد من نوعه ولا يمكن محاكاته . أما فى مجال الانتصارات العلمية فلدى الانسان متسع من الوقت لبلوغها وما يعجز جيل عن بلوغه فان الجيل التالى قادر على أن يحققه . ولولا المعوقات « مثل الخطر أو عداء الانسان لنوعه لأمكن تحقيق الاكتشافات التكنولوجية كلما دعت الحاجة اليها . »

وليس ثمة ما هو جديد تماما فى أسلوب حياتنا أو العصر الذى نعيش فيه ، أو فى آرائنا وفى أساليبنا العلمية ، لقد نقلنا عن الشرق واليونان وايطاليا أكثر بكثير مما ندرك فكل علومنا الحديثة تسير على غرار النمط القديم مركزة اهتماما يكاد يكون قاصرا على طبيعة الأشياء المادية والكائنات الحية .. ونخال ان معرفتنا الواسعة النطاق فى تلك المجالات انما تمثل التقدم ولا نعنى الا قليلا جدا بأعماق الانسان وبعقله ونفسه ، ومع ذلك فاننى أسلم بأن الأمم والعصور التى كانت لا تكافح من أجل الراحة المادية فحسب وانما كانت كذلك تفكر دائما فى الامور السرمدية الخالدة - ربما كانت أكثر منا تقدما كما انها كانت بالتأكيد أكثر منا حكمة .

وكان الاغريق مولعين بالكذب ، تلك السمة التى تميط اللثام عن سر كونهم شعراء ممعنين فى الخيال فضلا عن انهم توصلوا الى سر جوهرى وهو كيف يمزجون الخيال بالواقع من أجل خلق عمل فنى ، كما كان اكتشاف العقل البشرى بقدراته الفكرية والروحية فى نظرهم أهم من كل ما عداه وكانوا فى هذا المضمار مخلصين وصادقين على الدوام . والحكم بأننا - بما حققناه من علوم دقيقة - نسير وراء أوهام أكثر خطورة مما فعله أسلافنا مازال فى حاجة الى استقصاء ، فالحقيقة الوحيدة المؤكدة هى انه لو ظل التطور الفكرى للغرب على ما هو عليه من تخلف بالقياس الى انجازاته العلمية الهائلة التى لا ينكرها أحد فانه سوف يأتى اليوم الذى نعدو فيه أشبه ما نكون بأطفال صغار يلهون بلعب كبيرة خطيرة لا يدركون كنهها أو اننا نصير فنيين متخصصين نضغط على أزرار وتطلق العنان لقوى لم يعد بوسعنا تقدير ما تنطوى عليه من مفاهيم أخلاقية ضمنية .

وما الذي يحدث لو قدر لنا أن ننظر الى الوراء ونرى بأعين رءوسنا الوان الصراع والآلام المبرحة التي مر بها الانسان عبر مئات الآلاف من السنين التي عاشها كآدمي ؟ هل نتحول الى عامود ملح مثل زوجه لوط ؟

ذلك ما لا أعتقده ، فسدوم وعمورة لم تنقلانا عبر الأجيال الى ما نحن عليه الآن ، ولكننا بلغنا ذلك بفضل أمم وأفراد وهبوا من الصبر ما لا حدود له ، كانوا دائما يبنون من جديد فوق انقاض الماضى ، اخذين في جمع ثروة هائلة من الأفكار أودعتها سلالاتهم الحجر والفخار والرق ذات يوم ؟

ان هذا المؤلف لم يكتب بين عشية وضحاها ولم يسطر فى عجالة أو عن رغبة في استغلال الميل المعاصر الى معرفة الماضى السحيق • فعندما شرعت أجمع البيانات التى استخدمتها فى تأليف هذا الكتاب كان الناس منصرفين الى أمور أخرى مغايرة تماما • وظللت أعمل فى هذا المشروع سنوات عدة محاولا تلخيص ما توفر لدى من مادة غزيرة مع بلورتها وتنقيحها •••• حيث بدا حينئذ أن معارفنا كثيرة جدا ولكن تبين بعدئذ انها جد ضئيلة • وكان اهتمامى دائما بأحدث الحقائق العلمية المتاحة ولا يسعنى الا أن أعرب عن شكرى للكثيرين من العلماء المتخصصين الذين قاموا بمراجعة كل فصل من فصول هذا المؤلف وقدموا لى من المقترحات الكثيرة ما ألهب خيالى • وما من فكرة حواها هذا الكتاب أو تاريخ ورد به الا توخيت فيه الدقة التامة ، كما تعلمت ان أعظم الباحثين أنفسهم يختلفون فيما بينهم اختلافا بينا حول عدد سكان كثير من المدن القديمة وتاريخ مولد الكثيرين من الحكام القدامى أو وفاتهم •

وشرعت في سنة ١٩٤٩ أنشر مقتطفات من هذا الكتاب فى الدوريات الأوربية مما أعاننى على الالمام ببعض اعتراضات الباحثين ثم ادخال التعديلات اللازمة على النص • والواقع ان الالمام بصورة شاملة تنبض بالحياة لهذا الكون بشعوبه المتباينة ودوافعهم المحركة وضروب فشلهم ونجاحهم قد استغرق منى سنوات •

ان الفترة المعروفة من تاريخ الانسان فى رأيى لهى من القصر بحيث يمكن ، ولو مرة ، أن يغتفر لنا محاولة عزل تحديد المعالم الرئيسية للماضى بأممه ودوله وحضاراته • فنحن لم نتعلم الكتابة الا منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة رغم أو أهم الأحداث فى تاريخنا وقعت فى فترات متباعدة في تلك الحقبة القصيرة من عمر الأرض ، ولقد أسهم كل جنس وكل حضارة فى تطوير جانب على الأقل من جوانب التطور الانسانى كل بأسلوبه الخاص الذى لا يحاكى كما ان ذروة مجد كل حضارة تكمن فيها بذور اضمحلالها •

وليس هذا كتابا فى التاريخ كما انه ليس مقصورا على الحضارات القديمة فالتاريخ الماضي برمته يعيش فى الحاضر كما ان جذور التاريخ الحديث ضارية فى أعماق الماضى ، ولو سئلت عن رأيى فى أهم معـــالم تاريخ الانســـان لعلى أجبت بأنها : اختراع السومريين للكتابة وسـفر أيوب وما خلفه الأنبياء من ذخيرة فكرية والديمقراطية فى أثينـــا ابان العصر البركليسى Periclean Age وحياة سقراط وموته وفن الحفر على الخشب لدى اليابان وأشعار لى تاى ـ بو (Li Tai-Po) اننى أعترف بأن هذه المعالم تفتقر ، فيما يبدو ، الى الترابط كما انها تختلف من حيث قيمتها النسبية اختلافا بينا ومع ذلك لو انك طفت مثلى حول العـــالم مرارا لتبدت الأمور لناظرك فى صورة مغايرة ٠

وعلينا أن نحتاط لأنفسنا دائما من الجنوح الى تطبيق مقاييس الغرب التقدمية غير المستقرة على حضارات يتعين تقييمها بمعايير مغايرة تماما ، فلا يمكن بحال من الأحوال أن تطبق معاييرنا الغربية على كل جنس من اجناس العالم ، فليس بالضرورة ان التقـــدم والديناميكية بمفهومهما الغربى يعوضان الانسان عن سعادته ، فقد تكون مثلا حيــاة شـــعوب الباســـفيك الحالمة الخاملة بهدوئها وعـــدم ادراكها للخطيئة ، بأفراحها وأحزانها الفطرية أقرب منا بكثير الى سر الحياة ٠

والحضـــارات الساكنة ، فيما يبـــدو ، تعمر أطول من الحضـــارات الديناميكية ٠ هذا هو السر فى ان الحضارة البولينيزية قد عمرت طويلا ٠ ان البشرية طرا قد خطت على طريق التقدم فى السبعة الآلاف ســـنة الماضية خطوات أعظم وأسرع منه فى أى وقت مضى ، واستطاع الانسان أن يعيش ٦٠٠ الف ســـنة طابعها الاستقرار والبطء دون الملم بالكتابة أو معرفة الكيمياء أو اختراع الآلات ، ولعل التقدم ، بمفهومنا للفظ ، ويعد ضمانا واهيا لطول بقاء الانسان ٠ ومن ثم فأن أمثال لى تاى ـ بو ، وأساتذة الحفر على الخشب من اليابانيين الذين صوروا ايقاع الدنيا ونغم العالم كانوا أعظم الناس حكمة ٠

ولا أقول ان الغرب قد ينهار قبل الشرق ، ففى ذلك القول تناقض فالشرق يستخدم انتصارات الغرب غير المحققة ويحاكيها بلهفة ، بل ان فكرة التقـــدم تسود اليـــوم الصـــين واليابان والهند وروسيا الآســـيوية أكثر من الغرب ٠ وليس ثمة مجال يذكر ، فيما يبدو ، للخيار بين جوانب الانسانية الحديثة ، فقد فقدت جميعها فن الحياة ٠

وفى عام ١٩٣٢ شرعت فى زيارة البقاع التى أســـهم تاريخها فى أسلوب حياتنا وهى أثينا وقرطاجة وروما والقسطنطينية ، وطفت بالنيل

الفرات ودجله والسند يانجتسي وهوانج هو حيث معظم حضارات العالم لقديم المتقدمة قد رأت النور في وديان تلك الأنهار، ولا يزال بتلك الوديان فلاحون وتجار تكمن وراءهم خبرة آلاف السنين فهم رجـــال مستنيرون حكماء في أمور الدنيا والخلود على حـــد سواء الى جانب الاقتصاد وحسن التدبير أحيـــانا ٠٠ ٠٠ رجـــال لا يفرطون في الكرم لعلمهم بأنهم قد يصبحون يوما رقيقي الحال حين تدور عليهم عجلة الزمن ٠

واقتصر الأمر في أن أتعرف على أجناس أخرى ، أتعرف على شعب طابعه الكرم والشهامة كالبولينيزيين الجائلين في جـزر محيط الباسفيك والبدو الذين يقيمون في سهول العالم الفسيحة ومروجة وصـحارية ، قوم لا يرتبطون بممتلكاتهم اذ تحملهم قطعانهم على التنقل وعدم الاستقرار وآخرون يتطلعون الى السموات الصافية أكثر مما نفعل ومن ثم يستهينون بالأمور المادية ، لقد تحدثت الى البدو في شبه الجزيرة العربية واحتسيت أقداحا عديدة من الشاى في خيام منغوليا وعشت بين التنجوس Tungus الجائلين في غابات الصنوبر الســيبيرية (التايجا) (١) بمنشـــوريا الشمالية ٠

اننا نوع من الكائنات الخلاقة المتشبثة بالحياة ولعـل تكنولوجيتنا الحديثة تعيننا على أن نعمر بعد العصر الجليدى القادم بعد ٥٠ أو ١٠٠ ألف سنة ، ومن يدرى ؟ لقد مرت في غضون ٦٠٠ ألف سنة مضت أربعة عصور جليدية وثلاث حقب اعتدال وبرغم ذلك تسنى لبنى الانسان أن يعمروا بعد عصور جليدية دامت مائة ألف سنة في فترات أربع منفصلة ، في كل منها عمر الانسان دون أن يلقى عونا من العلوم الحديثة ٠

بيد ان أفكارنا من ناحية أخرى ، قاصرة ومحدودة اذ يغيب عن بالنا اننا لسنا سوى حلقة تافهة في سلسلة لا تنتهى من البشر الذين خلقوا منا ما نحن عليه وأتوا بنا الى المرحلة التى بلغناها ، أناس عمروا لا لأنهم سـعوا وراء النجاح بل لصـلابتهم وقدرتهم الهائلة على الاحتمال ٠ ان آفاقنا محدودة على نحو يثير الدهشة ومن ثم ندأب على المغالاة في تقديرنا لمغزى الانقلابات والاضطرابات وما يسمى « بالأنظمة الجديدة » في عصرنا الوجود ٠

ولا يغيب من بالنا ان الانســـان ليس لازما للكون لزوما مطلقا ، ولسوف تمضى الأرض في دورانها حول الشمس ولو اختفى الانسان من الوجود ٠

---

(١) التيجا أو (التايجا) ، غابات من أشجار صنوبرية قصيرة تنتشر في مســاحات واسعة من شمال أوراسيا وخاصة في سيبيريا ــ المراجع

بلاد ما بين النهرين

٧٠٠٠ سنة و ٤٠٠٠ اله

لولا الشرق القديم لما اصبحنا على ما نحن عليه وبدون فهمه لن يتسنى لنا قط معرفة انفسنا : لقد انتقلت الينا من السومريين مظاهر حضارية كثيرة عن طريق الأشوريين والبابليين والمصريين(١) واليونان والرومان وكشفت الحفريات فى بلاد ما بين النهرين عن جذور تطورنا الفكرى والروحى، ان الأبجدية التى نعرفها وعقيدتنا الدينية ونظامنا القانونى وفنوننا انما رسمتها جميعا، من قبل، عملية تطور طويلة. فمن بلاد ما بين النهرين ومن السومريين جاء ما يمكن ان يعتبر نقطة انطلاق حاسمة فى تاريخ الحضارات جميعا الا وهو فن الكتابة .

قرر هيلمولت Helmolt فى مؤلفه « تاريخ العالم » وهو يضم تسع مجلدات صدرت في ألمانيا عام ١٩١٣ – عن تاريخ السومريين « اننا لا نعرف عنه شيئا » .

ومع ذلك ففى فترة لا تزيد على الأربعين عاما أفلحنا فى الكشف عن حضارات انسانية أضافت الى معرفتنا التاريخية عدة آلاف من السنين ففى وديان دجلة والفرات – فى العراق الحديثة – تسنى لنا أن ننتزع

(١) يبدو أن المؤلف يسلم، كما يسلم كتاب آخرون بأن حضارة السومريين اقدم حضارات الشرق الأدنى القديم وأنها انتقلت الى مصر فى حين أن بعض الباحثين يرى أن اقدم السكان فى كل من بلاد النهرين ومصر جاءوا من مكان ما الى الشرق فى سفن شبيهة بتلك التى مثلت على فخار فى عصر ما قبل الأسرات فى مصر ، كما أن فريقا من الباحثين يؤكد أن الحضارة المصرية افريقية الأصل وأنها فى بعض مظاهرها اسبق حضارات الشرق الأدنى – المراجع

من قلب الصحراء أسرار احدى حضارتين من أعظم الحضارات المتطورة القديمه ٠٠ ٠٠ عالم ساحر عجيب أقرب ما يكون الى الأساطير ظل منسيا ومطمورا ردحا طويلا من الزمن ٠

ولم يسمع المؤرخ اليوناني هيرودوت بالسومريين اطلاقا ، كما أن بروسوس Berossus وهو عالم بابلى ظهر نحو ٢٥٠ ق ٠ م استقى معلوماته عنهم من بعض الروايات والأساطير الغامضة ٠ فلقد كتب عن جنس من الجبابرة خرج أصلا من الخليج الفارسى تحت زعامة رجل يدعى أوانس Oannes ولم يسمع بالسومريين ثانية الا بعد بروسوس بألفى عـــام ٠

والى ما قبل مائة عـــام فقط كان الباحثون يحملقون دون فهم فى الحروف الغامضة التى خلفها أهل سومر منحوته على الحجر ، اذ ان العالم الألمانى جورج فردريك جرو تفند (١) كان أول من ابتدع طريقة لفك رموز هذه الكتابة المصورة ، فكتابة السومريين المسمارية هى فى الواقع أول طريقة لكتابة عرفها العالم ٠ وقد استخدمها كثير من شعوب بلاد ما بين النهرين ممن كانوا يعيشون فى وادى دجلة والفرات فضلا عن العيلاميين وقدماء الفرس وغيرهم ٠

فمنذ عام ٣٥٠٠ ق ٠ م بدأ السومريون حياتهم فى اقليم ما بين النهرين وكانت أراضيهم تمتـد من الخليج الفارسى جنـوبا حتى بغداد الحديثه شمالا ، لم تذكر سجلاتهم التى تعود بتاريخها الى أزمنة سحيقة ماضية اى مكان آخر كوطن أصلى لهم ، وفى هـذا المكان تم للسومريين ابتكار طريقة الكتابة بالصور ، وبمضى الزمن تطورت هـذه الكتابة ، التى استعملت فيها ألواح الفخار كســـطوح للكتابة وجذوع النباتات المجوفة للنقش عليها ، الى الخط المسمارى ٠ وقد وقع ذلك فى تلك المنطقة دون سواها ، حيث ان السومريين لم يذكروا فى أى موضع أنهم نقلوا عن غيرهم فكرة هذا النوع من الكتابة ٠ ويرجع تاريخ هذا الخط المسمارى الى عام ٣٠٠٠ ق ٠ م تقريبا حين كانت الحروف تنقش بوساطة سيقان مجوفة من البوص أعدت بطريقة خاصة على ألواح فخارية يتم تجفيفها بعد ذلك ٠

ولقد قيض الله للبريطانيين فى شخص الســـير هنرى رولينسون Sir Henary Rowlinson رجلا واسع الطموح خصب الخيـال عظيم المواهب مثـــله مثل لورانس الذى يقرن اسمه بالجزيرة العربية ٠ لقد

---

(١) جروتفند G.F Grotefend لغوى المانى عاش فيما بين ١٧٧٥ ، ١٨٥٣ وتمكن من حل رموز الكتابة المسمارية سنة ١٨٠٢ — المراجع

عمل رولينسون مفوضا سياسيا في أفغانستان وشبه الجزيرة العربية كما كان رحالة ومكتشفا لا يعرف الكلل ، وقد اضطلع أثناء الفترة التى قضاها في ايران بدراسة النقش المسمارى فى بيهسون Behiston وحينما كان قنصلا لبلاده فى بغداد عام ١٨٤٤ استطاع فك رموز هذه اللوحة القديمة التى كانت تتضمن ترجمة بابلية .

وفى عام ١٨٥٤ بدأ تايلور Tylor ولوفتوس Loftus البريطانيان التنقيب فى مواقع المدن القديمة ، أور Ur واريدو Eridu وارك (١) Erech ويبدو أن أرك التى يقال انها كانت عاصمة الملك قبل الطوفان ، كانت مقرا للملك جلجاميش Gilgamech لكن حدث فى أواخر القرن التاسع عشر أن كشف علماء الآثار الفرنسيون الذين كانوا ينقبون فى تاو (٢) Tell Loh عما تبقى من آثار لجش Lagash القديمة . وفى هذه المدينة عثروا على ألواح كانت بمثابة المفاتيح الأولى لتاريخ ملوك سومر .

أما سير هنرى اوستن ليارد Sir Henry Austen Layard فقد اكتشف نينوى Nineveh القديمة تحت تل كيونجيك Kouyunjik على الضفة اليمنى من نهر دجلة فى مواجهة مدينة الموصل الحديثة ، ووسط انقاض قصر الملك الأشورى اشور بانيبال Assurbanipal (من ٦٦٨ الى ٦٢٦ ق.م) كشف عن مكتبة كبيرة من الالواح الفخارية من بينها معاجم كامله لكلمات سومرية مقرونة بمعانيها السامية الاشورية . ولقد كانت مكتبة الملك اشور بانيبال قديمة غاية القدم كما كانت الالواح الفخارية تضم منسوخات وتجميعات لنصوص يرجع تاريخها الى سنة ٢٠٠٠ ق.م تقريبا .

وقد عثر بين هذه الألواح على أثر له قيمته المميزة الا وهو ملحمة جلجاميش التى تحكي قصة الطوفان والتى جاءت تأكيدا مذهلا لما يذكره سفر التكوين عن نوح . وقد نقشت ملحمة جلجاميش على اثنتى عشرة لوحة تسجل كل منها مغامرة مغايرة ، وتتألف الملحمة برمتها من حوالى ثلاثة آلاف سطر ، وقد عثر بين هذه الآثار على شذرات من هذه الألواح الاثنى عشر جميعا ـ وكان ما يقرب من ألفى وخمسمائة سطر من نص الملحمة مازالت محفوظة إما كاملة أو فى أجزاء منها فقط .

---

(١) الوركاء الحالية ـ المراجع

(٢) هذا هو الإسم الحالى للمنطقة التى وجدت بها آثار مدينة لجش ، وهى تلك المدينة التى تكونت بها أسرة حاكمة عاصرت أسرات حكمت فى مدن اخرى مثل كيش والوركاء فى فجر تاريخ سومر ـ المراجع

الخرائب = ▲
ميل
١٩٠
٥
ايران
(بلاد الفرس)
طهران
ش
غ
ج
تبريز
وان
بحيرة وان
موسش
سيواس
ملاطيا
ماردين
ديار بكر
اورفه
انازاربا
ايسو
انطاكيه
رابس شمرا
اريد
حلب
باليس
سورجا
سوريا
ماري
الفرات
حمص
تدمر
لبنان
بيروت
صيدا
بعلبك
(اليوبوليس)
دمشق
الاردن
العربية السعودية
العراق
تيمال
الكوفه
سيبار
بغداد
خفاجه
كيش
بابل
نيبور
آداب
تيلوه
لاجاش
شوروباك
اسين
لارسا
كوتالا
ارك
اور
الابيض
اريدو
البصرة
عبدان
الكويت
الخليج الفارسي
شوستار
شوش
كركوك
دجله
ابو قالقلان
كالات
اشور
حسونه
نمرود
الموصل
اسكى موصل
كالح
اربيل
جاورنا
نينوه
ديرساروكين
بين النهرين

وفي أعقاب الحرب العالمية الاولى رأس الاستاذ الدكتور Woolley الذى أصبح يلقب فيما بعد بالسير ليونارد وولى بعثة انجليزية أمريكية مشتركة من علماء الآثار تحت رعاية جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة والمتحف البريطاني ، ونقبت البعثة في موقع صغير عند تل العبيد الواقع شمال غرب مدينة أور فكشفت عن معابد وأحياء سكنية وفخار وتماثيل. ومن ثم اتضح أن السومريين قد بلغوا مستوى رفيعا من الحضارة فى تاريخ يرقى الى خمسة آلاف سنة مضت ، كما أن تلك الاكتشافات قد أزاحت النقاب عن جنس قديم امتد تاريخه الى ما يقرب من ضعف الحقبة التى مرت بالمجتمع الغربى منذ ميلاد المسيح حتى يومنا هذا .

ولم يجرؤ أحد ممن عاصروا المسيح قط ان يعود بفكره الى مثل هذا الزمن السحيق . اذ كانت مدينة سومر فى هذا العهد قد طواها النسيان منذ أمد بعيد وغابت في دياجير آلاف مضت من السنين وطمرت جبال من رمال الصحراء ما تبقى من التماثيل الجميلة ولوحات الفسيفساء والمعابد الضخمه والزهريات والآواني والحلي وأوعية العطور والأدهنة والاصباغ التى ابتدعتها بشرية قريبة الشبه منا الى حد كبير ، بل وأكثر من ذلك ان هذه الحياة المزدهرة تنتمي الى عصر كان يبدو – حتى لعلماء وكهنة السومريين الذين عاشوا فى ٢٣٠٠ ق.م أنفسهم – عصرا موغلا فى القدم ، فقد صنف الكهنة الذين كانوا يضطلعون بمهمة المؤرخين الى جانب وظيفة الكهنوت قوائم بأسماء ملوك يرقى تاريخهم الى ٤٣٢٠ سنة مضت .

لكن هؤلاء الكهنة عمدوا ، دون شك ، الى التهويل والمبالغة فى سرد تلك الحقائق فالسومريون لم يصلوا الى « بلاد النهرين » الا فى حوالى ٣٥٠٠ ق . م . ولانستبعد بطبيعة الحال أن يكون هؤلاء المستوطنون الأوائل قد عاشوا قبل ذلك آلاف السنين فى مكان آخر وبلغوا مرحلة بدائية من الحضارة . ولا عجب فان الحضارة الغربية قد انتقلت من بلاد مابين النهرين ووادى النيل (١) الى فلسطين واليونان ، ثم من اليونان الى روما ، ومن روما الى أسبانيا وفرنسا وألمانيا وانجلترا ، ثم من انجلترا الى أمريكا الشمالية ومن المحتمل أن السومريين كانوا قد أتموا هجرة مماثلة نحو الغرب قبل أن يستقروا أخيرا فى ذلك الاقليم الذى يحتمل أنه « الفردوس » الذى تحدثت عنه التوراة .

وللوصول الى أعمق الآثار فى نيبور Nippur ينبغى الحفر الى عمق

---

١) قارن ملحظة رقم (١) من ١٩ – المراجع

سبعين قدما كاملة ، أى ما يربو على المعدل العادى لارتفاع المنازل فى مدننا الحديثة وأن هذا العمق ليكشف عن عصر يرقى الى خمســة آلاف سنة على وجه التقريب .

والى عهد قريب جدا توصل علماء الآثار الى حقيقة أنه مهما تعمقوا فى التنقيب عن طفولة الجنس البشرى هذه فان أولى مراحل استقرار الانسان تظل دائما خافية فى أعماق ماض أكثر قدما مما توصــلوا اليــه . فقد اكتشف ى . أ سبيزر Speiser من جامعة بنسلفانيــا سنة ١٩٢٧ م تلا يقع شمال الموصل يرتفع عن سهل دجلة بحوالى ٦٥ قدما . وتطلق عليه القرى المجاورة اسم تيه جورا ، حيث كشف بعد عمليات التنقيب التى قام بها عن عدد من الطبقات التي تنتمى كل منها الى حقبة مغايرة ، لايقل عن ست وعشرين طبقة .

ولاتزال أحدث عمليات التنقيب التى تمت فيما بين النهرين ترتد بنا الى أعماق بعيدة من الماضى .. الى الألف سنة الرابعة والخامسة والسادسة قبل الميلاد ــ فأعمال التنقيب التى تمت بالقرب من حسونه Hassuna جنوبى الموصــل ، على ســبيل المثــال ، دفعت الى الوراء أكثر فأكثر الحد الذى كنا نميز عنده حقبة ما قبل التاريخ . فقد عثر علماء الآثار العراقيون بالقرب من حسونه على أوانى فخــارية وتماثيــل « للآلهة الأم » وتمائم صغيرة وبقايا حصر السمار ومناجل من الصوان والحمر . ويعرف النصف الأول من الألف سنة الرابعة قبل الميلاد بعصر حلف Halaf وســامراء Samarra واريدو Eridu (١) نسبة الى أهم المواقع الأثرية فى شمال العراق ووســطه وجنوبه . ويضم متحف بغداد اليــوم قطعة أثرية هامة تنتمى الى تلك الحقبة وتمثل عنق وعاء فخارى كبير رسم عليها رأس امرأة فوق كل من خديهــا ثلاثة خطوط زرقاء ، هى علامات الوشــم التى نراها احيانا على وجوه نســاء البدو في وقتنا هذا ، كما تم فى أريدو اكتشاف أقدم المنازل التى عرفها الانسان كما عثر على أقدم قبــة فى معبد ، وهذا المعبد توالت من فوقه آثار مالا يقــل عن ثلاثة عشر معبدا آخــر بنيت فى طبقات متعاقبــة حيث اســتدل على ذلك من أعمــال التنقيب التى تمت بعناية بالغة .

وعندما قامت جامعة شيكاغو بأعمــال التنقيب فى جارمو Jarmo بشمال العراق قيض للباحثين والعلماء أن يكتشفوا أقدم قرية نعرفهـــا

---

(١) لا يوجد فارق زمنى كبير بين حضارتى حسونة وسامراء وهما أقدم من حضارة حلف التى لا تسبق أريدو فى الزمن هى الأخرى ، ولعل المؤلف يقصد بحضارة أريدو لحضارة المعروفة بحضارة العبيد الجنوبية ــ المراجع

إذ يرجع تاريخها إلى نحو سنة ٦٠٠٠ ق ٠ م ، كما أنه من المرجع أن تكون التماثيل الخزفية الصغيرة العديدة التي وجدت هنــاك ، من أقدم أمثلة النحت التي آلت الينا على اعتبار أنها تناهز ٨٠٠٠ سنة من العمر ٠

ولعل أهم المواقع الأثرية على الاطلاق هو ذلك الذي اكتشف منذ عهد ليس ببعيد في وادي نهر الفرات الأوسط وفوق الأراضي السيــورية على مسافة غير بعيدة من الحدود العراقية ، فقد ظل الناس يمرون بأنقاض تل الحريري Tell Hariri قرابة ألفي عـام دون أن يعيروهــا أدنى اهتمام ، ومع ذلك ففي أسفل هذه الأنقاض تقع مدينة مطمورة في الرمال هي مدينة ماري Mari التي كانت ذات بأس وسلطان في زمن ما ، ولم يسترع تل الحريري إهتمام علماء الآثار الا بعد أن اتفق لبعض البدو أن عثروا به على أجزاء من تمثال صغير ٠

وفي يناير من عام ١٩٣٣ شمر الفرنسيون عن ســواعدهم لتنفيذ مشروع كبير من مشروعات التنقيب عن الآثار ، وخلال العشرين سنة التالية كشفوا عن مدينة ماري وعرفوا تاريخها ، ذلك التاريـخ الذي يمتـد الى ماقبل بداية تاريخنا الحديث أكثر من ألفي عام بل ومازال مداه مجهـولا اذ أن طبقات أنقاض مدينة ماري التي يرجع تاريخها الى سنة ٤٠٠٠ ق ٠ م تقع على عمق لم يتم الوصول اليه بعد ٠

والأشياء التي عثر عليها في هــذا الموقع ، وهي مصنوعة من الحجر والخزف والصدف ، تصور عالما ينبض بالحياة حتى أن الفترة التي تفصل بين يومنا هذا وبين سنة ٢٠٠٠ ق ٠ م تبـدو وكأنها تضاءلت وأصبحت لاشيء على الاطلاق ٠ فهاهم الوجهاء وكبار رجال الدين يحملقون فينا بأعين مشدوهة ، وها هي الوجوه العابسة تطل من المنحوتات الكاريكاتورية الصغيرة المميزة لتلك الحقبة ، ونرى حكاما يصلون وأيديهم مطوية ، ورجلا تقيا ورعا يقدم عنزة صغيرة قربانا ، وخدم البلاط بتعبيرات وجوههم التي تنم عن المكر والفضول وهم يطلون من عالمهم الى عالمنــا ٠ وهناك تجلس المغنية العظيمة أور نانشي Ur Nanshe في وضع سليم للغاية تبدو فيه وكأنها توشك على الغناء ، ويحملق أســد من البرونز في وجوهنا والشر يتطاير من عينيه الحجريتين ، وتمثال الأمير المفصول الرأس الذي يكشف لنا عما كانت توشى به أزياء الحاشــية الملكية في مدينــة ماري قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفي عام٠ ولقد كان سكان ماري ، كما هو معلوم لدينا، من الساميين ومن ثم لا يرتبطون من حيث ســـلالتهم بالسومريين ولكن المرجح أن حضارة ماري ، شأنها شأن الحضارات العظمى جميعها ، كانت تتألف من عناصر كثيرة مختلفة ، ومن ثم فاننــا نلحظ هنا أن سمات الجد

والصرامة التى اتسم بها السومريون قد امتزجت بروح المرح والسخريه والاقبال على ملاذ الحياة التى اتسم بها أهل مارى ٠

أما السومريون فقد كانت أفكارهم وأعمالهم ومساعيهم تتركز كلها حول المستقبل ، وهل من الممكن أن يهنأ لهم عيش وهم على علم دائم بما يخبئه لهم المستقبل ؟ ولقد كان كهنة السومريين الأنبياء الذين يدعون البارو Baru على بينة من كل شىء ٠ ففرضوا سلطانهم على نفوس شعبهم طوال ثلاثة آلاف عام ، وظلوا جيلا بعد جيل يقارنون مجرى الأحداث بالحالة التى تكون عليها أكباد الغنم ومظهرها حتى أصبح فى قدرتهم فى نهاية الأمر التكهن بالمستقبل « على وجه الدقة » بناء على هذا الفحص ، وهكذا خضعت حياة سومر بأسرها لهذه النزعة القدرية الصارمة ٠

وكان القدر من أهم آلهتهم ، تتبعه المدينة والأراضى الصالحة للزراعة بأسرها ، وفى مقدوره أن يهيىء لها السعادة والرخاء ، أو أن يعرضها للفاقة والهلاك ، وكان السومريون ، الى جانب الآلهة المحلية المتعددة ، يؤمنون دون ريب باله مدينتهم فكانوا يقيمون له الصلوات ويقدمون له القرابين ٠

وكان الاله يمتلك مدينته ودولته ، ويأتى الطراز السياسى الأول لدولة المدينة بعد فن الكتابة باعتباره أهم ما أسهم به السومريون فى حضارة بلاد ما بين النهرين والعالم القديم عامة ، وكانت دويلات المدن المستقلة هذه معاقل الحضارة الراقية ، وفى مقدمتها أرك التى جاء ذكرها فى الانجيل، فقد قام العلماء الالمان بالتنقيب فيما يعرف الآن بمدينة الوركاء Warkah ونشروا كشوفهم العلمية لأول مرة عام ١٩٢٩ ٠ وما من أحد يقف اليوم وسط أنقاض معبد الوركاء الشاهقة الا ويشعر حتى بعد مضى ٤٠٠٠ عام ، بأنه فى هذا المكان كان الاله وأولاده ومدينته يؤلفون منذ زمن بعيد وحدة حقيقية ٠ وهذا هو السبب الوحيد الذى من أجله أمكن أن يصبح هذا المعبد أو الزاقورة بناء شامخا ، ومن أجله أيضا أراد شعب أرك بايمانه المفرط أن يحلق عاليا نحو السموات ليكون على مقربة من الهه آنو Anu الذى كان ملكا وأبا لسائر الآلهة ، غير أن عقيدته كانت ترتبط فى ارك ارتباطا وثيقا بعبادة اينانا Inanna أو اينين Innin « الالهة الأم » وربة السماء التى أصبحت فيما بعد أهم من آنو نفسه بالنسبة لارك والتى سماها الساميون بعشتروت Ishtor — والواقع أنه كان للآلهات دون الالهة مكانة كبرى فى نفوس السومريين ٠

وفى معابد نيبور كانوا يتعبدون لانليل Enlil اله الهواء فضلا عن زوجه نينليل Ninlil ومع ذلك كان يتملك السومريين احساس خاص

تجاه القمر اذ كان منجموهم يتنبئون بالمستقبل بملاحظة خصائص أوجه القمر المختلفة ، والواقع أن مدينة أور كانت ذات يوم من أتباع اله القمر سين Sin الذى كان على جانب كبير من الأهمية والذى كان رقمه المقدس هو الرقم ٣٠ ، وكانت المدينتان سيبار Sippar ولارسا Larsa يُنتميان لالـه الشمس « شـمش Shamach » بينمـا كانت مدينـة أريدو تعبـد اله الماء « أيا (Ea) » الذى أصبح ابنه مردوخ Marduk أعظم آلهة البابلين ، بل واتخذت المدينة التى كانت تسمى بورسـبيا (Borsippa) من نيبو (Nebo) الكاتب الها لها • وكانت وظيفة « نيبو » هى تسجيل القرارات التى يتخذها سائر الآلهة ، كما كان راعيا للكتبة السومريين ، وهم أقدم الكتبة وكتبة الاختزال الذين عرفتهم الانسانية •

ولعل السومريين هم أول من ابتدعوا فكرة بناء منزل ، أو على الاقل شرفة ، لالههم حيث يتسنى لهم الوقوف الى جواره ، وكان لكل مدينـة واحدة أو أكثر من هذه الشرفات التى طغت على ما عداها ، وأخذ بناء هذه الشرفات يرتفع يوما بعد يوم ، باضافة طبقة فوق أخرى فاذا هى تصبح فى النهاية جبـالا أو صروحا من صـنع الانسان أو هى تلك المرتفعات التى ذكرها الكتاب المقدس Highplaces ، كان الاحساس الذى استبد بالانسـان هو أن يشيد لالهه مكانا مقدسـا • وقد اسـتطاعت العقيدة الراسخة والحب الفائق للآلهة وحدهما أن يحققا تلك المعجزات من الآجر ، تلك التى تربط بين السماء والأرض ، تلك الجبال الصناعية التى ترتفع الى عنان السماء ، أى تلك المعابد ذات الشرفات التى نسميها (زاقورات) وتعنى هذه الكلمة ببساطة « برج » أو « قمة التل » وهى تعبير ميزوبوتامى يدل على معبد أو برج ذى شرفات ، ولقد خلف لنا السومريون ومن بعدهم البابليون نماذج رائعـة لهذه الأبنية فى ارك وأريدو والعقير Al'uqair وخفاجه Khafaga وأور وآشور وبابـل • ولما كان آلهـة السومريين العظام قد خرجوا من ظلمات عصـور ما قبل التاريخ فان عددا كبيرا من الأبراج قد انهار واستحال رغاما •

وقد اهتم السومريون بعلم التنجيم وبلغت سـلامة معرفتهـم بعلم الفلك حدا يثير الدهشة ، ومما لاشك فيه أنهم كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت ومن ثم فان حاشية الملوك السومريين لم تكن ، فيما يرجح ، تشعر برهبة شديدة من أن يسمحوا لأنفسهم بأن يدفنوا أحياء الى جوار سادتهم الراحلين •

وعلى مسافة تقرب من مائتى ميل جنوبى بغداد تقوم أنقاض مدينة أور حيث كشف البروفسير ليونارد وولى فى خريف عام ١٩٢٢ عن جبانة

ملكية وقام خلال العقد التالى بالاشتراك مع مساعده مالوان Malowan الذى صار حينئذ حجة في هذا الميدان ، بالتنقيب المنظم فى هذه الجبانة ، ومن ثم كشف لأول مرة عن الروح الحقيقية للثقافة السومرية • وعثر وولى على ١٨٥٠ مقبرة ، ومن التقدمات الجنزية استطاع الباحثون تأريخ معظم هذه المقابر اذ أن ٧٥١ مقبرة فقط من بين هذه المقابر البالغ عددها ١٨٥٠ هى التى كانت لا تحوى آثارا ذات طابع تاريخى •

وثمة ستة عشر قبرا تميزت عن سائر المقابر الأخرى بسعتها وفخامة بنائها وطريقة الدفن فيها ، وفى تلك القبور « الملكية » عثر « وولى » على تقدمات بشرية يتراوح عددها بين ستة وثمانية أشخاص ، وقرر « وولى » أن كل مقبرة لم يكن مدفونا بها غير جثة واحدة أما الجثث الأخرى الموجودة بها فكانت لأشخاص ضحى بهم ، ولم تكن هذه التضحية عن اكراه كما سيتضح لنا فيما بعد •

ولم يعثر على الضحايا البشرية الا فى تلك القبور التى كانت لها قباب من الحجر بيد أنها لم تكن بحال مقصورة على القبور التى تحوى تقدمات تنم عن غنى وثراء ، فقد كان قبر الأمير ميس كالام دج Mes. Kalam Dug ، على سبيل المثال ، أفخم من قبر الملك الذى ميزه « وولى » بالرقم ب ج / ١٠٥٤ • وبينما لم يعثر على أية هياكل عظمية بشرية فى قبر الأمير فقد وجدت فى مقبرة الملك « ب ج / ١٠٥٤ » ثمانية هياكل ، كما اكتشف وولى كذلك غرفة دفن الملكة وصنف هذا القبر بدوره وأصبح يحمل فى السجلات الأثرية الرقم ٨٠٠ ، وكان اسم الملكة شبعاد Shub-ad

ولقد تسنى لوولى تحديد اسم الملكة مستعينا فى ذلك بختم أسطوانى الشكل وجده على كتفها الأيمن كما أنه توصل الى أن طولها كان يبلغ اربعة اقدام واحدى عشرة بوصة ونصف البوصة وأن لها هيكلا عظميا رقيقا ، ويدين وقدمين دقيقتين ورأسا صغيرا ، هذا ويعتقد أن بوسعه اثبات أن الملكة قضت جل حياتها فى حالة ركوع على غراز ما تفعل نساء اليابان • أما الأمير ميس كالام دج فقد كان طول قامته خمسة أقدام وخمس بوصات ومن تركيب جمجمته استنتج وولى انه كان أشول ، ويعتقد أن كلا من الملكة والأمير ينتميان الى الجنس العربى القديم ، ويرجع تاريخ هذه القبور الى ٤٥٠٠ سنة خلت أى الى الأسرة المالكة الأولى فى أور •

كيف كان الدفن فى تلك الأزمنة الغابرة ؟

لقد وجدت الملكة شبعاد طريحة على ظهرها ، ولم تتعرض الجثه لأكثر من مدها ببساطة فوق ركيزة من الخشب وعند رأسها جثت خادم بينما وجدت رفات خادم أخرى عند قدميها ، لقد ماتت هاتان الخادمان

موتا قربانيا حيث تم اغلاق غرفة الدفن ووضـــع الخاتم عليها فى احتفال رسمى •

ففى السرداب المفضى الى الغرفة كان يسير موكب يضم أفراد الحاشية والجنود وغيرهم من التابعين ذكورا واناثا ، وكانت الاناث ترتدين ملابس مزركشة وتزين أنفسهن بزينات الشعر والأقراط الذهبيـــة والاكاليـــل المرصعة بالأحجار الزرقاء النفيسة ، وورق الأشجار الذهبى ، ودبابيس الشعر الفضية ، والامشاط الجميلة ، والعقود ومشـــابك كبيرة للملابس واتخذ الجميع أماكنهم حـــول حفرة القبر تتبعهم عـــربات تجـرها الثيران والحمير ، وكان كل رجل وامرأة يمســـك بين يديه وعاء صغيرا من الحجر أو الخزف أو المعدن بينما يتوسط القبو اناء كبير من النحاس ، ويبدو أن الأقداح ملئت وشرب كل شخص من هذا الســـم ، ولابد أن الحيوانات قد قتلت كذلك ، بطريقة أو بأخرى ، ثم يملأ القبر بأكمله بالأتربة ـ تلك هى الطريقة الوحيدة التى استطاع بها الأستاذ وولى تفسير سبب عثوره على جثث الضحايا فى صفوف منتظمة يبدو عليها الهدوء التام اذ أنه لم يتبين اية بادرة تدل على العنف أيا كان حتى ان تصفيفات شـــعور النســـاء لم تتعرض لأى تشعث ، ولعـــل الجميع لقوا حتفهم وهم فى وضـــع مائل أو وهم جالسون كما لو كانوا قد قرروا فجأة ودونما صخب الانسحاب من الحياة ، وقد استنتج وولى أيضا أن الموسيقيين ظلوا دون شك يعزفون حتى النهاية •

وكان كل فرد من أعضاء حاشية الملك ، كما كشفت أعمال التنقيب فى كل قبر ملكى وبغير استثناء ، يحمل فى يده قدحا فضـــلا عن وجود الاناء النحاسى هناك فى كل مرة ، الأمر الذى حدا بوولى الى تأكيـــد أن أفراد الحاشية لم يموتوا فى هدوء وسلام فحسب بـــل وبمحض ارادتهـــم أيضا ، ويعتقد أن الحيوانات ـ فيما يبدو ـ قد ماتت تبعا لموت سياسها غير انها لقيت حتفها بدورها فى الأماكن المخصصة لها •

ومما لاشك فيه أن دفن الأحيـــاء لم يـــكن من قبيل فكرة تقـــديم عروس تزف الى الالهة كما ظن كثير من العلماء ، ذلك ان عدد الرجال بين الضحايا التى وجدت يربو فى الواقع على عدد النساء كما أن العروس التى تزف الى الاله كانت بدون شـــك غضة جميلة الا أن وولى أكد بأن الملكة شـــبعاد كانت تبلغ زهاء الاربعين عاما ، ومـــع ذلك ينبغى الا يغيب عن اذهاننا ، بطبيعة الحال ، أن وولى اقام وجهة نظره على أساس فحصه لامرأة ماتت منذ حوالى خمسة آلاف سنة •

اما الكنوز الأخرى التى اكتشفها وولى فى المدافن الملكيـــة فانهـــا تثير الدهشة اذ أن صندوق بودرة الملكة شوباد المصـــنوع من الصـــدف

وكيسها الصغير ومكحلتها الصغيرة التى تحوى ملاخيت أزرق والدبابيس والخواتم والعقود والأساور الذهبية والتمائم الزاهية الألوان الى جانب تاج الملكة وأدوات الزينة الكثيرة المختلفة المصنوعة من رقائق الذهب التى كانت تستخدمها الملكة حلية لرأسها ، كلها بلغت من الفخامة حتى لو قيست بمقاييس العصر الحديث ــ حدا يجعل أى صائغ حديث لا يجرؤ على مجرد الشروع فى محاكاتها ، وقد عثر وولى على كؤوس ذهبية ذات أشكال جميلة فى قبرى الملكة والأمير ، فضلا عن أدوات ثمينة أخرى لا حصر لها مثل قيثارات ورقاع شطرنج وتماثيل صغيرة مصنوعة من الخشب والمعدن والحجر المرصع بالصدف واللازورد ونماذج مصغرة لقوارب وشعار ملكى مزركش مصنوع من الرخام الأبيض ، وأقداح من حجر اللازورد ، وطاسات وأحواض ، كلها جرى تصميمها فى بساطة متناهية تضفى عليها جمالا سرمديا ٠

وعثر وولى على أشياء أخرى كثيرة مثل الخناجر الذهبية والفؤوس ورءوس الرماح وأعراش العربات وحلقات الألجمة وأخيرا المجموعة الشهيرة « التى تمثل كبشا فى شجرة مزهرة » وهى عمل فنى رائع من المعادن النفيسة والأحجار الملونة ٠

ومن الصعب أن يتصور المرء شعور من يكتشف مثل هذه المقابر التى لم تمتد اليها يد البشر ، حيث يرقد الموتى فى أمان وما انفك خدمهم داخل القبر والجنود يحرسون المدخل بينما يمسك السياس بألجمة حيواناتهم والموسيقيون يحتضنون آلاتهم الموسيقية والوصيفات يتجمعن فى خشوع بالقرب من الغرفة الملكية ، أى أن هذه كانت عملية دفن جماعية لحاشية ملكية تذهب فى ولائها لسيدها الى حد الموت ٠ ولقد دخل هؤلاء الناس القبور وهم يؤمنون إيمانا راسخا بالحياة بعد الموت كما كانوا ، ولا غرو ، يحسون بمطلق الأمان وهم بالقرب من أميرهم الاله حيث لا يستبد بهم خوف أو رهبة من الظلمة الأبدية ٠

ومن بين دويلات المدن الأخرى التى ازدهرت فى سومر الوسطى فى أوائل الألف سنة الثالثة قبل الميلاد هى لجش التى تعرف اليوم بتيلو Tello مدينة الإله « نينجرسو Ningirsu » ، ولم تكن لجش سوى مدينة اقليمية ، ولكن عثورنا على عدد من الألواح الطينية أتاح لنا الاحاطة ببعض المعلومات الوافرة عن هذا المكان دون غيره ٠ لقد كان سكانها يتحدثون اللغة السومرية ويشتغلون بتربية الماشية والصيد والتجارة والصناعات اليدوية ٠ كما أن لجش ، شأنها شأن أية مدينة أخرى من مدن بلاد ما بين النهرين ، قد أقيمت حول معبدها ٠ وكان مواطنوها

يعتزون بحريتهم ويقتنون الممتلكات ويطيعون اله المدينة وكهنته بقدر ما يمكن من الحفاظ على موارد المياه وأعمال الصرف وغيرها من المرافق العامة ٠

ونحو سـنة ٢٥٠٠ ق ٠ م نكبت لجش بهزيمتها أمام بعض الحكام الأجانب ممن اجتاحوا المدينة وسيطروا على كافة أنحـاء سومر ، ومن الطريف أن نقرأ الألواح الطينية التى كتبها مؤرخ معاصر يصف فيهـا الظروف التى قدر لها أن تسود البلاد بعد ذلك ٠ فقد استـولى مأمور السفن على جميع السفن ، واستولى موظفو الماشية على الماشية ، وموظفو المصايد على المصايد وكان على المواطن الذى يتوجه بأغنـامه البيضاء الى بوابة القصر ليجز صوفها أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة شواقل (١) ، وكان يجبى عن كل حالة طلاق خمسة شواقل للحاكم وشـاقلا واحدا لمستشاره الوزارى ٠ أما أفضل الأراضى التى يملكها اله المدينـة فقد خصصت لزراعة البصل والخيار لحساب الغاصب الأجنبى وصـار الموت ذاته يخضع للضريبـة اذ كانت الأعداد الغفيرة من المسئولين الكهنوتيين تسلب أقارب الميت مالهم ، لقد كانت البـلاد بأسرها تئن تحت وطأة الضرائب بينما بات القصر يرفل فى الغنى والثراء وتضخم حريمه ٠

وعندما بلغ سوء الحال أقصاه تولى مقاليد الحكم فى لجش حاكم جـديد هو الملك أوروكاجينـا Urukagina الذى ألغى المنـاصب المتداخلة وأبطل عمل المسئولين الكهنوتيين الذين كانوا يستنزفون موارد المواطنين وعاد الكهنة من جديد خداما للآلهة كمـا صار حاكم أو «انسى Ensi» المدينـة أول خادم لمملكته ٠ وقام هذا الملك العظيم والمصـلح الاجتماعى على رعاية شئون جميع أفراد الشعب وحماية ممتلكاتهم حتى امكنه القول بحق فى شيخوخته أنه استطاع أن يرد الحرية الى شعبه ٠

ولسوء الحظ لم يدم حكمه أكثر من عشر سنوات وجاء بعده الحاكم السـومرى لوجالزاجيزى Lugalzaggisi الوافـد من دولة أومـا Umaa المجـاورة ٠ اذ اطاح باوروكاجينا ودمر الكثير من ممتلـكاته الخاصة وقتل عددا كبيرا من السكان ونهب المعابد وأسس امبراطوريـة جديدة فى أرك ، ومع ذلك لم ترتفع الأصوات بالبكاء والشكوى ، فلقد تقبل الشعب مصيره اعتقادا منه بأن الآلهة تدرى ما تفعل ٠

لكن متى دقت الأجراس تعلن هلاك السومريين ؟ الواقع أنهم لم يهلكوا قط ، وكل ما حدث لهم هو عملية اندماج كمـا اندمج الغنطورز

---

(١) اصطلح البابليون على اتخاذ وزنة من الفضة تعادل نحو ثلاثة اعشار الاوقية كوحدة لتقدير القيم فى معاملاتهم وقد اطلق على كل من هذه اسم «شاقل» او «شيقل» — المراجع

بالصينيين والاتروريون بالرومان · فعندما بلغت حضارتهم أوج مجدهـا سنة ٢٣٥٠ ق·م حلت محل دويلات المدن السومرية قبائل البدو السامية التى استقرت فى افنيم آكاد بعد هجرتها من شبه الجزيرة العربية ·

وكان سرجون الاول Sargon وهـو شـخصية تاريخية ذات شهرة أسطورية ، أول قائد عظيم استطاع توحيد هذه القبائل السامية وهزيمة المدن السومرية الواحدة تلو الأخرى ، وبذلك أسس امبراطوريه آكاد ودام عصره الذى يعرف بالحقبة الآكادية من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ ق·م وأصبح الملك الها والامبراطورية الاكادية مملكة قدسية ، ولقـد انجبت هذه الأسرة المالكة السامية سلسلة من الرجال البواسـل الصناديد ، فسرجون وأبنـاه ريموش Rimus ومانيشتوسـو Manistusu وحفيـده نارامسين Naramsin حكام دوى مقـدرة وحنكة ، بيد ان السيادة كانت للثقافة السـومرية وان كان السـاميون هم الفاتحون والحكام ·

ويقال ان سرجون نفسه هو ابن لا ايبو La ipu السامى كما يقال ان أمه كانت كاهنة والحقيقة هى أن ما تذكره الأسطورة السومرية عنها يذكرنا بأسطورة موسى · فقد وضعت الكاهنة طفلها الرضيع فى سلة صغيرة صنعت من أغصان الصفصاف وطليت بالقار وألقت بها فوق مياه نهر الفرات ، ثم عادت فى هدوء الى المعبد لتؤدى واجباتها · وعثر بستانى يدعى آكى Akki على السلة الصغيرة ، ومضت الأيام وأصبح الولد حامل كأس الملك أورزابابا Ur-Zababa ملك كيش Kish فما لبث أن خلع سيده عن عرشه ونصب نفسه حاكما على كيش بدلا منه · ثم هزم لوجال زاجيزى وعرضه حيا فى قفص أمام هيكل اينليـل فى نيبور ثم أخضع سرجون سومر بأسرها حتى غسل أسلحته فى النهاية فى مياه الخليج الفارسى · وقبل أن تواتيه المنية كان قد وصل الى البحـر الأبيض المتوسط بل والى الأناضول أيضا وأسس أول امبراطورية واسعة فى تاريخ العالم ·

لكن شعبا أجنبيـا يعرف بالجـوتيين Guti دمر ممـلكة آكاد السامية مما يعود بنا فى النهاية الى نظام دويلات المـدن والى لجش التى دانت لأسرة سومرية متأخرة قديمة · وهناك حاليا فى متحف اللوفـر وغيره من متاحف العالم تماثيل كثيرة لجوديا Gudea ، الملك الذى دانت لحكمة البلاد آنذاك ، كان هـذا الأمير يصور أحيانا وهو جالس وأحيانا وهو واقف لكنه يبدو دائما رابط الجأش مترفعا وقد طوى يديه وضم قدميه معا · وكان جوديا معماريا من الطراز الأول كما يستدل على

ذلك من المعالم الكثيرة التي خلفها ، ومن أهمها العمل العظيم الذى توج حياته وهو الهيكل الجديد الذى بناه لنينجرسو ، اله مدينة لجش ٠

وفي بداية الألف سنة الثالثة قبل الميلاد بدأ السومريون الكتابة على الالواح الفخارية ، وما أن حل النصف الأخير من الألف سنة الثالثة حتى كان هذا الفن قد تطور تطورا ملحوظا ، ومنذ ما يقرب من خمسين عاما كشفت أعمال التنقيب عن عدة آلاف من الألواح الفخارية التى يرقى تاريخها الى هذه الفترة ، وذلك بالقرب من نيبور القديمة التى تبعد عن بغداد مسافة مائة ميل ٠ ويوجد الجانب الأعظم من هذه الألواح فى الوقت الحاضر بمتحف جامعة فيلادلفيا ومتحف الآثار الشرقية باسطنبول ، كما يوجد في المتحف البريطاني ومتحفي اللوفر وبرلين بضع مئات أخرى منها كان معظمها من مشتروات تجار العاديات في الشرق ٠ وتعد هذه الألواح الفخارية كنزا ثمينا للغاية تتناول نصوصها شتى الموضوعات من شذرات من وثائق مختصرة الى ترانيم دينية وأساطير وقصص نثرية وأمثال وحكايات ٠ وفي غضون خمسين عاما فحسب لم يستطع علماء السومريات بطبيعة الحال أن يحلوا الا رموز بضعة ألواح قليلة ٠ ولقد تهشم عدد كبير منها ولكن البعض الآخر يظهر لحسن الحظ فى شكل نسخ متشابهة مما أتاح للخبراء ضمها الى بعضها فى النهاية وقراءتها ٠

ولسوف تستغرق هذه المهمة لاستكمالها بأسرها عشرات السنين ولكن ثمة ترجمات جيدة عديدة للأدب السومرى باتت اليوم فى متناول أيدينا ٠

ولقد استطاع الملك أورنمو Ur-namu مؤسس أسرة أور الثالثة ــ أن يعيد توحيد المملكة السومرية ـ الآكادية قرابة ٢١٠٠ ق٠م ، ولعله أول من حول المعبد ذا الشرفة الى البناء الشاهق الذى نسميه بالزاقورة ، ومن المرجح أن تكون زاقورة من هذا القبيل هى التى أثارت قصة برج بابل ٠

ويذكر البروفسير صموئيل نوح كرامر Sommuel Noah Kramer بجامعة بنسلفانيا ، كيف أنه عثر ، وهو فى اسطنبول فى الفترة ما بين ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ ، على قانون طريف للغاية استصدره هذا الملك ، ويعتقد ف ٠ ى كروس ، أستاذ الدراسات المسمارية بجامعة لندن ، أن كرامر قرأ اللوح الفخارى رقم ٣١٩١ من مجموعة نيبور التى توجد فى متحف اسطنبول ، وهو اللوح الذى كونه كروس يوما ما من قطعتين مهشمتين٠ لقد وضع كرامر اللوح الفخارى البنى اللون الذى لا يزيد طوله على ثمانى بوصات وعرضه عن أربع فوق مكتبه وبعد أن أمضى أياما من العمل

الشاق أدرك الباحث أنه حيال قانون من أقدم القوانين التي وجدت ، ومنه نعرف أن الملك أقصى الموظفين الفاسدين ، وأدخل موازين ومقاييس دقيقة ، وأحاط برعايته الأيتام والأرامل والمعوزين « لأن هذا الذى يملك شاقلا لا ينبغي أن يقع فريسة لذلك الذى لديه منا » Mina (ستون شاقلا) (١) ، وكل من قطع قدم رجل آخر يدفع له عشرة شواقل بينما من يحطم عظام آخر لابد وأن يدفع له مينا من الفضة • أما من يجدع أنف رجل آخر فلا يدفع أكثر من ثلثى المينا الفضية • وكان البروفسير كرامر محقا في تأكيده أن هذا القانون قد سبقته مجموعات من قوانين أخرى أقدم عهدا •

وعندما تضعضعت قوة الشعب السومرى الأكادية طفق الأموريون وهم شعب آخر من أصل سامي ، ينشرون نفوذهم من مدينة صغيرة في أعالي النهر تدعى بابل • وفي غضون قرن من الزمان دانت لهم بلاد ما بين النهرين بأسرها في ظل حكم حامورابى Hamurabi ، الملك المشرع العظيم ، ونشرت ألوية السلام والرخاء من جديد فوق وادى دجلة والفرات •

وتولى حامورابى حكم البلاد مدة اثنين وأربعين عاما دعم خلالها سيادة الساميين على أرض مابين النهرين القديمة • بيد أن تاريخ السومريين أخذ يختفى رويدا رويدا بين أطواء الماضي • ولم يخرج الى النور الا خلال القرن الحالى • وحتى مع قراءة هذه السطور ، وهى التى كتبت — حسب الأبحاث الأخيرة — بحروف تدين بوجودها الى ذلك الاختراع السومرى ، فان عمليات الحفر والتنقيب مازالت جارية •

(١) المنا كما ترى تساوى ستين شاقلا اى نحو ١٨ أوقية — ويرى البعض أن اليونان اقتبسوه عن البابليين وقسموه الى مائة قسم أطلقوا على كل منها اسم « دراخما » الذى يعد أصل « الدرهم » عند العرب — المراجع

أضواء المدينة ١٠٠٠ عام ق ٠ م ٠

اتيت الى بابل ، ولكننى لم أرك ، فكم أنا حزين !
عن لوح فخار بابلى

ان المنطقة التى تعرف اليوم بالعراق كانت تضم ذات يوم مدينتى بابل وآشور ، وهذا الأسم الذى يعنى « بلاد بين النهرين » انما يطابق مقتضى الحال تماما لأن نهرى دجلة والفرات هما اللذان خلقا ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، هذه البلاد فبفضل رواسبهما الغنية الخصبة جادت هذه المنطقة بمحاصيل غنية وبحضارات مزدهرة وبالآلاف من المدن ، بل كانت ، فى الواقع ، بداية لتاريخ الغرب عامة ٠

كان هذان النهران فى وقت ما يصبان فى الخليج الفارسى عند موضعين منفصلين لكنهما رسبا عبر آلاف السنين كميات هائلة من الطمى ودفعا كثيرا بأراضى جديدة واسعة الى البحر حتى ان مجريهما السفليين قد اتحدا فى النهاية ليكونا مصبا واحدا يبعد اليوم مسافة ٩٥ ميلا تجاه الجنوب الشرقى عما كان فى العصر الذهبى لكل من بابل وآشور ، وعلى كل باحث عن المدن القديمة ألا ينقب عنها فى هذه الأراضى الجديدة ٠ وبالرغم من ذلك فان أرض بلاد النهرين جد غنية بمدنها المطمورة وبمعابدها وكنوزها الغنية حتى انه يقدر أن يتم التوصل الى اكتشافات قيمة خلال أزمنة طويلة قادمة ٠

ولدينا اليوم فكرة طيبة عن الحياة عند البابليين والآشوريين ، أى عن عصر يقع فى الفترة ما بين ٢٥٠٠ و ٤٠٠٠ سنة مضت ، ذلك على الرغم من أنه لم يتم اكتشاف سوى نسبة تقدر بواحد فى المائة من مجموع المدن المطمورة ، ولاتزال التسعة والتسعون الباقية تنتظر عالم الآثار الميدانى

بمعوله وجاروفه ، وما انفكت تحت سطح الأرض أضرحة ملكية رائعة غنية بالذهب والجواهر والأحجار الثمينة ، كما أن هناك مئات من القلاع والمدن والمعابد تقبع على عمق يتراوح بين ثلاثين وستين قدما تحت سطح الأرض . وثمة مكتبات بأكملها فى انتظار الباحثين الذين بات فى مقدورهم فى الوقت الحاضر قراءة مضمونها دون مشقة بمجرد أن يزال الركام عنها ؛ ومن حسن حظنا أن البابليين والأشوريين استخدموا الحروف المسمارية فى كتاباتهم على ألواح فخارية قوية الاحتمال نوعا ، فلو أنها مثل مؤلفاتنا التى تطبع على ورق قابل للتلف لما أمكن أن يبقى من أثرها شىء بعد مضى أربعة آلاف عام .

وأنه ليتعذر على المرء وهو يشق طريقه وسط الصحراء القاحلة القريبة من نهرى الفرات ودجلة أن يدرك أنه فى مثل هذه الرقعة ازدهرت مدن وحكم ملوك أقوياء وأقام مئات الألوف من البشر شعائر العبادة لآلهتهم فى معابدها ، أما اليوم فهى أرض تشيع فى النفس الوحشة والرهبة ويحكمها الموت ، فليس ثمة عمود أو بهو واحد قائم ، فقد انهار كل شىء واستحال حطاما وركاما ولا ترى غير عينى ذئب يطل من جحره كما لا يقطع سكون الموت سوى عواء ابن آوى الحزين بين الفينة والفينة . وما لم يكن المرء عليما بأساليب التنقيب عن الآثار لما دخل فى حسبانه أن أسرار آلاف من الشعوب مطمورة تطويها هذه الأرض الخراب ، أو أن القيود المطمورة بها لم تنل منها عوادى الزمن على امتداد آلاف السنين ، وكلما جال الناظر ببصره فى السهل رأى تلالا ، وتحت كل تل تكمن مدينة . ولكن لماذا نقول تحت كل تل ؟

ان المدن تنمو نموا رأسيا ، ذلك أن الأخشاب والأحجار والمواد الأخرى التى يكدسها الناس فى مكان بعينه الى جانب القمامة والحطام انما تؤلف تبة هائلة عندما ـ تتعرض المدينة للدمار أو تبدأ فى الانهيار . ولكن غالبا ما تشيد مدينة جديدة فوق المدينة المنهارة ، ومن ثم يزداد التل ، ضخامة ، الأمر الذى يتعين معه أن تتم عمليات الحفر بعناية فائقة حيث ان العهود التاريخية يعلو الواحد منها الآخر ، فأقدم طبقة مكانها السفح على حين أن السطح قد توجد به قرية حديثة .

والحضارات المزدهرة تجنح الى الفناء عندما تبلغ أوجها ، فلا تلبث أن يعتريها الوهن وتصبح نهبا للمعتدين ، وعلى أى حال ما هى الحضارة اذ لم تكن فترة لالتقاط الأنفاس بين سيادة الغاب وسيادة المراعى ؟

واذا ما بلغت حضارة احدى المدن أوجها ، واذا ما أصبح أهلها لايعبأون بشىء غير رفاهيتهم ، وعندما يصبح هذا الشعب جانحا الى

السلم ملتزما بالقانون ويضيق ذرعا بالحرب ، حينئذ ينقض عليه عنصر من البدو ، من الشرق عادة ويقضى على كل مظاهر عظمته وبهائه ، وهكذا ظلت عملية ظهور الحضارات وانهيارها مستمرة آلاف السنين .

ولو أن أحدا زار بابل منذ ثلاثة آلاف عام مضت لوجد على مرأى بصره صرحا هرميا هائلا يرتفع فى الفضاء الى مائتى قدم تشرف طوابقه السبعة فى عليائها على المدينة ويتلألأ آجر جدرانه المصقول تحت أشعة شمس بلاد ما بين النهرين ، وكانت تحت القبة مباشرة مقصورة تضم ، كما يذكر هيرودوت ، منضدة ذهبية وسريرا وثيرا تضطجع عليه فتاة شابة كل مساء لتستقبل اله البابليين . هذا هو برج بابل الذى تذكر التوراة عنه أن البابليين كانوا أصلا يهدفون الى الارتفاع ببنائه حتى عنان السماء (تكوين ٢:٤٠) حتى أفسد الله عليهم ، بحكمته ، خطتهم هذه .

والى الجنوب من البرج الهرمى أقيم معبد الاله مردوخ الضخم ، وأسفل هذا الهيكل تمتد مدينة بابل ، وكانت ذات طرقات واسعة وحوارى ضيقة وشوارع تمتلىء بالقمامة وتنبعث منها رائحة كريهة تمتزج بنفحات المر ، مدينة يسودها الضجيج والضوضاء وتكثر بها الأسواق وتمتد فيها طريق مقدسة يصطف على جانبيها مائة وعشرون أسدا نحاسيا ، يفضى أحد طرفيها الى بوابة عشتروث المشهورة التى نقلها العلماء الألمان الى متحف برجامون ببرلين .

ودام العصر الذهبى لبابل من ١٧٠٠ الى ٥٦٢ ق.م تقريبا باستثناء فترات توقف فيها ازدهارها ، وتحدد بداية هذا العصر ونهايته بحكم ملكين لهما أهمية خاصة ، وهما حامورابى ونبوخذنصر . ولم يلبث تتابع الملوك البابليين أن توقف عندما سيطر عليها الكاشيون Kassites ، وهم شعب بربرى من أصل غير سامى وفد من جبال شرقى ايران وسهوله ، ولقد فرض الكاشيون سيطرتهم على بابل بعد موت حامورابى وتوالى منهم على السلطة فى عاصمة الفرات ستة وثلاثون ملكا بلغت مدة حكمهم جميعا ٥٧٧ عاما ، وفى غضون هذه الفترة فقدت بابل سيادتها على غربى آسيا واحتفظت سوريا وفلسطين باستقلالهما ، ونصب رؤساء كهنة آشور أنفسهم ملوكا على آشور .

كان حامورابى هو الذى خلف وراءه مجموعة من القوانين التى وان كانت لاتعد من أقدم مجموعات القوانين فهى ، دون شك ، أشهرها جميعا . ويخبرنا حامورابى أنه تلقى قوانينه من الله مباشرة مثله مثل موسى الذى جاء ذكره فى الكتاب المقدس ، وعلى العمود الحجرى الشهير أو اللوح المصنوع من الديوريت الذى دونت عليه قوانينه رسمت صورة حامورابى

بلحيته الطويلة يرتدى رداء يشبه الشملة الرومانية وعمامة ، وهو يجلس قبالة اله الشمس «شمش» الذى كان يستلهم منه الوحى الالهى · وأمر حامورابى بوضع هذه الكتلة الضخمة من الديوريت فى معبد مردوخ ببابل، لكن حدث خلال هذا القرن الثانى عشر قبل الميلاد أن نقلها العيلاميون الى سوسة Susa حيث اكتشفها علماء الآثار الفرنسيون فى الفترة مابين ١٧٩٧ و ١٨٩٩ ، ولعل هذا الحجر يعد اليوم أثمن قطعة أثرية فى متحف اللوفر بباريس ·

ولم يكن حامورابى مشرعا فحسب بل أديبا وكاتب رسائل ممتازا · كما كان مشيدا وفاتحا عظيما للمدن ، الا أنه كان كذلك مدمرا للمدن فهو الذى ألحق الدمار بمدينة مارى ·

وهذه الشخصية البارزة التى تعد أعظم شخصيات عصرها ظلت تحكم سومر وأكاد وأشور جميعها لمدة اثنين وأربعين عاما ، حوالى ١٧٠٠ ق·م ، وفضلا عن لوحته الديوريتية فان له رأس تمثال رائعا منحوتا من الجرانيت الأسود · فالوجه ذو اللحية والجبهة المجعدة ، والهالات التى تحيط بمقلة العين وتفصح عن صرامة وجد ، والفم والذكاء اللماح ، كل هذه الملامح مجتمعة توحى بأنه كان حاكما عظيما ورجلا واسع التجربة بالغ الحكمة · ومع أن الفنانين القدماء لم يحاولوا نقل الملامح بالدقة الفوتوغرافية ، الا أن روح الملك حتى فى يومنا هذا تتحدث الينا فى صراحة قوية من خلال هذا النصب الجرانيتى الأسود الذى يتيسر لنا الاستمتاع به فى متحف اللوفر ·

أما عن قوانينه فكانت فى حقيقتها « أحكاما قانونية » أو قرارات أصدرتها المحكمة ، لم تعد تكتب باللغة السومرية القديمة بل بالآكادية · « فالقانون والعدالة بلغة البلاد » · وكان قانون العقوبات الذى وضعه حامورابى يقوم أساسا على مبدأ مقابلة الشر بمثله ، أى « العين بالعين » فعقوبة فقء العين انما هى فقء العينين والايذاء الجسمانى يعاقب عليه بمثله · ومن يضرب أباه تقطع يده ، ومن يلطم رئيسه يعاقب بستين جلدة بسوط من جلد الأبقار · واذا قام الطبيب بعملية ناجحة حصل على أجره أما اذا مات المريض فتبتر يدا الطبيب · وكان العبيد يوسمون بعلامة مميزة والجراح الذى يزيل هذه العلاقة المميزة دون أمر سيد العبد تقطع يده ، والأدهى من ذلك أنه كان يفرض على الأطباء اجراء العمليات الجراحية لكبار المسئولين بأجر يقل عما يتقاضونه من المواطنين العاديين ، واذا ما انهار بيت وأدى الى موت صاحبه كان الاعداء مصير المهندس ، ومن يقتل فتاة غريبة يعاقب بقتل ابنته ، ومن يشهد شهادة زور أو يتهم غيره باتهامات باطلة يلقى حسابا عسيرا · ومن المؤسف أن

تقرأ أيضا أن من الممكن تقديم الأفراد للمحاكمة بسبب العرافة وكان على المتهم أن يمر « بمحنة الماء التى كانت تعنى الخضوع لحكم معدس اى أنه يذعن لقضاء الله ، ولقد عمل حامورابى جاهدا لحماية الفقراء والأرامل والايتام ، غير أن تشريعاته تعتبر ، بوجه عام ، جامدة فى كل تفصيلاتها جمود الحجر الذى نقشت عليه ٠

وبحلول هذا التاريخ كان البابليون قد حققوا انتصارات عظيمة فى ميادين الفلك والرياضة والأدب ، فقاموا بحصر النجوم وتصنيفها ، وفى عام ١٢٠٠ ق٠م كان نظامهم معروفا فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، كما أن علماء الفلك البابليين بلغوا فى ٨٠٠ ق٠م درجة من الدقة مكنتهم من أن يبدأوا فى تحديد مراكز النجوم وأوضاعها بالنسبة للشمس ، وفى ميدان الرياضة اتخذوا من الرقم ٦٠ وحدة للقياس ، وهى الوحدة التى مازالت تستخدم فى قياس الزمن ، كما أن ملاحمهم وأشعارهم انتشرت بين أرجاء العالم المعروف الذى شرع يصطنع أسلوب كتابتهم المسمارية ٠

وفى وسعنا وقت أن نبلغ عهد نبوخذ نصر فى ختام تاريخ البابليين أن ندرك أولى بوادر الانهيار ، وكان هذا الملك قد بسط نفوذه على العالم المعروف عن بكرة أبيه حتى مصر وخلق من بابل احدى عجائب العالم القديم ، لقد شيد قصورا ومعابد كثيرة ، كما أنه افاد من مياه الفرات ودجلة بشق القنوات الى قلب البلاد حتى يكسب التربة خصوبة ، وبوسع راكب الطائرة الى اليوم أن يتتبع آثار نظام الرى البابلى القديم الذى جفت قنواته ومصارفه منذ أمد بعيد ٠

غير أنه فى أواخر حكمه فى ٥٦٢ ق ٠ م افتتن بقوته وأصبح نهبا للأوهام والأرق حتى لقد خيل له انه تحول الى حيوان فانطلق يزحف على الأربع فى رجاء قصره وهو يخور ويأكل العشب ٠

أما خليفته نابونيدوس Nabonidus فلم يكن مقاتلا بل عالما يقضى كل وقته فى البحوث الأثرية ودراسة ثقافة سومر التى كانت تعد ثقافة قديمة فى عهده ٠

ويحدثنا الكتاب المقدس سفر دانيال عن الملك بيلشاصر Belshazzar الذى تشير قصته بوضوح الى الضعف والمخاوف التى تسيطر على أسرة آخذة فى الانهيار ، فعندما رأى بيلشاصر الأحرف النارية تظهر على الحائط فسر ظهورها على أنه النهاية(١) ٠٠ الموت٠ وكان أن قتل فى تلك الليلة عينها ٠

---

(١) يذكر فى الاصحاح الخامس من سفر دانيال ان بيلشاصر بعد أن شرب هو وندماؤه الخمر فى الأوانى الذهبية والفضية التى كان أبوه نبوخذ نصر قد نهبهـا من أورشليم تراءى له أن يدا كتبت على الجدران امامه كتابة لم يفهمها وقد فسرها له دانيال ، وهو أحد المسبيين ، اليهود على أنها نذير بنهايته ـ المراجع ٠

وظل الأشوريون مئات السنين فى صراع مع البابليين حول السيادة على غربى آسيا ، وكان الأشوريون وهم من عنصر شديد التقشف عظيم البأس يعيشون فى أعالى وادى دجلة وعلى حدوده الجبلية وتعد أعمال السلب والمذابح والحرائق التى قاموا بها من أعنف الفصول وأكثرها دموية فى تاريخ الانسان ، فقد قوض الملك سنخاريب Sennacherib على سبيل المثال ، ٨٩ مدينة و ٨٢ قرية ونفى ٢٠٨ آلاف من الأسرى الى خارج بلادهم ٠

وخاض غمار معركة ضارية من أجل بابل استولى بعدها على المدينة وأشعل النار فيها حتى أتى عليها تماما ، وأعمل السيف فى الرجال والنساء صغارا وكبارا فصارت الجثث أكواما مرتفعة فى الشوارع حتى تعذر الفرار على الراغبين فيه اذ وجدوا أنفسهم محاصرين قبل اشعال النيران فى المدينة ٠

وكان الأشوريون من الشعوب الغريبة المظهر اذ كانوا يتميزون بلحاهم الكثة الطويلة وشعرهم المجعد ، وقبعاتهم المخروطية وأرديتهم الطويلة ٠ ولم يشهد التاريخ كله سوى قلة من الشعوب بلغت مدى جنوح هذا الشعب الى سفك الدماء ، فكان ملوكه من القواد العسكريين ونبلاؤه من المحاربين والحرب مثار اهتمامه الوحيد ،أما ما كان لديه من ثقافة محدودة فكان منقولا عن البابليين ، وكل ما أسهم به فى مضمار المعرفة الانسانية والتقدم الانسانى لا يخرج عن محافظة ملوكه على الكثير من « آداب » بابل القديمة فى مكتباتهم ٠ لقد قضوا جل حكمهم فى حروب لا هوادة فيها مع الشعوب المحيطة بهم ، وليس مع البابليين فحسب بل ومع الحيثيين فى الغرب وكذلك مع المصريين الذين جرد عليهم سنخاريب جيشا عرمرما اجتاحه الوباء فقضى عليه القضاء المبرم (وقد جاء ذكر هذه الكارثة فى التوراة فى سفر ملوك الثانى) وارتقى الأشوريون بفنون الحرب الى درجة شديدة وباتوا فاتحين طغاة قساة ـ يقتصون من ضحاياهم أفدح القصاص ، وفى ظل حكم شلمناصر الأول (Shalmanesar, 1) فتحوا بابل نحو عام ١٣٠٠ ق٠م بيد أن سيطرتهم على هذه المدينة القديمة لم تكن كاملة حتى انه فى القرون القليلة التى أعقبت ذلك كانت السلطة على بلاد ما بين النهرين تتأرجح ما بين نينوى وبابل ٠

وفى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد أسس تجلات بلاسر الثالث Tiglath Pileser III ماسمى بالامبراطورية الأشورية الجديدة عندما

فتح بابل وأخضعها لسلطانه . وبلغت هذه الامبراطورية أوج قوتها فى عهد هذا الملك وفى عهد ولده شملناصر والغاصب سرجون الثانى الذى كان أول من سلح الأشوريين بأسلحة حديدية وكذلك فى عهد سينخاريب الثانى الجبار بصفة خاصة ، وان كانت قد بلغت أقصى اتساعهـــا حتى شملت مصر السفلى زمنا ما أثناء حكم أشوربانيبال حفيد سنخاريب .

ولم يكتب البقاء للامبراطورية الأشورية الثانية أكثر من قرن ونصف القرن استطاع بعدها الكلدانيون ، وهم من المرحل الساميين الوافدين من المنطقة الجنوبية الشرقية ، بمعاونة الميدين ، والفرس الهندو ــ أوربيين من اخضـــاع كل من بابل ونينوى (ولقد سقطت الأخيرة عام ٦١٢ ق . م) وأمكن القضاء على آخر جيش أشورى فى معركة قرقميش عام ٦٠٦ ق.م بيد أن هذه الامبراطورية الكلدانية أو الامبراطورية البابلية الثانية ، التى اتخــذت من بابل عاصمة لها كانت بدورها قصـيرة الأجـل . ففى عام ٥٣٨ ق.م وضعت جيوش الفرس بقيادة قورش الأكبر خاتمــة للسيادة السامية على وادى دجلة والفرات .

وكان الأشوريون يمثلون شعبا عصاميا متقشفا فى كثير من الوجوه اذ فضـــل عاصمته الحجرية الباردة نينوى حتى بعد فتحهــم بابل . ولم يكن من بين ملوكها من كان على علم ودراية غير أشوربانيبـــال الذى تلقى تعليما بابليا بدلا من التعليم الأشورى العسكرى .

ان التاريـخ لينتقل الينــــا عادة عن طـريق رواة غـير معاصرين له مما يصيبه فى غالب الأحيان بالجفاف والعقم ، وأما فيما يتعلق بتاريخ بابل فاننا نحصل على قصة شاهد عيان هو هيرودوت اليونانى الذى عاش قرابة عام ٤٥٠ ق.م وشاهد مدينة بابل ولم يمض على موت نبوخذ نصر أكثر من ١٥٠ عاما . وكان هيرودوت ، فيما نعلم ، مغرما بتنميق الحقائق بيد أن سرده التاريخى يتميز على الرغم من مبالغاته هنا وهناك بأنه صادر عن تجربة مباشرة ، ويذكر هيرودوت ان سور المدينة كان طوله ٤٣ ميلا أما عرضه فكان يتسع فى أعلاه لسير مجموعة من أربعة جياد جنبا الى جنب . وكان نهر الفرات يتدفق فى قلب المدينة تحف به أشجار النخيل وتنظمه عدة قناطر .. بل وكان هناك أيضا نفق محفور تحت سطح الماء يصل بين ضفتى النهر . وقد عثر فى آثار بابل على اعــداد ضـخمة من الآجر اذ كان البابليون ، مثلهم مثل السومريين ، يستخدمون الصلصال فى الغالب فى البناء بينما كان الأشوريون يستخدمون الأحجار ، وكان اسم الملك ينقش فى الأزمنة القديمة على الآجر المستخدم فى البناء وكثير من الآجر البابلى يحمل عبارة « نبوخذ نصر ملك بابل » ، ففى عهده شهدت المدينة آخر عهود ازدهارها قبل أن يبطش بها الفرس .

كما يحدثنا هيرودوت عن الملكة سميراميس Semiramis ، ملكة بابل التى نسج حولها حتى فى الأزمنة الغابرة العديد من الأساطير والقصص الخيالية حتى أصبح من المتعذر فى الوقت الراهن أن نميز بين ما هو حقيقى وما هو ضرب من الخيال • وأعرب بعض الباحثين عن شكوكهم حتى فى وجود هذه الأميرة الكلدانية • ولكن كيف تسنى لليونانيين اعتبار حدائقها المعلقة الغناء الشهيرة من بين عجائب الدنيا السبع لو أن سميراميس نفسها لم تزد عن كونها أسطورة ؟

وسميراميس هى الترجمة اليونانيـة للاسم البابلى « شامورامات » وقد اكتشف فى عام ١٩٠٩ عمود يصف شامورامات « سيدة قصر شمسى أدد ملك العالم ، ملك آشور •• » وتدل هذه النقوش على أن شامورامات كانت تتمتع بمركز فريد ، وأنها استطاعت البقاء بعد ما طرأ على الحكم من تغيير لقد وجدت فى حوالى عام ٨٠٠ ق٠م ويحتمل أنها جردت حملة عسكرية ضد الميديين ذوى الأصل الهندى الأوروبى وضد الكلدانيين كذلك •

هذا هو كل مايمكن قوله من حقائق ، الا أن الأساطير عادة ما تحوى أكثر من ذلك فهى تروى أن الأميرة كانت من أصل ميدى ولم تستطع أن تألف الحياة تحت شمس بابل المحرقة فراودها الحنين الى جبال وطنها فى الشمال ، ولذا أمرت بوضع أكوام من الثرى فوق الشرفة العليا من قصرها لانبات أنواع كثيرة من النباتات والزهور • وكان من الممـكن نمو أطول أنواع الأشـــجار • أما المياه اللازمة لريها فكانت ترفع الى هذه الحدائق المعلقة فى الهواء من نهر الفرات بوساطة آلات تختفى بداخل الأعمدة التى تحمل هذه الحدائق يعمل فى ادارتها العبيد ليل نهار • وهناك فى مستوى أعلى من المدينة وتحت ظل الأشجار الوارفة كانت تجلس الأميرة ، تلك السيدة المتغطرسة ، وقد أحاطت بها جوارى القصر •

كانت بابل تضـــاء ليلا فقد اكتشف البابليون كيف يستخرج البترول من أرض مابين النهرين • كذلك لابد أنها كانت ذات ضواح حافلة بالحدائق ، وكمثال للتدليل على ذلك نورد الفقرة التالية من رسالة تلقاها الملك قورش الفارسى فى عـام ٥٣٩ ق٠م « ان بيتنا ليبدو أجمـل ما فى العالم ، انه يقرب من بابل بالدرجة التى تتيح لنا أن ننعم بكل مزايا المدينة ، وعندما نعود الى ديارنا نتخلص تماما من الضجيج والغبار » •

وبالرغم من كل هذا ، أو ربما بسببه ، وجد الرق فى بابل ، كما كان فى الواقع قائما فى كل أنحاء العالم • وكان الثمن الذى يشترى به العبد يتحدد على أساس السن والقدرة على العمل ، لكن اناث العبيد كن أقل ثمنا من الذكور ، وغالبا ما كان السادة يرتهنون عبيدهم لدى دائنيهم

على أن يستردوا تلك السلع البشرية عند سداد الدين · كما كان بوسع المدينين تأجير زوجاتهم وأبنائهم حتى يتم سداد دينهم · ويمكن للأشخاص أن يصيروا عبيدا لأسباب عدة : اما لانحدارهم عن أبوين من الرقيق ، أو لكونهم أسرى حرب أو كضرب من العقاب أو لبيعهم أنفسهم عن طيب خاطر · وكان العبيد يخضعون لسيطرة سيدهم الكاملة اذ كان له حق التصرف فى جهدهم ومالهم وأبنائهم ، فبوسعه بيعهم وفرض العقوبة عليهم · ومع ذلك لم يكن يسمح له بقتلهم · وكان لمعظم ملاك العبيد أبناء من امائهم وكان هؤلاء الأبناء يظلون عبيدا الى أن يموت أبوهم فيصيرون أحرارا ، ومع ذلك لم يكن من حقهم أن يرثوا شيئا عن أبيهم الا اذا شهد رسميا وهو على قيد الحياة أنهم أبناؤه الشرعيون ·

وكان من واجب من يقتنى عبيدا أن يوفر لهم الطعام والمسكن ، وأن يدفع نفقات علاجهم ، وأن يكفل رعايتهم أوقات بطالتهم وشيخوختهم· وكان يحدث أحيانا أن من يقدم من العبيد خدمات يرضى عنها سادتهم يعتقون من العبودية · بيد أن نفرا قليلا غاية القلة هم الذين نالهم هذا الامتياز المزعزع الذى تكتنفه أخطار انعدام الأمن الاقتصادى ، وفى الواقع كان السواد الأعظم من العبيد راضيا تمام الرضى عن ضياع حريتهم ، فقد كانوا يستسلمون لمصيرهم استسلام من لا يعرف له مصيرا آخر فى الحياة ، بل ولم يشعروا بأسف أن يولد أبناؤهم عبيدا ، وبمرور الزمن ازداد عدد تلك الفئة المتبلدة التى حرمت من حقوقها ، ولكنهم كانوا كلما اتسعت مداركهم كلما ازدادت مقاومتهم واشتد خطرهم وخاصة عند حلول أخطار خارجية ·

ويذكر هيرودوت أن البابليين عثروا على حل لمشكلة تنظيم الزواج على درجة من الحكمة تجعله جديرا بمحاكاته فى أيامنا هذه · ففى اليوم المحدد كانت الفتيات اللائى بلغن سن الزواج يتجمعن فى السوق فيطلب اليهم مناد أن يقفن صفا واحدا حيث يعرضن للبيع بالمزاد فكانت أشدهن حسنا وجمالا تباع أولا وبأكبر ثمن طبعا ، ثم يأتى دور الفتاة التى تحتل المرتبة الثانية فى الجمال ، وهكذا الى أن يأتى دور أقبح فتاة · وكان الايراد يودع صندوقا · فما أن ينتهى النصف الأول من المزاد حتى يحصل كل راغب فى الزواج من فتاة قبيحة على مهر منها · وكان كلما ازدادت الفتاة قبحا كلما حصل زوج المستقبل على مهر أكبر · ويذكر هيرودوت : « بهذه الطريقة وفرت الجميلات رجالا للقبيحات وذوى العاهات من الفتيات » ويختتم هذا الفصل الطريف بالعبارة : « وكانت هذه أحكم عاداتهم » ·

ولكننا الى جانب ذلك نصطدم — على حد تعبير هيرودوت — بأسوأ

تقليد مارسه البابليون فقد كان لزاما على كل فتـاة فى البلاد أن تتخذ مكانها ، مرة على الاقل فى هيكل ماليتلا Mallta (١) وتستسلم لرجل غريب عنها تمـاما ، وكانت بنـات الوجهاء والأعيان يذهبن الى الحديقة المقدسة فى عربات مقفلة بصحبة جواريهن • وكان على الفتيـات جميعـا الجلوس فى صفوف منظمة تفصلها طرقات تمتد الى جميع الجهات ثم يمر بهن الغرباء ويختار كل منهـم الفتاة التى يريدها • والرجل الذى يبادر بالقاء قطعة من النقود فى حجر الفتاة يأخذها معه ، ويذكر هيرودوت أن الفتاة تصير بعد ذلك مكرسة للاله ، ثم تقفل راجعة الى دارها ولا تعود الى مثل هذه الفعلة الا اذا تزوجت • وكانت الفتيات الحسـناوات ممشوقات القوام يعدن الى منازلهن على الفور ، ولكن كان على القبيحات المكوث وقتا طويلا حتى توفين بما يقضى به القانون ، ولقد مكثت الكثيرات فى الحديقة المقدسة ثلاث أو أربع سنوات •»

وبعض الألواح الفخارية التى عثر عليها تحوى قصائد غزلية وأغانى ورسائل نقشت بالخط المسمارى ، ومن المدهش أن نجد لاحداها طابعا مميزا اذ تكشف عما يعانيه عاشق ولهان من وحدة وحنين ، عندما جاء الى المدينة الفسيحة التى لا طابع لها ليكتشف أن بيبيا ليست هناك :

الى بيبيا :

ليت الاله شمس والاله مردوخ يمنان عليك بالصحة والعافية لقد بعثت برسول ليبحث عن مكانك ، فأخبرينى بربك ، عن حالك • لقـد جئت الى بابل ، ولم أرك ، فكم أنا حزين !

ويالها من نغمة رقيقة تلك التى ينطوى عليها مطلع القصيدة الغزلية التى وجدت فى آشور « لقد أتيت بفتاة الى هنا ، قلبها أشبه بآلة ذات أوتار ، لكننى تذكرتك أنت تلك الليلة » ، وكيف كانت تلك الفتاة الجميلة التى داعب حسنها خيال الشاعر عندما كتب يقول : « لقد جئت الى الباب، فأنت نور عينى ، حتى فى هذا المساء ! حتى فى هذه الليلة ! » •

---

(١) يذكر هيرودوت أن ماليتا (أوميليتا) هى الالهة الأشورية التى تقابل الالهة اليونانية (أفروديت) ، ولكن من المرجح انه كان يقصد الالهة التى عرفت لدى البابليين وغيرهم من الشعوب السامية باسم عشتار أو عشتاروت ـ المراجع

مصر

ابر للحياكة من الطراز الأول ترقى الى ٤٦٠٠ سنة

كانت مصر فى عصور ما قبل التاريخ تبدو مغايرة الى حد كبير لما هى عليه فى الوقت الحاضر · فهى وان غدت اليوم أشد مناطق العالم خلوا وتجردا من الأشجار فانها كانت تضم فى الماضى مساحة مترامية من الريف الغنى بالأشجار فضلا عن أن مساحات شاسعة من اراضيها ، وبخاصة فى الوجه القبلى كانت تلوح أشــبه ما يكون بغابة

الكسندر شارف

لما فتح الاسكندر الأكبر مصر كان قد أمسك بأعنة الحكم فيها ثلاثون أسرة وذلك فى الفترة ما بين ٢٨٥٠ و ٣٣٢ ق·م على وجه التقريب (١) · ويحدد المؤرخ الألمانى « ادوارد مايـــر » تاريخ تأسيس الأسرة الأولى بعام ٢٢٠٠ ق·م على حين ان العالم الألمانى شارف والعالم الانجليزى هــول وغيرهما من المؤرخين بأن تاريخ مصر قد بدأ منذ ثلاثة آلاف سنة قبـــل الميلاد · وأخيرا بدأ الباحثون يجنحون الى الاعتقاد بأن مينا ، أول ملوك الأسرة الأولى قد تولى زمام الأمور فى البلاد عام ٢٨٥٠ ق·م ، ذلك التاريخ الذى يمثل بداية الثلاثة آلاف سنة المذهلة من تاريخ مصر ، ويعتبر لفظ « تاريخ » فى هذا الصدد لفظا غير دقيق حيث أن ثمة دليلا واضحا على

(١) حكمت مصر ٣١ أسرة مازال تحديد تاريخ بدايتها مختلفا فيه ، على أن احدث الآراء تميل الى أنه كان فى سنة ٣١٠٠ ـ ٣٢٥٠ ق·م أى يمكن القول بان الأسرة الاولى بدأت فيما بين عامى ٣٢٥٠ ـ ٢٩٥٠ ق·م ـ المراجع

ان ما حققه المصريون فى ميدان الثقافة من انجازات انما يرجع تاريخه الى قبل ذلك بألفى عام .

وقبل أن يبدأ التاريخ المصرى رسميا بزمن طويل ، أى بحوالى ١٥ أو ٢٠ بل ٣٠ ألف سنة ، كان الانســان يعيش فوق الجزء المرتفع من الأرض الممتد على طول النيل الذى كانت مياهه تخترق آنذاك واديا من المستنقعات . ولسنا على بينة من شكل هـذا الانسان بيد ان ما كان يستخدمه من أدوات ليس خافيا علينـا ، فأدوات العصر الحجرى القديم - وهى أقدم أدوات من الحجر عرفها الانســان - التى تم اكتشافها فى وادى النيل أو فى الصحارى المجاورة أشبه ما يكون بتلك التى أمكن العثور عليها فى جميع أنحاء شمال أفريقيا وغرب أوروبا ابان الفترة عينها ، مما يدل على انه كانت للانسان منذ ثلاثين أو خمسين بل ثمانين ألف ســنة حضــارة مشتركة ســواء وجد فى أوروبا أو فى أفريقيا أى انها ضرب من الوحـدة لم يستطع الانســـان على الاطلاق أن يرقى اليها مرة أخرى .

وفى منتصف العصر الحجرى القديم ، ومازلنا فى عصر يرجع الى ١٥ ألف سنة خلت ، تسنى للانسان أن يطور فن صناعة الأدوات من الصوان ، الذى يعد من الخصائص المميزة لمنطقة شمال أفريقيا ومصر بأسرها .

وفى أواخر العصر الحجرى القديم ، أى فى الفترة ما بين ١٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة ق . م انفصمت عـــرى الوحدة الثقافية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، تلك الوحدة التى يكتنفها الغموض وتبعث فى النفس الحيرة والاضطراب .

وعلى طول ضفاف النيل القديمة وعلى مقربة من بحيرات مصر ما قبل التاريخ أمكن العثور على مواقد من الطين وقمامة ترجع الى تلك الحقبة الى جانب عظام الأسماك والحيوانات والصدف والعاج والرماد كما أننا نستدل من الحجارة المقعرة التى تستخدم فى طحن الذرة على ان الانســان كان يصنع الدقيق منــذ عشرة آلاف عام فضــلا عن انه كان على دراية بانبات التربة وجمع المحصول . ان رءوس الرماح الكثيرة المصنوعة من الحجر والعاج والعظام لتكشف عن استخدام القوس والرمح وعلى الرغم من ذلك يبدو أنه لم يكن قــد تسنى لسكان مصر الأول حتى تلك الحقبة ، صنع الأوانى الفخارية .

وفى العصر الحجرى الحديث ، الذى يمتد ، على وجه التقريب ، من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ (١) سنة ق٠م٠ أخذ اهتمام الانسان بالزراعة يقوى رويدا رويدا وشرع يربى الماشية ويبنى الديار ويصنع الأوانى الفخارية وينسج الأقمشة ٠

لقد وقعت ، نحو سنة ٥٠٠٠ ق٠م ، ظاهرة طبيعية حين أخذت الآراضى المتاخمة للنيل تجف ووجد الانسان نفسه أمام أمرين : اما أن يستسلم للطبيعه أو أنه يبتدع ويشكل الحضارة ، وهكذا فرضت الطبيعة فى مصر على ذكاء الانسان منذ البداية مطالب عدة ، ذلك أنه حين ترك ضفاف النيل التى راحت تجف واستقر بواديه ألفى نفسه فى حاجة الى أن يروى أرضه ويقاوم الفيضانات ويقيم الجسور ويشق القنوات ، وهكذا حمل النيل القوى الانسان الضعيف على تطوير موهبته الطبيعية فى التنظيم وزوده بالحضارة قبل أن يتعرف عليها شعب آخر على وجه الدنيا بزمن طويل ٠ مما يمكننا بوجه عام من أن نقر بحقيقة ان الأنهار الكبيرة ووديانها كانت دائما أفضل معلمى الانسانية ٠ فمقابر العصر الحجرى الحديث التى أمكن اكتشافها على مقربة من « تاسا » فى مصر الوسطى توحى بأن مصريى ما قبل التاريخ أنفسهم كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى التى هى أشبه ما يكون بحياتهم اليومية على الارض ٠ فكان الميت يوضع على جانبه الأيسر فى حفرة بيضاوية الشكل حيث تتخذ ركبتاه وضع الجنين كما لو كان نائما فى الرحم وكان رأسه يتجه صوب الجنوب ووجهه ناحية الغرب ٠ أما الجثة فكانت تلف بجلود أو حصر أو أقمشة مع وضع وسادة من الجلد أسفل الرأس ، فضلا عن أن قبره كان يضم آنية مليئة بالطعام والشراب ذات لون بنى ورمادى وأسود ، واوعية دقيقة من المرمر أو الاردواز يودع بها أحمر الشفاه وكحل العيون واساور من العاج ، وعقود وأدوات دقيقة للتجمل ، ومهاريس لطحن الحبوب وفئوس من الحجر المصقول ، وسكاكين ومناشير حجرية وما الى ذلك ٠٠٠٠

ولاشك فى أن جماجم شعب قاسا وعظام فكه العريضة توضح أنه — من الناحية الانثروبولوجية — يختلف عن المصريين الذين وجدوا فى فترة لاحقة ، ومع ذلك يبدو ان مايتعلق بالموت وبالحياة الأخرى من أفكار أضحى جزءا من ثقافة مصر المبكرة التى كانت تنصب حول الحفاظ على الحياة والتى أحالت الفراعنة الى بناة أهرامات قد انبثق من هذا الفجر المظلم لعصر ما قبل التاريخ ٠

---

(١) نظرا لمعرفة المعادن — وان لم تستخدم على نطاق واسع — يرى بعض المؤرخين تقسيم هذه الفترة الى قسمين : عصر حجرى حديث ، وعصر بداية استخدام المعادن — بينما يرى فريق آخر اعتبار هذه الفترة كلها « عصر ما قبل الأسرات » — المراجع

مصر العليا

شبه
جزيرة
سيناء

هيروبوليس
هليوبوليس
القاهرة
الجيزة
سقارة

ليكونوبوليس
(أسيوط)
البداري
بانوبوليس
اخميم
كاينبوليس
(قنا)
(نقاده)
طيبة
كرنك
هيراكونوبوليس
(ادفو)
فيلة
(أسوان)
ميل
١٠٠

وفى عام ١٩٢٥ أسفرت الجهود التى لا تعرف الكلل والتى اضطلع بها عالما الآثار جيرترود كاتون طومسون ، و ج • برنتون فى البداري عن كشف حضارة ترجع الى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد على الأقل •• حضارة بلغت من التقدم ما ساعد على حرق الأوانى الفخارية فى أفران وصنع أمشاط وملاعق من أنياب فرس النهر • وكان أهل هذه الحضارة يعتمدون أساسا على الصيد وان مارسوا الزراعة بأسلوب بدائى ، كما عرفوا النحاس والذهب لكنهم لم يبلغوا ، فيما يبدو ، مرحلة صهر هذه المعادن وتشكيلها ، وكانوا يدفنون موتاهم فى قبور مسطحة قليلة الغور فى الرمال ويزودونهم بالأسلحة والطعام والشراب ، بيد ان الجثث كانت تتخذ وضع القرفصاء بخلاف المصريين اللاحقين الذين كانوا يدفنون موتاهم فى وضع ممدد ، كما ان هذين العالمين عثرا على تماثيل صغيرة لنساء ترافقن الميت • ومع ذلك بلغت حضارة البدارى مرحلة الكمال فى فن صناعة الحلى ، حيث نجد لأول مرة فن قطع الصوان الذى أضحى بالغ الأهمية فى صناعة الزجاج والخزف لدى المصريين ، بيد أن حضارة البدارى تعلمنا ما هو أكثر من ذلك اذ يستدل من آثارها على ان سكان مصر الوسطى كانوا على اتصال بوسط أفريقيا (١) ، فاستوردوا العاج من الجنوب ومن النوبة ، والصدف من ساحل البحر الاحمر والفيروز من شبه جزيرة سيناء •

وأعمال التنقيب التى تمت فى مصر السفلى تشمل ما قامت به الآنستان و • جاردنر وجيرترود كاتون طومسون منذ عام ١٩٢٥ فى الفيوم (٢) وما قام به يونكرو منجين فى مرمدة بنى سلامة منذ عام ١٩٢٨ فقد كشف عن ابر من العظم وصنابير ومغارف وملاعق وحلى ، أما المساكن فكانت تشيد فى ذلك الحين من الأغصان المجدولة والخشب والحصر • وكانت تبدو أحيانا فى شكل دائرى ، كما كان الناس يدفنون موتاهم فى مساكن أشبه بالقبور فوق الأرض حيث يشاركونهم طعامهم اليومى •

وفى الفترة ما بين ٣٥٠٠ و ٣٠٠٠ سنة ق • م ازدهرت حضارة نقادة الأولى التى سميت باسم المكان الذى اكتشفت فيه وهو نقادة Nagada بالوجه القبلى ، حيث أمكن العثور على أدوات من النحاس فى شكل شص أو حربة كبيرة تستخدم فى صيد الحيتان وعلى آنية من الخزف الأحمر

---

(١) لم يثبت ذلك بصفة قاطعة وانما يرجح أن أهل حضارة البدارى جاءوا بالصوان المستخدم فى صناعة أدواتهم من مكان ما فى جنوب الوادى ـ المراجع

(٢) اعتبر المؤلف منطقة الفيوم من مصر السفلى ويتفق معه فى ذلك بعض الأثريين بينما يعتبرها البعض الآخر منطقة قائمة بذاتها ـ المراجع

المصقول مزخرفة بحلية من اللون الأبيض ويضور أشخاص وحيوانات وطيور وسفن وأشجار ٠

وأكثر من ذلك روعة ، تلك الأواني الفخارية التي ترجع الى المرحلة الثانية من حضارة نقادة التى تعرف بفترة جوزه Gerzah ، اسم موقع أثرى آخر ، والتى ظلت قائمة فى الفترة ما بين ٣٠٠٠ و ٢٦٠٠ ق ٠ م حيث تعثر على صور لجماعات من البشر ووحوش متصارعة وطيور فوق الأشجار وتماسيح وغزلان وزرافات ، الى جانب فئوس مفلطحة من النحاس وطشوت نحاسية ، وابر للحياكة من الطراز الأول أشبه ما يكون بتلك التى تستخدمها فى الوقت الحاضر ، ومن بين الاكتشافات المذهلة أوعية ذات صنابير شبيهة بالجرار التى وجدت فى بلاد ما بين النهرين للفترة نفسها وأختام اسطوانية مزينة بوشى من رسوم للحيوانات وجرار ذات أيدى مثبتة فى جوانبها المقوسة ، وأوان على شكل حيوانات ٠ ونستدل من هذا كله على الاتصال الذى كان قائما بين مصر وبلاد ما بين النهرين فى الجزء الأول من الألف سنة الثالثة قبل الميلاد ٠

وعثر فى هيراكونبوليس (Hiraconpolis) على قبر طوله ثمانيه أقدام وعرضه ستة أقدام ونصف القدم ينقسم الى جزءين ، ولعل الجزء الأول منه يضم الجثة على حين ان الجزء الآخر كانت تودع به الأدوات العديدة التي يستخدمها ، أما جدران غرفة الدفن فقد ازدانت بمناظر للنهر والصيد والقتال والرقص أشبه ما يكون بتلك التى وجدت منقوشة على زهريات تنتمى الى عهد ما قبل الأسرات الحاكمة ٠

كما تم اكتشاف عدد كبير من المقابر الملكية التى ترقى الى فترة قريبة من فترة نقادة ، وهي بمثابة أبنية ضخمة مسطحة من الآجر ذات أركان أربعة وجدران مائلة ، بها مدخل للدفن يمتد من السطح ويخترق الأرض الصخرية مفضيا الى الغرف التى تحت سطح الأرض ٠ ولاشك أن تلك المقابر قد تطورت عما كانت عليه فى العصر الحجرى الحديث ، وهى ما يطلق عليها العمال الوطنيون فى الوقت الراهن اسم « مصطبة » حيث دفن ملوك الأسرة الأولى والثانية وهم حورس عحا ، وحورس زر ، و « مريت نيت » زوجة زر ، وحورس وادجت ، وحورس كا ؛ ومعظم الفراعنة الأول المعروفين ٠

ونترك هذا الموضوع جانبا برهة كيما نوضح كلمة « حورس » التى تضاف الى اسم الملك ٠ كان حورس فى عصور ما قبل التاريخ المعبود الأول لمصر العليا التى أخضع حكامها دلتا النيل ٠ ومنذ ذلك الفتح راح كل فرعون يطلق على نفسه اسم حورس باعتبار أنه تجسيد لالههم

الأكبر ، فأمكن بذلك توحيد الحاكم والاله · ولقد كان الصقر رمزا لحورس ·

وكان الملك مينا أقدم شخصية تاريخية في المملكة المصرية ، وهو مؤسس الأسرة الاولى ، ولم يكن هذا الملك شخصية أسطورية ولم يكن اسمه الأصلى مينا ، بل كان يعرف بلقب للتعظيم معناه « الخالد » ، كان سببا فيما وقع من اضطراب وبلبلة حول شخصيته ، وعاش مينا الذى وحد مصر العليا والسفلى فى حوالى سنة ٢٨٥٠ (١) ق · م ، ويرجح انه مؤسس مدينة ممفيس ، كما يقال انه انتزع مصر السفلى من الجنوب ، واليه تنسب المقبرة التى عثر عليها بالقرب من نقادة ·

وفى تلك الفترة من تاريخ مصر تبرز شخصيتان عظيمتان هما : الفرعون زوسر ، أول ملوك الأسرة الثالثة ، وعالم يسمى امحتب كان مهندسا وطبيبا وكاهنا وساحرا ومؤلفا وجامعا للأمثال·وفوق هذا كله كان مستشارا شخصيا لزوسر · وقد ظهر منذ ٤٦٠٠ سنة على وجه التقريب وهو الذى صمم ، ولا شك ، هرم زوسر المدرج بسقارة الذى يعتبر أقدم أثر ضخم فى مصر ·

فما حقيقة هذا الهرم المدرج ، وكيف فكر أمحتب ، المهندس المعمارى أو الفرعون زوسر فى تشييد هرم من الكتل الحجرية التى وضعت الواحدة منها فوق الأخرى على شكل مدرج ؟

---

(١) سبق أن أشرنا (فى هامش ص ٤٥) الى اختلاف الباحثين حول هذا التاريخ — المراجع

مصر

أين قبر الفرعون سخم ـ خت ؟

فوق تابوته الفارغ غصن من شجر الشهرة الضخم

عند أسفل منحدر الصحراء الغربيـة وعلى مسـافة غير بعيدة من القاهرة توجد قرية سقارة التى انحدر سكانها من شعب ممفيس عاصـمة مصر القديمة الواقعة عبر النيل مباشرة ، وفوق الهضبة يرتفع هرم سقارة المدرج شاهقا أشـبه ما يـكون بملكة تحيط بهـا شقيقاتها الكثيرات من الأهرامات التى تم بناؤها فى فترات لاحقـة ، ويبدو هرم سقارة ، شأنه شأن الأهرامات الأخرى ، بنى اللون ضاربا الى الاصفرار ، ولكنه يختلف عن غيره فى ظاهرة هامة اذ أن جدرانه قد بنيت على شكل مدرج ، وقبل عهد زوسر كان قبـل الحاكم فى هيئة كتلة ضخمة كبيرة قائمة الزوايا من الطوب يطلق عليها العـرب « مصطبة » ، ومن ثم فان بناء زوسر المرتفع الذى يتكون من ست مصاطب أقرب الى مصطبة مدرجة منه الى هرم ، وان امحتب هو الذى شيد هـذا الأثر الضخم للملك زوسر خـلال الأعوام التسعة عشر من حكمه ؛

ويمثـل زوسر وخلفـاؤه الأربعـة ملوك الأسرة الثالثـة ، ففى عام ٢٦٠٠ ق ٠ م تولى زوسر مقاليد الحكم ، وهو الرجل الذى شيد أول أثر حجرى ضخم فى العالم ، فقد كان الآجر حتى عهده المادة الوحيـدة التى يستخدمها الناس فى البناء ٠

والهرم من حيث مظهره يعد ربوة ضخمة للدفن شيدت من الحجر ، أما الأهرام والقبور المتاخمة له فانها توحى بأكثر من هذا ، فهى صـورة للمدينة التى عاش فيها الفـرعون ، وهكذا فان قبر زوسر يعـد صـورة

جديدة لمفيس مقر ملكه فى الوادى ، كما كان يبنى فى أسفل الوادى من الطين والخشب والحصر أضحى يشيد فى تلك الصحراء من الحجر .

اذن فان ما يميز زوسر العظيم عن اسلافه جميعهم هو انه أول فرعون حاول بناء هرم ، ولم يكن الهرم المدرج أكثر من جزء من مقبرة تمثل سورا ضخما يضم مبانى الحكومة ، وساحات الاحتفالات ومخازن واسعة . ومقبرة أخرى ، ومعبدا ترفع فيه القرابين للالهة .. كان هذا بمثابة مقر للملك الميت .

ويتوسط هرم زوسر المدرج فى الوقت الراهن آلاف القبور الأخرى وكأنه مازال يبسط سلطانه على رعاياه الموتى ، فى عالم الموتى ، وسط سكون الموت . وفى قلب السكون الرهيب . ومنذ عهد ليس ببعيد كشفت صورة التقطت من الجو معالم موقع اخر للدفن فى رمال الصحراء على مقربة من هرم زوسر المدرج ، فصور الجو هذه هى بمثابة صور أشعة اكس بالنسبة للأثريين فبعد سقوط الأمطار بصفة خاصة تظهر لنا هذه الصور الحدود الغامضة للمدن والأسوار والقبور التى طمرت تحت سطح الأرض منذ أمد بعيد ، فمنذ آلاف السنين ظلت ربوتان ضخمتان قائمتا الزوايا ، تقبعان فى الصحراء وحتى سنة ١٩٥١ لم ينقب أحد فى هذا الموقع الأثرى الجديد اذ لم يبدأ بذلك الا الدكتور زكريا غنيم ، كبير مفتشى الآثار فى سقارة .

ولم يدم حكم كل من خلفاء زوسر أكثر من ست سنوات ، أما الفرعون الذى بنى القبر المجاور الذى أمكن اكتشافه عام ١٩٥٤ فقد قام بما يعد غاية فى الغرابة حين حذا فى بادئ الأمر حذو زوسر وأقام هرما مدرجا ، فما أن بلغ الدرجة الثالثة حتى غير رأيه وتوقف عند هذا الحد ، فهو لم يرد أن يدفن تحت مجرد ربوة أسوة برعاة مصر العليا وبدوهم ، بل آثر أن يوارى فى منزل عادى كملوك فلاحى دلتا مصر السفلى ، ولهذا ردمت المنطقة التى يحيطها السور حتى الطبقة الثالثة ، مما أدى الى تغطية جزء من السور نفسه ، وهو الجانب الطويل الشمالى ، ثم راح يمد قبره من خلفه . فأنشأ بذلك مصطبة ضخمة طولها نحو ٧٦٠ ياردة وعرضها ٢١٥ ياردة . مساحة تفوق بكثير مساحة هرم خوفو التى لا تربو على ٢٦٠ ياردة مربعة .

وأما المفاجأة الأولى فى اكتشافات زكريا غنيم فكانت الجزء المطمور من السور الذى اكتشفه فألفاه كما كان منذ أن شيد منذ ٤٥٥٠ عاما دون أن يطرأ عليه تغيير أو يتعرض لتلف .

واكتشف غنيم فى الوقت نفسه تقريبا ثلاثة جدران مائلة كانت

تشكل ذات يوم جزءا من المصطبة المدرجة الأصليــة ، تلك الجدران التى تبدو حاليا أقل من مستوى الصحراء وتغطيها الرمال التى ظلت الريــاح تحملها منذ أربعة آلاف عام ، وكانت المعضلة الكبرى تتمثل فى ايجاد مدخل للغرفة التى تقع تحت سطح الأرض أسفل المصطبة الضخمة، فغرفة الدفن قابعة ، ولاشك ، فى مكان ما تحت سطح الأتربة المتراكمة ٠٠ لكن أين هذا المكان ؟

وفى نهاية المطاف ، عثر غنيم فى شتاء عام ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ عــلى ممر فى قلب الصخر على مبعدة ١٣٠ قدما شــمال المصطبة الضخمة ٠ وكان هذا الاكتشاف فى حد ذاته انتصارا عظيما ، فالمنطقة فسيحه بينما لا يزيد الممر و النفق على كونه شــقا مائلا صغــيرا فى البنـــاء الأثرى ، ولا يغيب عن بالنـا ، مع ذلك ، انه على بعـد ٥٠٠ ياردة فحسب توجد مقبرة الفرعون زوسر ، تلك المصطبة المدرجة التى يمكن استغلال تصميمها مرشدا يهدينا الســبيل الى القبر الجديد ، وكما ان مصطبة زوسر المدرجة زودت خليفته بنموذج يحاكيه نراها اليــوم تمد يد العون الى علماء الآثار فى المهمة التى نضطلعون بها فى الوقت الحاضر ٠

وبدأ غنيم بتطهير الممر المفضى الى غرفة الدفن ولم يتوقف عن عمله الا حين سقط جزء من السقف وقتــل واحـدا من العمال ٠ ولم يلبث أن عاود عالم الآثار التنقيب وراح يغوص فى أعماق الصخر حتى بلغ مســافة تربو على ١٢٠ قدما ، وعثر على غرفة الدفن ، بجوها الحار الخانق المشبع بالرطوبة ، حيث وجد فى وسطها تابوت ضخم من المرمر الصلب .

وسرعان ما تبين عالم الآثار حقيقتين : أولاهما ان التابوت لم يــكن فى وسط القبر تماما ، وثانيهما انه قد وضع بزاوية مائلة ، فهل يستدل من هذا على احتمال أن يكون التابوت شاغرا ؟ فليس من شـــك فى أن الريبة ، كانت تساور المصريين القدماء حول مدى أهمية نظام الدفن ٠

وحقيقة ان التابوت وجد مغلقا كانت مثار دهشة كبرى ، حيث ان جميع التوابيت الملكية التى تم اكتشافهــا فى مصر كانت قد فتحت عنوة ونهب ما بداخلها ، ومن بين مئات التوابيت التى عثر عليهــا قلة ضئيلة لم تمتد اليها يد البشر مثل مقابر توت عنخ آ ون وأوسوركن وبسوسنس والملكة حتب حراس ٠

وفى يوم السبت ، السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٥٤ أمكن خلخلة الغطاء الضخم لتابوت المرمر البالغ وزنه خمسة عشر طنا ، وفى لهفة أخذ العلماء يتفرسون من خلال الشق الأول المؤدى الى الداخــل

وراحوا يركزون ضوء كشافانهم الى قلب التابوت الذى لم يكن فارغا فحسب، بل ونظيفا تماما لم يعثر به على ما يشير الى ان شيئا وضع بداخله ٠

وما تفسير ذلك ؟ هل دفن الفرعون فى مكان آخر ؟ أم ان هذا القبر قد شيد للتضليل ليس الا ؟ وقد يرجح ذلك خاصة وان فراعنة تلك الحقبة دأبوا على بناء قبر فى مصر العليا وآخر فى مصر السفلى أسوة بما سبقهم اليه زوسر بفترة وجيزة ٠

ولنأت الآن الى كشف يقرب من أذهاننا عصر هذا الفرعون على وجه الخصوص ، فنحن لا ندرى حقيقة ما جرى فى تلك المقبرة ، بيد أن من كانوا يعيشون منذ خمسة آلاف عام تركوا لنا أثرا عجيبا هو بقايا غصن كبير كان بعد مضى خمسة آلاف عام قد تآكل حتى انه يتحلل بمجرد اللمس ، ومع ذلك يؤكد علماء النباتات انه غصن لشجرة شمرة ضخمة هى عبارة عن نبات شوكى ينتج نوعا من الشمر يستخدم لأغراض طبية ، ولعله كان يستخدم فى عملية التحنيط ٠

لكن ما سر وجود غصن فوق تابوت فارغ ؟ لعل الدفن كان مجرد عملية رمزية ومن المحتمل أن الفرعون قد واصل حكمه ، ثم دفن فى قبر آخر ٠

ولم تنته عملية التنقيب داخل هذا القبر ، فما تم حتى الآن يتسم بالعجلة والارتجال ، مما يذكر المرء على الفور بفترة حكم الفرعون القصيرة ٠ لكن أى فرعون هذا ؟

نحن على بينة من أهم لقب كان يحمله الفرعون الذى شيد تلك القبور المجاورة ، فبعض الأوانى الفخارية التى اكتشفت فى القبر الجديد تحمل لقبا واحدا هو : سخم ــ خت ٠

وهنا تبرز حقيقة رائعة جديدة عن هذا الكشف الذى يرجع تاريخه الى خمسة آلاف سنة خلت ، فاللقب « سخم ــ خت » جديد تماما وغريب على سمعنا وان كان شكله وتركيبه يضمانه الى صفوف الأسرة الثالثة ٠ فكان زوسر على سبيل المثال يلقب « نيتر ــ خت » ولفظ « خت » فى كلا الحالين معناه « جسم » ٠

ولعلنا نفترض ان سخم ــ خت كان خليفة زوسر وان المنية قد وافته عام ٢٥٧٥ ق ٠ م مما يبرر وجود قبره الى جوار مقبرة الفرعون زوسر ومشاركته اياه فى بعض المظاهر ، ولو ثبت صحة هذا الفرض لكان الملك الملقب بسخم ــ خت يدعى زوسر ــ آتوتى ، فهذا هو الاسم التالى لاسم زوسر فى قوائم أسماء الملوك المصريين ٠

وكما هو شأن جميع الأهرامات أغلق الممر الذى عبره يتم نقل التابوت الى غـرفة الدفن بكتلتين حجريتين فى مكانين مغايرين . وأمام احـدى هاتين الكلمتين عثر العلماء فى قلب الصخر على علبة حلى صغيرة . لقد استحالت العلبة ذاتها الى تراب أما الحلى الذى لم تمسسه يد فهو عبارة عن احدى وعشرين اسورة من الذهب وعقد ذهبى ، وزوج من الملاقيط الذهبية ، وصدفة بحـرية من الذهب ينطبق شفاهـــا تمام الانطبـــاق وتربطهما معا مفصـلة . وتعـد هذه الصدفة أروع مثـل على براعة فن الصايغ المصرى القديم بل وأجمل وأقدم ما أنتجته هذه الحرفة فى العالم ولا مراء ان روعة صنع هذه الصـدفة الدقيقة التى يجـل عنهـا الوصف تجعلها أبدع ما يعرض فى متحف القاهرة علما بأن قطرها أربع بوصات ونصف البوصة .

فمن تـكون الملكة أو الأميرة التى كانت تتزين بتلك الحليـة ؟ ومن هى السيدة الرقيقة التى استخدمت هذه الصـدفة فترة صغيرة تودعها الجواهر أو العطور أو أدوات الزينـة ؟ وكم هو غريب أن يتم مثـل هذا الكشف فى هذا المكان ، فى ممر يقود الى تابوت فارغ ! ويبدو ان الصدفة شأنها شأن غصن الشمر ، تدل على ان ملكا أو ربما ملكة . قد دفن فى مكان ما من هذه المنطقة .

ولسوف تستمر أعمال التنقيب والبحث سـنوات عديدة قادمة قبل أن يتسنى لنا سبر غور أسرار هذا القبر العجيب عن آخرها .

مصر

الشمس الخالدة .. مصدر الحياة

وكانت هذه الحضارة مزدهرة يوما ما ، تغذيها القلوب النابضة وتتاصل جذورها في اعماق النفس البشرية وتنبع من الايمان الحقيقي ، ومن ثم كانت جد قوية ورائعة • فحيث لا بذور لا شيء ينمو •

في غضون فترة وجيزة لا يصدقها عقل تعلم المصريون كيف ينقلون اضخم احجار عرفها تاريخ العمارة بأسره • ويشيدون اهراماتهم التى تسلب الألباب ، ولا يفصل حكم الفرعون زوسر الذى شيد مصطبة سقارة المدرجة التى تعد اقدم بناء أثرى بالحجر في التاريخ ، عن فترة حكم بناة أهرامات الجيزة الكبرى سوى خمسين عاماً ، انصرف خلالها المصريون عن استخدام الطوب وصاروا اساتذة في استخدام الحجر الطبيعي الذى لم يشهد له العالم مثيلا من قبل ومن بعد • وفي فترة تقل عن مائة عام ارتفعت عقيدة الفرعون الإله من مستوى الصحراء ومن القبور المسطحة البسيطة إلى بناء زوسر الذى يعد معجزة وهرم خوفو الذى بلغ القمة والذى يصل ارتفاعه نحو خمسمائة قدم • تلك الأهرامات التى أخذ حجمها يتضاءل بعد ذلك •

وعبر النيل ، مقابل مصر القديمة ، تقع قريه الجيزة ، وعلى مسافه خمسة أميال تجاه الغرب تشق عنان السماء على حافة الصحراء ثلاثة أهرامات هائلة ، فهي المقابر التى طبقت شهرتها الآفاق لملوك ثلاثة هم : خوفو وخفرع ومنقرع ، وتعنى كلمة خوفو « خنوم » أو « احميني » •

أما خفرع فيترجم بما معناه « اله الشمس رع » يشرق متألقا · بينما يعنى منقرع « خالد جوهر رع » ·

وأثناء زيـــارة قام بها المؤرخ اليونانى هيرودوت لمصر راح يبحث عن الفرعون خوفو الذى كان قد مضى على موته آنذاك زهاء ألفى عام والذى شيد هرمه على مقربة من الطرف الشمالى الشرقى المنحدر لهضبة صخرية وعلى مسافة أبعد تجاه الجنوب الغربى أقيم هرم خفرع فوق أرض اكثر صلابة ، أما الهرم الثالث لمنقرع فهو أصغر الأهرامات الثلاثة حجما ·

ويقول المثل العربى : « ان العـــالم بأسره يخشى الزمن أما الزمن فلا يخشى غير الآهرامات » ·

ويجـدر بمن يزور تلك الاهـرامات أن يفـكر فى أن هيرودوت « أبا التاريخ » قد وقف يوما فى ذلك المكان فى ٤٥٠ ق · م وطفق يحملق مبهورا فى تلك الآثار الضخمة ، وزاره مارك انطونيو بصحبة كليوباترا ، كما وقف به يوليوس قيصر والامبراطور سبتموس سيفروس ونابليون ان فترة ألفى عام لا تساوى شيئا ، كما ان ٤٥٠٠ سنة لا تربو على ثانية فى تاريخ تطور البشرية ، حيث يبدو وكأن الفراعنة القدماء يصافحون القياصرة المحدثين اذ أنهم جميعا عاشـــوا فى تلك الحقبة الوجيزة التى نسميها « بالتاريـخ » وحينما نعمـل حســاب الثلاثين أو الخمســين أو الثمانين ألف عام من عصر ما قبل التاريخ التى يمكن لأهل ضفتى النيل ان يعودوا ببصرهم الى الوراء ويلقوا نظرة عليها ، أفلا يبدو ان الفرعون خوفو العظيم ، وهيرودوت اليونانى بكل خيـاله الواسع ، وما أوتيه من قدرة على الملاحظة والامبراطور سيفروس القوى الشكيمة ، ونابليون ، ذلك الكورسيكى القصير القامة الطموح ، انما ينتمون جميعا لأسرة واحـدة تضمنى أنا وأنت ؟ فالأهـرامات لم تبن الا منذ ٤٥٠٠ سـنة خلت حين كان الانسان الأول الذى صنع الازميل من الصوان يعد « قديما » ·

ويربض أبو الهول الأسطورى دون حراك ، وهو نصف أسد ونصف ملك ، فوق قاعدته الحجرية على يمين الطريق المفضى من معبد الوادى الى المعبد الجنائزى لهرم خفرع ، ولعل الصخرة البـارزة فوق سطح الأرض هى التى حدت بالفرعون أن ينحت منها التمثال العملاق الذى كان يراود خياله · ويطـل الكائن البشرى ــ الحيوانى على منظر طبيعى متغير ، فاذا هو يغدو كما لو كان يبتسم ويحتفظ بسر دفين فى آن واحد ، وثمة من رسم أبا الهول وصوره وقاس أبعاده ، فطوله ٢٣٠ قدما وارتفاعه يزيد على ٦٥ قدما كما يصل طول اذنه الى أربعة أقدام ونصف القدم ، واتساع فمه ثمانية أقدام على وجه التقريب · ونحن نعرف هذا كله عن أبى الهول

والذى لم نكن نعرفه حتى عهد قريب فهو شخصية الرجل الذى أقام هذا التمثال الذى يعد أكبر تمثال فى العالم والذى يربض على مقربة من معبد الوادى للفرعون خفرع ، أسفل هرمه ناحية الشرق ، وتؤكد أحــدث الأبحاث ، فيما يبدو ، ان خفرع هو الذى بنى أبا الهول ، فعلى أى أساس يستند هذا الاستنتاج ؟ ان مفتاح هـذا السر يكمن فى هرم الفرعـــون سحورع الذى تقلد أمام الأمور نحو ســنة ٢٤٣٠ ق ٠ م فى ظل حـكم الأسرة الخامســة حيث عثر فى المعبد المجـاور على صورة يبدو فيها الملك كأبى الهول وهو يجهز على أعدائه ـ فان كان الفرعون سحورع قد صور بالقرب من هرمه كأبى الهول ، فمن المنطق أن نفترض أن تمثال أبى الهول بجوار معبد الوادى لخفرع لا يصور غير الفرعون خفرع نفسه ويقطع بأنه هو الذى بناه ، ومن ثم فان أبا الهول العظيم ليس تجسيدا لاله الشمس « رع » كمــا يعتقد بعض الباحثين لكنه يمثــل الملك خفرع الذى لا يزال هرمه يظلله ٠

ورغبة من الملك خوفو ، والد خفرع ، فى أن يقهر الزمن نفسه ويشيد للخلود أقام أكبر هرم فى مصر ، وكان على مائة ألف من رعايا الملك أن يعملوا ثلاثة وعشرين عاما دون توقف كى يضمنوا لمليكهم حياة سرمدية وأن ينقلوا ما لا يقــل عن مليونين ونصف المليون من الكتــل الحجـــرية الضخمة المنحوتة من قبل الصخر التى يصل وزن بعضها الى ١٥٠ طنا ، علما بأن أكبر سيارة نقل حديثة تتراوح حمولتها ما بين أربعين وخمسين طنا على الأكثر ، وكان لابد من نقــل هذه الكتل الضــخمة عبر مسافات طويلة ، فبعضــها كانت السفن تحمله عبر النيل مســافة مئات الأميال قبل أن يجذب ، فى النهاية ، من فوق سلسلة من المنحدرات ، اذ كان محجر الجرانيت الرخو فى أسوان على مسافة ٥٠٠ ميل من الهرم ٠

أما قاعدة الهــرم فقد بنيت من حجــارة اقتطعت من الاقليم المحيط بالمنطقة ، وليس بوسعنا اليوم أن نتصــور ما كان يثيره الطلاء الأبيض للهرم فى النفس من مشاعر ، ذلك الطلاء الذى أضفى عليه ، ولا غرو جمالا خارقا ٠٠٠ تصور ذلك المنظر المشرق الوضاء تحت قبة مصر المشمسة الزرقاء ، فقد كان هذا الطلاء من حجر جيرى بياضه ناصع كالثلج أتوا به من الشرق عبر وادى النيل ابان الفيضان ٠ ويبلغ ارتفاع هذا الصرح الهائل نحو ٥٠٠ قدم ، كما انه يضم أقل قليلا من ٥ر٣٠٠ر٠٠٠ مليون ياردة مكعبة من الحجر ٠

ومن يقرأ عن الأهرامات ، حتى فى يومنا هذا ، يغدو وكأنه يسمع فرقعة السياط وأوامر المراقبين المتجبرة القاسية ، وصوت اللعنات والأنين

وهذا لم يحدث فى الواقع ، ففى العصر الذهبى « للمكة القديمة » كانت حياة الفرد تنحصر فى شخصية الفرعون الآله فمن طريق الفرعون بات لحيات الانسان هدف ، وبمواصلة الفرعون حياته بعد الموت يصبح لحياة الفرد أمل ورجاء ، ومن ثم لم يعمل المائة ألف عامل تحت تهديد السياط وحدها بل بدوافع من العقيدة الدينية أيضا ، فما من ضرب أو عنف مهما اشتدت وطأته بقادر على أن يولد ذلك الحماس الذى عبر بحرية ويطيب خاطر ، عن فكرة ألوهية الفرعون بالحجر ، ولم يكن فى تلك الأيام هدف غير هذا الهدف أو مهمة أخرى من شأنها أن تستحوذ تماما على طاقات الشعب المصرى كبناء الأهرامات التى لم يخل بناؤها بالطبع من قسط من القسر والالزام ، ولقد تولى الكهنة والمسئولون تلك المهمة اذ كانت المدينة الخالدة لملكهم — الاله الميت — تستحق ، دون جدال أية تضحية مهما عظم شأنها ، وكان اذا لقى الفرد حتفه أثناء العمل تأكدت الحياة الخالدة للفرعون الذى يكفل للعامل حياة الخلود ، ومن ثم يصبح بوسع المرء ، الذى لا حول له ولا قوة ، أ نيقيم حياته على نظرية منطقية للعالم يبدو كل شىء فى ضوئها معقولا دونما ضياع لشىء كما يذهب عن الموت رهبته ورعبه ٠

وغنى عن البيان ان هذا الاتجاه البناء لم يعمر طويلا ، فقد كانت الفترات التى سادها القلق والشك والوهم عبر تاريخ الانسان أطول من تلك الفترات الخلاقة التى عرف فيها المرء مكانه فى الكون ٠

ولم يحلم الفراعنة يوما بتحقيق الشهرة عن طريق أهراماتهم ولم تنتابهم رغبة فى أن تحظى مبانيهم الأثرية باعجاب ذريتهم ، كما لم يراودهم خاطر أن يخلقوا فنا معماريا خالدا ، وكل ما كانوا يبتغونه هو الحياة بعد الموت ، ليست حياة متواضعة على شاكلة حياة الدنيا وانما حياة طابعها العظمة والأمان والاستقرار والخلود ، كان الفراعنة ، شأنهم فى ذلك شأن كل مصرى خلفهم ، يؤمنون بأن كائنا ثانيا يسكن الجسد هو (القرين) وقد يموت الجسد لكن القرين يظل حيا بغض النظر عما يحدث — فاذا لم يكن للقرين جسد سكن وأضحى عديم الحركة الأمر الذى تعين معه حفظ الجسد الميت وصونه من الفساد والتحلل مهما كان الثمن — هذا هو ، اذا ، الهدف من بناء الأهرامات وما بها من غرف للدفن ، اذ كان من المفروض أن يرقد بها الجسد المحنط الى الأبد ودون تغيير حيث ان الأهرامات ستظل راسخة عبر الأجيال ٠ فهل أفلح الفراعنة فيما ذهبوا اليه من خطة خيالية ؟ ٠

وفى غضون ٤٥٠٠ سنة فقد هرم خوفو من ارتفاعه ما يقرب من اثنين وعشرين قدما، فالرياح وان كانت تعمل ببطء الا انها دائبة على التعرية

بشكل محسوس وملموس . وهكذا لم يعد للسطح الاصلى من هذا البناء العظيم وجود . وما انفك أهل تلك البلاد يحرقون هذه الحجارة لتحويل الحجر الجيرى الى جير وما زالت عملية التعرية والتجريد مستمرة حتى يومنا هذا . بيد السلطات المختصة تحظر على الفلاحين نقل أى حجر جيرى من المعابد الجنائزية أو المدافن كما انها تحمى الحجارة المنقوشة ولا تسمح الا بنقل ما لا يحمل أية نقوش منها .

وأى فرد يهبط الآن الدرجات العديدة المؤدية الى غرف الدفن فى قلب الأهرامات (الدرج فى هرم خوفو يقود الى أعلى) يدرك عبث صراع الانسان ضد عوامل الزمن والطبيعة المدمرة ، فهناك يقف المرء بقلب خافق فى سكون اللحد الرهيب وصمت القبر المطبق. لقد اتخذ خوفو ذات يوم مكانه فى تلك الظلمة الكثيفة تفصله عن العالم جدران يتعذر على القنابل أن تحدث بها صدعا حتى فى الوقت الراهن . ولا يزال تابوت الفرعون الجرانيتى قائما غير انه مفتوح ، فقد تعرض القبر للسلب ، وسرق جثمان الملك ولم يعثر له على أثر فبعض الفراعنة الذين أرادوا كخوفو ، الهروب الى الأبد من أعين الناس ، قد انتزعوا من قبورهم ، بل ونهبوا عند موتهم أو تركوا فى مكان ما من الصحراء يتحللون ، ولعل الرياح ذرتهم الى السماء رغاما على حين ان البعض الآخر ما زال فى صناديق زجاجية رثة ببعض المتاحف حيث تحملق فيهما أعين البشر الواجفة المرتجفة ...

ولعل الثلاثة آلاف سنة من تاريخ مصر تبدو انتصار مذهلا فى فن الحياة والمحافظة على النفس والثقافة ، بيد ان ثمة أجناسا أخرى تعرض هذا الايقاع العجيب نفسه للثلاثة آلاف عام . فتاريخ أى شعب بلا استثناء يبدأ بفن الكتابة وبعد أن يبلغ ذروة مجده الثقافى يمر بفترات من السيطرة الأجنبية وحين يتعرض للهزيمة يمتص ويذوب فى غيره من الأجناس . وفى منتصف فترة حياته على وجه التقريب أى بعد ١٥٠٠ سنة أو نحوها ، يبدأ بمرحلة يدين فيها للعسكريين والمستبدين ، ويعود ثانية الى الحضيض ويتبوأ بعدئذ مكانة عظيمة جديدة ثم ينهى تاريخه بعد ثلاثة آلاف عام على وجه التقريب ، واذا حددنا بداية تاريخ اليونان بعام ١٤٠٠ ق.م ونهايته بسنة ١٤٥٣ بعد الميلاد حين ألحق محمد الثانى الهزيمة ببيزنطة لاستبان لنا فترة الحياة الهامة فى تاريخهم بنحو ثلاثة آلاف عام (١) . وهذا شأن أوروبا وأمريكا فلو اننا افترضنا أن تاريخ

(١) يميل الكاتب الى القول أن تاريخ حياة اى أمة يستمر نحو ثلاثة آلاف سنة ، واعتبر الأوربيين أمة تخضع لهذه القاعدة » غير أن ما ساقه من الأدلة غير مقنع ولا كاف اذ لم يشر الى تاريخ بلاد النهرين وايران وآسيا الصغرى وغيرها اذ أنها لا تخضع لمثل هذه القاعدة ـ المراجع

الحضارة الغربية قد بدأ عام ٤٥١ بعد الميلاد بمعركة شالون حين ألحق ديتيوس Detius ومعه الرومان وخلفاؤهم القوطيون الغربيون الهزيمة بعطيل Attila وهزم معه شعب (الهون) وأنقذ الغرب من المتبربرين من سهول آسيا ، ولو اننا أخذنا بهذا الفرض لاعتبرنا أنفسنا اليوم فى منتصف دورتنا التاريخية وهى ثلاثة آلاف عام • لقد بلغنا عصر العسكريين والمستبدين ، ولعلنا ننتظر حروبا ودمارا يعقبه عصر ذهبى • وطبقا لهذه النظرية لا تزال أوروبا بعيدة عن انهيارها النهائى وعن ساعة احتضارها فلا نبرح أمامنا حقبة يبلغ مداها ١٥٠٠ سنة •

لقد أنجبت مصر القديمة حكاما عظاما • بعضهم استبد به الشر والبعض الآخـر تملكته نوازع الخـير ، فريق قاس لا يرحم وآخـر رحيم رءوف ، بعضهم فاتحون عتاة والبعض رجال يتسمون بالحكمة ورقـة المشاعر مثـل بنت كاورع وسنوسرت الأول وامنحتب الرابـع الذين أولوا الأدب والفن اهتماما بالغا • فتمثال خفرع يمثل رجلا صلفا لا يعرف الخوف ذا عينين ثاقبتين •• تمثال من الحجر يستقر حاليـا فى متحف القاهرة كما يوحى هرم خفرع بدوره بعزيمة قوية لا تلين •

وهناك امنمحات Amenemhat الاول الذى امسك بأعنة الحـكم فى عصر ازدهرت فيه الفنون وظل على قيد الحياة حتى حوالى ٢٠٠٠ ق•م وفى السنه العشرين من حكمه أى فى ١٩٧١ ق•م ، أشرك هذا الفرعون الحـكيم ابنه ، سيزوستريس الأول ، معه فى الحـكم وظل الأب والابن يحكمان معا زهاء عشر سنوات • وكرم امنمحات الأول آمون اله طيبة ، فجعله جزءا من اسـمه ، وما أن أردى الفرعون قتيلا حتى قـرر ابنه سيزوستريس المبادىء التالية : « كن قاسيا مع رعاياك ، فالناس لا تطيع غير من يستخدم القوة ، لا تدن من أحد الا ومعك حرس ، ولا تتخذ من أحد أخا لك ، لا تثق بالأصدقاء ، وحين تأوى الى فراشك شدد حراستك فالمرء لا يجد صديقا واحدا وقت الشدة » •

لقد انتقلت الينا تلك المبادىء عن طريق بردية ميلنجن Millingen الشهيرة التى ألفهـا الفرعون سيزوستريس وان كان ينسبها الى أبيـه امنمحات •

وعلى مسـافة ما يقرب من ثلاثين ميلا جنوب ممفيس ، غرب قرية اللشت Lisht بمسـافة قصـيرة ، أقام سـيزوستريس هرمه من

الآجر ، مع أنه استخدم الكتل الحجرية التى نقلت من معبد خوفو الجنائزى فى بناء الجزء الداخلى • ولم يعثر يوما على مومياء سيزوستريس ، اذ كان قبره قد تعرض للسلب والنهب •

وفى هذه الأثناء حفر المصريون قناة تمتد من النيل الى البحر الأحمر « قناة السويس » لعصر ما قبل المسيحية •

وجدير بالذكر أنه قد عثر فى معبد سيزوستريس الجنائزى على كميات هائلة من المواد الغذائية والمؤن والزهور ، وهى ما كان يزود به سائر الفراعنة الراحلين غير أنه فى هذا المعبد ، دون سواه ، ظلت تلك الأشياء على حالها دون أن تمسها يد وهى عبارة عن : طيور مازالت تحتفظ بريشها وأخرى تجردت منه ، وضلوع من اللحم وخس وخيار وعدد لا بأس به من الأرغفة ، وزهرات اللوتس البيضاء والزرقاء ، هذا الى جانب صور لقصابى الملك وهم ينحرون الثيران ويعدونها ، أما التمثال الخشبى لسيزوستريس الذى يبلغ ارتفاعه حوالى قدمين فيصور الملك بتاجه الأحمر وصولجانه وقد ارتدى وزرة قصيرة (١) لا تستر الجزء الأعلى من جسمه وساقيه . ويبدو التمثال طبيعيا ومماثلا للواقع على نحو يدعو الى الظن بانه عمل حديثا فيقف المرء مشدوها أمام ما أظهره فنانو تلك الفترة من براعة فائقة وقدرة على ابراز روح النماذج التى يقومون برسمها •

ان كل حضارة انسانية متقدمة هى أشبه ماتكون بجزيرة فى بحر من الهمجية ، وحدث فى حوالى ١٦٧٥ ق٠م ، أن انطلقت قبائل البدو من آسيا وقهرت مصر وبسطت سلطانها على وادى النيل كما فرض الكاشيون سلطانهم قبل ذلك بفترة وجيزة ، كما حدث بعد أن هزم الرومان اليونان وغزا الهون ايطاليا ، وسلب المغول بكين فى فترات لاحقة •

فمن هم أولئك الغزاة ؟ لقد سجل الكاهن والمؤرخ المصرى مانيثون Manethon ، الذى ظهر فى الفترة ما بين ٣٠٠ و٢٨٠ ق٠م ، هذا الغزو الأجنبى الذى أعقبه قيام امبراطورية ملوك وطنيين ، وأكبر جزء من هذه القصة نجده فيما سجله يوسف Josephus وان كان هذا المؤرخ لسوء الحظ ، قد أعاد كتابة جانب كبير منها من وجهة النظر الاسرائيلية أما قصة العامو Amu ــ بدو مدينة أوراريس auaris الذين غزو شمال مصر ــ الأقرب الى التصديق ، فمصدرها الملكان المصريان كاموزا Kamosi وأحمس Ahmosi والملكة حتشبسوت ، فلو

---

(١) رداء قصير يحيط بالجسم ممتدا من البطن الى الركبتين تقريبا ، وهو الزى التقليدى للمصرى القديم وكان يعرف باسم الشنديت أو الشنتى ــ المراجع

كان الهكسوس هم العامو حقا أو الملوك الساميون السوريون ، فيرجح أنهم كانوا اما كنعانيين Canaanites او الخوريين Hurrites . أنفسهم الذين غزوا بلاد ما بين النهرين عام ١٦٨٠ ق ٠ م واقاموا امبراطورية الميتانيين العظيمة فوق أرض دجلة والفـــرات ، وحقيقة أن الهكسوس استطاعوا أن يلحقوا الهزيمة بمصر فذلك مرجعه الفوضى التى ســبقت قدومهم بعشرات السنين ٠

ومن الحقائق المسلم بها أنه ما أن استقر الفاتحون بوادى النيـل الخصيب حتى ترهلوا وأصبحوا كسالى وضعافا ٠ وفى ظل آخر حكام الاسرة السابعة عشرة راح المصريون من طيبة يناضلون من أجل تحـرير بلادهم ، وفى فجر تاريخ الاسرة الثامنة عشرة طرد الفراعنة الهكسوس من البلاد ، وآقاموا فى نهاية المطاف مملكة قوية مترامية الأطراف ٠

ومن أبرز شخصيات تلك الحقبة ملكة تدعى حتشبسوت ســبق ذكرها ظلت تحكم البلاد فى الفترة ما بين ١٥٠١ و ١٤٧٩ ق٠م ، ولما كان من المعين أن يكون حكام مصر جميعا من أبناء الاله آمـون لم يخطر ببال أحد ان امرأة يمكن أن تتولى مقاليد الحكم ، واستطاعت الملكة حتشبسوت حل تلك المشكلة باعلان أنها رجل وأنها ابن الأله ، وأمرت بأن تصور وهى ترتدى ملابس الرجال وقد وضعت لحية مستعارة ، واهتمت حتشبسوت بمعبد الكرنك ووسعته حيث أقامت مسلتين كبيرتين ، كما شيدت لنفسها معبدا جنائزيا رائعا فى الدير البحرى ، ثم أمرت شأنها فى ذلك شـأن أبيها وجدها من قبلها بنحت مقبرة ثانية سرية لنفسها فى صخور تلال النيل الغربية ، وهى منطقة باتت تعرف فيما بعد بوادى الملوك ، حيث حفر فى صخورها ستون قبرا ملكيا ، وجاء الوقت الذى قامت فيه على ضفتى النيل ، عند طيبة ، مدينة هائلة تضم ضفتها الشرقية الاحياء ، بينما يرقد الموتى بالضفة الغربية ٠

وأسس تحتمس الثالث ، الاخ غير الشقيق للملكة الشـــهيرة (١) حتشبسوت امبراطورية امتدت حدودها من السودان حتى نهر الفـرات ، وتزوج تحتمس ، اقوى فرعون فى عصره من حتشبسوت وهـــو فتى صغير ، وكانت حتشبسوت يستبد بها حب السلطة فأمسكت بأعنة الحكم لكن لم تمض بضع سنوات حتى وافتها المنية أو لقيت مصرعها ، فما كان من تحتمس الا أن أزال كل أثر « لأخته المحبوبة » واذا بهذا الاجراء يبدو فى الواقع ، كما لو أنه أطلق العنان لقوته الجبيسة فقهر فلسطين بأسرها

---

(١) يميل معظم المؤرخين الآن الى أن تحتمس الثالث ليس اخا لحتشبسوت بل ابن اخيها ــ المراجع

وسوريا ، ودانت له الدول جميعها حتى نهر الفرات ، وفوق معبد الكرنك نقشت أخبار حملاته العسكرية التي دامت ستة عشر عاما .

وكان امنحوتب الثاني صيادا ماهرا وفي رمى السهام بارعا . لقد أخمد بنفسه ثورة في سوريا وضرب مثلا متوهلا في معساملة الفراعنة القاسية لاعدائهم ، ويقال انه اتى بسبعه ملوك آسيويين مكبلين بالاغلال الى طيبة ، حيث شنق ستة منهم بعيدا عن أسوار المدينة ولقـى الملك السـابع حتفه شنقا فيما بعد في نباتا Napata بالسودان : كان هذا الفرعون ، على ما يبدو ، دائم التهور ولا مراء انه أضاف الى الأعمال الحقيقة التي سجلها ابان السنوات الستة والعشرين والتي قضاها متربعـا على العرش الكثير من وحي خياله الخصب كما يزهو بذلك . وبين مخالب ابي الهول العظيم نجد لوحا يصور امنحوتب الثاني كرام للسهام .

وتولى امنحتب الثالث زمام الحكم بعد عام ١٤٠٠ ق.م ، وتحت لوائه بلغت الامبراطوريه ذروة الرخاء والثراء والترف والأبهه ، وكانت طيبة مدينة رائعة كباريس الحديثة ، فكانت السلع المستوردة من ربوع الأرض قاطبة تباع في أسواقها ، كما أن معابدها الفسيحة الارجاء بأبراجهـا الشاهقة كانت تبارى أضخم المباني بأكبر المدن .

وكانت عشرات الدول التي تدين لسلطان الفرعون تقدم له الجزية كما كان حكام ممالك آسيوية عظيمة ، كالميتانيين وآشور وبابل والحيثيين يبعثون ببناتهم الى حـريم امنحوتب اذ كانوا يحسـبون انفسهم من المحظوظين لو أنهم ظفروا بصداقته وكانت معابد طيبة تزخر بالذهب كما كانت المدينة تضم فيلات ناضرة وقصورا فسيحة منيفة وبحيرات صناعية بطريقة تفوق ما عرفه العالم . وشيد امنحوتب الثالث معبد الاقصر وأقام تمثالي ممنون الضخمين لحراسـة معبده الجنائزي الكبير (ولم يبق له اليوم أثر بعد عين) المطل على السهل غربي طيبة .

ورغما من ذلك فقد كان ابن امنحوتب الثالث وزوجه تي (Tiy) التي لم تكن من منبت أصيل عريق ، أروع شخصية بين الفراعنة . فلقد اعتلى امنحتب الرابع العرش في ١٣٣٠ ق.م وهو لم يزل في الرابعـة عشرة من عمره واضطلعت أمه تايا (Taia) الحكيمة بتدبير شـئون الدولة مؤقتا نيابة عنه .

وكان أمنحتب الرابع منذ فجر شبابه من المتحمسين لعبادة رع اله الشمس في هليوبولبس . وربما كانت ثمة منافسة قديمة بين عبادة رع بهليوبوليس وعبادة آمون بطيبة ، وكان الاله رع ، ولا غرو ، أقدم من آمون الذي لم تظهر أهميته الا ابتداء من الاسرة الثانية عشرة ، ولم يحدث ، حتى

ذلك الوقت صراع سافر بين الالهين فقد كان لكل منهما مكانه في هيكل جميع الآلهة ، لكن مركز آمون آخذ يقوى اذ كان ينظر اليه على أنه تجسيد لرع ومن ثم بات يعرف بآمون رع(*) .

وكرم الفرعون الشاب اله الشمس وخاصة في ظواهره المنظورة مثل قرص الشمس أو آتن Aten وكان ينظر الى آتن على أنه المصدر المنظور للحياة بأسرها وللخليقة عن بكرة أبيها وللنمو والعمل ، وراح الملك يقيم المعابد في كل مكان لاله الشمس بل وتكريما له أطلق على نفسه اخن ـ آتن الذي يعرف اليوم باخناتون ، وبعد سنوات من التوتر والصراع الدائم مع كهنة آمون هجر الفرعون عاصمته « طيبة » وأقام مقره الجديد على مقربة من العمارنة وأطلق عليها آخت ـ آتن أى « مدينة أفق آتن » .

ونظم أخناتون أجمل قصيدة عرفناها في الأدب المصرى بأسره تقول : « أيتها الشمس الخالدة ، مصدر الحياة ، انك تصعدين فوق جبل النور السماوى بجلال وبهاء ... خلقت العالم على شبهك ، وتقدمين الغذاء دائما أبدا للكائنات الحية جميعها ، وجعلت لكل أجل كتابا ، فأنت خفقات قلبي ، ان كل ما نراه في ضوئك سوف يضمحل ، أما أنت فستحيين وتتألقين أبد الدهر » .

وقصيدة آتون هذه تصادفنا باستمرار على جدران للمقابر والمعابد بل وفي كل بقعة من أرض مصر شنيد فيها أخناتون .

وبوسع المرء أن يتصور ما انطوى عليه انتقال الفرعون وحاشيته بالنسبة لشعب طيبة القديم ، كما يمكنه أن يدرك خوف كهنة آمون واستياءهم لتوقعهم أنهم سيفقدون ما كانوا ينعمون به في حضرة مليكهم من مجد وسؤدد ، وكأن ذلك لم يكن كافيا ، فأصدر اخناتون أمرا يقضي بمحو اسم الاله من الأماكن المقدسة جميعها الى جانب القضاء على كل ما ينتمي لآمون ولا يصلح لعبادة آتون ، وانمحى اسم آمون من كل مكان وحذف من محفوظات الدولة كما طلب الى المسئولين عن السجلات التثبت من أن اسم الاله آمون قد اختفى من وثائق البردى بلا استثناء ، وفقد

(*) كان المصريون قبل الأسرات يعبدون آلهة لا عدد لها اذ كان لكل منطقة ـ مهما كانت صغيرة ـ على طول نهر النيل اله أو أكثر ، ولقد دونت أسماء ما يربو على الالفين من هذه الآلهة البدائية ، ولم يتبوأ مكان الصدارة من بينها سوى عدد ضئيل مثل رع اله الشمس في هيليوبوليس ، وحورس الاله الذى رأسه صقر وآمون أكبر آلهة طيبة ، وأوزوريس اله الموتى وزوجه ايزيس اللذين فاقا الجميع أهمية وعظمة الى جانب سيت اله الشر ، ومع ذلك لم تفقد الآلهة المحلية تأثيرها حتى عندما كانت الدولة تفرض عبادة الاله رع أو آمون أو أوزوريس ، كما باءت بالفشل جميع المحاولات التى قام بها الكهنة لوضع نظام دينى موحد .

كهنة آمون مراكزهم الرسمية وانقطع عنهم موردهم ، ولم يكن يسمح بعبادة أحد غير اله الشمس المنظورة واجتاحت مصر موجة تحطيم الصور والتماثيل الدينية على نحو لم تشهد له مثيلا ·

فكيف استطاع الفرعون الشاب أن يضطلع بمثل هذا الاصلاح الجذرى ؟ هل كان متعصبا دينيا ؟ وهل كان كهنة رع وراء ما جرى ؟ أم ان أمه « تى » كانت السبب ؟ وهل كانت ثمة اعتبارات سياسية رشيدة حملته على ذلك ؟

ان فرضا واحدا من هذه الافتراضات لا ينطبق على شخصية أخناتون فقد كان رسول عهد جديد ، ورجلا مثاليا يعمل بوحى من عبقرية متوقدة كامنه فى أعماقه · ومن ثم تمثلت فيه حقبه تاريخيه تمخضت ، وهى وشيكة الانهيار ، عن قوة خلاقة متفجرة ، فقد ظهر عصر جديد للتقدم الفنى ، وما انتجته دور الصناع فى « أخيتاتون » فى غضون تلك الحقبة ليعد من أروع الأمثلة المعروفة للنحت المصرى · وبذلك نصل الى مرحلة العمارنة ·

لقد أعادت حقبة العمارنة هذه اكتشاف الطبيعة ، فشجعت وسائل التعبير جميعها وبعثت الحياة فى أوصالها · فأضفت العمارنة على الفن المصرى طابعا انسانيا وقد تأثر بشدة بكريت كما أنه حطم الكثير من القوانين الجامدة التى كان من المتعذر تجنبها قبل ذلك · فأصبح الفرعون، ذلك المخلوق المقدس الذى لا يدنو منه أحد ، فجأة كائنا بشريا حياته فى متناول العامة بل وأضحى تصويره وهو يضطلع بمهام الدولة أمرا ميسورا ، وانزاح حجاب السرية الذى كان يفصل الدور الملكية لزوج الفرعون فظهرت نفرتيتى الشهيرة ، ومازالت لهذه الملكة صور كثيرة بديعة اذ كان قد سمح للفنانين بتقليد الطبيعة بصدق واخلاص وأن يرسموا وينحتوا أشكالا تمثل ما يرونه فى الحياة الواقعية · ومن ثم توفرت لدينا مثل هذه التماثيل الرائعة لنفرتيتى بكل بهائها التام ، تلك التماثيل التى لا تضارع رقة وجمالا وامتازت بألوانها الرائعة البديعة ·

ومن تكون نفرتيتى ؟

لم يعد خافيا علينا أن امنحوتب الثالث ، والد اخناتون ، كان يحتفظ بين حريمه بعدد كبير من أميرات الميتانيين ، وكانت ميتانى دولة تقع بين الفرات ودجلة — فى المنطقة التى يكون فيها تباعد للنهرين بعضهما عن بعض على أشده — وكان يحكمها فى ذلك الحين ملك يدعى توشراتا Tushratta ، أما الأميرتان اللتان بعث بهما الى بلاد الفرعون ، وهما من أصل هندى أوربى ، فكانتا تدعيان : تادوخبا Tadu-khepa

وجيلوخيبا Gilo-khepa ، وما أن وافت المنية امنحوتب الثالث حتى انتقلت الأميرتان الى حريم ابنه ، ومن المرجح أن احدى الأميرتين أنجبت بنتا صارت فيما بعد زوجا للفرعون المصلح ، تلك الابنة هي نفرتيتي التي طبقت شهرتها الآفاق ، ولو صدقت هذه الرواية لكانت نفرتيتي من أصل هندي أوروبي ٠

ولم يكن امنحوتب الرابع يزيد على اثنى عشر عاما حين تزوج من نفرتيتي ، وهي فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها ، وظلت نفرتيتي طيلة مدة حكمه الى جواره تقاسمه أعباء الحكم ، وبذلك لم يكن ثمة تشـــابه بينها وبين ما نعرفه عادة عن الملكة الآسيوية التي كان واجبها الرئيسي أن تبقى في الحريم بعيدا عن الأنظار ٠

ولم يقدر لسعادة الزوجين الشابين أن تدوم اذ كانت آخت – آتن المقر الملكي الجديد (تل العمارنة الحديثة) تلوح لأول وهـــلة مدينـــة محدثة ، بينما ظلت العظمة والتقاليد الراسخة ، والرخاء والمكانة المرموقة ، من نصيب طيبة ، وكان الملك حساسا رقيق المشـــاعر وأضعف من أن يضطلع بمهمته الضخمة كما أن معارضة كهنة آمون لم تهـدأ بـل حمي وطيسها في الخفاء ، والأدهى من ذلك أن الفرعون لم يعر الشئون الخارجية أدنى اهتمام ، وما أن استبان للدولة الخاضعة لسلطانه أنه لم يعد يتربع على عرش مصر طاغية لا يرحم ، بل مصلح رقيق ، حتى كفوا عن دفع الجزية وأخذت سيادة مصر في الشرق الأدنى تتداعى ٠

ولم يمض وقت طويل حتى صار اخناتون وحيدا ، حين راح أصحابه يتخلون عنه الواحد اثر الآخر ، ثم وافته المنية في ١٣٥٨ ق٠م ولم يناهز الثلاثين ربيعـا ، وفي تل العمارنة عثر له على تمثال نصفي يمثل منظرا جانبيا بديعا ووجها رقيقا يكاد يكون وجه أنثى ذات ذكاء فائق ومشاعر رقيقة للغاية ٠ فقد كان ذا عينين واسعتين حالمتين وقوام رشيق ٠

وحين لقي اخناتون حتفه حسبت نفرتيتي أن السبيل الوحيد لصون العرش لأبنائها ، وربما لنفسها ، أن تلجأ الى ملك الحيثيين تطلب منه يد العون ، فسألته أن يبعث اليها بأمير من أمراء الحيثيين ، رأت الزواج منه لتستغل قوة الحيثيين في الحفاظ على عرشها ، غير أن خطتها باءت بالفشل ولقي الأمير مصرعه وهو في طريقه الى الملكة الحسناء (١) ، ولسنا ندري كيف وافت نفرتيتي المنية ومن المرجـــح أن يـكون التجـاؤها الى ملك الحيثيين قد اعتبر خيـــانة عظمى للبلاد فقتلت ٠ والتجاء نفرتيتي الى

---

(١) قارن هامش الصفحة التالية – المراجع

ملك الحيثيين ، وهو رجل من أصل هندى أوروبى ، جدير بالاهتمام فى حد ذاته ، فقد يتخذ دليلا جديدا على أن نفرتيتى من أصل ملك الحيثيين نفسه ، أى أنها ابنة لاحدى أميرات الميتانيين ، هذا ولم يعثر على مومياء لأى من اخناتون ونفرتيتى اطلاقا ·

وأعقبت حكم المصلح الدينى الواسع الخيال حقبة من الاضطرابات البالغة ، وكان سمنخ كارع ، صهر اخناتون ، أول من تولى الحكم فى غضونها بيد أن نفرا قليلا كانوا يعمرون طويلا فى تلك الأيام ، ومات سمنخ كارع ، بعد فترة وجيزة ، موتا غير طبيعى ، دون شك وكان خليفته توت عنخ آمون ـ الفرعون الذى ملأت شهرته الآفاق باكتشافات هوارد كارتر Haward Carter ـ مثله صهرا لاخناتون ، ولقد كان اسمه الأصلى فى الواقع هو توت عنخ ـ آتن · فما كان من كهنة آمون بطيبة الا أن أجبروه على تغييره وعلى نقل عاصمته الملكية من العمارنة الى طيبة والغاء عبادة آتن ، ولقى توت عنخ آمون بدوره حتفه وهو فى ربيع عمره ·

وظل علماء الآثار المصرية عشرات السنين عاكفين على البحث علهم يهتدون الى دليل عن عمر توت عنخ آمون عندما وافته المنية ، ولما اكتشفت مقبرته سنة ١٩٢٢ ذاع اسم الفرعون الشاب فى ربوع العالم ، وحين فتح هوارد كارتر تابوته عثر بداخله على تابوت ثان فتحه بحرص ليجد به تابوتا ثالثا من الذهب الخالص · كان هذا التابوت على شكل انسان تقبع بداخله مومياء الفرعون الشاب ، وأخيرا بات معلوما أن توت عنخ آمون لم يكن يتعدى ثمانية عشر عاما عندما انقضى أجله ·

أما الخائن الأعظم وناسج خيوط المؤامرات فكان رجلا يدعى آى Ay وهو المسئول عن عبادة آمون فى طيبة وكاهنها · لقد كان يحيك مؤامراته الشريرة فى عهد اخناتون نفسه ، وما لبث فى النهاية أن أصبح فرعونا ، لكنه لم يترك لينعم بثمار مؤامراته طويلا اذ كان يواجه بدوره منافسه القوى حور محب ، القائد الأعلى لجيش مصر السفلى الذى أفلح بعد أربع سنوات فى قتل آى وتولى العرش عوضا عنه * (١) ·

---

* نظرية أخرى تقول ان نفرتيتى ليست هى التى كتبت الرسالة المؤثرة السابق ذكرها تطلب فيها من ملك الحيثيين زوجا ، بل بالحرى عنخ ـ اس ـ ان ـ آمون أرملة توت عنخ آمون هى التى بعثت بها فى الفترة التى أعقبت موت زوجها حين كان اى وحور محب يتنافسان على العرش الشاغر ـ المؤلف واصبح معظم المؤرخين يأخذون بهذه النظرية ـ المراجع

(١) لا يوجد من الدلائل ما يكفى لاثبات ان آى كان خائنا وان حور محب قتله كما أنه لم يتول رئاسة كهنة آمون الا بعد عودة العاصمة الى طيبة على الأرجح ـ المراجع

ومن يطوف في الوقت الراهن بوادى النيل يشهد آثارا وفيرة لفرعون بعينه ، فقد كان رمسيس الثانى ، ان صح التعبير ، غزير الانتاج بيد انه أفسد ، الى حد ما ، التأثير العام باقامة الأعداد المهولة من التماثيل لنفسه• فكان هذا الفرعون الأنانى مغرما بالبناء الى حـــد الجنون حتى ان قرابة نصف ما يوجد فى مصر اليوم من أنقاض انما بنى فى عهده ، فهو الذى أكمل ردهة فسيحة فى الكرنك ، ووسع معبد الأقصر ، وشـــيد لنفسه معبدا جنائزيا رحبا يعرف بالرمسيوم ، وأقام التماثيل الضخمة فى طول البلاد وعرضها ، كما أعاد بناء القناة لتصل النيل بالبحر الأحمر • وكان رمسيس الثانى يحتفظ بما لا يقل عن مائة زوجة ، تلك الظاهرة التى تبدو أقل غرابة فى مصر القديمة منها فى الوقت الراهن اذ كان السواد الأعظم من الفراعنة يتزوجون بعدد كبير من النساء ، ويقـال انه كان لرمسيس الثـانى مائة ابن وخمسون ابنة تزوج من بعضهن وهى ظاهرة لم تكن بدورها غريبة فى مصر القديمة •

ولم يمض أكثر من مائة عـام على موته حتى كان اســـمه بغيضـــا محرما (١) ، وأفل نجم أسرته بوفاة خليفته • وبرغم ذلك بقيت مومياه ذات وجه حلو التقاطيع ولم تترك عليه سبعة وســـتون عاما من الحكم أو تسعون عاما من العمر أو مايربو على ثلاثة آلاف ســـنة من النســـيان أثرا كبيرا •

وفى ظل حكم خلفه رمسيس الثالث (٢) ، بلغت ثروة الاله آمون درجة مذهلة فأصبح كهنة آمون فى رغـد من العيش واكتظت مخازنهـــم وتمتعوا بخدمات مائة وسبعة ألف من العبيد ، ولعل هذا الرقم ينطوى على مبالغة ، مثله مثل الكثير من الاحصائيات القديمـة ، لكنـــه يميط اللثام عما كان يقصده القدماء بقولهم « وكان عددهم غفيرا » فلئن حسبنا أن عدد سكان مصر القديمة كان يتراوح بين خمسة وستة ملايين نســـمة لكان واحدا من كل ٥٠ أو ٦٠ نسمة فى قبضة المعبد ، وبالمتحف البريطانى اليوم أطول مخطوط مصرى قديم هوبردية هاريس Harris Papyrus الشهيرة التى يربو طولها على مائة وثلاثين قدما ويتضمن نصـــها الذى مازال جيد الحفظ للغاية قوائم مفصلة بالهبات ووصايا الميراث التى قدمها رمسيس الثالث الى معابد مصر أثنـاء حكمه ، وبنـــاء عـلى ما ورد بتلك السجلات كان كهنة آمون يمتلكون سبع الأراضى المنزرعة جميعها و ١٦٩

---

(١) ينقض هذا الراى ان معظم ملوك الأسرة العشرين تسموا باسمه « رمسيس » المراجع •

(٢) ليس المقصود رمسيس الثالث خلف رمسيس الثـانى على العرش وانمـا احد الذين جاءوا بعده اذ حكم بين الاثنين عدد من الفراعنة ـ المرجع

مدينة فى مصر وسوريا وكوش ، وأسطولا يضم ٨٨ سفينة و ٥٣ ترسانة بين كبيرة وصغيرة و ٥٠٠ ألف رأس من الماشية ٠

وشهدت تلك الأيام أعيادا تعادل فى كثرتها أيام العمل وتنظيما أتخم خزائن كهنة آمون ، وأصبح الملك مجـرد خـادم للكهنة ، اذ كان لابد من اضعاف سلطة الملك كي يتسنى للآلهة الحياة ، ومن ثم أخذت الظـروف المحيطة بالفرعون تزداد خطورة حتى وجد نفسـه مضـطرا الى الاعتماد على جيش قوامه المرتزقة الى حد كبير ٠

أما تفاصيل محاولة اغتيـال رمسيس الثالث ـ تلك المؤامرة التي نسجت خيوطها فى الحريم شأنها شأن المؤامرات الكثيرة فى تاريخ الشرق ـ فمن المميزات البارزة لتلك الفترة ٠ لقد حاولت احـدى ملكات الحريم ، رغبة منها فى أن يتربع ابنها على العرش ، الاستعانة بزوجات ستة ضباط من حرس الحريم وكسب تأييد ذوى النفوذ فى مؤامرتها الرامية الى الاطاحة بالفرعون ٠ ولما افتضح أمر المؤامرة وامر رمسيس بتشكيل محكمة عليا لتوقيع القصاص ، أفلحت نساء الحريم المتهمات فى زيارة اثنين من القضاة بمنزليهما والظفر بتأييدهما ٠ ولم يلبث أن جاء دور القاضيين ليحاكمـا فبترت آذانهما وأنفاهما فما كان من أحدهما الا أن انتحر ٠ كمـا تعرض اثنان وثلاثون مسئولا من مختلف المستويات بحكم مخفف اذ سـمح لهم بقتل أنفسـهم ، ومـع ذلك لم يعمر الفرعون العجوز بعد هذا الاضطراب طويلا وقضى نحبه فى عام ١١٤٧ ق٠م ٠

فسمات ذلك العصر اذا هى : سـيطرة الكهنة ومؤامرات الحـريم وتفشى الخيانة والغدر وانتشار النفوذ الأجنبى ، فأخذت مصر تنهار رويدا رويدا ، وغزا البلاد الليبيون والأحباش (أو النوبيون) ثم الأشوريون ، كما قهرها الفرس بقيادة قمبيز Cambyses وفتحها الاسكندر Alexander المقدونى فأحالها ولاية مقدونية ، لكن سرعان ما استعادت مصر استقلالها تحت لواء بطلميوس الأول ٠ وفى عام ٤٨ ق٠م استولى يوليوس قيصر على الاسكندرية ، العاصمة المصرية ، ورزقت منه كيلوباتره بابن لم يقدر له أن يتربع على عرش مصر اطلاقا ٠ وفى نهاية المطاف باتت مصر اقليما تابعا للدولة الأم على نهر التيبر ومخزن حبوب للامبراطورية الرومانية ٠٠٠ وهكذا أفل نجم امبراطورية مترامية وانصرمت ثلاثة آلاف عام من تاريخها ٠

أما الذى ظل باقيا فهو الأهرامات والمعابد والمقابر المنحوتة فى قلب الصخر والتماثيـل الملكية من الحجر والمرمر والديوريت ، والصـور والنقوش ، ولفائف البردى ، جنبـا الى جنب مع الجـو الحـارق الجـاف ، وفيضان النيل السنوى الذى يغمر البلاد ابتداء من التاسع عشر من شهر يوليو ، اليوم الذى اتخذه المصريون القدماء عيدا لعامهـم الجديد ؟ هذا

فضلا عن طمي النهر الخصيب الذى حمل لونه المصريين القدماء الى تسمية أرضهم (Keme) أو « الارض السوداء » وهى عين اللفظ الذى تطور ، عن طريق السحر الأسود فى العصور الوسطى ، الى التعبير الحديث « كيمياء » ولم يفقد أولئك المصريون كثيراً من خصائصهم على الرغم مما تعرضوا له من اختلاط جنسى وغزوات أجنبية ، أما ما فقده هذا الشعب، الذى تميز فى وقت ما بفائض من القدرة الفنية المبدعة الخلاقة ، فهو الشجاعة الرائعة والخيال الخصب والعمل من أجل الخلود ، وتطوير الفن الأصيل الذى كان سمة مميزة لعصورهم الدينية العظيمة ، كما أنهم فقدوا الهمم وفقدوا معه كل جهاد فى سبيله ، وانهارت عقيدتهم وانهارت معها قوتها الخلاقة • كان النيل ذات يوم معلمهم الأعظم ، فهو الذى دفعهم الى بناء الجسور وشق القنوات ، ونقلتهم مياهه المتدفقة من الفقر الى الرخاء وأوحت اليهم بتشكيل المجتمع وتدبير الشئون العامة وانشاء الدولة ، وهكذا بزغ نور الحضارة المصرية ، أما الفيضانات ، وهى سوط الطبيعة الذى كان يوما بمثابة دافع ثقافى ، فقد فقدت منذ أمد بعيد فاعليتها بانشاء السدود القوية الضخمة وما تنطوى عليه من أجهزة فعالة •

ان ما قدمته مصر للحضارة الانسانية عامة وللحضارة الغربية خاصة لم يحظ بالتقدير الخليق به ، ذلك أنها زودتنا بحرفة الصياغة ، وفن العمارة واللوحات المنقوشة وفن البناء من الحجر ، وبعض مظاهر المفهوم الدينى لدى الغرب والرهبنة ومبادىء التنظيم الحكومى (وقد نقلت الامبراطورية الرومانية بعضها) والأجهزة المدنية ، وعلم التاريخ والهندسة ، وصناعة الزجاج ونسج الملابس وصناعة الحلى والأثاث واقامة المنازل ، والقيام بخدمة البريد والطب • لقد آلت هذه الأمور جميعها الينا من مصر فى عصرها الذهبى فى وقت كنا لانزال فيه نسكن الغابات والسهول ، لقد بلغ النحت والرسم فى مصر درجة من الرقى لم تتحقق فى أية فترة أخرى وغدت الثقافة المصرية جزءا لا يتجزأ من حياتنا بعد أن آلت الينا عن طريق الفينيقيين والسوريين واليهود والكريتيين واليونان والرومان ، ان قدرة الحياة المصرية الهائلة على البقاء بعد أن استقر طابعها، والفن المصرى الفريد الذى لا يحاكى ، وحماس الفراعنة المصريين ونشاطهم، وأصحاب الحرف والفنانين ، وبحث الناس بأخلاص عن المكان والزمان والقيم السامية التى لا يصدقها عقل لشعب صغير يعيش بجوار نهر كبير وشد الحركة •• كل هذه لن يشهد تاريخ البشرية الثقافى شيئا واحدا منها اذ يتعذر تحقيقها مرة أخرى • فقد كانت مصر مسرحا لحضارة ارتقت حتى كادت تبلغ السماء ولم تعد - حتى فى وقتنا هذا - الى الأرض، ولعلها أعظم حضارة ازدهرت فوق كوكبنا •

لاتحزن وانت على قيد الحياة

اضجعت فى الفراش .. وكنت مسهدا
من بردية مصرية قديمة

مما يأخذ بالألباب حقا أن ندقق النظر فى المومياوات فاذا هى تغدو معبرة كما لو أنها لم تغلق أعينها غير الأمس القريب . لقد لبثت موميات كثيرة تنتظر بعثها خمسة آلاف عام ، وعلى الرغم من ذلك يؤكد الباحثون أن بواطن الأقدام المحنطة منذ ألفين وثلاثة آلاف عام ما انفكت مرنة طرية .

وتنادى معظم الأديان بأن الروح تفارق الجسد عند الموت ، لكن القدماء المصريين آمنوا بأنه ما أن تورى الجثة حتى يسترجع الكاهن ، الذى يقوم بالمراسيم الدينية ، الروح لتتحد بالجسد ثانية ، وحيث ان هذا يتطلب أن يكون الجسد صحيحا لم تمسسه يد فى تلك المحطة الحاسمة فقد قام المصريون بتحنيط مئات الألوف بل الملايين من موتاهم .. ليس الملوك فحسب بل كل من ملكت يداه . وما برحت آلاف الموميات المحفوظة جيدا ترقد فى قبور مصر ، كما أن عددا كبيرا من موميات الفراعنة يستقر اليوم بين جدران المتاحف ، ولم يزل الكثير قابعا تحت سطح الأرض لم تمتد اليه يد شأنها شأن جسد الاسكندر الأكبر الذى تم تحنيطه بالشمع والعسل .

هنـاك طرق ثلاث لحفظ الجسد هى الاحتفاظ به فى مكان بارد وحقن الأوعية الدموية بمواد تقتل البكتريا ، وهو ما يتبع فى الوقت الراهن ، والتجفيف أو التجريد المستمر من الماء وهى الطريقة التى كانوا يفضلونها فى مصر القديمة ، وبما أن ثلاثة أرباع جسم الانسان ماء ، فان تجفيفه تماما لم يكن أمرا هينا ، ولعل المصريين استخدموا فى هذا السبيل

النار أو حرارة الشمس وان كانت أقل شيوعا • وفي مدينة الموتى بطيبة أمكن الكشف عن غرفة بداخل احدى المقابر لشخص يدعى حاتي – عا Hatiay (١) امتلأت حتى سقفها بعدد كبير من المومياوات • ويرى يفين Yeivin عالم الآثار المصرية ، أن تلك المومياوات قد جففت فوق نار هادئة ، وهو افتراض تؤكده ، فيما يبدو ، آثار الهباب فوق جدران المقابر ، لكن ثمة نظرية أخرى تقول ان آثار الهباب انما هي بفعل لهب أغصان الأشجار التي كان يشعلها عند مدخل غرفة الدفن بعض الأشخاص بهدف ازعاج لصوص المقابر وهم يسرقون ، فكان الدخان يستخدم لطرد اللصوص ومنعهم من السرقة •

وهناك وسائل أخرى للتجفيف كاستخدام العوامل المجففة مثل الطباشير أو الملح أو الصودا ، وأثبت التحليل الكيميائي وجود المواد الثلاث في المومياوات المصرية كما عثر الباحثون في بعض القبور على أوعية أووان مليئة بالصودا •

وبناء على ما ذكره هيرودوت ، الذي يتفق في تفاصيله الأساسية مع ما أسفرت عنه البحوث الحديثة ، فان تحنيط الموتى يتم بالطريقة التالية :

بادىء ذي بدء ينزع المخ والأمعاء والمعدة مع ترك القلب والكليتين ، ثم ينظف داخل الجسم بالخمر والأعشاب ويملأ بالمر والقثاء الهندي والعطور والكتان والنشارة والرمل والصودا بل وبعدد قليل من البصل في بعض الأحيان ، كما كانت الشرايين والأوعية الدموية تحقن بالمواد الكيماوية ثم يدهن الجلد بالزيت ويدعك بالمر وغيره من العطور الذكية التي مازالت رائحتها تنبعث من المومياوات وان مضى على تحنيطها آلاف السنين ، وكانت الجثة تلف بكتان مغموس في القار وفي غيره من المواد الطبية وغالبا ما كان الوجه يغطى بقناع يشبه وجه صاحبه من الكتان والمشمع أو بالحجارة شبه الكريمة وبالذهب وغيره من المعادن النفيسة ، ثم توضع المومياء على جانبها الأيسر في وضع النائم ويرتكز رأسها على مسند ويغلق التابوت •

وتدل موائد التحنيط التي صممت خصيصا لهذا الغرض والتي سبق اكتشافها على مدى ما أسبغ على عملية التحنيط من اهتمام ، ومازالت آثار الصودا والملح عالقة بتلك المناضد • كما أن أحد النقوش يدل على أن عملية التحنيط كانت تستغرق فترة طويلة تمتد أحيانا الى عشرة أشهر ،

(١) أغلب الظن أن اسم صاحب المقبرة لم يعثر عليه حتى الآن ، « حاتي – عا » لقب معناه أمير وليس اسم علم – المراجع

وفى أزمنـة سابقة كان الميت يشيع الى القبر مصحوبا بما حواه منزله كما كان القبر ذاته مماثلا لداره أو قصره ، غير أنه فى أوقات لاحقـة لم يكن يزود بغير اللحوم والمشروبات ونماذج مصغرة لمنزل من الطين يضـم فنـاء ومخازن للحبوب وتماثيل صغيرة للعمال وهم يفرغون آكياس الحنطة ، هذا فضلا عن تزويده بتماثيل صـغيرة تمثـل خـادمات بغرض أنهن سيقمن بالغزل والنسيج وخدمة سيدهن على نحو ما كن يفعلن فى حياته ، وأخرى لفتيات صغيرات يرتدين ملابس براقة يقمن باحضار مرآة أو يقمن بتقديم وجبات الطعام لسيدهن الى جانب سـيدة تضطلع بطحن الحبوب ، كما كان القبر يضـم دمى صغيرة عارية قد تم بتر الجزء الأسفل من سيقانها لسبب من الأسباب ، ففى أوقات سـالفة كانت حاشـية الملك تدفن مع سيدها حية ، فلم تلبث أن حلت محل تلك الضحايا البائسة تماثيل صغيرة صنعت من غير سيقان حتى لا تقوى على الهروب •

بيد أن المصريين لم يبرعوا فى فن التحنيط فحسب بل وعرفوا السبيل الى الحياة أيضا ، فعلى الرغم من عقيدة الدفن بكل ما تنطوى عليـه من خرافات كان المصريون شعبا عمليا للغاية ، فقد جمعوا بين الاحسـاس العميق بالمرح ، كما يبدو ذلك فى صورهم المضحكة التى تنم عن ذكاء وحذق ، وفى ريبتهم الضئيلة حول جريمة القتل •

وكان المصريون يلهون بألعاب تمارس فوق لوحات مقسمة الى عشرين أو ثلاثين مربعا عشر على نماذج منها فى بعض المقابر الى جانب لعبة الثعبان العجيبةالتى كانوا يزاولونها فوق لوحة دائرية مع استـخدام قطع تمثل أسودا وكلابا ، كما كانوا يلعبون الزهر ويصنعون لعبا جميلة لأبنائهـم فضلا عن ولعهم بالمصارعة والرياضـة • وكان الخدم والعبيد يقيمون فى غالب الأحيان مباريات المصارعة لتسلية سادتهم كما كانت الأسر الواسعة الثراء تدرب أبطالها على فن القتال بالنبابيت ، ولم يكن يسمح للمتقاتلين أن يظهر أى منهما رحمة بالآخر ، وغالبا ما كان أحدهما يترك حلبة الصراع محمولا على الاكتاف • أما الفتيات فكن يتدربن على ألعاب الكرة والرياضة البدنية والفنون وكانت الراقصات والموسيقيون يضطلعون بتسلية الأغنياء بالعزف على الفلاوت والعود والمعزف والقيثارة الشرقية ، وهى آلة ليست من اختراع مصر ، وكانت الفتيات تمسكن بالمراوح لطـرد الذباب ويقوم الأقزام بالاشراف على حلى الأسرة وملابسـهـا وترويض كلاب سـادتهم وما بحوزتهم من قردة ، وكان المهرجون الحدب جد شائعين وكثيرا ما كان الفرعون يقتنى « قزما للبلاط » •

وفى أيام الأعياد كان المصريون يأمرون خدمهم بأن يدهنوهم بالزيت ويزينوهم بالزهور كمـا كانوا يحتسون النبيذ والجعة حتى يصبحوا ،

ولننقل هنا وصفا لأحد المعاصرين : « أشبه ما يكون بدفة سفينة محطمة لم تعد قادرة على التوجه لا الى الميناء ولا الى يمين السفينه » ، وابوادع ان ثمة صورة ترجع الى عصر الدولة الحديثة تبين امرأة سيئة الحظ من علية القوم وهى فى حالة قىء ، فتهرع اليها خادمة بوعاء لكنها جاءت فى لحظة متأخرة .

لقد كان المصريون شعبا وسيما ، وطبقته الأرستقراطية شبيهة بالملوك، وكان الرجال أشداء يتحلون بسمات الرجولة ، بأردافهم النحيلة وأكتافهم العريضة وشفاههم الغليظة وبالتعبيرات القوية الجادة البادية على جباههم ، وكان أثرياء المصريين يعلقون أهميــة بالغــة على نحول أجسامهم ، ونلتقى بين المصريين بوجوه مستديرة جميلة ذات أنوف مستقيمة طويلة وعيون واسعة جذابة ، كما أن بشرتهم تبدو عند المولد ناصعة فلا تلبث أن تصير داكنة بفعل حرارة الشمس المصرية ، مما حدا بالفنانين أن يرسموا بشرة الرجال ضاربة الى الحمرة والنساء مائلة الى الاصفرار ذلك أن النساء لم يعرضن أنفسهم كثيرا لحرارة الشمس اللافحة .

أما الأزياء فكانت دائمــة التبديل والتغيير عبر تاريخ مصر ، وكانت التغييرات فيها تحدث تدريجيا ، لكنها من الوضــوح بحيث تزودنا بأدلة عن فترات تاريخية معينة ، فلم يكن الرجــال فى المملكة القديمة ـ ابتداء من سنة ٣٠٠٠ الى ٢٢٧٠ ق٠م ـ يرتدون أكثر من وزرة ، بينما ظل الجزء العلوى من الجسم عاريا ، وهى حقبة لا تقل عن سبعمائة عام (وربما كان كذلك منذ القــدم) ٠ كانت الوزرة ضيقة قصيرة فلم تلبث أن أصبحت طويلة فضفاضة ، كعهدنا بها ابان حكم خوفو ، وكانت توشى بأشــكال مختلفة طبقا لما هو سائد ، وفى عهــد المملكة الوسـطى ، أى فى الفترة مابين ٢١٠٠ و ١٧٠٠ ق٠م على وجه التقريب ، كان الرجال يرتدون وزرة مزدوجة ، فكانوا يرتدون الضيقة القصيرة التى هى من التيل السميك من أسفل وفوقها أخرى طويلة من التيــل الشــفاف ، كما ظهر لأول مرة الى جانب الوزرة المزدوجة رداء فضفاض قصير وآخر ضيق مخطط يصل من الرقبة حتى الرسغ كان مقصورا على الطبقة الأرستقراطيـــة ٠ أما الخدم والفلاحون فلم يرتدوا الوزرة القصيرة الا فى وقت متأخــر ، ولم يستر الرجال الجزء العلوى من أجسادهم الا فى عهد المملكة الحديثـــة ، أى فى الفترة مابين ١٥٥٠ و ٧٠٠ ق٠م ٠

وكان هنالك بالطبع اختــلاف فى الملبس بين الطبقات الاجتماعيـــة المتعددة ، فلم تكن الطبقات الدنيا ـ كالفلاحين والرعاة والعمال والعبيد ـ ترتدى عادة أكثر من مئزر أو منطقة ومن كان يضطلع من بين الرجال بأشغال شاقة غالبا ما كانوا يسيرون عراة الأبدان اذا لم يكن هنالك خجــل من

العرى • ويشير أدولف إيرمان Adolt Erman ، عالم الآثار المصريه ، الشهير الى ذلك بقوله : « ورغما عن ذلك فان بعض الصــور الهيروغليفية الشائعه تمثل ما يتعذر علينا محاكاته » •

أما ملابس النساء فقد سارت على نمط واحد بالقياس الى تعدد أزياء الرجال وثيابهم ، فمنذ فجر التاريخ المصرى أو على الأقل منذ أن بدأ الفن التصويرى كان النساء بلا استثناء يرتدين قميصا طويلا لاصقا بالجسم يبرز معالمه بوضوح ، ولكن هذا القميص يبدأ من أسفل الصدر ويصل الى العقب ، أما الصــدر فلم يكن يغطى بغير شرائط تتدلى من الكتف وتثبت بالقميص ، وتكاد شرائط الكتف أن تكون الجزء الوحيد من ملابس النساء الذى كان يتغير بحسب الزى السائد ، فتارة تثبت مستقيمة وتارة أخرى مائلة أو متقاطعة • • • أحيانا تستر الصدر بأكمله واحيانا لا تغطى سوى جزء منه وأحيانا أخرى تتركه عاريا تماما ، كما كانت بعض الشرائط توشى بورود تثبت فوق الثديين • وجرت العادة أن تكون القمصان بيضاء اللون، فقد كانت الألوان الحمراء أو الصفراء أو الخضراء أقل شيوعا كما كانت ، من الناحية العملية ، تتميز بالبساطة وعدم الزخــرفة ، بيد أن الحقيقة التى تثير الدهشة فى أزياء نساء مصر تتمثل فى عدم وجود اختلاف يذكر فى الملبس بين الملكة وأشد الفتيات العاملات فقــرا • ولم يحــدث الا فى أوائل عهد الأسرة الثامنة أن أصبح من المألوف ارتداء نوعين من الملابس حين شرعوا يضيفون رداء فضفاضا خارجيــا الى القميص الضــــيق ولكن كليهما كانا يصنعان من كتان نقى يبرز مفاتن الجسم ويبين معالمه بوضوح وجــــلاء •

لم يكن ثمة فارق بين ما ترتديه الخادمات وسـيداتهن ، لكن عنـد قيام الخادمات بعمل شاق لم تكن ترتدين غير وزرة قصــــيرة كالرجال ، وكانت الراقصات تكشفن عن الجزء العلوى من أجســادهن وسيقانهن • أما فى المملكة الحديثة فلم ترتد الفتيات عند اعداد موائد الحفلات غير منطقة حول ردفيها محلاة الحواشى •

وكان المصريون يحافظون على نظافة ملابسهم الكتانية الناصعة البياض، وكان غسل الملابس وعصرها وطرقها بلا توقف يتم تحت رقابة مشرفين متخصصين ، كما كانت الملابس الملوثة بدهنيــــات أو زيت تنظف بطرق خاصــة من بينها ، على الأرجح ، استخدام الصــودا ، وكان المصريون بلا استثناء يسيرون حفاة الأقدام ولم يرتدوا النعال الا للضرورة القصوى•

وكان الأرستقراطى المصرى يقص شعره ويرتدى غطاء ضيقا للرأس أو يضع شعرا مستعارا فوقه ، فقد كانت صــــناعة الشعر المســتعار فنا

متطورا فى مصر ، حيث كانت تصنع أشد التصفيفات تعقيدا وهى الضفائر والأعقاص • وغالبا ما نرى فى صور عديدة الشعر الطبيعى وهو يطل من أسفل الشعر المستعار • أما شعر السواد الأعظم من نساء المملكة القديمة فكان طويلا مسترسلا ، ومن كان شعرها يبدو أحيانا أقل طولا من بين نساء الأشراف يصبح معلوما أنها قد جعدته • ولم يكن الشعر المصرى المستعار الذى نشهده اليوم فى متاحفنا يصنع من شعر الانسان بل من أصواف الغنم •

وكانت النساء تطلين شفاههن وتصبغن أظافرهن وتدهن بالزيت بشرتهن وشعرهن ، كما أن أنواع الدهان والمساحيق المختلفة كانت من مستلزمات أية امرأة مصرية تعنى بمظهرها وهى على قيد الحياة كما فى القبر ، فكانت جفون العين السفلى تصبغ بدهان أخضر يصنع من الملاخيت (مادة معدنية خضراء اللون) والجفون العليا والجوانب بمركب أسود من الكبريتيد يجعل العين تغدو وكأنها أكثر اتساعا وأشد بريقا ، وما تم العثور عليه من عينات لأدوات الزينة قد كشف لنا بأن تلك المواد كانت تستخدم بوساطة أقلام للزينة ، كما كانوا يسمونها ، وهى عيدان صغيرة من الخشب أو العاج ، وكانت أدوات الزينة تحفظ فى صناديق مستطيلة صغيرة من العاج أو الحجر أو الخزف أو الخشب • ولقد عثر الباحثون على كميات ضخمة من أدوات الزينة مثل المرايات المعدنية التى كانت أيديها الخشبية والعاجية والخزفية تشكل فى هيئة فتيات عاريات تحيلات ، وأخرى من الذهب والفضة فى علب رائعة ملائمة ، وعلب من المرمر لوضع الزيوت وأمشاط ودبابيس للشعر ومشابك لتجعيد الشعر وصناديق صغيرة للمساحيق وأمواس للحلاقة وملاعق صغيرة تستخدم للزينة من الخشب والعاج والمرمر والبرونز • وفى مثل هذه الحضارة الرائعة كانت الروائح العطرية تستخدم بوفرة دون ريب •

لقد كان الرجال والنساء على السواء يتزينون بالحلى الثمينة كعقود اللؤلؤ والياقوت والعقيق والحجارة الكريمة والخزف ، وأساور وخلاخيل من العاج والعظم وقرن الحيوان والنحاس والصوان وأطواق وأقراط من اللؤلؤ ، وفى ظل حكم الأسرة التاسعة عشرة انصرف الرجال عن لبس الأقراط الكبيرة وتركوها للنساء • كما كان المصريون من قديم الزمان يتحلون بخواتم من الذهب والفضة والخزف الأزرق والأخضر ، أما الملك فكان يصنع تاجا فوق رأسه بينما يحمل أشراف كل أسرة مصرية العصى والصولجانات ، وليس ثمة ما نستطيع أن نلقنه للقدماء المصريين فيما يتعلق بأدوات الزينة والحلى •

وكان الأرستقراطيون حاذقين فى الألعاب الرياضية ، فكانوا

يصطادون طيور الماء وهم فى القوارب ، ويسقطون الطيور بمهارة فائقة بعصا على شكل خطاف طويل يقذفونها الى أعلى فترتد اليهم ، أما الطيور اللازمة للمطبخ فدأبوا على صيدها بشباك يبسطونها فوق الأرض ، كما كان الأوز يصطاد بالطريقة نفسها ويربى فى حظائر واسعه ضرب حولها سياج فى ضيعات بالريف ، وتكشف لنا صور جدران المقابر الطيور البائسة وهى تطعم بكرات من عجين ، ومما يدعو للعجب حقا أن المصريين قاموا أيضا بتربية الغرنوق (١) ، كما كانوا يصطادون البط والحمام بشباك صغيرة تقفل آليا ٠

وكان النبلاء مغرمين بصيد السمك بالرماح الى جانب الشباك اليدوية والسلال ، وتحت أشعة الشمس داب المصريون على تجفيف السمك الذى كان بمثابة الغذاء الرئيسى للفقراء ورقيقى الحال ، اذ كان أرخص ثمنا من الذرة ٠ وغالبا ما كانت تنظم رحلات للملك يصيد خلالها الغزلان وبقر الوحش والابل والأغنام والثيران البرية وفرس النهر ، أما الحيوانات المتوحشة فكانوا يصطادونها بحبل بطرفه أنشوطة ، وما كانوا يصطادونه من السباع يقومون بتربيته ، ويقال ان تحتمس الثالث قتل فى رحلة صيد واحدة مائة وعشرين فيلا ، كما كان بحوزة رمسيس الثانى أسد مستأنس وكان أحد نبلاء بلاط الملك خفرع يهتم كثيرا بزوج من القردة الأليفة ، اذ كانت القردة الصغيرة طويلة الذنب تربى كحيوانات أليفة كما كانت رؤية القردة الصغيرة وهى تقاد فى ملابس تزينها من الأمور المألوفة ٠ أما الفتيات فكن مولعات بتربية القطط كوسيلة للتسلية ، كما كانت الكلاب توجد فى كل بيت من بيوت الأغنياء ، وتمثل بعض الصور المنحوتة فوق الجدران المصريين وهم يقودون ضباعا أليفة ، وكانت كلاب الصيد الرمادية اللون باهظة الثمن كما دأبت الفيلة الجائلة المتوحشة على أن تجوب شوارع مدن مصر حتى فى ذلك الزمان (٢) ٠

ومازلنا نحتفظ بكراريس للتطبيق من المدارس المصرية وان كانت فى الواقع « لفائف » حيث كانت الكتابه على اختلاف أنواعها تسطر على ورق البردى الذى كان يلف كدرج أما أسلوب الدراسة فكان صارما كما كانت الطاعة تفرض وتنفذ بالعقاب البدنى ، ومن ثم يكتب أحد الطلبة الى معلمه يقول : « انك تضربنى ولذا لخترقت تعاليمك أذنى » كما نقرأ

---

(١) طائر من فصيلة البشاروش ــ المراجع

(٢) لا يوجد من الأدلة الأثرية ما يشير الى وجود الفيلة فى مصر فى زمن الفراعنة على الاطلاق وان كان من المشكوك فيه انها وجدت على حافة الوادى فى الصحراء الليبية ــ المراجع

« للولد عجزه ولا ينصت الا عندما يضرب (عليه) ، » ، « ولا تسكن خاملا فتتحطم » ٠

وكان الورق يصنع بتقطيع نبات البردي الى شرائح توضع الواحدة الى جوار الأخرى وتأتى فوقها شرائح عكسية ، ثم تضغط الشرائح جميعها معا لتصنع مادة لها القدرة على الاحتمال ظلت في بعض الحالات محفوظة ، ويمكن قراءتها بعد مضي خمسة آلاف عام ٠

ولعل المصريين الموا بكتابة السومريين حين بدأوا التجارة معهم وهى التى أوحت اليهم باستنباط كتابة خاصه بهم الى جانب كتابتهم الهيروغليفية ٠ وكانت الكتابة المصرية التى تعرف بالهيراطيقية تقوم على أساس استخدام الصور التى تعبر المجموعة منها عن كلمة بعينها ٠ وكانت بعض الكلمات لا تتركب الا من حرف ساكن واحد والحرف المتحرك المصاحب ، وبعضها من حرفين ساكنين أو ثلاثة ، ولعل معظم أساليب الكتابة الشرقية لا تستخدم الا الحروف الساكنة ولا تضيف الحروف المتحركة الا فى لغة الحديث ، وبات من الممكن التعبير عن كلمة من حرفين أو ثلاثة حروف ساكنة بالصور ٠ وهكذا تستخدم صورة خنفساء الروث المقدسة لتعبر أولا عن الخنفساء نفسا (ثلاثة حروف ساكنة هي Kh.P.R. ومجموعة من الحروف المتحركة) وأيضا على الفعل « يصبح » نفس الحروف الثلاثة الساكنة Kh.P.R. ، مع مجموعة مغايرة من الحروف المتحركة) الذى كتب برمز الخنفساء نفسه ولكنه يتميز برمز مكمل ، وكان المصرى القديم يعرف المعنى المقصود على الفور على النقيض منا ، وهذا هو وجه الصعوبة فى تحديد كيف كانت الكلمات المصرية القديمة تنطق ، وبفضل الكلمات المكونة من حرف ساكن واحد تسنى لنا معرفة الحروف الأبجدية كلها ولو أن المصريين أنفسهم لم يبلغوا هذا الحد من الادراك ٠ فالفينيقيون هم أول من استخلصوا الحروف الأبجدية من الكتابة المصرية التى كانت تتكون مما لا يقل عن ستمائة رمز مختلف يدل كل منهما على أمر بعينه ٠

واقد تخلف عن الفترة ما بين ٢٠٠٠ و ١٠٠٠ سنة ق ٠ م كتابات عديدة اذ عثر على لفائف البردى المصنفة المنسقة فى جرار ، وكانت هذه البرديات تحمل أروع قصص المغامرة ويوميات الأسفار والأساطير والأشعار كما تحكى احدى البرديات التى يرجع تاريخها الى ١٢٢٠ سنة ق ٠ م ــ وهى التى تعرف ببردية أوربينى Orbiney Papyrus بالمتحف البريطانى ــ قصة عاهر استطاعت أن تحيل الأخوين المتحابين الى عدوين « لدودين ، انها قصة قديمة تعبر عن الغيرة والحب الأخوى

والكراهية وفى درج آخر يعرف ببردية بترسبرج Petersburg Papyrus تقرأ التجارب المذهلة لبحار تحطمت سفينته فقذفت به الأمواج العاتية الى جزيرة نائية حيث التقى بحية ذهبية لقاء عجيبا · كما أن مغامرات سنوحي Sinuhe بين بدو سوريا تبدو أشبه بقصة سفر حديثة مثيرة وان كانت أحداثها قد وقعت فى عهد سيزوستريس الأول فى الفترة ما بين ١٩٨٠ أو ١٩٣٥ ق·م ، والنص الكامل لتلك القصة مسطر على بردية توجد اليوم بمتحف برلين ·

وكانت الأرقام العددية والحسابية فى مصر غامضة معقدة الى حدما ، ومع هذا كان المصريون ملمين بالنظام العشرى فكانت الشرطة تدل على الرقم ١ ، والشرطتان على ٢ ، والتسع شرط على ٩ · أما الرقم ١٠ فكان يمثله رمز جديد مستمد من أداة مقوسة تربط بها الماشية وهى ترعى ، وكتابة مثل هذا الرمز مرتين تدل على الرقم ٢٠ ، وهكذا حتى رقم ١٠٠ الذى كان يمثل برمز آخر · وثمة رمز للألف (ورقة لوتس) وآخر للعشرة آلاف (أصبع) وآخر للمائة ألف (أبو ذنيبة) (١) · أما رمز المليون فكان رجلا يضع يديه فوق رأسه ويبدو كما لو كان مذهولا لمجرد وجود هذا الرقم الكبير ، وغالبا ما كان الناس يستخدمون أكثر من عشرين رمزا لكتابة ثلاثة أرقام أحادية ·

أما عملية الضرب فكانت معقدة بعض الشىء ، وكانت تجرى بمضاعفة الرقم الأساسى عقليا ، فالرقم ٤ × ٤ يتم على مراحل من ٤ الى ٨ الى ١٦ (٢) وكانت القسمة أكثر تعقيدا ، فلم تكن الكسور التى تستخدمها حاليا معروفة آنذاك ، لقد عرف المصريون مثلا $\frac{1}{5}$ + $\frac{1}{5}$ + $\frac{1}{5}$ ولكنهم لم يعرفوا $\frac{3}{5}$ ، وبرغم ذلك كله كان علم الحساب عظيم التطور فى مصر ، وما كان يمكن بغيره أن يتم شىء من الانجازات المعمارية · كما كان المصريون يرقبون حركة النجوم عبر آلاف السنين ، وحتى فى تلك الأيام استطاعوا أن يميزوا بدقة بين الكواكب والنجوم الثابتة ، ورصدوا نجوما من الدرجة الخامسة يتعذر رؤيتها بالعين المجردة ، مما أفضى الى ما يمكن اعتباره أعظم انتصار علمى حققوه ألا وهو اختراع التقويم الشمسى الذى آل الينا عبر الرومان ·

ولقد حفظت أبحاثا طبية جديرة بالاهتمام من بينها درجان هامان هما « البردية الطبية العظيمة Great Medical Papyrus بمتحف برلين

---

(١) وليد الضفدعة — المراجع

(٢) أى بتكرار أحدهما الى مرات تساوى الرقم الثانى ونتيجة جمع هذه العملية تمثل حاصل ضرب الرقمين — المراجع ·

وبردية ايبرز Ebers Pupyrus بمكتبة ليبيزج سابقا ، فقد قام المصريون بدراسات حول التشريح والدورة الدموية ووظائف القلب والمعدة والطحال وعرفوا أن القلب « على اتصال بأوعيــة كل طـرف » ، ومن أهم البرديات الطبية التي تسمى باسم مكتشفها ادوين سميث (Edwin Smith) هو درج طوله ١٦ قدما ، وعمره ٣٦٠٠ سنة يحوى وصفا لثمانى وأربعين عمليــة جراحية ، ولا مراء أن هذه البردية تدل على أن العلوم الطبية القديمة كانت على دراية تامة بأن المخ يسيطر على حركة الأطراف ٠

ولم يخل المصريون من غالبية الأمراض التي تصيبنا فى الوقت الراهن وان لم يرد ذكر مرض السرطان أو الزهرى ، ويبدو أن تسويس الاسنان لم يظهر الا فى القرون ـ القليلة الأخـــيرة من التاريخ المصرى نتيجـــة للحضارة ، ومن المذهل حقا أن وجدت فى فجر التاريخ المصرى روايات عن ضمور خنصر القدم الذى يبرهن ، فيما يبدو ، على أن هـذا ليس مرجعه الأحذية اذ كان السواد الأعظم من المصريين يسيرون حفاة الأقدام ، وفى بردية ايبرز مئات العقاقير التي خصص عشرها لعلاج أمراض العيون التي يحتمل أنها كانت واســعة الانتشار ٠ واليوم ترتعد فرائصنا عند ذكر بعض الوصفات الطبية التي كانت تستخدم مثل براز الانســـان وروث الحيوانات وقذارة الذباب والبول ، لكن هنالك بعض الأدوية التي تقل عن تلك بشــاعة مثــل سحب الدم من الجرح والشمع والدهنيــات والخمر والعسل والذرة المسلوقة ، ولقد عثر فى بعض المقابر على صناديق كاملة من تلك العقاقير ٠

والى جانب علاج أمراضهم حاول المصريون وقاية صحتهم واستمع الى ما يقولون : « ان معظم ما نتناوله من أطعمة تفوق حاجتنا فنحن لا نحتـاج الى أكثر من ربع ما نبتلعه بينما يعيش الأطباء على ثلاثة الأرباع الباقية » ٠ فلا عجب أن يذكر المؤرخ اليونانى هيرودوت : « ان المصريين أوفر شعوب العالم صحة بعد الليبيين » ٠

ورغبة فى الحفاظ على نقــاوة الدم الملكى كان الفراعنـــة فى غالب الأحيان يتزوجون من شقيقاتهم ٠ ولسنا ندرى ما اذا كانت تلك العـــادة تترك أثرا سيئا فى المستقبل ٠ ففى أرســـينوى Arsinoe ظــل زواج الأشقة والشقيقات سائدا بين ثلاثة أرباع السكان حتى القرن الثانى بعد الميلاد ، ومن محاسن الصدف أن كانت العبــارات المصرية التي يتبادلهـا العاشقون هى « أخ » و « أخت » ٠

كان للفرعون حريم ضخم يضم بنات الأرســتقراطيين الى جانب من وقعن فى الأسر من نســاء ابان الحملات العســـكرية ٠ ومع ذلك لم يـكن

للغالبية الساحقة من المصريين غير زوج واحدة · وليس لاستقرار حياتهم الأسرية من مثيل الا في الدول المسيحية ، فكان الطلاق نادر الوقوع ، ويكاد مركز المرأة يرقى الى ما تنعم به في الوقت الراهن · ولعل شعبا قديما آخر لم يكرم النساء ويرفع من شأنهن مثلما فعل المصريون ، لقد استبدت الدهشة بالرحالة اليونانيين ممن دأبوا على ربط نسائهم بحبل قصير وجرهن وراءهم حين شاهدوا النساء المتقدمات في مصر ، وفي شيء من الضيق يروى ديودور الصقلي Diodurus-Siculus ، وهو يوناني عاش في الشطر الأخير من القرن الأول الميلادي ، بأن الرجل على ضفاف النيل هو الذي كان يفرض عليه عقد الزواج الطاعة لزوجه ، وكان من رأى ديودور أن المرأة هي التي كانت تطلب يد الرجل وتعرض الزواج منه ، كما أنها لم تلجأ دائما الى أسلوب الدهاء في سبيل ذلك ، وجاء باحدى الرسائل : « آه أيها الصديق الوسيم ، أود أن أصبح زوجا لك وسيدة على كل ما تملك » ·

لقد كان سكان النيل شعبا ملتهب العواطف ، فالفتيات كن يعتبرن أهلا للزواج في العاشرة من أعمارهن كما كان الاختلاط شائعا قبل الزواج، ويقال ان احدى العاهرات شيدت هرما كاملا من وراء مغامراتها العاطفية ·

ولاتزال ما تسمى ببردية هاريس Harris Papyrus المصنفة تحت رقم ٥٠٠ في المتحف البريطاني تضم أكبر مجموعة من قصائد الحب المصرية ، نقرأ في احداها « أن أروع ما يضطلع به المرء هو أن ينطلق الى الحقل ليلتقي بمحبوبته » ، ومن بين أمثال بتاح حتب ، كبير أمناء قصر الفرعون اسيسى (١) Asosi نحو سنة ٣٦٠٠ ق·م ، نجد الكثير من الوصايا الثمينة التي تذكرنا بأمثال سليمان ، وتضم تلك المجموعة من الحكم بردية بريس Prisse-Papyrus التي أودعت المكتبة القومية بباريس حيث نقرأ : « لو أخذ الابن بنصيحة أبيه لما فشل له مشروع » ، « عندما تتكلم كن حذرا فيما تقول » ، « ان أردت صداقة دائمة مع من تعيش سواء كنت سيدا أو أخا أو صديقا ، ابتعد عن النساء ، فحيث يمكثن ليس مكانا مناسبا » ، « الحق يدوم الى الأبد ويرافق من يتبعه الى مدينة الموتى » وهذه العبارة الأخيرة منقولة عن قصة الفلاح الفصيح ، التي يرجع تاريخها الى حقبة تتراوح بين ٢٠٠٠ و ١٨٠٠ ق·م على وجه التقريب ·

أما العبارات التالية المنقولة عن أوراق البردى فلعلها تقرب الينا

---

(١) يكتب بالمصرية القديمة « اسسى » — المراجم

الحياة اليومية فى مصر القديمة لحقلة ، فهى مقتطفات من رسائل ومذكرات ومفكرات وما شابه ذلك ٠

كان العاشقون يتوقون الى دوام التلاقى مثلما يفعلون اليوم تماما ، وهكذا يكتب أحد العشاق : « اننى أتنزه وأنت الى جوارى فى كل مكان بديع ويدى فى يدك » ٠

ولا يسع المرء الا أن يتساءل عما كان يدور بخلد ذلك الرجل حين سطر منذ بضعة آلاف من السنين العبارة القائلة : « اضطجعت على الفراش وكنت مسهدا » ، وعما كان يبعث الضيق الى نفس الفتاة التى كتبت تقول « ليس ثمة ما يدعوك الى أن تعود الى مرة أخرى » ٠

كما أن رجلا يدعى اننى Anna نراه يخاطب زائرى قبره بالكلمات التالية :

« اسمعونى ، لئن تفعلوا الخير الذى فعلته لانخدعتم مثلى »

وفتاة مجهولة تسأل عشيقها منذ آلاف السنين : « ان قلبك ينبض فما السر ؟ » ٠

وتذكرنا قصيدة عميقة ترقى الى أربعة آلاف سنة خلت بأهمية الحياة الانسانية حين تقول :

« ما من أحد يعود الينا من العالم الآخر ليحدثنا عما صار اليه .. فانعم بكل يوم يمر بحياتك وابتهج لاتحزن وأنت على قيد الحياة ، ان أحدا ، كما ترى ، لم يأخذ من دنياه شيئا ، ومن يفارق هذه الحياة لا يعود اليها » ـ ثم أليست هذه بحق قصيدة حب موجزة خالدة تلك التى تقول « اننى أحس باضطراب عند سماع صوتك ، فحياتى برمتها معلقة على شفتيك ، اننى أوثر رؤيتك عن ألوان الطعام والشراب بلا استثناء » ٠

الأناضول

الحيثيون

وعلى ذلك بعثت ملكة مصر الى أبى رسولا ، وكتبت له فى رسالتها تقول : « مات زوجى وليس لى ابن ، فلو منحتنى احد ابنائك لصار لى زوجا ، ولن اختار قط واحدا من خدمى ليكون زوجى ! انا خائفة ! وعندما سمع أبى هذا دعا اليه العظماء للتشــاور وقال لهم « ان شيئا مثل هــذا لم يحدث فى حياتى قط » !

نقلا عن اعمال شوبيلوليوماش Suppiluliumas وفقا لرواية ابنه مورشيليش الثانى Mursilis (ترجمها هـ.ج. جوتربوك بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو)

ثمة أجناس كثيرة فى العالم قد زالت من الوجــود نعرف اســمها ، أما تاريخها وثقافتها فلا يزالان سرا خافيا يثير حيرتنا . فمنذ ما يقرب من أربعة آلاف عام ، وفوق هضبة الأناضول ، وفى قلب ما يعرف اليوم بتركيا عاش شعب لم يتم اكتشافه الا فى أوائــل هــذا القرن ، ولقد اتخذ هذا الشعب من خاتوشاش Hattusas ــ على مبعدة مائة ميــل شرقى أنقره بالقرب من قرية بوغازكوى Baghazköy الحديثة ــ عاصمة له .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الحيثيين لم يؤدوا غير دور قصير نسبيا على مسرح تاريخ العالم ، فانهم على جانب كبير من الأهميــة بالنســبة لنــا ، اذ خلفوا وراءهم أقدم ما أكتشف حتى يومنــــا هذا من الوثائق المكتوبة بلغة هندو أوربية ، ففى الفترة ما بين ١٨٠٠ و ١٢٠٠ ق.م تقريبا فرضوا

سيطرتهم على المنطقة الواقعة عند المنحنى الكبير لنهر قيصل يرموق Kizel Irmar التى تمتد الى البحر الأسود، والتى سماها الرومان باسم هاليس Halys ، كما توغلوا مسافات بعيدة شرقا وغربا وجنوبا ، ثم طواهم النسيان كما طوى غيرهم من الشعوب السابقة التى تشكل فيما بينها تاريخ البشرية ٠

وتقع بلاد الحيثيين ، الذين تحتل حضارتهم المرتبة الثالثة بين كبرى الحضارات القديمة ، فوق هضبة عالية ترتفع الى شرقي البحر الأبيض المتوسط ٠ أما الى الجنوب منها فتقوم جبال طوروس التى تشرف على السهل السورى ويمتد شمالها البحر الأسود ٠

ويعتبر الحيثيون شعبا غريبا ، أما غرابته فمردها الى أننا لا نعرف عنه حتى الآن سوى القليل ، فضلا عن الخلاف الكبير بينه وبين سائر الشعوب القديمة التى عرفناها فى غضون المائة سنة الحالية ، وتكشف نقوشهم البارزة على أنهم أناس قصار القامة مكتنزون عظامهم بارزة وجبهاتهم منحدرة ، أما أنوفهم فطويلة ومقوسة قليلا أشبه بمنقار الببغاء وذقونهم قصيرة ، وكانوا يرتدون أردية طويلة فوق قمصان قصيرة ، وقبعات عالية مخروطية الشكل وأحذية أو نعالا أطرافها الأمامية مقوسة الى أعلى ٠ وكان جنودهم ، كما تدل على ذلك النقوش البارزة المحفورة على البوابة المسماة ببوابة الملك فى بوغازكوى ، يرتدون قميصا به حزام وخوذة مزودة بأجزاء تغطى الأذنين ، ويحمل كل منهم سيفا قصيرا وبلطة حرب ، وقد استعار الحيثيون آلهتهم ونظام كتابتهم من بابل ونحتوا لوحات بارزة عظيمة فوق كتل ضخمة من الحجر بواجهات قصورهم ومعابدهم فضلا عن تلك التى نحتوها فوق أسطح الروابى الصخرية العالية ٠ ويبدأ تاريخهم ، على قدر ما تعلم فى الوقت الحاضر ، نحو عام ١٩٠٠ ق٠م وذلك فى الوقت الذى كان شعب كريت قد شرع بالفعل فى بناء قصر كنوسوس ، وفى الوقت الذى كان يحكم فيه مصر فراعنة الأسرة الثانية عشرة ٠ وانقسم الحيثيون بعد ذلك الى مدن مستقلة صغيرة يحكمها ملوك محليون ، لكن البلاد أخذت توحد صفوفها شيئا فشيئا تحت لواء حاكم واحد ٠ وبعد مضى ما يقرب من ٤٠٠ سنة هبط الحيثيون من هضبتهم وتدفقوا صوب الجنوب وأخضعوا الملوك الضعاف الذين كانوا يحكمون سوريا وفلسطين وهددوا بغزو مصر فهزمهم تحتمس الثالث وطاردهم متجها صوب الشمال ثم لم يلبث الحيثيون أن استعادوا قوتهم وظلوا يواجهون مصر مواجهة الند للند ، بل الخصم القوى سنوات عديدة٠

والواقع أن معرفتنا الحقيقية بالحيثيين قد بدأت عام ١٩٠٢ ، وذلك عندما قام المستشرق النرويجى ج ٠ أ ٠ كنودتزون J.A. Knudtzun

بدراسة لوحين من سجلات تل العمارنة الملكية بمصر وكان اللوحان مكتوبين بلغة مجهولة تماما ، لكن كنودتزون غامر بالقول أنه قد لاحظ فى هذين اللوحين آثارا للهجة هندو أوربية • وكانت هذه تعد من النظريات الجريئة فى ذلك الوقت ، وغنى عن البيان أنها قوبلت وقتئذ بالرفض من جانب خبراء اللغة الهندو أوربية جميعا • ومع هذا ظلت النقوش المهجورة التى تظهر على الجدران والخرائب وواجهات الصخور فى بوغازكوى موضع اهتمام من جانب العلماء الباحثين ردحا طويلا من الزمن • وبفضل جهود العالم الفرنسى أ • شانتر E. Chantre ثبت أن بعض النقوش المبتورة المتفرقة كتبت باللغة نفسها التى كتبت بها اللوحتان الرائعتان اللتان عثر عليهما فى تل العمارنة •

وفى الفترة ما بين ١٩٠٦ و ١٩١٢ بدأ معهد العلوم الشرقية الألمانى أعمال التنقيب فى حاتوساس القديمة باشراف الدكتور هيوجو فنكلر Hugo Winckler فتم اكتشاف مالا يقل عن عشرة آلاف لوح مكتوبة بالخط المسمارى • وقد ثبت فى النهاية أن كنودتزون كان على صواب فى قوله ان لوحى تل العمارنة كتبا بحروف حيثية أما ذلك الذى قام بتلك المهمة الشاقة المتعلقة بفك رموز هذه الألواح ، فهو العالم التشنيكوسلوفاكى النابه بدريش هروزنى BedrichHrozny الذى أثبت فى النهاية بما لا يدع مجالا لأدنى شك أن الشعب الذى دون هذه السجلات ينتسب الى أصل هندو أوربى ، وكان هذا الاكتشاف على جانب كبير من الأهمية اذ أمدنا بأقدم قرينة تاريخية على تغلغل المستوطنين الهندو أوربيين فى الشرق الأدنى •

وفى عام ١٩٣١ بعد انقضاء فترة طويلة على الحرب العالمية الأولى استأنفت فى حاتوساس أعمال التنقيب تحت اشراف كورت بيتل Kurt Bittel ولم تمض تسع سنوات حتى أمكن اكتشاف المعالم الرئيسية للمدينة القديمة •

ان اسم «بوغازكوى» ليصف المكان فى صدق حيث انه يعنى « قرية الأخدود » وخاتوشاش هى حصن ، وقلعتها بويوكالى (ومعناها القلعة الكبرى) تعد أهم وأروع الانتصارات المعمارية • ويبلغ أقصى ارتفاع للمدينة القديمة عند البوابة الجنوبية « يركابو » Yerkapu ، أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر • فلماذا اختار الحيثيون هذه البقعة بالذات لتكون عاصمة لامبراطوريتهم ؟ لقد كانت طبيعة هذه الأرض الوعرة بأخاديدها العميقة ونتوءاتها الصخرية ، تهىء موقعا مثاليا لتشييد احدى القلاع ، فقد كانت تحتل موقعا استراتيجيا يلتقى عنده طريقان تجاريان بالغا الأهمية ، كما كانت من المواقع التى يسهل الدفاع عنها الى أقصى حد ،

وكانت تتزود من النهر بكميات وافرة من الميـــاه ٠ وزيادة على ذلك فان ارتفاعها عن سطح البحر ورياحها المنتظمة جعــلا لها مناخا صحيا ٠ وقد اضطلع كورت بيتل ورودولف نومان ، المهندس المعمارى ، بالتنقيب فى آثار هذه القلعـة الجبليـة ودراســـتها ونشرا حـول ذلك تقـريرا هاما عام ١٩٥٢ ٠

ولعل هذه المدينة هى الأصل الهندو أوربى الأول الذى احتذته المدن الأوروبية المحصنة كافة فيما بعد ـ وكانت القلعـــة بويوكالى التى تقوم بمدينة خاتوشاش هى المكان الذى اعتاد أن يقيم فيه حكام الامبراطورية الحيثية ، وكانت أسوارها تأتلف وطبيعة الأرض الصخرية التى بنيت عليها بصورة تجعل منها قلعة منيعة بالمعنى الحرفى ٠ وأقيم كذلك معبد ضخم يعد أكبر مبنى دينى أقامه الحيثيون اكتملت له كل عنـاصره بحيث حوى غرفا فسيحة للتخزين ولايداع الأموال الأميرية ٠ وكانت أسـوار المدينة المنيعة تضم أربعة معابد أخـرى وقطاعات سكنية ترتفع أسطح منازلها المستوية فى هيئة شرفات على امتـداد سفوح الجبـل الشديدة الانحدار ، ثم أبراجا ضخمة ، وبوابات مهيبة وأنفاقا سرية نحتت فى الصخر لامكان الاغارة على العدو فى زمن الحرب ، كما كان بها سلالم شـــديدة الانحدار وأبواب سرية وشوارع مرصوفة ، فتلك المهارة التى تم بها ادماج القلعة بطبيعة الأرض المحيطة تبرر اعتبارها مثالا لرقى فن المعمار ٠ ويعتقد بيتل أن أسلوب التكتيل الأولى الظاهر على هذا البنـــاء وما يتركه من انطباع بقيام وحدة عضــوية بينه وبين الطبيعة الصـــخرية المحيطـة به يجعلانه نموذجا رائعا فريدا ٠ أما مؤسسو هــذه القلعــة فقد جـاءوا الى الشرق بمفهومهم الخاص للعالم ، وتدل الحفائر بوضوح على أن خاتوشـاش كانت مركزا لامبراطورية عظمى ، ولابد أن آلاف الأيدى العـاملة اشتركت فى بنـاء المدينة وكذلك آلاف البنائين والعمـال والصناع ، فقد استخدمت ٢٠٠ ألف لبنة فى بناء جزء فقط من سورها ، وهذا الجزء هو الذى يمتد من بوابة الملك مارا ببوابة يركابو الشامخة حتى بوابة الأسـد ، وذلك بخلاف ما استخدم فى بناء الشرفات البارزة أو الأسوار الخارجية ، ويقدر بيتل عدد سكان مدينة خاتوشاش وقت ان كان الحيثيون فى ذروة مجدهم بما لا يزيد على خمس عشرة أو عشرين ألف نسمة ٠

وان أسوار هذه المدينة وشرفاتها وأبراجها لتتوافق أشد التوافق وطبيعة الأرض المحيطة ٠ ولا غرو ، فقـد أزيلت صـخور وقطاعات كاملة من الجبل ، وشقت الأخاديد فى قلب الصـخر ، وربطت الكتـل الحجرية بعضها بالبعض بوســاطة طيـات معدنية ، وحشيت الفجوات العميقة ، ومهما يكن من أمر فان هذا السور (الذى كان يحيط القلعة بسمك قدره ١٧٫٥ قدما) قصد به أن يكون حصنا منيعا ٠

وعثر المنقبون الأثريون داخل القلعة على البناء الذي كانت تودع به المحفوظات والسجلات حيث اكتشف ٣٢٩٤ لوحا طينيا وشذرات من نصوص ادبية ، ولعل هذه الالواح كانت تودع صناديق خشبيه تشبه تلك التي كانت بتل العمارنة • كما كان أحد وجهيها مسطحا حتى يمكن تداولها بسهولة وتتضمن الكثير منها قوائم بالمقتنيات الملكيه •

ولقد عثر على عدد ضئيل للغاية من مقابر ترجع الى أيام الحيثيين • وفي ركن من أركان أحد المنازل اكتشف الباحثون عظام فتاة صغيرة تضع في أذنها اليمنى قرطا ذهبيا مسطحا وفي كل من ساعديها أسورة من البرونز الخالص ، كما عثروا ، بالقرب من أحد المواقد ، على هيكل عظمى لرجل يرقد على جنبه الأيسر شدت ساقاه الى أعلى ، ومن سوء الطالع أن جمجمته مهشمة كما لم يبق من عظامه الا بقايا جد قليلة ، وفي قبر آخر عثر على عظام لطفل تحلل الجزء الأكبر منها وقد توافرت عالمة الأجناس الألمانية ، صوفى ايرهارد Sophie Ehrhardt ، على دراسة عظام الفك الأسفل لدى هذا الطفل الذى يتراوح عمره بين الثالثة والرابعة عشرة • ولكن الحالة السيئة التي وجدت عليها معظم الهياكل العظمية للحيثيين جعلتها غير صالحة لأى بحث انثربولوجى ، ولقد كان الحيثيون يدفنون موتاهم فى بعض الأحيان داخل بيوتهم كما كانوا يمارسون عملية حرق رفات الموتى •

وكشفت لنا بوغازكوى عن أسرار أخرى جديدة ، حيث ان ما اكتشف من هياكل عظمية مكن العلماء من رسم صورة لعالم الحيوان في تلك العصور ، فالأجزاء التى عثر عليها من الهياكل العظمية لسبعة كلاب تكشف عن أن سكان خاتوشاش كانوا يحتفظون بكلاب متوسطة الحجم ، علها شبيهة بالكلب الاسترالى البرى من حيث البنية ، كما اكتشفت هياكل عظمية لستة خيول كانت تستخدم في حمل الأثقال • أما بقايا الحيوانات الأخرى التى تذبح وتقطع فتدل على أن الثيران كانت المصدر الرئيسي للحوم فى المدينة أما ما عثر عليه من حيوانات أخرى فيشمل الماعز والغنم والخنازير ، ومن الحيوانات البرية الأسود والثيران البرية والغزلان والثعالب والأرانب والابل والحمير الوحشية •

ويخيم على أنقاض بوغازكوى جو من الكآبة لا يمكن تحديده ، فقد كانت خاتوشاش عاصمة لامبراطورية مترامية ، بيد أن علماء الآثار يشعرون دائما بأن هذه المدينة الجبلية لم تزد عن كونها خلقا مصطنعا لا يمكنه البقاء الى الأبد ، كما انها لم تكن فى الحقيقة تمثل همزة وصل مناسبة بين الواحات الميسورة فى سهل الأناضول •

ومما لاشك فيه أن هذا الأثر الضخم الذى أسفرت عنه جهود الانسان قد واجه نهاية مروعة • فحيثما نقب بيتل وصحبه ، ســواء كان تنقيبهم فى الأحيــاء السكنية أم فى أســوار ياذيليكايا Yazilikaya عثروا على اثار لحريق مدمر التهم كل ما هو قابل للاشتعال ، وأحالت حرارته اللافحة الآجر كتلا حمراء صلبة ، كما تفجر الحجر الجيرى أو تشقق • ويعتقد بيتل أن المبانى لم تكن تحتوى فى العادة على كثير من المواد القابلة للاحتراق تكفل بلوغ هذه الدرجة من الحرارة • وفى رأيه أن عاملا بشريا معينــا قد أذكى عن عمد جذوة هذه النيران ، ولعــله عدو غير معروف اجتاح هــذا الموقع أثناء الهجرة الايجية وجاء معه بمواد قابلة للاشتعال • ولم ينج من هذه النيران الجائحة بيت أو معبد أو كوخ ، ولم يعثر المنقبون فى أى مكان على أدنى دليل • على أنه قد بذلت أية محاولة ، ولو على أضــيق نطاق ، لاعادة بناء المدينة زمن الحيثيين • ولا مراء أن عددا كبيرا من السـكان قد قتل كما أسر آخرون ، وبيعوا فى أسواق النخاسة ، أما البقية فقد لاذت بالفرار الى شمال سورية ، فمنذ ١٢٠٠ ق٠م فصاعدا أطبق على المدينة سكون الموت •

من أين أتى الحيثيون ؟ وعن أى طريق وصلوا الى هاليس ؟ وما نوع الثقافة التى جاءوا بها ؟ وما نظام الكتابة الذى استخدموه ؟ والى أى مدى يمكن أن نتتبع تاريخهم ؟

لم يقم الحيثيون على الدوام عند منحنى نهــر الهاليس • فلم يكن هؤلاء من سكان البلاد الأصليين وتزودنا فى هذا الصدد ثلاثة ألواح من الطين ببعض المعلومات البالغة الأهمية عثر على أحدها فى غرف التخزين جنوب شرقى المعبد الكبير عام ١٩٣٧ ، أما اللوحان الآخــران فيرجــع تاريخهما الى ما تم من اكتشافات قبل عام ١٩١٤ • وهذه الألواح الثلاثة من وضع ملك يدعى أنيتاس Anittas ويعتقد هاينريش أوتن — الحجة الألمانى فى اللغة الحيثية — فى صــحة ما تذكره من أحــداث من الوجهــة التاريخية •

وقد عاش الملك أنيتاس قرابة عام ١٨٠٠ ق٠م أى قبل ملوك الحيثيين الأقدمين الذين جاء ذكرهم فيما سلف ، بزمن طويل • وتفصل بينه وبين لابارناس Labarnas أول ملوكهم فترة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ عاما • ولقد ترجمت هذه الملوحات بقــدر ما ســمحت به عوادى الزمن ، ويبدو النص الذى كتب بلغــة الحيثيين القديمة كمــا لو كان تاريخــا مدعما بالأسانيد •

وكان الملك أنيتاس يقيم بقصر يدعى كوسارا Kussara ويحدثنا بأن أبــاه بتخاناس Pitkhanas فتح مدينــة نيســا (وربما كانت

كوسارا ونيسا مدينتين تقعان فى شرق الأناضول ، ولعلهما كانتا داخل منحنى نهر الهاليس ، بيد اننا لم نتمكن بعد من تحديد موقعيهما) ويمضى الملك أنيتاس فى تعريف نفسه لنا بأنه بعد أن مات أبوه حذا حذوه فى شن الحروب ، وألحق الهزيمة بجميع البلاد التى ناوأته ، وهاجمه بيجوستى ، ملك خاتى ، مرتين لكنه تمكن من الاستيلاء على خاتوشاش بضربة مباغته فى ليلة واحدة ، وفى مكانها أنبت أعشابا برية « أما من يملك من بعدى ويؤهل خاتوشاش بالناس فليصفعه اله العواصف السماوى » .

فهل كان الملك أنيتاس يكتب أصلا باللغة الحيثية ؟ (وكانت الألواح التى اكتشفت تمثل فى الواقع نسخا منقولة ترجع الى تاريخ لاحق) وهل يمكن أن تؤخذ روايته هذه دليلا على أن الأناضول قد عاش بها سكان من أصل هندو أوروبى حتى فى مثل هذا التاريخ المبكر الذى يرقى الى القرنين التاسع والثامن عشر قبل الميلاد ؟

ويقدم لنا هاينرش أوتن بعض الحجج القوية يعلل بها أن نص أنيتاس كتب أصلا باللغة الحيثية . وأن هؤلاء الحيثيين الذين هم من أصل هندو أوربى كانوا يقيمون فعلا فى الأناضول فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . ويرى بيتل كذلك أن الملك استخدم اللغة الحيثية ليسجل للبشرية من بعده أعماله العسكرية وخبراته فى الصيد والقنص ، ومن ثم يتبين أن لغة الحيثيين الهندو أوروبية كانت معروفة فعلا فى وسط آسيا الصغرى فى القرنين التاسع والثامن عشر قبل الميلاد ، وليس فى مقدورنا فى الوقت الراهن ، بالنظر الى قصور معرفتنا بالحيثيين ، أن نتتبع تاريخهم الى ما وراء هذه النقطة .

وكان الملك انيتاس قد استنزل اللعنة — كما سبق أن ذكرنا — على كل من يجرؤ على اعادة استعمار خاتوشاش ، بيد ان الذين خلفوه من حكام الحيثيين اتخذوا خاتوشاش عاصمة لهم . ولعل هذا يعنى أن خاتوشاش والملك بيجوستى قد وجدا قبل وصول الحيثيين بفترة طويلة . فلم تكن خاتوشاش اسما هندو أوربى ولا مدينة هندو أوربية كما أنها لم تكن ، على ما نعلم ، مدينة سامية ، كان سكانها يتحدثون اللغة الحاتيلية Hattili ، كما أن الهندو الأوربيين الذين فتحوا المدينة واستقروا بها كانوا يطلقون على أنفسهم عبارة « رجال ونساء حاتى » أو «أبناء حاتى» ، ومن هنا نشأ اسم الحيثيين فى الأناضول ، أما ذلك الشعب الذى سمى فيما بعد باسم « الحيثيين » فيرجح أنه وفد من منطقة أخرى .

ولقد كان من الراجح لفترة طويلة من الزمن (ومازال يتمسك بمثل هذه النظرية علماء كثيرون) أن هؤلاء المستوطنين قد وفدوا من الغرب ،

ويذهب الكثيرون من العلماء الى القول بأن الوطن الأصلي الهندو أوروبي انما هو وسط أوربا • ومن ناحية أخرى يعتقد البروفسير فيردناند زومر Ferdinand Somer بجامعــة ميونخ أن الهنود الأوروبيين قد دخلوا الأناضول ، على الأرجح ، قادمين من جهة الشمال الشرقي مخترقين المعبر القوقازي بين البحر الأسود وبحر قزوين • وربما لم تكن تلك الهجرة غزوا مباغتا بل تسللا تدريجيا استغرق سنين عديدة ، وظهر في سهل الأناضول قرب نهاية الألف سنة الثانية ، ومن كوسارا ونيسا اجتاحوا المدن الوسطى ودانت لسيطرتهم ثقافة المناطق الجبلية التي كانت أعرق من ثقافتهم •

وحين هاجر الحيثيون الى آسيا الصغرى أتـوا بخط قديـم مـن الخط المسماري الذي كانوا قد تلقنوه أثنـــاء تجوالهم • وكانت المستعمرات التجارية في الشرق تستخدم خطا مسماريا سوريا قديما يختلف اختلافا بينا عن كتابة الحيثيين التي هي قريبة الصلة بكتابة الأسرة المالكة الثالثة في أور ، أما السجلات والمراسلات التي عثر عليها في محفوظات مدينــة خاتوشاش فقد كتبت جميعها باللغة الحيثية •

وكانت لغة هذا الخط المسماري هندو أوربية ، ولم يعد هناك في الوقت الحاضر أدنى شك في البناء الهندو ـ أوربي الذي تقوم عليه اللغة الحيثية ، ونظرة عابرة تكشف للمرء كيف أن كلمه Utar الحيثية أصبحت water في الانجليزية و Wasser في الألمانية و wada في الروسية ، وكلمــة Yenu الحيثيــة أصبحت Knee في الانجليزية ، أو كيف أصــبحت كلمـــة Kardi الحيثيـــة Car في اللاتينيـــة و Heart في الانجليزية و Herz في الألمانية ، أو كلمة Pahhur التي أصبحت Fire في الانجليزية و Feuer في الألمانية •• وهكذا • صحيح أن جميع الأبحاث التي أجريت حتى الآن تكشف عن أن الكلمات اللاتينية التي تنتسب الى أصل هندو أوربي لا تمثل غير قلة قليلة من المفردات الحيثية بالأدلة الدامغة الوحيدة التي يستعان بها في تصنيف اللغة • فان النحو والصرف وما اليهما في اللغة انما هي عوامل أكثر أهمية ودولها ورسوخا ، أما قواعد الصرف في اللغة الحيثية فتدل دلالة قاطعــة على أنها لغة هندو أوربية ، كما كانت بالتأكيد لغة التخاطب بينهم دون أن تكون مجرد لغة تستخدم في الأغراض الأدبية أو الرسمية •

وثمة لغتان أخــريان ترتبطان ارتبــاطا شــديدا باللغة الحيثية هما « اللغة اللوفية » و « اللغة البلاوية » وكانت اللوفية هي لغة منطقة جبال طوروس • أما اللغة « البلاوية » فلم يبق منها أكثر من أربعمائة كلمة ، وكانت اللغات الثلاث ــ الحيثية واللوفية والبلاوية ــ وثيقة الصلة ببعضها

البعض ، كما هو الحال مع اللغات الانجليزية والسويدية والألمانية فى يومنا هذا .

وقد استخدم الحيثيون أيضا خطا هيروغليفيا هندو أوربى الأصل . وعثر على آثار لهذه الكتابة المصورة يرجع تاريخها الى الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر الى الخامس عشر قبل الميلاد . وبعد سقوط الامبراطورية الحيثية فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ساد هذا النوع من الكتابة فى دويلات المدن الحينية الحديثة فى جنوب شرقى الأناضول بما فى ذلك سامال Samal وقرقميش Carchemich وغيرهما ، أما الاكتشافات التى تمت فى قرقميش بوجه خاص فكانت جد غنية بالألواح التى كتبت بالخط الهيروغليفى .

ولماذا احتفظ الحيثيون بهذا الأسلوب الآخر من الكتابة ؟ لم يكن هذا الأسلوب يستخدم الا فى الأختام والنصب التذكارية والنقش على الحجر عامة ، ومن ثم لم يكن بالأهمية التى كانت عليها الكتابة المسمارية الشائعة ، وان كان تاريخ النماذج القديمة للكتابة الهيروغليفية التى استخدمها الحيثيون يرجع حتى الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فلابد أن فترة طويلة من التطور قد سبقتها حيث انها تكشف عن ميل معين الى التيسير كما أصبحت رموزها للصورة منمطة مبسطة ، ويعتقد بيتل أن هذا النوع من الكتابة قد أصبح شائع الاستعمال فعلا فى خلال النصف الآخر من الألف سنة الثالثة قبل الميلاد ، وأيسر سبيل الى تعليل ابتكار هذا الخط هو القول بانه صمم ليتفق ولغة قريبة الصلة باللغة الحيثية . وهذه هى النظرية التى يعتنقها جوتريوك ، وهى نظرية تحظى بالقبول فيما يبدو . ومن المرجح أن تكون اللغة الحيثية الهيروغليفية بمثابة لهجة من لهجات اللغة اللوفية . ومهما يكن من أمر فمن المؤكد انها عضو فى أسرة اللغة الحيثية اللوفية .

وانها لقصة مثيرة تلك التى تكمن وراء اكتشاف وتفسير الخط الهيروغليفى ولم تنشر هذه القصة الا أخيرا ، بل ولم تنشر كاملة الى اليوم. ففى خريف عام ١٩٤٧ وقع هـ . ت بوسرت Bossert ومعاونوه من الأتراك على كشف مثير ، ففوق ربوة كاراتيب Karatepe عند سفوح سلسلة جبال طوروس شرقى كيليكيا بالقرب من نهر سيحان كشف بوسرت عن بعض النقوش المكتوبة باللغتين الفينيقية والحيثية الهيروغليفية، وعلى الرغم من أن النصوص لم تكن متطابقة تماما الا أنها كانت على درجة من التشابه تمكننا من الكشف عن أسس الخط الحيثى الهيروغليفى . ومازال الغموض يكتنفها بالطبع ، كما أن كثيرا من المعلومات المستمدة منها كانت معروفة من قبل ، الا أن اكتشاف بوسرت الذى جاء بعد سنوات من البحث

المضنى من جانب كثير من الدارسين لنظم الكتابة الحيثية الهيروغليفية لايزال يعد من المعالم الرئيسية الهامة فى هذا الميدان ٠

وأثناء الحفريات التى أجريت فى القصر الملكي فى رأس شامرا على الساحل السورى عام ١٩٥٦ امكن اكتشاف عدد من الأختام التى كانت ذات أهميـة كبرى بالنسبة للدراسات الحيثية ، اذ كان يحيط بالكتابة الحيثية الهيروغليفية نص مكتوب بالخط المسمارى الاكادى القديم ، وعن طريق تلك الأختام تسنى للعـالم الفـرنسى لاروش Laroche أن يميط اللثام عن عدد كبير من الرموز الهيروغليفية ٠

وتدل النصوص المسمارية والهيروغليفية على السواء على أن اللغة الحيثية انما هى لغة هندو أوربية كما يمكن « فى الحقيقة » اعتبار الحيثيين ضمن الأسرة اللغوية الهندو أوربية ٠ ومن ناحية أخرى فان خصائصهم الجسمانية كانت عرضة على الدوام للاختلاط نتيجـة للتسافد والامتزاج بعنـاصر أجنبية غربية ، وكان تأثير هذه العوامل يقوى تارة ويضـعف تارة أخرى ٠ ولعله من الطريف أن نعرف من كان أكثر تقدما من الناحية الثقـافية : الهندو أوربيون الغزاة أم سكان خاتوشاش الأصـليون (ويعرفون علميا بالحيثيين الأوائل) ٠ ولقد عاش القـادمون الجدد ، فيما نعلم ، على وفاق مع السـكان الأصـليين وراح كل فريق يتعلم من الآخر الشيء الكثير ، ومع ذلك ليس من يقطع بأيهما ساهم بالدور الأكبر والأهم فى أسـلوب حياتهم المشـتركة ٠ ويرى كل من مورتجات وزومر أن السكان الأصليين ممن احتلت أراضيهم كانوا متفوقين ثقافيا على سادتهم الجدد فى نواحي كثيرة ٠ كما يعتقـد بيتل الذى قام بأبحـاث عند الموقع الأصلي للمدينة القديمة طوال سنوات عدة أن الحيثيين المهـاجرين كانوا متخلفين ثقافيا فى بادىء الأمر ، على الرغم من أنهم لم يلبثوا أن تشربوا الحضارة الأناضولية القديمة ٠

وكان الحيثيون دخلاء وفدوا من بقاع قصية ولكنهم ما إن استقر بهم المقام فى شرق الأناضول حتى احتضنوا حضارة البلاد الأصـلية ورفعوها الى ذرى انتزعت لنفسها الاعتراف العـالمي حتى فى نطاق عالم ذلك الحين ٠ ولكن على الرغم من أن الحيثيين جنوا كل ثمار الحضارة الأناضولية القديمة التى تبنوها فقد ظلوا يختلفون تماما عن البابليين فى معتقداتهم وآرائهم وعاداتهم ، كما كان لهم أسلوبهم المميز فى كل شيء ، سواء فى الملبس أو الزخرفة أو نحت التماثيل الأثرية أو تخطيط المدن ٠

وكانت خاتوشاش مدينة محصـنة كمـا كانت قلعتها بوياكالى تاج مجدها ، وعلى النقيض من ذلك فان المظهر الرئيسى للمدن الشهيرة فى بلاد

مابين النهرين كان يتمثل على الدوام في معبد اله مدينتهم ، كما لم يكن في استطاعة ملك الحيثيين ان يمارس سلطه استبداديه مطلقه لتلك التي كان يمارسها غيره من حكام الشرق ، كان بمثابه السيد الاعلى لشعبه في الحرب والسلم غير أن طبقة النبلاء كانت تحد من سلطاته هذه • ولا نجد ما يدل على آن الحيثيين اضطهدوا الشعوب التى قهروها أو انهم عذبوها ، كما كان دأب الآشوريين والميديين ، وكانت العقوبة التى يوقعونها أقل عنفا ، فلم يكن الحكم بالتشويه معروفا ومن النـــادر أن قضى بالاعدام على أحد من غير العبيد •

واننا لنستدل من قوانين الحيثيين على الكثير من مقومات حضارتهـم كما اســـتقينا من النقوش التى خلفوها بعض المعلومات المتعلقة بحياتهم الاجتماعية والثقافية • ويبدو أنهم كانوا شعبا معتدلا في مزاجه وطباعه ، وعندما كان الرجل الحيثي يرغب في الزواج كان يشترى لنفسـه زوجا ، بل كان بوسع العبـــد أن يبتاع امرأة حرة على حـــد سواء • ولم يكن الحيثيون ، على خلاف المصريين ، يسمحون بالتزاوج بين الأشقاء • ويتضح هذا من لوح تركه الملك شوبيلوليوماش ، وهـــو من ملوك الامبراطورية الحيثية ، يسدى فيه النصح الى شخص يدعى هوكاناس من بلاد هاجاسا (Hajasa) في الجبال الأرمنية بقوله « ليس للأخ أن يتزوج من أختـــه أو ابنة عمه فذلك محرم ومن يقدم على ذلك في خاتوشاش لا يظل على قيد الحياة بل موتا يموت » •

وذكر شوبيلوليوماش أنه وان كان من المألوف تماما في هاجاسا أن يتزوج المرء من شقيقته أو ابنـــة عمه فان مثـل هذا العمل محـــرم في خاتوشاش ، وكان الملك محقا في كتابته لهوكاناس بهذا الأسلوب ، ذلك لأنه رفع هذا الرجل القدير برغم رقة حاله الى مرتبة النبلاء وزوجه من احدى شقيقاته • ولذا كان يحاول جاهدا أن يقيم علاقات طيبة بين أسرته وحاشيته وبين زوج أخته الجديد • ويثير الملك نقطة انسانية هامة عندما يضيف قائلا : « واذا جاءتك احدى شقيقات زوجتك أو بنات عمومتها فقدم لها الغذاء والشراب ، وكلوا واشربوا وافرحوا معا ، لكن لا تشتهيها فهذا محرم وعقوبته الموت فاجتنبه ، بل لو سعى أحد الى اغرائك فلا تعبـأ ولا تذعن » وفي هذه النصيحة ما يشبه المثل الحكيم الذى ضربه سليمان •

ودام حكم شوبيلوليوماش ، الذى كان فيما يرجح أقوى حاكم في العالم آنذاك ، من ١٣٨٠ الى ١٣٤٠ ق•م تقريبا ، لقد استغل ببراعة وهن مصر السياسى في عهد اخناتون المصلح وضـم الى الامبراطورية الحيثية منطقة شمال سوريا بأسرها حتى حدود لبنان ، وهزم دول آســـيا الصغرى ،

وقضى على أمة الميتانيين • وكان يحق لهذا الرجل وقد بلغ هذه المكانة أن يتوقع بطبيعة الحال سلوكا قويما داخل دائرة أسرته ، ومن ثم نجد التحذير التالى الآخر على اللوح الموجه الى هوكاناس ويقضى بأنه على زوج شقيقته الجديد ألا يدنو من آية امرأة من نساء البلاد سواء كانت سيدة حرة أم أمة تخدم فى المعبد ، « فلا تدن منها ولا تعل لها تلمه ، ولا تسمح لخادمات أو أمتك بالاقتراب منها ، كن حذرا ، وبمجرد أن تقترب منك احدى نساء القصر ابتعد عن طريقها ودعها تمر » •

وفى ثنايا العهد الذى قطعه مع هوكاناس سرد له الملك القدير قصة قصيرة لتكون عبرة وموعظة له فقال : يبدو أن شخصا يدعى مارجاس رمى احدى خادمات المعبد بنظرة وهى تمر بجواره ، وحدث حينذاك أن كان شوبيلوليوماش ، رب الشمس ، يتطلع من النافذة ورأى طرفا من هذا الغزل والمداعبة ، وبعد أن أمر بالقاء القبض على مارجاس البائس سأله : لماذا نظرت الى هذه الفتاة ؟ وكان معنى أن يسأل رب الشمس مثل هذا السؤال أن يوقع على الشخص الحكم بالاعدام وعلى هذا الأساس أعدم مارجاس ، ومع ذلك ذهب الملك خطوة أبعد وأصر على ألا يعود زوج شقيقته الجديد الى الأساليب غير الأخلاقية القديمة حتى لو كان فى هاجاسا وطنه ، اذ قضى عليه أيضا بألا يمسن فى المستقبل زوجات أخيه وشقيقاته ، وان كان قد سمح له ، من الناحية الأخرى ، بأن يحتفظ بمحظياته اللاتى كن له من قبل •

وقد سبق أن ذكرنا فى فصل سابق كيف أن أرملة أحد الفراعنة المصريين بعثت برسالة الى أحد ملوك الحيثيين تطلب اليه أن يبعث اليها بواحد من أبنائه ليكون زوجا لها ، ولم يكن هذا الملك ، الذى لابد أنه أحس ببالغ الفخر لهذا الاقتراح ، غير شوبيلوليوماش ، ومن الجائز أن تكون هذه الملكة هى نفرتيتى ولو أننا لا نستطيع الجزم بأن صاحبة هذا المطلب كانت نفرتيتى أو انها كانت أرملة توت عنخ آمون ـ خليفة اخناتون• ويفترض كل من ادوارد ماير والكسندر شارف أن نفرتيتى فى الواقع هى التى كانت تفكر فى مثل مشروعات الزواج الغريبة هذه ، أما هاينريش جوتربوك فيعتقد ان أرملة توت عنخ آمون هى صاحبة هذا الاقتراح المثير ويشاركه هذا الرأى أ • ايدل ، عالم الآثار المصرية •

أما خبر هذه الفضيحة الأسرية التى وقعت منذ نحو ٣٣٠٠ سنة والذى لم يذع دون شك فى ذلك الحين فقد جاء فى « أعمال شوبيلوليوماش» التى كتبها ابنه مورشيليش الثانى • وفى الفترة مابين ١٩٥٤ و ١٩٥٦ استطاع جوتربوك أن يجمع بحرص أجزاء ألواح الطين التى كتب عليها هذا النص الممتع فى فرانكفورت وأنقرة ثم قام بترجمتها الى الانجليزية •

ولنعد الى ثلاثمائة عـام سابقة أى الى الوقت الذى اعتلى فيه عرش الحيثيين لابارناس Labarnas الثانى للذى يعرف أيضـا بخاتوشيليش (HathuSiliS) الأول • ولقد خلف لنا هذا الملك نصا مكتوبا باللغتين الحيثية والآكادية ، وهو عبارة عن وصيته وميثاقه الأخير الذى تمت كتابته وهو يحتضر على فراش الموت • ويبـدو أن زوجتـه الملكة ووريثه كانا يتآمران عليه • فلم يذرف ابنه دمعة واحدة ولم يظهر أى عطف نحو أبيه وهو يحتضر « انه متبلد المشاعر ولا رحمة فى قلبه فدعوته أنا الملك الى حيث يقوم فراشى ، لكنه لم يعد ابنى » ، فهدرت أمه كالثور • ولكن الملك ظل رابط الجأش ومضى يقول : « ان أمه كالحية ، وسـوف ينصت ابنى العـاق لمشورة أمه وأشقائه وشقيقاته ، ومن ثم فلسـوف ينكل بغيره وتتعرض البلاد لحمام من الدم » • وحذر الملك من الثورة والحرب الأهلية • وبدلا من أن يوصى بعرشه لولى العهد اختار حفيده مورشيليش Mursilis ابن ولى العهد ، خليفة له • وكان مورشيليش لا يزال صـغيرا فقـد قال الملك : « ربوه ليكون ملكا بطلا » • ولابد أن خاتوشيليش كان عالم نفس بارعا اذ أمر بأن يقرأ على حفيده مرسوم جده مرة كل شهر •

ومن اليسير علينا أن نستخلص من الألواح الطينية التى تركها ملوك الحيثيين أنهم كانوا ممن يكتنزون خبرة الأجيال العديدة ويطبقونها على ظروفهم الخاصـة • أما فيما يتعلق بالمعاهـدات فلم يـكن ملوك الحيثيين يكتفون بمجرد الاتفاق على تبادل المسـاعدة اذ كانوا خبراء أكفاء فى علم النفس يدركون عوامل الضعف والاغراء التى قد يتعرض لها الأصـدقاء والأقرباء أنفسهم ، وهذا هو السبب فى أنهم كانو اكثر حرصا من ساستنا المحدثين فيما اتخذوه من اجراءات الأمن • وكانـوا يؤكدون أن مـن يبرم معهم معاهدة ينبغى ألا يتردد فى ولائه كما كانت الاتفاقيـة تنص على أن من واجبـه ألا يتأثر بأى طرف خارجى • فمن كان عـدوا للشمس (وكان يرمز دائما الى ملك الحيثيين بالشمس) لابـد أن يـكون عـدوا لحليفه ، وعليه أن ينقل اليه كل ما يسمعه من وشاية تسىء اليه • ومن المؤثر أن نسمع مورشيليش الثانى الذى حكم من ١٩٣٩ الى ١٣٠٦ ق•م تقريبا يخاطب حليفه كوبانتا كال (Kupanta-Kal) ويسدى اليـه النصح بألا يصدق الشائعات الكاذبة • وتجرى كلماته التى ذكرها فعلا على النحو التالى : ان الطبيعة البشرية فاسـدة ، فاذا ما انتشرت الشائعات وجاءك من يهمس فى أذنك قائلا : « ان الشمس (الملك) تسىء اليك وانه (أى الملك) سيعمد الى الاسـتيلاء على دارك وأرضك ويلحق بك الأذى خليق بك أن تبلغ الشمس بذلك فورا » •

وعند ابرام مثل هذه المعاهدات كانت الأطراف المتعاقدة تقسم عادة

بآلهة الحيثيين الألف • أما صيغة القسم فكانت تجرى على النحو التالى : « لقد دعونا الالف اله ليكونوا حكما بيننا » وكان يطلب من الاله ابشمس الذى يسيطر على السماء ، وأرنيا ربة الشمس واله العاصفه الذى يهيمن على أماكن عدة ، وعشتاروث ملكة الجو والفلك ، وعدد اخر غير محدود من الآلهة والالهات بان يشهدوا على المعاهدة ويسألونهم تدمير كل من ينتهك قرار الملك •

ومع ذلك أتى الوقت الذى فشلت فيـــه آلهـة الحيثيين ، واندلعت النيران فى خاتوشاش فانهارت القلعـة والمعابد وغرق التحزين والمنازل وتوهجت السماء نارا ، وذلك عندما زالت دولة الحيثيين من المكان الذى كان ذات يوم مقرا لسلطانهم • وابتـــداء مـن عام ١٢٠٠ ق•م فصاعدا توقفت فجأة كل اشارة الى الحيثيين فى شرقى الأناضول وانتقـــل مسرح الأحداث الى جنوبها الشرقى حيث قامت ممالك الحيثيين الحديثة التى امتدت فترة ازدهارها الى نهاية القرن الثامن قبـــل الميلاد وانتهت بهزيمتها على أيدى الآشوريين •

ان موت الأمة أشبه بموت الفرد من حيث انه أمـر يصعب دائما فهمه ، وكل من يتأمل حصن بويوكالى الرائع ويطلق العنان لخياله خليق بأن يدرك قوة العزيمة الراسخة التى تحلى بها بناة بوغازكوى ، كما سنتبين أمرا آخر هو أن أولئك القـوم كانوا يشيدون من أجل الخلود • لقد حفروا الآبار ، وأنبتوا الكروم ، واعتنوا بأشجار التفاح ، وغرسوا الحقول ، وقاموا برعى الأغنام ، وكانوا اذا ما أمرهم الملك صنعوا المركبات وخاضوا غمار الحرب ، كما كانوا يشترون العبيد ويبيعونهم • وتنص الفقرة الرابعة عشرة من قانونهم على أن من لكم امرأة من العبيد فوق أنفها يعاقب بدفع ثلاثة شواقل من الفضة بينما كان جزاء هذه المخالفـة ذاتهـا اذا ما تعرض لها مواطن حر « مينا » كاملة ، أى ستين شاقلا ، وان هرب عبد وأمسك به آخر وأعاده الى صاحبه نال هذا الشخص مكافأة •

واذا قرر والدا العروس ــ بعد أن يدفع رجل ثمنا لها عدم الافتراق عن ابنتهما ــ أجبرا على أن يردا اليه الثمن مضاعفا •• ومن ناحية أخرى اذا حدث أن فتاة وعد والدها بزواجها من شخص بعينه وتزوجت فجأة من آخر وجب على العريس الذى ظفر بتلك الفتـاة فى هذه الحالة أن يرد لمنافســه ما يعادل نفقاته حتى آخـر لحظـــة • ويبـدو واضحا أن مكانة العطارين والرعاة فى نظر المجتمع كانت جد وضيعة اذ كانت الفتاة التى تقبل الزواج من بينهم تصبح أمة تلقائيا مدة ثلاث سنوات •

وتكشف قوانين الحيثيين بوضوح عن أسلوب حياتهم المتلون ، فالرجل

الذى يتسلل وراء امرأة الى الجبال المنعزلة ويغتصبها يحكم عليه بالاعدام، ولكن اذا اعتدى رجل على امرأة في منزلها تعتبر فى هذه الحالة شريكة له وينفذ فيها حكم الاعدام أيضا (أما شرف الأمة فلم يكن القانون يحميه) واذا قتل شخص حية وذكر اسم عدوه وهو يقتلها عوقب على هذا العمل السحرى الوبيل بمينا (ستون شاقلا) من الفضة ، ولو أن ذلك جاء من عبد لقطع رأسه • ولابد أن واحدا من الحيثيين على الأقل قد اســـتشاط غضبا الى حد انتزاعه أحد الأبواب وحمله بعيدا حتى صدر قانون لمواجهة تلك الحادثة الطارئة ، وكان على الجانى أن يعوض صاحب المنزل عما فقده من ماشية من جراء هذا التصرف ، علاوة على تغريمه مينا من الفضة •

ولا يكتمل موجز تاريخ الحيثيين السـياسى والثقافى الا بذكر شيء عن فنهم الذى يمـكن تقسيمه الى ثلاث مراحـل ، المرحـلة الأولى وتتعلق بالمملكة القديمة ويمتد تاريخها من ١٧٤٠ الى ١٤٦٠ ق•م ولا نعـرف عن هذه الفترة الا القليل فيما عدا ما امتازت به من مهارة ورقى فى صناعة الفخار والتماثيل الصغيرة كما يستدل على ذلك من الحفـائر التى تمت فى قول تبه (Kul-Tepe) ، وقانش (Kanesh) وهو الاسـم القديم لهذا المكان وقد ذاعت شهرته لأنه كان مستقرا للتجار الآشوريين ، الذين كانوا وسطاء فى تجارة النحاس والصوف بين الأناضول وآشور •

وأما المرحلة الثانية التى مر بها الفن الحيثى ، فهى فترة الامبراطورية الكبرى التى دامت من ١٤٦٠ الى ١٢٠٠ ق•م على وجه التقريب ، ففيهـا نجد المنحوتات التذكارية والألواح والأختام التى ترسم لنا صورة حية لفن النحت فى عهدهم ، وتنتشر هذه التماثيل فى جميع أنحاء الأناضـول من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ولكن أهم ما اكتشف الى الآن هى تلك التى عثر عليها فى الاجاهويوك (Alaca Huyuk) وبوابتها التى يقـوم أمامها تمثالا أبى الهول ، ونقوشها البارزة ، وفى بوغازكوى وبوابة الأسود فيها وصور الملك كاله ، أما أكثر الوحدات فاعلية وتأثيرا فهى تلك التى حصلنا عليهـا من يازيليكايا (YaziliKaya) على مسافة ميلين عبر الأخـدود من بويوكالى حيث امتلأت جدران الفجوات الطبيعية فى الصخر بصفوف من مواكب الآلهة والملوك والملكات الذين دونت أسماؤهم برموز هيروغليفية •

وبعد سقوط الامبراطورية ، وما أعقبه من انحـلال وتفكك يمكننـا الوقوف على فن الحيثين فى ممالك جنوب شرقى الأناضـول وخاصــة فى قرقميش وسنجيرلى (Sinjirli) وساكجى جـوزى (Sakegoziy) وماراش (Marash) حيث أمكن العثور على آثار قيمة • وتميزت هذه الآثار أيضا بمنحوتات بارزة تصور مواكب متصلة ثم منحوتات مفردة على ألواح من

الحجر نبتت بأساسات المبانى والقصور والدهاليز ، ولقد زودتنا كاراتبه Karatepe ـ المدينه الحصينة ـ فى المنطقة التى تعرف بأرض الدانونيين بانتاج غنى من النحت الى جانب النص الذى دون بلغتين ، كما تزودنا هذه الآثار بدورها بمجموعة مختلفة واسعة النطاق من الموضوعات والدلائل التى تكشف لنا عن طابع الحياة فى أخريات القرن الثامن عشر ، مثل مناظر الولائم ورحلات الصيد ومجموعات من راكبى القوارب ، ومشاهد العروض الموسيقية ومراسيم العبادة • فهى تكشف عن وجود ارتبـاط وثيق بين الفنون المحلية لكل من بلاد ما بين النهرين وآشـور وسـوريا وفينيقيا ومصر •

لقد كان الحيثيون شعبا بالغ الحيوية ، استطاع أن يخلق ثقافة فريدة وان كانت مستمدة من مصادر كثيرة الا أنها جعلتـه يتبوأ مكانته اللائقة تحت الشمس جنبا الى جنب مع آشور وبابل ومصر •

وكان الحيثيون جنسا قويا تجرى فى عروقهم دماء حارة ، ويلوح أن الحياة فى مرتفعات شرق الأناضول كانت فى تلك الأيام تزخر بالأحداث أكثر منها فى الوقت الراهن ، وبوسعنا أن نتصور كيف اعتاد الشبان الحيثيون الراغبون فى الزواج خوض كتل الثلج التى كانت ترتفع الى مستوى خصرهم تلفحهم الرياح الشمالية أو الشمالية الشرقية العاتيـة للالتقاء بعرائسهم ، وكيف كانت البهجة تملأ نفوس الناس عندما كانت الهضبة تكتسى بردائها السندسى الأخضر وكيف كانوا يحتفلون بالعيد الصاخب القصير الأجل ، النضير الذى لا يدوم الا حتى شهر يوليو ثم يعود ليتبدد فى المنظر الحلوى القاحل بلونه البنى القاتم الذى يبعث فى النفس الملل ، وكيف تحملوا حرارة الصيف اللافحة وبـرد الشـتاء القارص المصحوب بسقوط الثلج بكثرة ، وكيف تغلبوا على العزلة اللانهائية لوطنهم الجبلى وبددوا جو الحزن المخيم فوق مرتفعات الأناضول بالحياة والمرح ، لكن أتى اليوم الذى استسلموا فيه لما هو أخطرها فى الوجود •• شىء أعنف من الطبيعة بكل ما تملك من عوامل التدمير ألا وهو : العـدو فى صـورة الانسان •

فينيقيا

لم يكن لديهم قط متسع من الوقت

صعاليك يحضرون معهم تحفا لا حصر لها فى سفينتهم السوداء ٠

(هوميروس نحو سنة ٨٠٠ ق٠م)

نحن على يقين من الجنس الذى ينتمى اليه الفينيقيون ، ولكننا لا نعرف سوى النزر اليسير من تاريخهم ، واذا ما تمكنا من معرفة المكان الذى وفدوا منه على وجه الدقة فانه من الممكن معرفة مدنهم والأماكن التى ارتادوها فى رحلاتهم ، وأملنا أن نعرف المزيد عنهم من الحفريات التى تتم الآن فى أوجاريت (Ugarit) ٠

وأشد ما يبعث على الدهشة فيما يتعلق بالفينيقين هو أنه على الرغم من أنهم كانوا يمثلون فيما يحتمل أعظم الأجناس البحرية التى شهدها العالم القديم وأنهم أقاموا المدن على كل ساحل (وصلوا اليه) ، الا أنه يندر أن وجد شعب يستعصى على الدراسة والكشف مثلهم ؛ ذلك أنهم لم يتركوا وراءهم فى وطنهم الأصلى مملكة كبيرة أو دائمة ٠

ولعل الفينقيين من أصل سامى ، فهم من عشيرة الكنعانيين التى نقرأ عنها فى التوراة ٠ وكان الاسم ينطق وتتئذ كنعانى Kinahni كما نجده فى « ألواح تل العمارنة » وهى رسائل منقوشة على ألواح فخارية موجهة الى البلاط المصرى فى ١٤٠٠ ق٠م تقريبا ، وتم اكتشافها فى تل العمارنة بمصر ٠

واذا كان الفينيقيون من أصـــل ســـامى كمـا تدل لغتهم فانه مما يستلفت النظر أنهم استطاعوا أن ينموا فى نفوسهم مثل هذا الحب للبحر الذى لم يكن من سمات الساميين ، ففى جرأة وصبر لا ينفد عبروا البحار وبلغوا بقاعا لم يجرؤ أحد من قبلهم على أن يغامر بالارتحال اليها ، وكانت فينيقيا القديمة تضم المناطق الساحلية لسورية وهى :

بيبلوس وصـــور وصيدا وماراثوس وأوجاريت وبيروت وغيرها الـكثير • أما اســـم « فينيقى » فمن الجائز أن يكون مشتقا من الكلمة اليونانية (Phoinix) ومعناها شجرة النخيل أو من الصفة (Phoinos) ومعناها أحمر • وربما لقبهم اليونانيون بهذا الاســم نسبة الى بشرتهـم التى تميل الى اللون الأحمر أو اللون الأحمر القاتم • كما يحتمل أن يكون هذا الاسم مشتقا من الأقمشة المصبوغة بصبغة الأرجوان التى اشتهر بها الفينيقيون •

وعندما زار هيرودوت اليونانى فينيقيا ذكر أنه قد مضى على تأسيس صور ٢٣٠٠ سنة فان كانت زيارته ، كمـــا نعتقد ، قد تمت حـــول ٤٥٠ ق٠م فمعنى هذا أن (صور) فى رأيه قد تأسست سنة ٢٧٥٠ ق٠م على وجه التقريب •

وما أن حرر هؤلاء البحارة العظام أنفسهم من سيطرة المصريين حتى أصبحت لهم السيادة دون منازع على شرقى البحر الأبيض المتوســط ، وكانوا ينتجون المصنوعات الزجاجية والمعادن والزهريات الثمينة والأسلحة والحلى ويتجرون بالحبوب والخمور والأقمشة ويقايضون بهذه السلع على طول ســـواحل البحر الأبيض المتوســـط ، وينقلون بضائعهم الى أبعد الشواطىء هــذا وكانوا يحصـــلون على الرصاص والذهب والحديد من الشواطىء الجنوبية للبحر الأسود ويحملون سفنهم بالنحاس والأخشاب والحبوب من قبرص والعـــاج والذهب من أفريقيا ، والخمور من جنوب فرنسا ، والقصدير من البلاد الواقعة على طول الأطلنطى ، وكانوا أينما مضوا يختطفون الأجانب ويبيعونهم عبيدا وكادوا فى الحقيقة أن يكونوا الموردين الحقيقين الوحيدين لجوارى بيــوت الحريم فى ذلك الزمن ، كذلك تبـــادل الفينيقيون التجـــارة مع ترشيش (Tarshish) (التى يحتمـل أن تكون هى تارتيسوس (Tartesus) الواقعـــة فى جنوب غربى أسبانيا ، وكانوا يستوردون كميـــات هائلة من الفضة حتى قيل انهم صنعوا مراسى سفنهم من هـــذا المعدن ، وأبحرت سفنهم من غاديرا (Gadeira) قادش الحديثة ، تشـــق عباب مياه محيط الاطلنطى حتى بلغت « جزر القصدير » التى يحتمل أنها سواحل كورنيش بانجلترا •

ويقال ان الفينيقيين استطاعوا الدوران بحرا حــول افريقية قبل ميلاد المسيح بسبعمائة عام ، مما يعنى أنهم اكتشفوا رأس الرجاء الصالح قبل فاسكوداجاما (Vasco da Gama) بألفى عام ! وكانت سفنهم الضيقه القليلة الارتفــاع ، التى يصــل طولها فى غالب الأحيان الى مائة قدم ، قادرة على مواجهة التقلبات الجوية كافة لأن عبيد سفنهم الذين يحركون مجاديفها كانوا يجدون العون فى عملهم الشـــاق من شراع مربع كبير ، هذا وكان الجنود يرابطون على ظهر سفنهم اذ كان شعار الفينيقيين هو «التجارة أو القتال» غير انهم كانوا يجلون التجارة أشد الاجلال ولم يلجأوا الى استخدام السلاح الا اذا فشلت أساليب الاغراء الأخرى • ولابد أن سفنهم التى كان غاطسها لا يزيد على خمسة أقدام والتى لم تكن تعرف السير بالبوصلة ، كانت تلتزم السواحل كلما كان ذلك ممكنا ومع هذا فقد تعلم قادة السفن الفينيقية فى النهاية كيف يسترشدون بالنجوم فى توجيه سفنهم فأصبح « النجم الشمالى » يعرف بين اليونانيين فيما بعد « بالنجم الفينيقى » •

وأقام الفينيقيون المراكز التجارية والقلاع فى كل مكان استراتيجى على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فى قادش وقرطاجة ومرسيليا وفوق جزر المحيط الأطلنطى التى لم يتم اكتشافها من جديد الا في عصرنا هذا • وسيطر الفينيقيون على القسم الجنوبى والشرقى من قبرص ، كما كانت لهم جزيرتا ميلوس ورودس ، واستخدموا العبيد فى العمل فى مناجمهم ولم يتورعوا عن الخلط بين العمل والسلب والسرقة ؛ فكانوا يسلبون الضعفاء ويغشون البسطاء ولم يلتزموا بمبدأ الأمانة فى معاملاتهم الا مع الأقوياء من التجار كما مارسوا القرصنة ، فكانوا يدعون الأجانب الى ظهر سفنهم ثم يبحرون بهم دون اكتراث بشىء • ولذا أطلق اليونانيون الذين لم يترفعوا عن القيام ببعض أعمال القرصنة على نطاق محدود لفظ « فينيقى » كمصطلح عام للدلالة على كل زعماء القراصنة ، وقد صـــدق الشاعر هوميروس الذى عاش قبل ميلاد المسيح بنحو ٨٠٠ عام حين قال عنهم فى ملحمته الأوديسة « ثم جاء الفينيقيون البحارة المشهورون الأفاقون جالبين معهم حليا لاحصر لها فى سفينتهم السوداء » •

ولم يكن الفينيقيون تجارا وقراصنة فحسب بل كانوا أيضا حملة للحضارة بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى • فنقلوا العلوم وفن الكتابة من مصر وكريت والشرق الأدنى الى اليونان وأفريقيا وايطاليا وأسبانيا ، كما ربطوا الشرق بالغرب عن طريق التجارة وعملوا وسـطاء بين بابل ومصر ، وانتقلت المقومات الحضارية الى أوروبا داخل عنابر سفنهم المكتظة بالبراميل والبضائع •

وكانت الطبقة الارستقراطية التجارية الفينيقية تميل الى التجارة ولا تفكر فى الحرب الا قليلا ، ومن ثم أثرت مدنهم ثراء فاحشا • ويحتمل أن تكون بيبلوس هى أقدم عاصمة لهم كما كان البردى من أهم السلع التى اتجروا فيها ــ وهكذا صار اليونان يطلقون على الكتاب أيا كان نوعه « بيبلوس » (Biblos) وهذه هى اللفظة ذاتها التى حورت عن استعمال الكلمة اليونانية (tabiblia) الى كلمة (Bible) أى الكتاب المقدس فى الانجليزية •

وعلى مسيرة خمسين ميلا جنوبى بيبلوس تقع المدينة الساحلية صيدا التى أمدت فى الواقع الملك اكسركسيس بأسطوله كاملا كما استخدمت السفن الفينيقية أساسا فى المعارك البحرية التى خاضها الفرس ضد اليونان ــ وهكذا يمكن المرء أن يتحدث بحق عن الحروب اليونانية الفينيقية • ولما حاصر الفرس صيدا واستولوا عليها فى النهاية أضرم التجار الفينيقيون ، وقد أخذتهم العزة ، النار فى مدينتهم ، فأتى الحريق على اربعين ألف نسمة •

أما أهم المدن الفينيقية على الاطلاق فهى صور اذ كان بها ميناء رائع حيث انها مقامة فوق جزيرة تبعد عن الشاطىء بضعة أميال • وكان العبيد الذين جاءوا بهم من جميع دول البحر الأبيض المتوسط يشتغلون بنقل البضائع والصناديق والبراميل من السفن الى أماكن التخزين وبالعكس ، كما كان حيرام Hiram الأول ملك صور (٩٦٩ ــ ٩٣٦ ق٠م) صديقا للملكين داود وسليمان ، وقد قام بامدادهما بخشب الأرز والتجارين والبنائين ، وبحلول عام ٥٢٠ ق٠م كانت صور قد بلغت درجة من الثراء حملتها على تكديس الفضة « كالتراب والذهب كطين الأسواق » (زكريا ٩ : ٣) •

ولم يزد محيط المدينة عن الميلين ونصف الميل الا قليلا ، لكن مبانيها كانت مرتفعة الى درجة جعلتها تستوعب سكانها البالغ عددهم ٢٥ ألف نسمة • ومع ذلك فالمجموع الكلى لسكان المدينة كان يفوق ذلك ، فقد كانت هناك مدينة ساحلية على الشاطىء المقابل للجزيرة تعرف بصور القديمة ، ويروى أن نبوخذ نصر حاصر (صور) ثلاثا وعشرين سنة، الا أن التاريخ لم يذكر قط أنه استطاع الاستيلاء عليها •

ولقد أفلح الاسكندر الأكبر فى النهاية فى الاستيلاء على حصن الجزيرة ولكن قبل أن يبلغ مرماه تعين عليه أن يدمر مدينة صور القديمة ويبنى من أنقاضها جسرا ، وقد كونت رواسب الطمى بمضى الزمن لسانا يبلغ اتساعه اليوم عند أضيق نقطة منه ثلث الميل •

وكانت مدينة قرطاجة من المدن التى أسسها الفينيقيون (سنة ٨٧٨ ق٠م) ، وكان القرطاجيون من الفينيقيين والى هذا الجنس الفريد من التجار والبحارة ينتمى هانيبال ، كما أن العبقرية الفينيقية هى التى أقامت قلعة قرطاجة بمبانيها الشاهقة التى تفصل بينها شوارع ضيقة كالأخاديد ٠ ولقد صمدت قرطاجة لهجمات روما ردحا طويلا من الزمن قبل أن يستسلم سكانها التجار للفرق الرومانية ذات التفوق العسكرى الكبير ، وكشفت الحفائر الأخيرة أن شوارع قرطاجة كانت تمتد فى استقامة كشوارع نيويورك كما بلغ عدد سكانها فى عام ١٤٩ ق٠م ٧٠٠ ألف نسمة ٠

واتبع سكان قرطاجة أسلوبا بسيطا للغاية لضمان مرور تجارة شمال غرب أفريقيا بمينائهم فقد دأبوا على السماح للتجار الأجانب بالمجىء الى قرطاجة حيث يلقون ترحيبا وتكريما بالغين ، أما اذا عثروا على تجار أجانب فى أى من مستعمراتهم الأفريقية فانهم كانوا يعلقون الحجارة فى سيقانهم ويلقون بهم فى اليم ٠

وكان الفينيقيون يتعبدون لآلهة كثيرة وكان لكل مدينة من مدنهم بعلها (١) الخاص ٠ فكان بعل صور ، مثلا يدعى مليقارث (Melqarth) الذى كان فى قوة هرقل اليونانى وجاء بأعمال باهرة يحسده عليها البارون مونشهاوزن (Münchausen) (٢) نفسه كما أخذ الفينيقيون عشتاروت ربة الخصب والنماء عن البابليين ، وكان على وصيفات أستارت فى بيبلوس أن يضحين بخصلات شعرهن الطويل للآلهة وأن يلبين رغبة أى غريب يمر بهن فى فناء معبدها تماما كما كانت تفعل عذارى عشتاروت ـ ميليتا فى بابل) كذلك كان لديهم الاله مولوخ المرغب الذى كان الفينيقيون يقدمون له أطفالهم أحياء لتحرق كقرابين له وعندما حوصرت قرطاجة فى ٢٠٤ ق٠م قدم سكانها مائة ولد من أصل نبيل على مذبح مولوخ فى محاولة يائسة منهم لاستعطاف الاله حتى يرفع عنهم الحصار ٠

واهتم الفينيقيون ، شأنهم شأن المصريين ، اهتماما بالغا بدفن موتاهم بطريقة تضمن لهم البقاء ٠ وفى الفترة ما بين ١٩٢١ و ١٩٢٣ اكتشف علماء الآثار الفرنسيون وعلى رأسهم مونتيه (Montet)

---

(١) كلمة بعل السامية تدل على «السيد» أو «الرب» ـ اى ان كل مدينة كان لها الهها الخاص ـ المراجع

(٢) كارل فردريك فون مونشهاوزن ولد بمقاطعة وستفاليا شمال غربى ألمانيا سنة ١٧٢٠ وقد عاش حتى سنة ١٧٩٧ واشتهر بمغامراته المثيرة ـ المراجع ٠

تابوت أحيرام (Ahiram) البديع بالقرب من بيبلوس (وتعرف الآن بجبيل) وهو يحمل أقدم النقوش الفينيقية التى آلت الينا ٠

وقد أخذ التجار الفينيقيون بالمبادىء الواقعية العملية ولم يكونوا خياليين أو واهمين كما كانوا على الدوام فى عجلة من أمرهم شأن سكان المدن الكبرى كافة ، ولهذا لم يبق من آثارهم ، لسوء الحظ ، سوى النزر اليسير ، فقد حل الدمار والخراب جيلا بعد جيل بمعظم آثارهم أو أنها استحالت ترابا ، وبينما ظلت لفائف البردى واضحة يتسنى للمرء قراءتها عبر آلاف السنين فى جو مصر الجاف دب الفساد فى كل شىء على ساحل سوريا المشبع بالرطوبة ، فلم يكتشف فى فينيقيا نفسها غير مجموعة قليلة من النصوص المنقوشة على الحجر ، ولم يبق من معبد مليكارث فى صور حجر قائم واحد ، لقد اختفت المدن وانمحت من الوجود ، أما عن تلك الأعمال الفنية القليلة التى اكتشفت فتكاد كلها دون استثناء تشبه آثار مصر وبابل ٠

ونظرا لأن الفينيقيين قاموا بنقل المنجزات الفنية والعلمية التى تحققت فى عصرهم الى بلاد كثيرة ، فقد ساد الاعتقاد طويلا بأنهم هم الذين اخترعوا الزجاج والعملة والخزف والصينى ، بل وحروف الهجاء ، بيد أنه يستدل من الأبحاث العلمية على أنهم كانوا مقلدين عظاما وناقلين للثقافة دون أن يكونوا مخترعين ذوى قدرة وبراعة ٠ ولقد اتجروا بكل هذه السلع البديعة ولكنهم استوحوا فكرتها الأصلية فى الغالب الأعم من أماكن أخرى ٠ فأخذوا الحساب والموازين والمقاييس والعملة عن بابل، كما كانت صناعة الزجاج والخزف معروفة لدى المصريين قبل ذلك بزمن طويل ، ولم تطبق شهرة صيدا فى صناعة الزجاج الآفاق الا فى زمن متاخر ، كما أن حروف الهجاء مرت بسلسلة طويلة من التطورات قبل أن تصل الى الفينيقيين الذين لم يزيدوا عن تبسيط طريقة الكتابة المصرية المعقدة لتسهيل معاملاتهم التجارية ٠

ولم يثبت لدينا أن الفينيقيين كانوا المنتجين الأصليين لمادة الصباغة الأرجوانية التى اشتهروا بها ، حتى وان كانت براعتهم فى هذا الفن قد عادت عليهم بشهرة عالمية فى العالم القديم ، وكان الفينيقيون يستخلصون هذه الصبغة، التى كانت موضع طلب كبير، من القواقع البحرية الأرجوانية٠ ولم يكن لون صباغة صور الأرجوانية قرمزيا كما يخيل لنا فى غالب الأحيان بل بنفسجيا قاتما أقرب الى اللون الأسود ، وأشبه بلون الدم المتخثر ، واذا ما نظر اليه المرء من الجانب ، أو من أسفل ، أو فى الضوء الساطع الفاه أشد بريقا ٠ وكانت نساء الطبقات العليا فى مصر ، بل

والأوساط الراقية فى جميع آنحاء البحر الأبيض المتوسط ينظرن بعين التقدير البالغ الى المنسوجات المصبوغة فى صور ٠

وفى القسم الجنوبى من جزيرة صور السابقة اكتشفت طبقات كثيفة تتألف من المهملات المتحجرة الناتجة عن منشآت الصباغة فى القديم ، وكان اليونان ، فى الحقيقة ، يشعرون بالاشمئزاز عند مجرد ذكر صور ، اذ كانت تصدر عن مصانع الصباغة العديدة بها رائحة كريهة منفرة أشبه ما تكون برائحة الثوم ٠ ومع هذا فقد كان انتاجها محدودا حتى ان الأقمشة المصبوغة بالصبغة الارجوانية كانت باهظة الثمن كما أصبحت الأردية الأرجوانية علامة مميزة للملوك وحاشياتهم ٠

وكان الفينيقيون يصطادون المحار الحر بوساطة مضارب تشبه الأوانى المخصصة لتربية المحار التى توضع فى قاع البحر ، ثم يفتحون المحار وينتزعون غددها ، وتترك لتغلى فى قدور فوق نار هادئة عشرة أيام تزال عنها الرغوة خلالها بصفة مستمرة وعندما يصبح السائل مركزا تغمس الأقمشة التى يراد صبغها فى السائل وتترك لتجف فى الشمس ٠ ولا تتجلى روعة الألوان الا بعد أن يمر النسيج بكل هذه المراحل ، وبالنظر الى أن بريقها لا يظهر الا اذا عرضت للضوء فانها لا تحول قط ٠

وعندما اجتاح الاسكندر الأكبر مدينة صور فى يوليو سنة ٣٣٢ ق٠م كان هذا ايذانا بانهيار امبراطورية الفينيقيين ، فقد لقى ثمانية آلاف نسمة من الصوريين مصرعهم كما بيع ثلاثون ألفا آخرون فى سوق النخاسة ٠ وشهدت آرادوس (Aradus) وصيدا وصور وطرابلس تحت حكم بومبى (٤٦ ق٠م) فترة قصيرة من الازدهار ، ولكن شعبها اقتبس عادات الرومان وبدأ يتحدث باللاتينية واليونانية ، وتزوج رجالها من نساء أجنبيات ، وفى النهاية خرج هذا الجنس الغامض من جوابى البحار الشجعان من مسرح التاريخ العالمى ٠

بلاد الفرس

حينما جفا النوم اخشويرش

لما كان الملك اكسركيس (Xerxes) يستعرض قواته البرية والبحرية سنة ٤٨٠ ق٠م قبيل معركة سلاميس البحرية بكى وقال : « ان الحزن يستبد بى حين اتامل حياة الانسان القصيرة ، فمن بين هؤلاء الرجال جميعا لن يبق واحد على قيد الحياة بعد مائة عام » ٠

(هيرودوت)

ان الفترة التى نعرفها من تاريخ البشرية انما هى حقبة جد قصيرة حتى ان أروع الأحداث تضيع دائما فى غياهب الماضى ٠ وقد يكتب التاريخ الكامل للعالم فى ألف مجلد لكننا لا نستطيع قراءة سوى الفصل الأخير من آخر مجلد ، والفصل الأخير هو ذلك الذى يعرض لأفول نجم شعوب الشرق الأدنى تدريجيا وخضوعهم للأجناس الهندو ايرانية أو الآرية ٠ ولعل سهول آسيا الوسطى الفسيحة أو سهول جنوب روسيا أو شواطىء بحر البلطيق ، كانت هى الموطن الأصلى لهؤلاء الغزاة الآريين ٠ وتحدثنا الأساطير القديمة ، ولا شك ، عن أرض مفقودة تسمى أريانيم فايجو (Aryanem Vaejo) وعن شعوب رحل هاجرت الى بلاد الفرس والهند عن طريق بخارى وسمرقند ٠

ولم تزد فترة ازدهار الامبراطورية الفارسية ــ وهى أعظم امبراطورية عرفها العالم القديم ــ عن ٢٢٥ عاما تقريبا ، وذلك من ٥٥٩

الى ٣٣١ ق٠م ، بيد أن هذه الأعوام الثلاثمائة شهدت فيها هضبة الجبال الايرانية وربوع الشرق الأدنى انبثاق مسرخية يجعلنا سحرها وفخامتها وغرابتها دائما فى ذهول من تلك العبقرية الضالة والفجور والاسراف بل والعظمة كذلك التى اتصف بها بعض ملوك ميديا وفارس الذين صنعوا تاريخ تلك المنطقة منذ أكثر من ألفى عام خلت ٠

ولقـد قامت الامبراطورية الفارسية على أنقـاض شعب كانت له السيادة والغلبة يسـمى بالشعب الميدى ، لكن من أين انحدر الميديون أنفسهم ؟

من الثابت أن رحلاتهم بدأت من مكان ما فى جنوب روسيا اذ أنهم بلغوا بلاد فارس بعد أن عبروا الجبال التى تفصل بين البحر الأسـود وبحر قزوين ٠ وواصل عدد كبير من هؤلاء رحلتهم حتى الهند بينما ألقى الآخرون عصا الترحال فيما يعرف اليوم بايران ، وهم يمثلون جنسا من الرحل والرعـاة طوال القـامة بيض البشرة ، وكانت أهم بدعة حضارية جاءوا بها هى الحصان ٠ ولم يمض زمن طـويل حتى سيطر هـؤلاء وسلالتهم على ممالك بابل وآشور وسوريا ٠

وفى مقدمة من نعرفهم من ملوك الميديين ، ديوكس (Deioces) الذى أسس اكباتانا (Ecbatana) فوق أحد التلال واتخذ منها عاصمة وتوجها بمعبد كان يتألق ويتلألأ تحت أشعة الشمس ٠ ويقال ان المدينة كانت محوطة بسبعة أسوار أولها من الداخل من الذهب الخالص ، وثانيها من الفضة ، وثالثها من الآجر ذى اللون البرتقالى اللامع ، أما البقية فكانت من الآجر الأزرق والأحمر والأسـود والأبيض ٠ ولم يبق لتلك المدينة الأسطورية أثر بعد عين ، ولا يسعنا الا أن نتساءل عما اذا كان من الممكن الكشف عن الجدران الذهبية الصلبة ٠ ويحتمل أن تكون اكباتانا قـد قامت وازدهرت فى الموقع الذى أقيمت عليه مدينة همدان الحديثة ومما يذكره هيرودوت أنه لم يكن يسمح لأحد من سكانها بالمثول فى حضرة الملك حتى ساد الاعتقاد بأنه مغاير فى هيئته عن سائر بنى الانسان ٠

ومن أبرز ملوك الميديين كى اخسار (Cyaxares) الذى دمر نينوى ، ثم ضرب حصارا حول سارديس حيث يقال ان كسوف الشمس قد أثار الرعب فى نفوس كل من فرضوا الحصار ومن خضعوا له ، فما كان من الجانبين الا أن عقدا صلحا على الفور وتبادلا طاسين مملوءين بدماء بشرية قاما بسكبهما على الأرض وفقا لمراسيم خاصة كدليل على انهاء الحرب وحقن الدماء ٠

ولم يخلف لنا الميديون حجرا واحدا ولا سطرا مكتوبا ، ولا شـيئا يذكر من فنونهم ٠

وفي عام ٥٨٥ ق٠م تولى استياجس (Astyages) مقاليد الحكم خلفا لأبيه كى اخسار ، فتربع على عرش الميديين فى اكباتانا وقد عقد العزم على الحفاظ على ملكه والاستمتاع بسلطانه أطول فترة ممكنة ، وأدخل هذا الملك الى بلاده الأزياء الفخمة وكل ما يتصوره العقل من ألوان الترف ٠ فكان النبلاء يرتدون السراويل المطرزة وهى أردية من اختراع الميديين وحدهم اذ لم تكن معروفة حتى ذلك الحين ، بينما كانت النسوة تقضين جل أوقاتهن ويستنفدن كل جهدهن فى العناية ببشرتهن الرقيقة كما كن مولعات أشد الولع بأدوات الزينة والحلى ٠ ودولة هذا حالها تعرضت على الدوام لغزوات الفرسان من سهول الشمال والشرق ، وفى دولة كان الحصان وراكبه يكونان وحدة دفاعية لا غناء عنها ، كانت ظهور الحيوانات تغطى بسروج موشاة بالذهب ، كما كانت العاصمة المتألقة اكباتانا مسرحا للاحتفالات والأعياد المتلاحقة ٠

ان مثل هذه الفخامة المسرفة لتؤذن دائما باقتراب ساعة النهاية ، وتنذر بالدمار المحدق وتولد فى النفس مختلف المخاوف والهواجس والرهبة من الكابوس الداهم ، والانسان بطبيعته عندما يبلغ ذروة قوته يسلك سلوكا شائنا لا يليق ٠ وقد أنبأ العرافون الملك استياجس أن حفيده من ابنته سوف يسيطر يوما من الأيام على بلاد الميديين بأسرها ٠ ومن ثم فانه عندما زوج ابنته « ماندانى » لم يختر لها أحد الميديين بل اختار لها قمبيز وهو الأمير الفارسى الذى كان يحكم ولاية تابعة له ، واعتقد استياجس أن بوسعه التخلص من الذرية الناشئة عن هذا الزواج ، فقد كان الميديون لا يكنون أى احترام للفرس وينظرون اليهم بعين الازدراء التام ٠ وما أن أنجبت ماندانى من زوجها ابنا ذكرا اسمه قورش حتى أمر استياجس كبير مستشاريه هارباجوس بقتل الطفل ٠ بيد أن هارباجوس لم يطع هذه الاوامر بل أوصى رعاة الأبقار برعاية الطفل فترعرع قورش وسط المرتفعات القارية العاصفة الواقعة الى شمال اكباتانا ليصبح أبرع ساسة عصره ٠

ويسرد هيرودوت قصة مروعة حول هذه الواقعة فيقول ان استياجس اكتشف ذات يوم أن هارباجوس قد أبقى على حياة قورش ، فرأى أن يعاقبه باعداد لحم مقدد من بدن ابن هارباجوس بعد أن قطع رأسه وقدميه ويديه ، وفيما هما جالسان الى المائدة عرض استياجس على مستشاره رأس ابنه الميت فعول هارباجوس على أن يظهر بمظهر الهدوء قائلا : « كل ما يفعله الملك طيب » ، ولكنه ظل منذ ذلك اليوم يتحين الفرصة التى أتيحت له عندما شب قورش ، فتحالف معه ودعا جيوش الفرس الى بلاد الميديين وأعانهم على تحقيق النصر ٠٠٠ ومن الجدير بالذكر أن قورش

كشف منذ البداية عن شهامته وسعه صدره اذ سمح لاستياجس بأن يقضى حياته كريما معززا جدا بعد هزيمته وأسره •

وهكذا سقطت بلاد الميديين فى أيدى أبناء عمومتهم الفرس الذين كانوا من أصل هندو أوروبى مثلهم ، واستقر الفرس حينذاك فى انزان (Anzan) بجنوب عيلام واتخذوا من سوسه (Susa) عاصمة لهم ، وعادوا بشجرتهم الأسرية المالكة الى الاخمينيين الذين أطلق عليهم هذا الاسم نسبة الى أخيمين (Achaemenes) مليكهم الأول الذى حكم فى الفترة ما بين ٧٠٠ و٦٧٥ ق٠م والذى خلفه تيسبيس (Teispes) وقورش الأول وقمبيز الأول وقورش الثانى الذى بدأ به تاريخ الفرس الحقيقى •

وفى عام ١٩٢٨ حينما كان أ • هيرتسفلد (Herzfeld) ينقب فى مدارى سليمان القريبة من نهر بولفار على مسافة ٢٥ ميلا من مدينة شوشتار الحديثة وعلى بعد ثلاثمائة ميل تقريبا الى الجنوب من سوسه ، عثر على خرائب قصر الملك قورش فى باسار جاواى ، أما مقبرة قورش فكانت قد اكتشفت قبل ذلك بفترة طويلة فى بقعة منعزلة بكامل هيئتها على الرغم من مرور قرون طويلة تعرضت فيها للشمس المحرقة والرياح العاصفة • وكان يحيط بهذه المقبرة متنزه وأسوار وأعمدة لاتزال تظهر فوق أحدها الكلمات التالية التى نقشت بالأحرف المسمارية : « أنا الملك قورش الأخمينى » ، أما القبر فكان شاغرا خاويا منذ قرون اذ أن التابوت الذهبى الذى حفظ فيه جثمان قورش الأكبر كان قد سرق منذ وقت طويل •

وبهزيمة اكباتانا استطاع قورش بضربة عاصفة أن يخضع ميديا كلها لسلطانه ، وهكذا تأسست الامبراطورية الفارسية ، وكان قورش فى نظر الفرس نموذجا للرجل ذى اللياقة البدنية ولعلهم لم يحبوه لأنه كان وسيما، بل رأوا فيه الوسامة لأنهم أحبوه، ويذكر بلوتارخ(Plutarch) أن الأنف المعقوفة كانت تبدو فى نظر الفرس سمة من سمات الجمال ، فما سر ذلك ؟ السبب هو أنه كانت لقورش أنف من هذا الطراز ، اننا لا نعرف الكثير عن قورش الأكبر لأن مؤلف زينفون (Xenphon) المعروف بعنوان كيروبايديا (Cyropaedia) أو « طفولة قورش » ، لم يكن تاريخا بقدر ما كان أنشودة مديح للملك وبحثا تعليميا يحمل الطابع اليونانى الصرف ويخضع لتأثير فلسفة سقراط الذى كان صديقا لزنفون • وكان أول اجراء يقوم به قورش هو تكوين جيش قوى سار على رأسه ليهزم ليديا وعاصمتها الشهيرة ساردیس • ويبدو أن حكم الملك قورش المظفر كان أشبه بساعة من أروع الساعات فى تاريخ البشرية وأكثرها اشراقا

اذ كان يعمل بتوجيه من حنكة سياسية غامضة شبيهة بتلك التى كان قيصر يتمتع بها ويسترشد بروح من التحرر والكرم والعظمة الحقيقية ٠

واستسلمت كل من كاريا (Caria) وليكيا (Lycia) وايونيا (Ionia) للقواد الذين أرسلهم ملك الفرس بينما قام قورش بحماية الامبراطورية من جهة الشرق من الغارات الجريئة التى كانت تشنها قبائل الساكا (الاسقوثيون) من سهول تورانيا ، كما مد سلطانه الى باكتريا (Bactria) ومارجيانا (Margiana) وسوجديانا (Sogdiana) وأقام على الحدود البعيدة ، على نهر جيحون (Jaxartes) (١) شمالى سمرقند الحديثة حصن كيرشاتا المنيع ، وأخضع بابل التى كانت ساخطة على حاكمها نابونيدوس (Nabonidus) ودخل المدينة القديمة فى ٢٩ من عام ٥٣٩ ق٠م وسط مظاهر البهجة والفرح ٠ فحرر اليهود المسبيين وقدم القرابين لمردوخ اله بابل ، وأنهى سيطرة الساميين على غربى آسيا مدة الألف عام التالية ٠ وبفضل قيادته وتوجيهه نعمت الامبراطورية الفارسية بأشد النظم الحكومية احكاما ودقة فى العالم القديم قبل الرومان ٠

ويبدو أن قورش كان متسامحا مع ديانات الشعوب الأخرى فاحترم آلهتهم وتعبد فى محاريبهم ورأى من الحكمة أن يضع نفسه تحت حماية آلهتهم ومعبوداتهم ، حيث انه صان معابدهم وكان يقف وقفة اجلال وخشوع عند رفع البخور أمام كل من النصب المقدسة ٠ ولم ينحدر قط قورش الى وهدة المذابح والقتل بالجملة ، بل حاول دائما كسب ود الشعب ، فظل مثالا لروح غربى آسيا الجديدة وعبقريتها الفذة حتى ظهر الاسكندر الأكبر على مسرح الأحداث العالمى ٠

فلا غرابة اذن أن استقبلته الشعوب بمثل هذا الترحيب ، ولا عجب فى أن احتل بابل بتأييد غالبية مواطنيها ، وان قادة الجيش والأمراء وشعب سومر وآكاد خروا أمامه على الأرض وقبلوا قدميه ، لقد كان بطبيعته رجلا متسامحا ، وربما توصل بداهة ــ فوق عقيدته الدينية والهه اهورا مازدا ــ الى أن الكون يحكمه اله لم يتوصل بعد الى معرفته ٠ وجدير بالذكر أن قورش هو الذى أعاد بناء هيكل يهوه فى أورشليم بعد تدميره ٠

ولم يقض قورش نحبه فى فراشه وبعاصمته اكباتانا ، فقد خاض بنفسه معركة ضد رماة السهام الآسيويين المغيرين ، وضد الفرسان الميساجيين الذين انطلقوا من سهول تركستان فى الشمال بتحريض

---

(١) يسمى سرداريا كذلك ــ المراجع

من الاسقوثيين . وفى كفاحه البطولى لهذا الخطر الداهم الذى يتهدد بلاد الفرس العزيزة ، لقى هذا الاخمينى العظيم حتفه فى صيف عام ٥٢٩ ق.م ، ضحية المناورات الماكرة التى لجأ اليها خصومه الفرسان ورفقاؤهم من رماة السهام المخوفين .

وفى وسع ساستنا المعاصرين أن يتعلموا الكثير من تاريخ قورش وان كان هذا الرجل قد عاش ، فيما يبدو ، منذ ٢٥٠٠ سنة الا أن ذكاء الساسة لم يتقدم تقدما ملحوظا منذ ذلك التاريخ ، فمثلا كان كرويسوس ملك ليديا شهيرا يحسد على ثرائه ، جمع ثروته الأسطورية من عائد مناجم الذهب ومن بعض المشروعات الاقتصادية الأخرى ، وكانت عاصمته ساريس مركزا مرموقا من مراكز ازدهار الفنون والعلوم وقد سأل كرويسوس الفيلسوف سولون عن رأيه فى مثل هذه السعادة الغامرة والثراء العريض فأجابه بهدوء ان على المرء ألا يعتبر نفسه سعيدا الا اذا عاش حياته العريضة حتى النهاية . وحينما اجتاح قورش ساريس ، وشد الفرس وثاق كرويسوس الى قائم وأعدوا العدة لاحراقه تذكر هذا فجأة وهو يدفع الى كومة الحطب ، على وشك الموت ، كلمات سولون الحكيمة وطفق يردد اسم الفيلسوف فسمعه قورش نفسه وطلب تفسيرا لما قال ، فلما روى له القصة أطلق قورش الحكيم سراح الملك المهزوم ، الذى كان من ألد أعداء الفرس واقتطعه مساحات كبيرة من الأراضى الى جانب مركز مرموق فى بلاطه اذ عينه مستشارا شخصيا له . وظل كرويسوس فى خدمة الملك الحكيم مدة ثلاثين عاما ، كما خدم خليفته قمبيز من بعده .

ويعتبر قمبيز ، ابن قورش ، أقرب شبها الى الصورة المعاصرة للديكتاتور الحديث ، كما كان على النقيض تماما من أبيه ، اذ قتل أخاه سمرديس وامتد بامبراطوريته الى نهر النيل ، وكان يذبح كل من يقوم بأسره وهو فى طريقه وروى عنه أنه ألقى بنصيب الآلهة المصرية فى الرغام بل فتح مقابر الفراعنة وأخرج منها المومياءات مما كان يعتبر فى ذلك الوقت من الجرائم الشائنة ، معلنا أنه كان يهدف من وراء ذلك الى تطهير المصريين من خرافاتهم ، وكيفما كان الأمر ، نظرا لأنه أصيب فى آخر حياته بجنون العظمة ، فان الكلمة الأخيرة كانت للمصريين اذ أنهم اقتنعوا بأن آلهتهم قد عاقبته على ما اقترف من جرم .

ولقد اتخذ قمبيز فى أخريات حياته ، ولاشك ، صورة شبيهة بصورة نيرون اذ قتل شقيقته بأن لكمها فى معدتها بقبضته وقتل زوجه « روكسانى » ، وأصاب أبنه برنسباسبيس بجروح خطيرة عندما رماه بسهم ، وعلى سبيل التغيير أمر بدفن اثنى عشر من نبلاء الفرس أحياء

وحكم على كرويسوس بالاعدام ، ومع هذا كان لا يلبث بعد أن يصدر حكمه أن يشعر بالندم ويجهش بالبكاء • لكنه ما أن كان يكتشف أن حكم الاعدام لم ينفذ حتى يستشيط غضبا مجددا ، ويعاقب الضباط الذين لم يذعنوا لأوامره • وكان لابد أن تسفر كل أعماله الجنونية عن نشوب ثورة ، وظهر على المسرح أحد المشعوذين الدينيين زاعما أنه سمرديس ، الأخ الذى قتله قمبيز منذ وقت طويل ، فما لبث أن أطاحت الثورة بسمرديس المخادع وجاءت بداريوس الى العرش •

ويتردد اسم داريوس (Darius) فى التاريخ اليونانى على أنه الملك الذى حاقت به الهزيمة فى ماراثون سنة ٤٩٠ ق٠م ، ومما هو جدير بالاهتمام حقا أن هيرودوت يرجع فشل داريوس الى أنه أخذ ذات يوم بمشورة امرأة • فيذكر أنه حدث أن أصيبت قدم الملك وهو يقفز من ظهر جواده فى احدى رحلات الصيد ، فطلب استدعاء أحد الأطباء المصريين (وكان الأطباء المصريون ينظر اليهم فى ذلك الحين على اعتبار أنهم أبرع أطباء العالم حتى بعد أن هبط مستوى كفاءتهم) • ففى الزمن الذى وقعت فيه هذه الحادثة ، وذلك سنة ٤٩٢ ق٠م ، كان الأطباء اليونانيون أكثر تفوقا من زملائهم المصريين • وعلى أية حال فقد حاول الأطباء المصريون رد عظام قدم الملك الى مكانها فسببوا له من الألم ما حرمه من النوم سبع ليال كاملة ، وهنا سمع الملك عن الطبيب اليونانى ديموسيدس (Democedes) من كروتون ، فدعاه على الفور الى بلاطه ، وجىء بديموسيدس مكبلا بالأغلال لا تستر بدنه سوى خرق بالية • والافراط فى المعرفة أمر محفوف بالخطر • لقد كان ديموسيدس مرغوبا فى أماكن كثيرة شأنه شأن علماء الذرة فى يومنا هذا وكان يخشى لو أن داريوس عرف مقدرته العظيمة فقد لا يسمح له بالعودة الى وطنه • فأنكر معرفته بالطب تماما • فهدده داريوس ، الذى كان يعلم أن هذا الطبيب انما يضلل به ، بالتعذيب ، فأفلحت الحيلة وعالج ديموسيدس قدم الملك فأهداه سلسلتين من الذهب أجرا له • ولقد كان ديموسيدس أعظم جراح فى عصره ، واليه يرجع معظم الفضل فى الشهرة التى حققها ومكث الطبيب فى بلاط ملك الفرس ، بيد أن الحنين الى الوطن كان يعاوده حينا بعد حين ، وبدأ له أنه لو اتحدت بلاد اليونان مع فارس لأتاح له ذلك العودة الى بلاده ، بيد أن الستار الحديدى الذى كان دائما بين الدولتين فى ذلك الوقت حال دون عودته •

وحدث أن أصيبت آتوسا ، زوج داريوس ، بسرطان فى الصدر وأخفت المرض فى بادىء الأمر ، فما أن ازداد تورم صدرها حتى أرسلت فى طلب ديموسيدس الذى وعد بشفائها على شريطة أن تقنع زوجها بفتح

بلاد اليونان ، وشفيت آتوسا وشرعت ذات ليلة وهي في غرفة النوم الملكية في اغراء ربها وسيدها ، كما يروي التاريخ ، قائلة له : « ازحف على هيلاس لأني أريد خادمات من اسبرطه وأرجوس وأثينا وكورينته ، كما أن لديك مستشارا أمينا على بينة من أحوال اليونان هو طبيبنا ديموسيدس » • واستسلم الملك لهذا الاغراء وقام بحملة ضد اليونان انتهت بمعركة ماراثون ••• هذا ، على الأقل هو تفسير اليونان للحادثة •

ومع ذلك فان داريوس المقهور ظل شخصية يعمل لها كل حساب • ففي غربي آسيا أعاد بناء الامبراطورية الفارسية المترامية ، واستطاع أن يخمد الثورات الجانحة التي اندلعت نيرانها في عدد كبير من الأقاليم التابعة له • واستعان داريوس في حكم الامبراطورية بنظام بيروقراطي محكم صارم ، كما وجد بين الأجهزة الادارية الضخمة باستخدام اللغة الآرامية ، وكانت هذه هي اللغة الراقية المتداولة بين رجال السياسة والتي كانت تستخدم على نطاق واسع في عهد الامبراطورية الآشورية •

وفي عام ٥٢٠ ق•م قام داريوس بتغطية جدار صخري شديد الانحدار بالرسومات والنقوش ، وذلك بالقرب من بهستون (Behistun) بحيث يشرف على الطريق الملكي الممتد من بابل الى اكباتانا عبر سلسلة جبال زاجروس • وكانت هذه النقوش التي تروي ما حققه الملك من انتصارات ترتفع عن مستوى نظر المار بالطريق حتى انه لم يكن في الاستطاعة مطلقا قراءتها من الطريق اذ أن داريوس حرص أساسا على العناية بالغد ـ والواقع أنه ترك أثرا تذكاريا ضخما تحدى عوادي الزمن والطقس مازال قائما الى يومنا هذا • ولقد ظلت المياه تتساقط من حافة السور الصخري زهاء ٢٥٠٠ عام دون أن تحدث أي تأثير يذكر على النقوش التي خطت فوق سطح الصخر • وسميت هذه النقوش بحق ملكة نقوش العالم ، وان كانت قد كتبت بلغات ثلاث هي ، الفارسية والعيلامية والبابلية ، الا أنها ميسورة القراءة الى أبعد حد •

ويعد داريوس من بين أعاظم الحكام في التاريخ ، حيث انه كان يتمتع بمقدرة على التنظيم من الطراز الأول ، كما أن خبرته في الشئون الاقتصادية فاقت خبرة أي ملك آخر سبقه • وقد اشتهر بالشح والتقتير لاصراره وتعنته الشديد في جمع الجزية ، غير أنه لم يكن من المخططين العسكريين الناشئين ، فتقديره لخطورة الأراضي الروسية الجرداء برهن على أنه فاق في حكمته ، كقائد ، نابليون • وقد زحف بجيوشه عبر مضيق البوسفور تجاه الشمال مخترقا طراقيا ، وبعد عبوره الدانوب بعدد من القوات يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ ألف مقاتل زحف الى البراري

الشاسعة المترامية وهو يواجه هجوما مستمرا من جانب الفرسان الأسقوثيين . ولم نعرف على وجه التحقيق المدى الذى بلغه فى زحفه ، ولكننا نعرف أن شح الماء هو الذى أجبره على التقهقر قبل أن يبلغ نهر الدينستر . وبعد أن خلف وراءه المرضى والمقعدين عن السير عبر من جديد على رأس جيشه المنهك المكدود نهر الدانوب دون أن يتسنى له أن يلحق بالأسقوثيين هزيمة ساحقة . لقد زحف داريوس فى حملته التالية عبر أراضى أفغانستان حتى بلغ وادى نهر السند حيث حصل على الذهب لخزائنه ودعم امبراطوريته بملايين كثيرة من الرعايا الأجانب .

وفوق أرض وطنه ، فارس ، أسس عاصمة جديدة أسماها برسبوليس (Persepolis) وفى الفترة ما بين ١٩٣١ و ١٩٣٤ كشف ايرنست هرتسفلد ، الذى كان يعمل تحت رعاية المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاغو ، عن أنقاض هذه المدينة البائدة على مسافة مماثلة من مدينة شيراز الحديثة ، وفى الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧ خلف اريك . ف . شميدت زميله هرتسفلد فى الاشراف على أعمال التنقيب هذه ، واستطاع هذان العالمان الأثريان المبرزان أن يكشفا عن المنصة الصناعية الضخمة أو الشرفة التى كان داريوس قد شرع فى بنائها فى ٥١٨ ق.م ، والتى جرى العمل فى تشييدها مدة تزيد عن خمسين سنة حتى عام ٤٦٠ ق.م فى عهد الملكين ، اكسركيس وارتحشستا .

ويطلق الملك داريوس على تلك الشرفة ، كما ورد فى نقوشه ، « القلعة » أو « الحصن » بيد أنه من الممكن أن نطلق عليها اسم المقر الملكى ذى القصور الفسيحة ، فان هذه الشرفة تمثل قاعة تحوى ألف مسكن مخصص لحريم داريوس وحريم اكسركيس من بعده ، ثم ثكنات لحرس الحريم ، ودواوين للمسئولين وآلاف الخدم ، ومبان حكومية ، ومخازن واستحكامات وقبور ، أما شبكة الأنفاق الكبيرة التى وجدت تحت سطح الأرض فيرجح أنها كانت تستخدم لتزويد تلك المنشآت بالمياه العذبة . وفى الركن الشمالى الشرقى لهذه الشرفة عثر هرتسفلد على ٣٠ ألف لوح من الطين مكتوبة باللغة العيلامية ، ويقوم المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو فى الوقت الحاضر بتصنيف هذه الألواح ودراستها اذ أنها تحتوى على حسابات مفصلة لنفقات تلك المبانى الضخمة والأجور وأثمان المواد الخام الى آخره .

وعندما لقيت جيوش داريوس الهزيمة فى بلاد اليونان عول على تجريد حملة جديدة ضد اليونان ، وذلك أن حاكما مثله يهيمن على أكبر امبراطورية فى التاريخ ويسود دون منازع ملايين الناس من جميع الأصناف ، كان أحرى به أن ينظر الى موقعة ماراثون على أنها حادثة

عابرة ، بيد أن هذا الفاتح المظفر قد وافته منيته في خريف عام ٤٨٦ ق٠م في خضم الاستعداد لهذه الحملة التي كان يقدر لها أن تكون حملـــة حاســـمة ٠

وكان داريوس قد أقام لنفسه وهو على قيد الحياة مقرا للراحة الأبدية اذ وجدت غرف الدفن الخاصة بداريوس الأكبر وبخلفــائه في في واجهة صخرة شديدة الانحدار عند « نقش الرستم » على مسافة غير بعيدة من برسبوليس ٠ وكان كل قبر يتألف من ثلاث فتحات منحوتة في الصخر ، الفتحة الوسطى مع المدخل أكبر من الفتحتين الآخريين حتى ان القبور تبدو أشبه بصليب نحت في الصخر ٠ ويعتبر النقش الذى كتب بلغـــات ثلاث ، والذى عثر عليه في مقبرة داريوس من أهم النصوص القديمة التى آلت الينا ٠ ولقد تمكن ارنست هرتسفلد من فك رموزه ، ويقول النقش ، « عظيم هو الالة أهورا مازدا الذى ٠٠٠ قام بهذا العمل ٠٠ الواضح ، بارادة أهورا مازدا انني من هذا النوع : العادل أحبه وأبغض الظلم ، ولا يسرني أن يعاني مرءوس من ظلم رئيسه » ٠

ونستدل من التوارة على أن خليفة داريوس هو أحشويروش الذى حكم ســـوسة واتخـــذ من استير ملكة لبلاده ٠ أما هيرودوت فأســـماه اكسركيس ، وكان أحشويروش مثل قورش بهى الطلعة ، فارع القامة ، متين البنية ، ولكن الرجل الوسيم عادة ما يستبد به الغرور الذى يعرضه للوقوع ضحية لاغراء امرأة ، وكان لأحشويروش حريم كامل يضم نسوة حقودات يكدن لبعضهن البعض ، حتى انه أصبح في النهاية لا يعـــرف من التى أحبها ، ناهيك عن معرفة من التى كانت تحبه ٠ وفي شـــوارع سوسة ترددت في همس روايات فاضحة عن نزواته المفرطة ، ومن ثم لم يكن من قبيل الصدفة أن كان جناح الحريم لديه أعظم مبنى أقامه في برسبوليس ٠ وفي وسع أى شخص يزورها اليوم أن يشاهد مبنى حريم هذا الملك العجيب حيث ان المهندس المعمارى فردريك كريفتر قد استطاع باتباع تصميمات ارنست هرتسفلد أن يعيد هذا البناء الضخم بالصورة التى كان يبدو عليها تماما منذ ما يقرب من ٢٥٠٠ عام ٠ انه يبدو حديثا على نحو يدعو الى الدهشة كمـــا أنه يضفى على المناظر روعة بخطوطه البسيطة السلسلة ٠ وكان هرتسفلد قد أدرك أنه اكتشف خرائب حريم الملك عندما عثر لأول مرة على غرف عديدة صغيرة تأخذ الشكل والحجم ذاته ويربط بينها أحيانا غرفة طويلة مفردة أو غرفتين صغيرتين ، كمـــا تصل جميع هذه الغرف ممرات طويلة تؤدى الى غرف وصيفات نســـاء الحريم ٠

وكان الملك أحشويروش ولوعا بمظاهر الأبهة والعظمة ، وقد كرس

حياته للكاس والطاس ، والولائم والمشروعات المعمارية الضخمة ، ولكن بعد ذلك هزم اليونان أسطوله في سلاميس ، وتضاعفت هذه الهزيمة بالكارثة التي حاقت به في بلاتايا ، وأخطر من ذلك كله ما تعرض له جيش آخر فارسي كبير من ابادة في شبه جزيرة ميكالي في معركة تمثل فيها « انتصار الرمح على القوس » ، مما أدى الى جعل نفوذ الفرس قاصرا على آسيا فقط والى الحيلولة دونهم من أن يصبحوا قوة أوربية . وبعد عشرين عاما من مؤامرات البلاط وسوء الادارة والحكم قتل أخشويروش وهو في فراشه ، وكان أهلا لذلك ، ومع أنه شيع الى مثواه الأخير في موكب رهيب الا أن كل فرد كان مغتبطا بالخلاص منه .

لقد أقام قورش وداريوس امبراطورية الفرس ، أما احشويروش فكان وريثا لها وانحدر بها الى مهوى الفساد والدمار من جراء فسقه وتبذيره ، وقد دب الانقسام في أرجاء الامبراطورية في عهد خلفائه اذ تلت حكمه سلسلة لا نهاية لها من الانقلابات والاغتيالات .

وحكم الملك ارتحشستا على قاتل احشويروش بالاعدام . أما احشويررش الثاني خليفة ارتخشستا فقد قتله شقيقه من أمه الذي لقي مصرعه على يد داريوس الثاني ، وتدفقت الدماء أنهارا عندما بطش داريوس الثاني باحدى الثورات بوحشية بالغة وأمر بأن تقطع زوجته اربا ، وأن تدفن أمه واخوته وشقيقاته أحياء . وقتل ارتحشستا الثاني ابنه ، فما لبث أن وافته المنية منكسر الفؤاد عندما علم أن ابنه الآخر أوكوس يتآمر بدوره على اغتياله ، وتولى أوكوس مقاليد الحكم مدة عشرين عاما ثم دس له أحد قواد جيشه السم وقتله . وهكذا تردت امبراطورية الفرس المترامية في بحر من الاغتيالات وأعمال القتل والعنف والدموع والدماء .

ولم يكن على الاسكندر الأكبر الا أن يقضي على ذلك الكيان الذي كان قد تعفن تماما ، لكنها كانت لحظة جد مثيرة في تاريخ البشرية عندما تصدى في نوفمبر عام ٣٣٣ ق٠م داريوس الثالث ، آخر ملوك الاخمينيين الذي يلقب بكودومانوس (Codomanus) للاسكندر في أسوس . وكانت قوات الفرس أكثر عددا من قوات اليونانيين ومع ذلك تسنى للاسكندر أن يحرز النصر بفضل هجومه على أجنحة الجيش ثم على الوسط ، وفرار داريوس في مركبته تاركا جيشه دون قيادة . وانتهت المعركة دون أن يتكبد الاسكندر خسائر في أرواح قواته أكثر من أربعمائة وخمسين جنديا على حين أن الفرس قد خسروا عشرة أضعاف هذا العدد ، ومن المؤكد أن خسارتهم لم تتعد ذلك ، أما الاحصائيات التي أخذناها عن اليونانيين (والتي تقول ان جيش الفرس كان يضم

٦٠٠ الف مقاتل قتل منه حوالي ١١ ألفا) فانما تنطوى على تهـويل ومبالغة ، الهدف منها ابراز النصر الذى حققه الاسكندر فى صـورة ضخمة مؤثرة • وعند فرار داريوس تخلى عن قصره الملكى وترك وراءه أمه وزوجه وابنتيه وعربته الخاصة بعد أن أخذ معه الحلى الذهبية والأحجار الكريمة وخزائن المال •

ولو كان لنـا أن نسـلم بمـا ذكره المؤرخون اليونانيون لقلنا ان الاسكندر المنتصر تحلى بكل شهامة الأمير شازمنج فى معـاملته لأقرباء داريوس معاملة كريمة لائقة •

وانهارت بلاد فارس القديمة ولايزال تاريخها السـاحر ماثلا فى صورة خرائب وآثار أمام أعيننا ، وبصبر ومثابرة يأخذ العلماء على عاتقهم مهمة القاء الضوء ، مستعينين بحجر بعد حجر ، على تلك الامبراطورية التى بلغت ذروة المجد زمنا ما • وعندما يكون الفاتح القاهر أعظم وأنبل من المقهورين فغالبا ما يؤذن ذلك بنهاية الشعب وحكامه •

وقد اغتال الضباط الفرس مليكهم داريوس غير أن الاسكندر قضى بإعدام من قتلوا عدوه ، وفى برسبوليس أقام لداريوس موكبا جنائزيا رسميا كان له من الجلال والأبهة ما حمل شعب غربى آسيا على الحديث عنه برهبة عدة قرون : ولقد أحاط آلاف الفرس بالاسكندر مبهورين برجولته وفتوته وشهامته ، واليوم يعلو اسمه فوق أعظم ملكين من ملوك الفرس شهرة ومجدا وهما : قورش الثانى وداريوس الأول •

بلاد الفرس

مات الملوك وبقى البيروقراطيون

ما هو خامس شيء بين اعظم ما يدعو الى الأسى فى العالم ؟ ويجيب اهورا مازدا على هذا السؤال بقوله :

هو ، يازرادشت ، ان يحمل زوج او ابن الرجل البرىء غنيمة عبر الطرق الجدباء المتربة ويبكي (هؤلاء) الأسرى .

افيستا ، الفصل الثالث من الفنيداد

كانت امبراطورية الفرس فى عهد داريوس الأول (داريوس الأكبر الذى حكم من ٥٢١ الى ٤٨٥ ق.م) تضم عشرين ولاية ، يتولى شئون كل منها وال . وتحت لوائه بلغت الامبراطورية أقصى اتساع لها ، اذ امتدت من مصر عبر فلسطين وفينيقيا وفريجيا وأيونيا وكبدوكيه وكيليكيا وأرمينيا الى آشور . كما امتدت عبر القوقاز وبابل وميديا والعراق الحديثة وأفغانستان وبلوخستان والهند ، غرب السند ، وسوكتيريا وباكتريا . كما كانت تحف بسهوله آسيا الوسطى ، ولم يسبق أن وجد ملك بمفرده فرض سيطرته على مثل هذه الرقعة الشاسعة من الأرض . ففى داخل حدود امبراطورية الفرس عاشت أجناس كثيرة ناهزت ، فيما يرجح ، خمسين مليون نسمة فى الوقت الذى لم يزد فيه عدد سكان فارس ، مركز الامبراطورية ، على خمسمائة ألف نسمة تقريبا ، وظلت هذه الحفنة من الفرس سادة العالم زهاء مائتى عام .

وكان رعايا الامبراطورية الفارسية يتحدثون لغات عديدة ، ولكن لغة البلاط التي استخدمت في عهد داريوس الأول كانت هي الفارسية القديمة المرتبطة باللغة السنسكريتية في الهند ، وقد بات من المؤكد منذ زمن طويل أن ثمة كلمات كثيرة تنتشر في كل من أوروبا ووادي نهر السند قد اشتقت من أصل واحد مشترك ·

فمن ذا الذي يتصور أنه في وادي نهر قديم قصي تحف به الغابات الاستوائية تقابل الكلمه Bhratar في اللغة الهندية القديمة كلمة (Brother) الانجليزية ؟ وانها في اللغة الفارسية القديمة التي كتب بها « زند افيستا » تتحول الى (Brater) وفي اليونان (Phrater) وفي اللاتينية (Frater) وفي الأيرلندية القديمة (Brathir) وفي السلافية القديمة (Bratru) وفي الألمانية القديمة (Bruoder) والحديثة (Bruder) · أما لفظة (Pitar) في السنسكريتية والفارسية القديمة فتتحول الى (Pater) في اليونانية واللاتينية و (Vater) في الألمانية و (Father) في الانجليزية · أما (Mother) فهي (Mater) في السنسكريتية والفارسية القديمة و (Meter) في اليونانية و (mater) في اللاتينية و (Match) في الروسية و (Mutter) في الألمانية ·
(ولقد استعار الفرس ٣٦ حرفا من الحروف الهجائية البابلية البالغ عددها ثلثمائة حرف واستخدموها في كتابتهم المسمارية · ومع ذلك فانهم كانوا ينظرون الى الكتابة على أنها مهارة لا تليق بالرجال اذ كانت الحرب والصيد والحريم أهم في نظرهم من الكتابة · وكانوا يعتقدون أن مما يسيء الى سمعتهم هو أن يحطوا بأنفسهم الى درك وضع مؤلفات أدبية ، ولذا فانهم لم يخلفوا لنا سجلات مكتوبة ذات شأن · وكل ما لدينا هو قصة حياة نبيهم العظيم التي آلت الينا عن طريق الرواية وبعض النصوص القليلة ، فقبل ميلاد المسيح بزمن طويل ظهر في أرض أجدادهم المعروفة باسم « ارياني ـ فايجو » رجل يدعى زرادشت قام تلاميذه بتدوين صلواته وتعاليمه ، وأصبح كتاب زرادشت Zoroaster المقدس هذا معروفا باسم زند أفيستا (Zend-Avesta) التي يمكن ترجمتها « التفسير والنص » ·

ويحدثنا المؤرخ الروماني بليني (Pliny) أن هذا الكتاب كان يضم في الأصل مليوني آية ، كما يذكر لنا الفرس أن النص الأصلي قد أودع مكتبة برسبوليس الكبرى مكتوبا بحروف ذهبية على ١٢ ألف رقعة من جلود البقر ـ ويقال انه عندما أحرق الاسكندر الأكبر قصر برسبوليس اندلعت النيران في هذا النص فأتت عليه · وما آل الينا لا يزيد على خمسة كتب حوت نصوصا محرفة فاسدة ·

ففي أي زمن عاش زرادشت ؟ تعود الأبحاث الحديثة بتاريخه الى ٧٠٠ سنة ق٠م وان ساد الاعتقاد بين المؤرخين اليونانيين أنه عاش قبل زمنهم بنحو ٥٥٠٠ عام ٠

ولا نعرف الكثير عن زراد شت ، ولعل وطنه الأصلي كان شرقي ايران أو باكتريا كما يقال انه اعتزل مخالطة الناس ومضى الى البريسة مثلما فعل المسيح وعبثا حاول الشيطان غوايته ٠ كما تعرض للسخرية والتعذيب لكنه انتصر وعاش الى سن متأخرة وصعد في النهاية الى السماء من خلال شعاع من النور ٠

وهناك كلمات وعبارات كثيرة وردت في الافيستا تشبه ما جاء في الفيدا الهندية ، على حين أن البعض الآخر يذكرنا بالتراث البابلي القديم ٠ ومن ثم تروى لنا الأفيستا أن الأرض خلقت على ست مراحل ، وأن كل انسان ينحدر عن أب أول وأم أولى ، وأن ثمة جنة قد وجدت على الأرض ٠ وكان زرادشت يؤمن ، مثله مثل أنبياء التوراة ، باله واحد علوى ٠ وقد دخل زرادشت باعتباره مؤسسا لعقيدة دينية عالما تسيطر عليه الآلهة الهندوأوروبية القديمة الشائعة ٠ ومع التسليم بأن هذه الآلهة كانت غير منظورة مثل الهه ، وأن الايرانيين القدامى لم يصوروها قط في صور بشرية أو حيوانية الا أن فكرة الاله الواحد المسيطر غير المرئى لم تكن قد عرفت بعد ٠

وقبل ظهور زرادشت كان المجوس الذين لا نعرف عنهم غير النزر اليسير يبسطون سيطرتهم على العبادات السماوية ، اذ كانوا يؤلفون قبيلة ميدية عميقة التدين ، واسعة الخيال تعيش في غربي ايران ، واتخذ شعب هذه القبيلة « ريجا » (Rega) التى لم تكن تبعد كثيرا عن مدينة طهران الحديثة عاصمة لدولتهم الكهنوتية ، ولا نكاد نتبين في الوقت الحاضر أننا عندما نستخدم كلمة « سحر » انما نستحضر روح شعب ايراني قديم ومع ذلك فقد كان المجوس كهنة وليسوا سحرة ، ويروى لنا هيرودوت أنه ما كان في استطاعة أحد من الناس أن يصعد محرقة دون حضور أحد الكهنة المجوس الذى كان يقف الى جانب المحرقة ويردد الطقوس الخاصة بالقرابين ٠ وكان قتل بعض المخلوقات وخاصة الثعابين والطيور ، يمثل ركنا من أركان عقيدة المجوس الدينية ٠ ولم يكن المجوسى يغطى عند موته بشمع مصهور ويدفن كسائر أبناء الشعب الايراني بل يترك في الخلاء لتلتهمه الطيور والكلاب ٠ وارتبط مذهب زرادشت ، فيما بعد ، بعقيدة المجوس كما ارتبطت عقيدتهم بمذهبه على الرغم من أن تعاليمه كانت متناقضة في الأصل تناقضا تاما مع تعاليم هذه الطائفة الكهنوتية ٠ ولقد أمكن تلافي الخلافات رويدا رويدا ، ومع ذلك

بقيت عادة ترك الموتى في العراء ـ ومن الغريب حقا أن خصوم المجوس القدامى ، وهم آخر ما بقى من أتباع زرادشت البالغ عددهم ٩٠ مليون فارسى فى الهند ، يأبون حتى الآن حرق موتاهم ، ولا يقومون بدفنهم ، بل يضعونهم فى أبراج معزولة ، هى أبراج السكون ، ويتركونهم فريسة للطيور الجارحة • ولم يبق فى ايران الحديثة من الزرادشتيين سوى عشرة آلاف شخص تقريبا •

ومن بين آلهة ايران القديمة العظمى ميثراس (Mithras) الذى كان أصلا الها للحرب ثم أناهيتا (Anahita) ربة الخصب التى انحدرت فيما يرجع عن بابل السامية • ولكن عندما ظهر زرادشت على مسرح الأحداث قرابة عام ٧٠٠ ق•م تبين له أن الناس لا يزالون يعبدون الحيوانات وعددا كبيرا من الآلهة المختلفة • واستشاط زرادشت غضبا وحمل على كل من هذه العادات الوثنية وعلى المجوس ، وهم الطائفة الكهنوتية التى كانت تعيش على ما تدره عليها هذه المجموعة الكبيرة من الآلهة • ونادى بأنه لا يوجد الا اله واحد هو آهورا مازدا ، اله النور والسموات •

ومضى زرادشت فى دعوته قائلا انه منذ الأزل حتى اليوم والاله أهورا مازدا فى صراع مع روح الشر أهريمان انجرامانيو (Ahriman-Angramanyu) ففى جانب كانت تقف مبادىء الحق والخير والنور والنار وآهورا ـ مازدا كان يمثلهم جميعا ، بينما تقف فى الجانب الآخر قوى الشر والظلام المتمثلة فى أهريمان الدائم الحماس للقتال ، ومنذ أزمنة سحيقة والقتال سجال بين قوى الخير وقوى الشر فى سبيل السيطرة على العالم • ولقد كان هذا صراعا مريرا لا هوادة فيه ، ولم تعدم قوى الظلام حيلة قط •

وكان أهم ما يميز الشيطان الهندوأوربى هو قوته الخلاقة وباعتناق هذه النظرية استطاع زرادشت أن يكشف عن أصل الشر بكل ما فيه من تعقيد وتباين كما حاول تفسيره • وهكذا تتحول معركة مازدا مع قوى الظلام النشطة الخلاقة الى ذلك الصراع الأبدى بين الخير وقوى الشر الذى يقصر عنه كل تصور • فمازدا وأهريمان يمثلان عالمين مختلفين لا شىء يجمع بينهما ، بل كل شىء يقضى بانقسامهما ، وليس هناك ما هو مشترك بينهما « لا الفكر ولا العقيدة ، لا الارادة ولا المبادىء ، لا الكلمة ولا الفعل ، لا نفوسنا ولا أرواحنا » •

ولكن ماذا فعل زرادشت بالآلهة القديمة ؟

هؤلاء اعتبرهم فى تعاليمه شياطين ، وربما كان ميتراس وأناهيتا من بينهم ، فهذه هى المعبودات التى انضوت تحت لواء الشر وأفسدت عقول البشر شأنها شأن جميع الآلهة الزائفة •

وفي خضم هذه المعركة « الروحية التي تدور رحاها بين آهورا مازدا وأهريمان ألقى بالانسان • وقد تركت له حرية الاختيـــار ، ولم يكن له مندوحة عن هذا الاختيار الذي ينبغي أن يواصله حتى بعد موته بثلاثة أيام عندما يقف أمام كرسي الديان الذي يدين الأحياء والأموات • وهناك يقضي على الملحدين والاشرار والكذبة بالعـــذاب الأبـدي في الجحيم ، أما الأبرار فتنال أرواحهم الرحمة والخلود •

والى جانب دينونة الفرد فهناك « نهاية العالم » و « قيامة الأموات » و « يوم الدين » وأمام هذه المحكمة العالمية يتقرر مصير المعركة الدائرة بين النور والظلام في نهاية المطاف • وسوف تسود روح الخير ، ويفتدي بني الانسان ، ويزول الشر الى الأبد ويدخل جميع الصالحين الجنـة مع آهورا مازدا ، بينما يطرح الأشرار الى هاوية الظلام الأبدي • وواجب كل انسان ، كما تذكره الافيستا ، له وجوه ثلاثة : يظهر الود لعدوه ويهدي الشرير الى سبيل الخير ويحمل المعرفة للجاهل •

وانتصار آهورا مازدا ، في عقيـــدة زرادشت ، ذو أهمية كبرى اذ على الرغم من ثنائية الديانة الزرادشتية القائمة على القول بوجود قوتين متلازمتين هما قوتا الخير والشر ، الا أنها ديانة وحدوية في جوهرها تنادي بوجود اله واحد يعتبره زرادشت حافظ السموات والأرض ، ورب الرياح والسحب والمياه كافة ، وسيد الشمس والنجوم ، وصانع النبات والحيوان وخالق النفس — ويمكن ان ترفع الصلوات الى هذا الاله من أي مكان ، ولا تبيح هذه العقيدة صنع الأصنام أو اقامة أماكن للعبادة • فان أحدا لم يشيد معبدا لآهورا مازدا ولم يعثر على أية أبنية دينية في قلاع بارسارجاد أي أوبرسبوليس ، وان كانت مذابح المحرقات التي أقيمت فوق التلال المحيطة قد أسهمت بدورها في تكريم زرادشت بدخان المحرقات المتصاعد ، ويروي لنا المؤرخون اليونانيون أن الفرس في عهد داريوس كانوا يزدرون تلك الشعوب التي كانت تتمثل آلهتها في صـور بشرية أو حيوانية ، ازدراء شديدا ، كما يقرن هذا الرجس بما هو أنكى وأدهى وهو حبس هذه الآلهة في مسكن صغير ضيق لا يليق اطلاقا باله كل الخلق ولكن ملوك الفرس الاخيمينيين لم يلتزموا بحرفية تعـــاليم زرادشت والوصايا الواردة في أيات الافيستا • كما وانهم اعترفوا بآلهة الشعوب الخاضعة وأقاموا لها شعائر العبادة • وبينما كان ذلك ضرورة سياسية فيما يحتمل الا أن من المرجح أن عقيدة زرادشت لم ترسخ وتتأصل الا بعد مضي مائتي عـــام • وكان داريوس الأول هو أول ملك يعتنق مذهب زرادشت ويحرم شعائر عبادة الآلهة ويقضي عـــلى كهنة المجوس • لكنه لم يحقق في ذلك سوى قسط ضئيل من النجاح ، اذ ظل الشعب يتمسك

ولا غرو ، بعقائدهم الطبيعية ولم تنقرض قبائل المجوس قط ، على الرغم من أن داريوس قد اتخذ العقيدة الزرادشتية دينا رسميا للدولة • ولسنا ندرى الى أى مدى ذهب ملوك الفرس قبل داريوس فى ايمانهم بزرادشت فان داروس هو الملك الوحيد الذى تحدث عن « أعظم الآلهة جميعا » وساد ذكر آهورا مازدا فى نقوشه • اذ كان داريوس يرى فى مازدا خالق الأرض والسماء والكون والانسان وخالق رخائه الشخصى بوجه خاص •

ومن الواضح ان خلفاء داريوس ابتعدوا عن زرادشت اذ أن ارتحشستا لم يتعبد لآهورا مازدا فحسب بل تعبد أيضا لمثيراس وآناهيتا • والحقيقة أن بروسوس الذى كان من كهنة بعل بابل ، يذكر سنة ٢٥٠ ق • م أن أرتحشستا كان أول ملك يعلم الفرس عبادة آلهة فى صورة بشرية • وفى عهده اعترفت الدولة رسميا بعقيدة ميثراس وأناهيتا • وما ان شربت عقيدة ميثراس كفايتها من الطقوس السرية التى كانت مزدهرة فى آسيا الصغرى الى أقصى قدر مستطاع حتى سادت فى النهاية معظم أرجاء العالم المعروف وأضحت فى عهد الرومان بعدئذ عقيدة الجندى ، ثم صارت أخيرا ألد عدو للمسيحية فى بادىء عهدها •

وماذا عن زرادشت ؟ وما الذى حدث لمذهب ذلك العملاق الروحى الذى أبدى قدرة عجيبة على الخلق والابداع فى المجال الدينى ؟

لم يخرج زرادشت ديانة قومية ، فقد كانت تعاليمه موجهة الى العالم بأسره ، وبوسع أى انسان أن يؤمن بهذا الاله الواحد • ولعل تدمير الاسكندر الأكبر لمدينة برسبوليس قد وضع حدا لتاريخ بلاد فارس القديمة السياسى ، الا ان روحها الخلاقة عاشت فى عقيدة الشرق ثم فى عقيدة الغرب ، ومما يذكره فرانز كومون (Franz Cumont) العالم الكبير بديانة ميتراس ان تاريخ الأديان لا يعرف العقيدة الهيلينية فحسب بل العقيدة الايرانية أيضا التى تتمثل فى قوة خلاقة غامضة ترجع الى أزمنة سحيقة لا نكاد نتبينها • ولعل أهورا مازدا يعتبر أقدم تركيب دينى لكل تلك القوى التى تعتبر أن القيم الأخلاقية ومبدأ العدالة هى القانون الأسمى ، كما أن تعاليم زرادشت مازالت تضىء بنورها أعماق المعتقدات الدينية لدى الشعوب الأوربية • ويدين الجانب الأكبر من المفهوم اليهودى حول يهوه فى جوهره لزرادشت ، فضلا عن فكرة اله الكون الجالس فى السماء ، وثنائية الله والشيطان ، الى جانب فكرة الفداء والدينونة الأخيرة •

وكان الملك يقف على رأس أكبر امبراطورية فى عصر ما قبل المسيحية أما الحكام الآخرون فكانوا جميعا أتباعا له • ومن ثم لقب نفسه بملك الملوك

ملك أوطان شعوب كثيرة متباينة ، ملكا هذا العالم العظيم المترامى الأطراف .

وكان للملك عدد كبير من الزوجات ، الى جانب حريم كبير من المحظيات يقدر عددهن بعدد أيام السنة كما يذكر لنا اليونانيون . ويحدثنا الاصحاح الثانى من سفر أستير أنه لم يكن يسمح لاحداهن بزيارة حجرة الملك مرتين الا اذا « سر بها الملك » .. فى المساء دخلت وفى الصباح رجعت الى بيت النساء الثانى الى يد شعشغاز خصى الملك حارس السرارى ، ولكن كان على كل امرأة قبل أن تدخل الى الملك أن تقضى اثنى عشر شهرا تتعطر بزيت المر والأطياب وغيرهما من مستحضرات التجميل .

ويذكر هيرودوت انه كان لكل فارس من أبناء الطبقة الارستقراطية عدد كبير من الزوجات الشرعيات « ولكنه كان يضم عددا أكبر من السرارى الى حريمه » . ولم يكن أحد من الأثرياء يخرج للقتال الا بصحبة عدد كبير من النساء . وكان من بين زوجات الملك عدد كبير من الأجنبيات ، فتزوج كل من قورش وقمبيز بأميرات ميديات ومصريات ، بل وأخذ داريوس الأول لنفسه حريم قورش كما تزوج باثنتين من بناته هما : أتوسا وارتيستون . وكانت أتوسا التى تزوجت من قبل بأخيها قمبيز أما لاكسركيس خليفة داريوس ، بل لقد ضم ارتخشستا الثانى الى حريمه اثنتين من بناته .

وكان الخصيان يتولون حراسة الحريم ، وكان على البابليين أن يقوموا بتطويش (بخصى) خمسمائة ولد سنويا ويبعثون بهم كجزء من الجزية الدورية المقررة عليهم ، ليعملوا خدما فى بلاط ملك الفرس حيث يتعلمون واجباتهم . وبالنظر الى ما كان للخصيان من نفوذ على الحريم اللائى كن على علاقة وثيقة بالملك أصبح الخصيان من أخطر المتآمرين وأكبر مروجى الشائعات فى بلاط ملوك الفرس . وفى الحقيقة بلغ نفوذهم حد الأطاحة بالملوك وتدبير الثورات ضد القصر ، وتنظيم الاغتيالات كما استطاعوا بوجه عام أن يستغلوا كيد الحريم لبعضهن البعض فى سبيل مصالحهم الخاصة .

وفى السنوات الأخيرة من عهد الامبراطورية الفارسية كان القتل والثورة أساسا فى تحديد من يجلس على العرش . وقد أقام ملوك بلاد الفرس قوتهم على أساس من حشد جيوش ضخمة تتميز لسوء الحظ باضطراب وتشويش أخوى لم يسبق له مثيل . وكانوا غالبا يمنون بالهزيمة نظرا لأنهم كانوا يضعون كامل ثقتهم فى القوة العددية . وبناء على مايذكره هيرودوت فان عدد القوات التى جردها احشويروش على بلاد اليونان بلغ ١٧٠ ألف مقاتل . ولكن حتى ولو افترضنا أن هذا العدد ينطوى على

مبالغة شديدة (فان عشر هذا العدد كان يكفى لتكوين جيش قوى فى ذلك العهد) ، فان من الممكن أن نتصور مشهد هذا القطيع الهائج المائج الفزع بأجناسه المتباينة المختلطة عندما تقهقرت صفوفه العارمة عائدة الى آسيا الصغرى بعد هزيمتها اذ أن تدبير أمر تقهقر مثل هذا الجيش المتباين الاجناس يعد عملا بطوليا فذا فى حد ذاته ·

وكان الملك يمثل القاضى الأعلى وكانت كلمته هى القانون وسلطاته مطلقة ، وكان القضاء يمارس باسمه بوساطة قضاة ملكيين يعينون مدى الحياة ، ولم يكن من الممكن عزلهـم الا بسبب الجريمة أو الفساد ، وغالبا ما كان أبناؤهم يخلفونهم فى مناصبهم وقد حاول الملك قمبيز ذات مرة أن يقضى على الفساد بين قضاته ، فأصدر أوامره بأن يضرب أحدهم حتى الموت ثم كسا منصة القضـاء بجلد الرجل الميت ونصب عليها ابنه ليكون القاضى الأعلى وكانت عقوبة المخالفات الصغيرة تتراوح بين خمس جلدات ومائة جلدة من سياط الخيل · أما الجرائم الجسيمة فكان يعاقب عنهـا ببتر الأرجل أو فقء العينين أو السجن أو الاعدام · ولم يكن بالأمر الهين أن يعاكس رجل امرأة من حريم الملك ، وكان كل من يحاول اغتصاب العرش انما يغامر بحياته · وأما الصلب والشنق والرجم بالحجارة ودفن الأحياء والتعذيب بالرماد المتقد الى غير ذلك من ألوان القسوة فهذه هى التى صانت وحدة الامبراطورية الفارسية ·

ومع هذا لم تكن الامبراطورية تمثل مجـرد منظمة سياسية تدين بالظلم والقسوة · ويذكر لنا هيرودوت أن أحدا لم ينفذ فيه حكم الاعدام سواء كان حرا أم عبدا الا اذا توافرت القرائن الكافية ، كما لم يسمح ملك صالح مثل داريوس الأول أن يكون فريسـة لأهـوائه ونزواته الشخصية · لقد احترم وصـايا آهورا مازدا ، وحاول جاهدا أن يحمى حقوق رعاياه · ومن الجدير بالذكر فى هذا الصـدد ان محـاكم الفرس لم توقـع العقوبات فحسب بـل كانت تمنح المكافآت والجوائز على حـد سـواء ·

وكان الولاة العشرون الذين يحكمون مختلف الولايات ينتسبـون اما الى طبقة النبلاء أو الى الأسرة المالكة · وكان الوالى يتولى شئون الحكومة المحلية ويمثل مصالح الملك والدولة كما كان يرسى قواعد النظام العـام والأمن ، الى جانب كونه القاضى الأعلى لولايته ·

ولما كانت القوة تولد التعطش الى السلطة الاستبدادية المطلقـة ، ويخشى من تمرد كل حاكم يحكم ولاية بعيدة ، ان لم يكن لشىء فلمركزه الجغرافى ، لذلك اتخذت اجراءات وقائية ، فكان كل حاكم يزود بأمين

للسر يتبع الملك ويعد مسئولا عن ضمان اتصال الوالى الدائم بالقصر الملكى • كما كان أمين السر يشرف على تسلم وارسال جميع المراسلات الملكية ، وكان يرسل رسل بريد يمتطون الجياد عبر الطرق البريدية الملكية التى تقطع الامبراطورية من أقصاها الى أقصاها ، من افسوس وساردیس الى العاصمة سوسة ، عبر مسافة تربو على ۱۲٥٠ ميل ، ومن بابل عبر سلسلة جبال زاجروس بجوار تلال بيهستون الى اكباتانا والحدود البكترية والهندية ، وهى مسافة تزيد فى مجموعها على ١٨٠٠ ميل • ولقد أقيمت على طول الطريق محاط للبريد الملكى واستراحات على مسافات منتظمة ، وكانت أوامر الملك ورسائل الحكومة يحملها رسل يسيرون بالتناوب ليل نهار الى الوجهة المقصودة « بسرعة تفوق سرعة الغرنوق » على حد وصف المؤرخين اليونان . بل انه من المرجح قيام نظام للبرق استخدمت فيه الاشارات النارية •

كذلك كان لكل ولاية حامية وقائد حصن من واجبه مراقبة الوالى الذى كان بدوره يراقب القائد العسكرى • ويقف على رأس الجميع « عين الملك » ، ووظيفته من أكبر مناصب الدولة ، وهو فى العادة شقيق الملك أو ابنه ، وكان هذا الرقيب ينتقل من ولاية الى أخرى بصحبة جماعة مسلحة تهبط فجأة دون سابق انذار لتتفقد شئون الادارة ، وتراجع المصروفات وغيرها من المسائل التى تتعلق بشئون الحكم • ومن هنا يتبين لنا أنه كان على الولاة والقادة وأمناء سر الملك جميعا التزام غاية الحذر على الدوام • وقد نجحت مثل هذه القيود المحكمة فى المحافظة على سلطة الملك فى امبراطوريته المترامية نجاحا منقطع النظير • بيد انه لم يكن يقدر لهذه الأساليب النجاح الا اذا كان الحاكم الأعلى سياسيا محنكا لا مجرد العوبة فى أيدى حريمه •

وعلى الرغم من الضرائب الباهظة ، والنفقات الفادحة ، والثورات والحروب فقد كان البابليون والفينيقيون والفلسطينيون وغيرهم من الشعوب الخاضعة راضين كل الرضى عن العيش تحت السيطرة الفارسية • وكانوا يشعرون بأن أبناء وطنهم من القادة العسكريين وجباة الضرائب سوف يبتزون أموالهم فى صورة أشد احكاما مما يتأتى للفرس • وفى عهد داريوس الأول أصبحت الامبراطورية الفارسية هيئة سياسية منظمة تنظيما رائعا لم يقدر للعالم أن يشهد نظيرا لها حتى ظهر على المسرح العالمى الأباطرة الرومان العظام تراجان وهادريان وأنطونيو •

ومع ذلك فقد ازدهر النظام البيروقراطى تحت حكم الولاة • فاذا كان الموت مقدرا على الملوك فان نظام تركز السلطة بدا سرمديا أبديا • ولم يشيد الولاة لأنفسهم قصورا فاخرا ، ولم يقتنوا حريما كبيرا فحسب

بل كانوا يمتلكون أيضا أماكن رائعة للصيد ، وهي متنزهات كان يطلق عليها الفرس اسم الفراديس • وكان الرعايا من السكان يتحملون نفقات بلاط الوالى وأجهزة الحكومة بوجه عام ، فضلا عن أدائهم للضرائب التى يفرضها الملك • وكانت كل ولاية ترسل الجزية للملك فى صورة وزنات من الذهب أو الفضة • وكانت وزنة الذهب الفارسية الأوبية تحوى ٥٥٪ رطل من الذهب الخالص ، أما وزنة الفضة البابلية فكانت ٧٤ رطلا من الفضة • وكانت الولايات المشتركة المؤلفة من بابل وآشور تؤدى أكبر جرية بحيث أنها كانت تصب فى خزائن ملك الفرس ما لا يقل عن ألف وزنة من الفضة سنويا ، وتليها ولاية مصر التى كانت تدفع سبعمائة وزنة ، ثم ولايتا آسيا الصغرى الساحليتين (أى ليديا وميزيا) اللتان كانتا تؤديان خمسمائة وزنة ، أما كاريا فكانت تدفع أربعمائة • وكان يسمح لسكان كيليكية أن يخصموا من نصابهم ، وهو خمسمائة وزنة ، مائة وأربعين وزنة لتغطية نفقات حاميه الفرسان المرابطة فى ولايتهم ولكنهم كانوا يزودون البلاط فى مقابل ذلك بثلاثمائة وستين فرسا أبيض كالثلج من أرقى السلالات •

ولما كانت ولاية برسيس Persis التى تحتل قلب الامبراطورية لا تدفع أية جزية بل تكتفى ، فيما يحتمل ، بارسال الهدايا الى الملك فقد كان عدد الولايات التى تؤدى الجزية لخزينة الملك تسع عشرة ولاية وبلغ مجموع ما كانت تدفعه هذه الولايات فيما بينها ٧٦٠٠ وزنة فضة بابلية أو ما يربو على ٥ مليون دولار ، باعتبار أن الوزنة تساوى ٧٠٠ دولار تقريبا ولم يكن هذا على أية حال بالمبلغ الضخم ، وحتى بعد خصم الثمانية الآلاف وزنة التى كان داريوس الثالث قد فر بها عقب انكساره أمام الاسكندر الأكبر ، حصل الفاتح المقدونى على ما لا يقل عن ١٨٠ ألف وزنة من الذهب والفضة المضروبة أو غير المضروبة من خزائن شوشن « برسبوليس وباسارجاداى ، وهو مبلغ يعادل ما يزيد على ربعين مليونا من الدولارات •

والى جانب هذه المكوس المالية كانت كل ولاية تدفع للملك ضرائب عينية • فكانت كبدوكيا تورد سنويا ألف وخمسمائة فرس وألفى بغل وخمسين ألف رأس من الغنم كما كانت ميديا تقدم ضعف هذه الحصة تقريبا • ولم يكن العرب ملزمين بدفع أى نوع من الجزية لكنهم كانوا يرسلون الى ملك العالم ، بدلا من ذلك ، ما قيمته ألف وزنة من البخور فكانت قوافل الجمال التى لا تنتهى المحملة بهذه السلعة الثمينة ، يجلبها

الجريون والمنعيون وهما قبائل (١) عربية كانت تشتغل بالتجارة ، تسير في طرق البخور المشهورة متجهة الى عواصم الامبراطورية الفارسية ، كما كان العبيد الذين يتم شراؤهم حديثا يقطعون الطريق الطويل ذاته ولدينا قائمة وضعها أحد تجار العرب من قبائل المنعين (minaean) تضم أسماء الاماء اللائى أجبرن على تكريس حياتهن للآلهة • فنقرأ أن واحدة قد جاءت من عمون (Ammon) وأخرى من مؤاب (Moab) وثلاثة من قيدار (Qedar) وستة من ديدان (Dedan) وسبعة من مصر وأربعة وعشرين من غزة • وحتى بلاد الحبشة البعيدة كانت ترسل للملك الفارسي بمائتي صندوق من الأبنوس وعشرين صندوقا من سن الفيل وخمسة غلمان زنوج • وفي داخل اطار هذه المنظمة السياسية التى اتسمت بالمغالاة وبسفك الدماء وبانتهاجها غالبا سبيل القسوة ، الا انها مع ذلك محتملة ، عاشت شعوب مختلفة الأجناس حياة سعيدة حرة الى حد ما ، أشبه ما تكون بحياتنا الراهنة ، فقد كانت هذه شعوبا لينة العريكة ، كريمة غاية الكرم مثلهم مثل الايرانيين فى الوقت الحاضر • فقد أخذوا من كل من الحب والبغض والضحك والبكاء نصيبا •

كان ذوو المراتب الواحدة يتبادلون التحية بأن يقبل كل منهم شفتي الآخر أما المرءوسون فكانوا يقبلون رؤساءهم فوق الوجنتين ، والمواطنون بعامة ينطرحون أرضا أمام أصحاب السلطة ، تلك هي نقطة الضعف التى لم يستطع الانسان منذ الحكم الفارسي أن يزيلها من أسلوب حياته ، وكان البصق والتمخط وتناول الطعام على قارعة الطريق ممنوعا كما حظر تلويث مياه الأنهار ، وخضعت الأمراض المعدية للحجر الصحي ، والى أن بلغت سيطرة الفرس على العالم ذروتها ، فى عهد داريوس الأول ، كان المواطن الفارسي يحيا حياة صحية فلم يتناول غير وجبة واحدة فى اليوم ، كما كان شديد التمسك بآلهة الطبيعة التي يعبدها أو بوصايا زرادشت التى كان الكذب في عرفها أبشع أنواع الخطايا ، وكان شباب الفرس يتدرب ، منذ أن يبلغ الخامسة من عمره حتى يناهز العشرين ربيعا ، على الفروسية ورمي السهام والصدق •

ومع ذلك أخذت الامبراطورية الفارسية تسقط رويدا رويدا فريسة التباين العنصرى • لقد نقل الفرس كل لون من ألوان الترف التى عثروا عليها فى امبراطوريتهم المترامية الأطراف ونستدل على ذلك من قول

---

(١) الجريون Gerrhaean قبائل عربية كانت تسكن قريبا من اراضى تغطيها الاحراش فى شمال شبه الجزيرة وتمتد رأسا الى بترا وفلسطين — ومن المحتمل أن المنعيين كانوا أيضا من قبائل تلك الجهات وان كان من المحتمل كذلك انهم كانوا من قبائل الجنوب « آل منيع » — المراجع

هيرودوت أن الفرس كانوا بطبيعتهم سريعى التأثر بالعادات الأجنبية على وجه العموم ، وما ان مرت الأيام حتى راحت الطبقة الارستقراطية تلتهم كميات ضخمة من الأطعمة وتسرف فى احتساء الخمر وهى منتشية ، وكانوا يديرون مهام الدولة أحيانا كثيرة وهم ثملون ، وعندما يفيقون من سكرهم كانوا يعيدون النظر فيما اتخذوه من قرارات . فاذا لم يتفقوا أعادوا دراسة المسائل تحت تأثير المزيد من الخمر التى كانت تقرب من وجهات نظرهم .

ويذكر هيرودوت ان اغتصاب المرأة كان فى نظر الفرس جريمة شنعاء ، بيد أن من يحاول الثأر لذلك كان يعد أحمق . وكان منطقهم فى ذلك أنه لما من المرأة لتغتصب رغما عنها . ولقد أبيح تعدد الزوجات لحاجة الملك الى الجنود ، وكان الأبوان هما اللذان يرتبان زواج أبنائهما ، ولم يكن الزواج بين الأخ وأخته أو الأب وابنته أو الأم وابنها بمستهجن وكانت النساء تسرن سافرات دون أن يتعرض لهن أحد كما كن يدبرن شئون بيوتهن الى جانب ممارسة الأعمال العامة باسم أزواجهن ، أما اللائى لم يكن يسمح برؤيتهن بصحبة الرجال جهارا ، أو وقوعهن فى غرام أحد ، ولو كان من أقرب المقربين اليهن ، فهن زوجات الأشراف دون سواهم .

وكان الفرس يؤثرون البنين على البنات ، ومن كان ينجب عددا كبيرا من البنين يكافئه الملك ، ودأب الفرس على القول ان أحدا لا يسأل الآلهة ابنه كما أن الملائكة لا تحصى البنات ضمن البركات الممنوحة لبنى البشر ، وكان الطب مزيجا من السحر والمهارة الطبية لكن لو ان جراحا وخبيرا بالأعشاب الطبية اجتمعا معا لجنح الناس الى استشارة الأخيرة ذلك أنه الطبيب « الذى يشفى بالكلمة المقدسة ، وشفاء العقل أفضل من عملية جراحية فليس ثمة خطر فى شفاء النفس بينما قد يفضى مشرط الجراح الى الموت .

وكان للفرس ديار رائعة وحدائق غناء ورياش ثمينة وغرف للنوم فاخرة وآنية من الذهب رائعة ، غير أنهم كانوا يبتاعون معظم تلك الأشياء البديعة من صناع أجانب اذ انشغلوا بتدبير شئون الحكم وخوض غمار الحروب وزراعة الأرض ولم يحرزوا تقدما الا فى فن العمارة . ولابد أن قصر الملك اكسركيس الأول فى سوسه كان آية فى الجمال كما تدل الحفريات والأوصاف التى جاء ذكرها فى سفر استير من التوراة . هذا وكشفت الحفريات التى تمت فى برسبوليس عن تصميم هائل لبناء قصور ملكية ، كما أن الكبارى العائمة التى كان يستخدمها ملوك الفرس فى عبور الأنهار والمضايق ابان حملاتهم العسكرية مازالت تأخذ بالبابنا

حتى اليوم ، وان كانت الرياح والأمواج قد أجهزت عليها قبل أن يمضى عليها وقت طويل ، بيد ان وصف هيرودوت للأعمال الهندسية البارعة التى قام بها العبيد والجنود منذ حوالى الفي وخمسمائة عام لايزال أقرب إلى الأساطير منه الى الحقيقة .

وكان الاعجاب قد أخذ بنفوس الرحالة اليونانيين العائدين من امبراطورية الفرس فانطلقوا يروون الروايات عن القاعات والقصور الرخامية ، وعجائب الترف الفارسى ، ولكن عندما ازداد اسراف الفرس وأخذ اهتمامهم بالثياب الفاخرة والحلى الثمينة يشتد من عقد الى عقد ، ولما ازدادت حضارتهم تألقا وثراء وروعة ، اشتد ضعف ملوكهم وباتوا عرضة للخديعة فما لبث أن تحطمت تلك الامبراطورية الرائعة العظيمة فى نهاية المطاف على صخرة ترفها .. تلك الامبراطورية التى آمنت بالله واحد مع أنها لم تعمر طويلا لتشهد مجىء المسيح .

فلسطين (١)

« يا ابنى ابشالوم »

« فانزعج الملك وصعد الى علية الباب وكان يبكى ويقول هكذا وهو يتمشى : يا ابنى ، ابشالوم ، ياليتنى مت عوضا عنك » ..

(صموئيل الثانى ١٨ : ٣٣)

كان لاقليم فلسطين الصغير أثر على الانسانية — فى أفكارها وأخلاقياتها وعقائدها — لاتضاريها فيه بابل القوية ، أو آشور أو فارس أو مصر أو الهند أو الصين ، وكان تراث فلسطين الحضارى أبعد مدى مما للحضارة اليونانية برمتها من أثر . فهذى الصغرى بين البلاد قدمت للعالم « المسيحية » بما لها من ديناميكية ، وعمر الكتاب المقدس ، كتاب الكتب ، أكثر من كتاب الموتى للمصريين وماهاباراتا للهند وتعاليم كونفرشيوس للصينيين ، وآلهة الازتيك . وظل تاريخ « يهوه » قائما دون انقطاع جيلا بعد جيل .

(١) لا يريد المؤلف فى الفصول الثلاثة التى وضع اسم فلسطين فى رأسها أن يعرض لتاريخ هذه البلاد بسكانها الأصليين ، قبل تسرب العبريين اليها ، ولا للمجاميع البشرية الكثيرة التى سكنتها منذ الأزل وحتى الآن ، والتى لم يكن اليهود الا حلقة من حلقاتها فى فترة قصيرة بالنسبة لتاريخها الطويل . بل كل ما أراده هو الاشارة الى التراث الفكرى والدينى الذى جاء به أنبياء بنى اسرائيل واصبح مرتبطا جغرافيا بهذا الاقليم ، أما تاريخ فلسطين بحضارتها المعقدة فى ظل الكنعانيين والفراعنة ، والهجرات الآرامية والعربية والحبشية والابجية القديمة ، ثم فى ظل الاشوريين والكلدانيين والفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والمسلمين العرب والصابيين والمسلمين المماليك =

وما من كتاب آخر تعرض للحريق مرارا كالكتاب المقدس ، وليس مثله كتاب ترجم على نطاق واسع • وثار حوله جدل ونال تقديرا بالغا •• انه الكتاب الذى طبعت منه أكثر الطبعات عددا فى تاريخ الانسان ، كما أن ما كتب حوله ليشبه محيطا واسعا ليس بوسع المرء أن يرتشف من مياهه غير القدر اليسير •

ان اليهود شعب سامي ، شأنهم شأن البابليين والفينيقيين والعرب عاشوا فى فلسطين فى الأزمنة الغابرة • كما أنهم فى الأصل بدو يعرفون بالعبرانيين (١) •

أما اسم « يهودى » فمشتق من « يهوذا » وعلى الرغم من أن اليهود ينحـــدرون أساسا من نسل يهوذا ، الابن الرابع ليعقوب « وليئة » ، وبالرغم من أن كلمة « يهودى » تظهر منذ عام ٥١٦ ق•م الا أن تاريـــخ اليهود يمتدالى ما قبل ذلك بآلاف السنين •

فلقد عاش ابراهيم ، جد اليهود الذى تصفه التوراة « بالعبرانى » (تكوين ١٤ : ١٣) فى ١٧٠٠ ق•م تقريبا ، وكان قد وفد من بلاد مابين النهرين وراح يقيم المذابح للآلهة الحية دون أن يصنع لها تماثيل ، وهى فكرة جديدة تماما توحى بأن ابراهيم أدرك روحانيـــة الله ، فلا غـــرو أن كانت له شخصية تاريخية ، وهذا ما نستدل عليه من علم الآثار الحديث

= والأتراك والانجليز ، وما كان فى تاريخها الحديث من انقضاض اليهود الصـــهاينة الاستعماريين عليها تحت ستار عصبية عنصرية ودينية جوفاء ـ كل ذلك لا يدخل فى اعتبار المؤلف الذى أراد بكتـــابه أن يرسم الخطوط العريضة لتطور الفكـــر والحضارة فى « الماضى الحى » الذى جعله عنوانا لكتابه ـ أى الماضى الباقى بأثره حتى الآن ـ ومن هنا يمكن اعتبار هذه الفصول الثلاثة تلخيصا سريعا خاطفا للتراث الفكرى المتضمن فى الكتابين السماويين السابقين على نزول القرآن الكريم دون نظر لأى اعتبار سياسى متصل بفلسطين • وهذه النظرة الى الأثر الحضارى فقط دون عناية بالتاريخ السياسى ولا متابعة له تبدو فى كل فصول الكتاب ولست خاصة بفلسطين فهو مثلا اكتفى عند الحديث عن فينيقيا بالاشارة الى التجارة والبحرية واختراع الأبجدية والعناية ببعض الصناعات دون اهتمام بتاريخ لبنان •

(١) ظن بعض الباحثين المحدثين ـ ومنهم مؤلف هذا الكتاب ـ ان الاسم «عبرى» هو نفسه الذى وجد منقوشا فى لوحات تل العمارنة • الكنعانية اللغة المسمارية الكتابة ، بلفظ حابيرى أو (حابيرى) وقد تكررت هذه التسمية فى بعض كتابات (الكشيين) المسمارية البابلية فى العراق ، وفى نقوش حيثية عثر عليها فى « بوغازكوى» بتركيا • كما وردت فى بعض نقوش امورية من حفائر « نوزى» بشمال العراق ولكن المحققين من العلماء يرفضون ارتباط كلمة «عبرى» بالاسم «حابيرى» ـ ارجع الى :

E. Dhorme : La Religion des Alébreux Nomades ; N S.E, Bruxelles, 1937, pp. 75-85.

وكذلك الى الدكتور حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ـ الاسكندرية ١٩٧١ ص ٧٠ ـ ٧٥

الذى يزودنا دائما بالبراهين الجديدة التى تقطع بصحة التوراة التاريخية ، وكان اسم ابراهيم باللغة الكلدانية ، مسقط رأسه ، أورهام ، مما يدل بوضوح على أنه كان من بين أمراء أور ، واليه يرجع الفضل ، من الناحية التاريخية ، فى التطور الهائل الذى حدث باحلال قرابين الكباش محل المحرقات البشرية ٠

وعندما بلغ ابراهيم كنعان كان يتمتع بعد سنين طويلة من العذاب والقلق الروحى بالايمان الراسخ فى الله الذى لم يرتد عنه عند الاختبار ، وكانت قصة اسحق ــ فيما يبدو ــ بمثابة احتجاج على عادة تقديم الذبائح البشرية عند الكنعانيين وبهذه التجربة امتحن الله ابراهيم قائلا : « خذ ابنك وحيدك اسحق ، الذى تحبه وقدمه لى محرقة » فربط ابراهيم ابنه ووضعه على المذبح وعندما أمسك بالسكين ليذبحه ظهر الملاك وأعفاه من الذبح ٠

وطلب ابراهيم من رئيس خدمه أن يقسم بأن يختار لابنه اسحق زوجة من بنات الكنعانيين ، فأخذ الخادم عشرة جمال واتجه صوب بلاد ما بين النهرين ، مسقط رأس ابراهيم ، وطاف بأرجائها حتى التقى بفتاة تدعى رفقة من بنات حاران ٠ وتزوج اسحق برفقة ، ولما مات أبوه قام مع أخيه اسماعيل بدفنه بروح الدفاق الأخرى، وبارك الرب اسحق فكان يجنى مائة ضعف مما يزرع، كما استطاع التغلب على أعدائه بحبه للسلام ، ولقد حفر اسحق بئرين وتركهما للرعاة المتنازعين وحفر ثالثة لنفسه ، وخلف اسحق يعقوب الذى كان يدعى اسرائيل والذى أنجب اثنى عشر ولدا ، هم أجداد أسباط اسرائيل الاثنى عشر ٠

ولقد بسط المصريون سيطرتهم على فلسطين بعد عام ١٥٠٠ ق٠م ، وتلقى ألواح العمارنة شيئا من الضوء على ما كان يكتنف فلسطين من ظروف فى الحقبة ما بين ١٤٠٠ و ١٣٥٠ ق٠م ، ففى تل العمارنة بمصر أمكن العثور فى عام ١٨٨٧ على ٣٥٠ رسالة موجهة من أمراء الشرق الأدنى الى الفراعنة أمنحتب الثالث والرابع ٠ وبعد فترة من استعباد المصريين لهم شرع موسى يجمع صفوف بنى اسرائيل ويقودهم الى كنعان عبر طريق صحراوى طويل شاق ، حيث امتدت بهم الرحلة فى البرية ما يربو على أربعين عاما ، ذلك أنهم توقفوا فى السير مرارا ، وعاش الاسرائيليون فى البرية حياة أشبه ما تكون بحياة البدو ، فكانوا يقودون قطعانا كبيرة من الماشية الى جانب الحمير التى كانت تحمل أمتعتهم وأثاثاتهم ٠ وفى غضون الأربعين عاما تلقى شعب اسرائيل الوصايا العشر ، كما تلقى موسى لوحى الشريعة ، ولا مراء أن موسى الذى رأى يهوه فى الرعد أو فى العليقة المشتعلة ، من أعظم العباقرة الذين وجدوا على وجه الأرض ، وغالبا

ما يتراءى لنا ذلك القائد والواعظ والمنظم والمؤرخ فى صورة العابس الغاضب الذى يعتبر الحضارة بأسرها ضربا من شق عصا الطاعة على « يهوه » •

وقبل أن يولد المسيح بقرون عدة أمكن جمع كتب اليهود الدينية فى ٣٩ سفرا كتبت باللغتين العبرية والآرامية • وينقسم هذا الكتاب – العهد القديم – الى ثلاثة أقسام رئيسية هى (Torah) (أسفار الشريعة) (Nebiim) (الأنبياء) (Ketubim) (الكتابات المقدسة) ويضم (Torah) خمسة أسفار ، ويعتقد أن موسى هو الذى كتب تلك الأسفار الخمسة ، التى أجمع فيما بعد على تسميتها بالبنتاتوك (Pentateuch) (١) التى كانت تعتبر دستورا لليهود ، فمتى كتبت تلك الأسفار ؟ وأين ؟ ومن الذى كتبها ؟ تلك الأسئلة عويصة حاول الكثيرون الاجابة عليها فيما يقرب من ٥٠ ألف مجلد • ولنحاول هنا أن نوجز هذا العدد من المجلدات فى أبسط صورة ممكنة •

يصنف العلماء أقدم أجزاء التوراة – أى النسخ المنفصلة والمتماثلة فى الوقت نفسه التى تحكى قصة الخلق – تحت الحرفين J و E ، اذ فى جزء منها يسمى الخالق (Jehovah) وفى جزء آخر يدعى (Elohim) ويسود الافتراض بأن الروايات الخاصة « بيهوه » قد كتبت فى يهوذا وما يتعلق بايلوهيم (Elohim) فقد سجل فى افرايم ، وفى عام ٧١٩ ق٠م ، بعد سقوط السامرة أمكن توحيد تلك النصوص وتم تصنيف جزء ثالث تحت الرمز D ، من بينها سفر التثنية ، وجزء رابع تحت الرمز F (٢) قام الكهنة فى وقت لاحق بضمه الى المجموعات الأخرى ، ولقد اتخذت الاجزاء الأربعة صورتها الراهنة نحو عام ٣٠٠ ق٠م •

ويرجع تاريخ أقدم آثار الكتب العبرية الى ١٢٠٠ ق٠م تقريبا ، وهى عبارة عن نقوش باللغة الكنعانية القديمة التى تتكون من اثنين وعشرين حرفا ، ولعل العبرانيين جاءوا بلغتهم وكتابتهم من سيناء الى كنعان حيث ان هنالك أحرفا من كتابة سامية قديمة كانت تستخدم فى شبه جزيرة سيناء قبل ١٦٠٠ ق٠م ، ومع ذلك فالى جانب التوراه لا نعثر الا على نقوش نادرة تنطوى على أمثلة من الكتابة العبرية القديمة وجد أحدها فوق نصب ميشع ملك مؤاب (Moab) الذى نقرأ عنه فى التوراة ، ولقد كتب النقش بلغة تماثل ، فى الواقع ، العبرية القديمة ويرجع تاريخه الى سنة

---

(١) أى الأسفار الخمسة •

(٢) لعل حرف F هذا غلطة مطبعية فالمعروف أن تمليقات الكهنة هذه يرمز اليها بحرف P

٥ ميل ١٩٠

البحر المتوسط

صيدا

فينيقيا

صور

دمشق

الجليل

حيفا

الناصرة

السامرة

كنعان

إسرائيل

أريحا

أورشليم

بيت لحم

اليهودية

بئر سبع

النقب

قادش

بترا

عيلاتة

شبه جزيرة سيناء

المدينة

الجيزة

القاهرة

ممفيس

هليوبوليس

رعمسيس

بيثوم

النيل

مصر

تل العمارنة

٨٥٥ ق٠م أما النصب فأمكن اكتشافه سنة ١٨٦٨ بعد الميلاد في ديبان بشرق الأردن ويتخذ مكانه اليوم في متحف اللوفر بباريس (١) ٠

ان اله اليهود اله غير منظور ، لكن ديانته تقوم على حضارات تمتد الى آلاف من السنين خلت ، فتابوت العهد يعود بنا الى مساكن آلهة النيل المتنقلة ، وآثار السحر ترجع بنا الى مصر ، كما تذكرنا قصـــة الطوفان والأرقام الغامضة ببابل ، ويصير الاله البابلي جلجامش نمرود وتصبح ثيران اشور المجنحة كروبيم العبرانيين ، كما أن أسطورة الجنة وشخصية الشيطان (أهريمان) وعالم الملائكة ورؤساء الملائكة تعيد الى أذهاننا بلاد الفرس ، ونتعرف على البعل ، اله الفينيقيين والكنعانيين ، في أسماء أبناء اشبعل ومربعل ، لقد كان الفلسطينيون السوريون الذين يحتمل أن يكونوا قد وفدوا أصلا من كريت، ينظرون الى اليمامة كاله ، أما السمكة التي عبدت في عسقلان فتظهر في قصـــة يونان ، هذا وكان الأراميون الساميون يقدسون « أم الأحياء » التي تدعى خفا (Khavva) التي اشتق منها فيما يبدو ، الاسم « حواء » ٠

وفي القرن العاشر قبل الميلاد صـــارت اسرائيل مملكة ، وتصف التوراة شخصيات تلك الحقبة في أسفار صموئيل والملوك ، حيث رسمت هذه الشخصيات العظيمة الطائشة التي كان يدفعها في الغالب الأعم حماس بدائي أشبه ما يكون بحماس الأطفال ، بأسلوب واقعي كشف عن بواطن الضعف الكامنة في نفوسهم كبشر ، وبصورة بدا أمامها الشعر والتاريخ باهتين ٠ ومن المؤكد أن الشك لن يتطرق الى نفوسنا حول صحة التوراة التاريخية اذ يندر أن صـــور تاريـــخ بمثل الألوان الواضـــحة الحية التي صورت بها تلك الأسفار المقدسة ٠

كان شاءول (Saul) رجلا وسيما وشجاعا ، دعاه صموئيل (Samuel)، النبي سنة ١٠٢٥ ق٠م ليكون ملكا على اسرائيل ، وكان ذلك الرجل المتزن الهمام ، والتقي الباســل المكلل بالنصر يطيع ربه على الدوام ٠ لكن حين تقدمت به السن اصبح باضطراد عجولا مترددا حاد المزاج قلقا ، وفي نهاية حياته أصبح محبا للانتقام أشد ما يكون شــبها بشــيطان ثائر ٠ وأدرك أن الله لم يعد يستجيب له ، فراح يستشير السحرة والعرافين ، ثم قتل نفسه في نهاية المطاف ٠

---

(١) المؤلف هنا يحاول ربط لغة العبريين وكتابتهم بما كان معروفا في المنطقة من لغات وكتابات اثبتت الآثار وجودها ، وان كانت عبارته توهم أن ذلك كله «عبري» وهو خطأ ٠

ولم يخلف شاءول ابنه يوناثان ، بل خلفه داود الذي أصبح أعظم ملك لاسرائيل ، لقد استطاع داود أن يوحد صفوف شعبه ، وينتصر على القبائل المجاورة ، ويبني أورشليم ، ويدعم العلاقة بين العرش والمذبح ، ويبدو أنه كان شخصيه متدينة تتحلى بسمات حميدة عديدة ، ومع أن عوامل الضعف البشري قد تجمعت فيه الا أنه كان ملكا قديرا ظل يحكم البلاد زهاء أربعين عاما ، كما أنه الرجل الذي خطف بيتشبع الحسناء وضمها الى حريمه ، وما أكثرهن ، ثم بعث بزوجها « أوريا » الى ميدان المعركة ليتخلص منه ، والذي عفا عن ابنه العاق أبشالوم بعد أن تآمر ضده وأجهش بالبكاء حين تناهى الى سمعه أنه قتل وهو يصيح « آه يا ابنى أبشالوم ، يا ابنى ! يا ابنى ! » ٠

ولقد حكم داود البلاد في الفترة ما بين ١٠١٢ و ٩٧٢ ق٠م وكان شخصية تاريخية كما أنه كان متبربرا الى حد ما وبرغم ذلك فقد كان ملكا شرقيا عظيما ، وواحدا من أعظم الشعراء والمغنين الذين عرفهم العالم ، وأكدت الأبحاث الحديثة الافتراض القديم بأن هذا الملك الشاعر نظم الكثير من « المزامير » ٠

أما سليمان الذي خلفه فكان ، ولا ريب ، من أحكم الملوك في تاريخ البشرية فمن ذا الذي يستطيع غير رجل حكيم أن يجمع بين حياة الثراء الفاحش والترف العظيم وبين الوفاء التام بجميع المهام الملكية ؟ ولفظ سليمان مشتق من شالوم (Shalom) ومعناه « السلام » وهو ما اهتدى به سليمان لا عن طريق تلقين شعبه القانون والنظام فحسب بل بتأمين سلامتهم وأمنهم على حد سواء ٠ وفي ظل حكمه الرشيد أصبحت أورشليم من أغنى مدن الشرق الأدنى ، فكان التجار الفينيقيون يمرون بقوافلهم عبر فلسطين في طريقهم الى أورشليم ، كما كانت منتجات اسرائيل تباع وتشترى في صور وصيدا ، وأبحر أسطول سليمان الى البحر الأحمر ، وأقام علاقات تجارية مع أفريقيا وشبه الجزيرة العربية حيث بدأ ينقب عن الذهب ، وخطبت ملكة قوية كملكة سبأ وده ، كما أنه جند جيوشا من عمال السخرة ، في الوقت الذي أتى فيه بتابوت العهد الى الهيكل ٠ وأقام صلاة التكريس وبارك الجمهور ، ومن أجل هذا كله أحب الحياة ولم يستعن بعدد كبير من الرجال ، لقد جمع زوجات كثيرات ، وحين تكشف الأبحاث العلمية الحديثة عن أنه كان لسليمان ستون زوجة وثماني محظيات فقط لا سبعمائة زوجة وثلاثمائة محظية ، كما تذكر التقديرات التقليدية (١) ، فان ذلك لا يقلل في شيء من حيويته المشبوبة ٠

---

(١) العهد القديم ــ سفر الملوك الأول ــ الاصحاح ١١ ٠

ولقد بدأ المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو منذ عام ١٩٢٥ عمليات تنقيب واسعة النطاق في مجدو (Megiddo) بفلسطين ، وكشفت الطبقة الأولى عن أنقاض ترجع الى عصور بابل والفرس ، والطبقة الثانية عن أنقاض القصور الآشورية أما الطبقتان الثالثة والرابعة فتنتميان الى أصل اسرائيلي بينما كشفت الطبقة الأخيرة عن آثار فن العمارة في عهد سليمان الذي أحال تلك المدينة عاصمة للمنطقة الادارية الخامسة لاسرائيل • وظهرت الحظائر الملكية والقصر الذي بنى لبعنا (Baana) حاكم « مجدو » في يوم من الأيام ، كما نقرأ في التوراة (ملوك الأول ٤ : ٧ و ١٢) واستمرت عمليات الحفر في الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٩ التي دلت على أن « مجدو » لابد أنها قد تأسست أصلا نحو سنة ٣٥٠٠ ق٠م وعثر على ثلاثة هياكل ومذبح لتقديم المحرقات ترقى الى ١٧٠٠ ق ٠ م ٠ الى عصر ابراهيم وخلفائه • وكان هذا أول مذبح لم تمتد اليه يد بشر يتم اكتشافه في فلسطين •

وما أن وافت المنية سليمان في ٩٣٢ ق٠م حتى نشبت ثورة عارمة أفضت الى انفصال عشرة من أسباط اسرائيل الاثنى عشر عن رحبعام (Rehobam) بن سليمان لتؤسس مملكة اسرائيل وظل رحبعام في يهوذا يؤازره السبطان الباقيان ، وصار يربعام (Jerobam) ملكاً على اسرائيل وحكم الاسباط العشرة الثائرة •

وقامت منذ ذلك الحين مملكتا يهوذا واسرائيل ولم تدم اسرائيل ، وهي الكبرى ، أكثر من مائتي عام وانتهى تاريخها في ٧٢١ ق٠م حين أوقع الملك سرجون الثاني الآشوري الهزيمة بالسامرة ونفى الى آسيا الوسطى ٢٧ ألف نسمة من الأسباط العشرة التي اختفت من على مسرح الأحداث التاريخية ولم نسمع قط عما حل بها ، ولايزال مصيرهم من بين الألغاز التاريخية التي لم تحل ، ومن الأمور التي يتوق اليها المؤرخون ، في الواقع ، هي اعادة اكتشاف الأسباط العشرة المفقودة ، ولما عثر في الصين على أحجار عليها كتابة يهودية ظن بعض العلماء أن تلك الأسباط قد ألقت عصا الترحال هناك ، كما زعم البعض بأنهم عثروا على آثار لهم في الهند بينما ينظر غيرهم من العلماء الى الانجلوساكسون على أنهم منحدرون من سلالة تلك الأسباط المنفية ، وللنظرية الأنجلو ـ اسرائيلية مؤلفاتها الخاصة الواسعة النطاق •

وأما المصير النهائي للأسباط العشرة المفقودة فنكاد نعثر عليه في كل بقعة من بقاع العالم ، نعثر عليه في المكسيك حيث استقبل بيزارو (Pizarro) على أنه « المنقذ الأبيض » ، وفي أفريقيا ، بل وفي أمريكا

الشـــمالية بين « الهنـــود البيض » ٠ وان كتاب مورمون (Mormon) ليعد انعكاسا للنظرية الأخيرة (١) ٠

أما اليهود الحاليون فينحدرون من سلالة المملكة الصـــغرى يهوذا ، وهم الذين سباهم الملك نبوخذ سنة ٥٨٦ ق ٠ م خـــلال حقبة تعـــرف « بالسبى البابلى » ، كما أن قورش ، ملك فارس ، هو الذى سمح لهم فى ٥٣٨ ق ٠ م بالعودة الى فلسطين واعادة بناء الهيكل ٠ تلك المهمـــة التى فرغوا منها فى ٥١٦ ق ٠ م واندفع اليهود من ربوع يهوذا الى أورشليم ليرفعوا الصلاة ليهوه وليشهدوا المبنى الذى كانوا ينظرون اليه على أنه احدى عجائب الدنيا ٠

ان جوهر العقيدة اليهودية هى نظـــرية الخطية ، فالجســـد ضعيف والنواميس شاملة ، ومن ثم فلا مناص من الخطية ، وكان اليهود فى أزمنة القحط أو عند تفشى الطاعون ودمار المدن يعزون ما ألم بهم الى الخطية ٠ ولم يؤمنوا بالجحيم الا أنهم كانوا يعتقدون فى مملكة الظلام ، شـــيؤل (Sheol) القائمة تحت سطح الأرض التى يتعين على الصالحين والطالحين دخولها ولم يستثن من ذلك غير المختارين أمثال موسى وأخنوخ وايليا ٠

ولم يكن اليهود ، فى بادىء الأمر ، يؤمنون بخلود الروح ، فكان العقاب والثواب هنا على الأرض ، ولم تستيقظ عقيدة البعث فى نفوسهم الا بعد أن تبدد ايمانهم بالنصر النهائى كأمة نتيجة لاتصالهـــم بالفرس وربما بمصر ، وكان الدمار وخيبة الأمل والمعـــاناة التى لا تنتهى ومصير الملايين الباحثة عن السلوى هى التربة التى ترعرعت فيها المسيحية ٠

---

(١) ومع ذلك فان الأسباط العشرة الضائعة تبقى مشكلة بلا حل حتى الآن لأن بداية شتاتها غير موصوفة بدقة ، فلعلها بقيت فى فلسطين و « اندمجت » فى ســـكان البلاد الأصليين الذين لا يذكر عنهم المؤلف شيئا ٠

فلسطين

ستة عشر نبيا قاوموا آلهة عديدة

لقد تبينوا ما هو عميق وجوهرى ، اذ عرفوا ما يكمن داخل الانسان ، كما ادركوا ، فوق ذلك ، أن هناك من يسمو عن ادراك البشر ويضطلع بتنظيم الكون • لقد عاشوا وكابدوا الألم ولاقوا حتفهم فى سبيل عالم افضل •

لم يعد من العسير على أى أمرىء فى الوقت الراهن تحديد ماهية النبى ، فالنبى انسان يتنبأ بالمستقبل (١) ، لكن أنبياء التوراة لم يهتموا بالمستقبل فحسب ولم يزعموا أنهم يعرفون المستقبل بمجرد وحى مقدس ولم يتكهنوا بمجىء مسيح فحسب ، فلقد كان دورهم الجوهرى مغايرا لذلك تماما •

ولا يغيب عن بالنا أن (Prophetes) لفظ يونانى ، حيث أن مفهوم النبوة يتعذر التعبير عنه بلفظ عبرى سهل بسيط ، وكلمة (Nabi) هى اللفظ العبرى للنبى ، و (Nabiim), هى ما أطلقه العبرانيون على أسفار الأنبياء فى الكتاب المقدس ، ومع ذلك فان كلمة (Nabi) ليست اسرائيلية أصلا ، وحرى بنا أن نبحث عن أصلها حيث انها تلقى الضوء على معناه الأساسى ، فنحن نجد كلمة نبأ (Nabaa) فى كل من اللغات الآشورية والبابلية والعربية ، ففى الآشورية تعنى :

(١) هذا تفسير قصر للنبى ــ المترجم

التحدث أو التخاطب أو الاعلان أو الاشارة ، وكان يوجد اله بابلى يدعى نابو أو نيبو ، وهو اللفظ نفسه الذى نجده فى أسماء بعض ملوكهم أمثال نابوبولصسر (Nabopolassar) ونبوخذ نصر (Nebuchadnezzar) ٠

ولعل اللغة العربية أهم مصدر لأى بحث علمى بين اللغات السامية حيث ان صلتها بالسامية القديمة أوثق من ارتباط السنسكريتية بالهندوأوروبية القديمة ، واللفظ نبأ (Naba'a) فى العربية يعنى الاعلان ، أى أن المتحدث لا يعبر عن أفكاره الخاصة لكنه ينقل رسالة شخص آخر ، ومن ثم فان النبى هو لسان حال آخر ، وانه يحمل رسالة يريد ابلاغها أو اتصالا بعينه ينبغى القيام به ، وهكذا نصل الى جوهر الحقيقة وهى أن الأنبياء لم يدركوا أنهم يتحدثون بسلطان من أنفسهم بل كأداة لارادة عليا ، فقد كانوا يشعرون بأنهم « فم الله » ٠

وكان الأنبياء على يقين راسخ لا يتزعزع من أن أفكارهم نابعة من يهوه وغالبا ما كانوا يستهلون حديثهم بالعبارة : « هكذا قال السيد الرب » ٠

فاذا كانت شبه الجزيرة العربية مصدر كلمة نبى فمن المرجح ، اذن أنها كانت الموطن الاصلى لأولئك الأنبياء الأول بما لهم من قدرات مذهلة على سبر غور الغيب ٠ ولا جدال فى أن جوا صحراويا يخيم عليهم ٠ فايليا ، أول نبى يذكره التوراة ، أتى من شرق الأردن ، كما كان صموئيل يعرف بالرائى ، ذلك أن للنبوءة تاريخها شأنها شأن أى شىء آخر فى تطور البشرية ٠ كان الأنبياء فى بادىء الأمر رائين ، ولم يلبثوا أن أصبحوا ناقلين للأفكار والمبادىء الدينية ، ثم سجلوا أحاديثهم النبوية فى نهاية الأمر ٠

وعند الحديث عن أنبياء التوراة ينصب تفكيرنا على « الأنبياء الأدبيين » وفى مقدمتهم عاموس ، فهم الرجال الستة عشر الذين تعلمنا أسماءهم فى مدرسة الأحد وتسيناها بعدئذ وتمتد النبوة المكتوبة من عاموس ، الذى وجد على قيد الحياة نحو سنة ٧٥٠ ق٠م ٠ الى الكاتب المجهول الذى سطر سفر زكريا (الاصحاحات من ٩ ــ ١٤) فى ٢٧٥ ق٠م ، وبمرور الزمن فقد هؤلاء الأنبياء طابع الصحراء الذى تميز به أسلافهم الأولون ٠

وكان الله فى نظر الأنبياء رب الطبيعة ، ذلك المفهوم الذى توصلوا اليه باحساسهم فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وربما قبل ذلك ، هذا

الاحساس الذى وجد تعبيراً فى قصة الخلق ، فكان يهوه رب الكون أيضا ،وطبيعى أن من يحاول البحث عن العلل الأولى ويتحقق من القوى الخفية التى تحرك الانسان ليدنو فى النهاية من قوانين الطبيعة والمكون ، ثم من خالقها بعد ذلك •

ولكن ثمة أشياء لم تشملها خطة يهوه ، فلو أن فرداً أو أمة تعدت على قانون الطبيعة وبالتالى على قانون الله فان هذا الفرد يجلب الى العالم عنصر الشر ••• عنصر تخليد الذات الفتاك • ولابد أن يكون لهذا عواقبه ، أى جزاؤه ، فى مكان وفى زمان ما •

أما العظمة الحقيقية للأنبياء فتكمن فى حقيقة انهم لم يكونوا مجرد أصحاب رؤى أو أحلام ، ولم يتنبأوا بالمستقبل ، وفوق ذلك كله ، لم يزعموا بأن لهم قوى سحرية • ومع ذلك ففى الوقت الذى كانت فيه العرافة والسحر الاسود والارواح الشريرة مازالت تسيطر على الأذهان ، اكتشفوا أسماء جديدة ، وعالما جديداً ومثلا للبشرية راسخة كما عرفوا السبيل الى الاله الواحد ، وحين اتخذ هؤلاء الرجال موقفا منفردا ضد معتقدات عالمهم المعاصر تسنى لهم تطوير المثل من أجل أجيال قادمة لا حصر لها ••• وهى مثل ما برحت تحكم حياتنا فيونس والحوت ودانيال فى جب الأسود ما هى الا آساطير قديمة لها ، ولا شك ، مغزاها العميق ، ولكن لا علاقة لها بالنبوة (١) فكان أنبياء اسرائيل يحتقرون الدجالين والسحرة ، وفى هذه الناحية الروحية تفوقوا على من عداهم ، وظلوا صامدين •

ولم يدع المعلمون الدينيون العظام ممن ندعوهم أنبياء ، أن بوسعهم أن يأتوا بالمعجزات، لقد كانت حياة كل من ايليا واليشع حافله بالمعجزات، لكنهما رحلا دون أن يتركا لأحفادهما كلمة واحدة مكتوبة ، مع أن ايليا لم يسبق عاموس الى الوجود الا بخمسين عاما ، وبعاموس ، أول نبى كاتب ، توقفت جميع المعجزات •

وكان الأنبياء أشبه بأطيار النوء فى التاريخ ، فكانوا على بينة من أن الله هو الذى يحدد مصير الانسان واستطاعوا تجسيم ضمير الانسان، وراحوا ينظرون الى الأمور الزمنية جميعها بمنظار الخلود كما أنهم تبينوا ارادة الله الشاملة فى كل شىء ، ولئن أردنا تفسير هذا منطقيا لأمكننا القول أنهم قادوا البشرية لأول مرة الى حدود ذلك العالم الفسيح الذى لم

---

(١) هذا رأى المؤلف ، والأصل فى هذا الرأى عنده وعند غيره من الباحثين هو أن النبى لا يتلقى الوحى من الله أى لا يأتيه كلام بعينه من السماء ، ولكنه رجل مرتبط بالغيبيات تسيطر عليه القوة العظمى وتمنعه من التزييف اذا تحدث أو كتب • حسن ظاظا

يعد من الممكن قياسه بأي مقياس مادى أو كيميائى معروف والذى لا يمكن رؤيته بأدق منظارات علم الفلك الحديث • ان هذا العالم الخالد الذى لا يمكن قياسه لا يعرف السحر ولا عبادة الأوثان ••• فجوهرة الله نفسه ولا سواه •

وكان الأنبياء مجموعة عجيبة من الرجال ، فكان حزقيال يعانى من نوبات منتظمة من الصمت يبدو خلالها وقد لصق لسانه بخلفه ويلبث هكذا حتى تعاوده فصاحته على حين غرة كما أصابه شلل فترة من الزمن• وانطلق أشعياء يطوف عارى البدن لمدة ثلاث سنوات مما أثار دهشة رفقائه ، أما أرميا فكان يظهر أحيانا وقد وضع النير فوق عنقه كالثور ، وأطلق هوشع على ابنته اسم « عرافة » (١) وكانت زوجته تعرف باستهتارها وعبثها •

ولقد كانت مثل هذه التصرفات الغريبة من السمات المميزة للأنبياء فهل كانوا يهدفون من ورائها جذب الانتباه ؟ أم أنهم كانوا يأتون تلك الأعمال وهم فى حالة من التجلى ؟ ومن ذا الذى يستطيع تحديد الأساليب العبقرية أو أن يحكم على الرجال الذين عبروا عن أفكار الله وكانوا يتقدون غيرة وحماسا ••• الرجال الذين حلقت بهم أرواحهم الى ماهو أبعد من مدى التفكير البشرى المألوف ؟

ولا مراء أن الأنبياء الستة عشر شخصيات تاريخية ، فما ورد فى أشعار الأنبياء من تفاصيل بينة راسخة لا يمكن أن يكون من وحى الاختراع كما أن الدراسة لنصوصها تقدم الدليل تلو الآخر على ما لهؤلاء الرجال من صفة تاريخية •

كان عاموس راعيا للغنم من تقوع Tekoa كما كان يزرع شجر التوت ، وبعين فاحصة ناقدة كان ينظر الى ما كان ينعم به العظماء من ترف لا يتصوره عقل وما كان يعانيه المساكين من ذل ومهانة • ولعل عاصفة عاتية أو زلزالا عنيفا حمله قبل كل شىء على تدوين أحاديثه وما برح صدى تلك التجربة يتردد فى آياته (عاموس ٣ ، ٨) أما أسلوب عاموس فشاعرى أصيل ، كما كان أستاذا فى الوصف الذى يأخذ بالألباب •

وعاش هوشع حياة زاخرة بالمآسى • لقد أحب زوجه حبا جما بقدر ما يستطيع أى رجل أن يهب من الحب ، بيد أنها هجرته من أجل سلسلة

---

(١) لا تدرى من أين أتى المؤلف بذلك فان المذكور فى الكتاب المقدس (سفر هوشع الاصحاح الأول) هو أن البنت سميت «غير المرحومة» أو «لا ترحم» ـ حسن ظاظا

من العاشقين ولم تلبث أن بيعت كأمة فى النهاية ، ورغما عن ذلك أعادها اليه ، ومن تلك التجربة تعلم هوشع معنى الحب الالهى العظيم الذى عبر عنه بالكلمات لأول مرة فى تاريخ البشرية •

وكان أشعياء ، الذى أقام فى أورشليم ، رجلا متزوجا وله ابنان ، ونظرا الى أنه ظل ينشر تعاليمه فى الفترة ما بين ٧٤٠ ، ٧٠٠ ق٠م فان أشعياء يتخذ موقف العملاق بين الأنبياء العظام ، كما يعد العبقرية الكلاسيكية المعبرة عن العقيدة اليهودية • وارتقت به الخطابة والفكر حتى بلغا حد الكمال ، لقد كان سياسيا بارعا يختلط بالملوك والساسة دون تكلف ، ولعله كان أذكى معلم للاهوت فى اسرائيل قبل المسيح ، وكان أقوى أثرا من كل الأنبياء ، فالواقع أنه من المحتمل أن شخصا على الأقل وربما أشخاصا عديدين هم الذين كتبوا الشطر الأخير من السفر الذى ينسب لأشعياء •

وكان ميخا (٧٥٠ ــ ٦٨٥ ق ٠ م) يقطن على مقربة من الطريق الدولى العظيم الممتد بين مصر وآشور ، لقد كان على اتصال بشعوب غربى آسيا وبالتيارات السياسية السائدة فى تلك المنطقة ، وكان على بينة من المستقبل التاريخى الذى يمكن لشعبه أن يتوقعه ، وكانت قوة تعبيره فى بعض الاحيان ترقى الى مستوى رفيع من التعبير الدرامى كما فى قوله « أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » •

وكان أرميا لا يزال فتيا حين تلقى الدعوة ليصبح نبيا ، لقد انحدر من أسرة كهنة وظل يتنبأ بحذر احدى وأربعين سنة ، بل وكان يهتم بما حوته خطبه ، ودامت حياته كنبى من ٦٢٦ الى ٥٨٤ ق٠م واستطاع أرميا بقوة شخصيته بحسب أن يتفوق على ما تركه أى نبى آخر من تأثير على معاصريه وأحفاده ، وكشف عما يعتمل فى أعماق نفسه من صراع بصراحة منقطعة النظير ، وما كان بوسعه أن يلوذ بالصمت اذ كان ضميره يقلقه • الا أنه ما كاد يغفرفاه الا ويثير ضده الاعداء ، لقد تعرض لأساليب من العذاب مبرحة تحت عب دعوته ، ولعله فى ذلك قرب الى المسيح من أى نبى آخر ، وليس لأرميا من نظير قبل المسيح فى اصراره على تعميق خبرة الفرد الدينية • وما من أحد سواه قاوم القوانين الجامدة والعقائد السطحية بمثل هذا الوعى الفريد ، فهذا النبى الأعزب الوحيد قد عانى واحتمل وصلى كما فعل المعذب فى جثيمانى •

أما حزقيال فقد سبى فى بابل سنة ٥٩٨ ق٠م مع الكثيرين غيره من

اليهود ، وربما كان هذا هو السر فى أن أحاديثه قد جمعت بـــين العنف العاطفى والحكمة والحذر ، فكان رجلا أديبا مثقفا يتسم بالشجاعة والإيمان الراسخين ٠

وولد حاجاى فى بابل ودعا عظماء بلاده الى استئناف العمل فى بناء الهيكل واتمامه وقد يجول بخواطرنا صور كاتدرائيات للعالم جميعها حين نقـــرأ فى حاجاى « مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود : وفى هذا المكان أعطى السلام ٠

وفى عام ٢٧٥ ق٠م توقفت النبوة ولم ينقل جميع الأنبياء شيئا عن حياتهم الشخصية لكنهم جميعا كشفوا عن أفكارهم وهى الصـفة المميزة التى شاركهم اياها كل من هوميروس وشكسبير ، ويمثل الرجال الستة عشر سلسلة تكاد تكون متصـــلة من العقول العظيمة التى اتحدت جميعها فى مقاومة تعدد الآلهة والمذاهب الدينية الغريبة ، كما كانت أمام أعينهم دائما صورة شاملة للمستقبل ، وما يمكن لقوى يهوه الخلاقة أن تضطلع به ٠ وراحوا يعلنون أنه ذات يوم سوف يأتى أعظم الأنبياء ٠٠٠٠ رجل سوف يرضى فى تواضع ، بالموت وسوف يقول عنه أحباره « لقد قام ثانيـــة » وسوف تكون هنالك خليقة جديدة وعصرا ذهبيا جديدا فى النهاية ٠

لقد أدرك الأنبياء ما هو أعمق وما هو جوهرى اذ عرفوا ما يكمن فى داخل الانســـان وأن ثمة من يسمو عن ادارك البشر ويضطلع بتنظيم الكون ، لقد عاشوا وكابدوا الألم ولاقوا حتفهم فى سبيل عالم أفضل ٠

فلسطين

أيام الانسان قليلة ، وحافلة بالمتاعب « سفر أيوب »

يجمع العالم على ان الكتاب المقدس خليق بأن يوصف بأعظم كتاب عرفه الانسان ، فهو الكتاب الذى استقت منه حضارتنا مبادئها الأساسية وانبثق عنه كل ما بين أيدينا من نظريات اخلاقيــة وفنية وأدبية ، وتدفق منــه معين لا ينضب من الحكمة والروحانية أشبه ما يكون بتيار من المياه المتدفقة ·

بول كلودل ، ديسمبر ، ١٩٤٠

يكاد يكون لحضارات العالم العظيمة طرا ذخيرتها من الأساطير ، أما الشعر الملحمى فلم يكن له ، فيما يبدو ، بين اليهود وجود ، ومعظم قصص البطولة التى نعثر عليها انما هى منقولة عن مصادر أجنبية قديمة طورها الأنبياء والكهنة لأغراض تعليمية كما لم يقم فى اسرائيل مسرح ولم تتطور الكتابة المسرحية ، فقــد كان التمثيــل على المسرح انتهــاكا للقانون الذى كان يحظر تمثيل البشر فوق خشبة المسرح ·

ولم يظهر العبرانيون نبوغا حقيقيا الا فى ميدان الشعر الغنائى ، وكلمــة (Lurie) (غنائى) تشتق من اللفظ اليونانى (Lyre) ومعناه القيثار ، وكان الشعر الغنائى ينشد يوما بصحبة تلك الآلة · والشعر الغنائى يختلف عن الشعر القصصى والمسرحى من حيث مدى ارتبــاطه بالموسيقا ، فمن بين المائة والخمسين مزمورا الواردة فى العهد القديم من الكتاب المقدس ثلاثون لها حواش موسيقية ، فقد كانت المزامير أغنيات بقدر ما هى قصائد ، كما أننا نشهد تطورا مماثلا فى شعر الأمثال الوارد

فى سفرى الأمثال والجامعة ، على حين أن سفر أيوب يعد مزيجا رائعا من الأغنية والمثل .

وأسفار الشعر أو الحكمة الخمسة التى حواها العهد القديم هى أيوب والمزامير والأمثال والجامعة ونشيد الانشاد ، أما توراة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية - وهى ترجمة القديس جيروم اللاتينية - فتضم الى جانب الأسفار الخمسة سفر الحكمة وسفر يشوع بن سيراخ ، على حين أن هذه الأسفار فى التوراة العبرانية تدخل ضمن (Ketubim) أى الكتابات المقدسة .

ولسنا ندرى من الذى كتب سفر أيوب ولا يسعنا الا أن نفترض بأن المؤلف اسرائيلى وان يكن ذلك الافتراض قابلا للشك ، فلعل الكاتب عربى يجهل القانون العبرى بل ذهب البعض الى حد القول أن قصة أيوب قد أخذت عن بابل حيث عثر فى مكتبة آشور بانيبال بنينوى وسيبار على شذرات من أنشودة تروى آلام رجل بار . انها قصة ملك وفى أقعده المرض فبدا أمامهم أثيما غارقا فى الخطيئة ولبث يكابد كل ضروب الاساءة حتى اكتشف خطيئته والحزن يملأ نفسه وهى : انه اعتبر نفسه معادلا لالهه ، وفى نهايه القصة ترد اليه صحته وسعادته ويظهر له الاله مردوخ فى حلم ، ورغما عن ذلك فثمة اختلاف واضح بين القصة البابلية وتلك التى جاء ذكرها فى التوراة ، فقد كان أيوب رجلا بارا على حين أن الملك البابلى كان خاطئا أثيما .

ولعل أيوب وجد على قيد الحياة فى ١٧٠٠ ق . م تقريبا ، فى عهد الآباء الأولين ... ابراهيم واسحق ويعقوب ، بالقرب من الصحراء العربية ، على الحدود الشرقية من فلسطين ، والواقع أننا نقرأ اسم أيوب فى الوثائق المصرية التى ترجع الى ٢٠٠٠ سنة ق.م ، وفى ألواح العمارنة (حوالى ١٤٠٠ ق.م) ، لكن حين تمت كتابة سفر أيوب كان البطل قد أضحى شخصية أسطورية ، ولكن متى بالضبط كتب ذلك السفر ؟

ان كتبا قيمة كثيرة قد نشرت حول هذا الموضوع ، ولم يتفق العلماء حوله كعهدنا بهم فى الغالب الأعم . ومن المرجح أن الكتاب قد ظهر فى فترة تتراوح ما بين عامى ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م والنقطة الوحيدة التى ظفرت بالاجماع هى أن هذا العمل المقدس هو أعظم ما وجد فى الكتابات العبرية ، واتفق جوته وفيكتور هيجو وتولستوى فى وصف سفر أيوب بأنه أعظم عمل شعرى أنتجه الفكر الانسانى ، ذلك أنه ملحمة شاملة للحياة الروحية .

وباستخدام ما كان يبدو أنه قصة شعبية قديمة فى موضوعه استطاع الشاعر أن ينسج فى صلب قصة أيوب مسرحية روحية فى هيئة

أحاديث . وفى مكان ما فى السفر يظهر رجل يدعى اليهو تبدو أحاديثه وكأنها حشو بين السطور حيث انها كتبت بلغة أقرب ما يكون الى الآرامية ، ولعلها أضيفت فى فترة لاحقة ٠

« كان رجل فى أرض عوص اسمه أيوب ، وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما يتقى الله ويحيد عن الشر ، وولد له سبعة بنين وثلاث بنات ، وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة زوج من الثيران وخمسمائة حمار كما كان لديه خدم كثيرون جدا — حتى ان هذا الرجل كان أعظم كل بنى المشرق ٠

وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله(١) ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا فى وسطهم فقال الرب للشيطان من أين جئت ٠٠ فأجاب الشيطان الرب وقال من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدى أيوب لأن ليس مثله فى الأرض ، رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر فأجاب الشيطان الرب وقال هل مجانا يتقى أيوب الله أليس أنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية ، باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض ٠ ولكن ابسط يدك الآن ومس كل ما له فانه فى وجهك يجدف عليك ٠ فقال الرب للشيطان هوذا كل ماله فى يديك وانما اليه لا تمتد يدك ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب » ٠

والحبكة التى داخل حبكة القصة هى مراهنة الله مع الشيطان ، على ايمان أيوب ، ثم يقبل موكب من الرسل يحمل كل منهم « أخبار أيوب » فيخبرونه عن وقوع اعتداء مسلح ، وعن سرقة ماشيته ، وقتل غلمانه ، وأن البرق قد أحرق ماشيته وغلمانه ، وان الكلدانيين قد انقضوا على جماله ، وأن ريحا عاتية قد قتلت أبناءه وبناته ٠ « ثم وقف أيوب ومزق جبته وجز شعر رأسه وخر على الأرض وسجد وقال ، عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود الى هناك ٠ الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركا » ٠

ولما فشل الشيطان فى التغلب على أيوب بتلك الأساليب يعود الى الله ويقول : « جلد بجلد (٢) وكل ما للانسان يعطيه لأجل نفسه ، ولكن أبسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فانه فى وجهك يجدف عليك » وهكذا أسلم الله أيوب الى أيدى الشيطان بشرط أن يحفظ نفسه ! فاذا بالشيطان

---

(١) تعبير أدبى مجازى مستعمل فى أسفار العهد القديم بمعنى المخلوقات السماوية او الملائكة حسن ظاظا ٠

(٢) أى أن ما يضيع من الانسان يكون كالخدش فى الجلد سرعان ما يلتئم ٠ حسن ظاظا

يضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه الى هامته فيجلس أيوب وسط الرماد ويحك جسمه بشقفة وتقول له امرأته : « أنت متمسك بعد بكلماتك ؟ » بيد أن أيوب يظل رابط الجأش ويجيبها « تتكلمين كلاما كاحدى الجاهلات ، أألخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل ؟ » ويعود أيوب أصدقاؤه أليفاز وبلدد وصوفر لمواساته ، وعندما رفعوا أعينهم ولم يعرفوه بكوا ومزق كل واحد جبته ثم يخرج أيوب عن صمته ويلعن اليوم الذى ولد فيه .

ويتبع ذلك عرض لمعضلة العقاب والثواب التى لم تحل ، فعن المحادثات التى دارت بين أيوب وأصدقائه الثلاثة على التوالى كان البحث عن علة لما يعانيه أيوب من ضروب الآلام ، فهل السبب هو غضب الله الذى لامبرر له ؟ أم أنه عطف من الله على أيوب بهدف اصلاح نقائصه ؟ وبوجه عام كيف تتخذ العدالة والحكمة والقوة مجراها فى هذا العالم ؟ وادراكا منه لبراءته ومن فرط حزنه يشن أيوب هجوما عنيفا على الله رغم أنه مازال أمينا له من أعماق قلبه ويأمل فى أن يتبرر ويتطهر بنعمة الله ، وحين يتوسل الى الله فى نهاية الأمر كيما يرسل اليه حكما فانه يخرس أصدقاءه ويصل الحكم الى المسرح فى شخص اليهو فيتساءل : « لماذا تخاصم الله ؟ » لأن الله يتكلم مرة واثنتين ، ومع ذلك لايدرك الانسان .. فى حلم ، فى رؤيا الليل عند سقوط سبات على الناس فى النعاس على المضجع .. أيضا يؤدب بالوجع على مضجعه » ويوبخ اليهو أيوب على اندفاعه ، فالألم ماهو الا صورة من صور العقاب ، لكنه يطهر البار التقى ويزكيه .

وأخيرا يتحدث يهوه بنفسه ويفتح عينى أيوب لما هو أعظم من العظيم ، ويريه طبيعة الخالق وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعدله وحبه فى اطار الخليقة ونظام الكون ، وكل مايبدو فى الطبيعة من ألغاز وأسرار ومتناقضات ماهو الا جزء من خطة مدروسة محكمة ، ويلوذ أيوب بالصمت فلا يلبث أن يفتح فاه فى النهاية ويقول : « قد علمت الآن أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر .. ولكنى قد نطقت بما لم أفهم ، بعجائب تسمو على ولم أعرفها » .

هكذا يرد الرب لأيوب ثروته ، بل يزيد من ممتلكاته لتصبح ضعف ما كان لديه قبلا ، وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة حتى وافته المنية شيخا « وشبع من الأيام » . وبذلك خسر الشيطان الرهان .

ان سفر أيوب ليعد جديدا وفريدا بل وثوريا فى طبيعته حيث انه يحطم نظرية العقاب والثواب القديمة ويذريها مع الريح ، فالسعادة والشقاء لا يتم توزيعهما على أساس الاستحقاق وعدمه .

ان تدبير الله يشمل العالم بأسره والكون عن بكرة أبيه وهو يسمو فوق ادراك البشر ، وكل عمل الهي لا يوجه الى فرد أو الى أمة بل الى شعوب الأرض قاطبة ، وهكذا يصبح بوسع المتألم البار ان يظل متمسكا بنقاء سريرته ، على ألا يكون الايمان بالله مقابل المجازاة فى العالم القادم فحسب ، فذلك بدوره دافع طابعه الأنانية ، ولم تثر فكرة ما بعد الموت فى سفر أيوب غير مرة عندما يصرخ أيوب قائلا : « ليتك تواريني فى الهاوية ... ان مات رجل أفيحيا . كل أيام جهادى أصبر الى أن يأتى بدلى » ولكن سرعان ما يتبدد الرجاء الذى لا يجلبه غير المسيح فى نهاية المطاف ، ويمضى أيوب قائلا : « تتجبر عليه (على الانسان) أبدا فيذهب ، تغير وجهه وتطرده » ان سفر أيوب أقوى شهادة مؤثرة لصراع الانسان العنيف مع الهه .

ان الانسان لا يقوى على الحياة بموجب الحق السامى الذى انطوى عليه هذا السفر ، حيث ان ذلك يتطلب منه تحرير نفسه من الأغلال التى تفرضها عليه طبيعته الانسانية ومن مفهومه لله والحياة الدينية ، ومن تقييمه الدنيوى لقيم الحياة .

تلك هى مسرحية أيوب الروحية : انها صراع الانسانية ونضالها الأبدى وهى تواجه سر الخلق ، انها العبث الجوهرى لكل ألوان العلوم والمعرفة ، انها الخوف من حقيقة أخرى أعظم وأشمل لا ندرك كنهها ، والأمر الوحيد المؤكد لدينا هو أنه ما من شىء أو انسان فى هذا الكون يضيع الى الأبد ، وأن القلب النقى هو المفتاح الوحيد لهذه المشكلة السرمدية » .

فلسطين

عاش المسيح على الأرض

لامراء في ان العنف الذى يهاجم به الكثيرون المسيح يعلن انه مازال حيا ٠

جوفاني بابيني في مؤلفه « تاريخ المسيح »

فى العام الرابع قبل بداية تقويمنا ، ابان حكم الملك هيرودس ، ولد فى بيت لحم يسوع ابن مريم المخلص المسيحانى ، أما لقب « المسيح » فمشتق من الكلمة اليونانية (Chirsto) وتعنى الممسوح ، وفى العام التاسع والعشرين أو الثلاثين من تاريخنا صلب المسيح ٠ لقد عاش على الأرض وسمر على خشبة الصليب ٠

وظل الناس زهاء ألف وتسعمائة سنة يحاولون قتله ثانية واثبات أن يسوع شخصية خرافية وأنه لم يوجد على قيد الحياة اطلاقا ٠ وسعى كتاب القصة ورجال الفكر المضللون الى الحط من شأن الانجيل الى حد الأسطورة ٠

ويطرح جوفانى بابينى (Giovanni Papini) ، الكاتب الفلورنسى فى مؤلفه «تاريخ المسيح» ، على أولئك المرتابين جميعهم سؤالا واحدا هو : « من ذا الذى يأخذ مكانة الرجل العظيم الذى ترفضونه ؟ لقد حفر قبره اعمق من أى قبر لكن أحدا لم يحاول على الاطلاق دفنه » ولم يفلح أى قدر من الدحض والتضليل والنقد والطمس والتخريب أن يبعد المسيح عن العالم ، ومازالت المسيحية تعيش فى هذا العصر ٠ انها لم تنته بعد ٠

فمن أين نستقى معلوماتنا عن يســـوع وحيــاته وأعماله وما هى المصادر التاريخية التى بين أيدينا ؟ مصادرنا هى كتابات « العهد الجديد » وهى عبــارة عن مجموعة صغيرة من الكتب تختلف فى مضمونهــا ، كتبها أشخاص مختلفون فى أزمنة متباينة وقامت الكنيسة بجمعها فى غضون القرون الأولى ٠

ان أول شهادة عن يســـوع يدلى بها مسيحى وردت فى رســائل بولس ، خاصة فى تلك التى وجهها الى أهل روما وغلاطية ، وفى الرسالتين اللتين بعث بهما الى أهل كورنثوس ، أما بولس — أو شاءول وهو اسمه الأصلى — فقد ولد فى طرسوس عاصمة سيليسيا Cilicia ، لقد كان يهوديا ومواطنا رومانيا فى الوقت نفسه ، وأرسل وهو بعد شــاب الى أورشليم حيث كان يجلس تحت قدمى غمالئيل Gamaliel يتلقن الناموس على يديه ، الى جانب تعلمه صناعة الخيام والســـجاد ، وسعى شاءول جاهدا بحماس بالغ من أجـــل اقامة العـدل وحفظ الناموس اليهودى ٠

وبعدئذ صار يكبل بالأغلال الرجال والنساء ممن يعترفون بالعقيدة المسيحية الجديدة ويسوقهــم الى السجن ٠ كان يضطهدهم لأنهم عبدوا مسيحهم المصلوب على أنه المسيح المخلص المنتظر ولأن تعاليم يسوع عن محبة الله أبطلت الناموس العبرى القـــديم ، بل وطلب من رئيس الكهنة سلطة خاصة للعمل فى دمشـــق حيث كان ينوى القبض عـلى المهرطقين الآخرين واعادتهم الى أورشليم لينالوا عقابهم ، لكن وهو فى طريقـــه الى دمشق أضاء حوله فجأة من السماء نور عظيم وسمع صـــوتا يقول له : « شاول شاول لماذا تضطهدنى » وعندما وصل الى دمشق طلب أن يعمد ، ربما كان ذلك عام ٣٥ بعد الميلاد ٠ لقد كان بولس أول من حمل بشارة الفادى الى عالم الوثنية (١) ، كما كانت حياته حياة البطولة التى لم يشهد العالم لها نظيرا ٠ وكان شعاره : « لست أنابـل المســـيح فى » وتذكر الروايات القديمة أن بولس لقى حتفه على أيدى الجلاد فى روما فى التاسع والعشرين من شهر يوليو ٦٧ م ٠

ويضم العهد الجديد ثلاث عشرة رسالة من رسائل بولس أو أربع عشرة لو أضفنا اليها للرســـالة الى العبرانيين التى تختلف عن غيرها من حيث الشكل والأسلوب وطريقة التفكير ، وتعد هذه الرســـالة أقدم الأدلة على حياة المسيح من مصدر مسيحى ٠ أما الرسائل الأخرى التى وردت فى العهد الجديد فهى من مصدر لاحق ٠

---

(١) أى خارج نطاق اليهود الذين ظهر بينهم المسيح — المراجع

وكان بولس مع حوارى المسيح الاثنى عشر ، كبار رسل المسيحية ، وكلمة رسول في اليونانية تعني « المرسل » ولما ولفت المنية أولئك الرجال الواحد اثر الآخر في حوالى سنة ٦٠ ميلادية اقتضت الضرورة الملحة تدوين انجيل المسيح ، واللفظ « انجيل » مشتق من اليونانية ومعناه « البشارة » وهو في الانجليزية القديمة Gospel، ولدينا أربع روايات مختلفة لانجيل المسيح وهي : متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، تشكل الثلاثة الأولى منها مجموعة مغايرة للرابعة ، فهي متشابهة من حيث التركيب واختيار المادة والتفاصيل ومن ثم باتت تعرف بالأناجيل المتطابقة ٠

كانت تعيش في أورشليم امرأة مسيحية ومبجلة اسمها مريم كانت صديقة لبطرس ، وفي دارها دأب الرسل على الاجتماع ٠ وكان لهذه المرأة ابن يدعى مرقس اعتنق المسيحية وتعمد على يدى بطرس ٠ وألم مرقس بتعاليم المسيح مما كان يرويه عنه بطرس ، وفي الفترة مابين ٦٥ و ٦٧ م قام بتدوين تلك الأحاديث بأمانة وان لم يتبع التسلسل التاريخي لها ٠ وأطلق جوستين (Justin) الشهيد ، وهو شخصية تاريخية ولد ى ١٠٠ م وأعدم في روما عام ١٦٥ م ، على كتاب مرقس اسم « انجيل بطرس » ٠ أما بابياس (Papias) الذى عاش نحو سنة ١٠٠م ، فكان يرى أ نمرقس لم يعرف المسيح أو يتبعه على الاطلاق٠ لكن ربما كان مرقس هو ذلك الشاب الذى وجد عند القاء القبض على المسيح والذى هرب عاريا تاركا رداءه في أيدى الذين حاولوا أن يمسكوا به ، فان صح هذا الرأى كانت الفقرة الواردة في انجيل مرقس ص ١٤ : ٥١ ، ٥٢ تعني مرقس نفسه ٠

وكان متى ، وهو أحد التلاميذ الاثنى عشر ، جابيا للضرائب في دار الجباية الروماني عند بحيرة طبرية ، وفي الفترة مابين ٧٠ و ٨٠ م كتب قصة يسوع باحساس رائع بالأحداث التاريخية ٠

أما لوقا فجاء من انطاكية بسوريا بشهادة شخص تاريخي هو يوزيبيوس (Eusebius) لقد كان لوقا طبيبا وكتب انجيله نحو عام ٧٠م٠

وكان يوحنا ابن رجل صياد من بحيرة الجليل ، وكانت أمه سالومى ، شقيقة أم المسيح ، بين النساء اللائى بكين على المخلص عند الصليب ، ويوحنا هو الذى عهد اليه يسوع رعاية أمه مريم قبل موته ٠ أما يوحنا نفسه فقد وافته المنية زهاء عام ٧٩ م بعد أن أصبح طاعنا في السن ، وكتب انجيله بطلب من أصدقائه وكان ذلك ، على الأرجح ، في افسس ٠

وكتبت أسفار العهد الجديد جميعها باللغة اليونانية ، بيد أن ما سجله متى ومرقس ولوقا قد نقل شفاها باللغة الآرامية ، ومن ثم فان

هذه الأناجيل الثلاثة المتماثلة انما تستند على ما نقل شفاها • لقد كانت اللغة الآرامية بالتأكيد هي لغة المسيح الأصلية ، فما لبثت أن كانت اليونانية في القرن الأول في عصر المسيحية هي لغة الكتابة ولما كان الانجيل سيعلن للعالم طرا تعين كتابته بلغة عالمية •

لقد ولد يسوع في الجليل ، الحد الفاصل بين العالمين اليهودي واليوناني ، ومن المرجح ، كما يعتقد مارتن ديبليوس ، أن المسيح وحوارييه كانوا يفهمون اليونانية وربما كانوا يتحدثونها ، وليس من شك في أن الرسل كانوا يتحدثون تلك اللغة ويكتبونها بالاضافة الى لغتهم الأصلية •

وهكذا فان ما نعرفه عن يسوع ليس أسطورة أو خرافة أو ضربا من الشعوذة البدائية وانما يستند الى نصوص كتبت بوضوح بعد الصلب بفترة وجيزة تتراوح بين ثلاثين وسبعين عاما • وان كنا لم نعثر الى اليوم على المخطوطات الأصلية للرسل الا أنه لدينا أجزاء من نسخ جد قديمة ، أقدمها مخطوطات البردى •• وفي عصر أباطرة الرومان حين كتب « العهد الجديد » كانت هنالك مصانع كبيرة لصناعة الورق من ورق البردى ، وبيوت تجارية لتصديره ، ولقد أمكن اكتشاف كميات ضخمة من نبات البردى تودع اليوم في ردهات المتاحف الكبرى في جميع أنحاء العالم ، دون أن تفك حتى الآن رموز الكثير منها أو تقرأ ، وليس من يقطع بما سيتم اكتشافه في المستقبل •

ان ما بين أيدينا اليوم ليثير ، برغم ذلك ، دهشتنا ، ففي عام ١٩٣١ تم نشر مائة وست وعشرين بردية من مجموعة تشستر — بيتي (Chester-Beaty) ، تضمنت أجزاء من أسفار العهد الجديد كتبت في الفترة ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ميلادية • وفي عام ١٩٣٥ نشر س • هـ روبرتس أجزاء من انجيل يوحنا كتبت على نبات البردى ويرجع تاريخها الى عهد هارديان (Hardian) الذي لقي حتفه عام ١٣٥ م ، ومن ثم فان تلك الوثائق الخاصة بالمسيح قد كتبت ، ولا غرو ، بعد الصلب بنحو مائة عام فحسب • وفي العام نفسه نشر هـ • أ • بيل (Bell) ، وت • سكيت (Skeat) جزءا من بردية بالمتحف البريطاني يتضمن جانبا من قصة حياة المسيح ويستند هذا النص الى الأناجيل الأربعة . ويوصف لذلك بأنه متناسق «ويقرر الباحثون أن تاريخ النص انما يرجع الى الحقبة ما بين ١٠٠ و١٥٠م • كما أن بردية اجرتون (Egerton Popyras) تملأ نفوسنا رهبة حين تتأمل كيف أنها تؤكد على الفور حياة المسيح •

وفي غضون الأربعين سنة الماضية أمكن اكتشاف معظم أجزاء أسفار

العهد الجديد المكتوبة على البردى فى أوكسيرنكس (١) (Oxyrhynchus) بمصر العليا حيث التربة الجافة تحفظ المواد القابلة للتلف على نحو مثير للدهشة ولذا أضحت هذه المدينة الخربة ، التى تبعد عن القاهرة بأقل من مائة ميل ، مركزا لما يضطلع به خبراء العهد الجديد من بحوث ·

ولقد سبق الجلد البردى كمادة هامة أخرى للكتابة ، تلك المادة التى كانت تعد بعناية من جلود الماعز والحمير والغنم والعجول وبقر الوحش ، أما صناعتها فقد تقدمت فى القرن الثـــانى قبـــل الميلاد فى برجاموم (Pergamum) المدينة التى أخذت عنها كلمة (Parchment) « رق الكتابة » ·

ويرمز العلماء لمخطوطات العهد الجديد المشهورة الأربعـة بالرمز B,X,A,C فالرمز B يدل على مخطوطة الفاتيكان (Codex Vaticanus) الذى يرجع تاريخه الى القرن الرابع وهو أقدم مخطوط على الجلد ، X رمز للمخطوط السينائى (Sinaiticus) الذى اكتشفه تشيندورف (Tischendorf) عند زيارته لسيناء عام ١٨٤٤ والذى يرقى بدوره الى القرن الرابع ·و A رمز للمخطوط السكندرى (Alexandrinus) أما C فترمز لمـا يسمى بالمخطوط المستنسخة (Codex rescriptus) ويرجع تاريخ كليهما الى القرن الخامس ، تلك هى المخطوطات الأربعة الكاملة التى تعد أقدم وأشهر مخطوطات للعهد الجـــديد من الكتـــاب المقدس ·

والراجح أن أسفار العهد الجديد قد ثبتت صحتها على نحو لا ترقى اليه أية وثائق أخرى فى التراث الأدبى للانسان · وفى عام ١٨٧٤ كان العلم قد جمع ١٢٠ ألفا من مخطوطات العهد الجديد التى ترجع الى الماضى السحيق والتى لا تختلف فيما بينها اختلافا يذكر · وللعهد الجديد اليوم طبعات يكاد عددها يبلغ ما يتضمنه هذا الكتاب من كلمات وان كانت النسخ تكشف عن بعض اختلافات صغيرة ·

ولقد استطاعت الكنيسة أن تفصل عن هذا السيل من الكتابات المسيحية الأولى أقدم النصوص التى اعتبرتها أصدق الوثائق فى الحقبة التى أعقبت صلب المسيح مباشرة ، ومهما عبثت يد الانسان ، ومهما بلغ عدد الكنـــائس التى تحرق أو التى تدمرها القنـــابل ومهما كثر الشر واستفحل فسوف تظل روح حياة يسوع سائدة على عالمنا ·

---

(١) عند البهنسا الحالية فى مصر الوسطى — المراجع

الهند

أكبر لغز في تاريخ البشرية

موهنجو ـ دارو وهارابا

كل ما نستمتع به في العصر الحديث ونحن في حوض للسـباحة كان متاحا هنا في موهنجو دارو قبل بداية تاريخنا بزمن طويل •

سيرجون مارشال

في عام ١٨٥٦ وفي عهد الملكة فيكتوريا كان البريطانيون يتولون مد خط شرقي الهند الحديدي بين كراتشي ولا هور • وكان يباشر تنفيذ هذا المشروع أخان هما جون برنتون ووليام برنتون • فكان جون يضطلع بالقسم الجنوبي من الخط ، أما وليام فقد تولى الاشراف على القسم الشمالي الذي يصل الى البنجاب •

وان المرء ليحتاج لبناء رصيف صلد متين الى أساس راسخ وكمية هائلة من الحجارة • وكان جون برنتون دائب البحث عن مصدر مناسب يحصل منه على حاجته • وعلى مقربة منه كانت تقـوم أنقاض مدينـة براميناباد Braminbad التي يرجع تاريخها الى القرون الوسطى والتي تمثل جبلا منتظما من الطوب ، فاستغلها المهندس الواسع الحيلة وأبلغ شقيقه وليام كيف أن مشكلة الحصول على الحجارة قد أمكن حلها فما كان من وليام الا أن بدأ في استكشاف الأراضي الواقعة على جانبي خطه الحـديدي الذي يقوم بمده بين مولتان ولاهور • ولم يلبث أن اكتشف بدوره مدينة خربة قديمة بنيت على أنقاضها مدينة هارابا • وكان الآجر هو ما يحتاجه على وجه التحديد ، فأمر على الفور بنقل الأنقاض التي وجدت في هارابا

واليوم تنهب القطارات المسافرة بين لاهور وكراتشي مسافة تقرب من مائة ميل فوق قضبان أرسيت على نوع من الآجر صنع منذ ٣٦٠٠ سنة خلت . ولا يزال هذا الآجر الذى صنعته أقدم الحضارات المتقدمة فى العـــالم محتفظا بصلابته وتماسكه حتى ان أحدث القاطرات لا تقوى على سحقه .

وفى عام ١٩٢٢ عنـــدما كان عـــالم الآثار الهندى ر.د. بانرجى (Banerji) ينقب عن أحد الأديرة البوذية القديمة التى ترجع الى سنة ٣٠٠ ميلادية عند نهر السند الأدنى فى موهنجو دارو ، « تل الموتى » ، تبين له أن الآجر الذى استخدمه البوذيون الأوائل فى بنائه انما يرقى الى أزمنة أسبق من ذلك بكثير . وانه الى أسفل الدير « وتل الموتى » توجد مدينة مطمورة منذ زمن سحيق . وقرابة الوقت ذاته بدأ ســـير جون مارشال ، مدير هيئة الآثار الهندية ، بأعمال تنقيب واسعة النطاق فى هارابا (Harappa) وسرعان ما ثبت لديه أن حضارة ما قبـــل التاريخ فى نهر السند هذه قد شملت رقعة مترامية من الأراضى امتدت الى بلوخستان ، وأنه قبل هجرة الشعوب المعروفة بالشعوب الآرية التى جاءت من منطقة بحر قزوين الى الهنـــد فى حوالى ١٥٠٠ ق.م ، بزمن طويل ، لابد وان حضاره أقدم عهداً قامت فى شمال غربى الهند ــ وقد ازدهرت فى الفترا ما بين ١٧٠٠ و ١٥٠٠ ق . م ، فكيف توصل العلماء الى هذا التاريخ بالنسبة لهارابا وموهنجو دارو ؟

ولم يعثر الا على أقل القليل من الوثائق المكتوبة فى وادى السند باستثناء الأختام التى كتبت بأحرف غامضة لم تفك رموزها بعد . ومن ثم لم تسفر هذه الأبحاث عن اجابة على السؤال الذى طرحناه . بيد أن علماء الآثار الذين قاموا بالتنقيب فى المدن السومرية فى وادى الفرات ودجلة كانوا قد عثروا على أختام تماثلها تماما وعلى بعض قطع فخارية مهشمة ليس من الخطأ ارجاعها أصلا الى المدن القديمة التى كانت تقـــع على نهر السند ، وحيث ان الرموز المسمارية السومرية قد تم حلها وأمكن تحديد تاريخها بدقة فان طبقات الأرض التى تنتمى اليها أختام نهـــر السند والآثار السومرية التى أمكن تحديد تواريخها هى التى حددت تاريخ هارابا وموهنجو دارو .وبذا تبين أن شعب موهنجو دارو وهارابا قد عاصر الفترة السومرية فيما بين ١٧٠٠ و ١٥٠٠ ق.م .

فمن أين وفد بناة هـــذه المدن القديمة ؟ غاية ما نعــــرفه عنهم هو أن مدنهم بلغت أوج ازدهارها قبل وصول المهاجرين الآريين الى شمال الهند بفترة طويلة ، وربما كان ســـكان هارابا أنفسهم دخلاء جاءوا من مكان ما وراء حدود الهند الشمالية الغربية . والذين كانت لهم ، ولا ريب ، حضارة زاهرة عندما قاموا ببناء مدنهم ، وحيث ان كتاباتهم لم توجد الا على الأختام (ولعل هذه كانت نوعا من التمائم) وبعض الشذرات والأدوات

الفخارية ، وحيث ان الرموز التى وجدت في مختلف مستويات الحفر الداله على مختلف العصور في هارابا وموهنجو دارو لم تتغير ٠٠٠ فان هذا يدل على أن هؤلاء الناس لم يشهدوا بعد حلولهم بالهند غير مستوى ضئيل من التطور الفكرى ، ولعل المناخ هو السبب ، ولعل افتقارنا الى وثائق أضخم من هذه يعزى الى سبب آخر ، فمن المحتمل أن تكون مثل هذه الوثائق قد كتبت على لحاء الشجر أو القطن أو الجلد أو سعف النخيل أو الخشب التى لا يخفى أنها تحللت جميعا منذ أمد بعيد بفعل رطوبة التربة الهندية وملوحتها ٠

وقد عثر خلال عمليات التنقيب فى موهنجودارو على مجموعات من الهياكل العظمية تضم احداها خمسة عشر هيكلا فى غرفة كبيرة ، كما تتألف مجموعة أخرى من ستة هياكل عثر عليها ملقاة فى أحد شوارع المدينة الأثرية ٠ أما ما بدت عليه جثث الموتى من التواء أوضاعها فانما يدل على أنهم لقوا مصرعهم غيلة وقسرا ٠ ويعتقد علماء الآثار بأن شعبى موهنجودارو وهارابا هجروا مدينتيهما فى زمن واحد ، وان كان أحد لا يعرف سر ذلك ٠

ويبدو أن بناء المدينتين تم وفقا لمخطط دقيق ، فشوارع هارابا تمتد متوازية وتؤلف فى تقاطعها مع شوارع أخرى متوازية زوايا قائمة ، ولم يكن لهذه المناطق السكنية القديمة على نهر السند أزقة ملتوية شأن المدن الاوربية فى العصور الوسطى ، كما يبدو أن تخطيط المدن كان موكلا لأيد خبيرة ، والواقع أن موهنجودارو وهارابا هما أقدم مثلين لتخطيط المدن فى العالم ٠

ومن العجيب أيضا أنه لا يكاد يوجد أيا من هذه المنازل جائرا على الطريق كما كانت واجهاتها تشكل خطوطا مستقيمة ، الى حد بعيد ٠ وكانت الشوارع الرئيسية تمتد من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، وربما كان الهدف هو اتاحة الفرصة أمام الرياح الشمالية لتجديد هواء هذه الشوارع جيدا ٠ وكان طول الشارع رقم واحد ، كما يسمى ، يبلغ نحو ١٠٠٠ ياردة ويمتد فى خط مستقيم من الشمال الى الجنوب ليشطر المدينة شطرين ٠ وثمة عدد كبير من شوارع موهنجودارو عظيمة الاتساع فقد يصل عرض بعضها عشر ياردات بحيث يسمح للعربات والمركبات الحربية بالمرور فى اتجاهين مخالفين ٠ كما أن جدران المنازل التى اكتشفت حتى الآن على امتداد الشوارع الرئيسية تصل الى عمق عشرين قدما تحت سطح الأرض ، ولعل التنقيب الكامل عنها سيكشف عن أعماق أبعد من هذه ٠ وبعض واجهات المنازل أزيلت عنه الأتربة حتى عمق ٢٦ قدما دون الوصول الى أساساتها بعد ٠

وكان يراعى فى بنـاء المنازل الواقعـة على تقاطعـات الطرق ان تتخـذ واجهات دائرية حتى لا تتعرض دواب الحمل والمشاة للاصطدام بنواصيها . ويمكن القول بأن مبانى هارابا وموهنجودارو جميعهـا بنيت من الآجر المحروق الذى يشبه الى حد ما فى شكله الآجـر الذى نستخدمه الى وقتنا هذا . غير أن أروع ما تتسم به أبنية موهنجو دارو هو طابع البساطة البادى عليها ، فتكاد تخلو من الزخرف والأعمـدة والشرفات والنوافذ والتماثيل ، فليس بها سوى أبواب صغيرة وأسطح مستوية . أما النوافذ فلم تكن تخدم أية ناحية عملية فى مناخ وادى السند الحار ، والكثير من هذه المنازل عبارة عن متاهات منتظمة ، ولعل أصحابها رأوا أن تعميق جدرانها يكفل لهم السلام والأمن ، وربما كانت زخرفة المنازل تحفر على الخشب كما لا تزال هى العادة فى الهند الى اليوم . وهكذا ليس غريبا أنه لم يبق لها من أثر بعد مضى ٣٥٠٠ عام .

ومن يطوف بآثار موهنجـو دارو وهارابا يتبين أن هـذه المنازل القديمة كانت مزودة بكل وسائل الراحة الحديثة ، فهى تضـم حمـامات ودورات للمياه وخزانات للصرف والمياه العذبة وأفنية داخلية منسـقة تشبه تلك التى ما برحت قائمة فى أنحاء الشرق الحديث ، فضلا عن غرف مريحة للنوم ، وغرف للاستقبال وأخرى لتناول الطعام ، كما كان للبواب مكان مستقل ، هذا كله كان فى عصور ما قبل التاريخ يوم أن كان سكان وسط أوروبا لا يتخذون لسكناهم غير الكهوف .

وأهم ما اكتشف فى موهنجودارو حتى اليوم الحمام العظيم الذى كان مزودا بالهواء والبخار والمياه الساخنة . فضلا عن حوض جميـل للسباحة وغرف للملابس وحمامات صغيرة وأنابيب للمياه ، وأدشـاش وما الى ذلك . ومن يفحص تصميمات تلك المبـانى لا يسعه الا أن يقف مذهولا أمام روعة حداثة فن بنائها الذى بلغ به هؤلاء الناس حد الاتقان منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام .

والى الغرب من الحمام العظيم كان هناك مخزن ضخم للغلال اكتشف عام ١٩٥٠ صممت صوامعه على نحو يكفل التجدد المستمر للهواء منعـا للرطوبة ، ويرجح أن كان طول البناء الأصلى ١٦٤ قدما وعرضه ٨٢ غير أنه قد تم توسيعه من جانبه الجنوبى فى زمن ما . ويصف لنا سـير مورتمر هويلر (Mortimer Whealer) كيف كان يتم فى عهد من العهود تدبير هذه السلعة ـ وهى الدليل الهام الوحيد على الرخاء العـام ـ وتوزيعها ، وكيف كانت أنصبة الحكومة تملأ صوامع الغلال هذه مرة بعد الأخرى . ويشير هويلر الى أن هذا المخزن خلال الحقبة التاريخيـة التى لم تعرف فيها النقود ، كان يمثل خزينة الدولة فى كل أغراضهـا العملية .

ومع ذلك فلم يتم بعد التنقيب عن أغنى وأفخم المباني جميعا ذلك أن معبدا بوذيا أو ضريحا مقدسا يقوم فوقه ولابد من تدميره قبل أن يماط اللثام عما يكمن تحته من أسرار • ولما كان الهنود يأبون هدم ضريحهم المقدس فان هذه المعجزة الكامنة تحت سطح الأرض ــ التي يحتمل أن تكون معبدا يرجع تاريخه الى ٤٠٠٠ سنة مضت ــ مازالت بعيدة المنال •

وعثر في موهنجودارو وهارابا على تماثيل نساء صغيرة الحجم ، ومن الجائز انها تمثل احدى الإلهات ، التي لا يعرف اسمها ، وإن كان سير جون مارشال ، وهو اعظم حجة في حضارة السند ، يعتقد انها الالهة الأم التي لا يزال الهنود يعبدونها الى اليوم والتي يرجع تاريخها فيما يبدو الى عصور ما قبل التاريخ • ونرى على بعض الاختام التعويذية صورة شخص جالس تحيط به بعض الحيوانات ، ويعتبر هذا بحق بشيرا لسيفا ، وهو واحد من الالهين الكبيرين في الديانة الهندوسية الحديثة ، كما عثر على الآلهة على شكل حيوانات ثم أشجار تين مقدسة ، ثم مجموعة متنوعة من النصب الحيوانية • ويمكن القول ، بالقياس الى ملابس ربة الآلهة ، أن نساء موهنجودارو كن لا يرتدين أكثر من ازار لا يكاد يصل الى الركبة يثبت الى الجسم بحزام ، وربما كانت هناك عباءة تستر الأذرع ، وتترك الصدر عاريا ، كذلك عثر على تمثال عار صغير من البرونز يحتمل أنه لاحدى الراقصات • أما الرجال فلعلهم كانوا يرتدون منطقة للحقوين فوقها عباءة تغطي الكتف الأيسر وتربط أسفل الذراع الأيمن •

وقد عثر داخل أوان من الفضة والنحاس والبرونز على مجوهرات كثيرة تتألف من عقود وحلي ذهبية وفضية وبرونزية ونحاسية ومن الالكتروم (وهو خليط معدني من الذهب والفضة) كما اكتشفت كميات كبيرة من حلي أخرى كالخواتم والأساور وأقراط الأنف ونماذج من جميع أنواع الحجارة الثمينة وشبه الثمينة التي نعرفها ، ومرايات من البرونز ذوات مقابض خشبية وعطور وشفرات بل عثر على منشار مسنن يعد الأول من نوعه • أما العدد الكبير من الشصوص التي مازالت ببعضها بقايا من خيوط القطن ، فانما يدل على معرفتهم بطرق الصيد •

ويحمل عدد كبير من الأدوات نقوشا دقيقة لعلها تمثل أسماء أو أرقاما ، كما وجدت مثاقيل من المرمر والبللور الصخري واليشب والحجر الجيري مع وحدة موازين تعادل ٠ر٣٠٢ أوقية وتتزايد بالنسبة التالية ١ و ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢ و ٦٤ و ١٦٠ و ٢٠٠ و ٣٢٠ و ٦٤٠ و ١٦٠٠ و ٣٢٠٠ و ٦٤٠٠ و ٨٠٠٠ و ١٢٨٠٠ • ويبدو أن صفة الأمانة كانت متوافرة لدى سكان موهنجودارو ، اذ لم يعثر الا في القليل النادر على مثاقيل غير دقيقة ، أي تلك التي تخالف المعدل المعروف • أما الموازين

فكانت تتركب من عمود من البرونز وكفتين من النحاس ، وعثر أيضا على مقياس طولى وهو عبارة عن صـــدفة مستطيلة مقسمة الى وحدات مجموعها ١٩٩٩ر٢ قدم • ومما يدعو الى العجب حقا أن الخطأ أو مخالفة القاعدة في هذا المقياس لا يتجاوز ٠٠٢٩٩و من البوصة •

وكان هؤلاء الناس من أبناء عصور ما قبل التاريخ على دراية بغزل القطن ونسجه كما يستدل على ذلك من المغازل الكثيرة التى عثر عليها • كما أن أوعيتهم وأوانيهم انما هى أبعد عن أن تحمل الطابع البدائى ، وهى لا تدل على أساليب صناعية فنية متقدمة للغـــاية فحسب بل على اختلاف التصميم وتنوعه • فهى تمثل حقا ما وصل اليه شعب زاول الحرف حقبة طويلة من الزمن تقدر بمئات السنين ان لم تكن آلافهـــا ومع هذا فان ما عثر عليه من مختلف الأدوات لا تضاهى بحـــال ما تم اكتشافه في سومر وفى مصر • وربما كانت التصميمات التى وجدت على نهر السند قد نشأت فى تاريخ سابق غير أنها بقيت بعد ذلك على حالها دون تطوير •

أما أطفال هارابا وموهنجودارو ، فكانوا يستمتعون بقدر ما يستمتع به أطفال المدينة الحديثة ، فكانوا يلهون بأنواع اللعب المختلفة مثل الدمى الصغيرة التى تمثل ثورا يجر عربة أو جلاجل مزركشة باهرة الألوان بداخلها لآلىء الى جانب دمى لحيوانات وطيور ما برحت احداها منـــذ ٣٥٠٠ سنة مضت ، فى داخل قفص صغير يفتح منقاره ليغرد أنشـــودة صامتة ، بل لقد عثر على صفارة وعلى حيوان صغير يتسلق عمودا لم يتمكن علماء الحيوان من التعرف عليه • ولم يعثر على عرائس ، وان عثر على لعب تمثل آنية فخارية وتحمل الى الآن بصمات أصابع أطفال • ولعل أطفال موهنجودارو وهارابا كانوا جد مولعين بلعبة الثور الصغير حتى انها صنعت على نحو تجعل الثور يومىء برأسه •

وكان أهل هذه المدن يتطارحون الغرام ويشربون الخمر ويتآمرون • أما النرد الذى كانوا يلعبون به فكان جميل الصنع • اذ كان كل جانب منه يحمل رقما معينا بين ١ ، ٦ ـ بل ومن الممكن تحديد هذا الرقم ، فالعدد ٢ يقابل ١ و ٤ يقابل ٣ ، ٦ يقابل ٥ ، وهكذا لا ترتب الأرقام على مثل ما هو متبع فى نردنا حيث يساوى مجموع الجانبين المتقابلين ٧ •

وتؤكد بقــــايا الغزلان والجاموس والخنازير والسلاحف والماعز والماشية أن شعب وادى السند كان يأكل اللحوم ، لقد كانوا يتناولون الطعام وهم جلوس على الحصر • ومع ذلك تدل النقوش التصويرية على انهم كانوا يستخدمون المنـاضد والكراسى أيضـــا • وما عثر عليه من مجموعات كثيرة من أنواع القرون فى موهنجو دارو تدل على أنها ربمـا

استخدمت على شكل مسحوق فى الاعراض الطبيه ، وهى عادة لا تزال سائدة فى الهند والصين •

وكشفت حفريات موهنجو دارو وهارابا على أنه سيكون لزاما علينا أن نعيد كتابة التاريخ • فقد كان ينظر الى عصر ما قبل التاريخ فى الهند على إعتبار أنه فترة مظلمة من البداوة والبربرية • أما الآن فقد أصبح من المسلم به أن الانسان وصل الى مستوى رفيع جدا من الثقافة « قبل كل الحضارات » بزمن طويل ، ولا يعد خرافيا ما يذكره عالم مدقق مثل سير جون مارشال حين يعلن أن الحلى التى صنعها شعب السند بلغت من الدقة والروعة حدا يخيل لنا معه أنها جاءت من شارع بوند بلندن وليس من مسكن يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام خلت •

وهكـذا ترى أنه فى الوقت الذى كانت الملكة نفرتيتى تعيش مع زوجها الفرعون اخناتون فى مصر قامت فى السند أيضا حضارة متقدمة ازدهرت فى داخل مدن حديثة تختفى أصولها فى ضباب عصور ما قبل التاريخ • ولعل أشد ما يثير الدهشة على الإطلاق أن أقدم نماذج حضارة السند هى وحدها الدالة على أرفع وأرقى مدارج الكمال الحضارى ، وعلى ذلك فان ما كشفت عنه الحفائر كان يحمل بالفعل بذور التدهور ، أما الأمجاد الأولى فلا زالت حتى هذه الساعة من الأسرار الغامضة الكبرى فى تاريخ البشرية •

الهند

الذرة لا يمكنها مطلقا أن تدرك كنه الكون

لم يحدث قط في العالم أن قضي على الكراهية بالكراهية
فلا شيء ينزع البغضاء غير الحب ٠

جوتاما بوذا

من ظلمات عصر سحيق مضى ، منذ ثلاثة آلاف عام وربما قبل ذلك بكثير ، تبعث لنا الهند بتلك الكلمات : « التعلم والتعليم يجلبان البهجة وقوة العقل والحرية ، اننا نجنى الفائدة منهما يوما وراء يوم ونرقد فى سلام ونصبح أفضل المداوين لنفوسنا ٠ ويسفر ذلك عن السيطرة على الحواس والاستمتاع بالوحدة ونمو المعرفة والسلطة والنضوج » ٠

فعقل من هذا الذى صاغ تلك الكلمات ؟ وأين كان يقيم هـؤلاء القوم الذين كانت لهم مثل هذه العقول الراجحة الناضجة ؟ وما سبيلنا الى أن نقرأ المزيد من مثل هذه الأقوال ؟

ان أصول تاريخ الهند ليكتنفها ظلام كثيف لا يمكن لنا أن نهتك أستاره فنحن لا نعرف أول شعب سكن القارة الهندية ، ولا ندرى ماذا جرى لهم ٠

وحضارة موهنجو دارو وهارابا هى ، كما سبق أن ذكرنا ، أقدم الحضارات المتقدمة التى نقبنا عنها فى التربة الهندية ، وهى حضـارة ترجع الى ما قبل التاريخ وتستغرق فترة تتراوح بين ٣٥٠٠ و ٤٠٠٠ سـنة ٠

وفى فترة لاحقه على ذلك ، أى فى حوالى سنة ١٥٠٠ ق٠م فيمـ يحتمل ، غـزا الآريون شـمال الهند لكنهم لم يتركوا آثارا حجرية أو معدنية ولا وثائق مكتوبة كما لم يخلفوا أى دليل عينى ملموس على وجودهم • وبدلا من ذلك خلفوا وراءهم تراثا مذهـــلا من الأفكار التى تناقلها الرواة جيلا بعد جيل • ولم تسجل هذه الأفـكار أو تنقش على الحجر • فقد نقلت الفيدا (Vedas) الهندية من جيل الى جيـــل شفاها ، شأنها شأن أقدم الملاحم الانسانية ألا وهى الالياذة والأوديسة وقصص البطولة الألمانية •

وظلت هذه هى الحال حتى القرن السابع أو القرن الثامن قبـل الميلاد حين نقل التجار الهندوس من غربى آسيا احدى طرق الكتـــابة السامية ، وتسمى بالكتابة البراهمية التى اشتقت منها مختلف الأبجديات الهندية التى عرفت فيما بعد ، وفى غضون القرون التالية أمـكن تدوين « الفيدا » فشملت الأناشيد المقدسة وطقوس القرابين والمراسيم الدينية والتعاليم الطقسية والمجادلات اللاهوتية الفلسفية •

هــذا كله حوته الفيـدات ، وهى ذلك الأثر المذهل الذى أقامه المهاجرون الهندو أوروبيون لأنفسهم وراح ينمو ويزداد عبر القرون ، وأقدم مجمـــوعة فى هــذا الأدب الفيدى العظيم هى ما يعرف بريج فيـــدا (Rig-Veda) تضم ما يقرب من ١٠٠٠ أنشودة تتألف من نحو عشرة آلاف مقطع • أما الأجزاء الأخرى من الأدب الفيدى فهى ساما فيدا (Sama-Veda) وياجور فيدا (Yajur-Veda) وثارفا فيـــدا (Atharva-Veda) والبراهمانات (Brahamanas) والأريانات (Aryanas) والأوبانيشادات (Upanishads) والسوترات (Sutras)

أما أهم الأعمـــال التى ظهرت فى الفترة اللاحقة فهى الماهابهاراتا (Mahabharata) والرامايانا (Ramayana) وتتكون الماها بهاراتا وحدها من مائة ألف مقطع ، ومن ثم فهى تعادل ثمانية أضعاف طـــول الالياذة والأوديسة مجتمعتين • والى جانب كونها ملحمة هندية عظيمة فانها تعتبر أيضا مستودعا هائلا للقصص البطولية والأســاطير والرسالات التعليمية المختلفة الأشكال والألوان •

وأما الرامايانا التى تتكون من أربعة وعشرين ألف مقطع فتروى المغامرات البطولية الغريبة التى قام بها الملك راما ، ومؤلف هـــذه الملاحم فيما نعلم هو المدعو فالميكى (Valmiki) •

ويبدو لنا الآن أن الشعب الوحيد القادر على استظهار هذه الأعمال الضــخمة وتناقلهـا من جيل الى جيـل انما هو ذلك الذى كان « التعلم

والتعليم مصدر متعة وبهجة له » (وقــد وردت هذه العبــارة بالذات في البراهمانات) ٠

فالأفكار الخالدة التي حوتها « الفيدا » تتضمن كل فكر وحلم ورؤية راودت الانسان على مر الزمان ٠ اذ نجد فيها أن أندرا (Andra) ، الاله الذي يجسم آدم ونوحا وسيجفريد في شخص واحد ، « قتل الحية وأوجد مخرجا للمياه ، وشق قمم الجبال وقتل التنين الذي انطرح فوق الجبل ٠٠ فكما يهــوى تماما جذع الشـــجرة التي قطعت بالفأس ، كذلك هوى التنين مجندلا فوق الأرض » كذلك نجد من يشبه بيلاطس (١) في غسل يديه مبرئا نفسه فيقول « انزعي عني كل شيء أيتها الميــاه اذا كان ايماني قد تزعزع أو صدر عني سباب أو لعن ، وطهريني من كل كذب » وثمــة فقرة جميلة عن الليل : « أيهــا الليــــل لقد ملأت فضاء الأرض بحسب وصايا رب الأرباب ، أنك ترتفع في الأعالي حتى تبلغ الديار السماوية ، اما الظلمة ذات الأنجم المتلألئة فتدنو منا » ٠

وكم كان كاتب هذه العبــارة ثاقب البصر حين أعرب عن زوال كل المقتنيات الأرضية في مثل هذا الوضوح : « على الثرى أن يمنح من ماله ذلك الذي ساء حظه وليعتبر بالطــريق الطويــل الذي لازال أمامه ، فان الثراء يدور مثل عجلات العربة فيصيب أبدا انسانا بعد انسان » ٠

وهاك نصيحة لمن يريد أن يختــار زوجا : « على الرجل أن يتزوج المرأة الذكية الجميلة الفاضلة والسعيدة والمحظوظة ٠ وان كان من الصعب الاهتداء الى دلائل الحظ ٠٠ »

ولقد وردت عبارة حول فضيلة الاستيقاظ مبكرا تقول « مثل اندراني الذي اعتاد الاستيقاظ مبكرا ينبغي عليك أن تصحو لتستقبل الفجر الذي يسبق وهج النار » أما عن النوم والأحلام فنقرأ « أيها النوم أنت في ذلك لست حيا ولا ميتا ، انما أنت ابن الاله الســـماوي ٠ انك تضع نهــاية للأشياء ، فأنت الموت ، وهكذا نتبين حقيقتك ، يا أيها النوم احفظنا من الأحلام الشريرة » ٠

واليك مثلا عن حب امرأة وغيرتها على رجلهــا في عهد كان الناس يعرفون فيه كيف ينشدون ولا يعرفون كيف يكتبون : « انني المسيطرة لا أنت ، قد تكون المتحدث الرسمي في المجتمع ولكني لا آبه لذلك٠أنت لي وحدي ، ولن أسمح لك مجرد أن تذكر لي اسم امرأة اخرى » وأي امرأة هذه التي كان يمكنها أن تقاوم للرجل الذي أراد منها ما يلي : « كما تلتف

(١) الحاكم الروماني في يودا الذي كان له ضلع في مقتل المسيح — المراجع ٠

النباتات المتسلقة حول الشجرة وتشبث بها تعلقي بي حتى تقعي في حبي ولا تفكري قط في خيانتي » لم يكن هذا الرجل يريد جسدها وحده بل روحها كذلك حين قال : « وكما ترفرف العنقاء بجناحيها عاليا متشبثة بالأرض ، أراني متمسكا بروحك » .

أما عن قصة الخليقة فنقرأ « كانت في البدء ظلمة يكتنفها ظلمة وكان هذا العالم بأسره هيوليا وفوضى ضاربة ، أما بذرة الحياة التي كان يحيط بها الفضاء فقد ولد الواحد الأحد بفعل حرارتها الشديدة ، واليه أضيفت منذ البدء نشوة الحب .

« في البدء لم يكن هذا العالم كائنا كما لم يكن غير كائن ، كان موجودا كما لم يكن له كذلك من وجود . فلم يكن غير فكر مجرد .

« ان هذا العالم وكل ما فيه انما ينبع أولا وأخيرا من الفكر ، وهذا الفكر هو البراهما .. » .

وهاك بعض الكلمات حول الأثر الذي يخلفه الزمن : « من خلال الزمن تهب الرياح المطهرة ، ومن خلال الزمن تعظم الأرض كما تجد للسماوات العظيمة راحتها في الزمن » .

وحول خوف الرجل الذي يعيش بمفرده : « كان خائفا كمن يعيش وحيدا ، فما لبث أن أطلق لتفكيره العنان وراح يتساءل » : « اذا لم يكن في هذا المكان غيري فممن أخاف ، عندئذ تبدد خوفه » .

ومما يدعو الى العجب حقا أنه حتى في غياهب فجر تاريخ الهند انطلق الانسان الفاني يسعى بكل ما أوتي من قوة من أجل سبر غور أعمق الأسرار ، وكانت جهوده عظيمة واسعة النطاق في الغالب الأعم بالرغم من ضعفها البشري . ومع هذا فبجرأة يجل عنها الوصف ، انطلق الانسان يحلق في عوالم الزمن والفضاء غير المحدودين بحثا عن آلهته والمبادىء التي توجه حياته ـ فما من شيء كان قد تبلور ليصبح قواعد ثابتة كما ان الانسان مافتيء يناضل مع المشكلات التي واجهته جميعها ، حرا طليقا دون ما تحيز أو تعصب » .

ويصف شوبنهاور (Schopenhauer) الأوبانيشاد ، أحد أقسام الفيدات بقوله : انها أعظم ما في العالم من قراءة نافعة مثقفة ، كانت عزاء لي في حياتي وسوف تكون سلواي عند موتي » .

لكن ما كان ينبض بالحياة في بادىء الأمر أخذ ينهار رويدا رويدا ليصير مزيجا من المبادىء الكاذبة والخرافة والمعتقدات السحرية والأوهام

والخرافات وبات الكثيرون ، ولا ريب ، يؤمنون بالعدم ويحتقرون الكهنة ، وساورتهم الشكوك في الآلهة جميعها بلا استثناء ونبذ أحد المعلمين ويدعى سانجايا (Sangaya) جميع ألوان المعرفة بحجة أنها عديمة الجدوى ودعا الى أن الفلسفة وحدها هي التي ينبغي أن تعمل جاهدة من أجل السلام ، وراح آخر اسمه بورانا كاشيابا (Purana Kashyapa) يعلم بأن النفس ما هي الا عبد طليق للظروف كما كان ماسكارين جوسالا (Maskarin Gusala) يؤمن بأن القدر هو الذي يقرر كل شيء في حياة الانسان بغض النظر عن استحقاقه أو عدمه وينادي أجستاكيستا كابالين (Ajita Kesmakabalin) بأنه ما أن تتلاشى الأجساد حتى يستوى الحكماء والأغنياء في اضمحلالهم ولن تقوم لهم قائمة بعد الموت • كان ذلك العصر هو عصر المراوغين والخطباء المتقلبين الذين كانوا ينادون بأن الفضائل جميعها عبث غير معقول •

ونحو هذا الوقت ، أي حول سنة ٥٦٠ ق•م ، ولد سيدهارثا (Siddhartha) للأمير الثرى شودهودانا (Shudhodana) وزوجه مايا (Maya) اللذين كانا يعيشان على مقربة من كابيلا فاستو ، وتعرف اليوم بنيبال حيث ترتفع الى جوارها جبال الهملايا من سهل الجانجز تشق عنان السماء ، كما يقف على مسافة ٢٥٠ ميلا من مسقط رأس بوذا جبل ايفرست في وحدته الرائعة المهيبة •

والأسم بوذا هو لقب ديني معناه « المستنير » بيد أن الرجل الذى كان يحمل هذا اللقب كان يعرف بين معاصريه بجواتاما ، اسم أسرته ، وقضى جواتاما سنى حياته المبكرة في عيش مترف وانغماس فيما يشبع أهواءه • لكن ما أن بلغ التاسعة والعشرين من عمره واستبان له أن نهاية مطاف الانسان انما هى الشيخوخة والمرض والموت وأن الحياة معناها الضنى والألم وأن مصير كل ما في الوجود هو الزوال ، حتى هجر زوجه وابنه وصار ناسكا هائما على وجهه ، كما راح يخضع نفسه لأقسى ضروب الحرمان حتى بات نحيلا هزيلا وأخذ الموت يرقص أمام عينيه ، وعندئذ فحسب انصرف عن تعذيبه لنفسه وان مضى فى تأمله العميق في الحياة وما تنطوى عليه من معنى ، وجاءته الهداية فى نهاية الأمر عقب ليلة قضاها ساهدا تحت دوحة عظيمة في أوروفيلا الواقعة فيما يعرف اليوم بالبنغال •

وأصبح جواتاما «بوذا المستنير» وعقد العزم على أن يعلن للملأ اختياره الروحى فانضم اليه خمسة ناسكين صاروا رفقاءه وأقاموا معا على مقربة من بنارس (Benares) ولم يمض وقت طويل حتى انضم اليه أكثر من

٦٠ تليمذا ، قام بارسالهم الى العالم ـ مبشرين ينشرون بين الناس دعوته كما استطاع شخصيا أن يضم الى دينه ألف نسمة فضلا عن الظفر بتأييد الملك بمبيسارا (Bimbisara) الذى أهداه متنزها يعيش فيه مع أتباعه ٠

وعن دعوة بوذا وتعاليمه فى غضون الاعوام الخمسة والاربعين التى أعقبت هذه الأحداث لم يعرف غير النزر اليسير ، ومن المرجح أنه انطلق يطوف بأرجاء الأقاليم الشرقية لوادى نهر الجانجز ولم يقض فى المنازل والكهوف غير الفصل المطير من كل عام ٠

ونسوء الحظ لم يخطر ببال سقراط ولا المسيح ولا بوذا تدوين مبادئهم ومن ثم فان أحبارهم هم الذين نقلوا الى العالم تعاليمهم ٠ وكان بوذا رجلا حديدى الارادة له قدرة فائقة على الاقناع ، وبسبب كبريائه ، ومع انه ذو جاذبية فائقة فى حديثه وطباعه ، لم يؤكد على الاطلاق أنه يعمل كأمة لواحد من الآلهة ، وراح يواصل الليل بالنهار تفكيرا فى الوسائل التى من شأنها أن تحول دون دمار الحياة ، وأينما حل كان يبذل قصارى جهده للتوفيق بين الأعداء المتخاصمين ويحقق السلام كما انه حاول جـهدا شأنه فى ذلك شأن المسيح ، أن يجازى الشر بالخير فكان ينصت لكل من هاجمه باهتمام ورباطة جأش ٠ لقد كان بوذا مرحا على النقيض من معظم الأبطال الذين ظهروا على مسرح هـــذا العالم ايمانا منه بضرورة الابتسامة التى تخفف من صرامة التعمق الميتافزيقى فلا يستحيل غطرسة ٠

وكان بوذا ينتقل من قرية الى أخـرى ، دون أن يعرف الكلل اليه ســـبيلا بصحبة اتباعه المخلصين وعددهم ١٢٠٠ شخص ولم يكن يهتم كثيرا بحياته المادية أو بمـــا قد يأتى به الغد ، لكن حدث يوما أن صـــدم أحباره بتناوله الطعام فى منزل احدى العاهرات ٠

كان بوذا على يقين من أن الألم والحظ العاثر انما يغشيان الجانب الخير من الحياة على نحو حاسم يفضل معه لو أن الانسان لم يولد الى هذه الدنيا « فلقد سكبت على الأرض دموع تفوق فى كثرتها مياه المحيطات الأربعة » كان ينظر الى الملاذ الأرضية على أنهـــا شيء غريب فهى من الأمور العابرة الزائلة فوضع خمس وصايا أخلاقية هى :

« على المرء ألا يقتل كائنا حيا ، ولا يأخذ ما يعطى له ٠ ولا يكذب ، ولا يسكر ولا يزنى » ٠

ولم يكن بوذا يحس بارتياح فى صحبته للنساء ، ولما ســـأله أحد أحباره ! « ماذا نفعل عندما تتحدث الينا النساء ؟ أجابه بالقول « كن حذرا غاية الحذر » ٠

« لم يحدث قط فى العالم أن ظفى على الكراهية بالكراهية فلا شىء ينزع البغضاء غير الحب » لم يكن بوذا يهتم بغير السلوك البشرى ، فهو لم يطالب بأى نوع من العبادة أو بآية مبـادىء دينية ، ومع ذلك فان أعجب مافى أمر هذا الرجل الآسيوى المقدس أنه أسس عقيدة انتشرت فى ربوع الدنيا وهو الذى لم يتحدث على الاطلاق عن مفاهيم الأبدية أو الخلود أو الله ·

« فالذرة لايسعها ادراك الكون » ومن ثم عزف بوذا عن التورط فى تكهنات عقيمة حول بداية العالم ونهايته ، أو التعرف على الجسد والنفس أو احتمال ارتياد الرجل المقدس لسـماء من نوع ما · كان يستبعد تلك المسائل ويصفها بالأمور العقيمة الزائفة غير المجدية ولم يشن بوذا هجوما عنيفا الا على جماعة الكهنة ، واستنكر « الفيدات » كما نبذ النظام القبلى وهاجمه بقوله : « اننا جميعا شعب واحد يضم الغنى والفقير ، والشـاب والكهل » ·

واذا كان بوذا قد أسس عقيدة دينية بلا اله فانه آمن بفكرة التجسد ثانية دون جدال ولعل هذه هى الفكرة الوحيدة التى قبلها دون تحفظ ·

لقد وجه كل نفكيره ونشاطه نحو بلوغ مرتبة « النرفانا » nirvana وهى نظرية بوذا فى السعادة الكاملة التى لايرقى اليها المرء الا بالاندماج التام فى روح الكون العليا ، ولسنا بصدد جوهر نظرية «النرفانا» ، صفاء النفس ، تفصيلا ، ذلك أن مكتبات برمتها قد تناولت هذا الموضوع وقتلته دراسة وبحثا ·

وفى نهاية حيـاته أخذ أتباعه يعبدونه بالرغـم من أنه كان قد ناهز الثمانين من عمره وصار نحيلا خائر القوى ، ولبث يطوف بأرجاء البلاد معلما ومبشرا وبينما هو فى طريقه الى مدينة كوسـينارا القديمة داهمه المرض عقب تناول « لحم خنزير » غير طازج وكانت النصيحة الأخيرة التى أسداها الى تلاميذه هى أن يجعلوا من تعاليمه رائدهم الأسمى وأن يسعوا جاهدين الى الحياة بمقتضاها · ثم وافته المنية نحو ٤٨٠ ق·م ·

أما آخر كلمات فاه بها فكانت « والآن أقول لكم أيها الرهبان ، ان مآل كل ما هو مادى الى الزوال والضياع ، فاسعوا جاهدين نحو ما هو أبقى » ·

لكن بمرور الزمن أخذت الديانات الهندية الوطنية القديمة تطغى بكل ثقلها على تعاليم بوذا حتى آلت الى الزوال ، وتهـاوت هذه التعاليم على الهندوسية ، منافستها القديمـة ، وعلى ايمـان الهنود بتعدد الالهـة وبالمعجزات والأسـاطير والسحر وفى النهـاية أخـذت البوذية عن

العقيدة الهندوسية أساطير عديدة الى جانب طقوسها وآلهتها حتى لم يكد يبقى من البوذية الأصلية ما يستحق الذكر ، ولم يحل عام ٧٥٠ بعد الميلاد حتى كانت البوذية فى الهند قد اندثرت بينما ظلت قائمة خارج حدودها. ذلك أنها كانت قد تأصلت في كل دولة من دول الشرق الأقصى وكادت أن تغزو قارة آسيا برمتها من حدود سيبريا الى جزر أندونيسيا ، ومن أديرة التبت الى النواقيس المجلجلة وشموع البخور لدى كهنة « زين » في اليابان .

الهند

من الذى صور بوذا ؟

كلما امعنت التفكير فى فلسفة بوذا ازددت اقتناعا بان
الموت هو الأم الحقيقية الأديان جميعا ·

ليس ثمة شك فى أن بوذا هو أعظم رجل أنجبته الهند حكمة وذكاء ، أما البوذية التى صارت عقيدة عالمية فهى جد غريبة على المفهوم الأصلى لمؤسسها ، فلم تكد تمضى مائتا عام على موت هذا العبقرى من نيبال حتى صارت البوذية الى ثمانى عشرة طائفة من أهمها ماهايانا (Mahayana) وهينايانا (Hinayana) اللتان قسمتا العالم فيما بينهما الى شطرين · فالصين واليابان الى جانب التبت وبهوتان وسيكيم ونيبال ومنغوليا التى تتبعها فى صورة المذهب اللامى (Lamaism)[1] تتبع الماهايانا « الأداة الكبرى بينما تسير سيلان والهند الصينية وراء هينايانا · « الأداة الصغرى » وماهايانا هى السعى ، الذى هو وليد العطف العالمى ، نحو التجسد فى صورة بوذا المستقبل (Bodhisattva) من أجل خير الجميع وسعادتهم ، أما أتباع هينايانا فلا يبحثون الا عن خلاص أنفسهم ·

فهل وجد على قيد الحياة حقا « سيدهارثا » ، الرجل الذى يتعبد له اليوم نصف سكان العالم ، وان تكن عبادتهم له لا تنبع من القلب فى الغالب الأعم ؟

ان تماثيل بوذا تنتشر فى ربوع آسيا كافة ، فهل ثمة تشابه بينها وبين ملامح الرجل الذى كان ذات يوم يعلم أهل وادى نهر الجانج بأن يغلبوا الغضب بالعطف ؟

تبرهن الروايات العديدة التى تواردت عن الماضى السحيق على الصفة التاريخية لحياة جواتاما بوذا ، فنحن على بينة من مسقط رأســه ، ومن أبويه كما نعرف اسمه والمدن التى قام بارتيادها ، ويسود الزعم أن بوذا قد أحرق بعد موته ووزع رفاته كأثر مقدس على عدد كبير من الأمراء والأسر الأرستقراطية ، كما حصلت أسرته ساكيا (Sakya) على نصيب أودعته الضريح المقدس كابيلافاستو (الضريح المقدس البوذى (Stupa) وهو عبارة عن بناء مخروطى الشكل لا أبواب له ، وهو ضريح دائرى مغلق فى قمته شيء من البروز) .

وفى عام ١٨٩٨ تم اكتشاف هذا المعبد بالقرب من ببرافا فى تاراى، ويذكر أحد النقوش بأن الوعاء ، الذى كان يضـم رفات بـوذا قد قدسه أشقاء ذلك الزعيم العظيم الممجد وشقيقاته وأبناؤه ونساؤه ، وعلنــا نفترض ، دون أن يخالجنا شك ، بأن المعبد لم يفتحه أحد منذ أن تم بناؤه حتى اكتشافه فى ١٨٩٨ بعد الميلاد ، وهذا دليل آخر يقطع بصحة شخصية سيدهارتا بوذا التاريخية .

ولما كان لكل شيء أصل فلابد من أن شخصـــا ما قد طور فلسفة بوذا أو وضع أساسها على أسوأ الفروض ، فالروايات المفصلة والقصص والأساطير لا تبنى الا حول أشخاص حقيقيين ، ولقـــد أثبت علـم الآثار الحديث ــ كما سيتضح فيما بعـــد ــ أن عددا كبيرا من الشخصـــيات الأسطورية اليونانية ما هى فى الواقع الا شخصيات حقيقية تاريخية .

وان كنا نفتقر الى الأدلة الملموسة القاطعة عن ذلك الرجل الذى أصبح بوذا وان لم يكن ثمة من يعرف ملامحه الحقيقية ، فما سبيلنا الى تفســير حقيقة أن تماثيل بوذا المتناثرة فى ربوع الهند والصين واليابان وشرقى آسيا متماثلة بصورة أو بأخرى ؟ ولماذا نزداد اقتناعا كلما كثر عدد تماثيل بوذا التى نقوم بدراستها ، بأن شخصية واحدة بلحمها ودمها هى التى أوحت بها جميعا ؟

لقد ولد بوذا بنيبال ، بينما جاءت تماثيله الأولى مما يعرف اليوم بأفغانستان من المنطقة التى كانت تعرف يوما جندهارا . لكن حين نتحدث عن جندهارا كمصدر لتماثيل بوذا فانما نحن نفكر فى منطقة ثقافية امتدت الى ما وراء جندهارا القديمة ذاتها أكثر فى موقع جغرافى محــدد ، فتلك المنطقة المترامية هى التى صنعت أول صورة لبوذا اتخذت نموذجا لكل ما نحت أو رسم بعد ذلك من تماثيل أو صور .

ولعلنا نتساءل اليوم عن السبب الذى من أجله تم تخليد روح بوذا ومحياه على الحجر فى بقعة ما خـــارج حـدود الهند ، ولماذا أفغانستان بالذات ؟ ان سر ذلك يتكشف لنا لو وضعنا فى الاعتبار أنه لرسم صورة بوذا كان لابد من توافر عاملين : فكرة بوذا ، وأولئك الذين يتسنى لهم التعبير الفنى عن هذه الفكرة • ومن الهند جاءت الفكرة ، بيد أن الفنانين الوحيدين الذين اســـتطاعوا تصوير تلك الفكرة فوق الحجر كانــوا فى جندهارا •• ولم يكونوا هنودا •

أما الرجل الذى نشر البوذية فيما وراء حـدود الهند فـكان الملك آسوكا (Asoka) الذى تولى مقاليد الحكم فيما بين ٢٦٠ و ٢٣٢ ق•م على وجه التقريب ، وكان هذا هو الوقت الذى فيه وصـل المبشرون الى جندهارا يحملون تعاليم بوذا ، وقام الرسول البوذى مادهيانتيكا ـ فيما نعلم ـ بزيارة كشمير جندهارا سنة ٢٤٢ ق•م ، فأى نوع من الحضارة تلك التى عثر عليها أولئك المبشرون فى تلك المنطقة ؟

عنـدما لقى الاسكندر الأكبر حتفه سنة ٣٢٣ ق•م انقسمت البلاد التى كانت تدين لسلطانه بين قادته العسكريين وقامت ممالك الخلفـاء (Diadochi) فصارت ممتلكات الاســـكندر فى الهند الى سلوكوس نيكاتور (Seleucus Nicator) حاكم سورية • وابان حكم حفيده انتيوخس (Antiochus) الثانى (٢٦١ ـ ٢٦٤ :• م) راح حـــاكم باكتريا ، وهو يونانى يدعى ديودوتوس (Diodotus) ، يدعم استقلاله شيئا فشيئا ، ثم أعلن نفسه ملكا ، وبذلك أقام المملكة اليونانية ـ الباكترية •

ولم يمض وقت طويل حتى انقسمت هذه المملكة الى ولايات صـغيرة عديدة يحكمها ملوك يونانيون ، بيد أن هذه لم تكن بحـــال نهـاية هذه المملكة ، فقد انضمت الى هذه البوتقة لصهر الشعوب سنة ١٤٠ق•م قبيلة يوى شى (Yue-chi) الاسكيثية التى كان الهون قد طردوها من شرقى الصـين • وفى عام ٥٠ ميلادية أى بعد ذلك بمائة وتسعين عاما أسسوا المملكة الهندية ـ الاسكيثية تحت لواء أسرة كوشان التى أنجبت حاكما يكاد يكون مجهولا فى أوربا مع أنه صار واحدا من أعظم الشخصيات فى تاريخ العالم اسمه كانيشكا (Kanishka) اذ أنه اعتلى العرش فى سنة ١٤٤م واعتنق الديانة البوذية ، ووسع نطاق ملكه فامتد من بحر الآرال شمالا الى شوتان شرقا ومن سهل الجانجز حتى بنارس جنوبا • وكان تأثيره عـلى فن جندهارا عظيم الشأن ولا شك ، اذ بحكم انه ملك ومن أتبـاع بوذا المخلصين أخذ يركز نشاط الدولة الفنى وما يقدم من مساعدات فى هذا

الصدد حول الزعيم العظيم الممجد من نيبال ، فاذا بفن جندهارا يزدهر فى ظل حكم كانيشكا ازدهارا عظيما ٠

والتقت البوذية فى جندهارا آنذاك بالحضارة الهيلينية ، تلك الثقافة التى كانت تجمع بين مقومات اغريقيـــة وشرقيـــة ، وحين شرع المثالون فى جندهارا فى نحت تماثيل بوذا كانوا مسوقين بفكرتهم عن بوذا التى استوحوها من حياته وتعاليمه ٠ ولهذا كانت صورة بوذا مـن البـداية تعبر عن مفهوم مثالى وليست تصويرا دقيقا لذلك الأمير المدعو سيدهارتا٠

ولما كان الفنانون فى جندهارا منحدرين ، اما من أصل يونانى أو من سلالة خليط عنصرى تميزت به الحضارة الهلينية فقد انحصر تفكيرهم فى نطاق صور الفن اليونانى ، وهكذا عندما قرروا خلق صورة مثالية للرجل الذى اعتنقوا مبادئه ألبسوه رداء يونانيا ٠ ومنذ ذلك الحين غالبا ما يصور بوذا وهو يرتدى الزى اليونانى أينما بسطت البوذية سلطانهـا ، ولقد تباينت الأساليب ولاشك ، بيـــد أن الظـلال الكثيفة التى تضفى على الشخصية الانسانية مهابة واجلالا تتضح فى صور بوذا دواما ٠

أما بوذا الجالس فهو مفهوم هندى لا غبار عليه حيث ان هذا الوضع مماثل لما يبدو عليه الناسكون الهنود فى جميع الأزمنة عـلى حين أن بوذا الواقف ينتمى الى عالم الأفكار اليونانيـــة القديمة ، وهكذا عبر الفنان الجندهارى عن صورة مثالية هندية بالأساليب الفنية لليونان القديمة ٠

ويقال انه كانت لبوذا سمات جسمانية ميزته عما عداه من ســائر البشر ٠٠ انها ملامح الرجل العظيم الجسمانية ، التى هى عبارة عن اثنين وثلاثين من الملامح الكبرى وثمانين غيرها صغرى ٠ وخال الهنود أن بوذا كان مغايرا لما دونه من البشر لا من الناحية الروحية فحسب بل والجسمانية سواء بسواء ، وجدير بالملاحظة أن عددا من تلك الملامح يوحى بأنه خنثى ، ويغدو وكأن الطبيعة قد قضت على الجنس عند بوذا ، ومن ثم عبر عما هو أسمى وأرفع من كل ميل جنسى ٠٠ عبر عن شىء الهى مقدس ٠

ويميل البعض الى وصف فن جندهارا بالفن اليونانى ــ البوذى ، وهو وصف تعوزه الدقة ، ذلك أن مقوماته اليونانية لم تعـــد تنتسب الى اليونان الكلاسيكية بل الى الهيلينية التى هى مزيج من العناصر اليونانية والشرقية ٠ ومن ثم يكشف فن جندهارا عن آثار من الفن الرومانى ، وترجح أحدث البحوث أن هذا الفن كان أقصى نقطة أمامية للحضـــارة الرومانية فى الشرق مع احتمال ان واحة تدمر كانت هى حلقة الوصل ٠

وبات مفهوم جندهارا لمظهر بوذا هو القالب الذى صبت فيه صور بوذا فى الفترات اللاحقة كما هو الحال فى جاوا أو سيام أو الصين أو اليابان كما أن أسلوب جندهارا فى تصوير حركات التأمل التى تسمى (Mudras) » قد اتبع فى جميع أنحاء شرقى آسيا • أما (Mudras) فهى الأوضاع الرمزية للأصابع أثناء التأمل الدينى ، أنها حركات عديدة دائمة التكرار لكل منها مغزى مغاير للأخرى ، فحركة منها تمثل تحويل عجلة القانون تعنى التأمل وهى التى تصور بوضع اليدين فى الحجر ، الواحدة فوق الأخرى • وثالثة تعنى « دعوة الأرض لتشهد » ويعبر عنها بلمس الارض •

ولم يعثر فى جندهارا على رسومات واضحة المعالم لكن كانت هنالك ، ولا غرو ، بعض الرسومات بل ومن المحتمل مدرسة للرسم أيضا • أما ما عثر عليه من رسومات فى معابد كهف آجانتا التى ترجع الى القرن الثانى الميلادى وتبين لنا صورا شبيهة بصورة بوذا فمن الواضح جليا أنها تأثرت برسومات جندهارا التى سبقتها بزمن طويل •

وما كانت الهند لتستطيع صنع تماثيل بوذا لو لم توفر النماذج الأصلية فى جندهارا • لكن الهنود لم ينقلوا تلك التماثيل كما هى ، بل نقلوا الخطوط العريضة التى أضفوا عليها خيالهم الفنى •

وكان فى الصين أديرة بوذية ظلت قائمة حتى القرن الأول الميلادى ، أما التماثيل الحجرية الصينية الأولى لبوذا فيرجع تاريخها الى سنة ٤٠٠ م • كما وجدت البوذية طريقها الى كوريا عام ٣٧٢ م ، وبلغت اليابان عام ٥٥٢ م والتبت فى ٦٣٢ م •

ومن الغريب حقا أننا نعثر على أجمل التماثيل لبوذا فى اليابان ، فلقد جمع اليابانيون أجمل التماثيل الصينية الأصلية الجميلة ولكنهم أنشأوا كذلك مدرسة الفن البوذى الرائعة الخاصة بهم ، ومع ذلك فانه فى عدد كبير من تماثيلهم ظل الأسلوب الجندهارى قائما دون أن تشوبه شائبة على نحو يدعو الى الدهشة والعجب •

أما الصينيون ، من الناحية الأخرى ، فقد أضفوا على شخصية المؤسس الدينى خصائص أشد قوة وبالأخص الخصائص الصينية • ولعل تمثال ديبوتسو الشهير فى كاماكورا باليابان يتميز بملامحه اليابانية على حين أن طيات ردائه الداكن تعد أقرب الى فن جندهارا منه لأية تماثيل هندية أو صينية لبوذا •

ومن يقف أمام تمــثال ديبوتسوبوذا ويستسلم لمـــا توحى به تلك الشخصية الفذة من هدوء رائع سام ، ومن يدرك ما يوحى به من رباطة جأش يفهم لا محالة شيئا من روح هذا العبقرى الذى من نيبال : فوضع الحد للآلام ، وكبح جماح الشهوات والكف عن تعذيب النفس وافناء الذات حتى تخمد كلهيب شمعة ... هذه كلها هو ما قصده بالنرفانا ، شرط الخلاص من الألم ».

الهند

ماهافيرا والبعث

الرغبة تدير الانســـان بأسره فبحســب رغبـاته يكون ذكاؤه ، وبقـدر ما يكـــون ذكاؤه تجيء تصرفاته وعلى أساس تصرفاته ينال أجره ٠

أوبانيشاد ٤ ، ٤ ، ٥

تقوم الديانة الهندوسية على تقاليد هندو ـ آرية ضاربة فى القدم ، وتتلخص التقاليد الهندية المقدسة القديمة كلها فى كلمة فيدا (Veda) ومعناها « المعرفة » ومن ثم فان فيــدا هى « كتـــاب معرفة » واذا توخينــا الدقة قلنا انه أدب كامل للمعرفة والحكمة ٠

وفى اللغة السنسكريتية تعنى كلمـــة (Upa) « بالقرب » وكلمة (Sat) « يجلس » ، فمن الجلوس بالقرب من المعلم الهندوسى لتلقى العقائد الدينية التى كان المعـلم يلقنها لتلاميذه النجباء استمد اللفظ أوبانيشاد (Upanishad) معناه ٠ وهكذا فان الأوبانيشادات هى أفكار وتعاليم عدد كبير من الرجال الحكماء الذين كانوا لا يفرقون بين الدين والفلسفة ٠ واذا هذه الأعمال الرائعة التى ترجع الى فترة ما بين ٧٠٠ و ٥٠٠ ق٠م تغدو وكأنها تنطوى على جميع أسرار الحيـــاة على الأرض وبعد الموت ، وتحدد البداية الحاسمة للفكر الفلسفى ٠ وهنا نجد أن الايمـان بتناسخ الأرواح ، فى الدورة الأبدية للوجود (Samsara) وبالتجسد ثانية فى شكل حيوان أو انسان بحسب ما يأتيه الانسان من خير أو شر ؛ عملية حتمية لا مندوحة عنها تعرف فى اللغة السنكسرينية (Karma)

ـ ويعبر عنها ياجنافالكيا (Yajnavalkya) ، أحد فلاسفة الأوبانيشاد بالكلمات التالية :

(انظر : برهادارانایاکا ، أوبانيشاد ٤ ، ٤ ، ٥)

« بحسب ما يأتيه المرء من أعمال ، وبحسب ما يتعرض له من تغير فانه يولد ، فمن يأتي صلاحا فبالصلاح يولد ، ومن يفعل الشر فبالشر يولد ، وسوف يصير مقدسا بالأعمال المقدسة وشريرا بما يأتيه من شر ، ومن ثم يصدق القول ان الانسان يتكون أساسا من الرغبة ، وبحسب رغباته يكون ذكاؤه وبقدر ذكائه تجيء تصرفاته ، وعلى أساس تصرفاته ينال أجره » ·

وعلى الرغم من البداية الرائعة لكل عقيدة دينية فانها دائما فى خطر أن يفسدها القصور البشرى ، ولن نعرف اطلاقا عدد مؤسسى العقائد الدينية الذين ضحوا بحياتهم في عصور ما قبل التاريخ فى سبيل المثل العليا التى أفسدها وحرفها من بعدهم الكهنة الذين لا يبتغون غير الكسب، وهكذا لم يقبل عام ٦٠٠ أو ٥٠٠ ق·م حتى كانت العقيدة البراهامية قد تحللت وصارت نظاما صارما منتشرا من الطقوس الجامدة التى كانت ممارسة الكهنة المستمرة لها هى الطريق الوحيد لخلاص الانسان ، فالخرافات والتركيز الدائم على السحر ، وسوء استخدام القرابين ، وتعذيب النفس كوسيلة لتحقيق قدرات خارقة ، والشكلية الجامدة التى لا حياة فيها ··· كل هذا أدى فى النهاية إلى ثورة ضد كهنة البراهما وعقيدتهم ، فقد أنحرفوا عن المثل السالفة للكهنوت الهندى ـ الآرى · وبالرغم من أن لهم دون سواهم حق تفسير الفيدا المقدسة فقد أساءوا بطريقة تعسفية الى سلطتهم الدينية وقاموا برعاية مطالب الشعب الروحية بحسب مثلهم التعسفية غير العادلة فى أحيان كثيرة ، ومن ثم قامت جماعة من المتشككين والقدريين والماديين ومؤسسى المذاهب الجديدة بمهاجمة كهنة البراهما لافتقارهم الى الروحانية وابتدعوا أساليب جديدة لخلاص الانسان · ولما كانت السلطة الدنيوية تقف دائما من السلطة الروحية موقف الغيرة والحسد راحت طائفة المحاربين ، وتعرف بكاشاتريا (Kashatriya) تؤيد خصوم البراهما تأييدا فعالا ·

وفى غضون تلك الحقبة التى شهدت « ثورة روحية كبرى » كما يصفها فالدشمدت ، الخبير فى الشئون الهندية ، وهبت السموات الخفية الهند اثنين من أعظم المؤسسين الدينيين الذين وجدوا على قيد الحياة ، أحدهما بوذا الذى سبق الحديث عنه ، والثانى غير معروف نسبيا للحضارة الغربية ·

ولد ماهافيرا فاردهامانا (Mahavira Vardhamana) في ٥٤٠ ق٠م في الوقت نفسه الذي ولد فيه بوذا ، كما كان – مثله – ابن أحد الأشراف الأثرياء ، وكان مسقط رأسه في ضواحي فايشالى في بيهار (Bihar) الحديثة ، ووالداه كانا ينتميان لطائفة تشارك العقائد الهندية الأخرى صراعها مع مشكلة التجسد ثانية وما يصاحبه من آلام ويتعبدان لناسك متجول يدعى بارسفا (Parsva) وهو الذي وضع فيما يرجح ، الأساس لأفكار ابنهما الدينية قبل ذلك بمائتين وخمسين عاما ٠ وكان الوالدان يؤمنان بأن الانتحار يعجل من دورة التجسد ثانية ومن ثم بات حقا مقدسا ٠

وعندما بلغ ماهافيرا الواحد والثلاثين من عمره قتل الوالدان نفسيهما جوعا طواعية واختيارا ٠ ولعل تلك التجربة هي التي حملت هذا العبقري الشاب على أن يصبح ناسكا يهيم على وجهه عارى البدن في ربوع اقليم بيهار ٠ وعلى أي حال فبعد ثلاث عشرة سنة من هذا التطهير اختبر ماهافيرا نور المعرفة غير المحدود ، فما كان من أحباره الا أنهم نادوا بسيدهم (Jina) أو « الظافر » وخلعوا عليه لقب « البطل العظيم » ودعوا أنفسهم جينيين (jains) ٠

أما عقيدة ماهافيرا ، وتعرف بالجانية (jainism) فهي واحدة من أشد العقائد الدينية مدعاة للعجب في تاريخ البشرية الروحى ، فالحقيقة الدنيوية برمتها محدودة النطاق ، ذلك أن كل أمرىء لا يرى الا بيئته التي تحيط به مباشرة ويحكم على الظواهر من وجهة نظر خاصة ، ومن ثم تجيء أحكامه على الدوام ملتوية ٠ أما الحق الأسمى فيعلن للجينيين دون غيرهم ، فهم المنقذون الذين يظهرون على الأرض في فترات نادرة ٠ وتعد الجانية في جوهرها عقيدة الحاد وكفر ٠ ذلك أنها لا تؤمن بخالق ولا بسبب أول فيقول الجينيون حيث انه لا مندوحة من أن يكون لأى شيء سبب ، فان وجود خالق في الأصل أمر مستحيل ، فقد وجد العالم منذ الأزل من غير أن تكون له بداية أو اله ٠ وبدلا من أن يتخذوا لأنفسهم الها راح الجانيون يتعبدون للأربعة والعشرين جينا أو (Tirthankaras) كما يسمونهم ٠٠٠ وهم رجال بلغوا أعلى مدارج الكمال في مراحل سابقة ٠

وما السبيل الى بلوغ هذا الكمال المطلق ؟ ليس بوسع الانسان العادى أن يأمل في أن يرقى الى ذلك ، ولعل الراهب الناسك يصيب نجاحا وان كان ذلك بدوره أمرا تحوم حوله الشكوك ٠ فطريق الفداء لا يفتح الا لأولئك الذين – عن طريق التنسك الدائم والعزوف عن كل

ضروب العنف ـ يبلغون حالة عدم التعدى (Ahimsa) الشبيهة بدعوة غاندى الى عدم العنف ، أو المقاومة السلبية ، فمن واجب الانسان ألا يلحق بأخيه الانسان ضررا بل ألا يزهق حيـاة مخلوق آخر ، وعلى الانسان ألا يكذب أو يأخذ ما لم يعط له كما يتعين على كل فرد أن يكون طاهرا ، ينبذ الشهوات الدنيوية جميعها ، ويبتعد عن المؤثرات الخارجية ابتعادا كليا •

والقول فى ذلك أيسر بالطبع من الفعل ، فمن المتعذر ، فى واقع الأمر ، العيش بموجب أولى تلك التحذيرات وهى التى تنهى بعدم القتل فالراهب الجانتى يغطى فمه بحجاب خشـــية أن يستنشق ذبابة ويقتلها ويكسو مصابيحه حتى لا يجذب ضـوءها الفراش فيأتى عليها ، ولم يكن يسمح له باستخدام نور صناعى كما تعين عليه أن يكنس الأرض من أمامه أثناء سيره حتى لا تسحق قدمه العارية مخلوقا صغيرا •

وتضم الجانية ، شـأنها شـــأن العقائد الهندية جميعها ، طوائف متعددة • فهناك ، على سبيل المثال ، السوتامبارت (Swetambaras) ممن يرتدون ثيابا بيضاء ، والديجامبارات (Digambaras) الذين يرتدون ثياب الكهنوت السماوية (أى أنهم لا يرتدون أية ثياب بالمرة) ، بيد أن الديجامبارات فى الوقت الراهن يرتدون الثياب وان كان ذلك محظورا عليهم ، فالملبس يعنى الراحـة ، والراحـة تعنى الانغماس فى الشـهوات الجسدية • ومع ذلك فان القلة القليلة من الرجال المقدسين هى التى لا تزال تطوف وهى عارية البدن • ومن بين سكان الهند البالغ عددهم ٣٤٠ مليون نسمة لا يزيد عدد أتباع الجانية على ١٫٦١٨٫٠٠٠ نسمة من بينهم ٨٠ ألفا يعيشون فى بومباى الكبرى ، ورغما عن ذلك فان تأثيرهم أكبر مما يوحى به عددهم ، ذلك أن الجانية تضم بين أتباعها أعظم تجار الهند ثراء • ولا يمكن لأهل الريف بحال أن يصيروا من أتباع هذه العقيدة المخلصين اذ ليس بوسعهم الحيلولة دون قتل الديدان أو الحيـوانات لو كانوا ممن يقومون بتربية الماشية • ولهـــذا ينتاب القرويين الجينيين قلق من جراء حالتهم الروحية •

وثمة جوانب شبه عديدة بين بوذا وماهافيرا فكل من الرخين أعلنها حربا شـــعواء على خرافة العقيدة الهندوسية ، وكلاهمـــا جاءا من أسرة أرستقراطية بشرقى الهند ، ونبذا حيـــاة الترف والانغماس فى الملاذ ، واعتزلا عن الناس مثلهمـــا فى ذلك مثل مؤسسى الأديان عبر التاريخ بلا اســـتثناء • لقد ابتعد ماهافيرا عن صـــحبة الناس وهـــو فى الثامنة والعشرين من عمره كما اعتكف بوذا وهو فى سن الثلاثين واختبر

الرجلان الاستنارة وهما جالسان تحت شجرة ، وآمنا بالفضيلة وبمستوى رفيع من الأخلاق كأقل شرط لازم للسير فى الطريق الشاق الطويل المفضى الى الخلاص ، وأقام الرجلان الأديرة ووضـــعا الأنظمة ولم يعترفا باله ، ولم يؤمنا بأن للعالم بداية ، ولم ينشرا دعوتهما باللغة السنسكريتية ـ وهى اللغة الكلاسيكية القديمة التى كتبت بها الفيدات الأوبانيشاد بل بلغتهما الاقليمية ٠

ومع ذلك كانت بينهما عوامل اختلاف أيضا ، فالبعث لم يكن له فى نظـــر بوذا أية عـــلاقة بتناسخ الأرواح ، فى حين ان الجانبين يركزون اهتمامهم عـــلى الروح ، فلكل شىء روح ، أرواح الأفراد بطبيعتها تتسم بالطهر والصفاء ، بيد أن العالم المادى يتدخل فى كل شىء وبالتصـــوف وحده يمكن الحيلولة دون هذا التدخل وقمع الشهوات والملاذ وضروب النشاط جميعها ٠ ولم يعلق بوذا أهمية كبرى على اماتة الجسد ونادى بدلا من ذلك « بالطريق الأوسط » ، أما أنصار الجانية فيؤمنون بشـــدة بنبذ الجسد كلية ونبذ كل ما هو مادى وجسدى ، مما يؤدى منطقيا الى اماتة الجسد ٠

ولم يترك بوذا وماهافيرا ، شأنهما شأن معظم مؤسسى الأديان ، أية آثار مكتوبة ولم تدون تعاليم هذين العبقريين العظيمين الا بعد موتهما بفترة طويلة ٠ وفوق جبل آبو ABO براجبوتانا (Rajputana) بالهند أمكن العثور على أجمل معابد الجانيين وهى معابد ديلوارا (Dilwara) الخمسة الشهيرة التى من بينها اثنان خليقان بأن يعدا بين عجائب الدنيا ، أحدهما أنشأه قائد عسكرى يدعى فيمالا سنة ١٠٣٢ بعد الميلاد والثانى شيده أخان يدعيان فاستوبالا وتجبالا ، وهما من التجـــار المتحمسين للجانية ممن ابتغوا تكريم عقيدتهم بتضحيات مالية ضخمة ٠ ولقد كرس كل من هذه المعابد لواحد من الأربعة والعشرين ناسكا اتباع الجانية الأول الذين بلغوا مرحلة الكمال الحقيقية ، وكانت تلك المعابد قد شيدت من المرخام الأبيض ، وهى من معجزات فن العمـــارة لوفرة ما بها من نحت لا يضـــارع فى أى مكان فى العـــالم ٠ ويصف أناندا كوماراسوامى (Ananda Coomarasawamy) الخبير بشئون الهند « الذائع الصيت » هذا العمل الغنى بالتماثيل والصور بأنه من الأمثلة النادرة التى فيها « يصبح » الافراط جمالا ٠

ولم تهجر تلك المعـــابد ، فلا يزال المؤمنون يفدون اليها يوما بعد الآخر ليرفعوا الصلاة أمام الأربعة والعشرين تمثالا وقد حملوا معهم قرابين الزهور وخشب الصندل ٠ أما الشخصية التى ترتكز حولها هذه العقيدة ،

وهى شخصية الناسك الذى كرس له المعبد ، فقد توج فى محرابه الداخلى الذى يكاد يغشاه الظلام ، وتفتح المعابد باستثناء هذا المعبد ، على مصاريعها فتبدو أشبه ما يكون بغابة من الأعمدة فوقها سطح ، فلم يكن فن المعمار الهندوسى أو الجانى يعرف عن القباب شيئا • وفى هذا المضمار يعتبر فن المعمار الهنـــدى مغايرا تماما لما لدينا ، فقد كان السقف بأكمله يرتكز بضغط رأسى على ضلع واحد •

ولو أنك وقفت بين الأعمـــدة والسقوف بزخارفها التى لا تبارى لاستبد بك احساس بأن قواعد فن العمارة التقليدية لم يعد لها وجود ، ويلوح كما لو أنك فى عالم أســـطورى فى تاريخ البحر تحيط به اللآلىء والشعب الرجانية يسلب لبك جماله الذى بلغ الكمال والذى لا تمن به السماء الا على أتباع الجانية ولا سواهم •

وهنا فى قلب تلك العقيدة الآخذة فى الاندثار الذى ما برح ينبض بالحياة لا يزال بوسع المرء أن يدرك شيئا من المثل الســامية التى أعلنت ذات يوم عظمة الجانية للهند القديمة •

لماذا يكابد الصالحون الألم ؟ وما السبب فى أن من لا يرتكب خطيئة ولا يخالف الوصايا قط ويعيش حياة بارة يقاسى من المرض والحظ العاثر والموت والمصـير المحتوم ؟ ان العقيـدة المسيحية ، مثلها مثل أيوب ، تتصارع صراعا لا هوادة فيه مع هذه المشكلة العويصة التى لم تحل • أما ديانات الهند القديمة ــ الهندوسية والبوذية والجانية ــ فقد وصلت الى حل لها منذ أمد بعيد فهم يؤمنون بالبعث الدورى ، فنحن نولد ثانية أما ككائنات بشرية أو كحيوانات • ومن ثم فان مشـــكلة الألم بدون استحقاق لم تعد ، فيما يبدو ، شرا خفيا ، فمن يقاسى ألما بغير استحقاق فلابد أنه ورث هذا الحظ العاثر عن حياة ســـالفة ، وهكذا يتقبل الناس حقيقة أنهم يولدون من عشيرة معينة لأن الأمر قد سبق وتقرر فى حياة سالفة ، وحيث ان الألم يسود فى كل حالات عودة التجسد فان رغبـــة الهندى الوحيدة الملحـة كانت تتمثل فى خلاص نفســـه من دورة البعث الأبدية ، ولا سبيل الى ذلك الا ببلوغ مرحلة الكمال •

وهدف الجانية الوحيد هو التغلب على النفس وبلوغ مرحلة الشفافية والهروب من الدورة الأبدية ، ويرى الجانيون أن الرجال الذين قطعوا هذا

الطريق الى الكمال وكشفوا للآخرين عن هدف السلام النهائى هم النساك المخلصون الأربعة والعشرون الذين يعبدون فى معابدهم ، وفى ســـكون مطلق لا حدود له يستريح هـؤلاء على انفـراد رمزا للانســـجام والغلبة والاتزان والعقل وقد ارتسمت فوق وجوههم ســمة الذهول واستغراق ليبرهنـوا لأتباعهم بأن هناك ما هو أرفع ، وأبعد مدى من جولة الانسان الأبدية بحثا عن الأمور التافهة ٠٠٠٠٠ شيئا أرفع من الانشغال بالأمور الدنيوية ٠

كامبوديا

تقبع أنجكور مهجورة في الغابة

« طرق آسيا كلها تبدأ من الهند »

(أناندا كوماراسوامى)

« خمس شجرات أناناس فوق تل » هكذا يصف الروائى الفرنسى بول كلوديل (Paul Claudel) أنقاض أروع هيكل فى آسيا ، مشيرا بذلك الى أبراج هيكل مدينة انجكور وات (Angkor Wat) التى تتوهج بلون أحمر عند غروب الشمس ، وتبرق بلون أخضر ضارب الى السواد فى ضوء الفجر الشاحب وتبدو بلون أزرق خلاب يجل عنه الوصف عندما يكسو ضوء القمر الغابة العذراء ٠

وظلت المعابد والمدن والهياكل فى طى النسيان تخفيها أوراق أشجار الغابات الضـــخمة قرونا عدة حتى وفد عام ١٨١٥ ميــلادية بعض الآباء الجيزويت وترجم آبل ريموسات (Abel Remusat) روايات صينية قديمة تروى قصة المدن التى ساد الاعتقاد بأنها اختفت من الوجود ، والى أن قدم مكتشف فرنسى عام ١٨٥٨ فى رحلته الشاقة المضنية على طـول وادى نهر الميكونج الأعلى ، وراح يتفرس فى قلب الغابات فرأى المعـابد الفسيحة تكسوها النباتات المتسلقة قابعة فى هدوء أشبه ما يكون بجمال الغابات الحالم ، وشاهد الكتل الحجرية الهائلة وقد فلقتها أشجار الغابات معلنة انتصار الطبيعة الخالدة على ما تصنعه يد الانسان ، والى أن نشر هنرى موهوت (Henery Mouhot) عام ١٨٦٣ قصة رحلته حول العالم

وتعرض لتلك الأنقاض ـ وهكذا ظل الحال فى واقع الأمر حتى أصبح من المحقق فى النهاية أن خرائب انجكور قد أعيد اكتشافها ·

وأخذ الباحثون المفكرون آنذاك يشقون طريقهم الى قلب الغابة وهم يرتدون الفراك والياقة الانيقه فما لبث آن قفل ديلابورت (Dela Porte) عائدا الى باريس حاملا معه أولى التماثيل فاكتظ متحف جيميه بالسادة المعجبين من ذوى القبعات والنساء بثيابهن الفضفاضة الذين راحوا يمعنون النظر خلال منظار يمسك به كل منهم فى يده ، وفى الخامس عشر من شهر ديسمبر أسس بول دوميه (Paul Doumer) ـ الحاكم العام للهند الصينية ـ مدرسة الشرق الأقصى فى هانوى لتضطلع أساسا بدراسة تاريخ الهند الصينية وفن العمارة واللغة ·

ويمضى العمل قدما الى هذا اليوم فى قلب الغابة حيث يتم انتزاع الهيكل تلو الآخر واكتشاف المدينة بعد الأخرى فتستعيد روعتها القديمة، وهكذا يواصل الباحثون عمليات القياس ، وفك الرموز والترجمة والكشف من غير توقف ·

ويقول آناندا كوماراسوامى ، عالم الآثار الهندى الذائع الصيت « ان طرق آسيا كلها تبدأ من الهند » حقا ان الفن الهندى قد صاحب عقيدتها التى انتقلت الى سيلان وجاوا وكامبوديا وسيام وبورما والتبت وتركستان والصين وكوريا واليابان · فأنقاض أنجكوروات تعكس الروح الهندية ،كما تبرز أنقاض هيكل بوروبودور (Borobudur) فى جاوا نظرية الهند فى الكون التى خلدت على الحجر ·

ويحلق البرج الرئيسى فى انجكوروات شاهقا على ارتفاع ٢٣٠ قدما فوق أرض الغابة ، كما يغطى المعبد بشرفاته الثلاث وأبراجه التسعة مساحة ٤٨ ألف ياردة مربعة على وجه التقريب ، أما الخندق الحامى المحيط بالمدينة فاتساعه يقرب من ٣٦٠ قدما ، ومحيطه يبلغ اثنى عشر ميلا ونصف الميل · كانت انجكوروات صرحا ضخما قائم الزوايا وأنشودة من الحجر ترفع الى الالهة الذين لم يبلغوا ، برغم ذلك ، من القوة ما يمكنهم من الحفاظ على معابدهم ، كما أنها عالم صغير ـ مسطح مربع من الأرض تحيط به المياه ـ أى الأرض محوطة بالمحيطات ، وكان الاله مجسما فى الملك ويمثل أعلى جبل فى العالم قمة برج شاهق لمعبد تشع منه قوة الاله فى جميع الاتجاهات ·

والواقع أن انجكوروات مضللة كلفظ جغرافى ، فالمعبد Wat رغم أنه من بين أضخم الخرائب ، لم يزد عن كونه واحدا من مئات الأبنية التى ترجع الى الفترة ما بين القرنين التاسع والرابع عشر بعد الميلاد ·

فمن كان مقيمو تلك الصلوات بالحجر ؟ حين ولد المسيح في بيت لحم كان يقطن كامبوديا شعب يعرف بالخمير (Khmers)، جاءت سماتهم العنصرية واللغوية ، فيما يبدو ، من عوالم مختلفة ، فقد كانوا أطول قامة ، وأدكن لونا ، وأنحل جسما من جيرانهم ، كما كانت عيونهم أشبه بعيون الاجناس الهندو أوربية ، وكانوا يرتبطون لغويا بشعوب أندونيسيا والبحار الجنوبية وبشعبي ميلانيزيا وبولينيزيا على السواء ، واذا كان شعر البولينزيين والمغول والصينيين واليابانيين أسود مسترسلا فان شعر الخمير يميل الى أن يكون مجعدا . ولعلهم كانوا حصيلة تزاوجهم المستمر من الأجناس العديدة التي اختلطوا بها ، وفوق هذا كله ، فان الصين ، بأعدادها البشرية الهائلة ، التي كانت تتدفق شمالا وجنوبا من غير توقف، هي التي زادت من ضغط السكان في الهند الصينية ، مما دفع ، على الأرجح ، الى الرحلات الجريئة التي قام بها البولينزيون الذين بلغوا في النهاية جزيرة ايستر (Easter Island) في الطرف الشرقي من محيط الباسفيك بل من المحتمل أن شعوب شمال شرقي آسيا التي ترتبط ببعضها بروابط عنصرية قد هاجرت حتى بلغت سهول أمريكا الجنوبية المرتفعة حيث نعرفهم ، منذ زمن كولومبوس ، بالهنود .

ويفترض أن أنجكور ثوم (Angkor Thom) عاصمة أمة خمير في القرن التاسع ، كانت تتلقى الجزية من أكثر من مائة ملك دانوا لسلطانها ، وثمة ما يدل على أنه كان لها جيش عرمرم قوامه خمسة ملايين مقاتل ، وحين زار تاكوان مبعوث كوبلاي خان انجكور ثوم سنة ١٢٩٠ م استبان له أن الخمير شعب عجيب يعمل بلا انقطاع في حقول الأرز وفي اقامة المعابد لآلهته ، وكان لمليكهم خمس زوجات ، احداهن شريكة حياته وأربع للمتعة تمثل كل منهن جهة من جهات الأرض الأصلية . هذا الى جانب احتفاظه بأربعة آلاف محظية وتكدس خزائنه بالذهب واللآلىء كما كانت قوارب المتعة تنزلق فوق سطح مياه البحيرات والفيلة الملكية تجوب شوارع العاصمة ، ففي انجكورثوم وحدها كان يعيش مايربو على مليون نسمة .

أما معبد انجكوروات فقد شيده العبيد وأسرى الحرب للملك سوريا فارمان (Suryavarman) الثاني في الفترة مابين ١١٣٠ و١١٥٠ م ، وراح ضحيته عدد كبير من الأنفس ولا يقل هذا المعبد ، من حيث فن العمارة ، عظمة عن أي مبنى أقامه المصريون واليونانيون ، كما يضارع كاتدرائيات أوروبا في روعته وفخامته . لقد قام آلاف العبيد بتطهير الغابة ، ومن فوق تلال تبعد مسافة تتراوح بين ٤٠ ، ١٠ ميلا أخذوا ينقلون الحجارة الرملية الى مكان المبنى كما أحرقت ملايين الآجر التي كانت تثبت بمادة مستخلصة من الخضروات لم نتحقق منها بعد . هذا ولقد قطعت الافدنة من

مادة تستخدم كالطوب ـ وهي عبارة عن حجر رملي أحمـر اللون يشكل الطبقات السفلى للريف المجاور ـ لبناء الأساسات والجدران وأبراج المبانى الشاهقة ، وفي هذه الأثناء شرع الفنانون يصنعون التماثيـل ، وعمـل الكهنة على ابعاد الأرواح الشريرة ، ولكي يحصل الملك على امدادات مستمرة من العبيد شن سلسلة من الحروب ، ولما كانت نتيجة الحروب تتوقف على الحظ بسط السياميون في النهاية سيطرتهم على المدن والمعابد حتى لم يبق منها سوى الأنقاض ٠

ويدلنا أسلوب فن العمارة والزخـرفة عـلى أن معظم الشعوب التى سيطرت على المنطقة ، حين كان العمل فى تنفيذ برنامج المبـانى الضخم يسير على قدم وساق ، كانوا من الهندوس أو البوذيين ٠ وترتفع الأبراج الشاهقة فوق المعابد كما أن التماثيـل الضـخمة للأباطرة والبوذيين والطيور والحيوانات الرمزية وتفاصيل الطقوس الدينية تميز أجيالا من المهندسين المعمـاريين وأسرات حاكمة جديدة ، كما تكشف الألواح التى كتبت باللغة السنسكريتية عن طابع عدد كبير من المبـانى ، من معـابد ومكتبات ودور للعدالة الى جانب المستشفيات التى ينسب لحـاكم واحد انشاء ما يزيد على مائة منها ٠

وكانت الرسـومات الجميلة تنقش فى أماكن مرتفعـة ومنخفضة من الأعمدة الحجرية والجدران والأبواب ٠ أما الجدران التى بنيت مـن الطوب وغطيت بطبقة سميكة من الملاط فكانت تزخرف برسومات تمثل مشاهد المعـارك وأحداثا تاريخية هامة ومراحل حيـاة الانسان على الأرض وضروب النشاط الجماعي اليومي ، الى جانب عدد كبير من آلهة الهندوس والبوذيين ، وتشمل الزخارف عددا لا حصر له من صور المعابد وحوريات الماء السماوية وراقصات سماء أندرا ٠

وعلى طول طرق الغابات وممراتهـا فى كامبـوديا الحديثة مازال الناس يستخدمون نصل شفرة حادة طوله حوالى اثنتى عشرة بوصة يتصل بيد خشبية مقوسة طولها قدم كأداة أساسية فى عملهم ، وتلك الآلة التى نجدها فى صـور عديدة فوق جـدران انجكوروات المستطيلة ـ كمـا أن عربات الكارو المستطيلة ذات الحواجز الناتئة على الجانبين لتـدرأ عوائق الغابات ، وهى التى تعد الوسيلة الرئيسية للنقل بين أهل الريف حاليا ، نجدها فى مناظر المعارك وتنتظم فى سلاسل فوق جدران انجكورثوم منذ ألف عام خلت ٠ ومازالت الغابات والأدوات ووسـائل النقل عينها بل والسكان أنفسهم الذين يعيشون ويعملون وسط أنقاض عظمتهم السالفة هى بعينها كما تبدو بين أنقاض أسلافهم فى قديم الزمان ٠

وفى الفترة ما بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠ ق٠م ظهر أدب الهند الفيديكى المقدس ويعتبر الاله فيشنو (Vishno) الشخصية الرئيسية فى نصوص المهابهاراتا والرامايانا التى كتبت باللغة السنسكريتية ، كما أن الالهين الآخرين ، سيفا وبراهما قد ظهرا أصلا فى الأدب الهندى القديم ، وهنا فوق نهر الميكونج وجدت تلك الآلهة الهندية معابدها ومدنها وانضمت اليهم روح بوذا الذى عاش فى الفترة ما بين ٥٦٠ و ٤٨٠ ق٠م وأينما وجد فن حضارة خمير فاننا نشهد رأس ناجا ، الحية المقدسة التى هى على شكل مروحة ، ومن ثم فان آلهة الهند جميعهم قد وجدوا فى كامبوديا مقرا مشتركا ٠

ومازالت القصة نفسها تتكرر دائما : فالناس لاتنصرف لطلاقا عما يصل من السماء اذ أن الرومان كانوا يسمحون لآلهة الشعوب التى قهروها بأن تكون لها معابدها وكان النبى محمد (ص) فى تعاليم الدين الاسلامى ، يحترم الأنبياء جميعا ومنهم ابراهيم وموسى بل والمسيح نفسه ، كما ينقل المسيحيون الاحتفال الوثنى فى عيد الميلاد وهكذا آمن الخمير بكل اله فى الديانة الهندية ٠

وينحدر مواطنو كامبوديا الحديثة من الخمير ٠ لقد كان أجدادهم يشيدون للخلود على نطاق لايزال موضع اعجاب علماء الآثار المعاصرين ، ومع ذلك فان الذين جاءوا بعد ذلك سكنوا ، والرعب يملأ نفوسهم أكواخا واهية أقيمت على قوائم خشبية يصلون اليها بدرج متنقل ، ذلك المدرج الذى كان يرفع ابان الليل ، بينما يترك مقعد قمته لتقف عليه الروح التى تقوم بحراسة النائمين من الشياطين ٠

الصين

عاش أسلاف الصينيين منذ ٥٠٠ ألف سنة

ان الشعوب التى نجهلها تماما حظيت جميعها ببداية للحضارة على اسوأ الفروض ، من بينها انســان بكين نفســه (صين انثروبس بكيننسيس Sinathropus Pikinensis) الذى صنع الأدوات وعرف كيف يستخدم النار •

كاج بيركيت سميث

ذلك كله بدأ ببعض عظام الدجاج •

الى عهـد قريب أمكن العثور على عظـام وهياكل عظمية لطيور كثيرة فوق تل يبعد ثلاثين ميلا تقريبـا جنوب غربى بكين ، واعتقد الصينيون القاطنون فى ذلك المكان أن تلك عظام دجاج فأطلقوا على الأكمة الصغيرة « تل عظام الدجاج » ولم يعيروه أكثر من ذلك اهتماما ، بيد أن علماء الآثار الذين قاموا بفحص تلك العظام بالمجهر قرروا أنها فى الواقـع عظـام متحجرة لطيور وحيوانات قارضة بل ووحوش كاسرة ، فما لبث أن أضحى تل عظام الطيور هذا مثار اهتمام جديد وسرعان ما صارت المنطقة المجاورة بأسرها التى تعرف « بشوكوتيان » (Choukoutien) ، محط أنظار علماء الآثار الأوروبيين •

ومن الأمور التى لها دلالتها أن يفوق اهتمام الأوربيين بعلم الآثار اهتمام أهـل الشرق • فالأوربيون يطلبون المعـرفة والشرقيون يبغون

العيش ويكتشف الأوربيون الأشياء ويدمرونهـا ثم يلبثون أن يعيدوا خلقها على حين ان الشرقيين يتركونها تتحلل وتفنى (١) .

ومن بين الأشياء العديدة التى أمكن العثور عليها أسفل تل عظام الدجاج ضرس لمخلوق شبيه بالانسان ، وأن ما يربو على ألف « قفص » من العظام المتحجرة قد تم شحنها الى بكين حيث قام العلماء بفحصها وفرزها ، كما أمكن التعرف على عظام للفك وأجزاء من جماجم بشرية ، ثبت عند اعادة فحصها أنها عظام خمسة وعشرين فردا مختلفين .

وأقبل عام ١٩٢٩ يحمل فى طياته كشفا هائلا حقا حين عثر على جمجمة كاملة لمن يطلق عليه « صين انثروبس بكيننسيس » (انسان بكين) وليس هذا الانسان هو آدم أبو الجنس البشرى ، فجده الأول انسان جاوه الذى كان يسير منتصب القامة ، ومع هذا فان انسان بكين كان قد دفن أسفل « تل عظام الدجاج » منذ ردح من الزمن يقدر بنحو ٥٠٠ ألف سنة . ونعلم علم اليقين أنه كانت لهذا الانسان قدرة على التفكير اذ يبلغ حجم جمجمته ٥٨٫٨ بوصة مكعبة أى أنها تقل قليلا جدا عن حجم جمجمة الانسان المعاصر التى تبلغ ٦٦٫٥ بوصة مكعبة ، كما فحص أيضا مركز النطق فثبتت قدرته على الكلام ، والأدهى من ذلك أن أسنانه وعظام فكه برهنت على أنه ينتمى الى الجنس المغولى أو الاسكيمو أو الصينى أو اليابانى، فلو أننا اتخذنا من ذلك دليلا لكان الصينيون الذين نعتبرهم من أصل مغولى قد عاشوا فى شمال الصين منذ عهد مغرق فى القدم .

لكن على الرغم من تلك الاكتشافات المذهلة لم يهدأ لعلماء الآثار بال ، وعلى أساس ما عثروا عليه من آثار الرماد الأصفر قرروا أن انسان بكين كان يعرف النار ، وأن ثلاثة آلاف عظمة صورتها يد الانسان فى أشكال متشابهة لتدل على وجود « مركز صناعى » فى تلك البقعة كما كشفت الآلاف من أحجار الصوان الشفاف التى كانت تطرق بشدة بالمطارق لتتخذ الشكل الذى يريدونه ، وبقايا الجاموس والغزلان وغيرها من حيوانات الغابات ، على أن تلك المنطقة كانت تنعم بجو دافىء رطب ، وتغص بالمستنقعات والبحيرات والغابات وان تكن المنطقة المحيطة ببكين اليوم تتميز بالجفاف والتجرد من الأشجار والبرد القارص فى فصل الشتاء .

وبالقرب من تل عظام الدجاج ، لكن فى منطقة شوكوتيان نفسها ، ثم اكتشاف موقع ثان يسمى « بالكهف الأعلى » حيث كشف أولئك السكان

---

(١) هذه نظرة خاصة بالمؤلف ولا نرى كثيرا من علماء الغرب يتبعونه فيها فكثير منهم يحترمون فكر الشرق ويقدرونه حق قدره ـ المترجم .

الأصليون عن أنهم ينعمون بقدر من الموهبة الفنية • فمنذ آلاف السنين كانت احدى النساء الحسناوات تعلق فى عنقها عقدا كما يتضح من الاثنين والعشرين ســـنا من أســـنان الحيوان التى نظمت فى خيط ، والأدوات العظمية التى صبغت باللون الأحمر •

ويلقى المزيد من الضوء على حضارة هذا العصر الحجرى موقع أثرى آخر كان قد اكتشفعند أوردوسبند (OrdosBend) حيث كان القوم أكثر تقدما • وتكشف آثار الفحم عن الأماكن التى كانوا يشعلون فيها نيرانهم ، كما أن بقايا الخرتيت والضباع والوعول والبقر التى وجدت مختلطة بقشر بيض نوع معروف من النعام الضخم لتدلنا على قائمة مأكولاتهم ، فهل عثرنا على أنواع متطورة جدا من القردة ؟ كلا البتـــة • اذ فى هذا المكان بدوره خلف الانسان نفسه آثاره •• انها عبارة عن ضرس واحد لكنه يكفى لأن يلقى بشىء من الضوء على هذا الماضى السحيق المظلم •

وهناك بين العصر الحجرى القديم أى منذ نحو ٥٠٠ ألف سنة قبل الميلاد ، وسنة ٢٥٠٠ ق٠م ، حقبة شاسعة من الزمن نعرف عنها القليل أو لا نعرف شيئا على الاطلاق فما الذى حدث ؟ هل لجأ نوح النبى اثر طوفان ألم به الى قمم الجبال ؟ لسنا ندرى •

وتجىء الرسالة التالية من الانسان القديم من يانجـشاو (Yang-Shao) حيث اكتشفت عام ١٩٢١ قرية بأكملها دلت على قيام حضـــارة متطورة ترقى الى أربعة أو خمسة آلاف سنة ، ولا يزال الغموض يكتنف مراحلها الأولى ، انها أشـــبه ما يـكون بموهنجو دارو فى الهند حيث لم يعثر على أثر لشىء ، وفجأة يتبين أنه كان بهـــا عـــدد من الســـكان الذين بلغوا مرحلة متطورة من الحضارة وتدل أسطوانات الصلصال التى تمثل مغازل من نوع ما ، على الالمام بزراعة أنـــواع معينـــة مـــن نبـــاتات ذات ألياف ، كما عثروا على أوان فخارية مزخرفة بأشـــكال منسوجة ، ووجدت أدوات مصنوعة من العظام والقـــرون ، وابر للحياكة لهـــا ثقوب دقيقة الصنع ، وأوان ذات رقاب وأيد وزهريات ســـهلة الكسر ذات رقاب طويلة دقيقة . وأوعية كبيرة ـ مزخرفة بأشكال بشرية وبصور كلاب وخيول وغيرها من الزخارف • وتوحى صورة قط لا تزيد عن عشر البوصة فى ارتفاعها على أن هذا الحيوان قد استؤنس فى تلك الأيام • وربما كان لهذه الفترة التى تسمى بالعصر الحجرى البرونزى نـــوع من الكتـــابة فقد وجدت الرموز الأولى للغة الهيروغليفية فى مقابر اقليم كانسو ، كما أن البقايا الهيكلية لما يقرب من مائة وعشرين رجلا وامرأة التى عثر عليها فى كانسو تدل على أنها تنتمى الى الجنس المغولى ، وأيا كان الأمر ، فاننا لا ندرى ما اذا كان هؤلاء الصينيون القدامى الذين ينتمون الى العصر الحجرى ـ البرونزى هم

سلالة انسان بكين الذى وجد منذ ٥٠٠ ألف سنة مضت أم أنهم ينحدرون من أصل آخر ٠

وكانت الأرض قد دارت حول الشمس ألف دورة أخرى أو يزيد عندما بدأ الانسان فعلا يدفن موتاه كما تدل على ذلك مقابر شانج ـ المعروفة أيضا بمقابر « ين » التى لم تكتشف الا حديثا جدا وتوجد هذه المقابر فى مدينة آنيانج الحديثة باقليم هونان شمالى النهر الأصفر بخمسة وسبعين ميلا تقريبا ، وتمثل أسرة شانج الحقبة الأولى من تاريخ الصين التى تتوفر لدينا المعلومات الوثيقة عنها ، فهذا الخيط الامبراطورى بدأ نحو ١٤٥٠ ق٠م وظل قائما حتى ١٠٥٠ ق٠م٠ ولقد مدت السموات نفسها يد العون لتميط اللثام عن تلك الحقبة ، وذلك حين هبت سنة ١٠٧٩ ميلادية عاصفة عاتية اكتسحت من أمامها الأرض وكشفت عن مقبرة الامبراطور شانج ٠

وفى هذه المنطقة عثر الصينيون على عدد من الأوانى البرونزية سرعان ماباعوها فى أقرب الأسواق بحكم تفكيرهم العملى ، ثم أقاموا فى هذا المكان قرية ومضت أقدام البشر تطأ دون اكتراث فوق آثار آلاف السنين الخالية ، وفى نهاية القرن كشف الفلاحون وهم يحرثون الأرض عن عظام حيوانات وأصداف سلاحف مغشاة برموز ٠

ومن سوء الطالع ان الصينيين يحسبون دائما أن كل ما هو غامض ويمكن أكله فهو دواء ، ومن ثم قاموا بسحق العظام وأصداف السلاحف التى ترجع الى أربعة آلاف سنة وباعوها للصيادلة على أنها دواء فعال لاطالة العمر ، ولعل المعدة تتحمل أكثر مما يفترض عامة ، لكن علم الآثار يعانى من مثل هذه الأساليب ، وظلت سوق هذا الدواء الجديد رائجة الى أن أقبل الباحثون من البيض وسارعوا بشراء العظام وأصداف السلاحف وبعثوا بها الى المتاحف فى أنحاء العالم ٠ ومع ذلك سرعان ما وصل عدد من « المتبربرين البيض » وراح الفلاحون الصينيون ينظرون بدهشة واستغراب الى تكالب الآلاف على شراء تلك العظام القديمة عديمة النفع ٠

ومما تم اكتشافه من آثار كان يحمل أقدم حروف الكتابة الصينية ، وتعد هذه الرسائل التى ترجع الى ٤ آلاف سنة مضت أو يزيد كنزا لا يقدر بثمن فى ميدان دراسة التاريخ الانسانى ، ولا تكشف أصداف السلاحف والعظام التى عثر عليها فى مقابر أباطرة شانج عن الأسئلة التى كان الناس يطرحونها على حكيمهم فحسب بل تقدم الجواب سواء بسواء ٠ فثمة أسئلة توجه الى الآلهة والأسلاف ٠٠ أسئلة عن الأسفار والصيد والقنص وأخرى عن المحصولات والأمراض وتفسير الأحلام وعلى تلك

الأسئلة بلا استثناء تجيب وثائق العظام وأصداف السلاحف التى ترسم أمامنا من غياهب الماضى السحيق صورة للحضارة الصينية ٠

وهاك مثالا : « سوف يهطل المطر هذه الليلة ولابد من صيد فيل » ونستدل من ذلك على أنه كان فى وسط الصين فيلة فى تلك الأيام ٠ أو « تضرع الى جدتك « يى » كى يهطل المطر ٠٠ مما يدل على ان عبادة الأسلاف كانت سائدة منذ أربعة آلاف عام ٠

وتكشف لنا صور الصيد عن أن قوم شانج كانوا يستخدمون الخيط والعصى والشباك والطعم ، بينما تدل رموز صيد الحيوانات على أنهم عرفوا السهام والحربة ٠ وتميط الكتابة اللثام عن استخدام الخيول فى جر العربات ، وكان يعبر عن كلمة « رجل » بادماج رمزى « القوة » و « الحقل » معا ، وتدل رموز الحبوب على الذرة والأرز ، كما كانوا يزرعون أشجار التوت ويصنعون الحرير فى وقت كان فيه السواد الأعظم من الجنس البشرى يسير عارى البدن أو يرتدى لالود الحيوان ، ولم تكن تعرف المنسوجات ألا حضارات البحر الأبيض المتوسط وأمريكا الوسطى ٠

وفى مقابر أسرة شانج عثر على أدوات من البرونز ، كما ان سكان تلك الحقبة عرفوا كيف يصهرون النحاس والقصدير والحديد والفضة والرصاص ، ووقف الباحثون مبهورين أمام أوانى القرابين والزهريات الجميلة من البرونز المزخرفة بصور الحيوان والمرايا البرونزية وأوانى البخور التى تمخضت عن تلك الحضارة الراقية المتطورة ٠

لكن ليس العلماء وحدهم الذين تستبد بهم الدهشة ، فبوسع أى زائر لشمال الصين أن يذهب الى حوانيت التحف ويبتاع أوانى من البرونز الأصلى التى ترجع الى عهد شانج ، ومع ذلك لا يغيب عن بالنا أن عصر الصناعة اليدوية المتطور هذا كان يتميز بالقسوة المتناهية فقد كانت آلاف الناس تقدم قربانا لاله التربة وتسكب دماؤها فى آنية القرابين ٠ وفى وسط حياة الترف والفجور انهارت أسرة شانج فى نهاية المطاف ، وهكذا انتهى عصر أسرة شانج بوحش كاسر كنيرون يدعى شوهسين (Chou Hsin) الذى كان فى قوة شمشون ٠ ويقال انه كان يستطيع

قتل الوحوش المفترسة بقبضة واحدة من يده ، كما أنه استغل فصاحته لدحض كل مشورة سديدة ، وذكاءه لتغطية أخطائه » .

لكن أتى يوم الحساب الذى لم يكن من مندوحة عنه ، وعندما هجره جنوده كان معين ذكاء الامبراطور شوهسين قد نضب . وبعد أن فرغ من توزيع أفخر ثيابه وأثمن مجوهراته أشعل النيران فى قصره وهلك فى بحر من اللهب .

أما محظياته اللائى شاركنه دعارته وفجوره فقد وقعن فى قبضة الغزاة الظافرين .

الصين

كونفوشيوس ولا وتسى

اذا كنت لا تعرف الحياة فكيف تعرف الموت ؟

(كونفوشيوس)

لا تكن الأول فى العالم أبدا

(لاوتسى)

يحسب كل عصر أنه بلغ مدارج الحكمة ، ويشير الناس على اختلافهم الى عصرهم بالقول « عصرنا التقدمى » ويحتقرون الماضى ويغضون الطرف عن المستقبل ، لكن لو أراد أحد بعد استعراض تاريخ آلاف السنين الحوالى أن يمنح جائزة لعصر بعينه عما حققه من منجزات فكرية هائلة لاختار ، فى رأيى ، القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد ، ذلك أن تلك الحقبة فيما بين ٦٠٠ و ٤٠٠ ق٠م شهدت تفجرا مذهلا للعبقرية الدينية والفلسفية الأدبية فى معظم ربوع العالم ٠

ففى نحو هذا الوقت كان بوذا يعلم فى الهند وزرادشت فى بلاد الفرس وارميا وحزقيال وأشعياء يبشرون بقدوم المسيا فى فلسطين حين بدأ التوراة يأخذ طابعه المميز ، وفى اليونان طور سولون وكلايستينيز Cleisthenes الديمقراطية ، ونعمت أثينا فيما بين ٤٨٠ و ٤٣٠ ق٠م ، بعصرها الذهبى فى ميدانى القوة والثقافة ، هذا وشهدت تلك القرون كذلك مولد أعظم فيلسوفين فى الصين هما : لاوتسى وكونفوشيوس ٠

ولم يكن فى ذلك الحين اتصال متبادل على نطاق واسع بين اليونان واليهودية وايران والهند والصين ، وانما نكاد نؤمن بوقوع معجزة سماوية لو تأملنا فى أن أعظم أفكار الجنس البشرى قد تطورت فى آن واحد بين تلك الأجناس المختلفة وفى ربوع العالم المتباينة المتباعدة ٠

ولد كونفشيوس ، أعظم فلاسفة الصين الذى يدعى بالصينية كونج فوتزو ، عام ٥٥١ ق ٠ م ، فيما يعرف اليوم باقليم شانتونج ، وعن طفولته لا نعرف غير أنه كان صبيا جادا مفكرا خاض ميدان العمل ليعول أمه بعد وفاة أبيه ، وسرعان ما أتقن فنون الرماية والموسيقا وهو فتى صغير ٠ ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره تزوج ، لكنه طلق زوجته وهو فى الثالثة والعشرين ربيعا ، اذ يتعين على الفيلسوف الأخلاقى أن يظل أعزب كما يدل زواج سقراط من اكسانثيبى (Xanthippe) ، ولم يمض وقت طويل حتى ذاع صيت كونفوشيوس كمعلم لأنه لم يهاجم غيره من الفلاسفة ، ولم يضيع وقتا فى دحض آرائهم وما يسوقونه من حجج ٠ لقد كان صارما مع تلاميذه برغم حبه الجم لهم ، ويروى أنه لما وافت المنية أحدهم ويدعى بن هوى بكى وقال « لقد أحب المعرفة ، ولم أصادف تلميذا أحب العلم مثله ، كان عمره قصيرا وليس له من نظير » ويقينا أن علاقة بن هوى بكونفوشيوس كانت أشبه ما يكون بعلاقة القديس يوحنا بمعلمه ٠

وعاش كونفشيوس فى زمن نشير اليه بعهد الاقطاع فى الصين حيث كان الاقطاعيون يبسطون سيطرتهم على مدن فسيحة تحوطها الأراضى الزراعية وأماكن الصيد ، وكانت تلك المدن الاقطاعيــة قائمة فى هونان الحديثة ، وفى أجزاء من شانسى وشنسى وشانتونج وأصبحت المدينتان شى وشين ، من أهم دويلات المدن هذه ، فما لبثت أن صارت لمدينة شين السيادة على جيرانها لتؤسس الامبراطورية التى منها فيما يرجح اشتقت الصين اسمها ٠ والجدير بالذكر أن العالم بأسره فيما عدا الصينيين يعرف مملكة الوسط على أنها هى « الصين » ٠

ولم تكن هذه الولايات الاقطاعيــة ، برغم ذلك ، قد توحدت فى عهد كونفوشيوس ، وهكذا طفق المعلم يتنقل من ولاية الى أخـرى ، وشاهد انحطاط مستوى الحكم بوجه عام ، وأعرب عن لستيائه واقترح الوسائل الكفيلة بتحسينه ، وأتاح له واحد أو اثنــان من الأمراء الفرصــة لتولى منصبا فى حكومتيهما ، لكن لم يمض وقت طويل حتى ضاق كونفوشيوس ذرعا بالكفاح مع المسئولين والأمراء ، وربما كان بدوره مبعث ضـيق لهم

اذ كان رجل حكمة ونزاهة . وقال : « لما بلغت الخامسة عشرة كان عقلى مشغولا بالتعلم ، وفى الثلاثين أصبحت لى آراء راسخة - وفى الأربعين تحررت من الشكوك ، وفى الخمسين عرفت قوانين السماء ، وفى الستين كانت أذنى أداة طيعة لسماع الحقائق ، وفى السبعين بات بوسعى ادراك ما يشتهيه القلب من غير أن يضل سبيل البر والصلاح » . ومات كونفوشيوس فى الثانية والسبعين من عمره ، ففى صبيحة أحد الأيام سمعه واحد من أحباره يئن أنينا خافتا ويقول « لابد لأعظم الجبال من أن يتحطم ، والشعاع القوى من أن ينكسر وللرجل الحكيم من أن يذبل كما تذبل الزهرة » وهرع اليه تلميذ آخر فسمعه يردد : « لن يقوم حاكم نابه ولن يرضى أحد فى ربوع البلاد طرا أن يتخذنى مستشارا له ، لقد حان الوقت لأموت » ، وما أن نطق بهذه الكلمات حتى اضطجع وبعد سبعة أيام لفظ أنفاسه الأخيرة . لكن تزى كونج (Tze Kung) التلميذ الذى فاق الجميع فى حبه لسيده لبث بجوار ضريح معلمه ثلاث سنوات يبكيه وحيدا.

فما الذى علم به هذا العبقرى الذى نادى بالأخلاق العملية ؟

لقد خلف وراءه خمسة مجلدات تعرف فى الصين بالملوك الخمسة ، ومن المحتمل أن كونفوشيوس لم يكن هو الذى ألف هذه الكتب وكل ما فعله أنه نقل حكمة الماضى التى لا تبارى الى الأجيال ، مكرسا نفسه لنشر النصوص الكلاسيكية القديمة التى ظل فكر الصين وثقافتها متأثرا بها حتى القرن العشرين ، ورغما عن ذلك فمن المؤكد أنه ترك طابع تفكيره المميز على المذاهب الفلسفية القديمة التى قام بتنقيحها وان كان هدفه الوحيد هو أن يحصل على التأييد لا لأفكاره الخاصة بل لما خلفه الأقدمون من معرفة وفلسفات أخلاقية .

ولقد ظهرت أعظم معتقدات الانسان الدينية فى بلاد مابين النهرين واليهودية وشبه الجزيرة العربية والهند . كما كانت الصين من ناحية أخرى بلاد الفلاسفة العظام والتعاليم الأخلاقية العملية ، فلم يهتم الصينيون يوما بالله أو بالعالم الآخر أو بأية أنظمة سماوية ، لكنهم شغفوا بحب الحياة .. الحياة على حقيقتها ، فهم يحبون الحياة بكل ما فيها : الأغنياء والفقراء ، الصالحون والطالحون ، اللصوص والقادة والملوك ، وقوس القزح الساطع والقمر الشاحب ، انهم يحبون القناطر وصورها المنعكسة فى البحيرات ، وزهور اللوتس والشاى والحرير والعطور والنساء الرشيقات والطعام الشهى وحشرات السيكادا داخل

الأقفاص ، وشراع المراكب يداعبها نسيم الماء · ويتنـاول الروائيون في الصين الحياة اليومية بكل ما تنطوي عليه من علاقات طيبة ، وولائم وثرثرة الصبيات الصغيرات ، والسحب القاتمة على وجه القمر ، والبط البرى وهو يشـق طريقه الى الماء والحفلات العائليـة والزواج والمواليد والأبناء المخلصين وزوجات الأبنـاء المطيعات ·· انهم يكتبون عن الجمال الأخاذ للحياة بمباهجها ومآسيها ، ولم يكن لدى الصينيين وقت أو ميل للاهتمام بأمور كالخلود ، والحياة بعد الموت ، والأفكار التى لاتنبع من أرضـهم الطيبة ، وما يحدث في السماء أو يكمن في باطن الأرض · ومن أجل هذا لم يخلق كونفوشيوس قط مذهبا فلسفيا ، لكنه أسس مدرسة للتفكير الواضح كما كان ذلك سببا في أنه لم يعقد أبدا مناظرات دينيـة بل ركز اهتمامه على ارساء القواعد لسلوك الأفراد والحكومات ولهذا السبب لم يقم دولة دينية ، لكنه سعى جاهدا الى تدعيم النظام الأرسـتقراطى الصارم القائم والعمل على تحسينه · وحين كان يسـأله أحدهم عن مشكلة الموت التى لا ينكر أحد أهميتها جاء جوابه « اذا كنت لاتعرف الحياة فكيف تعرف الموت » ؟ ·

ولعل العبـارات التالية توجز بأجمـل صورة وأوضحها تعاليم كونفوشيوس برمتها : « حين أراد القدامى ضرب مثـل لأسمى الفضـائل فى البلاد بدءوا بتنظيم بلادهم ، وعنـد تنظيم بلادهم بدءوا بأنفسـهم وعندما بدءوا بأنفسهم نقوا قلوبهم ، وفى تنقية قلوبهم حاولوا أن يكونوا مخلصين فى أفكارهم ، وبالاخلاص فى أفكارهم وسـعوا نطاق معرفتهم ، وبتوسيع نطـاق معرفتهم اكتشفوا الحقـائق وباكتشاف تلك الحقـائق صارت معرفتهم شاملة ، ولما اتسمت أفكارهم بالشمول صارت مخلصة ، ولما أخلصـوا فى أفكارهم باتوا لاثقين ، ولما باتوا لائقين أضـحت أسرهم منظمة ، ولما انتظمت أسرهم حكمت بلادهم حكما رشـيـدا ولما حكمت بلادهم حكما رشيدا عاش العالم بأسره فى سلام وهناء بال » ·

فالحكمة ، اذن ، كالاحسان لابد أن تبدأ من البيت ، وهكذا كان كونفوشيوس من بين عبـاقرة هـذا العالم الذين آمنوا بضرورة أن يقوم المرء نفسه قبل أن يشرع فى تنظيم العالم الخارجى ، كما كان ، فى الواقع ، رجلا بالغ الحكمة اذ آمن بأن السلوك المهذب للفرد هو المفتاح لعالم منظم وحياة هادئة مطمئنة ، بل ذهب الى ماهو أبعد من هذا المطلب من الفرد · ولعل كونفوشيوس كان أعظم معلم لعلم الاجتماع فقد سعى جاهدا الى تنظيم علاقة الناس ببعضهم البعض وعلاقة الشعب بحكومته ، وعندما

سئل : « هل ثمة كلمة واحدة يمكن أن تكون مرشدا عمليا للفرد طيلة حياته ؟ » أجاب بقوله « الاعتماد المتبادل » أى الاعتماد المتبادل بين جميع الأشياء ، والأفعال والمذاهب والناس راميا من وراء ذلك الى تحقيق العلاقات الطيبة والتوافق التام بين جميع الناس على وجه الأرض « تلك الحقيقة التى يعبر عنها دوستيوفسكى بقوله « ان كل انسان مسئول عن غيره » .

ان أشد ما كان يمقته كونفوشيوس هو الاشارات المبهمة والتفكير الغامض ، فقد كان الغموض ، فى نظره ، كارثة قومية . « اعمل قبل أن تتكلم ثم تكلم كما عملت » . كانت هذه سياسة آمنة : « ان الرجل العظيم يأتى من الأعمال ما يضىء السبيل للأجيال جميعها ، انه يحسن التصرف فيصبح تصرفه ناموسا للأجيال كلها ، ويتكلم فيكون كلامه عقلا حيا لتلك الأجيال » . وربما كان كونفوشيوس أقوى داعية للحكمة المذهبية : « عامل الناس كما تحب أن يعاملوك » بل ذهب الى ما هو أبعد من ذلك . فعندما سأله أحدهم : « ما تعقيبك على القول بضرورة مقابلة الشر بالخير ؟ » أجاب : « فى هذه الحالة بماذا يقابل الانسان الخير ؟ قابل الشر بالعدل والخير بالخير » .

ان تعاليم كونفوشيوس موسوعة ضخمة تشكل من التوجيهات والمبادىء العملية التى لو اتبعناها لصرنا بلا اله وبغير عقيدة ، ورغما عن ذلك سوف ننعم ولا شك ، بحياة مقبولة على الأرض : ولم ينظر الصينيون الى كونفوشيوس كآله أو مؤسس لمذهب دينى ، وكل ماهو قائم فى معابده هو اللوح الذى كتب عليه اسمه وألواح أصغر تحمل تعاليمه ، ولكن لم تمض على موته بضعة قرون حتى صارت قواعد السلوك التى وضعها هى القانون الأخلاقى الذى يحكم المجتمع الأرستقراطى الصينى ، اذ كان يقول « صنفان من الناس لا يتغيران هما : الذين بلغوا من الحكمة ذروتها والذين على درجة بالغة من الغباء » وكان كونفوشيوس واحدا من هؤلاء الحكماء ، ويمقت الأغبياء .

وكان معاصره لاوتسى حكيما أيضا لكنه أحب البسطاء ، وما نعرفه عن لاوتسى يقل عما يتوفر لدينا عن كونفوشيوس ، ومن المرجح أنه وجد على قيد الحياة وان كان ذلك ذاته موضع جدل ، ويحكى أن كونفوشيوس التقى يوما بلاوتسى وتحدث معه ، ومهما يكن من أمر فمن المؤكد أنهما لم يتفقا للاختلاف البين فى شخصيتهما .

كان كونفوشيوس ينتمى للمدينة ، أما لاوتسى فكان من أهل الريف .

وتعني كلمة لاوتسي في الصينية « المعلم العجوز » كما يقال ان اسرة الفيلسوف اسمها « لي » أو « البرقوق » ولا يزيد كتابه عن مجموعة من الخبرات الفردية والحكم بعنوان « تاو – تي – كنج » أي « كتاب الأسلوب والفضيلة » وبينما حاول كونفشيوس تنظيم العلاقات الانسانية فان تعاليم لاوتسي كانت (بما فيها من سخرية لاذعة) أعظم التعاليم التي توصل اليها عقل البشر تأثيرا ولم يتجاوز ، كما فعل كونفشيوس ، عن الأسلوب اللين ذلك لأنه اتبع وداعة النفس مع الذين كان يوجه اليهم تعاليمه التي كانت تبعث الى النفس الارتياح بقدر مالها من فاعلية وتأثير . وتعني كلمة « الأسلوب » ، أساسا « أسلوب التفكير » ، فالتفكير كما قيل لنا لايصلح الا للخصام بينما عدم التفكير فيه ضمان للسلام ، فمن واجبنا أن نعيش متواضعين ناكرين ذواتنا دائما ، وأن نحب الأرض قانعين بالتأمل الهادىء في الطبيعة والقيام بما يعتقد فولتير أنه أفضل ما ترك للانسان أن يعمل الا وهو غرس حدائقنا ، وأنه لا علاقة بين المعرفة والحكمة ، وأن المفكر يعيش بعيدا جدا عن السعادة والحكمة كبعد القمر عن الأرض ، واذا تولى فيلسوف رئاسة دولة كان ذلك رعبا ما بعده رعب ، والحاكم المثالي في عرف لاوتسي هو رجل بسيط طيب القلب ، وكلما أمعن الناس التفكير وأكثروا من البناء والكشف والانتصار كلما اقترب موعد حلول الكارثة (ولعل لاوتسي يبدو محقا فيما ذهب اليه لو أننا تأملنا أحدث ما أنتجته معرفة الانسان وعبقريته وهو الاستغلال المرسوم للذرة) ٠

وطالب لاوتسي ، شأنه شأن روسو من بعده ، بالعودة الى الطبيعة بل وكان في حقيقة الأمر أقرب لروح الشعب الصيني من كونفوشيوس ويقال ان نظريته الضاربة في القدم النابعة من الوعي الفطري للصين هي أن الانسان حر طالما ظل بسيطا ، وأن الحكومة الرشيدة هي تلك التي لا تفعل شيئا ، وكان لاوتسي يعلم : « لا تكن أبدا الأول في العالم » و « أن أحكم ما في الحياة هو الا تتورط في شيء » ٠ ولقد قيم شوانج تسي ، أعظم تابعيه والكاتب الفذ النابه ، تعاليم لاوتسي تقييما صحيحا حين أوجزها بقوله : « سر مع التيار كما تفعل نقطة الماء دون أن يجبر المرء نفسه على البقاء فيه » ٠

ان هذه النظرة الى الحياة ٠٠ هذا الصبر ، وهذا التسليم والخضوع وهذه القوة المستمدة من فكرة انتظر لترى – هي التي سيطرت على أسلوب الحياة في حضارات الشرق الأقصى بلا استثناء ، وتكمن عبقرية لاوتسي في ادراكه لانجح فلسفة لحفظ النفس ، انها فلسفة الانزواء وتجنب

العنف والبعـــد عن الجدل التي تمكن الانسان من أن يسلم من الأذى انها نظرية القوة عن طريق الجهل والغباء كأنجح وسيلة للدفاع وأكثرها أمنا ضد طغاة هذا العالم ، وأدرك لاوتسي مثله مثل سليمان عبث الجهاد الى جانب ادراكه للخير الذى يعود على البسطاء وقوة الضعفاء والعبقرية الكامنة فى « لعبة الاستخفاء » وكل من أصـبح عظيما فى الصـــين وربما سياسيا ماهرا عادلا قرأ ، ولاشك توجيهات كونفوشيوس ، أما من لاذ بالفرار من العالم وراح يقطف ثمار التفاح من الأشجار كما لو كان فى جنة عدن ، وظل على قيد الحياة فانه ينتمى الى مدرسة لاوتسى ٠

« هناك ما يسمى قبحا لأن كل فرد تحت قبة السماء يدرك الجمال كجمال « يحكم بحكمة من يريح القلوب ويشبع البطـــون ويحطم الذكاء ويصون نفسه ويحاول أن يحمى شعبه من المعرفة ويحرره من الشهوة » ان قوة الكلمات تتبدد بكرعو ، فمن الأفضل « أن يحتفظ الانسان بما فى قلبه لنفسه » ٠ ويحدثنا لاوتسى بقـــوله : « فى الأزمنة الغابرة جعلت الطبيعة الناس مستقيمين ومحبين للسلام ، فكان العالم عن بكرة أبيـه سعيدا فلم يلبث أن حصل على المعرفة فتعقدت الحياة ، وقام بالاكتشافات ففقد براءته وانتقل من الحقول الى المدن وأخذ يؤلف الكتب فولد البؤس وامتلأت أعين الفلاسفة بالدموع وســوف يتجنب الحكيم المدن وفساد القوانين والحضارة وتأثيرها الواهى ويختبىء فى أحضان الطبيعة بعيدا عن المدن والكتب والحكام الظالمين والمصلحين الاجتماعيين الفاشلين ، ان سر السعادة الدائمة يكمن فى نواميس الطبيعة والتجول فى هدوء فى طرقات الأرض الهادئة » ٠

وليس ثمة ما يفوق الوصف التالى لأعمال الطبيعة حكمه وفراسة :

« ان كل ما فى الطبيعة يؤدى عمله فى هدوء ، فتلك الأشياء قد خلقت ولا تملك شيئا ٠ انها تحقق الهدف من وجودها دون أن تشتهى شيئا ، وكل الأشياء تبلغ مراميها فلا تلبث أن نراها وقد ارتدت ثانية ، وعندما تبلغ ذروتها تعود الى مصدرها ، وهذا الانسحاب هو السلام وتحقيق المصير ، كما أن هذا المد والجـــذر هو قانون سرمدى ، والحكمة أن نعـرف ذلك القانون »٠

الصين
أعجوبة الدنيـــا الثامنة

ان رزقت ولدا ، كن حذرا ولا تاخذه فوق السـور ،
واذا ولدت لك بنت اطعمها وارعها ولا حاجة بها ان
تعرف كيف تكوم الجثث والعظام فوق بعضها عند اسفل
السور ٠

شوى شنغ شو ، الفصل الثالث

انه أكبر بناء شيده الانسان وأضخم أثر لقوة ارادته ، فمنذ أكثر من الفى سنة ، بل الى اليوم ، وعظمة هذا البناء الفريد تسخر من كل ما نعرفه من فنون حديثة ويطلق عليه الصينيون « وان لى شانج شنج » أو سور العشرة آلاف « لى » ، وكل لى يعادل ٥٥٠ ياردة ، فهل معنى ذلك أن طول سور الصين العظيم يربو على ثلاثة آلاف ميل ؟ لسنا فى الحقيقة ، على يقين من ذلك لأننا لا نعرف الكثير عن الصين بوجه عام ٠ وان الأمر ليقتضى أكثر من مجرد الخمسين أو الستين أو السبعين عاما التى يحياها الانسان على الأرض حتى يتسنى فهم تلك البلاد بسكانها البالغ عددهم ٤٠٠ (١) مليـون نسمة وتاريخها الذى يمتـد الى خمسة آلاف سنة خلت ٠ وكل ما نستطيع قوله هو أن أكبر أمة فى العالم شيدت أضخم سور على وجه الدنيا ، فأبعاد هذا الثعبان الحجرى جد مذهلة وتشعباته معقدة محيرة

(١) تعداد الصين حاليا يبلغ حوالى الف مليون نسمة ـ المراجع

وما من مكتشف أو رحالة أو خبير رسم الخرائط الجغرافية برهن على أنه أهل للاضطلاع بمهمة تحديد أبعاده .

ولعل طول السور نفسه يصل الى حوالى ١٥٠٠ ميل «فحسب». غير ان الصينيين بنوا أسوارا فرعية صغيرة تكفى لان تحيط بدول فى مساحة بلجيكا ، انها مجموعات من الأسوار مثنى وثلاث لو امتدت فى خط واحد من طرف الى آخر لربطت انجلترا بأمريكا عبر الأطلنطى ، ذلك السور الذى يمتد على طول الحدود الشمالية للصين فيفصل الارض الزراعية عن السهول الجرداء ، والصين عن منغوليا ، والفلاحين من البدو ،

ويبرز من السور أربعون ألف برج ، وسر نتوئها هو أن معظمها شيد قبل أن يقام السور ، ولم يرتبط به الا فى فترة لاحقة ، وكان السور أصلا سدا من التراب بالغ الطول ، وهو الآن مبنى بالأجر .

بعد أن تجولت على طول هذا السور بوسعى القول اننى اكتسبت خبرة حقيقية ، فباستطاعة المرء أن يسير تجاه الغرب أياما وأسابيع وأشهر ومع كل خطوة يخطوها يبدو البناء بأكمله كأنه يزداد غموضا اذ أنه يخترق الجبال فى أعلى قممها وينعطف على طول السلاسل الجبلية الشاهقة وتشق أبراجه عنان السماء ثم لا تلبث أن تهوى فجأة من ارتفاع شامخ وتنحدر الى الاعماق السحيقة ، فالمنظر يوحى بالوحشة المتناهية لوجود جبال جرداء داكنة وسهول مهجورة تلفحها الرياح العاتية دائما أبدا .

والسور مشروع دفاعى ضخم فقد استطاعت فرق عسكرية بكامل قوتها أن تزحف فوقه وأن تتسابق العربات حيث لا يكون الطريق شديد الانحدار فضلا عن امكانية ايواء وحدات عسكرية كاملة به ، فقد زود بحصون ومراكز للاشارة ومستودعات للمواد الغذائية ومخابىء وسجون ونوافذ تطل منها فوهات المدافع .

وأخيرا أعلنت الصحف أن الحكومة الصينية تبيح للمواطنين هدم السور واستخدام الأجر فى بناء الديار ، ثم أعربت الحكومة عن أسفها على تلك الخسارة الثقافية بيد أن السور لا يسعه — لو استطاع الى ذلك سبيلا — الا أن يسخر من مثل هذا الهراء فلقد ظل الناس طيلة ألفى عام يسطون على آجر السور وأحجاره فلم يحدثوا به أثرا يزيد عما يحدثه طائر بحد منقاره على جبال الهملايا .

والسور عمل صينى لاشك فيه ، فما من شعب آخر أوتى من النشاط والمثابرة ما يمكن من جمع الكمية الهائلة من الاحجار اللازمة ، كما أن الصينى يحب العزلة ، ومن ثم تحيط الاسوار دارة ومدنة ، ولو وضع

السور العظيم وغيره من أسوار المدن فى شمال الصين فى خط واحد يمتد من طرف لآخر لأحاط بالكرة الأرضية عند خط الاستواء ٠

وحين شرعوا فى بناء السور سنة ٢١٤ ق ٠ م كانت شعوب البحر المتوسط تقف مشدوهة أمام عجائب العالم القديم السبع وهى : —

١ — حدائق بابل المعلقة التي تحلق شاهقة على ارتفاع ٤٣٠ قدما تستقبل المسافر من على بعد ، فعلى أقواسها القوية ترتكز الشرفات بزهورها العجيبة ، ومياه بركها تتلألأ حين تسطع عليها أشعة الشمس ، وأشجارها تشق عنان السماء الزرقاء ، ونباتاتها المتسلقة تلتف برشاقة حول هذه الاشجار ٠ وكانت المضخات تعمل ليل نهار فى رى تلك الحديقة الشاهقة البناء التى أقامها ملك آشور لتكون مقرا لمتعة الملكة شامورامات التى دعاها الاغريق سميراميس ٠

٢ — هرم الملك خوفو بالجيزة ، تلك الأعجوبة الوحيدة من عجائب الدنيا السبع التى ما برحت موضع اعجاب الى هذا اليوم ٠

٣ — معبد ديانا فى افسس الذى بدأ بناؤه سنة ٧٧٢ ق٠م ، وظل آلاف العمال مائتى سنة يعملون فى تشييد تلك المعجزة وعشية أن ولد الاسكندر الأكبر أشعل النار فى هذا المعبد رجل يسمى هيرواستراتوس (Herostratus) بدافع من الرغبة فى شهرة خالدة ٠

٤ — تمثال زيوس الأولمبى لفيدياس ، وهو تمثال من ذهب وعاج أكمل صنعه فى ايس (Elis) سنة ٤٣٥ ق ٠ م لقد بلغ من الكمال والجمال ما حمل على الاعتقاد بأنه عمل لا يبارى ، وفوق قاعدته نقشت الكلمات « اننى من صنع فيدياس الأثينى » ٠

٥ — ضريح الملك موسولس (Mausolus) ، وهو بناء اسطورى تخطه أعمدة أيونية تم بناؤه سنة ٣٥٤ ق ٠ م عند هاليكارناسوس ٠ ولم يدفن موسولس فى هذا القبر اطلاقا ، ذلك أن أرملته ، كما تروى احدى الأساطير ، قد وضعت رفات زوجها فى كأس من الخمر النادر واحتست المزيج المريع حتى الثمالة ٠

٦ — منار فاروس بالقرب من الاسكندرية الذى كان يرى شعاعه من على بعد مائة ميل فى البحر ، ولقد أكمل بناء البرج سنة ٢٨٣ ق ٠ م وظلت النيران تشتعل فى قمته العليا ١٥٠٠ سنة كاملة ٠

٧ — تمثال رودس الذى بلغ من الضخامة ما كان يمكن سفينة كبيرة من أن تمر بين سيقانه وهى تمخر عباب الماء ٠ وانتهى العمل من هذا

التمثال سنة ٢٨٠ ق ٠ م بعد أن دام اثنتي عشرة سنة ٠ ولقد استخدمت في صنعه كمية هائلة من المعدن فكان ابهام التمثال أكبر من أن يحوط به ذراع انسان ، أما العدسات الزجاجية التى انتزعت من رقبة التمثال العملاق فقد استخدمت كنوع من منظار يمكن الرائى من أن ينظر من على بعد ٢٥ ميلا عبر البحر ٠

كانت هذه هي عجائب العالم القديم السبع ، ولم يكن سور الصين العظيم الذى يفوقها جميعا عظمة وروعة ، من بينها فقد كانت الصين بعيدة جدا وورود أنباء عن الصين ، وهو ما يصعب علينا الحصول عليه الآن ، الى منطقة البحر المتوسط كان يعد من نسج الخيال فى هذه الايام ٠

وفى سنة ٢١٨ ق ٠ م انطلقت فيلة هانيبال ذات العين الواحدة تحرك ببطء عبر جبال الألب ، حين زحف القرطاجيون على روما ابان الحرب البونية الثانية ، وفى ذلك الوقت الذى أشرفت فيه انتصارات القدامى فى ميدان فن العمارة على الانتهاء ، جالت بخاطر عبقرى شبه مجنون فكرة بناء السور العظيم ، أما الرجل الذى ابتدع هذا المشروع الضخم فهو « شين شيه ــ هوانج ــ تى » أول أباطرة شين الذى أراد لأسرته الحاكمة البقاء أبد الدهور فيعرف من يخلفه من الأباطرة « الثانى » و « الثالث » وهلم جرا وتخلد امبراطوريته ويمضى العمل فى السور قدما دون توقف : كان هذا الامبراطور رجلا ذا أنف مقوس بارز وعيون ضيقة متقاربة ، وصدر كصدر أحد الطيور الجارحة ، وصوت كصوت ابن آوى ٠ لقد أقسم على أن يمحى تاريخ الصين من قبله ولا يبقى له أثرا ، وأن يقضى على كل ذكرى للولايات التى قاتلته بهدف بسط نفوذها عليه ٠

وهكذا أخذت النيران تشتعل فى دور المخطوطات المشيدة بالخيرزان والسجلات العلمية ، كما انطلق الدخان يتصاعد من كتاب الأغانى لكونفوشيوس واحترقت أقوال المفكرين ٠ وكان الهدف هو القضاء على روح التقليد الى الأبد ٠

ولما احتج العلماء لدى الامبراطور شيه ــ هوانج ــ تى على هذا التدمير الشامل أمر بأن يقذف بهم الى هوة سحيقة حيث أخرسهم الى الأبد رميا بالحجارة ، وتبعهم النقاد والساخطون وفوق أجداثهم ترعرعت حقول البطيخ الممتلىء ٠

ولم يكن شيه ــ هوانج ــ تى يؤمن بأنصاف الحلول ، فقام ببناء السد الترابى الضخم ، الذى صار فيما بعد السور العظيم ليكون حاجزا

حاميا من أسلاف المغول وقبائل الهون البدو (وكانوا يعـــرفون آنذاك بالشياطين) الذين كانوا يهددون الحدود الشمالية للصين بصفه دائمة ٠ فبعث بآلاف الناس للعمل فى الجبال المقفرة من بينهم الجنـــود وأسرى الحرب والمجرمون وعلية القوم الفاسدون والعلماء الذين لم يسلموا الكتب المحظورة لاحراقها ، والمفكرون المربكون والموظفـون المتملقون ، وانطلقت القلاع وأبراج المراقبة تحلق شـــاهقة فوق الارتفاعات الشامخة وأقيمت الحاميات فى الوديان وكانت الرياح الباردة فى فصل الشتاء تهب من سيبريا على هذا الجيش العرمرم من العمال دون هوادة ، وفى الصـيف كان النسيم الحار يهب فيملأ عيون أولئك البؤســـاء وآذانهم بالأتربة الناعمة ، وكان السور بمثابة الهام لقصائد الحنين الى الوطن ورسـائل الشوق والأغانى الحزينة ، كما انطلق غناء الرجال الحزين ــ وهم يسقون خيولهم من البرك أسفل السور العظيم ــ يدوى فى سماء الريف الموحش ٠

وتعجز الكلمات عن التعبير عن مدى ما تطلبه بناء ذلك الجبل من دماء ودموع وآلام ، لكن هذا لم يشبع حاكم العالم الأول ٠ ولضـمان سلطانه الذى جن به استدعى أغنياء البلاد الأقوياء فيها الى عاصـمته هسيان ــ يانج التى لا تبعد كثيرا عن هسيانفو (Hsianfu) الحديثة حيث يتسنى له مراقبتهم عن كثب ، فضـلا عن ان وجودهم قد أكسب عاصمته مركزا مرموقا وأضفى عليها جوا من الأبهة ــ وقد قسم امبراطوريته الى واحد وأربعين ولاية ، ووضع نظاما للموازين والمكاييل ، وطور طريقة الكتابة وشق الترع وأقام شبكة واسعة من الطرق ، كما سيطرت جيوشه على الأراضى الممتدة جنوبا حتى كانتون وامتد نفوذه الى تونكنج الحديثة فى الهند الصينية ، ولعله كان واحدا من أقوى الأباطرة فى التاريخ ٠

وبالقرب من عاصمته هسيان يانج شيد الامبراطور قصورا عدة ومازال يوجد حتى الآن سور طمبى على بعد ثلاثة أميال تقريبا شمال غربى المدينة لا تزال به الفتحات التى كانت تستخدم ولا شك ، كبوابات ٠ أما مقره الصيفى فقد أقيم فى متنزه رائع يعرف « بغابة جلالته » ولقد عمل فى تشييد هذا الصرح الذى يسمى « بقصر آه فانج » نحو سبعمائة ألف أسير ، كما بنى الامبراطور ١٧٠ قصرا فى مساحة لا يزيد نصف قطرها على ستين ميلا واستولى على جميع الأعمال الفنية والأحجـــار الكريمة والأخشاب النادرة من البلاد التى هزمها جميعا ، وفى تلك القصور عاشت نساء الصين اللائى يجل جمالهم عن الوصف ٠

ويقال ان قصر الامبراطور الرئيسى يضم غرفا تبلغ من الكثرة انه لو عاش فى كل غرفة يوما واحدا لاســـتغرق منه القصر بأكمله ستة وثلاثين عاما ٠ وهذا يقربنا من السر الدفين لذلك الطاغية فقد كان ، شأنه

شأن جميع الحكام الآسيويين المستبدين ، يعاني من جنـــون الاضطهاد فأدرك الناس ضعفه وحذروه من النوم في غرفة واحدة ليلتين متتاليتين — ولذا راح يبدل غرفة نومه كل ليلة ، وفي الغسق كان موكب صامت من الخصيان ونساء الحريم يحمل الوسائد وأغطية الأسرة الحريرية يســير عبر دهاليز قصره التي لا نهاية لها ·

وكان شيه — هوانج — تي يتقد نشاطا لا يتطرق اليه الكلل ، فكان يروح ويغدو في ربوع امبراطوريته ليشرف على مشروعات البناء والادارة الحكومية ، وكان اذا سخر منه الناس يظهر فجأة كشبح ، وكانت هـذه اشارة بحفر حفرة لدفن المواطن الوقح ، وكان الموت مصير كل من خالفه ·

ولكن الامبراطور أراد أن يعيش الى الأبد فعمل الســحرة — وهــم الكيميائيون في ذلك الزمان — ليلا ونهارا ليضعوا له « اكسير الحياة · ولما نما الى سمع الامبراطور أن ثمة جانا في جـــــزر « بنج لاى » التي يحتمل انها اليابان ينبتون عشب الحياة ، أرسل ثلاثة آلاف من الشباب رجالا ونساء عبر البحر لجمع بعض منه ، وكان مما يروى ان جـــلود الحيوانات هناك كلها بيضاء كالثلج وان القصور والأبواب بلا استثناء مصنوعة من الذهب والفضة ، وان السعادة الدائمة تخيم على سكانها ، بيد أن الرياح المضادة حالت دون نزول الزائرين من الشـــبان بأرض الجزر ، ومات الامبراطور سنة ٢١٠ ق · م ·

فما كان من خصيان القصر والمستشارين الا أن راحوا يهمسون بالقول « لكن ينبغي ألا يموت » · ومن ثم وضعوا جثة الامبراطور الهامدة في هودجه وانطلقوا يطوفون به في ربوع البلاد حيث خاطب الجماهير الغفيرة من خلف ستار ، وبهذا الحديث ظل يواصل الحياة بعد موته · لكن رائحة كريهة أخذت تنبعث من جثته فوضعت براميل ضخمة من السمك المملح قرب هودج الامبراطور حتى تخفي رائحة السمك رائحة الامبراطور ، فتاريخ الصين رائع في الواقع لانه يجمع بصورة لا مثيل لها بين الشعر والمرح والعظمة ، وأخيرا وبعد تسعة أشهر لم يعد السمك قادرا على أداء مهمتــه مما حتم دفن الامبراطور ·

ودفن الامبراطور أسفل تل يدعى « جبل الجياد السوداء » وكان مثواه الأخير الذي بدأ في بنائه عندما ارتقى العرش ، بنفس فخامة قصوره مما يدل على انه لم يكن واثقا كل الثقة من اكسير الحيــاة الذي أعده سحرته ، فراح آلاف العمـــال يعملون في تشييد ذلك الضريح الذي اكتست أرضيته الداخلية بطبقة من البرونز ونقش لحده برسومات رائعة

هي صورة طبق الاصل لما في قصوره ومبانيه الحكومية ، كما زود بالذهب والفضة والجواهر . وفي النهاية استقر تابوته ، وبلا ضجيج أخذت أنهار الزئبق تتدفق الى قلب الضريح كما نصبت الاقواس الآلية المتقاطعة لتضمن الموت المحقق لكل من يدنس المحراب المقدس وأضيئت المشاعل الصناعية لقشع الظلام ، ودفنت نساء قصر الامبراطور اللائى لم يسعدهن الحظ بانجاب الأبناء مع سيدهن أحياء ، وبينما كان العمال الذين كانوا على بينة من أسرار المقبرة يشقون طريقهم ليعودوا الى ديارهم بعد أن فرغوا من أداء مهمتهم أغلق في وجههم باب خفى ليبقيهم داخلها مدى الحياة . وأخيرا أحاطت بهذا الصرح الرائع بأكمله الأشجار والزهور حيث استقر الامبراطور ..

لكن السور ظل قائما . وكان يشكل ، مثله مثل كل قلعة أخرى ، حصنا منيعا ضد الهجمات حين تبدو قواته في روح معنوية عالية ، فان وهنت تلك الروح المعنوية كان السور يفقد الهدف من اقامته . والواقع انه خلال معظم الألفي سنة الماضية برهن السور على أنه أقل فائدة من أى بناء أقيم في تاريخ البشرية .

وعندما يتجول المرء على طول السور بينما تقف منغوليا على جانب والصين على الجانب الآخر يميل المرء الى أن يحلم بتاريخ الصين العريق . وبعد موت شيه ــ هوانج تى سرعان ما اختفت قصوره من على سطح الأرض بفعل لهيب الثورات ، فما لبث أن حل عصر أباطرة هان (Han) المزدهر الذين حكموا من ٢٠٦ ق . م الى ٢٢٠ بعد الميلاد وأسسوا العاصمة الجديدة شانج آن « مدينة السلام الطويل الأجل » بالقرب من أطلال « هسين يانج » وأنجبت تلك الأسرة حكاما عظاما بحق أمثال الامبراطور وين (Wen) « الامبراطور المثقف » وابنه شينج (Ching) « الامبراطور المتألق » وكان الامبراطور المثقف رجلا مقتصدا يرتدى الثياب السوداء الحريرية البسيطة ، كما كان يحس بخجل من الثراء الفاحش الذى ورثه عن أبيه .

ولم يشيد الامبراطور «وين» أية قصور أو مقار صيفية ، وأبقى زوجته المحبوبة بعيدا عن الحاشية المسرفة ، وصار الناس أغنياء قانعين حتى ان الصينيين يتوقون في الوقت الحاضر الى أن يعتبروا « كأبناء هان » ، ثم جاء امبراطور آخر من أسرة هان اسمه ووتى (Wu Ti) أو « المحارب » الذى استطاع في الفترة ما بين ١٤١ و ٨٦ ق . م أن يحيل الصين الى دولة عظمى في الشرق الأقصى ، كما كان دبلوماسيا بارعا سعى الى تكوين حلف بين الشرق والغرب ضد الهون أو هسيونج نو . ولتحقيق هذا

الهدف أرسل مبعوثا يدعى شانج شين فى رحلة الى نصف دول العالم فبلغ بلادا بعيدة كتاكتريا وسوجديانا حتى بلغت أنباء الصين روما فأثارت الاهتمام البالغ بسريكا (Serica) أو « بلاد الحرير » فبدأ ينتقل عبر طرق القوافل الى روما واليونان ، كما تحدث بطليموس عن عاصمة الحرير فأطلق عليها « عاصمة سيرا » وشرعت أول شحنات الخوخ والمشمش ، وهى فواكه صينية تصل الى أوروبا ٠

ويزحف السور ممتدا بغير نهاية عبر سسل الجبال والصحارى بقدر ما يمتد تاريخ الصين عبر القرون ، ولانزال نسمع دوى المعركة الضروس التى خاضها التتار ، وهم يندفعون فوق السور فى الفترة ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ بعد الميلاد حين كانت الأسر الحاكمة الضعيفة تتقهقر أمامهم ٠ وفى الفترة ما بين ٦١٨ و ٩٠٦ م ارتقى أباطرة تانج عرش الصين فشهدت البلاد عصر ثقافة رفيعة ، كما كان عصر قرف وبذخ وطيش ٠٠

وكان هذا عصر ازدهار للشعر الصينى حين بلغت الصين ذروة مجدها الثقافى وهو من أروع العصور التى عرفها العالم ، فمن بين الاعمال الادبية الرائعة التى تمت فيه نسخة مشروحة هائلة لمؤلفات كونفوشيوس الى جانب ٤٨٩٠٠ قصيدة شعرية ودار رائعة لكتب تضم ٥٤ ألف مجلدا ، كما ظهر فى البلاد ٢٣٠٠ ١ من فحول الشعراء ووفد رهبان بوذا من الهند وجاء المبشرون من ايران والمسيحيون النسطوريون من أواسط آسيا ، ولقد جذب الامبراطور تاى تسونج الى بلاطه أولئك الباحثين وعلماء الدين على اختلاف مذاهبهم ، بينما ظل هو على ولائه لكونفوشيوس ، فتلك هى الحقبة التى شهدت لى تاى ـ بو (Li Tai — Po) أكثر شعراء الصين ذكاء ، والامبراطورة الطاغية « ووهو (Wu Hu') التى بترت ذراعى وساقى منافستها وأحالتها الى « خنزيرة بشرية » كما كان عصر « يانج كوى ـ فى » (Yang Kuei Fei) محظية الامبراطور التى أمرت خصيا بأن يشنقها والتى لا تزال الى اليوم تقوم بدورها المرعب فى مسرحيات الصين الكبرى ، كما كان عصرا يرقد الموتى فيه فى فراش مليئة باللآلىء ، وتنحت التماثيل الصغيرة من الياقوت وتصنع الأوانى من الزمرد ، وتطعم روائع أدوات المائدة بالأحجار الكريمة الخضراء ٠٠ عصر ملأ فيه آلاف العمال مصانع الحرير بضجيج عجلات الغزل وصخبها كما كان عصرا ذهبيا للنحت والرسم فى الصين ٠

ومن المرجح أنه لو ارتقى الصينيون بكتاباتهم بالقلم أو الريشة بدلا من الفرشاة لما بلغ فن الرسم الصينى ما ارتقى اليه من عظمة وروعة ، فلقد ظلت فنون الرسم والكتابة تتطور جنبا الى جنب أكثر من ثلاثة

آلاف عام لتسفر عن أروع عمل للفرشاة ، ولذلك يبدع الفنانون الصينيون منذ قرون أروع المنسوجات الحريرية التى لا تمحى رسومها ، وانتقلت أروع الرسومات عبر الاجيال ، وكان من يجمعها يطبع عليها خاتما أحمر دليلا على ملكيته لها كما يضيف بخط يده فى أعلى قطعة الحرير تقييما للعمل الفنى ، غالبا ما يكون فى صورة شاعرية : ومع ان الكتابة التى اضافتها الأجيال المتعاقبة وفك رموز الاختام زادت حقا من اعجاب الصينيين أخيرا برسوماتهم الا ان اهتمام الشعراء الصينيين القدامى ، كما ينتظر من أمة أنجبت كونفوشيوس ولاوتسى ، قد انصب على أعمـال الطبيعة لا الانسان ، ومن ثم فان وصف المناظر الطبيعية كان أروع ما حققوه من نجاح ٠

وأعقبت تلك الفترة قرون سادتها الفوضى والفقر والتفكك خلفتهـا ثلاثمائة عام هامة من حكم أسرة سونج تميزت بنهضة فى ميادين الأدب والفن وتطوير مبادىء كونفوشيوس كما تمخضت عن رسومات بديعة الى جانب صناعة الخزف والصينى ٠

ثم وفد فاتحون جدد ليبدعوا عصر المغول ، وسـار جنكزخان صوب الغرب وكوبلاى خان تجاه الشرق ، وتربع الاخير مزهوا على عرش التنين فى بكين حين قدم ماركو بولو (Marco Polo) ، الذى كان قد بدأ رحلته من البندقية ليطوف بربوع آسيا فروض الطاعة لامبراطور المغول ٠

وارسلت جيوش جديدة من العمال الى السور العظيم يقدر عددها بمئات الألوف وأقام أباطرة منج (Ming) لأنفسهم بالقرب من بكين ونانكنج (١٣٦٨ ــ ١٦٤٤) مقابر فخمة تقف على جانبى كل منها تماثيل حيوانية ضخمة ، مما برهن على انه اجراء احتياطى حكيم فمصيرهم هو مصير البشر جميعا ٠

ومن الغابات الشمالية ، منشوريا الحديثة ، جاء أمراء طموحون شـقوا طريقهم ببطء الى بـكين ، انهم أمراء التونجرس (Tungus) السادة الأجانب الذين هجروا غاباتهم لينعموا برفاهية الجنوب ٠

أما الذى لم تنل منه تلك التغييرات جميعها فهو جمال نساء الصين وسحرهن ، ومن ثم استسلمت لهن كل أسرة حاكمة بدورها حتى أولئك الأمراء المتبربرون الذين وفدوا من شمال منشوريا والذين راحـوا بين أحضان معشوقاتهم الصينيات يصطبغون بالصبغة الصينية رويدا رويدا وعلى حين ان الصينيين أخذوا عن التونجرس خصل الشعر عن طيب خاطر ورضى اندمج التونجرس أنفسهم مع الصينيين شيئا فشيئا ، وتحت لواء

أولئك الحكام الذين أتوا من منشوريا وحكموا من سنة ١٦٤٤ الى ١٩٢١ ربما أضحت بكين أجمل بلد فى العالم ، وأثناء كتابة هذه السطور وبينما الامبراطور بويى (Pu Yi) ، آخر سلالة الحكام من منشوريا ، الذى لا يزال على قيد الحياة لكنه مسجون سياسى ، ما يرح يتساءل عن سبب انهيار ماضى الصين العظيم .

ان الأمر فى الواقع يلوح سرا غامضا غير مفهوم .

الصين

لى تاى ــ بو الخالد وهو ثمل

يا صاحب الجلالة ان عيب هـذا العبقرى الوحيد لنكد الطالع « انه يحتسى الخمر » ·

هوشية شانج

كان ظلام فجر العصور الوسطى لا يزال يغشى أوربا حين بدأ النبى محمد (ص) ينشر تعاليمه الدينية فى شبه الجزيرة العربية ·

وكانت الصين آنذاك تقف على أعتاب عصرها الذهبى ، عصر أسرة تانج (٦١٨ ــ ٩٠٦) م ، وكان الامبراطور « تاى ــ تونج » (٦٢٧ ــ ٦٥٠) والامبراطورة وو هو (٦٨٤ ــ ٧٠٤) والامبراطور هوان تسونج (٧١٣ ــ ٧٥٥) هى الأسماء الطنانة التى ظلت ثلاثة قرون تفرض سلطانها على حقبة أسرة تانج الحاكمة ، وكان واديا النهر الاصفر ونهـــر يانجتسى الخصيبان يتألقان وهما يكتسيان برداء الأرز الأخضر الشـاحب وكان المزارعون يحرثون الحقول ، وهم قانعون ، بين قنوات تتلألأ وبحيرات تلمع ، وكانت « شانج آن » العاصمة ــ مدينة « هسيانفو » الحالية باقليم شنسى ــ أعجـوبة زمانها اذ راحت تحلق شاهقة فى سماء المدينة الى جانب القصر الرئيسى بأبوابه التسـعة سـتة وثلاثون قصرا صـنعت أعمدتها من الذهب ، وفيلات الأمراء المختلفين التى فاقت كل منهـــا الأخرى روعة وجمالا · وكانت الشوارع تموج بالناس وبالأشراف وهم يمتطون صهوة جيادهم وبعربات يجرها ثيران ســــوداء ، وانطلقت الحسناوات ذات الوجوه الشاحبة كالقمر ترقص فى أماكن اللهو العديدة

فكانت حيـــاة الصـــين مطبوعة بروح بوذا وكونفوشيوس ولاوتسى ، أما « شانج أن » ، العاصمة الحقيقة ، فقد جذبت اليها السوريين والعرب والفرس والتتار وأهل التبت وكوريا واليابان وتونكنج ، ففيها كان يعلم الخط والرياضة والموسيقا ، وكانت أرفف المكتبة الرائعة تضم ما يزيد على مائتى ألف مجلد كما كان بالمدينة مدارس للتمثيل الى جانب النقاشين والرسامين والموسيقيين ، ومن بين فتيات القصر الثلاثة آلاف كانت يانج كوى نشهيرة أكثرهن حسنا وجمالا .

وفي عصر تانج احتل الشعر المقام الأول بين الفنون ، وكل من حظى بالشهرة كان شاعرا وليس فى هذا القول مغالاة ، فديوان شعر أسرة تانج كان مكونا من ٩٠٠ مجلد تضم أكثر من ٤٨٩٠٠ قصيدة نظمها ما يربو على ١٢٣٠٠ شاعر . ولما كان الديوان قد جمع حديثا فى القرن الثامن عشر فانه لا يضم الا المؤلفات التى لم تعبث بها عوادى الزمن ، ويكاد يتعذر علينا أن نتصور غاية الشعر الساحرة التى ترعرعت فى تربة عصر أسرة تانج الخصيبة .

. بوسعنا فى مثل هذه الظروف ن نتصور معنى اجماع الصينيين على أن لى تاى ــ بو هو الأعظم بين هذا العدد الغفير من الشعراء الخالدين ، ولم يكن فى نظرهم أعظم شعراء عصر تانج فحسب ، بل أعظم الشعراء فى جميع العصور ووصفه كاتب صينى مرموق بقوله : « ان لى تاى بو هو القمة الشاهقة التى تحلق فوق عشرة آلاف جبل وتل ، وهو الشمس التى فى ضوئها يخبو بريق ملايين النجوم » .

ولعل لى تاى ــ بو وجد فى عصر مثالى فى نظر الشاعر ، فشـــهد ، ولاشك ، عصر سلم ورخاء ، وحقبة عظيمة انتشرت فيها الثقافة ، ولاقى تكريما وفهما وتذوقا للأدب ، وسمع روايات الحروب البعيدة ، ورأى مؤامرات البلاط فى زمنه . وفى نهاية المطاف عاش أثناء ثورة وأثنـــاء غزو التتار وشاهد سقوط الامبراطور هسوان ــ تسونج .. فهى مسرحية بلغت من الروعة والعظمة ما يفوق التصور .

وكان لشاعر الصـــين العظيم قدرة هائلة على الاستمتاع بالحيـــاة ، فكان يدمن الخمر ويكثر من التجول والترحال ويعشق الحسناوات من النساء ، لقد شيد له أحد المغرمين به من بين الارستقراطيين غـــرفة يحتسي فيها الخمر ، ودأب لى تاى ــ بو على أن يصحب فى رحلات ترفيهية ذلك الرجل الذى كان يدعى تونج تسا ــ شيو ، لكن لم يغب عن باله يوما أن يصطحب معه عددا من المغنيات الجميلات .

وفي السابعة والثلاثين من عمره وفد الشاعر الى شانتونج حيث التقى بمنافسه الأكبر توفو (Tufu) شاعر الصين الثاني الخالد ، واجتذب الرجلان كل منهما الآخر بشدة كنجمين مذنبين يسبحان في الكون ولا يتصل أحدهما بالآخر الا كل بضعة ملايين من السنين ، وصارا صديقين حميمين وظلا يتبادلان القصائد طيلة حياتهما ، ولقد عاش الشاعران في منزل واحد وتحت غطاء واحد وسارا معا يدا في يد كأنهما اخوان شقيقان •

واعتاد لي تاي يو أن يقف مخمورا شارد الفكر فوق الكبارى وبين أطلال القصور القديمة يسترجع الماضي أمام عيني عقله ، كما كان يجلس بجوار البحيرات ويستمتع بأزهار اللوتس • وفي شوق لأن يحتضن العالم بأسره انطلق يتسلق التلال ويجوب الوديان محلقا على أجنحة الخمر ، فما لبث أن وقف سنة ٧٤٢ أمام أبواب شانج أن ـ العاصمة ، حيث التقى به هوشيه ـ شانج ، أحد ضيوف الامبراطور ، فافتتن به وما أن لمح حاجة الشاعر الى الخمر حتى باع قطعة من الذهب ليشترى له برميلا من الخمر وقدمه الى الامبراطور قائلا : « في منزلي أعظم شاعر وجد على قيد الحياة ، ولهذا العبقرى ، يا صاحب الجلالة • لسوء الحظ عيب واحد يصعب أن يبرأ منه ، انه يشرب الخمر ، بل ويكثر من الشراب أحيانا ، غير أن شعره رائع • والقول الفصل لجلالتك » •

هكذا ألقى لي تاي ـ بو أشعاره في حضرة ابن السماء في قاعة الأجراس الذهبية ومع ان الامبراطور كان شديد الاتزان والرزانة الا انه سرعان ما ثمل بما سمع فأقيمت له وليمة على مائدة الجواهر السبع تكريما له ومنح كرسيا في أكاديمية « هان لين » حيث لم يكن له من عمل غير قرض الشعر ، كلما دفعته روحه الى ذلك • وانضم الى الولائم مع سيدات القصر وأمرائه كما كان يزور حانات المدينة على انفراد حيث كان يشبع نفسه بالخمر ويخلد ندماءه بالشعر •

ومات لي تاي ـ بو في المدينة التي تدعى اليوم تاي بنج باقليم الهوى ، فكيف واجه هذا الرجل الفذ الموت ؟ لقد قابله بهدوء ، بل قطع مسافة قصيرة لملاقاته ، فقد كان جالسا في قارب ذات أمسية جميلة كانت أشعة القمر فيها ترقص فوق صفحة الماء ، واذا هو يتجرع آخر كأس من الخمر ، قرر القيام بما لا يقوى عليه غير شاعر الصين الأعظم حين اتكأ على حافة القارب العليا وراح يحتضن بذراعيه أشعة القمر المنعكسة وتوارى عن الأنظار • وهكذا صار موته ذاته قصيدة شعرية •

وأراد لى تاي ـ بو أن يدفن فى التلال الخضراء بالقرب من تاى بنج حيث قضى أسعد أوقات حياته فى الهواء الطلق يجوب الطرقات تحت الاشجار الزاهرة والكواكب المتألقة ، فكانت الطبيعة هى التى توجـه الفرشاة التى سطرت قصائده الخالدة · وكان يدرك حتى فى ذلك الحين أنه سوف يواصل الحياة فى عالم آخر · وكتب يقـول « لماذا أنا الآن تحت التلال الخضراء ؟ اننى أضحك ، ومع هذا لا أحار جوابا ، ان نفسى الآن نقية تماما ، أنها تنعم في سماء أخرى ، والأرض ليست ملكا لاحد ، وأشجار الخوخ تزهر والمياه تفيض وتفيض » ·

لقد أراد لقصائده الخلود ·· كانت تلك هى الرغبة التى ملكت عليه حياته ومن ثم لا يزال يحدثنا الى اليوم وبعد ألف ومائتى عام ·

انظم الشعر فى وحدتى
ويموج الخيزان كالبحر ، ويتساقط الندى
من الشجرات كخيوط من لؤلؤ
وأنثر الشعر فوق الورق اللامع
كما تتناثر أزهار الخوخ فوق الثلوج
كم من الزمن تبقى رائحة اليوسفى
اذا حملتها سيدة تحت ذراعها ؟
وكم يظل الثلج فى ضوء الشمس
فليت هذه القصيدة التى اسطرها
الآن تدوم الى الأبد والى الأبد والى الأبد

الصين

بكين أجمل مدينة في العالم

حين يدنو المرء من بوابة المدينة الخالدة يرى من على بعد السرادقات الخمســة فوق « تل الفحم » تشق عنان السماء ، كما يشهد تيها من الردهات فى قصر يكســوه الضباب والأمطار ٠

قصور بكين : بقلم : هسيه شو ١٩٣٨

كانت بكين مدينة لا تضارع في زمانها ٠ لقد كانت تقوم مقــامها احدى القرى فى ١١٢١ ق٠م ، وبعد مضى ألفى سنة أى سنة ٩٣٦ ، هجم التتار على المدينــة واستولوا عليهــا ٠ ثم استردها الصينيون سنة ١١٥١ ، ولكن لم تمض مائة سنة أخرى حتى كان المغول يعسكرون أسفل أســوار المدينة الهائلة بقيادة جنكزخان ، أشــد رجال عصره رهبــة ، ولما فرغ ما بالمدينة من معدن فى صناعة قذائف المدافع ، بدأ المدافعــون فى صهر الفضة ثم الذهب فى نهاية الأمر حتى أن أفواه مدافعهم راحت توجه طلقات من الذهب الى معسكرات المغول ، لكن المغول استولوا فى النهاية على المدينة ودمروها ليعيد كوبلاى خان بناءها ٠ لقد اضطلع كل فاتح جديد ببرنامجه للمبانى أمثال اباطرة مينج واباطرة مانشو ، وأخيرا الاوربيون أنفسهم الذين أقاموا مدينة الحديقة الصغيرة التى تعرف بحى السفارات ، وفى الفترة ما بين ١٤٢١ و ١٤٢٨ صارت بكين عاصــمة الصــين وفى أسوار الحصن القــديم يقوم اليــوم سادة جدد ، وعادت

بكين لتصبح عاصمة لهذه البلاد التى يبلغ عدد سكانها ٤٠٠ مليون (١) نسمة يخضعون في صبر لحكومتهم الجديدة ، كما سبق لهم أن دانوا لجميع الحكومات الاخرى ٠

وكان يحيط بشطرى مدينة بكين الكبيرين المربعين سور من الحجر يبلغ طوله ٢٠ ميلا تقريبـا ، يمثل الشطر الشمالى المدينة التتارية ، ويمثل الشطر الجنوبى المدينة الصينية ، وهـذا الأخير تؤدى اليه تسع بوابات بينما تؤدى ست بوابات الى القسم السابق حيث يقـوم بداخله سور مستطيل يضم حى قصور الأباطرة الذى كان الاقتراب منه محرما ٠

وكان الامبراطور يونج لو ، ثالث حاكم فى أسرة مينج ٠ هو أول من اتخذ بكين عاصمة له سنة ١٤٢١ وشيد قصورا فاقت فى فخامتها كل مبانى عصره ، وان مدينة فرساى نفسها لتتضـاءل أمام عظمة التصميم الجرىء الرائع لتلك المبانى الملكية كما أقام يونج لى المعابد والمذابح وأنشأ الحدائق والبحيرات ، والى جانب مبانى الامبراطور كانت خمسة عشر قصرا ترتفع شامخة لأسر الأمراء العديدين ، وبلغ سـمك أساس أسوار مدينه يونج لى ٦٥ قدما ٠

وفى سنة ١٦٤٣ ، أى بعد مضى ٢٢٥ سنة ، وقف آخـر أباطرة أسرة مينج فوق برجه ومعه منظار مكبر يرقب أعداءه وهم يزحفون على البلاد ٠ وفى حال من اليأس طعن ابنته ثم شـنق نفسـه بسلسلة من حديد كانت تعلق فى شجرة يمكن رؤيتها الى هذا اليوم ٠

وتكاد الكلمات الكثيرة أن تعجز عن وصف سر سحر أجمل مدينـة فى العالم ، ربما كان السر يكمن فى تناسق سـقوفها المنحدرة والبيوت الحجرية التى كانت صورة طبق الاصل من خيام قبائل البدو الدقامى ، ومن الجائز أنه يكمن فى الألوان الحمراء والصفراء لطوبها المصقول الذى كان يلمع فى ضوء الشمس ، أو فى المناظر الخلابة التى كانت تمتد من بوابة الى أخرى ومن قصر الى الذى يليه ، أو فى شوارعها الواسعة المستقيمة وبحيراتها الصناعية أو كباريها الرخامية المقنطرة أو أشجارها القديمـة العظيمة ، ويجوز أن ما يضفى على المدينة جمالها الأخاذ هى تلك الروح الوثابة التى أحالت الأحلام الجريئة الى الواقع المادى ، فى الحجر والخشب ٠

ومنذ زمن بعيد يرقى الى عام ١٢٧٩ أقامت الصين القديمة فى بكين احدث مرصد لعلم الفلك في العالم حيث كان الطلاب يدرسـون حركات

---

(١) انظر هامش ص ٢١١

الشمس والقمر والنجوم ، وعلى مقربة من المرصد أنشئت قاعات الاختبار اذ كان يتعين على الموظفين تادية اختبـارات تحريرية بلغت الامتحانات النهائية فيها حدا من الصعوبة ذهب بعقول الكثيرين ممن اجتازوها •

وكانت الأعمدة الضخمة داخل القصور ، ونقوش سقوفها والدعائم الخشبية الهائلة التى تطل على الزائر ، والجـدران الدالنه المغشاة ، وروائع الفن والبرونز والخزف والتماثيل •• كان ذلك كله مذهلا حقـا حتى ان دراسة تلك الحضارة تجعل الحقبة التى يحياها الانسـان على الارض تبدو وكأنها عقرب الثـوانى فى ساعه أبدية ، ومع أن الزمـرد الأخضر حجر قيم شبه نفيس لاسيما لشفاف منه وان قطعة غير شفافة منه فى حجم قبضـة الانسـان تساوى مبلغا كبيرا من المال ، فقـد عثر بالمدينـة التى كان يحظر الاقتراب منها على حوض القرابين منحوت فى كتلة واحدة من الزمرد الأخضر أثقل من أن يرفعه ثلاثة رجال أشداء •

وفى عصر أسرة مينج ، وخاصة فى القرن الخامس عشر ، تم صنع اجمل ما عرفه العالم من الخزف الصينى ، كما انه تحت لواء أسرة مانشو أمر الامبراطور كانج ـ هس وخليفته يونج شنج بانتاج أروع خـزف صينى فى المصنع الامبراطورى القديم بمدينة شنج ـ تى شن وحاولت مصانع الخزف الصينية دائما آن تنتج زوجا من كل ما تصنع ، أى نوعين من كل زهرية أو وعاء ويندر أن نعثر على تلك الأزواج التى ترجع الى عصر شان لونج (١٧٣٦ ـ ١٧٩٦) الا فى متاحف العالم الكبرى وتصـل قيمتها الى آلاف الدولارات سيما اذا كانت الألوان الرئيسية تزخرفها ومع هذا فهنالك الآلاف المؤلفة من هذه الأزواج تغص بها قصـور بكين من أوان صغيرة شفافة الى زهريات يزيد طولها على طول الرجل •

ومن الواضح أن بكين تؤكد صدق قول جواتاما بوذا المأثور : « من يظل ساكنا رابط الجاش فالنصر حليفه » • فثورة الصـين لم يبدأهـا ماوتسى تونج بل ولا صن يات ـ سن فتاريخها يمتد الى خمسين قرنا مضى » وهى مثال خارق لشعب بعينه يعيش فى بقعة من الأرض واحدة ، وقد ازدهرت سيادة بابل ومصر ، والعصور الذهبية ليـونان ولروما ولكنها ما لبثت ان اندثرت على مر الزمن ، أما الصين فقد عمرت من بعدهم جميعا دون أن يلحق بها أذى ، فهى لم تتشدق بالماضى ولم تحلم بالمستقبل بل عاشت على النقيض من أية دولة أخرى فى العالم من أجـل الحاضر بحكمة مكنتها من التغلب على مشاكلها جميعا ، وبصبر لا ينفد حال دون أن تأتى عملا طائشا ، وكان الزمن هو سلاحها الوحيد فلم تحاول أبدا أن تقتصر أو تندثر فى أية محاولة تقوم بها ، لقد خسرت آلافا من المعارك دون أن تمضى فى القتال حتى النهاية المريرة » عالمة أن الحرب الحاسمة

تنطوى على الاخطـار ومن الأفضـل التأجيل عن اتخـاذ القرار ، ذلك ان التأجيل يعنى البقاء على قيد الحياة · وقال لاوتسى حكيم الصين : « من ذا الذى يستطيع أن ينقى الماء العكر ؟ لو ظل ساكنا لصار نقيا من تلقاء نفسه » ·

وفي وقت كان العالم بأسره في طريقه الى التقدم تحدوه رغبة ملحة فى بلوغه ظلت « مملكة الوسط » بمعزل تعيش فى دعة ، ومع مرور الأيام وجد كل زائر أجنبى نفسه وقد تضاءل أمام عظمه الحياة الصينيه الموغلة فى القدم الى جانب سمة الارتباط بالارض التى لازمتها · فحيوية الصين البالغة ، وقدراتها الهائلة على الاحتمال ، وغريزتها الفطرية التى تمكنها من الوصول الى الحلول الوسط وجنوحها الى الشك وقدرتها على التكيف ، هى جميعها من سماتها الراسخة الأكيدة وتقوم حضارتها برمتها على أساس المبدأ القائل : « ان الحياة أفضل من المضى فى القتال حتى الموت » وقد يموت الصينيون فى سبيل مثل بعيدة المنال أحيانا وهم راغمون الا أن القسر ذاته لا يمكن أن يحملهم على أن يموتوا موت الأبطال ·

هكذا كانت الصين

فما عساها أن تكون مستقبلا ؟

وسط آسيا

جنكزخان وتيمور لنك .. مكروهان وملعونان
لما انهما موضع حب واعجاب

ان الشعوب المقهورة لن تصادق ابدا من قهروها والقضاء على المقهورين ضمان لسلامة القاهرين .

جنكزخان

تنتشر السهول فى هيئة حزام هائل من شرقى أوربا حتى يكاد يبلغ المحيط الهادى ، أى من سهول المجر عبر أوكرانيا وأراضى بحر قزوين المنخفضة وعربى التركستان الى ايران ، ومن سهول القرغيز (Kirgiz) عبر كزو نجاريا ومنغوليا حتى منشوريا وكانت هذه الأقاليم موطنا لقبائل البدو منذ الأزمنة السحيقة الغابرة .

وقد أثبت كل من روى شابمان اندروز (Roy Chapman Andews) الذى قام برحلات عديدة مبعوثا من قبل متحف التاريخ الطبيعى الأمريكى ، وهنرى فيرفلد أوسبورن (Henry Fairfield Osborne) أن آسيا تمثل مستودعا هائلا لتاريخ الجنس البشرى والواقع انهما يعتبران صحراء جوبى (Gobi) المهد الأول لمولد الجنس البشرى ، وان كائنات بشرية عاشت منذ مليونين أو ثلاثة ملايين من السنين فى جنة بدائية عظيمة تحتل مكانها اليوم منغوليا المنعزلة الخاوية . وعثر اندروز على غابات من الأشجار المتحجرة التى جفت منذ ملايين السنين عندما كان حيوان الديناصور يعيش على أوراقها ، وفى قاع نهر جفت مياهه عثر على بقايا حيوانات ثديية ضاربة فى القدم وأصداف مياه عذبة ، الى جانب هيكل لرجل يرجع تاريخه الى ما قبل عصر المغول طوله أكثر من ستة

أقدام وست بوصات . وليس ثمة شك فى أن الصيد كان يزاول فى تلك البقاع عصورا بأكملها قبل أن يتولى توت عنخ آمون حكم مصر .

اتيلا وجنكزخان وتيموز لنك .. تلك هى الأسماء الثلاثة العظيمة التى يتردد صداها فى أذاننا كلما تذكرنا فتوحات الهون والمغول العظيمة لقد هزم آتيلا عند المادن سنه ٤٥١ م ، على حين أن جنكزخان وتيمورلنك لم تحق بهما الهزيمة اطلاقا ، وأما مسألة الوصول الى حقيقة الى أى مدى استطاع أولئك القوم ذوو العيون الضيقة وعظام الوجنات البارزة التغلغل فى أوربا قادمين من الطرف الشرقى لآسيا عبر الأورال ومدى ارتباط التتار والتركستان والمغول والكالموك (Kalmucks) والبوريات (Buriats) ببعضهم عنصريا على وجه الدقة فهى مسألة تقودنا الى غابة علمية لا طائل من ورائها . ومع ذلك لايغيب عن بالنا ان اللغات الفنلندية والاستوانية والمجرية أقرب الى اللغة التركية منها الى أية لغة أخرى فى غرب أوربا .

ولم يتسن لرجل واحد أن يقهر أوراسيا بأسرها تقريبا الا منذ مضى ٧٠٠ عام ، لقد قطع جنكرخان فرسانه ١٠٠ درجة طولية تقريبا وهم يدمرون المدن التى استعصت عليهم . وغير جنرخان مجرى الأنهار وملأ الصحارى بالأسرى والمحتضرين وتركهم نهبا للذئاب والطيور الجارحة . ولم يكن دلك الملك الا بدويا يشتغل بالصيد والرعى ومع ذلك استطاع أن يحبط استراتيجية ثلاث امبراطوريات عالمية ، ورغم بعده تماما عن المدينة طوال حياته وجهله بالكتابة فانه سن القوانين لشعوب عديدة وحكم العالم الممتد من كوريا الى المجر ومن الصين حتى ايران بل وتم الاستيلاء على موسكو نفسها بعد عشر سنوات من موت جنكزخان .

وثمة مساحات شاسعة غير محدودة تقع بين منابع أنهار الكيرولين (Kerulen) والأونون (Onon) والتولا (Tula) وهى أرض يكسوها العشب وهضاب مرتفعة تعريها الريح ويضيئها فى ليالى الشتاء الثلجية بريق الشفق الشمالى الذى يكتنفه الغموض .. بلاد لاتعرف الا الحرية والهواء الطلق ، اتخذ منها الهون والترك والمغول موطنا لهم وبين جنباتها ولد جنكزخان . وكان الأطفال فى هذا الركن من شمالى جوبى يولدون غلاظ القلوب فكان لعامهم لبن الأمهات والخيول ، وعندما يشتد ساعدهم كانوا يجلسون بعيدا عن نيران خيامهم يفكرون فى قسوة حياة الشباب وفى عبث الموت بردا وجوعا ، وعندما كانت الخيول والأبقار تدر لبنا غزيرا فى فصل الربيع كانت الحياة تغدو محتملة كما كانت لحوم الذئاب والوعول تضاف الى غذائهم العادى ، أما فى فصل الشتاء فقد دأب أقوى الرجال على أن يسبقوا غيرهم الى الطعام ، تتبعهم النساء والمسنون وما تبقى فكان يترك للأطفال يتشاجرون حوله مع مشاركة الكلاب لهم

اياه وما أن يوشك فصل الشتاء على النهاية وتندر الماشية ويتعذر نحر غيرها حتى يتعلم الجميع بلا استثناء كيف يحيون مع الجوع ، واذا كان التفوق في القدرة على الاحتمال وليس في المعدات العسكرية هو الذى يقهر العالم ، فانه من اليسير أن ندرك سر النجاح البالغ الذى أحرزته حملات المغول ٠

وولد جنكزخان فى خيمةمن الوبر ، وهى مسكن متنقل تحمله العربات التى نجرها عشرات الثيران » وذات يوم حين كان تيموشن (Temuchin) كما كان يلقب جنكزخان الشاب ، لا يزال فتى يافعا حتى حل مع أبيه ضيفا على مقاتل أجنبى فى كوخ حيث استقرت عيناه على فتاة صغيرة في زاوية من زوايا الكوخ ، كانت الفتاة بارعة الجمال فسأل أباه عما اذا كان يوافق على زواجه منها فأجاب والد الفتاة بأن ابنته « بورتاى » وان كانت لم تبلغ سوى التاسعة ربيعا من عمرها الا إنه يرحب بأن يبدأ تيموشن الأب مفاوضات بشأنها ٠ وفى اليوم التالى عقد الاتفاق وتمت خطبة العروسين ٠ ولم تمض أيام قليلة حتى قتل بالسم والد تيموشن ومن يومها راح الصبى يطارد من أعدائه الذين أرادوا الحيلولة دون أن يتبوأ الأمير الصغير منصب أبيه وما لبثوا أن ألقوا القبض عليه وأوثقوه بنير خشبى لكنه استطاع الفرار ويداه وذراعاه مازالتا موثقتين بالنير ٠ كان هذا كله تدريبا تاما لقائد المستقبل وقاهره ، وتزوج « بورتاى ! » بعد ثمانية أعوام من رؤيته لها لأول مرة ٠

وبعد أن خاض معارك لا حصر لها مع قبائل التتار الممتدة أودى بجنكز « خانا » لشعوبه المتحدة فى نهاية المطاف ٠

وفى تلك اللحظة الحاسمة أعلن جكنزخان أن السماء دعته ليقهر العالم ، وانتقل هذا الايمان الراسخ بدعوته المقدسة الى جنده فقادهم من نصر الى نصر ودانت له قبل غيرها بلاد يوجورس(Uigurs) فى وسط آسيا طواعية واضحى جنكزخان سيدا مسيطرا على شعوب التار بأسرها وما لبث في عام ١٢١١ وكان قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره ، أن قاد مئات الألوف من المغول صوب السور العظيم واقتحم حصون البوابة وهزم الصين بعد غزو دام خمس سنوات ، وفى سنة ١٢١٥ سقطت العاصمة « ين ـ كنج » « بكين الحديثة » ذاتها ونهبت ثرواتها ٠

وأرسل جنكزخان وقتئذ سفراء الى تركستان فقتلهم قائد حصن الحدود الذى حاورته الشكوك فى أمرهم ، فاذا بجيش من المغول قوامه ٧٠٠ ألف مقاتل يهب للثأر ويشن هجوما عاصفا على بخارى وسمرقند ينهبهما ثم يشعل النار فيهما ، وكانت سمرقند وهى عاصمة ملكية

وأكبر مركز تجارى فى العالم ، محوطة بأسوار وحصون يصل طولها الى اثنين ونصف من الكيلومترات ويقوم على حراستها ١١٠ آلاف رجل مزودين بعشرين فيلا تدربوا على أعمال الحروب ، وكان جنكزخان الشره كلما استولى على مدينة كهذه يفرز أصحاب الحرف ويهديهم عبيدا الى بنيه وقادته العسكريين ، ولم تقدم سمرقند أقل من ثلاثين ألفا من مثل هؤلاء الأسرى ومثلهم من الرجال الاشداء الذين كانوا يعينون للمهام العسكرية والنقل وما شابه ذلك ، وكانت أكثر الفتيات حسنا وجمالا يؤخذن بالطبع الى مخادع جنكزخان الخاصة ، أما البقية الباقية من السكان فكان يطيح برءوسهم ، وكان اذا نجا عدو من الغزو ، كالكانكاليين مثلا ، أحاقت به الهزيمه غدرا وخديعة • وأباح جنكزخان للكانكالين أن يتسربلوا بالزى المغولى ، وأن ينخرطوا فى قواته ، وامتثلوا لذلك فى حبور وزحفوا الى معسكره حيث قضى عليهم بالاجماع •

ويقال ان جنكزخان ذبح ١٫٣٠٠٫٠٠٠ مليون نسمة بعد أن قهر ميرفال شاهيدشان (Merval — Shahid Shan) ، وهى من أقدم مدن العالم • حقا لقد دمرت المدينة عن آخرها فأصبحت أثرا بعد عين فما لبث أن أرسل جنكزخان جيوشه الظافرة الى نهر الدنيبر • ولما بلغ الرابعة والستين ربيعا فى عام ١٢٢٦ عاود الزحف على رأس قواته صوب شمال غرب الصين ، وبعد أن خاض غمار معارك ناجحة عديدة ترك لأبنائه مهمة سحق جيوش العدو •

وعاش جنكزخان طبقا للشعار القائل : « ان الشعوب المقهورة لن تصادق قط من قهروها ، والقضاء على المقهورين خير ضمان لسلامة القاهرين » •

وفى صيف عام ١٢٢٧ انسحب جنكزخان الى جبال ليو — بانج (Liu — Pang) غرب بكين ، وعندما استبد به القلق • وربما حين أحس بدنو أجله انطلق الى شانس حيث أصابته حمى شديدة والتفت ، وهو يحتضر ، الى صديقه كيلوكن بهادور وقال : « كن صديقا وفيا لزوجتى بورثاى ، وكن خلا لولدى أورجاتاى وتولى ، ان جسد الانسان فان ويزول دون مسكن أو مأوى يستريح فيه ، وما ينبغى القيام به أفعله بكل قوتك ، ولا تتأثر بأهواء الآخرين لتظفر بتأييد الكثيرين ، أرانى الآن مضطرا الى أن أستأذنك وأرحل • وسوف يأتى اليوم الذى فيه يتربع الصينى كوبلاى على عرش ويرعى مصلحة الشعب ، كما فعلت » •

ونظرا لأن جنكزخان لم يكن مجرد فاتح لا يرحم وانما سياسيا نابها ومنظما ومخططا فاننا نراه يدبر أهم شئون الدولة وهو على فراش الموت وقد أمر ابنه الأصغر أوتشجين (Ottshigin) ان يبدأ بحملة جديدة ضد

الصين على أن تقوم الحملة ، هذه المرة بناء على خطة مفصلة ، لا يزال يعرف بتيموشن ٠

وكان لجنكزخان نحو خمسمائه زوجة ومحظية للمتعة من بينهن أجمل الأسيرات من كل جنس فى آسيا وأوربا ، وكان أسلوبه فى اختيار « ملكات الجمال » يفوق أسلوب حكام مسابقات الجمال التى نقيمها فى هذه الأيام ، فقد كان كل ضابط من ضباط جيشه يحيل أجمل فتيات المدينة المهزومة الى الكولونيل الذى يحملهن ، بعد فحص دقيق الى قائده ، حيث كان يبعث بهن بعد عملية انتقاء جديدة الى قائد الجيش الذى يرسل بالصفوة العالمية التى اختارها بيده الى الخان ، وهكذا كان كل بلد يسخر لخدمة المخادع الخاصة للخان الذى كان له الى جانب زوجته الأولى العزيزة بورتاى أربع زوجات شرعيات ٠ لقد بكت تلك الزوجات عند قبره بكاء مرا أما بورتاى فحزنت فى صمت على قاهر الدنيا الذى خلبت لبه وهو لا يزال يعرف بتيمورشن ٠

ان فترة تبلغ ١١٠ سنة بمثابة يوم واحد فى تاريخ آسيا ، لقد شهد عام ١٣٣٦ مولد تيمور - وهو تيمور لنك (Tamerlane) الأسطورى - فى كيش غربى تركستان وكان جنكزخان من المغول ، وكان تيمورلنك من أصل مغولى لكنه كان يتحدث التركية ، مع أنه لم يكن من سلالة مباشرة لجنكزخان فقد كان ابنا حقيقيا من أبناء السهول ، تولى زعامة قبيلته فى الرابعة والثلاثين من عمره عقب حكم قصير مشترك مع صهره حسين ٠ وحين ضاق ذرعا باقتسام السلطة قتل منافسه وراح يضع أمور مملكته الصغيرة فى نصابها ، ثم بدأ يغزو العالم ، وفى احدى المعارك أصيب فى ساقه وأصبح أعرج بقية حياته فدعاه الفرس تيمور لنك أو تيمور الأعرج ٠

ودانت لهذا الأعرج بلاد الفرس ، وأواسط آسيا من السور العظيم حتى موسكو ، ثم توغل عام ١٣٩٨ فى الهند وانتزع سوريا من يد المماليك وغزا امبراطورية سلطان المماليك بجيشه العظيم ، وفى سنة ١٤٠٢ هزم الملك بايزيد (Bayezid) العثمانى فى سهل انجورا ، وكان يعد العدة لشن حملة ضد الصين عندما داهمه الموت عام ١٤٠٥ ٠

كان هذا الدكتاتور والفاتح سياسيا نابها مثله مثل جنكزخان ، فطالب المسئولين السياسيين بأن يربطوا القسوة بالعدل وأن يعنوا بالفلاحين ويحموا التجار ، وأصر على أن يعنى ضباط جيشه بتزويد قواتهم بالغذاء والعتاد ٠ فكان لكل فارس حصانان وقوس ، وجعبة مليئة ، وسيف ، وبلطة ، ومنشار ، وخيط وعشر ابر للحياكة ، وكان يتعين فضلا عن ذلك ، توفير خيمة لكل ثمانية عشر رجلا ٠

ورعى تيمور الفنون والعلوم بل راح ينمي موهبة الكتابة ، كان أشبه ما يكون بنابليون مع الميل الى هيملر (Himmler) وكان جادا عابسا يكن العداء لكل ألوان المرح فهو مزيج من الاتزان والقسوة التى لايمكن تصورها والكرم ، لكنه كان يعرف كيف يختلف مع الآخرين وينكر ذاته لو اقتضت الحكمة منه ذلك .

وفى سنوات لاحقة حاول تيمور المرة تلو الأخرى أن يستريح من المصاعب الجمة التي تمخضت عن حملاته العسكرية فى مدينة سمرقند التى اتخذها مقرا له حيث جمع كميات هائلة من الغنائم تتمثل فى أجمل روائع الفن من كل دولة فى آسيا وأميرات كثيرات مزودات بأبنائهن والعبيد والجواري والفنانين والموسيقيين والعلماء ، وفى ذلك المكان أقام ولائم تجل عن الوصف يؤمها آلاف الضيوف ، يأكلون فى صحاف من الذهب ويحتسون الخمر فى كئوس ذهبية ، وكانت الجياد المجمرة بأكملها تقدم فى الولائم كما كانت نساء القصر يقفن فى صفوف ملابسهن من الحرير القطيفة والأطلس أو يتحلين بثياب فضفاضة من الحرير الأحمر موشاة بخيوط من الذهب ومحلاة بذيول بلغت من الطول حدا يتطلب حملها فى العادة خمس عشرة خادمة ، وهناك أيضا كانت النساء ترتدين قبعات بديعة الشكل أشبه بالخوذات مرصعة باللآلىء والياقوت والزمرد وبالريش الطويل الأبيض الذى كان يتدلى فوق عيونهن ويتحرك فى رشاقة عند كل خطوة يخطونها .

كان تيمورلنك يتسم بشجاعة فائقة الوصف . فعقب حملته الرابعة ضد الخوارزم أثار أحد أعدائه فكرة غريبة وهى أن تجرى مبارزة بينه وبين تيمور لنك بدلا من معركة حامية يموت الناس فيها زرافات . فما كان منه الا أن عرض على تيمور لنك ما يمكن اعتباره اقتراحا طريفا فى الوقت الحاضر حين قال : « الى متى يكتب على العالم أن يكابد الألم والبؤس من أجل رجلين ؟ بينما تقتضى مصلحة البشر والأمم أن يتصارعا بمفردهما ويجربا حظيهما » .

واغتبط تيمورلنك بهذا التحدى ووصل الى الحلبة قبل منافسه لكن ما أن نادى خصمه بصوت عال حتى اختفى ولم يعثر له على أثر .

ولم تزد حياة الانسان سواء أكانت حياته الخاصة أم حياة غيره من الناس ، فى عرف تيمور لنك عن حياة حشرة ، وبرغم ذلك كان يستبد به الحزن لوفاة الأقارب والأصدقاء وكان ماهرا فى تغيير موقفه السياسى أشبه ما يكون بممثل بارع يقوم بأدوار مختلفة .

ولقد أراد جنكزخان توحيد شعوب البدو كافة ليتسنى له فرض

سيادته على الحضارة المستقرة ، أما تيمور لنك فلم يكن له مثل هـــذا الهدف المحدد • ورغم أنه كان بدوره بدويا الا أن ثقافة الشعوب المستقرة خلبت لبـه وانغمس فى ملاذ مدينة سمرقند فى وقت كانت جيوشـــه تعسكر فى الخيام •

وأخيرا مات تيمورلنك وهو فى الواحد والسبعين من عمره مكروها وملعونا كما كان موضع حب واعجاب ، فليس ثمة شـــخصية مثله فى التاريخ مليئة بالمتناقضات فمن من الحكام أو الطغاة جلب مثل هذا القدر من الدمار والخراب وكان مثله حاكما نابها وباعثا للرعب ومثيرا للاعجاب فى آن واحد ؟ لقد ظل هـــذا الاعجاب يتزايد بمرور الزمن ، وما انفـك ملوك أوربا وقياصرة الروس على السواء يعيشون فى ذهول لقرون عديدة مما حققه من انتصارات بعد موته ، ومازالت الشعوب الآسـيوية تتغنى مدحا وثناء بتيمور ، كما يشير فلاحو بامير الحديثة فى زهو الى المصارف التى شقها فى الصخر ، وعندما يطلعون السائح الأجنبى على الطـــرقات والقنوات ، والأنهار التى تحولت عن مجاريها والآبار والسدود يقولون دائما : « تيمور هو الذى أنجز كل هذا » • ومازالت نساء المغول يرددن حتى اليوم وهن يرضعن أطفالهن أثنـاء موجات ترحالهن المستمرة والتى لا تنتهى أناشيد تتغنى بتيمورلنك وجنكزخان العظيم •

اليابان

سيعود الدب يوما : آخر الاينو

لقد بلغت سن التقاعد ولكنني مازلت مستعدا لأن امضي قدما في مساعدة الاينو ٠

دكتور جون باتشيلر

قد يكون وهما أنه في وسط جميع شعوب شرقي آسيا المغولية ما زالت على قيد الحياة جماعة منعزلة من الجنس القوقازى لم تزد عن كونها فئة ضئيلة من أهل سيبريا القدامى الذين ينتمون الى شعب أوربا الغربية من حيث تركيب أجسامهم وتكوين جماجمهم ولون بشرتهم ، ولايزال يعيش نحو خمسة عشر ألفا من أولئك الاينو ، وهى آخر سلالة جنس منقرض فى جزيرة سخالين المترامية عند الطرف الشمالى لليابان ٠ ولقد أثار الاينو أمام علماء الأجناس عددا من المشاكل من أعوصها مشكلة أصلهم التى لم تزل بغير حل الى حد ما ، وتزداد هذه المشكلة غموضا اذا ما أدخلنا فى الاعتبار أن هذا العنصر القوقازى القديم (الهندو ـ أوربى) كان قد استقر ذات يوم فى أرجاء الجزر اليابانية قبل أن تطؤها أقدام شعوب البولينزيا والمغول بزمن طويل ، لقد نشأت جماعة الاينو قبل أن يعبر جيموتينو (Jimu Tenno) « أول امبراطور لليابان » المياه من جزيرة كيوشو (Kyusho) الجنوبية الى جزيرة ياماتو (Yamato) الرئيسية فى ٦٤٠ ق٠م بزمن طويل

والواقع أن أسماء كثير من الجبال والمواقع فى ربوع اليابان مشتقة من لغة الاينو ، فسابورو ، عاصمة هوكايدو ، وموكا بجزيرة سخالين

وتاراتو بسيبريا ما هى الا أسماء إينوية ، بل يدين بركان فوجى الهامد ـ وهو واحد من أجمل جبال العالم ـ باسمه للاينو ويدعى اله الاينو القديم وأب جنسهم سكيس كورو اكاشى (Skisei Koro Ekashi) كما تسمى زوجته الجدة المقدسة للنار التى يسبح عرشها فى لهب نار المدفأة من غير أن ترقبها الأبصار ، « فوجى » ولا مندوحة من أن فوجى كان جبلا مقدسا قبل أن تقوم لدولة اليابان قائمة بزمن طويل وقبل أن يبلغ شواطئها أولئك الذين قدر لهم أن يخلقوا من نيبون (Nippon) قوة عالمية ٠

ويطلق العلماء على الحقبة التى تلت « عصر الجليد » ، حينما بدأت الأرض تنعم فعلا بمناخ دافىء ، بالعصر الحجرى الحديث ، ففى أواخر تلك الحقبة تعلم الانسان كيف يقطع الأحجار ويهذبها ليصنع منها الأدوات والأسلحة (١) ، واتخذ لنفسه مقرا مستديما وراح ينبت الحنطة والشعير والأذرة والبقول ، ويخزن مؤنه ، ويستأنس الحيوانات (من بينها الكلاب) ويستخدم الخشب فى بناء مساكنه ، وكان الانسان يقيم بالكهوف قبل أن تراوده فكرة بناء المساكن ، كما كان اليابانيون يدعون الاينو أصلا تسوشى جومو (Tsuchi — Gumo) معناها « عناكب الارض » وتعنى بلغة الاينو « سكان الكهوف » فلقد سكن الاينو يوما الكهوف فعلا ٠

ويلوح واضحا أن « الاينو القوقازى » ، ذلك المخلوق الذى يبعث على الحيرة ، كان قد عاش فى اليابان فعلا فى العصر الحجرى الحديث ، اذ عثر على نوعين من الأوانى الفخارية فى مقابر ترقى الى ذلك العصر ٠٠٠ يمثلان طرزا جومونية ويايوية ٠ والنماذج الجومونية أكثر شيوعا فى الشمال والشرق ويرجع تاريخها الى أصول قديمة ، ومع أنهما أقل من النماذج اليايوية من ناحية الصناعة الا أنها أكثر جمالا من الناحية الفنية ٠ وبالفحص الدقيق لحفريات مقابر العصر الحجرى الحديث استنتج العلماء أن أهل جومون يشبهون الاينو الذين مازالوا يعيشون فى الوقت الحاضر من حيث تركيب أجسامهم مما يقطع بأن هؤلاء الاينو بالذات قد نشروا ثقافتهم الجومونية ٠ فى أرجاء اليابان قبل وفود أى جنس آخر ـ أو أجناس من بعدهم وادخال الأسلوب اليايوى ٠

ولا مراء أن تلك الأجناس المتباينة قد خاضت غمار حروب ضارية وسرعان ما أفلح القادمون الجدد فى دق اسفين بين الاينو حتى أجبروهم على الانسحاب رويدا رويدا الى الشمال ٠ والى الجنوب حيث أبيد الاينو عن آخرهم تاركين وراءهم بقية من أولئك الهندو ـ أوربيين ، أو أهل

---

(١) تعلم الانسان صنع الأدوات والأسلحة قبل ذلك بأزمنة طويلة ، وربما كان المؤلف يقصد هنا صنع الأدوات اللازمة له فى حياة الاستقرار حيث الزراعة فى هذا العصر ـ المراجع

سيبريا الأصليين ليواصلوا الحياة على الرغم من صروف الزمن في هوكايدو وسخالين في أقصى الشمال ، وحتى عام ٧٢٠ م كان لايزال بوسعهم أن يظهروا مقاومة عنيفة اضطر معها اليابانيون الى حشد القوات من تسع ولايات مختلفة لالحاق الهزيمة بهم ، بيد أن الاينو استنفدوا قدرا كبيرا من قوتهم في معارك ضروس أنهكت قواهم وتركتهم ينتظرون انقراضهم تماما فوق جزيرتي هوكايدو وسخالين ٠

وفي سنة ١٦٠٠ تقريبا كان لايزال بهوكايدو خمسون ألفا من الأينو الى جانب ١٢ ألف ياباني ، وفي سنة ١٧٠٠ أصبح عددهم ثلاثين ألفا مع عشرين ألف ياباني أما في سنة ١٨٠٠ فقد رجحت كفة اليابانيين وصار هنالك عشرون ألفا من الاينو وثلاثون ألف ياباني ٠ أما في الوقت الراهن فيعيش الاينو الذين لا يتجاوز عددهم خمس عشرة ألف ياباني حياة الضنك ويعرضهم اليابانيون البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة ، كتحفة بشرية في مجال السياحة ٠ وان المعدلات الحسابية الثابتة لما يتعرض له شعب الاينو من اضمحلال مضطرد ليمكننا الى حد كبير من التكهن باليوم الذي سوف يفنون فيه جميعا ٠

ويبدو كما لو أن التاريخ قد أتاح لكل شعب على وجه الأرض فرصته الكبرى وعصره الذهبي وأجله وأوانه ، وهكذا تدق ساعة البشرية دون أن يسمع أحد صوتها حتى يباغتها الموت ٠ ويميل المرء الى التساءل عما عسى أن يكون مجرى التاريخ لو ظل الاينو يفرضون سيطرتهم على جزر اليابان ٠

والاجابة على هذا السؤال عويصة ، فالأجناس لا تختلف بعضها فحسب بل تمتزج بصور متباينة ، وهكذا اختلط اليابانيون بالاينو منذ فجر التاريخ وكما تسرى دماء الاينو في عروق اليابانيين كانت بعض دماء المغول وأجناس بحار الجنوب تجرى بدورها في عروق الاينو ٠

وفي عام ١٨٧٧ ذهب شاب لاهوتي يدعى جون باتشيلر لزيارة الاينو ، وكان الشاب عالما ومبشرا وتعين عليه أن يعرف الاينو عن كثب فدرس لغتهم وعاداتهم وحظى بحبهم وظل صديقا وفيا مقربا الى نفوسهم حتى آخر أيامه ، والى باتشيلر ندين بالفضل في المعرفة المدققة لطبيعة هذا الجنس المنقرض ولغته وقواعد هذه اللغة ، فمعظم ما نلم به عن الاينو انما هو حصيلة ما اضطلع به من بحث مضن ٠

ومن يطوف اليوم بقرى الاينو الغبراء بجزيرة « هوكايدو » لا يشهد غير انعكاس هين لحياة قديمة هي أقرب ما تكون الى الطبيعة وأشد ما تكون ارتباطا بأرواح من فارقوهم وأسلافهم ٠

ومع ذلك ما برحت الأرواح جاثمة متربصة فى كل مكان حائمة فى الهواء والى اليوم يسمع شيوخ الاينو أصواتها ويناضلون معها ويحسون باضطهادها كما أنها تذكرهم بانقراض جنسهم لا محاله ، ومازالت صناديق ملابس الاينو تضم ثيابا قديمة موشاة بزخارف بديعة من لحاء شجر الدردار • ولا يزال يدوى صدى نداء الجبال الساحر من عصور الماضى السحيق حين كان ينظر الى جبال شمالى آسيا على أنها مقدسة • ويتسلق الكثيرون من الاينو البراكين ، ولو أنك سألتهم عما يحملهم على ذلك لحاروا جوابا • وحتى هذا اليوم يرتدى الاينو الفراء الجميل ، فراء الدب وعجل البحر والكلب والثعلب والغزال ، حيث أن جزيرة هوكايدو دائمة البرودة فى فصل الشتاء حين تجتاحها ريح ثلجية تهب عليها من بحر أوختسك (Okhotsk) ومازال الاينو يرفعون شعاراتهم ، وهى عبارة عن طائر أوسمكه أو ذئب أو ثعلب من الخشب وتلك الرموز الطبيعية التى اتخذتها القبائل شعارات لها هى التى تربط بصورة خفية سائر حضارات المحيط الهادئ •

ويبدو أن الاينو قد آمنوا بما انطوت عليه قصة شمشون الوارد ذكرها فى التوراة منذ الأزمنة الغابرة من مغزى هو أن القوة الجسمانية تكمن فى شعر الرجل ، ومن ثم تراهم أشد ما يكونون حرصا على ألا تضيع منهم شعرة واحدة • وكان الرجال يضعون لحى طويلة ويعتبرونها حلية مقدسة ، ولا تقص شعرها غير المرأة التى تفقد زوجها ، ولعلها لم تكن تعدم لذلك سببا ، فالجهابذة من الباحثين يجمعون على أن رجال الاينو كانوا يحسنون معاملة نسائهم اللائى كن فى الحقيقة يحظين بتقدير بالغ ذات يوم حتى سادت عادة تعدد الأزواج ، لكن ما لبث أن أضحت القاعدة هى تعدد الزوجات وأن بوسع رجل واحد أن يتزوج بعدد من النساء •

وكانت النساء فى الأزمنة الغابرة تتزين بالوشم فوق أذرعهن وأيديهن وجباههن كما كانت أفواههن تكبر بوشمين زرقاوين ضاربين الى السواد ، وكانت تلك العملية تتم فى مرحلة الطفولة المبكرة بوغزات مدية متكررة يتعذر ازالة أثرها • وكان مكان الوغزات يكوى بعصير يستخرج من لحاء الأشجار ، وهى عملية مؤلمة غاية الألم • ولايزال مصدر هذه العادة مجهولا ولعلها كانت وسيلة لتمييز من يؤسر فى الحرب من النساء حتى لا يتسنى لهن الفكاك •

وينساق المرء فى يسر الى وصف أى شعب يحتضر بأنه شعب «بدائى» وعلى شفا الانقراض ، وفى نهاية تطور ثقافى دام آلافا من السنين لم يبق من عالم الاينو سوى القليل لكنه ، برغم ذلك ، كان عالما يفيض حيوية يوما ما • فكانت آلهتهم بعدد الظواهر الطبيعية اذ كانت ديانة الاينو صورة

من صور عبادة الطبيعة وكانت الاشباح والكائنات غير المنظورة تحل بكل مكان ، وعبد الاينو الصخور والأسماك والأشجار والشمس وخاصة النار باعتبار أنها مقدسة ، وسيطرة السحر والعرافة على حياة الاينو . فكان طبيبهم الساحر أو « شامان » (Shaman) هو الذى يصون العلاقة غير المنظورة التى تربط الانسان بالقوى العلوية .

ونقل الاينو عن التونجوس بعض العادات وعن شعوب غابات سيبريا بعض التقاليد الى جانب اعتقادهم الراسخ فى احياء الأشياء الجامدة أو « نظرية الاحياء » ، كما أنهم أخذوا عن قبائل شمال شرقى آسيا الأرواح الشريرة التى تسكن الغابات والجبال والمستنقعات .

وكانت سائر قبائل التونجوس تعتقد بأن الدب وهو أقرب المخلوقات التى عرفوها شبها بالانسان أنه الوسيط بين هذا العالم والعالم الأخير وحول هذا الدب يزخر شمال شرقى آسيا بالقصص والأساطير الغريبة التى هى من نسج الخيال ، فالدب يتكلم ويعمل ويتدخل فى مصير الانسان ، كما أنه يتعاطف معه ويكابد الألم مثله ، انه « الكائن الممجد الذى يقطن الجبال » وهذا بالضبط ما يطلقه عليه الاينو بلغتهم (Kim-Un-Kamui) ولعل كلمة (Kamui) هى الصورة الأصلية للفظ اليابانى (Kami) ومعناه الالوهية .

وتمعن شعوب الارض قاطبة التفكير فى علاقة الانسان بالموتى ، فنحن نولد ونعيش ، ونكد ، ونضحك قليلا ، ونبكى ثم نموت ، وكل جيل يضيف خبرات جديدة ومع ذلك فانه يكون أكثر حكمة للغاية لو أن أرواح من فارقونا قدمت يد العون فى هذا الصدد . فحياة الانسان على نحو من القصر يتعذر معه تحقيق الشيء الكثير أو تعلمه ، ويرى الاينو أنه مالم تتوفر للانسان وسائل اتصال بأسلافه وبعالم الموتى الروحى لأضحت الحياة أمرا لا يطاق . لكن كيف يتم الاتصال بهذا العالم الروحى ويتحقق هذا التحرر من القيود المادية والجسمانية جميعها ؟

تلك هى عين المهمة التى وجد الدب من أجلها على حد قول الاينو ، فعندما ينزع جلد الدب يبدو أشبه ما يكون بانسان على نحو يثير الدهشة والذهول . ومن ثم فانه انسان متنكر فى فراء فى نظر الاينو الذين يرون فى الدب وسيطا بين عالمهم الذى لا يرحم وعالم الأرواح المجردة من الجسد ، وما أن توصلوا الى هذه النتيجة حتى بات من المتعذر اقناعهم مهما تكن الأبحاث التى تميط اللثام عن الحقيقة وهذا ما يعرفه الاينو ، وتلك هى الحقيقة المسلم بها . ولذا فان أهم احتفال يقيمونه هو (Iyomande) أو الاحتفال بعودة الروح . فالدب ينحر بيد أن روحه تظل حية وتبعث لتزور

أسلافه ، وسوف يعود الدب يوما ليرسل ثانية ، ويؤكل لحم الدب ويشرب دمه وتؤدى روحه مهمتها ، ذلك هو الترتيب الالهى للأشياء فى نظر الاينو ، انها الدورة الخالدة ، بداية كل الأشياء ونهايتها • ولقـــد عجزت آلاف السنين من التطور عن أن تزعزع اعتقادهم •

ويحظى شبل الدب برعاية فائقة اذ يطعم ويدلل وتوفر له مربيـــة خاصة من بين نساء الاينو ترضعه من ثديهـــا ••• حتى تقـــوى مخالبه فيحبس فى قفص •

ويزور أهل القرى الدب فى مقره بانتظام ويحيونه تحية الصديق ، ويظل الدب على هذا الحال زهاء عامين يعقبها الاحتفال الكبير بما ينطـوى عليه من اعداد ودعوات « أنا فلان الفلانى الساكن فى المكان الفلانى سوف أبعث الدب الشبل العزيز ليعود الى موطنه فى الجبال ، فهلموا أيها السادة والأصدقاء الى الوليمة • اننا نبغى الاحتفال بالرحيل السار لذلك المجد ، هلموا اقبلوا » •

ويصل المدعون ، تسبقهم النساء ليسهمن فى الاعداد للاحتفال ويساق الدب ليطوف حول الأكواخ للمرة الأخيرة وليتقبل التحيات التى تتم عن الحب والصداقة من سائر القرويين ينقل بعدها الى مكان « التغير » حيث يخاطبونه على النحو التالى : « نحن نحييك • لقد أطعمناك بعناية فائقة اذ نحبك حبا جما ، أما وقد أصبحت الآن كامل النمو فاننا نبعث بك الى أبيك وأمك ، وعندما تبلغ ذلك المكان أذكرنا بالخير وأخبرهم كيف عاملناك بالحسنى ، ثم عد الينا ثانية ، وسوف نقيم لك احتفالا جديدا ونرسلك مرة أخرى » •

فلا يلبث أن يربط الدب ويعذبه المدعوون جميعا ، ويرمونه بالسهام التى لا تهدف الا قتله ، ثم يصلونه ضربا ، وكلما زاد الدب هياجا كلمـــا ازداد المدعون سرورا وحبـــورا • وما أن يصـــبح أضعف من أن يتحرك يبعثون به الى موطنه شنقا أو بأن يربطوه ، وهى طريقة أقل شيوعا ، فى عمودين ويرمى بسهم ينفذ الى قلبه ويأتى عليه ، وبعد أن يؤكل جزء من لحمه نيئا ويشرب دمه يسلق ما تبقى منه ، ومما يزيد الوليمة عظمة ، ذلك الحلول غير المنظور لفوجى ربة النار ، وابنتها « عذراء وعاء الطهى » • ويدهن الرجال أنفسهم بدم الدب ، وهى وسيلة فعالة لضمان النجاح فى الصيد ثم تعرض جمجمة الدب خارج المنزل تجاه الشرق ليتعبدوا أمامها • وحين تفارق روح هذا الحيوان البائس جســده لتصعد الى الســـماء فان الرجال يقذفون ببضعة سهام أخرى تجاه الشمال الشرقى •

وتأتى الآن الى أشد ظواهر عقيدة الدب غموضا • فبعد موته يعرف الدب باسم شينوكارا ــ جورو (Chinukara-Guru) معناها « النبى » أو « الوصى » ويستخدم الاينو اللفظ نفسه في وصف « النجم القطبى » في مجموعة النجوم التى تعرف « بالدب الصــــغير » • وهــكذا يلوح أن حضارتى البحر الأبيض المتوسط والاينو قد ربطتا منذ العصـــــور الأولى بتلك المجموعة من النجوم والدب • فهناك تلقى روح هذا المخلوق ، الذى يرى فيه الاينو منقذهم ووسيطهم ، مصيرها النهائى •

اليابان

شعب يعشق الفن

كان هاناوا هوكيشى (Hanawa Hokiichi) العالم الأعمى الشهير الجنجى مونوجاتارى (Genji Monogatari) يقرأ مع تلاميذه وفجاة اطفات الريح مصباحهم ، لكن هاناوا مضى يقرأ فى هدوء ، فاستبد الضيق بتلاميذه وقالوا « لقد انطفأ النور » فاجابهم بالقول : « هذا يريكم كم هو مزعج ان تعتمدوا على اعينكم » .

تتكون اليابان من أربع جزر كبيرة وستمائة جزيرة صغيرة وثمانى آلاف أخرى لا يربو حجمها أحيانا كثيرا على حجم قمم الجبال ناتئة من قاب البحر .

وتمتد احدى عشرة سلسلة جبلية تضم مائة واثنين وتسعين بركانا على طول الجزر من كيوشو جنوبا حتى هوكايدو شمالا ، ولا تزال ثمانية وخمسين بركانا من هذه البراكين ثائرة كما أن فوجى-نو-ياما هو أعلى جبالها وأجملها ، وهذا الملك بين الجبال الذى يبلغ ارتفاعه ١٢٣٩٥ قدما هو بركان هامد منذ سنة ١٧٠٧ .

ولو أنك أردت مشاهدة أكبر فوهة بركان فى العالم تعين عليك أن تتسلق جبل اسوتيك (Asotake) الذى يبلغ محيط حافته مائة ميل ، بيد أنها مغامرة خطيرة ، اذ لايزال الدخان يتصاعد من أفران آسو ،

تحت سطح الأرض الى عنان السماء وتنطلق من أعماقه قطع الصخور الكبيرة بين الفينة والفينة .

وتعم اليابان ينابيع ماء ساخنة ومتنزهات طبيعية خلابة وجبال وعرة ، والواقع ان مساحة أراضيها المنزرعة لا تتعدى خمس رقعتها ــ ويتعرض اليابانيون لهزة أرضية خفيفة كل ثلاثة أيام ، وفى اليوم الأول من شهر سبتمبر عام ١٩٢٣ قتل زلزال واحد ١٢٠ الف نسمة ، ومنذ ذلك اليوم اجتاحت البلاد اثنتى عشرة الف هزة أرضية واضحة .

ويقال ان فوجى ــ نو ــ ياما قد انبعثت من قلبه السنة اللهب فى ليلة رهيبة بشعة عام ٢٨٦ ق . م أما اليوم فانه يعد من أجمل مناظر العالم وأبدعها . وما من أحد يقف فوق قمة هذا الجبل ليرقب قرص الشمس المتوهج وهو يقفز فوق افق المحيط الهادى الا ويدرك سر تسمية اليابان « بأرض الشمس الساطعة » .

والقول بأن تلك الجزر قريبة من الآلهة ليس مجرد أسطورة أو خرافة راودت احلام الأقدمين ، فقمم الجبال الشامخة تلوح فى كل صباح ومساء وكأنها تطفو فوق السحب مسربلة بالضباب تماما كما حدث حين هبط من السماء عن طريقها نينيجى (Ninigi) سلف جيمو أول اباطرة اليابان .

ويبدأ تاريخ اليابان الرسمى بعام ٦٦٠ق.م بيد ان المؤرخين اليابانيين يقررون بجلاء أن هذه السنة ما هى الا بداية لأقدم أسرة حاكمة فى العالم ، فقد كان أسلاف الأباطرة يعيشون فى السماء قبل ذلك بزمن طويل ، ويربط التاريخ والأساطير على السواء أصلهم بقصة الخلق مباشرة ، ذلك ان الاله الأزلى ايزاناجى وزوجه ايزانامى قد خلقا أول جزيرة استقرا بها وجعلا يخلقان المزيد من الجزر والآلهة ، ولقيت ايزانامى حتفها وهى تنجب ابنها « اله النار » وهبطت ، مثلها مثل يوريديس ، الى العالم السفلى ليتبعها ايزاناجى ، على غرار ما فعل أورفيوس ، بقصد اعادتها . وبينما كان يقودها من العالم السفلى التفت ليرميها بنظرة وهو ما خطر له أن يفعل ، فاذا بايزانامى تختفى على الفور ، ويلوذ ايزاناجى بالفرار وحيدا من عالم الموتى .

وتكشف كل من اسطورتى أورفيوس الاغريقية وايزاناجى اليابانية عن تشابه ملحوظ وتتفق تفاصيل هاتين القصتين القديمتين على الرغم من أن نصف الكرة الغربى يفصل بينهما ، فما سر ذلك ؟ لسنا ندرى ولن يتاح لنا معرفة ذلك اطلاقا . وكل ما يتسنى لنا قوله هو أنه فى البدء

كانت الكلمة وكانت الكلمة آنذاك ــ فيما يبدو ــ قوية وصادقة في ربوع الأرض قاطبة .

فما الذى ، اذن ، حمل أول امبراطور لليابان على أن يهبط من السماء ؟

يقدم اليابانيون تفسيرا لذلك :

منح ايزاناجى السيادة على الجو لربة الشمس اماتراسو ــ أوميكامى (Amaterasu-Omikami) بيد أن أخاها سوسا ــ نو ــ أو، اله العاصفة ، كان شرسا فدمر حقول الأرز وقنوات الري وألحق بالناس كل الوان الأذى ، مما حمل ربة الشمس اماتراسو على الاحتماء من أخيها بأحد الكهوف فاظلمت الدنيا فاجتمع سائر الآلهة الأخرى (وربما أم النجوم) خارج الكهف وراحوا يتبادلون الرأى حول السبيل الى حمل السيدة التى جرحت احساساتها على الخروج من مخبئها . وفى تلك الأثناء قامت آمانو ــ أوزومى ، الحورية السماوية ، بأداء رقصة جد مثيرة أثارت موجات من الضحك من جمهور الألهة (ولم يكن آلهة اليابان يتكلفون الحياء) ومن باب حب الاستطلاع ازاحت ربة الشمس الحجز الذى كان يغلق كهفها جانبا لتختلس نظرة .. فعادت الأرض تسبح فى ضوء الشمس .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى بعثت ربة الشمس بحفيدها نينيجى ــ نو ميكوتو الى الأرض . فهبط فوق جزيرة كيوشو حاملا معه جوهرة مغلقة وسيفا ومرآة ، وكان جيموتينو ، أول امبراطور لليابان أحد أحفاد نينيجى ــ نو ــ ميكوتو .

ولئن كانت هنالك بحق أمة من الفنانين فى العالم ، شعب مزج الحياة بالفن ، شعب تبدو دياره وكأنها امتداد للطبيعية ذاتها ، وفاقت رسوماته وأعمال الطلاء والحفر فى الخشب أرقى ما بلغه الانسان فى هذا المضمار .. لو وجدت مثل هذه الأمة لكانت هى اليابان . لقد بلغ عشقهم للفن الى حد أنه لم يخطر لهم ببال أن يتساءلوا عما اذا كانت الرواية الخاصة « بأصل » تينو السماوى هى قصة حقيقية أم أنها رواية خرافية فحسب ، وبلغت أسطورة ربة الشمس من الروعة والجمال فى تلك السلسلة المتناثرة من الجزر حدا غدت معه تاريخا وعقيدة وعلى أية حال لقد جاء نينيجى ــ نو ــ ميكوتو ومعه الدليل البين على أصله السماوى ممثلا فى الجوهرة والسيف والمرآة .

وهل يراود اليابانيين شك حول أصل امبراطورهم السماوى وما برحت الشعارات المميزة الرسمية قائمة الى اليوم : الجوهرة فى القصر

الامبراطورى بطوتيو والسيف فى آتوتاجنجو والمرآة فى محراب ايســـو العظيم ؟ ويقف محراب « شنتو » هذا ، وهو أقدس محراب فى اليابان عن بكرة أبيها على ضفاف نهر اسوزو على مقربة من مدينه يوجى يامادا فى مقاطعة « ماى » يرعاه رئيس كهنة يخضع له أربعـة وسـبعون كاهنـا ٠ وظلت الشعارات الثلاثة تنتقل من امبراطور الى آخر حتى يومنا هـذا ٠ ويتعين على كل يابانى أن يصلى فى محراب ايسو مرة فى حياته على الأقل كما كان حتى عام ١٩٤٥ يتحتم على كل رئيس لوزراء اليابان أن يزوره عند توليه ، أما المحراب ذاته فهو مقر ربة الشمس ٠

ان هذا الايمان بأسره حاكمة بدأ مع الخليقة وما زال سائدا الى هذا اليوم ، فهذا الاعتقاد فى التينو الذى يعتبره اليابانيون ، كما رأينـا ، ابن السماء بحق ، أى هذا الايمان بتاريخ اليابان هو جوهر عقيدة الشنتو ٠ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان لليابان ٣٠٦ معبدا قوميا للشنتو ، ونحو ٤٩٥٧٩ معبدا فى المدن والقـرى ، وأكثر من ٦٠ ألف معبد خاص و ١٢٩ معبدا للجنود ٠

وضمانا لاستمرار السـلالة الامبراطورية الحاكمة سمح للامبراطور بأن يتخذ لنفسه ما شـاء من الزوجـات والمحظيات ، لكن الخلافة لم تال دائما لأكبر الابناء بل بالحرى لأكثرهم صلاحية فاحيانا كان الابن الأصلح هو الأقوى والأحكم وأحيانا أخرى كان أصحاب النفوذ فى البلاد يتآمرون لاختيار الأضعف ٠ وأمسك بأعنة الحكم فى اليابان مائة وأربعة وعشرون امبراطورا اتسم الكثيرون منهم بالرحمة والأمانة ، وكان بعضـهم عظيما صاحب سطوة ونفوذ والبعض الآخر متقلبا أو شريرا فلقد صـار أحدهم راهبا ودخل أحد الأديرة البوذية كما حظر آخر أكل السـمك على شعبه وهو يتضور جوعا ٠ وكان الامبراطور يوزى الذى وافته المنية عام ٩٤٩ م قاسيا لايرحم منذ نعومة أظفاره ٠ ويقال انه حينما جلس على العرش كان أحيانا يأمر بعض رعاياه بتسلق الأشـجار ثم يصطادهم كالعصـافير ، ومن لم تنفرج أساريره من النظارة عند مشاهدة تلك الرياضـة المتوحشة أنزل به العقاب الصارم ، وكان من دأبه أن يمسك بالفتيات الصغيرات فى الشارع ويربطهن بأوتار العـود ويلقى بهن فى البرك ، كمـا كان هـذا الامبراطور يهوى ركوب الخيل ، واذا ما قويت حالته المعنوية كان يخترق بجواده شوارع العاصمة يلهب الشعب المسكين بسوط حصانه ، وليس ذلك بحال كل ما كان جلالة الامبراطور يستمتع به فقد كان لنيرون اليابان هوايات أخرى كثيرة لا يليق ذكرها صراحة ، لكن المعجزة الحقيقية وقعت حين أقصى عن العرش فى نهاية المطاف ٠

وفى سنة ٧٩٤ م انتقلت حكومة اليابان من مدينة « نارا » بحفيف

أشجارها الى كيوتو ، وبذلك بدأ عصر ذهبى استمر زهاء أربعمائة عام وكانت مدينة كيوتو تضم عام ١١٩٠ نصف مليون نسمة ، وهو عدد يفوق سكان أية مدينة أوربية فى الفترة عينها باستثناء مدينتى القسطنطينية وقرطبة على وجه الاحتمال • وفى هذه العاصمة كانت الاسر الأرستقراطيه ذات النفوذ ، أمثال أسر فوجيوارا وتايرا وميناموتو ، تولى من تشاء من الأباطرة وتعزل من تشاء • وفى ظل عهد الامبراطور « دياجو » (٨٩٨ ـ ٩٣٠) كادت اليابان تنافس الصين فى الثقافة وأسلوب الحياة فى وقت بلغت فيه الصين أوج مجدها تحت حكم أسرة « تانج » •

كان تاريخ اليابان منذ بدايته حتى الوقت الحاضر حافلا بالأزمات والحيوية والعظمة والجلال والدوافع الخفيه التى لا يمكن التكهن بها •• انه أشبه بمسرح عظيم لشكسبير غاص بالملوك والجلادين والقواد والعبيد الذين تحركهم عوامل الحب والكراهية والانتحار وسفك الدماء • كما أنه لم يصبح تاريخا بهذه الصورة كرها ، بل هكذا خلقه شعب احتفظ دائما بشخصيته المميزة وأضفى على كل ما أخذه عن الغير أسلوبه الفذ المميز ، فالبوذية التى نقلوها عن الصين صارت عقيدة يابانية فى جوهرها ، وهذا عين ما تعرض له كل ما أخذ عن الصين من كتابة وشعر وادارة وموسيقا وفن ومعمار • لقد استوعب اليابانيون الثقافة الصينية منذ ما يربو على ألف سنة خلت بقدر استيعابهم للثقافة الأوربية والأمريكية فى الوقت الراهن • كانوا دائما فضوليين وسريعى الاستيعاب للأساليب الأجنبية التى يصبغونها على نحو أو آخر بالصبغة اليابانية لتتلاءم وأسلوبهم الخاص فى الحياة •

وتبرز فى تاريخ اليابان شخصية بعينها تأخذ بالألباب هى شخصية يوريموتو (Yorimoto) الذى ظهر فيما بين ١١٤٧ و ١١٩٩ ، لقد كان رجلا وسيما تعشقه النساء وغالبا ما أحب وكان فى حبه مخلصا ، وعيبه الوحيد هو أنه لم يستطع أن يظل مخلصا لمعشوقته لو رأى امرأة تفوقها حسنا • حدث مرة أنه حين كانت ابنة شخص يدعى هوجو توكيماسا على وشك أن تزف لحاكم قوى التفت العريس أثناء حفل الزفاف ليجد نفسه وحيدا ، اذ كان يوريموتو قد خطف ، كما فعل بيير جانيت فى احدى مسرحيات ايشى ، العروس وفر هاربا الى الجبال •• واستمتعت الفتاة بكل لحظة من لحظات الفرار •

وكان « يوريموتو » عرضة للمطاردة الدائبة ، وكان المطاردون يكدرون حياته فما لبث أن ألقى عصا الترحال فى كاماكورا بخليج « ساجامى » الجميل ليخلق منها أقوى مدينة فى اليابان وأصبح أول

الشوجون في البلاد (وكان الشوجون حكاما عسكريين ظلوا قرونا يحدون بشدة من سلطة الامبراطور) •

وظلت « كاماكورا » مركزا للامبراطورية زهاء مائة وخمسين عاما ، وكان سكان العاصمة آنذاك يبلغون نحو ثمانمائة ألف نسمة ، أما اليوم فلا تزيد على قرية يشتغل أهلها بالصيد ، وأن كان لايزال بها مقبرة « يوريموتو » التى هى عبارة عن معبد صغير من الحجر فوق منحدرات تل يقع خلف مدرسة محلية على الطريق المفضى الى محراب كاماكورا • انه مكان منعزل حيث تنمو الطحالب فوق المعبد الصغير خلف سوره الحجرى حيث يقبع قبر يوريموتو مهجورا •• فهو مكان لا نظير له للتأمل فى أمجاد هذا العالم الزائلة •

كان ثمة أباطرة فى الشمال وأخرى فى الجنوب ومن خلفهم حكم الحكام العسكريون الذين أخذ سلطانهم يقوى شيئا فشيئا • وبينما راحت المبانى الفخمة ترتفع فى عاصمة الامبراطورية كيموتو تعرضت كاماكورا للحريق المدمر الذى أتى عليها مرتين • وكانت تلك الحقبة هى عصر أمراء متصارعين وفرسان متقاتلين وقطاع طرق وتمرد وفوضى • وفى خضم تلك الفوضى جاء البرتغاليون مسلحين بأسلحة نارية • لكن النظام أخذ يحل محل تلك الفوضى رويدا رويدا عندما تولى مقاليد السلطة فى اليابان ثلاث شخصيات قوية بالتعاقب •

« الأول صنع الكعكة والثانى خبزها والثالث أكلهـا » هكذا يقول اليابانيون وهم يشيرون الى نوبوناجا وهيديوشى وطوكوجاوا – أياسـو الملك الجندى •

ولقد أجرى علماء الانجليز البحوث العميقة حول الدوافع الكامنة التى حملت هيديوشى على غزو الصين سـنة ١٥٩٢ ، ويذكر الباحثـون ، كرأى عابر فيما يرجح ، أنه كان يبغى الزواج من أميرة صينية ، وأيا كان من حقيقة هذا الأمر فانه بعث فعـلا بكتـاب الى ملك كوريا يطلب اليه أن يزحف معـه لغزو الصين فما كان من « لاين كوكو » أو ملك كوريا الا أن أجاب : « هكذا تبغى قهر الصين ، اذن فان مثلك مثل المحارة التى تبغى امتصاص البحر حتى يجف أو مثل النحلة الصغيرة التى تزهق قواها فى محاولة لدغ سلحفاة ضخمة من خلال درعها ، واستشاط هيديوشى غضبا فغزا كوريا ، بدلا من الصين بجيش مسلح بمدافع أجنبية بيد أن حملته منيت بفشل ذريع وانهار الصرح الذى كان يبنيه طيلة حياته تماما كما فعل نابليون فى وقت لاحق •

ولما آلت السلطة الى توكوجاوا اياسو من بعـده عـرف عن مغامرة

غزو كوريا واتخذ من « ادو » طوكيو الحديثة ، عاصمة له ويعد هم هيديوشى العظيم مؤسسين لمدينة طوكيو واستمرت أسرة توكوجاوا فى الحكم زهاء ٢٦٥ سنه حتى عام ١٨٦٨ وأغفل الأباطرة طيلة هذه الفترة الحكام العسكريين بينما ظلت اليابان معزولة عن بقية العالم ، وحقق هذا النظام لليابان فترة من السلم دامت مائتين وخمسين عاما • ولم يكن صون هذا السلام ممكنا الا بالحيلولة دون التدخل الأجنبى أو الهجرة •

وحيث أن جزر اليابان آنذاك لم تكن أطول مما هى عليه اليوم أسفرت سياسة العزلة التى أنتهجتها عن عواقب وخيمة ، وأصبحت المذابح الجماعية فى داخل اليابان المكتظة بالسكان الوسيلة المألوفة لتحديد النسل، ومع زيادة سكان اليابان انكمشت حقول الأرز وضعف معها المحصول • رجاء اليوم الذى تعذر فيه على الديميو (Daimio) (وهم الاقطاعيون الذين كانوا يكونون ذات يوم طبقة المحاربين للدفاع عنهم) دفع أجور أولئك المحاربين وانطلقت عصابة من الرجال لا ضابط لها تعرف اليوم بالرونين (Ronin) تطوف بربوع اليابان • ولم يعد أولئك محاربين ، بل مجرد بطون كثيرة تملأ • فلم تكن لهم دراية بالسياسة الداخلية أو الخارجية ، ولم يكن أمامهم من ميدان يستغلون فيه قدراتهم فقد تعذر عليهم تولى أى منصب مدنى ، ذلك أن الموظفين كانوا يجلسون آمنين خلف الحواجز التى يفرضها نظام العشيرة القائم على غرار النظام الصينى حيث كانت الترقية تتم على أساس المحسوبية لا الكفاءة وسيطر الموظفون على الحكومة وراح الكهنة يدقون نواقيسهم وجلست قوات المرتزقة تتثاءب فى مراكزها ، وجفت الفرشاة فى دفاتر الحسابات وتراكم فوقها الغبار وانطلق رنين النواقيس الأجوف يدوى عبر الفردوس المنهار ونام الحراس وكان على الحاكم العسكرى أن ينفق على هذا الجهاز الضخم عديم النفع الذى يشكل عبئا ألقى على كاهله •

ومع ذلك ففى خارج اليابان أخذ العالم يتقدم بخطى واسعة مذهلة فتعرضت القارات للاحتلال أو التوزيع أو التقسيم وفقا لأهواء الأمم التى جعلت تبنى امبراطوريتها وجابت السفن التجارية البحار السبعة ، كان هذا وقت اليقظة الذى ظلت تندم عليه قرونا عديدة أية أمة كانت داخليا تغط فى نوم من الكسل والتراخى • وما لبثت أن انفتحت أبواب اليابان على مصراعيها لكن ليس من الداخل بل من الخارج •• وبأيد أجنبية •

وحدث سنة ١٨٥٣ أن فتح ماثيو • س • بيرى ، قائد الأسطول الأمريكى أبواب قلعة اليابان الأسطورية • وكانت لحظة رائعة ،

ولاريب ، تلك التى التقى فيها بيرى وهو يقود البارجة مسيسبى بحاكم أوراجا في خليج ادو ، وهما مخلوقان من عالمين متباينين ، بل ان ما وقع بعد خمس سنوات كان ولاشك أشد غرابة ، ذلك عندما شرح القنصل العام الأمريكى المبادىء الرئيسية للقانون الدولى لحاكم بيشو الذى استبدت به الدهشة وبأعوانه من المسئولين ـ وهم رجال اعتادوا على الحفلات القديمة وكانوا يحكمون البلاد وفقا لنظرياتهم الخاصة بل وعلى غرار النظام الصينى الأكثر قدما ٠

انها حقيقة ثابتة ٠٠ لكن كيف يعيد التاريخ نفسه ؟

اليابان

عش جائعا ان لزم الأمر لكن ارسم

من الخير أن تبدو الحياة كأنها لا تنتهي ..

هوكوساى

ما من أمة على وجه الأرض تجيد صنع الأشياء الدقيقة باتقان تام مثل أمة اليابان كما يتضح من الطاسات الصغيرة ، وأطباق السمك المنقوشة المقعرة والصناديق الملونة والأوعية الدقيقة التى تودع بها أدوات الكتابة ، كما برع اليابانيون فى الفنون الجميلة كتنسيق الزهور ، وزراعة الأشجار القصيرة واقامة الحدائق الصغيرة ، والكبارى والسرادقات الدقيقة . فاليابانيون سادة لا يباريهم أحد فى صنع الصغير والدقيق من الأشياء .

ولم يكن سكان جزر شمال غربى المحيط الهادى يألفون ما هو ضخم وفسيح وفائق الأبعاد ، وعلى الرغم من ذلك كانت عبقريتهم فذة جريئة فى الرسم والتصوير ومزج الألوان وانتقاء رسوم الأقمشة الحريرية الى جانب الرقص والتمثيل ، ناهيك عن القدرة فى خلق حياة تبعث فى النفس أكبر قدر ممكن من الغبطة والمتعة فوق تلك الجزر المتناثرة المكتظة بالسكان ، وغالبا ما كان اليابانيون ضحية لعين الخصائص التى خلقت منهم فنانين عظاما وهى :

- سذاجتهم والسمات الشبيهة بما يتميز به الأطفال الا أنهم يدركون على الدوام ضآلة الانسان امام عظمة الطبيعة ورحابة آفاقها .

ويخضع اليابانيون دوما سواء أكان ذلك لخيرهم أو لضررهم ، لرحمة موطنهم الجزائري المحدود النطاق بزلازله الخطيرة وبراكينه الثائرة • وكانوا دائما بحكم قربهم من البحر أسرى بيئتهم الطبيعية • ولما كانوا يعرفون الكثير عن هذه الطبيعة فانهم لم يهتموا على الاطلاق بترويضها ، ولم يحدث يوما أنهم صنعوا اطارا لصورهم أو أقاموا أسوارا حول ديارهم تحميهم من عوامل الطبيعة ، كما أنهم لا يذرفون دمعة واحدة لو أن زلزالا ابتلع أمهاتهم وزوجاتهم وأطفالهم أو موجة عاتية جرفتهم •

ولاذعانهم السرمدي للطبيعة ينحني اليابانيون للشمس ويقدمون المحصول الرئيسي الذي تجود به حقولهم ••• الأرز النفيس الذي يطعمهم ويوفر لهم القش لعمل الحصر التي يفترشونها ليلا • ومن الخصائص المميزة لليابانيين الطاعة والنظام والقدرة على مواجهة الموت من غير نحيب أو عويل • فاليابانيون على يقين راسخ من أن الجمال يتمثل في الطبيعة دون سواها أو في امتداد للطبيعة وما الموت ذاته الا جزء من الطبيعة •

واضطلع اليابانيون بمهمة جريئة لا يصدقها عقل حين أضحوا ، مع اضمحلال بولينزيا (Polynesia) ، الجنس الوحيد الذي قدر له أن يصون ثقافة الأوقيانس والمحيط الهادي • فعن طيب خاطر أخذوا عن آسيا كل ما هو جديد بالنقل وبعين الحماس نقلوا حضارات أوربا وأمريكا • ومع ذلك ظل اليابانيون مخلصين لطابعهم المميز •••• طابع موطنهم الجزائري • بل والى اليوم يجهش اليابانيون بالبكاء بانفعال عند رؤية امبراطورهم ، بل مازالوا يتغنون بالقول : « ليت القصر الامبراطوري يزدهر حتى ينمو الحجر الصغير ويصير صخرة يغطيها الطحلب » •

ان هوكاساي ، العبقري الياباني الذي ولد في منتصف القرن الثامن عشر — لم يخلف ، وان بدا ذلك غير مصدق ، للأجيال سلسلة قوية من الروايات ومئات القصائد الرائعة فحسب ، بل ترك أيضا أكثر من خمسمائة كتاب مصور وما يربو على خمسة وثلاثين ألف صورة • كان هوكوساي عاملا نشطا لم يفقه في انتاجه أحد من حيث الكم والكيف ، انتاج يفوق المستويات البشرية المألوفة • واتخذ هو كوساي لنفسه أسماء مستعارة لاحصر لها من بينها الاسم البارز « الرسام المجنون » وهكذا كانت مواهبه خصبة لاتنضب حتى انه أعطى أسماءه المستعارة لتلاميذ كانت بداية حياتهم الفنية بفضل هذه الأسماء مشرقة رائعة • لقد بلغ الذروة في أفضل ما أنتجه الفن الياباني في قرون عدة •

وكان أبوه يعمل في قطع المرايا ولما كان هوكاساي صبيا صغيرا دأب على أن يحملق فيما لأبيه من مرايا ويرى عوالم تأخذ بالألباب تبدو

وكأنها تقبع فيما وراء حدود الواقع ، ورغبة منه فى أن يصبح صاحب حرفة كأبيه عقد النية على أن يتعلم فن الحفر على الخشب .

وكان على الصبى ان يتبع تعليمات معلمه بحذافيرها فالطاعة من سمات اليابانيين دائما وان من يريد تنمية موهبته وتطويرها ، فى رأيهم ، تعين عليه أن يتقن قبل كل شيء أسلوب الأداء . وكانت ترد الى الورشة كل يوم رسومات وصور جديدة ملونة ، فيعطى الصبى مديات دقيقة ويترك ليكيف نفسه مع الأساليب المتباينة لعدد كبير من الفنانين المختلفين ، فكان عليه أن يحفر الكتل الخشبية حتى تطبع بدقة الصورة الأصلية التى رسمت بالفرشاة ، لقد كانت مهمة شاقة ، فأى خطأ فى الحفر يتعين معه أعادة الرسم بأكمله ، ذلك أن الرسم الأصلى كان يثبت على الخشب ويتمزق أثناء الحفر ، وكل ما كان الفنان يضطلع به هو رسم الصورة على ورقة شفافة وعلى الصبى نقله عدة مرات ، فالصورة ذات الألوان الخمسة كانت تتطلب خمس كتل خشبية لطبع صور طبق الأصل منها ، والصورة ذات الألوان العشرة تحتاج الى عشر كتل ، كما كان الصبى يمزج الألوان طبقا لمواصفات الفنان تماما .

كان هوكوساى فى الخامسة عشرة من عمره عندما أعد أول رسم لتطبع منه صور عدة ونظم أول قصيدة له ، ولما بلغ السادسة عشرة كتب قصته الأولى . وفى الثامنة عشرة التحق باستديو المصور شنشو (Shunsho) وهو أشهر رسام للممثلين آنذاك . وكان استوديو شنشو أشبه ما يكون بخلية النحل فى نشاطه الدائب وكان على شنشو أن يساير أحدث ما يخرجه مسرح كابوكى . فقد كانت الجماهير ترغب فى أن ترى شخصيات مسرحهم المحبوبة ، وماذا عن الممثلين ؟ لقد كانوا عطشى الى الشهرة كعهدنا بهم فى الوقت الراهن . وكان يتردد على استوديو شنشو ذائعو الصيت بلا استثناء . كان الجو مهيئا للغناء والشعر فنظم هوكوساى بعض القصائد القصيرة التى بلغت من الشهرة أوجها ، وكان يواصل الليل بالنهار فى قرض الشعر وفى الرسم ، وتسنى له المرة تلو الأخرى أن يحقق الشهرة لاسمين مستعارين مختلفين كان يستخدمهما فى آن واحد على نحو تعذر معه على سكان مدينة « ييدو » كما كانت طوكيو تسمى آنذاك ، أن يتبينوا أن هذين الاسمين المستعارين هما للرسام والقصصى والشاعر نفسه .

كان هوكوساى دائم التجول ، ففى حياته غير الاستوديو كما بدل مسكنه أكثر من مائة مرة ، وعاش دائما رقيق الحال وكان فى غالب الأحيان يطوف بأرجاء البلاد خاوى الوفاض ، تلفحه رياح الخريف ، ومرة عرض رسوماته فى زوايا الشوارع ، وأخرى باع الفلفل الأحمر فى أحد

الأسواق . وبرغم ذلك كانت القوة التى تحركه تنمو عاما بعد عام فكان يحقق على الدوام انتصارات أعظم ، فمن ناحية حقق انتصارات عظيمة ، ومن ناحية أخرى عاش فى فقر مدقع ، فقر لازمه طيلة حيـــاته لا لسبب الا لأنه كان يحتقر المال والشهرة على نحو دفعه على تبديد كليهما .

وأبدعت فرشاته آلاف الصور ، فرسم فوجى مالا يقل عن مائة مرة، صور فيها هذا البركان المقدس فى أشكال بديعة متباينة ، كانت المناظر بالغة الروعة حتى يبـدو وكأن هوكوســاى كان يرى الجبـل من فوق متن طائرة تحلق على ارتفاع أميال عديدة فلا شىء يبدو فوق قدرة ملاحظتــه الباهرة للطبيعة .

وحاول هوكوساى جاهدا أن يخلق أساليب جديدة ، كان يرســم بأصابعه وبيده اليسرى ، فتارة يرسم من أسفل الى أعلى وتارة من اليسار الى اليمين ، والعكس صحيح . كان يستخدم أحيانا زجاجة وأحيانا آخرى يستخدم بيضه . لقد رسم مناظر بديعــة للبحار مع الصخور والأمواج المتكسرة على شواطئها ، وحين ينظر المرء الى رسوماته على الخشب فانهــا تنسيه الأسلوب الذى ابدع فى حفرها ، ذلك لما تنطوى عليه من جرأة فى اختيار الألوان والتصـميمات .

كان هوكوساى يختلط بالناس ، فما من فنان يابانى اســتطاع أن يصور وجوه الناس العاديين بنفاذ بصيرة وباعجاب مثلما فعل هوكوساى ، ذلك أنه كان يرسم معدنه ، لقد كان يسخر من الناس ويبرزهم فى صور هزلية ويميط اللثام عن طبائعهم المضحكة ، ومن النادر أنه رســـم امرأة رسما حسنا اذ لم يكن هذا الموضوع يثير اهتمامه .

واستبدت الدهشـــة بالناس ، فما لبثوا أن ضـحكوا كدأبهم حين لا يقوون على فهم العبقرية ، فاذا بهوكوساى يصيح متســـاءلا : « هكذا يضحكون ، أليس كذلك ؟ هل أبدو تافها بهذا القدر فى نظركم ؟ » وشرع يرسم صورة كبيرة الحجم لم ير العالم لها نظيرا فأمر بأن يؤتى له بفرخ من الورق مساحته ٦٣٥ قدما مربعا ، وأمر بأن تنشر فوقه طبقات سميكة من قش الأرز وكتل خشبية ليحتفظ به مشـدودا متـوازنا ، ولو لم يفعـل ذلك لمزقت الريح فرخ الورق وقذفت به بعيدا ، ونصب سقالة على طول جدران أحد المعابد تستند على محاور ترفع عليها الصورة بوساطة بكرات . وأودعت البويات عشرات البراميل ونقلت بدلاء كبيرة الى مكان الصورة حيث احتشد جمع غفير من النظارة .

وعند الظيرة ظهر هوكوساى يتبعه موكب التلاميـــذ يحملون دلاء برونزية ، وكانت فرشـــاته مكنســـة ضخمة غمسها فى واحد من تلك

الدلاء المملوءة بالبوية ، وراح يرسم أنفا ثم عينا ثم العين الأخرى فأخذت صورة أحد السحرة تظهر شيئا فشيئا مع لمساته، فبسرعة فائقة جر هوكوساى فرشاته على اتساع فرخ الورق ، ليرسم الفم والاذنين والرقبة والشعر واللحية ، ثم جذب تلاميذه حوضا كبيرا من البرونز الى أعلى وأصبحت فرشاة هوكوساى فى هذه المرة حزمة من زكائب الأرز ربطت معا ، وبعد ان جر الفرشاة من خلفه بحبل ربط حول عنقه وارتد الى الخلف بضع خطوات رسم ملابس الساحر بطلاء أحمر كان يرفعه من الدلو بمغرفة .

وأرخى الليل سدوله على طوكيو ، فما أحس به أحد ، وساد الصمت وحبس الجمع أنفاسه ، وانتهى من رسم صورة الساحر ، ثم رفعت وتركت تحلق فى الهواء .

وذهل الحاضرون ووقفوا مرتاعين كأن على رءوسهم الطير ، وأجهشت بعض النسوة بالبكاء ، لقد كانت تلك الصورة الضخمة التى رسمها هوكوساى كشفا جديدا . فجرى اسم الرسام على كل لسان ، وتعين عليه أن يتحمل ما جرته الشهرة ، ولكيما يبرهن على مهارته مرة أخرى قام برسم صورة ضخمة لجواد .

واستدعى الامبراطور نفسه معبود الجماهير الى حضرته فانحنى هوكوساى بشدة ثم رفع بابا ضخما من أبواب المعبد كان قد غطى بالورق وبعد أن غمس يده فى اناء البوية ألقى ببعض الطلاء الأسود فوق الورقة وراح يبسطها فوق سطحها ، ثم فتح سلة كان قد أحضرها معه وأخرج ديكا حيا ، غمس أرجله فى حبر أحمر وجعله يسير على سطح الورقة وانحنى للامبراطور ثانية ، وسرعان ما استبان لرجال البلاط ما رسمه هوكوساى : لقد رسم ناسوتا نهر الشعراء وفوق سطحه تطفو أوراق شجر الاسفندان الحمراء .

وصفق الحاضرون لهوكوساى بحماس بالغ ، وكان هو الوحيد من بين عامة الشعب الذى يستقبله امبراطور يابانى من أسرة طوكوجاوا . وظلت جماهير الشعب تحاصر منزله عدة أشهر ، وكان الجميع يريدون رسما خاصا يحمل اسمه المتألق ، لكن سرعان ما مل هوكوساى النجاح ، والتملق وانسحب ومضى ليعيش تحت اسم مستعار ، وبرغم ذلك ظل يعمل كمن استبدت به أرواح شريرة ورسم فى تلك الفترة صور الاشباح المرعبة ، وفى سمفونية من الألوان تسحر الالباب رسم أعظم شلال سبق لفنان ان رسمه ألا وهو : شلال يوشنيو بأطرافه المتشابكة الهائلة تشق طريقها الى الأعماق ، كما رسم صورا رائعة لنبات « الأضاليا » وقد انقض عليه طائر الوقوق من السماء الزرقاء ، واليعسوب وهو يحوم فوق

زهور الكيكو ، ومرة اخرى رسم جبل فوجي والسحب والبحر . ان فمن غيره من الرسامين حاول رسم مثل هذه الصور الرائعة الحزينة .

وكتب هوكوساى مؤلفا تعليميا هو عبارة عن موسوعة مصورة من خمسة عشر مجلدا تعرض فيها لكل ظاهرة من ظواهر حياة عامة الشعب وكان الناس دائما يتعرفون عليه أينما اختبأ ومهما اتخذ من أسماء مستعارة . وعلى الرغم من ذلك ظل رقيق الحال يكابد متاعبه الخاصة .

وتزوج هوكوساى مرتين بيد ان ابنه الوحيد لم يكن يصلح لشيء شأنه شأن أبناء العباقرة في الغالب الأعم ، وقضى هوكوساي خمس سنوات نزيل غرفة باردة فوق السطح وقد تمزقت ثيابه ورق حاله وصار فريسة للحشرات وراح يسأل الناس المال كي يبتاع فرشا وطلاء . لم يبال بالجوع ولكن لا مفر من أن يرسم ، وحسنا كانت الحياة تبدو وكأنها لا تنتهي . كان هوكوساى قد ناهز الثالثة والسبعين من عمره ولم يحسب انه فهم الطبيعة ، ولما بلغ الثمانين قال انه أحرز شيئا من التقدم ، وفي التسعين عقد العزم على اكتشاف أسرار العالم المادى ، وتكهن بأنه في العاشرة بعد المائة سوف يبلغ المرحلة التى فيها تنبض أعماله بالحياة الحقيقية .

كان هذا العملاق بين الرجال عالما قائما بذاته ، فكانت قدرته على الملاحظة لا تعرف الوهن . واستطاع بما وهب من عبقرية أن يلم بجوهر الموضوع دون أن يصرفه عنه الخوض في التفاصيل فحسب . وتكاد طاقته على العمل تبلغ حد الاعجاز كما تكشف أعماله جميعها عن أن هذا العبقري لم يفقد روحه المرحة بالرغم من فقره المدقع .

لم يحظ هوكوساي دائما بحب اليابانيين إذ لم يكن ذلك العملاق يعامل معاصريه معاملة جادة ، ومع ذلك فان العالم الغربي يعتبره واحدا من أعظم الفنانين في جميع العصور . وفي العاشرة من شهر مايو عام ١٨٤٩ وافته المنية وهو في التسعين من عمره وكانت كلماته الأخيرة : « لئن منحتني السماء خمس سنوات أخرى لربما أصبحت رساما » .

اليابان

رسموا ايقاع العالم

هارنوبو ـ شاراكو ـ هيروشيج

اختلاس اللحظة الزائلة وتخليدها فن .

ان الرسومات اليابانية الملونة المحفورة على الخشب تمثل عالما خياليا خاصا بهم ، انه ضرب من الفنون يثير الاعجاب والافتتان والدهشة على التوالى ، ويكاد الخيال الفنى وحذق الصنعة اللذان اتضحا فى الرسومات اليابانية المحفورة على الخشب يبلغان حد الاعجاز .

ولعل الرسومات الخشبية اليابانية كانت أرقى ما أنتج من فن وأكثره نضوجا فى شرقى آسيا . ولم يسع أساتذة هذا الفن الى محاكاة الطبيعة . فقد استوعبوا جو الحياة ذاتها وروحها ووقعها ونغمها الصاخب بأسره ، فلم يكن هم الفنان مركزا فى أن يجلس ويرسم صورة بل كان يتحتم عليه بادىء ذى بدء أن يحدد معالم الصورة بكل تفاصيلها فى ذهنه ، ثم تجزأ تلك الصورة الى الألوان المكونة لها ، عندئذ يرسم عدة صور : صورة لكل لون من الألوان التى تتكون منها الفكرة بأكملها ، وبعد أن يثبت هذه الصورة فوق كتلة خشبية يقطع المساحات غير الملونة فلا تبقى غير الأجزاء الملونة ثم يرسل الصور الملونة الواحدة بعد الأخرى الى ورشة حفار الخشب . ومن ثم كان اخراج صورة من خمسة عشر لونا يتطلب خمس عشرة صورة تمثل كل منها لونا واحدا . وما أن يتسلم الطباع القطع الخشبية الخمسة عشر حتى يبلل كلا منها باللون اللازم ويطبعها على الورق الواحدة تلو الأخرى . ولا يلقى الفنان النظرة

الأولى على عمله الا بعد تمام ذلك • ولعل صنع صورة ملونة بالحفر على الخشب أشبه ما يكون بتألف سمفونية •

كان الأمر يقتضي ، ولا شك ، أن يطبع كل لون بدقة بالغة ، فأى اختلاف طفيف بين قطعة خشبية وأخرى قد يعنى تغييرا فى ملامح الوجه وكان لابد أن يكون كل خط في مكانه لا مرة واحدة فحسب ، بل بعدد الألوان ، واذا ما علمنا أن اليابانيين لم يستخدموا أية وسائل للشف بل كانوا يعتمدون على الذاكرة فى قطع كل قطعة منفصلة من الخشب بدقة بالغة تصل الى كسر من البوصة ، لتكشفت لنا عظمة هذا الفن الحقيقية • فهؤلاء الفنانون الذين وعت ذاكرتهم الوحدة الكاملة لمثل هذا العمل هم وحدهم الذين يمكن اعتبارهم عباقرة مبدعين بحق •

حدث مرة أن قرر هوكوساى ، بعد ثلاث سنوات من تسليم القطع الخشبية لطبع احدى صوره ، أن اضافة بعض الألوان قد تزيد الصورة جمالا ، وبدون توفر ما يسترشد به أعد الصور للألوان الاضافية ثم طبعت بكل تفاصيلها • وفى مثل هذا الفن لم يكن يسمح بالعمل الرث والخطوط غير الواضحة والألوان الملطخة ، ولم يكن من وسيلة لتصحيح أى حفر فى الخشب اذا ما تم حفره ، كما ان انتقاء الألوان كان عملا خلاقا من الأهمية بمكان • ومن ثم فان أساتذة الرسم على الخشب بألوانه الجميلة المتعددة من اليابانيين الذين جاوزت شهرتهم الآفاق كانوا عباقرة بحق • كان لابد من أن يتوفر لديهم الاحساس الصادق بتكوين الفكرة وأن يكونوا رياضيين مدربين ولديهم احساس بالمرئيات وقدرة على تصور تداخل الألوان دون سابق رؤيتها ، هذا بالاضافة الى أن يكونوا على قسط وافر من الذكاء فى صناعتهم • لكن الأهم من هذا كله هو انه عندما كانوا يرسمون صورة لفتاة جميلة مثلا كان يتحتم عليهم أن يصوروا روح الجمال وليس شكله فحسب لقد كان فنهم يسمى « بالعالم المتحرك » وباليابانية « يوكيو » (Ukiyo) وأما الرجل الذى اطلق على الرسومات اليابانية الملونة اسمها فهو « يويكو » ـ ماتابى وتسمى مدرسة الرسم التى أسسها مدرسة يوكيو أى ، بيد أن أساتذة الحفر على الخشب الذين حذوا حذوه فى تصوير الحياة وايقاعها لم يهتموا اطلاقا بالخيال المطلق ، بل راحوا يرسمون العالم من حولهم • وان صفة الخلود التى حققوها بأعمالهم هى التى تكمن فى سر كل فن عظيم وهو : اختلاس اللحظة الزائلة وتخليدها •

وسوف يتبين من يعرف اليابان ، أهمية الدور العظيم الذى تلعبه الخلالة ، تلك الأداة الصغيرة التى نزدرى بها نحن الغربيين •

كان هنالك على مقربة من معبد كوانون بحى أساكوسا بطوكيو منذ حوالى مائتى عام حانوت لبيع فرشة الأسنان والخلالة ، لصاحبه « نيهيجى ـ يانا حى ـ يا » وكانت مؤسسته الصغيرة تعرف « بدار الصفصاف » ولعل طوكيـو فى تلك الأيام كانت تسمى « ييدو » وقد ازدهرت أشجار الكرز التى كانت تنمو بها ازدهارا كبيرا ، كعهدنا بها اليوم تماما وتملأت بحيراتها الصغيرة بأسماكها الذهبية اللون وازدهرت أشـجار الجنجكو بأوراقها الفضية اللون السميكة سمك الجلد المصـقول · وكانت باليابان فتيات غاية فى الحسن والجمال كعهدنا بها اليوم ·

وكان الطلب على الخلالات شديدا تماما كما هو الحال اليوم ، ومع ذلك كان هنالك ما جذب الرجال بنوع الخصوص الى حانوت نيهيجى · انها أبنته الحسناء « أوفوجى » التى لم تكن تناهز السادسة عشر ربيعا والتى بلغت من الجمال ما حدا بكتاب المسرحيات عـام ١٧٦٩ الى أن يطلقوا اسمها على بطلاتهم · كما كان الأطفال يرددون فى الشـوارع الأغانى القصيرة التى تتغنى بمفاتنها · وذات يوم دخل الحانوت رجل نبيـل يرتدى رداء قاتم اللون فأحنت أوفوجى رأسها ، وبعد أن تردد الرجـل على الحانوت قامت بوضع بعض زهور الكرز فى وعاء « الساكى » الذى يقدم لكل عميل طيب عادة · كان هذا الرجل هو هارنوبو الرسام الذى وقع فى غرام الفتاة فما لبثت أن تظهر فى كثير من صـوره ، وترى فى احداها جاثية فى حانوتهـا تدخن التبغ وقد جلس هارنوبـو نفسـه الى جوارها ، وليس من السهل فهم كنه النظرة المتبادلة التى ارتسمت عـلى الوجهين الرقيقين وان كانت تحمل فى ثناياها الرقة والشـوق والخلود التى ندر أن عبر عنها فنان آخر ·

ولم يكن هارنوبو يستطيع أن يرسم الا اذا أحب ، ولم يكن يقع الا فى غرام الفتيات الصغيرات اللواتى لم يزلن يتسمن بجاذبية البســاطة وسحرها ، لقد رسم مخلوقات جميلة أشبه ما تكون بالزهور بوجوه دقيقة وأيد وأذرع فى رقة لا يمكن تصورها مع جمال الطفولة وحلاوتها · ولهذا كله كان أسلوبه لا يعرف ما هو قبيـح تنفـر منه النفس ، ومازال لغزا كيف كان لهارنو بو ان يرسم فتياته بمثل هذه الحيوية ، ناهيك عن جمالهن الهادىء · وكان الفنان فى شوقه الخالد الى الجمال قد اكتشف فتاة فى السادسة عشرة من عمرها أيضا قبل أن يعثر على أوفوجى اسمها « أوسن » تعمل فى دار كاجيا للشاى بكاساموري حيث معبد انياري الذى تحدثنا عنه الروايات اليابانية المعاصرة وتقول بأن السياح لم يكونوا يترددون على هذا المعبد رغبة فى الصلاة بل طمعا فى خـدمة « أوسن » الساحرة بدار كاجيا للشاى ، كانت أوسن فتاة ريفية تضع مشطا طويلا فى شعرها وتنتعل قبقابا متواضعا ، ولم يكن يزين وجهها الفاتن أحمر

الشفاه أو المساحيق ومع ذلك لو مر بهـا عشرة رجـال لاستداروا نحوها وحملقوا في وجهها .

كانت أوسن تتحلى بالوداعة التى هى من مستلزمات جميع الفتيـات اليابانيات المهذبات ، وتحب والديها ، كما كانت تحس بجمالها وأصبحت نموذجا للفنان الذى يتسم بالصبر ولعلها الفتاة الوحيدة فى التاريخ التى غنت قصائد الشعر الرصين التى أشادت بجمالها ولم تبعث الملل فى نفس أحد ، بل أتاحت لكل من سمعوا أغنيتها (التى نظمتها بنفسـهـا) أن يعيشوا فى عالم الخلود هنيهة :

من سحب البخار البنفسجية اللون
تخرج كما لو أنها
اكتست بطبقة الذهب والفضة ..
تجلس بجانب الغلاية المليئة بالشاى
غارقة فى التأمل على انفراد .
تفكر وتفكر دوما في هذا وذاك
وتقرع رأسها الصغير بدبوس فضى
ومن يبغى راحة سافيه قليلا
فعليه بذلك فى كاساموري
تحت ظل احدى الأشجار

كان هارنوبو يتمثل نماذجه الساحرة بطريقته الخاصة اذ كان يهدف الى أن يثير أرق عواطف المشاهد ، وكان اهتمامه بالتأثير اقل منه بالتعبير عن مفاهيم الحب والجمال الخالدة بأسلوب خالد أيضـــا . وفى احـدى صوره نرى فتاة جميلة نحيلة وهى تعبر قنطرة أثناء هبوب عاصفة ثلجية وأخرى تمثل طفلة جذابة تنفخ فقاقيع الصـــابون لأخيها فى الحديقـة ، وثالثة تصغى الى طائر الوقوف ، ورابعه تستمع الى ناقوس المساء وهو يدق من معبد مجاور ، وخامســة ترى وهى تبتاع مروحة ، وسـادسـة تستأذن عشيقها للرحيل ، وسابعة تضع فى يد فتاة صغيرة خطابا غراميا .

ومن بين نماذج هارنوبو فتاتان بلغتا من الجمال جدا اختيرتا من أجله للرقص فى حفل تكريم صورة الاله شوشى فى معبد يوشيما بمدينة « يدو » ونسمع عن فتاة حسناء أخرى جاءت من دار « تسوتايا » للشاى بحى اسباكوسا .

وكان هارنوبو شديد الازدراء لكل ما هو فظ وخشن لكونه ارستقراطي المولد والفن ، كان يمقت المسرح اذ لم تكن للممثلين سمعة طيبة وأراد هارنوبو أن يرفع مستوى فن مدرسة « يوكيو ـ اى » فحتى عندما رسم هينا تسورو العاهرة المشهورة « من بيت كلوفس » بيوشيوارا جعلها تبدو بريئة وجميلة وأشبه ما تكون بالنرجس ولا تحس بواقعها حتى اختفت من الصورة تماما أية اشارة للطبيعة المتقلبة لحياتها اليومية الحقيقية . كل ما برز في الصورة هي نظرة الفنان التى عبر عنها فى رقة بالخطوط والألوان . لقد رسم هارنوبو هينا تسورو مرارا . ولو انه رسم تلك العاهرة مرة واحدة ، كما فعل « فى الصور التى ترتدى فيها الثياب البيضاء الفضفاضة » لكان ذلك كفيلا بأن يجلسها على عرش الخلود .

ومن ناحية أخرى فان أساتذة الحفر على الخشب من اليابانيين لم يحاكوا الطبيعة محاكاة عمياء ، فقد كان هؤلاء الفنانون يجمعون الانطباعات الفكرية حتى تتكون لديهم فكرة واضحة ويصبحون فى حالة استعداد لرسم جوهر فكرتهم ، ولو كانوا قد عرفوا الألوان الزيتية لحالت حكمتهم دون استخدام لها .

وقبل اختراع الحفر على الخشب بزمن طويل كان اليابانيون يستخدمون الألوان المائية على الحرير والورق ، كما كان من الممكن طى الصورة المرسومة التى كانت تسمى (Kahemono or Makemono) وفوق هذا كله فان « يوكيو ــ اى » يعد أسلوبا متميزا في الرسم . وتبرهن القائمة الطويلة التى تضم العارضين النابهين لفن « يوكيو ــ اى » على ان الفنان الأصيل لا يضار اطلاقا لو انه بدأ حياته الفنية مقلدا أمينا لأستاذه ، وان هذا لا يؤدى بالضرورة الى حياة فنية تقوم بأسرها على التقليد ، كما انه لا يمكن للأسلوب المتميز المستقل والأصالة أن يتطورا الا بعد الاتقان التام لحرفة التقليد .

أما انتاج صورة ملونة فكان يتطلب تعاون أشخاص أربعة هم : الناشر والفنان وحفار الخشب والطباع ، ولعل هذه المجموعة تضم معها صانع الورق ، المرجل الذى كان يزودهم بالورق الجميل المصنوع باليد من لحاء شجر التوت والذى تظهر الألوان فوق سطحه واضحة جلية .

وكان اليابانيون على بينة من ان الفن أكثر ـ ولا غرو ـ من محاكاة الطبيعة ولم يكن فى العالم من يبارى فنانى « يوكيو ــ أى » على الاطلاق فقد انصب اهتمام أساتذة الحفر على الخشب من اليابانيين قبل كل شيء على ابراز العناصر الجوهرية فى الخطوط والألوان ، ولم يكن هنالك

ما يخشونه ، بل ومن الجائز القول ان هوكوساي ، على سبيل المثال ، قد حال ما بالطبيعة من فوضى الى نظام ، وقد نضيف أيضا ان هـذا النوع من النظام كان ينبض بالحياة على نحو غير مألوف ٠

ولقد أثار المعرض الذى أقيم فى باريس سنة ١٨٦٧ لرسومات هوكوساى وأوتامارو وهيروشيج دهشة كبرى ٠ ورأى مانيه ، وهو من أشهر انصار المدرسة التأثرية ، الفرنسية فى أعمالهم الأساليب الجديدة بحق لبلوغ الواقعية على حين انهم أوحوا لمعاصر « مونيه » بأن اللون لم يكن ملازما للموضوع بل كان يعتمد على درجة وضوحه ٠ وشرع الأوربيون يشترون ويجمعون الرسومات المحفورة على الخشب ، كما حذت حذوهم المتاحف فى ربوع الأرض قاطبة ٠

وكثيرا ما يغيب عن البال ما كان لأساتذة الحفر على الخشب اليابانيين من تأثير بالغ على الرسم الحديث فى أوربا ، فأعمال اليابانيين هى التى مكنت أنصار المدرسة التأثرية الفرنسية من ادراك جوهر الموضوع أى تأثيره ، مما ساعدهم على ملاحظة المؤثرات الجوية وما يؤديه الضوء وتوزيع الألوان من دور ، لا كما يبدو بالفحص الدقيق عن قرب بل على أساس تأثرها بالضوء وانعكاسات الطبيعة ٠

وعلى الرغم من ذلك فان عمال شاراكو من بين أساتذة الفن اليابانى جميعا تباع اليوم بأغلى الأثمان ، فهو بحق اكتشاف أوربى ذلك ان اليابانيين أنفسهم لم يبدأ اهتمامهم به الا بعد أن جعل تجار الفن الأوربيون والأمريكيون من رسوماته سلعا رائجة ٠ ولم يشرع اليابانيون فى تتبع سيرته الا فى مرحلة متأخرة ، ولم يتضح لهم الا مدى ضآلة ما يعرفونه عنه ، وطوى النسيان اسمه الحقيقى كما ان تاريخ وفاته لا يزال مجهولا وكل ما نعرفه عنه انه كان سيدا نبيلا ، تابعا لأسرة أمير ٠ وكان له دخل ثابت من هذا الأمير ، فلم يعرف الفاقة أو الجوع ولم يعمل قط من أجل كسب المال ٠

واليابان بلد المسارح دائما أبدا ، فمسرح كابوكى مدين بوجوده لمسرحيات « نو » الخاصة بالطبقة الارستقراطية وللرقص اليابانى ، ولمسرح العرائس ٠ وكان الأمراء أنفسهم يشتركون فى اخراج المسرحيات كما كان شاراكو ممثلا ٠

وكان الممثلون فى حاجة الى الشهرة وهذه « حقيقة ليست من بدع هوليود وحدها » ، فقد كانت مدينة « ييدو » على بينة منها اذ استخدمت مسارحها صور الممثلين كملصقات للاعلان ٠ وحدث فى ربيع عام ١٧٩٣ ابان « موسم سخيف » للمسرح فى « ييدو » أن ظهر شاراكو بغتة على

المسرح • وتحت سحر فرشاته الراقصة ظهرت سلسلة من رءوس الممثلين الهزليين في ذلك الحين كما ظهرت صورهم الكاملة بوجوههم الكبيرة الشاحبة ، وراح شاراكو يرسم بأسلوب أخاذ صورا غريبة مخيفة منفرة تشد اليها ، ولاشك ، انتباه المشاهد وتفكيره ، بيد ان شاراكو أساء الى الجمهور ، ولعل كراهيتهم له هي التي حملته الى عالم النسيان •

وكانت الحدقات المحملقة والوجوه المقطبة والعيون المائلة الثاقبة والصور الخلفية القاتمة ما هي الا أعراض لصراعه المرير مع الأرواح غير المنظورة التي ظلت ــ برغم ما كان يتسم به من جرأة ــ فوق طاقاته على التعبير • وكان شاراكو يصارع دائما مع القدر ومع ما فرضه عليه العالم المادي من قيود فاذا هو يغدو أشبه ما يكون بعملاق يقاتل قوة غير منظورة تفوقه قوة ، ويكاد لا يصدق ان كل ما بحوزتنا من أعمال شاراكو تم رسمه في غضون سنة واحدة ما بين ١٧٩٣ و ١٧٩٤ • ولم يكن أحد من رافضي مسرحيات « نو » وممثليها قد رسمت صورته من قبل •

واختفى شاراكو فجأة كما ظهر ، ولعل أميره منعه من أن يتيح « لفئة الممثلين المحتقرة » فرصة الخلود • ويكتنف هذا الفنان الكبير في الحفر على الخشب من الغموض ما يجعله اليوم شبحا وان كان قبره المهجور قائما في توكوشيما ، ورغم ذلك فان الرجل الذي لا نعرف عن سيرته سوى النزر اليسير قدم ممثل عصره المتواضعين الى جمهور أكبر مما كانوا يحلمون •• الى العالم بأسره •

أما يوتامارو فكان أكثر رسامي النساء في اليابان نبوغا وذكاء ، وكما كان هوكوساي معجزة عصره مثله في ذلك مثل ليونارد دافينشي كان هارنوبو رسامها الولهان الذي دأب على رسم جمال النساء الفطري وكان شاراكو النجم المذنب الذي أضاء المسرح الياباني في ظلامه • وفي النهاية ظهر هيروشيج ، أكثر الرسامين القوميين في اليابان صدقا من حيث انه رسم معالم اليابان وقد أبرز في رسوماته مخلوقات بشرية لا حول لها في وسط متاعب البيئة الطبيعية التي تحيط بهم وتهدد بالخطر حياتهم •

لقد نقل هيروشيج في رسوماته الخشبية عجائب جزر اليابان بأسرها ، المناظر الستة والثلاثين « لفوجي ــ نو ــ ياما » المقدس ، وأوجه بحيرة « بيوا » الثمانية والريف المحيط بمدينة « ييدو » ، والجبال التي تكسوها الثلوج والتي يسكنها قوم خانعون يبدون في الجو البارد بلا حياة حتى ان من ينظر اليهم تسري في جسمه رعشة والشلالات الهادرة في ناروتو ، وندف الثلج ، وتدفق سيول الأمطار المنحدرة ،

والنوتية الأشداء وهم يقاومون تيار الماء ، والمناظر الخلوية المنعزلة التى يضيئها ضوء القمر ، والبحار العاصفة العاتية ٠

كان الانســان فى عرف الفنانين السابقين لهيروشيج أهم موضوع للرسم ولم تكن المناظر الطبيعية تحتل أكثر من خلفية الصورة ٠ لكن هيروشيج غامر برسم الطبيعة ذاتها فجاءت صوره جريئة فى وعيهـا وهى تعبر دائما عن حالة بعينها ، فان بدت لناظرينا انها أحيانا غير واقعية ، فمرد ذلك الى عدم معرفتنا باليابان التى تلوح ، فى الحقيقة على نحو ما صورها هيروشيج ، جبال تشق عنان السماء مخترقة طبقات الضباب المخيمة ، وطبيعة على استعداد دائم للانقضاض على حيث ان الانسان ، عبدها ، ينطلق مسرعا فى الحياة ٠ وكان هيروشيج ، بما تميـزت به أعماله من جرأة ، يسيطر على المخلوق الزائل وهو الانسان وعلى الطبيعة الجبارة التى لا يحدها زمن ٠

استراليا

حيث الموتى يحيون

ابتلع البحر قارة جوندوانا بينما راح شعبها يعيش
في استراليا منذ مليون سنة

في عام ١٩٤١، أي في منتصف الحرب العالمية الثانية، مات رجل هولندي عظيم وقد حمل معه الى القبر قدرا كبيرا مما كان يلم به رغم ما تركه وراءه من مؤلفات رائعة كثيرة •

انه يوجين ديبوا (Eugene Dubois) الذى اكتشف أقدم جمجمة بشرية وجدت على وجه الأرض •

ولم يكن اكتشاف ديبوا، أستاذ التشريح، من قبيل الصدفة (فالذى اكتشف صدفة هو سطح الجمجمة) فقبل أن يغادر هولندا قاصدا جاوا أعلن انه قد يعثر على بقايا لمخلوق بدائى يمت للانسان بصلة، وفى جاوا عثر ديبوا وهو يحفر فى ضواحى ترينيل (Trinil) على الانسان شبيه القرد (Pithecanthropus)، أى آدم فى علم دراسة الانسان ويقدر عمر هذا المخلوق بخمسمائة ألف عام وكان حجم مخه ٩ر٥٤ بوصة مكعبة، بالقياس الى مخ الغول (٥٥ر٣٣ بوصة مكعبة) ومخ الرجل الحديث (٧٣ الى ٧٩ بوصة مكعبة) وينسب غالبية العلماء الانسان شبيه القرد، الى فرع من فروع البشر المنقرضة (انظر بول ــ فالوا، بقايا آدمية، باريس ١٩٥٢، ص ١٢٧) فتركيب عظامه تضعه فى منتصف الطريق بين الانسان الحديث وبين

جده الأول ، ومن ثم فان الاصطلاح (Pithecanthropus) ، المشتق من الكلمة اليونانية « قرد » و (Pithekes) (Anthropos) « انسان » مضلل الى حد ما .

ولما كان هذا المخلوق (Pithecanthropus) شبيها بالانسان فلا مراء أن مئات الألوف من سني التطور قد سبقته ، ولم يكن هو أو أجداده يعرفون الأرض بصورتها الراهنة ، فالقارات والجبال والجزر والمحيطات بل ومركز القطبين قد تعرضت لتغيير أكثر وضوحا مما تعرض له ظهور الانسان ، فلقد ابتلعت المحيطات بعض أجزاء القشرة الأرضية بينما برزت أخرى من قلب الماء .

ولم تكن قارة استراليا دائما جزيرة .. اذ كان هناك جسر يصلها ذات يوم بجنوب شرقي آسيا ، بل من المرجح ان جنوب أفريقيا والهند واستراليا كانت تربطهم معا تلك البقعة من الأرض التي أغرقتها المياه والتي يطلق عليها علماء الحيوان ليموريا (Lemuria) وعلماء الجيولوجيا جوندوانا (Gondwana) ولما كان الانسان قد وجد قبل أن تنفصل القارات بزمن طويل فان استراليا تعد اليوم متحفا لعلم الأجناس ومن المؤكد انه ليس من قبيل الصدفة أن يكتشف الانسان الأول في جزيرة جاوا المجاورة .

وكان أهم اكتشاف يتعلق بسكان استراليا الأصليين قد تم في طالجا (Talga) جنوب شرقي كوينزلاند (Queensland) عام ١٨٨٤ عندما أميط اللثام عن جمجمة في حال جيدة . وعلى الرغم من انه لم يعثر على أية عظام بشرية أخرى في المنطقة الا انه قد تم الكشف عن بقايا حيوانات منقرضة تشمل عظام القنغر القديم وبعض الزواحف ذات القرون وبعد دراسة أجراها أخيرا دكتور س . أ . سميث على جمجمة الانسان الاسترالي الأول استنتج انها تشبه جمجمة الانسان الحديث الذي هو من أصل استرالي . واذا ما وضعنا في الحسبان ان سكان استراليا الاصليين لم يحسوا بعد بوعي قومي ومن ثم بكبرياء وطني أمكننا أن نضيف بلا تردد أن الخصائل التي رآها دكتور سميث في الاسترالي الأول هي أقرب الى القرد منها الى أي جنس بشري حيا كان أم منقرضا . وفي كهوف ويلنجتون أمكن اكتشاف المزيد من عظام بشرية كما عثر على آثار أقدام متحجرة لسكان استراليا الأصليين في الصخور الموغلة في القدم عند وارنا بول ، الواقعة على مسافة ١٢٠ ميلا جنوب غربي ملبورن ويدل ذلك كله على أن الناس كانوا يعيشون في استراليا خلال الزمن الجيولوجي الثالث الذي بدأت فيه الأحياء اللبونة بالظهور ، منذ ما لا يقل عن مليون سنة ، وربما قبل ذلك بكثير .

ثم وقعت الكارثة •

ولسـنا على يقين من اليوم الذى فصلت المياه فيه اسـتراليا عن آسيا ، وكل ما نعرفه هو أنه عندما غرقت أرض جوندوانا ، وهى واقعة أقرب الى التصديق من رواية الاطلطنى ، غاصت فى قلب الماء قارة مترامية الأطراف وظلت استراليا قائمه •

هكذا بقى السـكان ومرت بهم الأيام ، ولم يكن باسـتراليا غير حيوانات خطيرة قليلة وكان الصـيد طيبا ، ومضـت آلاف عديدة من السنين قبل أن تجفف حرارة الشمس البقـاع الشـاسعة الخصيبة من الأرض ، ولما انفصلت القارة تماما استقر السكان الاصليون فى قارتهم المنعزلة التى تحوطها مياه لا حدود لها ، وعلى مسافة تربو على تسعة آلاف ميل من شواطىء أمريكا الجنوبية وخمسـة آلاف ميل من أفريقيا تطور الانسان والحيوان تطورا مستقلا عن نظيريهما فى بقية أنحاء العالم •

وظلت استراليا قابعة فى هدوء حتى عام ١٦٠٥ عندما هبط بخليج كاربنتاريا الملاح الهولندى وجانسزون ، وبلغ ديرك هارتوج الهـولندى غربى استراليا سنة ١٦١٦ واكتشف كابتن جيمس كوك أرض استراليا سنة ١٧٧٠ ، ومع ذلك كان المستكشفون يتوقعون الى حد ما ، العثور على قارة فى تلك البقعة اذ ساد الاعتقاد أنه « لا غناء عنها لتوازن الكرة الأرضية » •

وباكتشـاف استراليا عثر الانسـان على قارة بأسرها كانت فى الحقيقة متحفا حيا لدراسة احدى فصائل الانسان الاولى التى لم تحرز تقدما يذكر عبر آلاف السنين ان لم يكن مئات الألوف ، كما أن النباتات التى نمت بها لا يوجد لها مثيل فى أية بقعـة أخرى على وجـه الأرض ، وتسعة أعشار النباتات الاسترالية لا تزدهر فى غير تلك القارة ، وهذا وحده دليل كاف على طول الفترة التى قضتها استراليا فى عزلة • وبعد ردح من الزمن اكتشفت « أرض الحفـريات الحيـة » فالحيوانات التى عاشت بها كانت من النوع الذى لم تشهده غير العصور الجيولوجية الأولى فقد كانت استراليا تضم ما يزيد على مائة وخمسـين نوعا من الحيوانات الجرابية تتدرج من الحيوان المتسـلق الصـغير الى القنغر الضـخم ، والحيوانات الثديية التى تضع بيضا تغطيه قشرة كالجلد مثلما يفعـل البط ذو المنقار ، والطيور مثل « الكاسوراى » والنعام التى فقدت قدرتها على الطيران اذ لم تعد تطاردها أعداء طبيعية ، كما سـكنت فى غابات الكافور الفسيحة حيوانات كالكولا التى تتسلق الاشجار أشبه ما يكون بالدببة الماهرة •

فى هذا العالم المفقود المنعزل انطلقت قبــائل أقدم جنس بشرى تصطاد وتهيم على وجهها .. قوم كانوا لا يزالون مرتبطين بالانســان البدائى ارتباطا مباشرا . لقد فرضت على هؤلاء السكان القدامى الذين هم أشـبه ما يكونون بروبنسن كروزو حياة لا تعدو أن تكون صراعا من أجل البقاء ارتبطوا فيها بنظم ضاربة فى القدم توارثتها أجيــال متتابعة وتمسكوا فى اصرار بعاداتهم وطقوسهم القديمة وانقسموا الى خمسمائة قبيلة مختلفة يفصل بعضها عن بعض لغات ولهجات متباينة ، كما أخذت حياتهم تزداد قسوة فوق قارة راحت تجف شيئا فشيئا مما حملهم على البحث عن الماء دون توقف ، وبدأت احتياجات هؤلاء القوم تتناقص باضطراد كما ازدادت جماجمهم سمكا لتقاوم حرارة الشمس اللافحة .

والى عهد قريب ، فى سنة ١٩١٤ كان باستراليا من السكان الاصليين من لم يشهدوا رجلا أبيض على الاطلاق . ويقدر عدد الاستراليين الأصليين الذين كانوا يعيشون فى القارة عند ظهور الرجل الأبيض فى استراليا لأول مرة — ويحدد تاريخ ذلك بعام ١٧٨٨ — بحــوالى ثلاثمائة ألف مواطن .

واندفع الأوروبيون الى قلب استراليا أشبه ما يكون بمرض خبيث ألم بها فانحطت حياة السود فى ربوعها تحت وطأة هذا الغزو الأبيض ، فما أن غمر التيار الأبيض شبابهم وأخذ يربطهم بأكثر المؤثرات قدرة على الهدم واثارة للفوضى والاضطراب ، وهى ما نسـميه بالحضارة الغربية ، حتى أعلنوا تمردهم على القدامى الذين استطاعوا حماية عاداتهم القبلية وشعاراتهم — رموز عبادة الأسلاف — عدة آلاف من السنين ، وجعل الرجل الأسود ينقرض رويدا رويدا وأضـــحوا رجال قنص لا يكترثون بشىء ونسوا المهارات الصغيرة التى تعد أساسا فى الحفاظ على الحياة فوق قارتهم . وحصـــلوا ، لأول مرة على ما يكفيهم من الماء ، بيد أنهم أخذوا يذبلون فى ثيابهم الجديدة واكواخهم المصـنوعة من الحديد المضـــلع كما تذبل مجموعة من الزهور اذا ما وضعت فى مكان رطب . وتناقص عدد السكان الأصليين ، وبعد أن كان ٣٠٠ ألف نسمة أصبح ستين ألفا ثم خمسين ألفا ، ولا يتعدى اليوم عدد من يحيون حياة بدائية كأسلافهم خمسا وعشرين ألف نسمة .

وأخيرا أمكن العثور على أولئك الأستراليين الذين لم تزل لهم القدرة على الصراع مع القارة الوعرة فى الاقاليم الوسطى الحارة فحسب ، فى منطقة جرداء وعرة حيث ما انفكوا يصطادون القنغر والنعام وتصـــيد نساؤهم الثعابين والفيران والضفادع والسحالى والديدان وحيث يجمعون الزنبق والعشب والحشائش والبذور ليقتاتوا بهـا ، ويتغلبوا عـلى الظمأ

فى صحراء تم تهطل فيها قطرة من المطر فى أشد السنين قحطا) بأستخراج المياه من جذور النباتات .. وهو فن لم يتقنه أكفأ المكتشفين البيض . ولم يستخدم الاستراليون الأصليون أى نوع من الاوانى لغلى الماء أو طهى الطعام ، فقد كانوا يطهون لحومهم فى رماد أو تراب أو صلصال أو طين ساخن . وكانوا اذا اقتنصوا حيوان القنغر يسارعون بقطع أجزائه الخلفية .. وهى طريقة أفضل على حد تفكيرهم للسيطرة عليه من مجرد قتله .

وكان لكل قبيلة منطقة للصيد والحياة قاصرة عليها ، وكان من النادر ان تعتدى احداها على حدود الأخرى . ولعلنا فى الواقع ، نستطيع القول بوجه عام أن البدو أفضل من الاجناس المستقرة من حيث الالتزام بالحدود فالبدوى أكثر الماما بأقصى حدود بلاده من سكان وديان الانهار المستقرين .

وكان من النادر أن يغير الاستراليون الأصليون على القبائل المجاورة ، وكانت القبائل فيما بينها تعيش فى سلام ، ولا تنفى ذلك حقيقة أن بعض المستكشفين يزعمون بأنه كان يتناهى اليهم من على بعد أصوات العصى الخشبية وهى تهوى على الرءوس ليلا . فضرب الزوجة على رأسها بقطعة من الخشب كان يعد فى استراليا من قديم الزمان عملا تأديبيا نافعا كما كانت المبارزات التى فيها يضرب المتبارزون من الرجال أو النساء بعضهم فوق الرأس بهراوات خشبية تقام فى جو تسوده الروح الرياضية والعدالة . فان كان المتبارزون نساء دأب الرجال على أن يجلسوا فى هدوء يراقبون دون تدخل الا اذا لجأت المتصارعات الى العنف ، أما اذا كان المتصارعون رجالا فان تدخل النساء لم يكن يتعدى حماية الرجال برءوسهن .

ولا يمكن الحكم على حضارة بمقارنتها بأخرى ليس بينهما أواصر صلة ، كما يتعذر تقييم أية حضارة بمعايير حضارة أخرى . ان حفلات الرقص الاسترالية التى كانت تقام فى ضوء النجوم يصحبها ضرب الأرض بالاقدام والوثب الايقاعى حول نيران متوهجة وأصوات الرجال المنطلقة كالهدير من حناجرهم ، لتعد من أهم ألوان الرقص الجماعى فى العالم وتحكى تلك الرقصات روايات كاملة بالتمثيل الصامت ، وهى تمثل الطيور وهى تصطاد السمك أو تروى تاريخ شعار القبيلة أو سيرة جد القبيلة الاكبر . وقد تبدو الرسوم التى هى على دروع السكان الاصليين واجسادهم وجدران كهوفهم بدائية بيد أن ما تنطوى عليه من مفهوم خيالى لجد رائع .

ويبدو ان الرسوم التى وجدت فى الكهوف المنتشرة على طول أنهار

الهمبر (Humber) وجلنلج (Glenelg) وفورست (Forrest)
وفي سلاسل جبال مسجريف Musgrave رسوم موغلة في القدم ، ومن بينها صورة مخلب قنغر بائد ، لابد أن الفنان كان معاصرا له ، وتبدو بصمات أيدي أفراد قبيلة وررورا Worora في الكهف الواقع عند ميناء جورج الرابع أشبه بخيوط مؤلمرات تنسجها الأشباح ليلا · وتلوح رسوم الحيوانات بسيطة أخاذة كما تبدو الأسماك وهي تسبح على طول الجدران الصخرية وكأنها في حوض متحجر ·

وليس للحضارة بداية أو نهاية ، فكما كان اكتشاف العجلة انتصارا ثقافيا صانعا لعصر برمته فان اختراع الحربة الاسترالية كان خطوة على طريق الحضارة · ويعد « البومرنج » — سلاح السكان الأصليين الطويل الذي يمكن أى خبير من أن يتخطى الرقم القياسى العالمى فى الرماية دون مشقة — من روائع ما ابتكرته عبقرية الانسان · حقا لقد كانت الحياة التى اندثرت هنا بالغة الحيوية لما كانت تحويه من مهارات لا حصر لها فى السيطرة على الطبيعة بأعنف صورها وأشدها خطورة ·

ويحرص الساحل الشمالى لكوينزلاند دائما الحاجز المرجانى الكبير ، وهو أكبر الصخور المرجانية فى العالم ، ويشكل سدا طبيعيا مقفرا لا يسكنه أحد طوله ١٢٥٠ ميلا ترتطم به الأمواج الدائمة كأنها الرعد

وتقع جزر النخيل بين الحاجز المرجانى الكبير وبين اليابسة على مسافة تقل عن ٥٠ ميلا شمال مدينة تونسفيل فى هذا المكان شاهدت اليقظة المروعة الأخيرة لاستراليا القديمة من حلم كانت تحتمله آلاف السنين ، فتلك الجزر تعد مستودعا للاستراليين الأصليين الذين اتصلوا بحضارة الرجل الأبيض · واليوم يعيش أولئك الصيادون العظام القدامى حياة تفرض عليهم أن يرتدوا ملابس لا تلائمهم ويسكنون أكواخا لم يستخدموها زهاء مائة ألف عام · كما أنها تخضعهم لظروف صحية حديثة تفقدهم القدرة على مقاومة الأمراض · انهم يواصلون الحياة مع أن الكثير منهم لقى حتفه منذ أمد بعيد ، ويمضون فى الرقص بينما يردد المحيط صلاة الموتى على أرواحهم ·

بولينزيا

خبراء في فن البطالة

لامراء أن المحيط الهادى أقدم من المحيط الأطلسى او المحيط الهندى بدهور ، وعندما نقول اقدم فاننا نعني انه لم يصل الى أى وعى حديث • فقد انتفضت شعوب المحيط الأطلسى والبحر المتوسط انتفاضات غريبة ، مرحلة بعد اخرى من الوعى ، بينما راح المحيط الهادى وشعوبه يغطون فى سبات عميق ، ومن ينام تراوده الأحلام ، اذ لا يمكن المرء ان يظل دون وعى فكم ، يا الهى ، من آلاف السنين لبث المحيط الهادى الحقيقى يحلم ثم يتقلب فى نومه ويعود الى حلمه ثانيه : بأغانى الرعاة او بكابوس

(د•هـ• لورانس)

« أمامنا يمتد الأفق ، الأفق الذى يبدو وكأنه يتبدد أبدا ، الأفق الذى يلوح قريبا منا وهو الذى يثير فينا منازع الهلع والريبة ويطبعنا بطابع الخوف •• الأفق بقوته الفطرية الأكيدة الذى لم تشطره مقدمة سفينة •• والسيولة التى لايحدها ارتفاع تحلق من فوقنا ، والبحار الصاخبة تزأر من تحتنا ، وأمامنا يمتد الطريق الذى لم تطأه قدم •• وعلى سفينتنا أن ترحل » ••

تلك أغنية بولينزية ، أغنية البحارة العظام الذين سبقوا الفايكنج (Vikings) أو كولومبوس (Columbus) الى غزو منطقة بحرية تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أمريكا الشمالية •

واكتشف هؤلاء البولينزيون مئات الجزر الخلابة والبراكين الشاهقة كالأبراج وآلاف الصخور المرجانية التى تحيطها أشجار النخيل ، ودان لسلطانهم محيط مرصع بالجزر كما رصعت السماء بالنجوم • وسيطروا على المثلث الذى ترسمه هاواى (Hawaii) ونيوزيلندا وجزيرة ايستر ، ومن المرجح أنهم سبقوا كابرال (Cabral) أو أمريجوفسبوتشى (Amerigo Vespyucci) أو داجاما (da Gama) أو ماجلان (Magallan) الى شواطىء أمريكا الجنوبية بزمن طويل ، والبحث العلمى الحديث دائم العثور على أوجه شبه جديدة بين حضارة بولينزيا وحضارات هنود أمريكا • وكان شعب بولينزيا رجال بحر على الدوام دون أن تكون بهم حاجة لوجود قارة باسيفيكية على غرار الأطلانتس (١) ليستعينوا بذلك على بلوغ ساحل أمريكا الغربى من غير أن تبتل أقدامهم • وهكذا يبدو أن الكثير من مؤلفات علماء الجيولوجيا والأحياء والآثار حول « الأرض الباسفيكية الأطلنطية » أو قارة مو (Mu) تقوم على أسس واهية الى حد ما •

وما من شعب آخر على وجه الأرض أقام فى منطقة جغرافية تعادل مساحتها تلك التى استقر بها البولينزيون ، فقد امتد عالمهم ليضم أكثر من ٦٩ درجة من خطوط العرض و ٧٠ من خطوط الطول ، مساحة تمتد مسافة ٤٧٠٠ ميل بين هاواى ونيوزيلند و ٣٧٠٠ ميل بين تونجا وجزيرة ايستر كان عالم سفن حربية هائلة مجنحة تزود الواحدة منها بطاقم قوامه ثلاثمائة بحار ، وأسفار تدوم شهورا أو سنين ، وحروب لا تنتهى وهجرة لا تتوقف ولم يكن هؤلاء البحارة يعرفون البوصلة أو الحديد • انهم لم يخلفوا لنا تاريخا مكتوبا وما عثر عليه من نقوش فى جزيرة ايستر لم يحل الى اليوم • ومن يدرى كم من آثار غمرتها المياه ؟

وعلى الرغم من ذلك كان البولينزيون أهل شعر وغناء يتناقلون أساطيرهم جيلا بعد جيل وتعى عقولهم الروايات عن تاريخهم ويرددونها على مسامع أطفالهم ، وكان اعتقادهم الراسخ أن من يخطىء فى ترديد حديث منقول تصب عليه الآلهة جام غضبها وتهلكه •

ويروى الماوريون (Maoris) بنيوزيلندا أن أحد زعماء تاهيتى يدعى كوبى (Kupe) هو الذى اكتشف نيوزيلاندا قبل أن تطأها أقدام الأوربيين بأربعين جيلا • كما تروى أسطورة « ماورية » أخرى قصة بلاد اسمها أورو (Uru) كانت ذات يوم مهدا لأجدادهم • وحاول البعض

(١) الأطلانتس قارة جزرية كانت بالمحيط الأطلنطى اختفت تحت سطح الماء — المراجع

أن يربط أورو بأور الكلدانيين فى بلاد ما بين النهرين رغم أن كلمة « أورو » فى اللهجة الماورية ، وهى احدى لهجات اللغة البولينزية ، معناها « غرب » كما أن البولينزيين على بينة من بلاد تدعى اريهيا (Irihia) وقرر بعض الباحثين الضالعين أن اريهيا ما هو الا تحريف لكلمة بريها (Vrihia) وهو اسم سنسكريتى قديم يطلق على الهند ، ولما كانت الكلمة البولينزية رع (Ra) معناها الشمس فانه لم يمض وقت طويل حتى زعم بعض من يسمون بالعلماء أن البولينزيين لابد عاشوا فى مصر ذات يوم حيث ان « آمون رع » هو اله الشمس بمصر القديمة .

وثمة ارتباط أسطورى آخر بين بولينزيا « والموطن » الآسيوى تتضمنه أسطورة هاوايكى (Hawaiki) الشهيرة والصورة الهاوايكية لقصة الخليقة تتردد فى ربوع بولينزيا (باستثناء ساموو تونجا) مع أنها تختلف من مكان لآخر على نحو مسلم به وان اتفقت دائما فى الجوهر . وينشد الماوريون : « انا ننحدر من هاوايكى العظيمة ، من هاوايكى البعيدة ، من هاوايكى القصية » لقد كانت هاوايكى الفردوس السابق لشعب بولينزيا ، المكان الذى خلفوه وراءهم عندما بدءوا يجوبون البحار ويمخرون عبابها فى اتجاه الشمس الساطعة ليكتشفوا عالم الجزائر ويستعمروه ، كما تهيم أرواح موتاهم شطر الغرب الى بلاد الشمس الغاربة عائدة الى هاوايكى .

لكن أين كانت تقع هاوايكى ؟ .

يعتقد الخبراء بوجه عام فى الوقت الراهن إنه من الجائز أن قدماء البولينزيين قد وفدوا من الهند الصينية عبر أندونيسيا ، وهناك أوجه شبه — رغم أن الدليل غير قاطع — ثقافية عديدة بين سكان بولينزية وأندونيسيا ، فقد كان البولينزيون يربون الكلاب والخنازير والدجاج كالأندونيسيين كما كانت النار فى كل من أندونيسيا وبولينزيا (وبين هنود أمريكا) تشتعل بلف عصا عمودية فى قطعة مجوفة من الخشب فوق الأرض ، وتشبه آلاف الكلمات البولينزية الألفاظ الأندونيسية من حيث النطق والمعنى ، ويعد الأندونيسيون من الملايو وهناك تشابه كبير بين اللغات البولينزية والأندونيسية ، حتى انهما يدخلان ، مع اللغات الميكرونزية الميلانيزية ، ضمن مجموعة اللغة الملايو — بولينزية ، ومن ثم يرجح أن البولينزيين قد اندفعوا عبر البحر من تلك البقعة من العالم التى نسميها بجنوب شرقى آسيا أو اندونيسيا .

أما الذى نجهله فهو السبب الذى حملهم على القيام بتلك الرحلات الخطيرة عبر الامتداد الفسيح النادر لمحيط الباسفيك .

وان آلاف المجلدات قد تناولت موضوع الطريق الذى سلكه البولينزيون فى رحلتهم التى هى أشبه ما يكون بوثب الضفادع ، عبر المحيط ... وبالرغم من الاعتقاد الذى ساد طويلا بأنهم عبروا أرخبيل ميلانيزيا فان النظرية الحديثة تدفع بأنهم سلكوا بالفعل طريقا يمر بميكرونيزيا ، وهى مجموعة الجزر التى كانت تابعة لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى .

ولم تقع تلك الهجرات دفعة واحدة بل استمرت قرونا تدفع اليها الحاجة أحيانا وتحمل عليها ، فى الغالب الأعم ، الرغبة التلقائية فى اكتشاف الباسفيك . ونحو عام ٦٥٠ شق هوى-تى - رانجيورا (Hui-te-Rangiora) زعيم التونجيين طريقه حتى بلغ القطب الجنوبى ، واكتشف البولينزيون ، وهم سادة البحر الجياع الى الأرض الذين كان يدفعهم الشوق الى الحرية ، جزيرة بعد الأخرى واستعمروها ، وما التاريخ البولينزى الا سجل حافل بعمليات الطرد والنفى والاستكشافات الخطيرة ، وغرق السفن ، والحروب بين الجزر والكفاح المرير ، ودله الفيل ، والاجهاض من أجل القضاء على زيادة السكان والمجاعة والقرابين المبشرية التى لا حصر لها بل وأكل لحوم البشر .

وما برح الى اليوم سرا دفينا كيف تسنى للبولينزيين عبور مثل هذه المسافات الشاسعة والعثور على جزر صغيرة فى البحار الممتدة دون الاستعانة بالأجهزة الملاحية ، بيد أنهم كانوا على الدوام خبراء فى الرياح والطقس ، ويبدو أنه كان فى مقدورهم التكهن بمدى استمرار الريح ومعرفة بوادر المد والعواصف وكانوا على دراية بنوع التيارات التى كانت تسود فى أجزاء عديدة من محيطهم . كما برعوا أيضا فى علم الفلك فكانوا يعرفون مركز الكواكب فى أية ساعة من ساعات اليوم ، كما كان بوسعهم رؤية الجزر المرجانية القصية قبل أن تكشف عنها انحناءة الأرض بانعكاس لونها الأخضر فوق السحب وكانوا يحددون موقع أية جزيرة بدقة بملاحظة النباتات الصغيرة وهى تطفو فوق سطح الأمواج كما كان بوسعهم قياس عمق البحار ، الى جانب غريزة لا يتطرق اليها الخطأ فى تحديد المسافة بينهم وبين هدفهم المقصود بملاحظة الطيور وهى تحلق فى كبد السماء .

ولقد اضطلع بعض الباحثين الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين والألمان بدراسة مستفيضة دقيقة لتاريخ البولينزيين ورحلاتهم وثقافتهم ولغاتهم وأجناسهم ، وعندما زار كابتن كوك تاهيتى ، وجزر ساندوتش (هاواى) قدر سكانهم بحوالى ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف نسمة على التوالى ، وأما اليوم فلا يوجد من السكان الأصليين سوى ٣٠ ألف نسمة فى تاهيتى و ٢١ ألفا فى جزر سندويتش ونحو ٣٠٠ ألف فى بولينيزيا بأسرها

وبرهنت حضارة الرجل الابيض في هذا المحيط كما في غيره ، على أنها عامل هدم لأسلوب حياة سكان البلاد الاصليين، فلقد حاول المبشرون والمسئولون الاستعماريون ابعاد البولينزيين عن كل ما يمت بصلة لحضارتهم القديمة التى تركت عرضة للشمس وللرياح العاصفة لتجتاحها .

وحاولوا تعويد البولينزيين على الملابس والصابون والدين والمدارس، وأينما أصابت محاولات التحضر ، التى قاموا بها نجاحا انقرضت بولينزيا الحقيقية الى الأبد . وفي هاواى نجد صورة حديثة لبولينزيا القديمة لكن ما قيمتها الى جانب الأغانى الحديثة والرقص ومزج العناصر اليابانية والصينية والبرتغالية والأمريكية ، فلم تعد لثقافة المحيط القديمة قائمة .

وكانت حضارة بولينزيا القديمة مغايرة تماما للحضارة الحديثة، فلقد كان الحب مباحا حتى ساعة الزواج ولم يكن ثمة قيود على تبني الأطفال ، كما كان الاتصال بين الأخ وأخته مهما كان نوعه محظورا (في غربى بولينزيا) ، وكان ينظر بعين الازدراء البالغ للتبتل وللافراط فى الجنس ، وكان الاخلاص للحياة الزوجية طابعهم غير أن الطلاق كان مباحا متى توفرت الرغبة في ذلك . وكان اختلاط الجنسين محظورا أثناء تناول الطعام بل وعند أعداده ، وما أن قضى الملك كاميهاميها (Kamehameha) على هذه التقاليد فى هاواى حتى اندثرت الحضارة القديمة .

والفضيلة الوحيدة التى لاتزال للبولينزيين حتى يومنا هذا هى : انهم أعظم خبراء العالم فى فن عدم الاكتراث . ولاشك أن أسلوب حياتهم ، من الناحية الثقافية ، أفضل ما يتمناه المرء من حياة قانعة راضية . اذ أنها كانت تنطوى على استمتاع طابعه البساطة بكل لحظة يحيونها دون اكتراث بامتلاك الأمور المادية ووضع حد معقول للضروريات التى لا غنى عنها ، ونقاء سريرة خالية من الهموم .. وبعبارة أخرى كانوا فى فردوس، فمنذ العصر الحجرى وبولينزيا تنعم بحريتها وأوقات فراغها وببساطتها الفطرية بلا مطامح أو مطالب .

وفشل أصحاب المزارع والحكام والاستعماريون والمبشرون والباحثون – جميع من نعتبرهم رسل الحضارة – فى حمل البولينزيين على الاقلاع عن عادة عدم الاكتراث المتأصلة فى نفسوهم . لكن من الخطأ البالغ أن نسميهم كسالى ، فما كان ينبغى انجازه كان يتم بصورة جماعية ، لكن لايتم أى عمل الا اذا اقتضته الضرورة الملحة . ثم يعودون الى سكينتهم وملاذهم والعابهم وكرم ضيافتهم ، وابتساماتهم الحلوة وعدم اكتراثهم بالملكيات المادية ، ولما كان البولينزى على يقين تام من أن تكديس الأموال التى لا يحتاجها بصورة عاجلة والتى لا تسفر الا عن تكدير صفو راحته الدائمة

والحط من مستوى معيشته ، فانه يعمل من أجل أن يعيش ولم يطرأ له ببال أن يعيش من أجل أن يعمل .

وبعد مائة وثلاثين عاما من العمل على غرس الثقافة لم يفلح الغـرب فى تغيير أسلوب حياة البولينزيين ، اللهـم الا فى موانىء قليلة . وكرس البولينزيون ، وهم أبعد ما يكونون من أداء ما نعتبره عملا أساسيا ، وقتهم للصور الجمالية الممتعة ، وأعياد القرية والموسـيقا والرقص ، والحفر على الخشب لا لصنع الأثاث بل لنقش صور آلهتهم ، والرسـم على الأقمشة والحب المنطلق الذى لا تشوبه الهواجس الأخلاقية .

وما انفكت جزر بولينزيا ، رغم ما حل بها من صروف الدهر وكوارث الأيام آخر فردوس باق على وجه الأرض . انه عالم الطمأنينة والسرور .. عالم يعيش لحاضره ولا يبالى بغده أو بماضيه .. عالم أسطورى فقدناه منذ أمد بعيد .

بولينزيا

لغز كتابة جزيرة ايستر الذى لم يحل

على مبعدة الفين وخمسمائة ميل غربى فالباريسو (Valparaiso) تبرز من وسط الأمواج جزيرة صغيرة منعزلة ، فى اقصى الطرف الشرقى من العالم البولينزي وعلى سواحل الجزيرة وفوق تلالها ومنحدرات براكينها تقف أو تنبطح على الأرض تماثيل ضخمة من الحجر يصل ارتفاع بعضها الى ٤٦ قدما ، تلك التماثيل التى تمثل اللغز الأكبر لحقبة ما قبل تاريخ بحار الجنوب حيث ان الكتابة التى كان سكان جزيرة ايستر يستخدمونها لم تفك رموزها بعد .

فى عيد القيامة عام ١٧٧٢ ، اكتشف آدميرال جاكوب روجفين الهولندى جزيرة ايستر ، لكن برحيله طوى الجزيرة النسيان حتى أعاد اكتشافها كابتن فيلبى جونزاليس هايدو (Felipe Gonzales Haedo) عام ١٧٧٠ وزارها كابتن كوك فى عام ١٧٧٤ ولابروس فى ١٧٨٦ وأتوفون كوتزبوى فى ١٨١٦ ، وبعدها ظهرت فوق مسرح الجزيرة عصابة من قراصنة بيرو ، وجدوا بالجزيرة ما يتراوح بين ثلاثة أو أربعة آلاف نسمة، فسارعوا بحمل تسعمائة شخص منهم الى مجموعة جزر جوانو ، وقبل أن يمضى عام أعادوا الى الجزيرة من بقى على قيد الحياة من بين التسعمائة ـ ولم يزد عددهم عن ١٥ نسمة ـ وقد أصابهم الجدرى . وسرعان ما انتشر المرض ، وفى فترة وجيزة راح سكان الجزيرة الأصليون يتضاءلون حتى أصبح عددهم ٦٥٠ نسمة .

وهكذا كانت بداية الاستعمار الغربي الناجحة بين أفراد الجنس البولينيزى الصغير الذي كانت لاتزال لهم وحدهم القدرة على أن يقرءوا ويكتبوا نوعا من الكتابة ينفردون به • تلك الكتابة التى سارت فى طريق الزوال •

كان يوجين ايرود (Eugene Eyroud) رجلا تقيا ورعا وفد الى هذه الجزيرة الصغيرة المثلثة الشكل ، وأخذ يبشر شعبها ذا البشرة السمراء بما تنطوى عليه المسيحية من بركات • وبعد مضى قرن ونصف القرن من الزمان على اكتشاف الجزيرة لأول مرة توصل هذا المبشر الذى سبق غيره من المبشرين الى كشف فريد من نوعه اذ عثر على ألواح طويلة من الخشب ـ يزيد طولها على ستة أقدام ـ نقش فوقها سطور من كتابة هيروغليفية منمقة ورسوم لكائنات بشرية وحيوانات ونباتات ونجوم وحراب ومجاديف وغيرها من أشياء لم يكن التحقق منها أمرا ميسورا • وكانت تلك الألواح قد صنعت من خشب خفيف ، حفرت فوقه النقوش بحجارة مسننة أو بمدى من الحجر الزجاجي الأسود أو بأسنان سمك القرش •

هكذا اكتشف يوجين ايرود الكتابة البولينزية ، بيد أن الرجل التقي لم يكن باحثا مدققا فلم يدرك ما لتلك القطع الخشبية من أهمية بالغة ، أما الذين اعتنقوا المسيحية من بين المواطنين فقد استخدموا تلك الألواح وقودا • وما أن تمت معموديتهم حتى راحوا يشعلون النيران فى « كتبهم » وان كانت قد تملكتهم النوازع المضطربة ، فمن ناحية لم يكونوا على يقين من أن الآلهة القدامى ترضى عن تدمير الألواح المقدسة ومن ناحية أخرى قد عثروا أخيرا على بعض الوقود فى جزيرتهم المجردة من الأشجار •

وكان الأب زومبوهم (Zumbohm) زميل الأخ ايرود هو الذى حمل معه جزءا من أحد الألواح الى تيبانو جوسن ، أسقف تاهيتى ، على حين أن أبا يدعى روسيل نقل خمسة ألواح أخرى تفضل الأول حالا ، كما يقال ان سكان الجزيرة قد بعثوا الى الأسقف بهدية هى بمثابة حبل طويل مجدول من شعر آدمى يلتف حول قطعة من الخشب •• هى أحد ألواح الكتابة • وعلى أى حال فنحن ندين للأسقف جوسن بالفضل فى اكتشاف كتابة جزيرة ايستر والحفاظ على آخر ما بقى من ألواح كتبت بها ، وأهم مجموعة من تلك الألواح توجد الآن فى جمعية القلوب المقدسة باقليم « بيكبوس » وهى الجماعة الدينية التى كان الأسقف جوسن أحد أعضائها •

وقام أحد سكان الجزيرة بصنع قارب للصيد من الألواح الخشبية التى تحمل النقوش لذ كان ضميره موزعا بين كل من الاله القديم والجديد ، وحين تفكك القارب احتفظ بأجزائه ليبنى منها قاربا صغيرا • ويدين

طومسن ، خبير حضارة بولينيزيا الامريكي لهذا الرجـل المتمسـكك فى عقيدته ، بالفضل فى حصوله على أحد الألواح الأخيرة الباقية .

ولما زار طومسن الجزيرة عام ١٨٨٦ التقى برجـل طاعن فى العمر يدعى « يورى فايكو » على دراية بالقـراءة وملما بما تنطوى عليه بعض الالواح . ولكن « يورى فايكو » كان قد اضحى لسـوء الطالع ، مسيحيا تقيا ، واتخذ من تحريم المبشرين لقراءة تلك الألواح مبررا لرفض قراءتها، واختبأ فى داره ترتعد فرائصه من وطأة التهديد بكل من المطهر (١) والعلم الفضولى . وفى عشية رحيله فحسب فاجأ طومسون الرجل العجوز فى كوخـه .

وبدهاء راح طومسون يكيل للرجل العجوز الشراب حتى أذعن فى النهاية وفى ساعة متأخرة من الليل ، طلب اليه طومسـون أن يلقى نظرة على بعض ما فى الألواح من صور ويقرأها ، لكن سرعان ما تبين طومسون أن « يورى فايكو » لم يكن يقرأ الرموز كلا على حده بقدر ما كان يستظهر شيئا من الذاكرة . ولما كشف أمره برر الرجـل العجوز فعلته بقوله إنه وان كانت معانى هذه الرموز قد اندثرت فان بوسعه الالمام بمضمون تلك الألواح بتفاصيلها الدقيقة التى لا يتطرق اليهـا الخطـأ وأن ترجمته فى جملتها صـحيحة . وأما المترجم الذى كان يقوم بالترجمة فى ذلك الحين فهو من سلالة فرنسية ــ تاهيتية يعرف ببايا سـالمون (Paea Salmon) وكانت ترجمته لما يسمى بنصوص الألواح الخمسة هى التى قام بنشرهـا طومسـون بعد ذلك ، وقال ميشيل هابرلندت ، عالم الأجناس البشرية النمساوى ، أن هذه النصوص ناقصة حيث أن عدد الرموز يفوق كثيرا ما تنطوى عليه النصوص من كلمات وان كان هذا الرأى يفتقر الى الدقـة بيد أن ما يثير الشك البالغ فى دقة الترجمة التى اضطلع بها «يورى فايكو» أن طومسون قلب بعض الصور أثناء الترجمة فما كان من الرجل الكهـل الا أن مضى فى ترديد النص الذى كان قد بدأه من قبل .

ويستقر اللوحان اللذان حصل عليهما من الجزيرة بمعهد سمثزونيان بحى كولومبيا بواشنطن .

وفى الفترة ما بين مارس عـام ١٩١٤ وأغسـطس ١٩١٥ زارت جزيرة ايستر امرأة حاذقة فى شـئون الأجناس البشرية كرست وقتها برمته لاكتشاف كل ما يمـكن الالمام به عن الكتابة . وأطلعت السـيدة روتلدج المواطنين عـلى صـور لمختلف الألواح التى راح أهـل الجزيرة

---

(١) مكان التطهير بعد الموت

ذوو الأخلاق الكريمة يقرءونها عن طيب خاطر ، لكن لسوء الحظ كانوا يرددون نصا واحدا بصرف النظر عما كانت السيدة روتلدج تحدده لهم من رموز .

وفي النهاية عثرت السيدة روتلدج على شيخ هرم بوسعه أن يسطر نوعا ثانيا من الكتابة كان يستخدم يوما في تسجيل الروايات التاريخية ، ومن هذا الرجل الذى كان يدعى « تومنيكا » أخذت تستفسر عن معنى الرموز كل على حده . غير أن تحرياتها كانت تحفها الأخطار البالغة ، اذ كان الشيخ مصابا بالبرص ونسى ، للأسف ، الكثير ، وأما القليل الذى وعاه عقله العليل فلم يتسن له التعبير عنه ، وجعل الضباب الكثيف يخيم على عقله رويدا رويدا وازدادت اجاباته اضطرابا وترددا حتى لفظ ، فى النهاية أنفاسه الأخيرة قبل أن يفرغ من هجاء احدى الكلمات وهو على مرأى من السيدة الباسلة التى كانت تسأله . ومع ذلك فانه عن طريق ذلك الرجل خلفت لنا السيدة روتلدج صورة تنبض بالحياة عن الملك الكاهن الهرم الذى كان لايزال ممسكا بزمام الحكم ابان الغزو البيروى .

وكان ذلك الحاكم يدعى اريكى نجارا (Ariki Nagaard) الذى دانت لحكمه قبيلة ميرو على الساحل الشمالى للجزيرة ، وينحدر من سلالة هوتوماتوا ، أول حاكم من المهاجرين فرض سلطانه على بولينزيا . ولم يكن يسمح لأحد أن يرى نجارا وهو يتناول طعامه ، كما لم يسمح لغير نفر قليل من الخدم المقربين بارتياد مسكنه وحال السحر الضارب بأطنابه في الجزيرة دون مشاركته لأهل جزيرة ايستر أشهى مأكولاتهم وهو الفأر الشوى ، وكانت المسئولية الكبرى الملقاة على عاتق نجارا هى مراوضة دجاج الجزيرة حتى يضع أكبر قدر ممكن من البيض ، ولما كانت الفيران هى العدو الطبيعى للدجاج وما يضعه من بيض ساد الشعور بأن الحاكم قد يمتص شيئا من هذا العداء ، لو أنه تناول أى قدر من لحم الفئران .

ومن الطريف أن نرسم صورة لجزيرة ايستر كما كانت تبدو آنذاك . كان الرئيس نجارا يتوج فوق أحد التماثيل الحجرية المهولة الشهيرة التى لا يزال بناؤها ونقلها يحير عقول العلماء المعاصرين . وكان المواطنون حديثو الوشم ينتظمون فى طابور يمر أمام الحاكم الذى كان ينتقى ذوى الوشم الجميل ويعزلهم عن أولئك الذين يكشف وشمهم عن رداءة الصنعة ، وكان ذلك نذير موجة عارمة من سخرية القبيلة المحتشدة وتهكمها . فقد كان الحاكم يترك أولئك البؤساء لسخرية الحشد واستهزائه .

كما كان نجارا يرأس ، لو جاز لنا القول ، مجتمع العلماء بالجزيرة فكان يشرف على الفن العظيم لقراءة الالواح ، فاتقان الهيروغيليفية كان وقفا

على جماعة منتقاة محدودة النطاق من العلماء يطلق عليها « رونجو — رونجو » (Rongo — Rongo) وكان أولئك الرجال يعيشون فى أكواخ منفصلة بعيداً عن زوجاتهم يختلف اليهم التلاميذ حيث يتلقون العلم على أيديهم • فكان المبتدئون يكتبون على ورق الموز والمتقدمون يستخدمون أسنان سمك القرش للكتابة على الألواح الخشبية ، وكان نجآرا نفسه خطاطا بارعا ، ومفتشا دأب على عقد المؤتمرات المنتظمة لجماعة الرونجو رونجو التى كان يؤمها رجال العلم الأفذاذ فى الجزيرة ، أما عامة الشعب فكانوا يلتفون من حولهم يراقبون ما يجرى •

كانت الولائم القبلية تقام ، تعقبها الخطب ، ثم تعقد الامتحانات الهامة التى كان يرأسها « نجارا » وقد اتخذ مكانه فوق أكداس من ألواح الكتابة • فلو أن أحد الشبان أخطأ القراءة اكتفى بتوجيه اللوم اليه • لكن لو أظهر واحد من الشيوخ أنه لا يتقن القراءة أمسك بأذنه صبى صغير وقاده بعيدا عن قاعة الاجتماع • وكان يختتم المؤتمر وما يصحبه من احتفالات بتقديم دجاجة لكل عضو من أعضاء الرنجو رونجو ومازال ثمة من يزعم أن بعض الألواح العديدة التى خلفها نجآرا انما تقبع فى أحد الكهوف التى تزخر بها جزيرة ايستر •

وتذكر الأحاديث المنقولة عن جزيرة ايستر أن الرئيس هوتوماتوا ، وهو أول من وصل اليها ، كان قد جلب معه من موطنه الأصلى سبعة وستين لوحا •

فمن الجائز أن نقوش الألواح التى ما برحت بين أيدينا هى آخر تطور بلغه نوع من الكتابة أشد قدما وأكثر تعقيدا • وهناك العديد من الأدلة على أن تلك الكتابة الهيروغليفية ضاربة فى القدم وأن أعضاء الرونجو — رونجو لم يستخدموا فى نهاية المطاف أكثر من نوع مبسط من الاختزال • ومهما تكن حقيقة الأمر فانه عندما دانت الجزيرة عام ١٧٧٠ لسيطرة الأسبان وقع زعماء الشعب وكبار الشخصيات على المعاهدة بلغة هيروغليفية مماثلة للكتابة التى على الألواح •

وتتركب الكتابة فى جزيرة ايستر من صور تعبر عن أفكار بعينها فكان كل رمز يصور المعنى المطلوب بكل أمانة ، ومع هذا فانه على الرغم من أن بوسعنا ترجمة رمز هنا وآخر هناك فان المعنى الكامل للكتابة مازال خافيا علينا •

وثمة أمور أخرى يكتنفها الغموض ، فهل كانت جزيرة ايستر جزءا من أرخبيل تغطيه الآن المياه أم أنها لبثت محتفظة بطابعها الراهن آلاف السنين ؟ •

ونظرية الأرخبيل تدحضها آبو (Abu) أو التماثيل الحجرية التى ما انفكت قائمة على شواطىء الجزيرة • فتاريخ هذه التماثيل بأغطية رأسها وملامح وجهها المشبيهة بما لسكان البحر المتوسط ، والمغايرة لتلك التى لسكان الجزيرة الأصليين – يعد لغزا يحير العلم الحديث ، ومن الواضح جليا أن تلك التماثيل قد سحبت عبر مسافات طويلة الى مواقعها الحالية من المحاجر حيث تم نحتها • والواقع أن الكثير منها لم يتم سوى نصفه كما لو أن العمل قد توقف بغتة – ربما بسبب كارثة طبيعية أو نتيجة لغزو أجنبى – أما نوع العمال الذين نحتوا تلك التماثيل وتاريخ نحتها والدافع اليه فهذه ألغاز مازالت فى حاجة الى حل •

ولا يمكن التغييرات الجيولوجية أن تقدم تفسيرا لبداية حضارة جزيرة ايستر أو نهايتها حيث أن جزيرة ايستر ليست جزءا من قارة أو أرخبيل أغرقته المياه ، كما أن ثقافتها لم تأت عليها ثورات البراكين ، بل ويعتقد بعض العلماء أن ثقافة هذه الجزيرة لتختلف اختلافا بينا يتعذر معه دمجها مع بقية بولينزيا حتى وان كان سكانها بولينزيين عند اكتشافها •

ويبدى الفريد ميتروكس (Alfred Metraux) بمتحف بيرنيكى ب بيشوب Bernice p. Bishop بهونولولو ، رأيا مقنعا مفاده أن جزيرة ايستر تدور فى فلك بولينزيا الثقافى • بيد أن هذا الرأى لم يبدد الشكوك السائدة ، كما أن المقارنات التى تعقد بين حضارة جزيرة ايستر وحضارة هنود أمريكا الجنوبية – نظرية يتبنى الدفاع عنها ثور هيرداهل صاحب كتاب كون تيكى (Kon — Tiki) – انما تقوم على التفكير الحالم حتى وأن كان اكتشاف اثنين من رءوس حراب جزيرة ايستر فى احدى مقابر شيلى أمرا لاجدال فيه •

ولعل سكان جزيرة ايستر قد رحلوا عن عالم وسط بولينزيا المنعزل قبل أن تبلغ حضارات بولينزيا المتباينة ذروة مجدها ، ولافتقار تلك الجزيرة الى الخشب لم يعد بوسع سكانها بناء السفن وانهارت مهارتهم البحرية ، فلقد كان الخشب فى جزيرة ايستر نادرا ندرة الزبرجد فى نيوزيلندا ، مما حدا بسكانها الى صنع حليهم الثمينة من الخشب •

ويلوح أن سكان جزيرة ايستر لم يبتدعوا سوى الألواح الخشبية والتماثيل الضخمة ، تلك الألواح الخشبية التى فقدت مغزاها ورءوس التماثيل الهائلة التى تقف صامتة بلا حراك • وترتطم الأمواج متكسرة على شواطىء الجزيرة المنعزلة بلا ذكريات فتصون أسرارها على أكمل وجه •

ميلانيزيا

حضارة جوز الهند والمحار

يندر ان يكون اى جنس آخر فى العالم قد أثار امام العلماء من المعضلات قدر ما أثاره الميلانيزيون ولم يمكن مطلقا تأكيد اصل سكان هذا العالم الجزرى بصفة نهائية ومع ذلك قد يكون بيدهم مفتاح سر « الطوطم » (حيوان او كائن آخر تنتحل القبيلة صورته شعارا لها) والشيء المؤكد هو ان ميلانيزيا هى الالدورادو (El Dorado) الحقيقية لعالم الأجناس البشرية

ليس الباسفيك هو ذلك الامتداد الخاوى الفسيح من الماء كما يبدو غالبا فى مصوراتنا الجغرافيـــة المدرسـية ، والواقع أنه يضـم أكثر من ١٠ آلاف جزيرة .. وربما يصل عددها الى ثلاثين ألفا ، فهى لاتعد ولا تحصى فى حقيقة الأمر .وعلى سبيل المثال فان اسم مجموعة تواموتو (Tuamotu) فى لغة سكانها تعنى « سحابة من الجزر » اذ أنها تتكون من حوالى ثمانين جزيرة كبيرة ومن عدد لايحصى من الجزر الصغيرة ، ويضم محيط الباسفيك عددا كبيرا من مثل هذه المجموعات الجزرية ، كما أن مجموعة جزر الفلبين وحدها تتكون من سبعة آلاف جزيرة . بل وقد تضم جزيرة مرجانيـة ، أو حلقة مستديرة من الجزر المرجانية التى تحيط باحدى البحيرات ، عددا هائلا من الجزر الصغيرة المتناثرة فوق سطح البحر .

ان مساحة الباسفيك تفوق مساحة قارات العالم مجتمعة ومجموعاته الجزرية جمة غفيرة ولا يسبر أحد غور ثقافة وتاريخ شعوبه (الأندونيسيين

أو الميلانيزيين أو الميكرونيزيين أو البولينزيين ، شأنها فى ذلك شـأن المحيط الذى يضرب حصارا حول أوطانها الجزرية •

ولعل الساحل الغربى للمحيط الهادى كان منذ مائة مليون سنة يمتد من اليابان الى نيوزيلندا عبر جزر كارولين وفيجى • واذا كان الأمر كذلك فان مياه المحيط تكون قد ابتلعت منه حقبة بعد أخرى اذ أن تاريخ جزر المحيط الأوقيانوس المعروف يرجع الى آلاف من السنين خلت •

وكانت الشعوب القزمية (Pygmoids) أول من سكن جزر المحيط الهادى وهم عنصر قصير القامة ، داكن البشرة مجعد الشعر قد طردوا من آسيا فى غضون العصر الجليدى الأخير على الأرجح ، وكانت المياه التى تفصل المساحات الأرضية فى العالم آنذاك أقل مساحة مما هى عليه اليوم، لأن طبقات شاسعة من الثلج القطبى حافظت على صغر مساحة المحيطات وعلى معظم مساحة الأرض ، وبانتهاء العصر الجليدى ، منذ نحو أربع عشرة ألف سنة ذابت الثلوج ، وغطت المياه الأراضى المنخفضة واستحالت قمم الجبال جزرا يحتمل أن الانسان احتمى بها ، بيد أننا لا نعلم سوى النزر اليسير ، ولعلنا لا ندرى عن حقيقة ما جرى شيئا ، وربما استغرقت هجرات القزميين الى ما يعرف اليوم بجزر المحيط الهادى عدة آلاف من السنين •

وقد نزحت موجة أخرى من البشر من منطقة الملايو الى غينيا الجديدة ولستراليا • وكان رواد جزر المحيط الأول مغايرين للقزميين اذ لم يكن لون بشرة الأولين فى دكانة بشرة الأخيرين وكان شعرهم مسترسلا وليس مجعدا ، كما كان الشعر ينمو فى أجزاء كثيرة من أجسامهم • فهم ينتمون الى عنصر أبيض ضارب فى القدم يعرف بالأينويين (Ainoids) وهو شبيه بعنصر مازال بجزيرة هوكايدو التى تقع فى أقصى شمال اليابان • وكان أولئك البيض قد انتشروا عبر جزر الأوقيانوس الغربية واختلطوا بالقزميين الذين كانوا ، ولا ريب ، أشد عزما وأكثر توالدا وأعظم شجاعة من الأينويين اذ أن العنصر ذا البشرة الداكنة امتص أولئك الذين كانت بشرتهم بيضاء •

ولحقت بالأينويين شعوب أخرى تعرف بالفيديين (Veddids) وهم جماعة من الصيادين الباحثين عن الطعام من عصر ما قبل الزراعة ، الذين يشبه بنيان أجسامهم شعب الفيدا (Veddas) أو سكان جنوب الهند الأصليين • ومن الجائز أن لحقت بهم شعوب مغولية ، ولكن فى عالم الجزر الذى تطلق عليه ميلانزيا نجد أن العنصر الشبيه بالزنوج أكثر وضوحا من العناصر الثلاثة الأخرى • والحقيقة هى أن ميلانيزيا قد اشتقت اسمها من كلمة اغريقية معناها « الجزر السوداء » •

وهناك مالايقل عن ثلاثة أجناس (وربما أكثر بكثير) وثلاث حضارات أو أكثر وثلاث لغات أو يزيد قد امتزجت فوق تلك البقعة من الأرض وتمخضت عن عدد من اللهجات والعادات والنظم الاجتماعية ، فعلى حين أن منطقة البولينزيا البحرية المترامية تكشف عن قسط وافر من وحدة الثقافة والجنس — اذ يكاد شعبها يشبه الأوربيين ذوى البشرة السمراء — فان عالم الميلانيزيا الأشد قدما هو مزيج من مئات الحضارات المتباينة . وليس ثمة ما يمكن أن يعتبر مماثلا للعالم الذى تحده كاليدونيا الجديدة وغينيا الجديدة وجزر فيجى .. والحقيقة هى أنه ما من أقليم ثقافى قديم آخر بلغ من عدم التجانس ما بلغته ميلانيزيا التى تحدى سكانها ببشرتهم الداكنة وشعرهم الكثيف المجعد جميع المحاولات العلمية التى كانت تهدف الى تصنيفهم .

ونميط ميلانيزيا اللثام حتى يومنا هذا عن آثار جلية للهجرات العديدة وعلى مر القرون استقر الذين وفدوا اليها بعدئذ على السواحل وطردوا السكان الأصليين الأول ، الشعوب شبه الزنجية ، الى الغابات والجبال والمستنقعات الداخلية ، وغالبا ما تكون المياه أفضل من اليابس كحلقة اتصال ، فبينما تسنى للشعوب الساحلية التى تقطن الجزر العديدة تطوير الروابط الثقافية فيما بينها ، راحت المجتمعات الداخلية تنعزل شيئا فشيئا حتى بات بوسعنا اليوم أن نميز بجلاء بين من يقطن الساحل ويسكن الغابة . ويكاد لا ينطق باللغات البابوانية (Papuan) الا فى داخل جزر كبيرة بعينها ، وفى مقدمتها غينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة بيد أن اللهجات البابوانية المتعددة على نحو من التباين يتعذر معه فى الغالب الأعم اتصال سكان احدى القرى بجيرانهم الملاصقين لهم .

ومن ناحية أخرى يتحدث سكان السواحل اللغة الميلانيزية فمثلا تضم — بوجانفيل (Bougainville) بجزر سولومون حوالى ٣٥ ألف مواطن يتحدثون فى الداخل وفى الجنوب ثمانى مجموعات لغوية بابوانية مختلفة، على حين أن الشعوب الناطقة بالميلانيزية التى تمثل سبع مجموعات لغوية — فتقطن الأقاليم الساحلية والشمالية ، ان هذه الجزيرة لتكشف بوضوح تام صعوبة تصنيف الأجناس المتعددة التى تعيش فى تلك المنطقة ، وذلك من حيث التماثل اللغوى والثقافى ، ولم يمض وقت طويل منذ أن نزل بساحل بوجانفيل الشرقى بعض سكان جزر شورتلاند الذين يتحدثون الميلانيزية ويعملون اليوم الى تحويل الطوائف البابوانية الى أخرى ميلانيزية ، وهذا على النقيض مما يتعرض له الميلانيزيون من سكان السواحل الجنوبية الغربية الذين راحوا يهجرون القرى غير الصحية القريبة من البحر رويدا رويدا وينطلقون الى الداخل حيث يصبحون « بابوانيين »

لا من حيث اللغة فحسب بل من حيث الثقافة أيضـــا • ومما يزيـد من صورة جزيرة بوجانفيل تعقيدا هو أن سكان الجزء الساحلي الجنوبي للجزيرة طوال القامة على حين أن سكان الداخل الجبلي يشبهون الأقزام الى حد كبير • وعلى الرغم من ذلك فان مواطني بوجانفيل بلا اســتثناء ــ ســواء أكانوا يتحدثون الميلانيزية أو البابوانية ، يعيشون على الساحـل أو يستقرون بالداخل ، طوال القامة أم قصارا ــ يلوحون في سمرة الفحم بل أشــد سوادا من الشعوب التي تتكلم البابوانيـة في الأجزاء التي يـكاد يـكون الاتصال بها متعذرا في غينيا الجديدة ، التي يعتبر جزءا من سـكانها الوطنيين أساسا ميلانيزيين بينما تنتمي البقية الى الجنس البابواني شبه الزنجي •

وهناك خمس مجموعات من الجزر فحسب لا جـدال في حقيقة أنهـا ميلانيزية هي :

١ ــ أجزاء من السولومون •

٢ ــ مجموعة سانتاكروز •

٣ ــ هيبريديز الجديدة وجزر البانكس •

٤ ــ كاليدونيا الجديدة وجزر اللويالتي •

٥ ــ جزر فيجي •

ولعل ميلانيزيا هي الكابوس الذي يجثم على صدر عالم الأجناس ، لكنها في الوقت ذاته متحف حي للدارسة الأنماط البدائية للحضارة فليس في العالم منطقة أخرى تنطوي على مثل هذا العدد من الثقافات المتباينة في مثل هذا النطاق المحدود • كما أن هذه الثقافات تشترك فيما بينها في عدة ملامح مميزة كالأدوات المصنوعة من الحجر والقوس والسهم والحراب وتربية الخنازير والكلاب الأليفة ، والدجاج وصـيد السـمك والزراعة وجمع النباتات البرية ورعي الحيوان والتنظيمات السرية التي ينطوي تحت لوائها الرجال بما لها من طقوس فريدة ، وأهمية النقاب ثم الزواج من غير القبيلة •

وهذا يفضي بنا الى أشد مظاهر الحضارة الميلانيزية أهمية وطرافة ، ألا وهي عادة زواج المرء من خارج جماعته المحددة المعالم ، فما من قانون في ميلانيزيا يفوق في أهميته قانون تقسيم الناس الى عشيرتين أو أكثر الى جانب العرف السائد بعدم التزاوج من داخل العشيرة الواحدة • فمن ينتمي الى عشيرة (أ) يتزوج من احـدى فتيات عشيرة (ب) أو (ج) • وليس ثمة ما يدل بجلاء كيف كانت تلك العشائر تتكون ومتى تم تكوينها • بيد أنها كانت قائمة وذلك هو القانون الذي كان يسودها •

وكان الانتساب لعشيرة بعينها ينتقل الى الأبناء عبر أمهاتهم وبذلك يتسنى للبنين والبنات الانتماء الى تلك العشيرة ، ولم يكن للموقع الجغرافى أو العادة القبلية دخل فى اتمام عملية الزواج ، فالأمر لم يكن يقتضى أكثر من انتساب لعشيرة معينة ، تلك العشائر التى لم يكن لها أى وزن سياسي أو قبلى ، ولقد ساد استراليا نظام مماثل • وكان الرجل الميلانيزى ينظر الى نساء جيله جميعهن اما أنهن محرمات عليه كالشقيقات أو أنهن عرائس جائزات له ، كما كان الرجال بالنسبة للمرأة الميلانيزية اما محرمين كالأشقاء أم أنهم طلاب زواج جائزون •

ولعل هذا النمط من الزواج انفردى فى ميلانيزيا ، كما فى استراليا ، قد نشأ عن نظام قديم للزواج الجماعى حيث كانت جميع نساء جماعة بعينها زوجات شائعات لجميع الرجال فى الجماعة الأخرى ، ولقد حاول الباحثون اقامة هذا الغرض على حقيقة أنه فى بعض اللغات الميلانيزية فان الألفاظ الدالة على « أم » و « خطيبة » و « زوجة » و « طفل » لاتوجد الا بصيغة الجمع • واستدلوا من هذا على أنه لابد وأن مرت حقبة سادتها العلاقات الجماعية ، ولم يكن للعلاقات الفردية وجود ، وكان الزواج بين أفراد العشيرة الواحدة فى ميلانيزيا ، باستثناء كاليدونيا الجديدة أمرا لا يمكن تصوره وعقوبته الموت . العقوبة نفسها التى كان ينالها كل من يعتدى على فتاة من عشيرته •

والطوطمية (Totemism) من العادات الشائعة بين الميلانيزيين جميعا • فهذه الظاهرة المعقدة غاية التعقيد نجدها فى حضارات استراليا وأمريكا بدورها • وتشتق كلمة (Totem) من اللفظ (Ototeman) ومعناها الحرفى فى لغات أوجيبواى والجونكون المتقاربة ، وهى من لغات الهنود الأمريكيين، علاقة الأخ بأخيه، والطوطمية هى اعتقاد المرء برباط الدم الذى يربطه بحيوان أو نبات أو نجم أو وميض برق ، والطوطم هو الرباط المشترك الذى يربط جماعة متقاربة من الناس • ولقد أسفر هذا الايمان الراسخ بالطوطمية ، فى ميلانيزيا بنوع الخصوص ، عن ابتكارات فنية ما أروعها ، وعن طقوس قبلية ومحرمات قدسية ، وأعياد حيوية تتجدد خلالها الوحدة الطوطمية • كما أن أسرا بأسرها وعشائر عن بكرة أبيها تسمى بأسماء حيوانات ونباتات بعينها ، فبعض العشائر فى كاليدونيا الجديدة على سبيل المثال ، تنظر الى البرص الكبير على أنه مقدس مصون لايمس ، على حين أن هذا ما يعتقده البعض الآخر فى الصقر أو السحلية أو سمك القرش •

كانت ميلانيزيا تبدو دائما مكانا مقبضا يدين لسلطان للسحر والعرافة ، على النقيض التام من نطاق بولينيزيا الذى يفيض بشرا واشراقا ،

والى عهد قريب كانت تسود بعض جزر الميلانيزيا عادة قطع الرءوس وأكل لحوم البشر ، كما شاع قتل المسنين والعجزة كما ثبت أن سكان الكثير من الجزر الميلانيزية يجهزون على حياة من يلم بهم مرض عضال وعند سؤال أولئك القوم عما حملهم على ذلك من دوافع كان المبرر الذى ساقوه هو الاحساس بالأسى عليهم •

وكانت جزر ميلانيزيا العديدة تنطق بلغات متقاربة ، ومع ذلك هناك بلبلة لغوية بوجه عام ، وليس أدل على ذلك من وجود ما يقرب من عشرين لغة ولهجة فى كاليدونيا الجديدة لا سواها كما أنه ليس للغات الوطنية أية قواعد مكتوبة ومع ذلك قلما يقع الميلانيزيون فى أخطاء نحوية فى حديثهم ، وهذا الاستخدام الدقيق للغة انما يقوم على الادراك العميق لما للكلمات من سلطان وقوة • ويعلم كل ميلانيزى أن الكلمة التى يفوه بها انما تنطوى على سحر خطير ينبغى ألا يساء استخدامه ، فهو قوة تنتقم لنفسها لو حدث ذلك •

ان ميلانيزيا عالم عجيب ، اذ ترتطم أمواج المحيط الهادى العاتية بالشواطىء منذ الأزل وينبعث الضوء من شعبها المرجانية حيث ظل شعب بعد الآخر يحلم بالملك السعيد ، وتثور البراكين فى جزر صغيرة ، وتمضى عشرات الألوف من الحيوانات البحرية الصغيرة فى بناء الشعب والجزر المرجانية وتعلو أمواج المد لتغمر جزرا برمتها ، وتسطع أشعة القمر فوق صفحة الماء ، وتنعكس المجرة - التى تقع على مسافة ٧٠٠ ألف سنة ضوئية - فوق سطح مياه المحيط من أسفل •

ويحاول الباحثون الفرنسيون والبريطانيون والأمريكيون فى الوقت الراهن ايقاظ جزر بحر الجنوب من سباتها ، ويبذل علماء الغرب قصارى الجهد فى دراسة هذه الحضارات ، التى تميزت بجوز الهند والأصداف ، ومحرماتهم القديمة فى محاولة للكشف عن السر الذى حدا بأولئك الأوقيانيسيين الى أن يجدوا السعادة الفائقة فى حياة يسودها هدوء لا ينتهى •

أمريكا الشمالية

وصول الهنود

لقد رحلوا من آسيا وانطلقوا يجولون عبر مضيق بيرنج حتى بلغوا شمال أمريكا منذ ٣٧ الف سنة خلت أو يزيد

أربعة ملايين سـنة مضـت على وجـه التقريب منذ أن وقف مخلوق عجيب على طرفين بدلا من الأربعة التى كانت له وراح يسـير عليهما • وعندما استبان له أنه لم يعد بحاجة الى العضوين الزائدين للحركة شرع يطورهما رويدا رويدا فى سبيل الابقاء على حياته والحصول على مايمسك رمقه • ومضت فترة من الزمان لا يسـعنا تحديد موعدها ، تعرض رأس هذا المخلوق لحدث جديد كل الجده •• لشىء لم يعرف من قبـل ألا وهو تطور العقل والارادة ومفهوم العمل ، وبات الطـرفان الآخـران متفرغين للاضطلاع بأعمال جديدة ، لكنهما لو أمسـكا بقطعة من حجر أو أية أداة لتسنى لهما القيام بأعمال تفوق بما لا يقاس ما كانا يقومان به ، وتوصل الانسان العاقل الى فوائد النار ، وتعلم طريقة الكلام ، واسـتخدام عينيه على نحو مغاير لأى مخلوق آخر على وجه الدنيا •

وقل أن يوجد علم أشد اقناعا وأكثر جدارة بالاهتمام من ذاك الذى يبحث فى آثار بنى الانسان الأول ممن وجدوا على وجـه الأرض •• آثار ذلك المخلوق الغامض الذى يسمى بالانسان ، فشظية من حجـر أو بقايا ذبيحة من الحيوان أو حتى رماد النار انما تشكل المفاتيح التى تضفى على علم الأجناس سحره الدائم •

لقد وجد أقدم ما اكتشـفه علمـاء الأجنـاس الى اليـوم من البقايا

الآدمية التي ظلت طبقات من الحجر والطين تحميها زهاء ٥٠٠ ألف عام في أوربا وآسيا وأفريقية وجاوا • « كنت هنا ـ عشت هنا » تلك هي التحية التي تبعث في النفس رهبة والتي تنتقل الينا عبر مئات الألوف من السنين من انسان جاوة (Pithecanthropus) وانسان بكين Sinanthropus وانسان روديسيا أو ألمانيا (Neanderthal) مع ذلك ففي أمريكا لم يعثر على عظام بشرية أو جماجم أو أدوات ، ومن ثم لم تكتشف أية آثار تدل على استقرار الانسان في المنطقة لفترة تمتد على وجه التحديد لأكثر من ٣٧ ألف سنة كما يحددها الكربون المشع (وقد تم اكتشاف هذه الآثار في ولاية تكساس) مع أن واحدا أو اثنين من الاكتشافات الحديثة قد يكونان أكثر قدما ولايزالان الى اليوم رهن الفحص والدراسة •

وربما تؤيد ثقافة شعوب المايا (Mayas) والآزتك (Aztecs) المتقدمة في أمريكا الوسطى ، وثقافة الانكا (Incas) في بيرو الفرض القائل بأن بلوغ مثل هذه الذروة من الثقافة ما هي الا حصيلة حقبة طويلة من الزمن وأن الناس قد عاشوا ، ولاريب ، في المنطقة نفسها الافا عدة من السنين قبل أن يبلغوا مثل هذه الذرى • بيد أن هذا الافتراض ينطوي على مغالطة فلقد تبين لنا أن الحضارات المتقدمة في بلاد ما بين النهرين وفي وادي النيل والسند قد بلغت ذرى مجدها في غضون بضعة آلاف من السنين ، وما لبثت أن طواها عالم النسيان • ان الحضارة الشافينيه (Chavin) التي تعد أقدم ثقافة متقدمة معروفة في أمريكا الجنوبية قد ازدهرت في شمال بيرو في الفترة ما بين سنة ١٠٠ و ٥٠٠ ميلادية على وجه التقريب • وكانت يواكزاكتون بجواتيمالا ، وهي أقدم مدن المايا ، قد تأسست في ربع القرن الأول الميلادي • وليس هناك في شمال أمريكا أو وسطها أو جنوبها الى اليوم ما يدل على وجود حضارة متقدمة سبقت الفترة عام ٧٠٠ ـ ٢٠٠ ق•م (أي فيما بين ٩٠٠ ، ٥٠٠ ق•م) (١) التي يحددها الكربون المشع • لكن متى بلغ الهنود ، كما نسميهم منذ عهد كولومبس ، تلك البقعة •• أولئك القوم الذين بتنا ننظر اليهم على أنهم السكان الأصليون للأمريكتين ؟

وفي أمريكا الشمالية أمكن العثور على رءوس سهام ، وأسنان حراب، يلوح واضحا أنها من صنع الانسان ، بالقرب من بقايا حيوانات متحجرة لم يعد لها وجود ، كالجمال وفصائل قديمة من الثيران والدببة الضخمة والفصائل الأصلية للحصان الأمريكي • واستطاع العلماء تحديد تاريخ

---

(١) علامة ± بين رقمين تدل على أن الرقم الأول يزيد أو ينقص ما يعادل الرقم الثاني ، وأثناء كتابة هذا المؤلف كانت طريقة كربون ١٤ تقدر تاريخ الشيء بعدد من السنين يزيد أو ينقص ٢٠٠ أما الآن فقد أصبح هذا الفرق ٦٠ فقط

تلك الكشوف بوساطة الكربون المشع ، ومعرفة عمر الطبقات الجيولوجية التي تضم تلك البقايا المتحجرة من المخلوقات الى جانب الأدوات .

وتنتمي أقدم الاكتشافات الى ثقافات الفولسوم (Folsom) وساندیا (Sandia) وكوشيز (Cochise) رغم أن كلمة ثقافات هنا مضللة وقد يفضل استخدام « صناعات » أو « حرف » وتشتق صناعة الفولسوم اسمها من الموقع الأول لاكتشافها عام ١٩٢٦ في شمال شرقي نيومكسيكو كما أنه قد عثر على أدوات فولسوميه فوق المنحدرات الشرقيـة لجبال روكي بالبرتا وكندا كما وجدت متناثرة في جميع أنحاء أمريكا الشمالية تقريبا ، شرقي جبال روكي . أما الأدوات الساندوية فقد عثر عليها في أحد كهوف جبال سنديا بنيومكسيكو كما اكتشفت الأدوات الكوشيزية في جنوب اريزونا مع حفريات ثيران قديمة وحيوان الماموث والجمال وفصـائل من الخيل ضاربة في القدم . ويبلغ عمر هذه الصناعات عشرة آلاف أو خمسة عشر أو عشرين ألف سنة على أكثر تقدير ، وليست هذه الأدوات غريبـة على شمال أمريكا فقد صنعها قوم عرفوا النار ، كما تدل على ذلك آثار فحم الخشب فضلا عن أنهم كانوا رحلا يعيشون على صيد الحيوان .

ولعل كائنات بشرية ، فيما نعلم ، كانت تعيش في أمريكا الشمالية منذ ٣٧ ألف سنة على وجه التقريب ، وأنها لم تطور أية حضارة متقدمة في أمريكا الوسطى ، وفي بيرو من بعـدها ، قبـل أن تمضي آلاف عديدة من السنين ، ولسنا ندري ما قام به أولئك القوم عقب وصولهم الى أمريكا الشمالية وان كانت عمليات التنقيب في كهف فنتانا بجنوب أريزونا تلقي شيئا من الضوء على تلك القضية . فقد وجد بالطبقة السفلى أدوات تنتمي الى حضارة فولسوم (٧٩٣٢ / ٣٥٠ بالكربون المشع) كما عثر في الطبقة التي تليها على أدوات من كوشيز ثم أوان يرجع صنعها الى ١٤٠٠٠ م ، وأما الطبقة العليا فكانت تضم بقايا من صناعة هندية تكاد تكون حديثة . فهل ظـل كهف فنتانا عامرا بالسـكان فترة تربو على عشرة آلاف سـنة دون انقطاع ؟ .

ان مكتبات برمتها لا تضم بين جنباتهـا الا ما يتنـاول أصل الهنود الأمريكيين ، فهنالك النظرية الأطلنطية وهي أسطورة مو (Mu) ، قارة الباسفيك التي غاصت تحت سطح الماء . وهناك نظرية التماثل بين الهنود والمصريين الى جانب نظريات الفينيقيين أو الجد السومري للهنود . وثمة من ينسبون أصلهـم الى بولينزيا ومن يحسـب أن الهنود قد وفدوا مـن ميلانيزيا وهناك هيرداهل وكون تيكي (Kon Tiki) المنسوبة اليه فضلا عن مئات التكهنات الأخرى . فلو عثر على قارب بولينزي على ساحل أمريكا الجنوبية أو على تمثال لاله الانكا شبيه بأحد التماثيـل الضـخمة بجزيرة

ايستر ، أو على آلة في كل مـن بولينزيا أو الأمريكتين فذلك كله لا يعنى أكثر من أن لانسانا أو جماعة من الناس جنحت ذات يـوم الى الشواطىء الأمريكية ، بيد أن علماء الأجناس لا يستندون الى مثل هــذا الدليل الواهى فالصورة المقنعة الشاملة هى التى ترسمها أوجـه الشـــبه العديدة بين الثقافات والأجناس •

وهذا يحملنا على التساؤل : من أين وفد أول من ســـكن أمريكا الشمالية والجنوبية من الهنود ؟ •

هناك سمات بدنية مشـــتركة بين جميع طوائف الهنود بأمريكـا الشمالية والجنوبية ألا وهى الشعر الأسود الضارب الى الزرقة سواء أكان مجعدا أم مسترسلا وتدرج البشرة من أصفر داكن الى أحمر داكن ، وعيون سوداء ووجنات ناتئة وتقاطيع كبيرة • أما الخصائص الأخرى فتجنح الى التباين الشديد بين قبيلة وأخرى مثل الأنوف الفطساء والمدببة ، والشفاه الغليظة والرقيقة ، والأجسام القصيرة والطويلة •

ويشبه الهنود الجنس المغولى من حيث لون البشرة والعيون والشعر كما تدل عظام وجناتهم على أنهم منحدرون من أصل آسيوى ، ومن ثم يسعنا القول بأن الهنـــود الأمريكيين هم أشـــد ارتباطا بالجنس المغـولى منه بالأجناس البيضـاء وشبه الزنجية ، بيد أن هذا لا يعنى أنهم صينيون ، ولعلهم قد انحدروا ، مع غيرهم من شعوب شرقى آسيا ، من عنصر سابق للعنصر المغولى وتفرع الى أجناس عدة •

ومن يرى هنود أمريكا الشمالية والجنوبية لا يفوته ادراك أن تركيب الجمجمة وبناء الجسم يختلفان من قبيلة الى أخرى اختلافا يكاد يتعذر معه النظر اليهم كجنس واحد • ويحتمل أن أمريكا تعرضت لموجات من الهجرة عديدة عبر مضيق بيرنج ، تفصـــل بينها آلاف الســـنين اذ انطلقت شعوب آسيوية متباينة كل التباين تجول حتى أدركت أمريـكا الشماليـة حيث تحولوا الى شعوب هندية أمريكية تختلف فيما بينها هى الأخـرى ، وتدل الأدوات وأسلحة الصيد جميعها على أن أمريكا الشـــمالية هى أول بقعة أمريكية يلقى بها الانسان عصا الترحـــال ، فقد عثر على أقدم الآثار التى تنسب الى ثقافات الفولسوم والساندیا والكوشيز •

ونظرا لأن قارتى أمريكا وآسيا تلتقيان تقريبا عند مضيق بيرنج فى أقصى الشمال فانه يمـكن الافتراض بأنه فى هذا المكان تم أول عبـور من آسيا الى أمريكا ، ولقد كان هنالك فيما نعلم ، جسر ظـل يربط بين شبه جزيرة تشوكتشن (Tehuktchen) وآلاســكا آلاف الســنين ، فكانت الحيوانات القديمة تروح وتغدو بين شمالى آسيا وأمريكا الشمالية •

وما آسفرت عنه الثقافة الآسيوية من صناعات متعددة نقلتها أمريكا لتزودنا بدليل آخر علي موجات لاحقة من الهجرة من آسيا الى أمريكا وهي:

الأواني الفخارية التي تزينها الأحزمة والأقواس والنعال والملابس التي تحاك طبقا لنماذج التفصيل والحفر على العاج والأساطير التي لا حصر لها ، وما عدا ذلك ، كالزراعة وفن العمارة وصناعة الفخار وفن الكتابة والتقويم ، وفوق ذلك كله النظام العددي الذي ابتدعه الهنود أنفسهم • والواقع أن النظام العددي للمايايي بأمريكا الوسطى كان أروع ما ابتكرته العبقرية الوطنية التي لم ترق اليها وسط أوربا على الاطلاق • فلقد ورث الأوربيون من الرومان نظاما عدديا أخرق استعاضوا عنه في الأزمنة الأخيرة نسبيا بالأعداد العربية التي تستخدم في الوقت الراهن •

ومن بين ما قدمته أوربا لهنود أمريكا المسيحية الكحول وكورتيز وبيزارو والجدري والتحفظ الهندي • وفي مقابل ذلك زودنا الهنود بالبطاطس والشيكولاتة والمطاط والتبغ والفول السوداني والأناناس والطماطم والذرة والتبيوكا والكينا والكوكايين •

ولما اكتشف كولمبس أمريكا غير بحق حدود عالمنا •• حدود البحر المتوسط القديمة •

أمريكا الجنوبية

لن نعرف أبدا

تياهواناكو Tiahuanacu

ان نظريات بروفيسير بوسنانسكى حول تياهواناكو يبدو انها من نسج الخيال فهو ينظر الى تلك الخرائب على انها « مهد الانسان الأمريكى »

على امتداد الحدود الغربية لأمريكا الجنوبية تمتد جبال الأنديز (Andez) مسافة تكاد تبلغ ٣٦٠٠ ميل ، تلك السلاسل الجبلية التى تشمل القارة بأسرها يتراوح عرضها ما بين ١٠٠ و ٤٠٠ ميل كما تضم ٥٧ قمة يربو ارتفاعها على ١٧ ألف قدم .

وفى تلك البلاد الجبلية ازدهرت أعظم حضارات هنود أمريكا الجنوبية حيث لايزال بها أكبر عدد من الهنود الذين على قيد الحياة . فهنا ، وخاصة فى مرتفعات بوليفيا وبيرو الجبلية ، وفى الصحارى الواقعة على الساحل الغربى لبيرو مازالت حضارات الأجناس الهندية الأمريكية مدونة تحتوى مخلفاتها مدن الموتى التى قد تمر ألف سنة أخرى قبل أن ترى النور برمتها .

وعلى حين أن الانسان فى أمريكا الشمالية قد خلف وراءه آثارا ترجع الى ٣٧ ألف سنة كما يحددها الكربون المشع ، فليس ثمة دليل يذكر فى أمريكا الجنوبية على أن انسان ما قبل التاريخ يربو تاريخه على ما يقرب من خمسة آلاف عام . واذا كان فريق من الصيادين الرحل قد هام على وجهه فى جنوب باتاجونيا (Patagonia) قبل ذلك فكل ما نعرفه عنه أنه كان

يقضى حياته فى البر ولم يعرف القارب ، ولكن فى سنة ١٩٢١ اكتشفت عند مدينة بونين (Punin) بأكوادور جمجمة بشرية يبدو أن عمرها يزيد بالتأكيد على خمسة آلاف عام ، كما أنه تم العثور فى ساحل بيرو على أكوام من الأصداف التى خلفها جنس غير معروف من الصيادين الذين عاشوا فى وقت لم تكن فيه الزراعة تمارس فى تلك المنطقة .

ولا تصــل معلوماتنا التاريخية عن أمريكا الجنوبية الى ما قبل عهد أسرة الانكا ، بيد أن معرفتنا بحياة الانسان فيها تمتد الى الصـــيادين الأوائل الذين وجدوا بالقرب من مضيق مجلان (٦٦٨٨ ± ٤٥٠ ق . م حسب تقدير راديو ــ كربون) . وفى بيرو نجـــد ــ فى أعقاب ثقافات حجرية قديمة لا نعرف لها تاريخا ــ اقتصادا يقوم على الحصول على المواد الغذائية من البحر ومن بعض النباتات التى يقدر تاريخها بحوالى ٢٣٤٨ ± ٣٣٠ ق.م (تقدير راديو كربون) ، وأما الذرة والقطن والفخار والنسيج الدقيق فقد عرف فى الفترة الممتدة من ١٢٠٠ الى ١٠٠٠ ق . م تقريبا .

وتعد بيرو وبوليفيا عالما أثريا حافلا يضم حضارات متراكمة الواحدة فوق الأخرى ، فقد عاش فى هـذه البقعة من العالم شـعب بعد آخر وراح كل منها يبنى حضارته لتختفى فى نهاية المطاف ، وبالرغم من ذلك فان هذه الشعوب جميعها تشترك فى خصائص بعينها . ولا تدل الآثار التى خلفها أهل بيرو وبوليفيا القدامى على أنهم كانوا يعرفون العجلة أو القوس ، ولم تكن لديهم كتـابة بالمفهوم الذى نعرفه ولم يعرفوا القبــور . لقد كانوا يفلحون الأرض فأنبتوا القمح والفول والبطاطس والكينا والكاسافا والتبغ والأوكا ، وكانوا يمضــغون مزيجا من أوراق الكاكاو والليمون ويربون حيوان اللاما والألياكا ، وينسجون الأقمشة من الصوف والقطن وينقرون الخشب ، ويصنعون السلال .

لقد تطورت حضارات بيرو وبوليفيا عبر القرون تطورا يكاد يكـون مستقلا عن المناطق الأخرى فى الأمريكتين اذ بلغت كل من بيرو وبوليفيا من التنظيم شأوا مكنهما من الصمود فى وجه المؤثرات والغزوات الاجنبية الكبرى الى أن جاء الأسبان وما تلقنه هؤلاء الفاتحون الأوائل من الانكـا الذين كانوا لا يزالون على قيد الحيـاة لم يزد عن تاريخ مبســـط لثلاثين جيلا من أجيال الأسرة المالكة . والظاهر أن أقصى اتساع بلغته امبراطورية الأنكا بدأ قبل الفتح الأسبانى بمائة وثلاث وعشرين سنة .

والى عام ١٩٣٦ لم يـكن العلماء قد بدءوا فى تكوين فكرة عن أهـم الحضارات التى سبقت الانكا او بالأحرى عن صور الفنون التى ازدهرت فى الفترة ما بين سنة ٧٠٠ ق . م . و ٥٠٠ م تقريبا . ومن أبرز هـذه

كولومبيا
كيتو
منتا
اكوادور
سالينـاس
تومبيس
امازون
البرازيل
كاجاماركا
تروجيلو
ريماك
ليما
باشاكاماك
ماتشوبتشو
كوزكو
هوارى
ايكا
ناسكا
بوليفيا
بحيرة
تيتيكاكا
لاباز
تياهواناكو
الباسفيك
ميل

الحضارة الشافينية التى سميت باسم موقع فى بيرو يعرف بشـافين دى هوانتار (Chavin de huantar) ولقد عثر عـلى ما أنتجتـه تلك الثقـافة الشافينية فى ربوع الجبال الشمالية والأقاليم الساحلية لبيرو •

وقد نتوخى الدقة اذا سـميت هذه الثقـافة بعالم الخيال ، ذلك أن القرون المحدودة لفترة هذه الحضـارة بأسرها ولشبـعبها ما إنفكت ، من الناحية الأثرية ، خافية علينا • وتعبر فنون حضـارة شـافين عن عقيدة دينية راسـخة من النفوس ، ذلك أن أولئك الذين برعوا فى اسـتخدام النماذج الخشبية والأزاميل كانوا ممتلئين حماسـا وعصـبية تكاد تبلغ حدا يثير الرعب والخوف • وعلى الرغم من أنها تنتمى الى أقدم حضـارة امريكية متقدمة نعرفها ـ أى أقدم فترة توصلت اليها آخر ابحاث الآثار الجارية ـ فان هذا الطراز الحضارى قد بلغ منذ بدايته المبكرة ذروة تطور مذهلة لم تتجـاوزها ولم تأخـذ بعد ذلك غير طريق الانحدار • ومن بين الخرائب التى عثر عليهـا فى شافين دى هوانتار ما يسـمى بالقلعـة أو (Castillo) حيث لا توجد ردهات وأروقة ومنحدرات وطرقات فحسب بل وأيضا نظام للتهوية ، مما برح الى يومنا هذا يزود حجراته الداخلية بهواء نقى • ولعل القلعة كانت مركزا لمذهب دينى •

وبعد عصر حضارة شافين بفترة تتراوح مابين ٢٠٠ و٣٠٠ سنة ازدهرت حضارة ناسكا (Nasca) فى وديان الانكا وناسكا على ساحل بيرو الجنوبى وانهارت نحو سنة ٧٥٠ م • وفى أماكن الدفن التى عثر عليها فى هذه الوديان وجدت فتحات مقابر تتراوح فى عمقها بين عشرين بوصـة وأربعة عشر قدما ونصف القدم ، وكشفت بعض الجماجم عن عاهات ليست طبيعية ، ويبدو أن الرأس المستطيل كان شائعا ابان حقبة حضارة ناسكا كمـا أن الأوانى التى تزخرفها الطيور الملونة والفئران واللاما والخفاش والأسماك والرءوس البشرية والفاكهة والوحوش المجهولة تكشف عن ألوان تربو على أحد عشر لونا كما كانت الأقمشة تنسج من الصـوف والقطن وتصبغ بألوان متعـددة فى الغالب الأعم • والواقع أن ل • م أونيـل (L.M.O. Neale) قد أعلنت فى ١٩١٩ أنهـا اكتشفت مالا يقـل عن مائة وتسعين لونا مختلفا ، غير أنه يبدو أن المعـدن الوحيد الذى عرفته حضارة ناسكا هو الذهب •

وحضارات تياهواناكو ـ وان كانت حديثه نسبيا ـ من أقل الحضارات فحصا واكتشافا ، ورغم ذلك فان خرائبها تحدد معالمها بوضوح وجلاء ، ويبدو أن شعب تياهواناكو تمكن عبر القرون من أن يبسط سـلطانه شمالا ليشمل بيرو بأسرها ، ويفرض سيطرته على الساحل مسافة تمتد الى تروجيلو (Trujillo) بل وربمـا الى اكوادور أيضـا ـ الا أنه

لم يبق الى اليوم غير خرائب تياهواناكو بجبال بوليفيا الواقعة جنــوب بحيرة تيتيكاكا بنحو ١٣ ميلا التى تغطى مســاحة طولها ١١٠٠ ياردة وعرضها ٥٠٠ ياردة تقريبا ــ والتى لابد أن نقلت المواد اللازمة لبنائها ــ الحجر الرملي والبازلت ــ من على بعد ثلاثة أميال على الأقل · ولم يكن نقل الكتل الحجرية الضخمة التي يصل وزنها الى مائة طن أمرا ممكنا دون عمل جماعي ــ منظم ، كما كان نحت تلك الكتل الهائلة واعدادها يتطلب مقدرة فائقة وجيوشا من العمال ·

وطبقا لاكتشافات علماء الآثار تقسم حضارة تياهواناكو الى أربعة عصور : العصر الأول والعصر الثاني والعصر الثالث وهو العصر الكلاسيكي وأخيراعصر الاضمحلال · وأكبر بناء في هذه الحضــارة هو الأكابـانا (Acapana) ، وهو يشبه تـلا طبيعيـا ، لايــد وأنه كان في وقت ما أشبه ما يكون بهرم مدرج وربما أقيم فوق قمته مستودع للحياة ، وعدد من المباني · ولعل الصرح برمته كان قلعة أو مكانا للالتجاء · كما نعثر في شمال غربي الأكابانا على أطلال بناء آخر ضخم يعرف بالكلاساسيا (calasasya) لا يـزال الهــدف من اقامتــه سرا خافيــا ، وان كان يضم بوابة الشمس الشهيرة وعددا كبيرا من التماثيل الحجرية · وغربي الكلاساسيا توجد أنقاض بالاشيو (Palacio) التى كان يحيطهــا يوما سور مزدوج من الطين ، والى الشرق منها يقوم مبنى تكاد الأرض أن تغطيه ، والى جانب مجموعة الخرائب الرئيسية رصيف بوما بونكو المشيد من الحجر الرملي وكتل الحمم التى تهشمت وانتقلت بعيدا عن موقعهـا الأصلي ·

ويحذرنا ويندل · س · بنيت (Wendel. C. Bennett) ، أستاذ علم الأجناس بجامعة ييل ، من افتراض أن كل بناء وحجر ومرتفع في تياهواناكو يكشف من الناحية الرمزية ، عن معرفة قديمة بعلم الفلك ، كما أن مناخ الجبال الجاف يحمل هذا العالم على استنتاج أن الحياة القديمة كانت قريبة الشبه بما هي عليه اليوم ، ففى ذلك المكان عنى بتربيــة حيوانات اللاما والألباكا منذ ١٤٠٠ سنة (ولا تزال الى الآن) كما نستدل على ذلك من العظام التى أمكن اكتشافها ، ولم تكن الأراضى الزراعية أكبر مساحة أو أكبر خصوبة مما هى عليه الآن ، ولعل تياهواناكو كانت ابان عصرها الكلاسيكي مكانا مقدسا يفــد اليه الحجاج وان كان « بنيت » لا يعتقد أنه ماكان بوسع أى حضارة عظيمة أن توجد هناك ما لم تسمح الطبيعة بذلك فقط ·

ولرأى « بنيت » وجاهته فكما وجدت طرواده مكتشــفها شليمان (Schliemann) كذلك كرس عالم آخــر هـو آرثر بوسينانسكي

تياهواناكو (Artheur Posnansky) حياته يرمتها من أجل خرائب تياهواناكو الذى أتم فى سنة ١٩١٤ مؤلفه الضخم عن حضارة الانديز القديمة بعنوان « تياهواناكو ، مهد الانسان الأمريكى » وكان الأستاذ بوسنانسكى مهندسا وعالم أجناس فضلا عن حصوله على درجات علمية كثيرة ـ وقد بلغت نظرياته واستنتاجاته ، التى أوردها فى مؤلفه من التنوع والابتكار وخصب الخيال والاعجاز حدا يبدو معه رأى « بنيت » الأحدث عهدا والأكثر تحفظا وحذرا مكدرا نوعا ما بالرغم من أن « بنيت » قد يكون مصيبا ٠

ولقد وضع بوسنانسكى يده بالفعل على تياهواناكو منذ زهاء خمسين عاما خلت ، وفى حماسته للتأجج لموضوع بحثه راح يستعين بعلوم الفلك والجيولوجيا والأرصاد الجوية والاثار ـ وباختصار بكل علم يمكن تصوره ـ ليثبت نظريته بأن تياهواناكو كانت مهدا للانسان الأمريكى ، بل ذهب الى حد القول بأنه ما عليك الا أن تحفر فى هضاب التبت والانديز والمكسيك لتتابع قصة الانسان منذ فجر حياته حتى بلغت حضارته ذروة مجدها فى سلسلة من التطور تكاد تكون متلاحمة ٠ وكان مثل هذا السلم التطورى الذى يتدرج من ساكن الكهف البدائى الى عالم الفلك والذى يعتقد بوسنانسكى أنه اكتشفه فى تياهواناكو ، بل وينكر على أوراسيا زعمها بأنها المكان الذى كان يضم جنة عدن وشهد أول ظهور للانسان اعتقادا منه بأن انسان أمريكا قد وجد قبل ذلك ، تلك النظرية التى ثبت خطؤها بالبرهان الدامغ ٠

وما كان التطور الثقافى لشعب كبير فى جبال الأنديز الشاهقة أمرا ممكنا على الاطلاق فى ظل الأحوال المناخية السائدة حاليا ٠ وهكذا بعد دراسات جيمور فولوجيه (علم دراسة التطور الجيولوجى) استخلص بوسنانسكى أن هضاب الأنديز لم تكن فى وقت من الأوقات على ما هى عليه اليوم من ارتفاع وبرودة ، وأشار الى أنه حتى ابان عصر البليوسين (عشرة ملايين سنة قبل بداية تاريخنا) وبعد ذلك أيضا اجتاحت الأرض تغييرات جذرية المرة تلو الأخرى وراح بوسنانسكى ينقل العديد من الامثلة الجيولوجية الدالة على تلك التغييرات التى طرأت على الارتفاع قبل أن يتعرض فى نهاية الأمر لتياهواناكو وتيتيكاكا ، تلك البحيرة التى انفصلت عن المحيط الهادى واستقرت فى المرتفعات ٠ ويقول انظر الى حيواناتها المائية لتتبين أن بحيرة تيتيكاكا ماهى الا حوض مرتفع من المحيط ٠ ومن ثم ففى مياه تلك البحيرة تجد فرس البحر الذى يعيش فى المحيط الهادى الى جانب أنواع جديدة من أصداف المحيط بيد أن عددا من حيوانات المحيط قد اندثرت بعد أن استعاضت عن بيئتها الحارة بأخرى أكثر برودة تسود فى ارتفاع يصل الى ١٢ ألف قدم ٠

وبناء على ما يذكره بوسنبانسكى كانت تياهواناكو ذات يوم عاصمة سياسية ودينية فسيحة الأرجاء ، بسبطت نفوذها على قارة أمريكا الجنوبية بأسرها ، كما كانت مركزا للطقوس المتعلقة بالموت ومساحات الدفن الواسعة . ومالبثت أن وقعت كارثة رهيبة حين دفع زلزال مروع مياه بحيرة تيتيكاكا على أن تفيض وأن تثور البراكين • والواقع أن بركانا يعرف باسم بركان كايابيا يوجد على بعد ميل واحد من كالاساسايا حيث تغطى ، كما يشير بوسنانسكى ، طبقات من الحمم أنقاض ذلك المكان ، كما أنه يرجع انهيار مهد الحضارة الأمريكية الى مزيج من الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية • ويقول ان سكان تياهواناكو الأوائل قد تعرضوا ، فيما يبدو ، لأول كارثة مروعة نحو سنة ٥٠٠ م ، كما أنها انهارت للمرة الثانية عام ٩٠٠ بعد الميلاد حين كانت حضارتها قد عمت بيرو عن بكرة أبيها ، ثم جاء الانكا عقب حقبة من الزمن تتميز بقيام عدد كبير من الولايات الصغيرة المزدهرة وأطلق الانكار على أنقاض تياهواناكو ـ « مدينة الموتى » فقد كانت تياهواناكو فى حقيقة أمرها قد استحالت الى دمار واضمحلال منذ مئات السنين يوم أن بلغت امبراطورية الانكا ذروة قوتها •

وشهد سيزادى ليون (Ciezade leon) الذى زار خرائب تياهواناكو فى ١٥٤٠ أجزاء كبيرة من مبانيها الرائعة التى ظلت صورتها الأصلية . ومنذ ذلك اليوم جعل معبد الشمس الفريد من نوعه يتهاوى شيئا فشيئا وأخذوا ينقلون حجارته لبناء المنازل والقناطر فى مدينة لاباز (Lapaz) وفى غيرها من الأماكن • وكانت العربات التى تحمل تلك الأحجار تشحن عبر البحر الى لاباز ، فمنذ سنوات قليلة كان المهندسون المعماريون المعاصرون يتعاونون مع الطبيعة وكوارثها فى القضاء على أمجاد تياهواناكو القديمة ، وفى عام ١٩٠٤ أضاف أحد علماء الآثار عاملا جديدا من عوامل الفوضى الى تلك الأطلال عندما انطلق يزيح الأحجار والجدران بهدف البحث عن الذهب دون سواه .

وثمة نظريات متعددة حول طبيعة أولئك القوم الذين شيدوا تياهواناكو • لقد أضحى ذلك المكان جزءا من بوليفيا ليقطنها الايمارا (Aymara) أو الكولا الهنود ، وما من شك فى أن جماعة الكولا الحالية قد انحدرت ممن كانوا يعيشون فوق جبال الأنديز منذ ١٥٠٠ أو ٢٠٠٠ سنة الذين كانوا يقطنون هناك عند وصول الانكا لأول مرة . وتكشف الابحاث الاثرية أن حضارة تياهواناكو ظلت مزدهرة حتى ذلك الحين على وجه التقريب وكان كهنة الكولا وحكامها ينتمون ، ولا ريب ، الى عشيرة متميزة ، فقد كانوا علماء فلك بارعين أمكنهم الحفاظ على خبرات القرون العديدة وتقاليدها ، وأن معبد الشمس فى كلاساسيا ليدل ، بما لا يدع مجالا للشك • على أنهم ، كانوا ذوى

معرفة واسعة بعلم الفلك ، اذ تسنى لهم تحديد الفصول والتواريخ وازمنة الاعتدال الى جانب المامهم « بدوران الشمس حول الأرض » فقد كانوا يعتقدون ، ولا شك بأن الأرض مركز الكون وأن تياهواناكو مركز العالم (١) .

ولما بلغوا ذروة المعرفة شرعوا فى بناء معبد الشمس ، وعلى الرغم من جهلهم التام بأجهزة قياس الابعاد أو قياس الزوايا أو التقاويم الفلكية استطاعوا تحقيق نتائج رائعة بوسائل بدائية . فابتدعوا تقويما حجريا يقسم السنة بدقة الى اثنى عشر شهرا ينقسم كل منها الى ثلاثين يوما . ولم يكن شهر سبتمبر يمثل بداية الربيع فحسب (ونحن بالطبع فى جنوب نصف الكرة الغربى) بل حلول السنة على حد سواء

وذهب بوسنانسكى الى حد تصنيف الرموز الزخرفية العديدة التى تتحلى بها التماثيل والاوانى الخزفية ، التى عثر عليها فى هذا المكان الخرب الى جانب افريز بوابة الشمس . ولم يكن سكان تياهواناكو يعرفون الكتابة ، لكن من الواضح جليا انهم طوروا بعض الرموز الدينية والفلكية . فكان هنالك رمز للدرج يرمز للارض أو السماء الى جانب رموز تمثل السمك والثعابين والعيون الواسعة والأفواه والآذان وتربيعات القمر والأذرع والسيقان والذيول والأجنحة والتيجان والصولجانات والوجوه البشرية ، وأشياء غيرها كثيرة .

وتعد بوابة الشمس أبرز مبانى عصر تياهواناكو الثالث الرائع وأكثرها مثارا للدهشة بيد أن السبب الذى حال دون اتمام اى من المبانى المحيطة ببحيرة تيتيكا ما زال سرا خافيا . وما لبث علماء الآثار يؤكدون أن العمل فى كل من تلك المبانى قد توقف عند مرحلة او أخرى من مراحل التشييد ولكن ما يبعث على الحيرة فى نظريات بوسنانسكى هو أن أسلوب المعمار حتى فى منطقة تياهواناكوليس ضارب فى القدم وان آثارا أكثر قدما — وان لم تكن بحال بدائية — قد تم العثور عليها من آن لآخر أسفل تياهواناكو نفسها . والأدهى من ذلك أن تياهواناكو على حد ما كشفت عنه عمليات التنقيب ، لم تنهر فى الفترة الممتدة بين ٨٠٠ و ٩٠٠ بعد الميلاد ، فلقد اخذ فن تياهواناكو فى سنة ٧٠٠م ينتشر بسرعة فائقة ويطمس معالم الفن القديم بصورة توحى على أسوأ الفروض بأن بيرو قد تعرضت لغزو عسكرى . وعلى حين سرعة اختفت تماما أساليب فن تياهواناكو من ساحل بيرو على الأقل نحو سنة ١٢٠٠ م وراحت أساليب قديمة تزدهر او اخرى حديثة

---

(١) كان البابليون ايضا يعتبرون بابل مركز العالم — المترجم

تتطور ، وبذلك لم يعد ثمة أساس علمي مقبول لنظريات بوسنانسكى التى تأخذ بالألباب رغم تعذر قبولها .

وعلى ارتفاع ١٢ ألف قدم حيث تتخلخل كثافة الهواء يصعب السير بسرعه او تسلق الجبال أو القيام بأية صورة من صور الجهد البدنى ، ولكن ترى كيف استطاع شعب كولا أو عبيدهم نقل كتل الحجارة الضخمة التى استخدموها مواد للبناء ، وكيف يتسنى نقل بوابة الشمس التى من حجر واحد الى موقعها ؟ علما بأن البوابة منحوتة من نوع من الصخر لا وجود له فى أى مكان يقع فى نطاق تياهواناكو . انه نوع من حجر صلد مستطيل تم يستخدم فى نحت تمثال أو صنم آخر فى تلك الحقبة .

ولقد خصص لتلك البوابة أقدس مكان فى معبد الشمس . وعلى الرغم من أن تلك الكتلة الضخمة لم يعثر عليها فى ذلك المكان بالذات الا أن كل شيء قد أعد لاقامتها هناك والواقع أنه عثر على البوابة مقلوبة على مسافة قصيرة من المعبد . ولم يتم اعادة بنائها حيث لم يتم العثور عليها الا سنة ١٩٠٨ .

وفى ضوء طبيعة البوابة المقدسة يتسنى لنا افتراض ان كهنة تياهواناكو قد عقدوا العزم على احضار الكتل الحجرية الضخمة اللازمة لبوابة الشمس من مكان بعيد له دوره الهـام فى أساطيرهم ولكن اذا كانت تياهواناكو تقوم آنذاك على ارتفاعها الحالى البالغ ١٢ الف قـدم يحق لنا ان نتساءل فى دهشـة عن كيفية نقـل تلك الكتلة الحجرية الهائلة مئات من الأميال ورفعها الى قمم جبال الأنديز الشاهقة ، تلك المهمة التى يتعذر الاضطلاع بها فى الوقت الراهن رغم ما نملك من احدث الأساليب المتطورة .

ان الجواب سيظل خافيا أبد الدهر ..

أمريكا الجنوبية

فى هواء مخلخل الكثافة ... على ارتفاع ١٢ ألف قدم
الانكـــــا

كان ملوك الانكا على بينة من ان الشـــعب الـذى ينعم بقسط وافر من الفراغ قد يشرع فى التنديد بحكومته

لسنا على بينة من السـبب الذى أفضى بانهيار تياهواناكو ، وكل مانعرفه هو أن هذه الحضارة بجل أبنيتها الرائعة المتمركزة حول بحيرة تيتيكاكا قد حظيت بحقبة ثانية عظيمة من التقدم الهائل تمتد من سنة ٩٠٠ الى ١٢٠٠ ميلادية ، وما لبثت أن طواها النسيان . ولعل المبـــانى العديدة فى تياهواناكو التى لم يتم تشييدها لتدل على أن نهايتها كانت مفاجأة غير مرتقبة . أما حضارات بيرو وبوليفيا التى سبقت حضـــارة تياهواناكو وهى شافين وناسكا وموشيكا وغيرها ، فقد انقضى زمن طويل ، على بلوغها ذروة المجد واستحالتها أنقاضا . وأن الحقبة القصيرة التى عاشتها تلك الحضارات لتتعارض بشدة مع روعة انتصاراتها الفنية والمعمارية . فقد كان فنانو بيرو وبوليفيا وصناعها يعيشون حياة طابعها البؤس كما لو كانوا يتوقعون الموت فى الغد القريب ، لكنهم كانوا ، برغم ذلك ، يشيدون من أجل الخلود .

وتاريخ الفن فى بيرو القديمة يترك فى نفوسنا انطباعا بأن هـذا الفن قد ارتد عن بدايته القديمة الرائعة . فحضارات شافين وناسـكا وموشيكا هى بداية رائعة ، كما تمثل تياهواناكو مرحلة متوسطة طابعها اللامبالاة ، أما حقبة الانكا فتعد ، من الناحية الفنية ، مرحلة عادية ، لكن تياهواناكو لم ترق فى فن العمارة الى مستوى رفيع لو قورن بما حققه

الأنكا في هذا المضمار من منشآت للصرف واسعة النطاق ومدن صغيرة رائعة ونظم للطرق لا تكاد تبارى .

فمن هم الانكا وما هي حضارتهم على وجه الدقة ؟ .

لا يعرف من أين ظهر الانكا وحضارتهم بغتة في حوالى سنة ١٠٠٠م وحين نزل بيزارو (Pizarro) بتومبيز عام ١٥٣٢ ، وأخذ أتاهوالبا (Atahualpa) أسيرا في ١٥٣٢ وتم فتح كوزكو ، كان الانكا قد قضي عليهم ومن ثم لم يكتب لحضارتهم الدوام سوى نحو ٣٠٠ سنة .

ولفظ « انكا » هو في الواقع لقب الملك ، وكان حكام الانكا من أصل كيشوا (Quechwa) ويتحدثون اللغة الكيشوية . وفي سنة ١٠٠٠ تقريبا كان مقامهم بالقرب من كوزكو التي يمكن أن نطلق عليها مهد الانكا والتي منها انطلقوا يقيمون امبراطورية قوية استطاعت في غضون قرون خمسة أن تبسط سلطانها على ما يربو على ألفي ميل تمتد من شمال اكوادور عبر بيرو وبوليفيا حتى وسط شيلي .

وقبل أن تبدأ تلك الفتوحات انقسمت منطقة الأنديز بأسرها الى وحدات سياسية لا حصر لها ، وكاد يكون لكل واد أو سلسلة من التلال لغة خاصه به . وللقضاء على هذه الفوضى أعلن الانكا اللغة الكيشوية ــ وهي لغتهم الخاصة ، لغة رسمية في ربوع الامبراطورية وما أن حل الأسبان بتلك البلاد حتى استبان لهم أن كيشوا هي اللغة الوحيدة التي من شأنها أن تمهد لهم الطريق اينما ساروا . ومن ثم لم يكلف الأسبان أنفسهم مشقة تعلم اللغات واللهجات المحلية المتعددة واقتصر تعاملهم مع الأهالي على اللغة الكيشوية لا سواها ، ومن ثم اندثرت عشرات اللغات الهندية القديمة .

اذن كانت الصورة الشاملة على النحو التالي . كان الانكا صفوة ضئيلة من الملوك الحكام والقادة العسكريين الذين يبسطون نفوذهم على اقليم واسع الأرجاء يضم بين جنباته الوطنيين الهنود . كانوا سادة أجانب ارستقراطيين ذوي بشرة أشد شحوبا من بشرة رعاياهم الهنود ، رجال وهبوا من الحكمة والعلم ما لم يرق اليه أولئك الرعايا الذين لم يتسن لهم على الدوام فهم لغتهم الخاصة . ونظرا لأن أهل الأنديز لم يعرفوا الكتابة فكل ما نعرفه عن تاريخ الانكا انما استقيناه مما يرويه لنا كتاب القرن السادس عشر من الأسبان ، فقد تعلم أولئك الأسبان بعض تقاليد الانكا شفاهة ونقلوا مثل هذه المعلومات عن الشعر القصصي والسجلات الاحصائية المحفوظه في صورة خيوط بها عقد والى جانب تلك السجلات كان للانكا « حفظة للتاريخ » محترفون ، هم بمثابة رجال متعلمين يعون في أذهانهم ذخيرة من المراجع .

وهكذا نقل الانكا الينا الأساطير حول آلهتهم وأبطالهم وما يتعلق منها بأصل الانسان وبما اضطلع به أسلافهم من مغامرات . ولقد بدأت أسرتهم الحاكمة « بمانكوكاباك » (Mancocapac) وانتهت بثالث حاكم بعد اتاهواليا الذى لم يسعده الحظ . وكانت هذه الأسرة التى تضم ١٣ ملكا قد تأسست نحو ١٢٠٠ م . وظل يمسك بأعنة الحكم تحت لوائها شخصيات تافهة لاوزن لها الى أن شهد عام ١٤٣٨ تتويج رجل يدعى باشاكوتيك (Pachacutec) وهكذا تنحصر معلوماتنا الحقيقية حول تاريخ الانكا فى مائة سنة أو نحوها فهى قصة انسانية ما أروعها شأنها شأن تاريخ الأمم بلا استثناء اذ تنطوى على أخبـــار حـروب وفتوحات واستعباد الأسرى واخضاع الشعوب وفرض الجزية والطغيان وما يدور من منازعات حـــول الخلافة ... انها قصة استـــعمار نابه وحكومة بارعة رشيدة .

وتتجلى عبقرية الانكا فى التنظيم السياسى أكثر منه فى الفنون فقد كانوا ، على نحو ما ، رومان أمريكا الجنوبية اذ أنهم أقاموا شبكة رائعة من الطرق تمتد عبر مرتفعات امبراطوريتهم الجرداء وصحاريها الساحلية : طرق وصفها الكسندر فون همبولدت (Alexander Von Humboldt) بأنها من بين أروع المشروعات التى ابتدعتها عبقرية الانســـان وأشدها نفعا بل ان شبكة الطرق التى قاموا بمدها كانت فى واقع الأمر ، أعظم وأقوى من أية شبكة لشعب قديم آخر بما فى ذلك الرومان . وظلت طرق الانكا الملكية زهاء أربعمائة عام — أى الى اليـــوم الذى قام فيه نابليون باصلاح الطرق الرومانية فى أوروبا — أفضل نظام للطرق فى العـــالم . وبينما لبثت الاتصالات الثقافية فى أوربا تتمرغ فى الوحـــل والرمال قرونا عدة انطلق رسل الانكا يعدون عبر سلاسل جبال الأنديز حاملين الرسائل بين تياهواناكو وكوزكو اللتين تفصلهما مسافة ١٢٥٠ ميلا على وجه التقريب . ولم تكن عملية نقل الرسائل عبر هذه المسافة تستغرق أكثر من أسبوع رغم افتقار الانكا الى أهم ما توصل اليه الانسان من وسائل الا وهى « العجلة » وهذا ما حملهم على بناء أطول الممرات فى العالم حتى وان كانت كلمة « ممرات » لا تؤدى المعنى المقصود .. فهى لم تزد عن طرق منشقية أقيمت على أساسات متينة تمكن من مرور الاعداد الغفيرة وعبور قوافل اللاما ، وفرق الجند ، والرسل وأفراد الأسرة الملكية وهم فى هودج فوق أكتاف حمالين أشداء يتأرجحون على الكبـــارى المعلقة وعبر الأنفاق التى تربط سلسلة من التلال بالتى تليها .

وأقام الانكا طريقا ساحليا يتراوح عرضه ما بين ٢٣ و ٢٦ قــدما ويمتد طوله نحو ٧٥٠ ميلا عبر صحار لم تشاهد غزارة حقيقية فى المطـر الا نادرا أى مرة كل فترة تتراوح بين ٧ سنوات و٢٫٥ سنة . وكان يحف

بهذا الطريق سور في ارتفاع الخصر يعد صورة مصغرة في أمريكا الجنوبية من سور الصين العظيم . ولقد اتبع مهندسو الانكا في بناء هذا الطريق الصحراوي كما اتبعوا في تشييد طرقهم الجبلية خطة بسيطة ، فلم يعقهم أي عائق طبيعي بل استمروا في بنائهم في اتجاه مستقيم ، واذا ما صادفهم أحد المستنقعات أقاموا عبره ممرات طويلة من الحجر بلغ من صلابتها انها مازالت تستخدم الى يومنا هذا ، كما كانوا يعبرون البحيرات بالعوامات ، والأعماق بالكبارى الضخمة التى ظل أحدها قائما حتى يوم ٢٠ من يوليو عام ١٧١٤ عندما انهار ملقيا بجماعة من المسافرين في قلب مياه أبوريماك (Apurimac) ولما كانت الصخور تعترض سبيل الانكا وكانوا اما يحفرون الأنفاق من أسفلها أو يبنون درجا ينقلهم دون مشقة الى قمة السلاسل الجبلية .

لقد تسنى لهم تحقيق تلك الانجازات المذهلة على ارتفاع ١٢ الف قدم ، حيث يصعب التنفس وتتوهج الشمس بغير رحمة وتعكس القمم التى يغطيها الجليد بريقا يذهب بالابصار ، فهنا أقيمت كبارى الانكا المعلقة التى تحملها جبال من الألياف يبلغ سمكها ست بوصات ، ولقد هيأت هذه الروائع المتأرجحة المعلقة بين السماء والأرض بانسجتها المجدولة وأرضيتها التى غطيت بالحصر مكانا ممتازا للتنزه .

وعلى مسافات تتراوح بين أربعة وأحد عشر ميلا على طول هذا الطريق (زهاء ألفي ميل) أقيمت محاط الاستراحة حيث كان يمكن الحصول على وجبات الطعام الى جانب محاط البريد الخاصة برسل الملك ممن كانوا يحملون رسائل عاجلة ويتعين عليهم السفر بسرعة في جو مخلخل الهواء . لقد كان أولئك الرسل يعملون بالتناوب وكان كل منهم يقطع مسافة ١٥٠ ميلا في اليوم .

ومن المسلم به أنه متى وجدت الارادة وجدت الوسيلة ولكن قد يوحى وجود الوسيلة كذلك بالارادة اذ كانت شبكة الطرق الرائعة المريحة التى أقامها الانكا عامل اغراء حمل الأسبان على قهر البلاد بأسرها ، وهكذا تثبت أن أعظم ما أنجزه الانكا قد عجل بدمارهم . كما أن العربات الأسبانية التى تجرها الثيران وحوافر الخيل واهمال الصيانة أفضت في النهاية الى انهيار تلك الطرق .

ولم يكن الانكا بناة طرق حاذقين فحسب بل انهم أيضا أقاموا أهم مركز لفلاحة البساتين في عصرهم ، وأنبتوا ما يربو على ١٤٠ نوعا مختلفا من النباتات والحبوب ، واستغلوا وسائل الري المذهلة التى استخدمت في عصور ما قبل الانكا ووسعوا نطاقها ولقد كانت الخنازير الغينية مصدرهم الرئيسى للحوم ، وهذه المخلوقات الصغيرة كانت تربى في المطبخ على

قطع الخبز والنباتات الخضراء فكانت نظيفة وكان لحمها طريا يحتوى على قدر كاف من الشحم ولم يكن الانكا يحبون لحم الكلاب ، أما البط فكانوا يعتبرونه طعاما شهيا .

وكان الانكا يقيمون مساكنهم من الحجر فى مجموعات تضم فى العادة ستة مساكن يتوسطها فناء ويحيط بها سور ، بيد أن جيوشهم كان مسكنها الخيام ، ولم يكن يجلس على المقاعد غير كبار المسئولين الذين يعينهم الملك ، أما الملك نفسه فكان يتربع فوق عرش .

وفى ربوع امبراطورية الانكا السابقة يعثر المرء على أنقاض قصور فسيحة ومعابد للشمس من الحجر ، ولم تكن مدن الانكا تحصن فى الغالب ، فقد كان لهم فى العادة ملجأ يحتمون به فوق أحد التلال المجاورة ، وكانت العاصمة كوزكو ، مثلا ، تضم مركزا للعبادة ـ حيث كان النبلاء والكهنة والمسئولون يعيشون مع خدمهم ـ تحيط به سلسلة من القرى الصغيرة .

وكان صوان ملابس الانكا العادى يضم بين جنباته قميصا من غير أكمام وعباءة يرتدونها عندما يكون الطقس باردا ، ووزرة من القماش ونعالا من الجلد ذات رباط من الصوف . أما النساء فكن يرتدين رداء طويلا فضفاضا يربط حول الخصر بحزام ، وتغطين رءوسهن بغطاء من النوع الذى يستخدمه الرجال . وكانت وزراتهن تتدلى حتى الرسغ ، كما كان شعرهن يرفع بعصابة من الخنف ، وأما الطبقة الأرستقراطية فكانت تتحلى بأقراط من الذهب أسطوانية الشكل ضخمة ، قطرها نحو بوصتين وكانت آذان الغلمان تثقب عندما يبلغون الرابعة عشرة من عمرهم فحسب على حين أن النساء لم تكن تتحلين بشىء فى آذانهن ، كما دأب الانكا ، شأنهم شأن السواد الأعظم من الهنود ، على صبغ وجوههم عند خوض غمار الحرب وفى فترات الحداد والاحتفالات الدينية .

وكان الانكا يستخدمون معادن كثيرة من بينها النحاس والذهب والفضة والصفيح والقصدير . وكل ما كان يجمع من ذهب فهو ملك للحكومة ، لكن عدد الزوجات ، وليس الذهب ، هو الذى كان يتخذ دليلا على ما للمرء من ثراء وجاه ، وغالبا ما كان الملك يكافىء رعاياه الممتازين بمنحهم عددا من الزوجات .

وكان ملك الانكا حاكما مطلقا بتفويض الهى يرجع نسبه الى الشمس ، وكان يعبد كاله طيلة حياته ويطالب رعاياه بالطاعة التامة ، ولم يكن يحد من سلطانه غير أخطار نشوب ثورة جامحة .

ولم يكن للملكية الخاصة وزن كبير فى الامبراطورية اذ كان تنظيم

الأمة يقـوم على أسس جماعية ، فكانت جميع الأراضي الزراعية ملكـاً للعشائر العديدة التي يقوم رؤساؤها بتوزيعهـا على أفراد العشيرة ، فكانوا يزرعونها لمدة عام لا تلبث في نهايته أن توزع من جديد ، وكان النظام برمته صورة من صور الحكم الشيوعي الذي يخضع لملك ـ اله ـ مستبد وكانت هنالك مصالح حكومية متعددة كالطرق العامة والرياضة والصيد والغابات وما شابه ذلك كما كان يتولى تصميم المدن والمعـابد والقناطر وانشائها فرق من المهندسين ويتابع خبراء الاحصاء المسئولون المحاصيل والمواليد والعمال الأشداء · وكانت الدولة تضطلع بتدريب عدد معين من الأطفال ليصبحوا جنوداً كما كانت تعد مجموعة أخرى لخـدمة الكهنوت وثالثة للوظائف المدنية ·

وكان لكل حاكم حريم كبير الى جانب زوجه الرئيسية التي كانت منذ عهد توبا انكا (Topa Inca) شقيقته · وأما الزوجات الأخريات فكن يحظين بامتيازات خاصة بقدر ما تنجبن من أطفـال كان يعهد اليهم فيما بعد برعاية القصر الملكي وتلبية مطالب الحـاكم الشـخصية وكان لا يزال على قيد الحياة حوالى ٤٠ ألف شخص من نسل الملك في وقت الغزو كما كان تخليد « العقيدة الملكية » في يد جماعة من العلماء يمكن أن نصفهم بخبراء الدعاية للدولة ويتم اختيار كبار المسئولين في الحكومة من بين صفوفهم وكان الملك يختار عادة أكفأ أبناء زوجته الأساسية ليخلفه على العرش ، وكان يقوم بتدريبه حتى يكون أهلاً لمهام المستقبل ·

أما العرش الملكي فكان على هيئة مقعد منخفض لا يزيد ارتفـاعه على ثماني بوصات من الخشب الأحمر تكسوه الطنافس الفاخرة حيث كان يتربع صاحب القاب « الانكا الوحيد » و « ابن الشمس » و « صديق الفقراء » كما كانت زوجه الأسـاسية لا تلقب « بالملكة » فحسب بل « بالأم » أيضا ، وأقام كل ملك لنفسه قصراً جديداً في كوزكو ابان توليه مقاليد الأمور (أما قصر سلفه فكان ينقلب بصورة آلية الى معبد للذكرى) حيث كان يتعين على من يرغب في لقاء الملك أن يخلع نعله ويضع حملا فوق ظهره قبل أن يدلف الى حضرة الملك الذي كان من دأبه أن يجلس خلف ستار مسـدول فاذا كشف وجهه للزائر نال شرفـا عظيما ·

كانت الامبراطورية دائبـة البحث عن ذوي المواهب ليتولوا آلاف المناصب الرسمية في ظل النظام الملكي المستبد · ومن كان يبدي أقل بادرة توحي باستعداد للزعامة وبقدرة على الادارة يجد نفسه بغتة في قرية قصية حيث يحكم وفق ايديولوجية رسمية · ·

وكانت الضرائب تؤدى اما عملا ، أو عينا ، فلم تكن ثمة نقود ،

وكان يتعين على دافعى الضرائب أن يفلحوا الأرض التى تأخذ ثمارها طريقها الى خزائن حكومة الانكا والكهنة ، كما كانوا يقضون فترة محددة فى حياتهم فى الخدمة العسكرية الاجبارية أو الأشغال العامة أو فى خدمة الملك والنبلاء ، ولقد تطلب بناء قلعة ساكسا هوامان (Sacsahuaman) وهو عمل فريد من نوعه بل لعله أعظم ما شيده الانكا ـ قوة عاملة قوامها ٣٠ ألف عامل · أما فى المناجم فلم تتعد فترة العمل الاجبارى فى العادة شهرا واحدا ·

ولم يكن هناك ما يهتم به الملك أكثر من توفير العمل ليبقى فى حال انشغال دائم فعلى سبيل المثال أصدر الملك هوايانا كاباك أوامره بنقل تل من مكان لآخر لا بسبب الا لأن تفكيره لم يسعفه بما هو أفضل ، وكان على بينة من أن شعبا ينعم بقسط وافر من الفراغ قد يشرع فى التنديد بحكومته · لقد نشبت الثورات والرعية فى عمل دائب ، ومن ثم ارتعدت فرائص الملوك من التفكير فى مغبة ما قد يقع لو أنهم سمحوا للشعب بفترات طويلة من الكسل ·

وكانت نساء الانكا تخضعن لرقابة مشددة كالرجال على حد سواء · وكان ممثلو الملك المسئولون يزورون القرى ويقومون بتصنيف من بلغن سن العاشرة من الفتيات الواحدة بعد الأخرى اذ كان على الحكومة أن ترعى الحسناوات بينما تظل البقية فى ديارهن وتتزوجن من دافعى الضرائب ·

وكان الزواج يتم بأسلوب جماعى تحت اشراف الدولة · ففى يوم محدد كان الفتيان والفتيات الذين بلغوا سن الزواج يصطفون فى صفين ويختار أحد المسئولين باسم الملك فتاة لكل شاب ، ومن كان يتم اختيارهن من الفتيات لخدمة الحكومة فكن يلحقن بمدارس حكومية يتعلمن فيها الغزل والنسيج والطبخ الى غير ذلك من الأعمال المنزلية وما أن يفرغن من تلك الخدمة حتى يعمل بعضهن فى معابد الشمس (التى كانت تتطلب طهارة دائمة بحكم أنهن « عذارى الشمس ») ويصير البعض الآخر زوجات للنبلاء والمحاربين الاكفاء · كما يصبح بعضهن محظيات للملك يقمن باعداد طعامه وحياكة ملابسه ·

أمريكا الجنوبية

القانون والنظام والشعر

ازهر عودى ، ولما آن اوانى ذبلت وفنيت من احدى قصائد الانكا
(ترجمها سارمينتو داجامبو)

مهما يبلغ ملوك الانكا من جاه وقوة ، وترامت أطراف امبراطوريتهم لتمتد من هضاب الأنديز الشاهقة الى المحيط الهادى ، ومهما كان سلطانهم مطلقا ، فانهم عاشوا فى رغب دائم من الثورة • ولم يظهر طاغية أو مستبد تسنى له أن يقضى ليلة فى نوم هادىء •

لم يكن ملوك الانكا يعتبرون فتح البلاد الجديدة عملا عظيمـــا ، فالتجنيد العسكرى العام مع احتشاس الفرد بأنه طوع بنان الملك ولا ارادة له ، أقنع أولئك الملوك أن بوسعهم قيادة جيوشهم الى أقاصى الأرض لو اقتضى الأمر ذلك ، فقد كان قهر البلاد الجديدة أمرا يسيرا أما الحفاظ عليها فمسألة مغايرة تماما •

وهكذا انتهج ملوك الانكا سياسة لم تنتعش إلا أخيرا • فكـــان الاضطراب البالغ الذى يسود كل بلد حديث الفتح تهدأ حدته بابعـــاد أعداد غفيرة من سكانه • ومن ثم لم يكد الاقليم الجديد يفتح حتى يجرد من أهله ، وكانت الآلاف المؤلفة من الهنـــود تدلف على طـــول الطـــرق الملتقية الرائعة حاملة أثمن ما تملك تصحبهم زوجاتهم وأطفالهم وبينما كان هؤلاء الأشخاص المبعدون يسيرون فى طوابير لا نهـــاية لها يلتقون بالقادمين لشغل ديارهم السابقة فى طريق مضاد وقد ارتسم الحزن على وجوههم اذ كانوا قد أجبروا بدورهم على ترك بلادهم •

وكان يطلق على أولئك المستوطنين « الميتيماى » (Metimaes)

ولما كان الملاك الجدد للقرى وللحقول الأجنبية على خلاف دائم مع القلة من السكان الأصليين الذين سمح لهم بالبقاء ـ وهذا العداء كان واضحا ـ فان حقوق الوراثة كانت فى عرفهم أعظم من المرسوم الملكى الذى أقام عليه المستعمرون الجدد دعواهم • وكانت الحكومة تطالب الوافدين الجدد بأن يكونوا مثالا طيبا تحتذيه الشعوب المغلوبة على أمرها فراحوا ينشرون اللغة الكيشوية ويقيمون جاميات الانكا ، وكدليل على الرضا الملكى سمح لهم باقتناء ما يشتهون من الفتيات المحليات •

ولما قهر الأسبان بيرو كان عدد المستوطنين المستعمرين فى كثير من الأقاليم يفوق عدد سكانها الأصليين الذين وفد معظمهم أساسا من العاصمة كوزكو ، وبنشر المقربين اليه فى ربوع الامبراطورية استطاع حاكم الانكا أن يوفر لنفسه مصدرا وثيقا يستقى منه المعلومات عن تلك العناصر الأجنبية جميعها كما أن سماحه للأعداد الغفيرة من المبعدين بالوفود الى عاصمته مكنه من دراسة لغاتهم وعاداتهم وطباعهم كما لو كانوا يعيشون فى فناء قصره الخاص •

وكانت امبراطورية الانكا هى البوتقة الأولى الحقيقية للعالم الجديد كما كانت كالاعصار المترامى الذى يموج بجنسيات متباينة عديدة • ولو لم يظهر الاسبان « الآلهة البيض » على المسرح آنذاك لاستطاع شعب الانكا أن يندمج فى أمة واحدة متجانسة لغتها السائدة هى الكيشوا •

وكانت الحكومة تحدد أوقات العمل والفراغ فى أنحاء الامبراطورية وتتحمل تبعة أن يموت أحد من الناس جوعا أو يتجمد من شدة البرد أو يقضى أوقاتا طويلة فى المتعة ، ولم يكن للبطالة وجود بل كان يتعين على من تتراوح أعمارهن بين الخمسين والثمانين عاما من النساء أن تواصلن العمل ، كما أن الرجال الذين بلغوا من العمر حدا سقطت معه أسنانهم كان يعهد اليهم باطعام الخنازير وتربيتها ، وكان هؤلاء الرجال يعرفون « بالنائمين المسنين » ، ربما لأنهم كانوا يقومون بما أوكل اليهم وهم فى سنة من النوم دائمة •

ويذكر الكاتب الهندى فيليب هوامان بومادى آيالا أن الانكا لم يتركوا أحدا متعطلا على الاطلاق حتى العجزة أو العميان أو الصم أو ضعاف العقل • ولما كانت الدولة دائمة الاهتمام بزيادة قوتها العاملة لم تسمح للرجال بالاحجام عن الزواج ولو كانوا من ذوى العاهات ، وحيث ان الفتاة الشابة الصحيحة البدن قد تعرض عن الزواج من عاجز هرم سنت الدولة قانونا يقضى بأن يتزوج الأعرج من عرجاء والأعمى من عمياء والكهل والأرثم المتهته والأصم الأبكم من سيدة تعانى الداء نفسه •

وكانت الدولة تحتكر التجارة ، لكن دافعي الضرائب كانوا يقيمون أسواقا في القرى حيث يتبادلون الفائض من منتجاتهم وما خصصته لهم الحكومة مما تنتجه مصانع الدولة من سلع ، ولم يكن للنقود وجـــود ، ولكن لما كانت الحـــكومة كانت تطلب الضرائب في صـــورة العمـــل اليدوي وجزءا من الانتاج فحسب كان بوسع الأسرة المجدة في العمل أن تكدس كمية لا بأس بها من السلع والمتاع • أما المعادن النفيسة وكل ما له قيمة فنية أو زخرفية فكان ملكا للملك والطبقة الأرستقراطية دون سواهم كما كانت الطرق الرائعة وقفا على مرور الحكام دون الســـماح لدافعي الضرائب باستخدامها منعا لزحام المرور وخوفا من أن تعطـــل الأسفار أعمالهم •

أما تطبيق القانون في امبراطورية الانكا فكان « صارما لكن بعدل » في كل ما يعتبر جريمة ضد الدولة أو الملك ، وكان العقاب يشمل التوبيخ العلني والفصل من العمل والنفي الى مزارع الكاكاو والتعذيب والاعدام • وكان البيوايا (Biwaya) ضربا من التعذيب الالهي وهـو أسلوب من أساليب التعذيب يقضي باســـقاط حجر ثقيل فوق ظهر المذنب ، فيودي بحياته عادة أما عقوبة الاعدام فكانت تأخذ صـــورة التعليق من القدمين أو الرجم بالحجارة أو الطرح من فوق صخرة عاتية أو الضرب فوق الرأس • وان بدت تلك الأساليب عنيفة قاسية الا أنه لا يغيب عن بالنا أن حكم الاعدام لم يكن يصدره غير كبار المسئولين في الحكومة أو الانكا نفسه • ومع ذلك لم يكن الاستئناف مباحا وكان بكوزكو العاصمة ، كهف تحت سطح الأرض به نمرة وأسود ودببة وثعالب وثعابين سامة وعقارب تستخدم في معاقبة من توجه اليهم تهمة الخيانة العظمى • وعلى الرغم مما كان ينطوي عليه البقاء في الكهف من اخطار بينة كان من يقذف بهم الى الكهف يشعرون بأمل واه في النجاة ، فكان اذا تسنى لهم البقاء على قيد الحياة يومين يطلق سراحهم بل ويكرمون على أساس أن الآلهـة هي التي قامت بحمايتهم •

وكان قانون العقوبات لدى الانكا يفرق بين النبلاء وعامة الشعب فقد كان يقضي بالحفاظ على كرامة الارســـتقراطية مهما كان الثمن ، فمثلا قد يكتفي بمعاقبة المذنب من النبلاء باقصائه عن منصبه أما من كان يرتكب الجريمة عينها من عامة الشعب فكان التعذيب عقابا له ، ومع ذلك ففي قضايا الزنا ينقلب الوضع ، فلم يكن الزاني من عامة الشعب يعاقب بغير الجلد ، أما اذا كانت الزوجة الزانية من طبقة النبلاء فكان الاعـدام جزاء الطرفين ، ويبدو أن الجرائم في امبراطورية الانكا كانت محدودة بوجه عام ، وذلك لقسوة العقوبة من جهة ونتيجة لتوفير الدولة للاحتياجات المادية جميعها مما قضى على أسباب جرائم عديدة من جهة أخرى •

ولم يكن جيش الانكا يضم سلاحا من الفرســان أو يملك آلات الحصــار ، بل كان أفراده يرتدون أقمصة ثقيلة من الصــوف ودرعا محشوا بالقطن ، كما كانوا يزودون بالمتاريس والمقاليع لقذف الأحجار والرماح والحراب ، وكانوا يخوضون غمار المعركة وهم يرتدون خوذاتهم ويوجهون السـباب الى أعدائهم ويقرعون الطبول وينفخون في الأبواق الطينية وفي النــاى العظمى ، وكان للملك حرسه الخــاص المعروف « بالآذان الكبيرة » (Big Ears) (لقد أطلق عليهم هذا الاسم بسبب ما يضعونه فى آذانهم من مشاجب كبيرة) الذى كان يجند من بين أفراد الطبقة الأرستقراطية !

وكانوا يجيئون عادة بأسرى الحرب الى كوزكو حيث كان بعضهم يقدم قربانا للآلهة تعبيرا عن الامتنان . كما كان الملك يسير فوق أعناق الأسرى فى معبد الشمس . أما الأعداء الخطرون فكان يقذف بهم الى حفرة الثعابين . ومن كان يبرز فى القتال من بين النبلاء يصبح من حقه حمل مظلة واقية أو الجلوس فوق أحد المقاعد .

وان لاحت أعمال الانكا على جانب كبير من العنف والطابع غير الانسانى فلا يغيب عن بالنا أن السواد الأعظم ممن كانوا يعيشون فى غضون الخمسة الآلاف سنة الخالية كان يتقاسم الخير والشر بالتساوى ، فكانت المتاعب من نصيب الجميع كما أنهم جميعا ناحوا وضحكوا وعشقوا . ويذكر جارسيلاسودى لافيجا (Garcilasode la Viga) قصيدة قصيرة كان قد سمعها من هنود ينحدرون من عصر الإنكا تقول : « هذا هو المكان حيث تضطجع ، وعند منتصف الليل .. سوف آتى اليــك » . كمــا قام سارمينتودى جامبوا بترجمة الأغنية القصيرة الرائعة التالية : « لقد ولدت كالسوسن فى الحديقة . ومثل السوسن ترعرعت ، وازدهرت ولما آن أوانى ذبلت وفنيت » . وتكشف رسالة الحب المقتضبة والتأملات فى زوال الحياة ما أوتيه الانكا من قدرة على التعبير عن المشــاعر العميقة الرقيقة ، وكانوا يؤمنون باله واحد أسمى هو فيراكوشا ، خالق الكائنات السامية جميعا . كان هذا الاله يصور كانسان وكانت تماثيله تعبد فى معابد الإنكا ومن بينها تمثال من الذهب الخالص فى كوزكو . لقــد كان لفيراكوشا السلطان الالهى بلا منازع فيما كان منه الا أن فوض عددا من الكائنات السامية لتدبير شئون الكون الخاضع لسلطانه . وتذكر الروايات أنه عندما رأى ما قد خلق طاف بربوع البــلاد وطفق يعلم الناس أمورا صالحة عديدة كما أنه حقق المعجزات ، وفى نهاية المطاف بلغ مانتا باكوادور حيث عثر على بحر الجليل الخاص به فى محيط الباسفيك فسار فوق أمواجه دون أن يبتل ؟

وكانت الشمس والقمر والرعد والنجوم والأرض والبحر من أهم أعوان الخالق . ولقد عبد الانكا الى جانب ذلك أماكن وأشياء عديدة . فكان الأسبان يعثرون على المعابد والأماكن المقدسة أينما ذهبوا .

ودأبت الدولة على تقديم القرابين الى فيراكوشـا ، الخالق ، وكان الكهنة يقومون بتلك الفريضة المقدسة . وكان من النادر جدا أن تقدم قرابين بشرية ولم يحدث ذلك الا فى الأزمات العصيبة مثل الوباء أو المجاعة أو اصابة ملك الانكا بمرض اذ أن الحيوانات كانت هى الضحايا المعتادة .

وكان الناس بعد المـوت اما أنهم يحيون مع الشمس فى العـالم العلوى ، حيث الطعام والشراب بوفرة ، واما أنهم يمضون كخطاة آثمين الى الجحيم فى قلب الأرض حيث البرد القارس والحجارة خبزا . ولم يكن هذا الخيار قائما بالنسبة للنبلاء اذ كانت السماء تصيبهم ولو كانوا من أحط الأوغاد على وجه الأرض . وكان الموتى يدفنون اما فى مقابر منحوتة فى صخرة طبيعية واما فى مقابر أخرى يقيمها الانسان من الحجر ويسـد مدخلها بصخور ضخمة مستديرة .

وهناك قبع موتى الانكا فى قبورهم على أهبة الاستعداد فى انتظار أن تصعد أرواحهم الى السماء أو أن ينهب غزاة الأسبان قبورهم ولقد حقق النبلاء الهدفين حيث ان أرواحهم قد صعدت الى السماء ، لكن السـماء عينها أرسلت اليهم الأسبان الذين نهبوا قبورهم .

أمريكا الجنوبية

انهيار آتاهوالبا

كانت هذه هي ارادة السماء

(من بيزارو الى الانكا اتاهوالبا عقب المذبحة التي وقعت في كاجامركا في ١٦ من نوفمبر عام ١٥٣٢) .

كانت لحظة خالدة في سنة عظيمة .. السنة التي ولد فيها الامبراطور شارل الخامس .. انها الذروة في تاريخ الحضارة الغربية بعد ميلاد المسيح بألف وخمسمائة عام ، وهي العصر الذهبي للنهضة واحياء التراث الكلاسيكي ، حين شيد مايكل انجلو (Michel angelo) كنيسة القديس بطرس ونحت البرشت دورر (Albrecht Durer) نقشه الذي يمثل البكاء العظيم على المسيح المصلوب وتحقق كوبرنيكوس (Copernicus) من ان الأرض ما هي الا كوكب بين الكواكب الأخرى ، ورسم رافائيل (Raphael) ، وهو جذل ، أروع صورة للعذراء ، وقاد لوثر (Luther) وكالفين (Calvin) وزونجلي (Zwingli) حركة اصلاح الكنيسة ، وغدت عبقرية ليوناردو دافنشي (Leonardo da Vinci) تجمع في عظمتها الفريدة المواهب الفنية والخلاقة في عصر وكان باراسلسوس (Paracelsus) طبيبا لمن وجدوا في تلك الأزمنة وهانز زاكس (Hans Sachis) اسكافيهم وشاعرهم . وقام جاكوب فوجر (Jakob Fugger) بتمويل الانتخابات البابوية والحروب وبناء أكبر اسطول تجاري في عالمه وكان أعظم المستكشفين والفاتحين في ذلك الحين ثلاثة من أبناء أسبانيا وواحدا من جنود ، اذ انهم هم الرجال الذين

أضافوا الى ثروة العالم الغربى قارة جديدة بأكملها وأكبر المحيطات من غير استثناء •

ومن المفيد أن نتخيل ما كان عليه العالم فى نهاية القرن السادس عشر فكولمبوس كان فى الخامسة والأربعين من عمره وصار شعره أبيض كالثلج ولقد كان يعانى من صعاب لا تنتهى اذ ان مكتشف أمريكا حينئذ كان يرقد مكبلا بالأغلال فى قادش يراوده فى أحلامه بين الفينة والفينة صوت رودريجو دى تريانا (Rodrigo de Triana) هاتفا : « أرض ، أرض » كما كان كورتيز (Cortez) الذى قدر له أن يفتح المكسيك ، فى الخامسة عشرة من عمره ، ولم يتعد بالبوا (Bulboa) ، مكتشف المحيط الهادى العشرين ربيعا من عمره ، أما بيزارو (Pizarro) ، الذى دانت له المكسيك ، منجم ذهب العالم ، والذى شهد ملك الانكا الأسطورى وقد أتوا به أمامه مقيدا بالسلاسل ، فكان لم يزل رقيق الحال مغمورا •

لقـد ولد بيزارو فى تروجيللو ، احدى المدن الاســبانية باقليم استريمادورا وكان ابنا غير شرعى ، بلغ الفقر بأمه حدا لم تقو معه عـلى تربيته ، ولما ضاقت الامور فى وجهها ألقت به خارج باب الكنيسة ، بيد ان أحدا لم يحمله الى الداخل الأمر الذى كان من شأنه أن يفضى به الى الموت فى ذلك المكان • لكن فى عصر كثرت فيه المعجزات وكانت صور العذراء تطل على البشرية المعذبة من حين لآخر وتصنع المعجزات عاش الطفل تغذيه الطبيعة على حد قول الأسبان ولم يكلف أحد نفسه مشقة أن يعلمه القراءة والكتابة وكبر ليصبح راعيا للخنازير •

وبلغ بيزارو التاسعة والثلاثين قبل أن تطأ أمريكا فى خدمة فارس مغوار يدعى مورالس (Morales) الذى قام بتأسيس مستعمرة « العالم الجديد » ، ثم تلتقى به وهو الى جوار بالبوا فى داريان جنوب برزخ بنما بعد رحلة شاقة فوق الجبال ورواح بيزارو ــ وهو أحد الأوربيين الأول الذين وقع بصرهم على محيط الباســفيك ــ يجمع الذهب واللؤلؤ بنهم وشره من الجزر البعيدة عن ساحل بنما ، اذ كانت غنيمة ، وغنيمة ومزيد من الغنيمة لكنها لم تكن لشخصه بل لمورالس سيده وحاميه •

وأدرك بيزارو لأول وهلة ان العالم الجديد انما ينطوى على المتاعب والخطر والحرمان ، وانه لن يكتب لمخططاته وأحلامه النجاح الا بالعمل الدائب والبصيرة النافذة ، كانت تتقدم به الأيام وناهز الخمسين من عمره وضاع ما يولى وقت العمل والكفاح • كان يملك مساحة صغيرة من الأرض المجدبة ، لكنه لم يكن يملك ذهبا • وباتت شجاعته تملأ الآفاق ، وان كان ماضيه لا يزال يجلب عليه العــار والمهــانة فقد كان موصوما بطفولته

ولما أستبد به اليأس قدم الى العذراء حذاء صغيرا من الذهب وأجهش بالبكاء .

كان كورتيز قد فرغ لتوه من بسط نفوذه على المكسيك برمتها ، ولكن ، ألم ير بيزارو بعين رأسه كيف خاض بالبوا أمواج الشاطئ وزعم أن المحيط الهادى المترامى قد صار ملكا لملك قشتالة ؟ ولم يطلق ماجلان فى اضرار المحيط اسم «البحر الهادى» ؟ وألم يكن انداجويا (Andagoya) دائب الحديث عن رحلته شطر الجنوب وعن امبراطورية الانكا الأسطورية وما يقبع من ذهب خلف منحدرات كورديلراس (Cordilleras) ؟ كان ذلك كله يحدث وبيزارو جالسا فى حال بؤس فوق برزخ بنما حيث أخذ البعوض يلتهمه وكل ما كان فى حاجة اليه هو المال والسفن وخريطة ملكية وبعض الرجال البواسل اذ مازال فى الامكان وجود فرصة لكى يجعل لنفسه اسما .. اسما يتردد صداه فى شوارع مدينة اشبيلية وتذكره الناس باعجاب ورهبة .

وما لبث أن عثر على من كان يحتاجهم من الرجال . فكان دييجو ديلماجرو لقيطا مثله وانخرط فى سلك الجندية دون أن تسانده أسرة نبيلة وانضم اليهما هرناندو ديلوك ذو الشخصية العجيبة التى كانت تجمع بين مدرس وكاهن ومسئول عن الأموال العامة بمستعمرة داريان الصغيرة بشرقى بنما . واضطلع الرجال الثلاثة بتمويل عملية غزو نيكاراجوا ثم أعادوا استغلال مكاسبهم فى فتح بيرو .

ومن صدف التاريخ ان احدى سفنه كان قد بناها بالبوا الذى كانت المنية قد وافته قبل ذلك بخمس سنوات ، وكانت السفينة الصغيرة لا تزال ترابط فى ميناء بنما . وفى منتصف شهر نوفمبر من عام ١٥٢٤ أبحر بيزارو صوب الجنوب ثم وجه سفينته الصغيرة الى مصب بيرو (Biro) ، وهو النهر الذى منه اشتق الأسبان اسم بيرو كما يذكر زارات (Zarate) فى مؤلفه «فتح بيرو» (Conquista del Peru) واخترق بيزارو ورفيقاه امبراطورية الانكا المجهولة مرارا ، وبينما هم يبحرون على طول السواحل نزلوا بأماكن متعددة وانطلقوا يتوغلون فى أعماق بيرو ولم يكن يحملون غير السيوف حيث ان البنادق لم تكن تعرف بعد رقفلوا راجعين الى بنما ليبحروا شطر الجنوب ثانية وقد وهبوا حياتهم لمهمتهم الجريئة وأقسموا على أن يقتل كل منهم الآخر لو خانوا العهد وقبل رحيلهم أقام الأب لوك فريضة العشاء الربانى فرفعه وقسم الخبز المقدس الى ثلاث قطع ليكون نصيب كل منهم ثلثه . ولما أن وقفوا أمام مذبح الصلاة فى بنما حتى شرعوا يقتسمون فيما بينهم امبراطورية فى علم الغيب .. امبراطورية لا يدرون من أمرها فى الواقع شيئا قط .

وكان كلما حل الفاتحون باحدى قرى بيرو لاذ الهنود بالفرار تاركين ما يملكون من ذهب في ديارهم من خلفهم ، وأخذت رغبة الأسبان في الحصول على الذهب تقوى شيئا فشيئا على حين أن أهل بيرو راحوا يستقبلون — كما لو كانوا مدفوعين بغريزة تحطيم النفس — أولئك الزائرين الخطرين من البيض المرة تلو الأخرى باستسلام وبروح المودة ، مظهرين حفاوة وكرما بالغين . وفي أحد الأماكن الذي أطلقوا عليه اسم « سانتاكروز » قابل الاسبانيون أميرة هندية صحبتهم على ظهر السفينة بمحض اختيارها فما كان من بيزارو الا انه زودها ببعض الهدايا عديمة القيمه ، وتوسلت اليه مع رفيقيه رد الزيارة فقبلوا ، وما أن بلغوا الشاطىء حتى رأوا الأميرة وقد أقامت أقواس النصر من أغصان الشجر وزينتها بالزهور والنباتات ذات الرائحة الزكية . ولأول مرة يستمتع بيزارو بالأطعمة التي أعدت بالطريقة البيروية ، ويذوق طعم الفواكه العجيبة ذات الألوان الغريبة الخلابة ، ويسمع موسيقا ساحرة ، ويبصر فتيات حسناوات يؤدين رقصات لم يرها أوربي من قبل ، فأعرب عن امتنانه بتقديم علم قشتالة الى الأميرة طالبا منها أن ترفعه علامة الاستسلام لحاكم بلاده فاطاعته .

وفي صيف عام ١٥٢٨ عاد بيزوارو الى مدينة شبيلية ، وقد بلغ ثمانية وخمسين عاما ليلقى به في غياهب السجن بتهمة عدم الوفاء بدين لعالم يدعى الشيسو وكان بيزارو قد غاب عن أرض الوطن عشرين عاما حين رحل عنه كقاصر فقير لا يعرف الناس من أمره شيئا ، فما لبث أن عاد ظافرا منتصرا ليزج به في أعماق السجن .

وعلى الرغم من ذلك سرعان ما تناهى اسم بيزارو الى أذني الامبراطور فاستدعاه الى قصره وتفقد ما كان بيزارو قد حمله معه من أشياء تثير الدهشة ، فأبصر حيوان اللاما الذي شهدته أوربا لأول مرة وراح يتأمل في أدوات عديدة من الذهب والفضة ، وأمام بريق المعادن تضاعف اهتمام الملك بشدة .

ولسوء طالع بيزارو أن شهد القصر زيارة أخرى في الوقت نفسه لرجل كان قد عاد من العالم الجديد بدوره وهو هرناندو كورتيز ، قاهر المكسيك ، الذي حين التقى بامبراطورية جديدة كاملة أسفل قدمي صاحب الجلالة الامبراطور أضعف من شأن من حققه بيزارو من انتصارات . وكان كورتيز قد بلغ نهاية المطاف على حين أن بيزارو لم يكن الا في بداية اكتشافاته ومع ذلك حالفه التوفيق الى حد ما اذ خلع عليه لقب حاكم الدولة الجديدة وقائدها الأعلى مع منحه راتبا مدى الحياة وقدره ٧٢٥ ألف مارافيدي (عملة أسبانية قيمتها حوالي ثلث السنت) وبحكم منصبه كنائب للملك

تعين عليه أن يحتفظ بجهاز مدني وبجيش كما خولت له سلطة إقامة الحصون ، وفي هذه الأثناء تم تعيين الماجرو ، رفيق بيزارو قائدا لأحد الحصون برتبة هيدالجو (احدى الرتب العسكرية الاسبانية) براتب قدره ٣٠٠ الف مارافيدي ، أما الأب الورع لوك فقد نصب أسقفا على تمبيزا (Tumbez) وحصل على لقب (حامي هنوذ بيرو) كما أن أحد بحارة بيزارو تولى منصب القائد الأكبر لبحر الجنوب وأصبح واحد من جنوده قائدا عاما للمدفعية • اما بقية أعوانه فقد صاروا أشرافا وفرسانا ولم يكن الامبراطور شارل يبخل بخلع الألقاب وتوفير المناصب لمن فتحوا بلادا لم تكن تدين لسلطانه من الأسبان ، لكن المال كان مسألة مغايرة ويقال ان بيزارو واجه مشقة بالغة في جمع قدر كاف من المال يمكنه من معاودة الابحار ، ولم ينقذه من ورطته غير كورتيز الفاحش الثراء •

هكذا عاد بيزارو الى بلاد الانكا ثانية سنة ١٥٣٢ وقد تسلح في هذه المرة بالبنادق ، تلك الأسلحة الجديدة العجيبة التي وقفت قارة أمريكا الجنوبية حيالها عاجزة لا حول لها ولا قوة •

وراح بيزارو على رأس جماعة صغيرة من المغامرين يتوغل في أعماق البلاد ميمما وجهه صوب المعسكر الرئيسي للانكا • وبعد أن أمر رجاله بمعاملة الوطنيين بالحسنى اقتادهم في زحف جريء موفق الى قلب البلاد فما كان من الانكا اتاهوالبا الا أن بعث اليهم برسول رحب بهم باسم سيده ودعاهم لزيارة الملك في معسكره الجبلي ، وطلب بيزارو الى الرسول أن يبلغ سيده انه ، أي بيزارو ، مبعوث أمير قوي موهوب الجانب يعيش عبر البحر ، هذا فضلا عن انه طلب منه أن ينقل تقديره للانكا وانه سوف يلتقي به شخصيا قريبا • ولم يبد سكان البلاد أية مقاومة ، بل سرعان ما كانوا يولون الادبار كلما ظهر بيزارو • وأمسك هرناندو ، رفيق بيزارو برجل من بيرو ومده على لوح وانتزع من أسيره الاعتراف بأن دعوة الانكا ليست سوى خدعة هدفها ايقاع الأجانب في الشرك •

وانطلقت جماعة بيزارو تشق طريقها فوق طرق منحدرة على طول قمة جبال الأنديز حيث التقى بالعديد من رسل الانكا أتاهواليا الذين أقبلوا يحملون تحيات سيدهم ويحيطونه بنبأ اقترابه من مدينة كاجامازكا الشهيرة بينابيعها الحارة • ومضى الأسبان في زحفهم يحملقون في دهشة ، في حقول تحظى بعناية بالغة في بلاد يقطنها شعب متحضر يرتدي الثياب النظيفة ويضم عددا لا بأس به من النساء الحسناوات • وفي النهاية اكتشف الفاتحون عددا كبيرا من الخيام البيضاء التي لم يروا مثلها من قبل في أي بلد هندي •

وفي الخامس عشر من نوفمبر عام ١٥٣٢ زحف بيزارو إلى كاجامارکا

ولم يكن بين المدينة والمعسكر الملكى غير روضة تفصل بيزارو عن الانكا الأسطورى .

وبعد فترة من الانتظار المشوب بالقلق أبلغ أتاهوالبا القائد الأسبانى انه سوف يزوره بصحبة جنوده المسلحين . لكنه على مبعدة نصف ميل من المدينة ألقى عصا الترحال ثم أقام معسكرا وهو متردد . فهل يمكنه الثقة فى بيزارو ؟

وقبيل غروب الشمس دخل المدينة أتاهواليا محمولا فى محفة على أكتاف أتباعه حيث كان يتربع فوق عرش من الذهب الخالص وتزين عنقه قلادة من زمرد كبير الحجم . ولما دلف الملك الى الميدان الرئيسى لم يكن ثمة أسبانى على مرأى من البصر . وسرعان ما ظهر الأب فيسنت دى فالفيرد وهو راهب من الدومنيكان ، واقترب من الانكا وهو يحمل الكتاب المقدس فى يد وصليب المسيح فى اليد الأخرى ، وأعلن انه جاء بأمر من قائده لهداية الانكا الى الايمان الحقيقى ، وراح الراهب يروى باسهاب قصة الخليقة والسقوط والفداء بيسوع المسيح والصلب والصعود والثالوث المقدس . وزيادة على ذلك انه طالب أتاهوالبا بدفع الجزية الى الامبراطور شارل الخامس .

وجاء رد الانكا ، كما ترجمه فيليبلو المترجم ، موجزا وقاطعا حين قال : « ان المسيحيين يؤمنون بثلاثة آلهة وباله واحد . وبذلك يصبح لهم أربعة آلهة ، كما أنى لا أدفع الجزية لانسان فأنا أعظم من أى أمير على وجه الأرض ، واذا كان البابا يقسم بلادا لا يملكها لاعتبر رجلا معتوها ولا ريب . اننى لن أغير عقيدتى . انكم تقولون بأن الهكم قد قتله البشر نفسهم الذين خلقهم أما إلهى فحى يعيش فى السماء وينظر من الأعالى الى بنيه فى الأرض . فما الذى يخول لكم الحق فى أن تتقدموا بكل هذه المطالب ؟ » .

وفى صمت أشار الراهب الى الكتاب المقدس فى يده ، فما كان من أتاهوالبا الا أن خطفه وراح يقلب صفحاته برهة . وما لبث بعدها أن ألقى به فى التراب وهو يقول : « قل لرفقائك اننى لدعوهم الى تجديد موقفهم وأطماعهم بتبرير مقنع لكل ما اقترفوه من مظالم فى بلادى » والتقط الراهب الكتاب المقدس وانطلق يخبر بيزارو بما جرى وهتف فى الأسبانيين المتشددين قائلا : « الى أيها المسيحيون ! فاضربوا الآن » وبايعاء من بيزارو اندفع الأسبان من مخابئهم الى الميدان وانقضوا بين صفوف الهنود وراحوا يطلقون نيران بنادقهم مما أسفر عن مذبحة رهيبة .

وخلق أتاهوالبا فى رعب حينما قضى على معظم الهنود وسالت

دماؤهم كالماء وأخذ بريق الأسلحة الغربية يلمع أمـــام عينيه كالبرق وحاصره دويها ، واهتزت محفته فوق أكتاف رجاله المخلصين وبات أشبه ما يكون بسفينة موشكة على الغرق ، ولما سقط بعض النبلاء ممن كانوا يشتركون فى حمله هوى آتاهوالبا الى الأرض وراح يتمرغ فى الرغام ، وسرعان ما انتزع شعار الملك من فوق جبينه .

ووقع أعظم حاكم فى أمريكا الجنوبية وأقوى ملوكها أســيرا فى قبضة بيزارو دون أن يلقى أسبانى واحد مصرعه .

قال الانكا « تلك هى حظوظ الحرب » فأخبر بيزارو الملك بأن يطيب نفسا وأسكنه فى مبنى فسيح حيث شددت عليه الحراســة ، ومع ذلك سمح له بأن يحتفظ ببعض خدمه من الهنود .

وقال بيزارو لاتاهوالبا : « هذا ما سمحت به السماء لأنك أهنت الكتاب المقدس فليتشجع قلبك وثق بى فنحن الأسبانيين شعب كريم النفس ، لقد أتينا الى هذه البلاد لننشر ديانة يسوع المسيح فلا غرابة اننا انتصرنا .

وما أن وقع الملك أسيرا حتى فارقت الشجاعة أهل بيرو وتجمع الرجال والنساء وعدد كبير من الخدم وزوجات الانكا وأحاطوا بالسجن الذى كان يأوى مايكهم ، وارتسمت امارات الدهشة على وجوههم وراحوا يحملقون فى ذهول فى الآلهة البيضاء ، لقد انهارت قوة الانكا وانهـــار معها ايمان الشعب بالمعجزات ، ومع أن بيزارو سوف يقتل الا أن النصر قد ألقى حينئذ فى حجر الأسبان كما تسقط فاكهة ناضـــجو . ويلوح كما لو ان قوة خفية قد قيدت الانكا وشعبه ودفعت بهم دون رحمة الى الدمـــار .

أمريكا الوسطى

كانت آلهتهم جوعى دائما

المايـــــا

المايا هم « يونان » امريكا الوسطى ، كما يقارن الآزتيك بالرومان • ويوم ان قهر كورتيز المكسيك كان هنالك علماء بوسعهم قراءة كتابة المايا ، اما اليوم فليس ثمة من يستطيع حل رموزها •

تشكل المكسيك الشطر الشمالى لأهم جسر برى فى العالم ، وهو الجسر الذى يربط الأمريكتين معا • وتغطى الصحارى والجبـــال ثلثى مساحة المكسيك كما ان السحب القليلة التى تخيم فى سمائها الزرقاء لا تجلب من حين لآخر سوى النزر اليسير من المطر الذى لا يكاد يكفى لرى عشر الأراضى الظمأى •

ولما مثل كورتيز ، قاهر المكسيك ، أمام شـــارل الخامس ســـأله الملك الأسبانى : « ماذا تشبه تلك المكسيك التى فتحتها ؟ » ودون أن ينبس ببنت شفه قدم كورتيز لمليكه أروع وصف وأبدعه حين ثنى قطعة من الورق وألقى بها فى قمطر الملك •

واليوم تجمع المكسيك بين الفقر والثراء والسعادة والشقاء ، فهى أعظم دولة تنتج الفضة فى العالم ، ومع ذلك فان شعب المكسيك على بينة من ان ما يمنحه لهم القدر باليمين ينتزعه بالشمال • تلك هى حقيقة الأمور السائدة فى تلك البلاد دواما ، فأهل المكسيك شعب تدرب على فن الصبر آلافا عديدة من السنين •

وظلت المكسيك ترزح تحت نير الجهل والخرافات والعنف آلاف

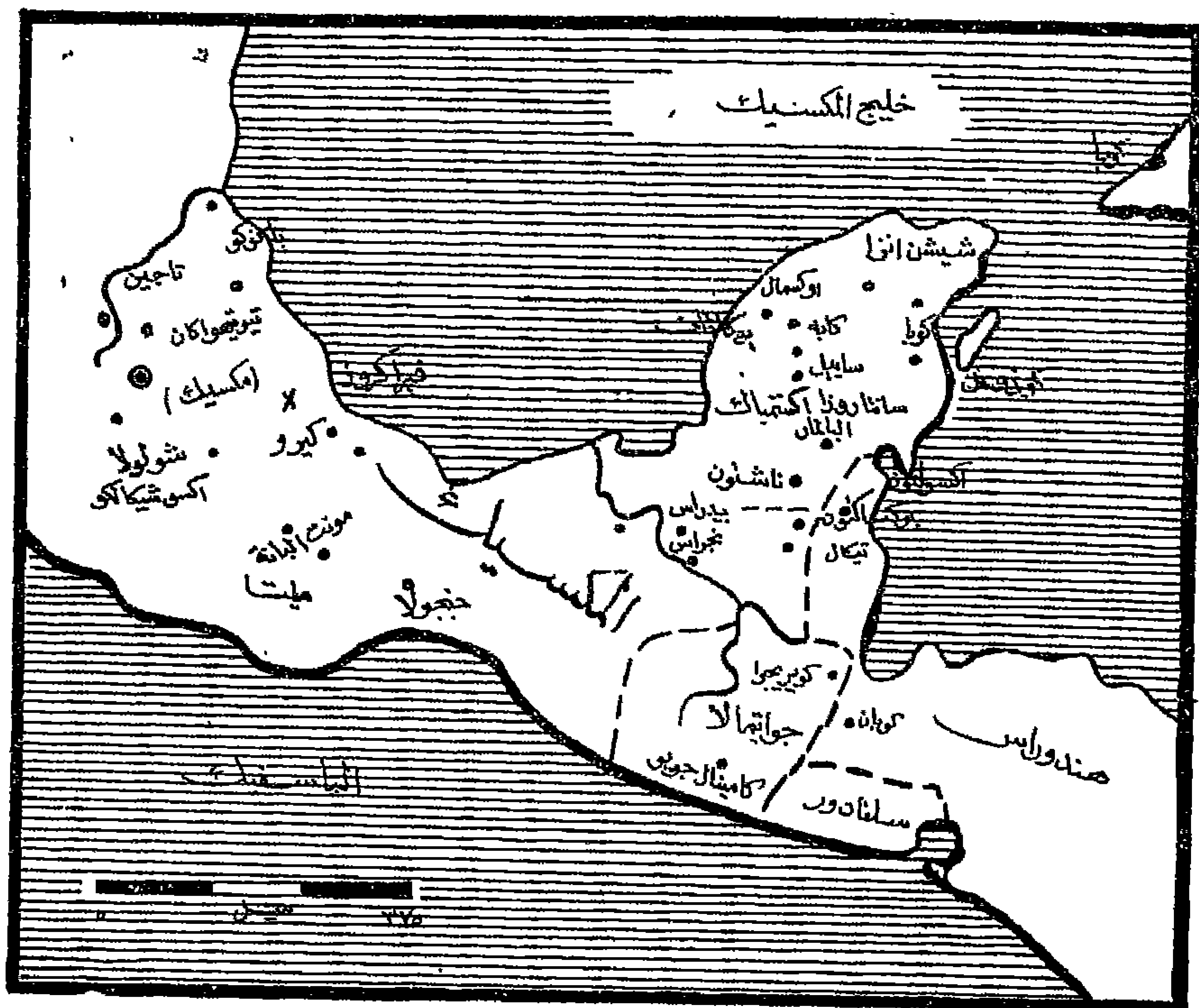
السنين ، كما تخضع نجادها دائما لرحمة الصدفة التى لم تشعرهم يوما بأمان حقيقى • فليس ما هو مؤكد فى المكسيك • ويردد أهالى المكسيك عبارة « من يدرى ؟ » وكل من يحاول الغور فى أعماق ثقافة هذه البلاد وحضارتها وروحها فانه يلقى نفسه فى ظلام يزداد كثافة كلما غاص فى أغوارها ، فالمؤرخ الأمريكى برسكوت (Prescott) الذى درس تاريخ المكسيك القديمة بعين الدقة التى أولاها لتاريخ الانكا فى بيرو ، ألفى نفسه مضطرا الى التسليم بأنه كان من العسير بمكان أن يتناول بالدراسة والتحقيق تاريخ دولة امتزج فيها الخيال بالحقيقة امتزاجا يتعذر معه فصلهما • فمن يحاول اثبات حقائق ثقافية أو تاريخية عن المكسيك فسوف تواجهه فى كل جولة هالة من الخرافة والأسطورة والشعر تنبثق من كل ما حوت من أنقاض وكتابة مصورة ومواقع أثرية • والحقيقة ان المكسيك لا تقدم لنا دليلا مؤكدا يهدينا السبيل الى تاريخها أو ثقافتها او أصل شعوبها ولا مرجعا أكيدا يدلنا على ماضيها •

ولقد عثر ، ولاشك ، على وثائق فى المكسيك لكن لم يعد فى وسعنا فك رموزها ، وعندما وطئت أقدام كورتيز شواطئها كانت شعوبها قد طورت بالفعل حضارة متقدمة وخلفت وراءها ثقافة وتاريخا يمتد آلاف السنين •

ثقافة وتاريخ يمتد آلاف السنين • ما معنى ذلك ؟ نحن نتبين أول خطوط واضحة لحضارة بلغت ذروة التطور نحو سنة ٣٠٠ م فى جنوب المكسيك وشرقها ألا وهى حضارة المايا ، وليس خافيا علينا أن جل ثقافتهم قد تطور خارج حدود المكسيك بيد اننا لا نعلم عن حقبة التطور هذه ، غير انها ظلت دون شك قائمة مئات السنين ان لم يكن آلافها •

وبلغت حضارة المايا قمة مجدها فى ٦٠٠ م على وجه التقريب ، ثم حدث أمر خارق اذ ان هذه الحضارة المذهلة انهارت ببساطة بعد عام ٨٠٠ م فتوقف البناءون المهرة عن البناء ، وكف المثالون عن صناعة التماثيل ، وألقى الرسامون بفرشهم جانبا وهجر الناس مراكز الاحتفالات الكبرى جميعا الواحد تلو الآخر • ومازال السبب سرا غامضا الى هذا اليوم ، فربما كان انهيار المايا نتيجة لضغط البرابرة أمثال قبائل أزتيك ولعل الطبقة العاملة ثارت ضد الكهنة والحكام ، ومن الجائز ان السواد الأعظم من الشعب لقى حتفه بسبب الأوبئة ، أو انهم تعرضوا لمجاعة ، وربما وربما ••

وعلى أى حال تدهورت حضارة المايا خلال قرن من الزمان الى المستوى الذى كانت عليه فى فترة التكوين وهجرت المدن الكبرى اذ غادرها سكانها •



خليج المكسيك
تاجين
تيوتيهواكان
(مكسيك)
كيرو
شولولا
اكسوشيكالكو
مونت البانة
ميلتا
جنجولا
المكسيك
شيشن انزا
اوكسمال
كابه
سايل
كوبا
سانتا روزا اكستمباك
الباكان
ناشتون
بيدراس
نجراس
تيكال
كوبيرجرا
جواتيمالا
كوبان
كامينال جويو
سلفادور
هندوراس
المحيط الباسفيك
٢٧٥

وماذا عن سكانها ؟ ان الاجابة القاطعة على هـــذا السؤال أيضا متعذرة وكل ما نعرفه هو ان الطبقة الحاكمة قد اختفت دون رجعة بعد أن خلفت وراءها هياكلها وقصورها الضخمة الى جانب كل ما تحملوا من مشقة حلقه وانشائه عبر القرون ، ومع ذلك هناك دائما من يظل باقيا ولعل الذين بقوا هذه المرة بالذات هم الفلاحون أو العبيد ، ومن الجائز ان السكان الباقين كانوا يعيشون على الزراعة والصـــيد فى الغابات المحلية ، بيد ان أعمال التخطيط والبناء قد توقفت جميعها ٠

وكانت هضاب جواتيمالا هى المقر الأول لشعب المايا ، ومن هنـاك انتشروا ليؤسسوا مدنا عظيمة مثل يواكزكتون (جواتيمالا) وبالنكبة (شياباس) وكوبان (هندوراس) ٠ بيد ان هذه المدن هجرها سكانها وانطلق جزء منهم يجول حتى عاد الى هضاب جواتيمالا حيث أقام ولايات صغيرة متعددة أعقبها امبراطورية كويش (Quiche) بينما زحف غيرهم الى الجزء الشمالى من شبه جزيرة يوكاتان (Yucatan) حيث أسس امبراطورية أخرى للمايا ٠ ولم يكن هذا ، على أية حال ، سوى انعكاس خافت لأمجاد الماضى القديمة ، لكنه لم يبلغ قط روعة الثقافة السالفة ٠

فما السر فى اننا لا نعلم شيئا على الاطلاق عن تاريخ المايا ؟

هناك قبل كل شيء المخطوطات والنصوص المايوية التى كتبها الكهنة قبل غزو المكسيك من طويل ، ومن سوء الحظ اعتبرها الأسبان رجسا من عمل الشيطان فاشعل الأسقف الأســـبانى « لاندا » حريقا كبيرا للكتب فى ميدان « مربدا » فلم تبق غير مخطوطات ثلاثة ، أحدهما يوجد أو كان موجودا ، فى درسدن ، وهو أهم المخطوطات الثلاثة اذ يرجـــع تاريخه الى أفضل حقبة فى تاريخ مدن المايا الجديدة ٠ والثانى فى باريس وهو يرجع الى مرحلة لاحقة ، أما الثالث ففى مدريد ٠ غير ان تلك النصوص الثلاثة لا تتضمن أكثر من طقوس وسجلات تاريخية أما المؤلفات الدينية والطبية والرياضية فقد تصاعد دخانها حين قرر الأسبان طرد الأرواح الشريرة ٠ وتثير الكتابة الهيروغليفية فى النصوص الثلاثة الباقية بحالتها الراهنة من المشكلات أكثر مما تقدم من معلومات ٠

كما ان هناك بعض المذكرات التى سطرت عقب الغزو الأســـبانى بفترة وجيزة ، ولكن هذه المذكرات عديمة الجدوى اذ ان حضـــارة المايا كانت قد أخذت فى الانهيار عند جمعها ٠ هذا وتوجد تواريخ هـــامة سجلها المايا باللغة الهيروغليفية قبل الغزو ثم ترجمت الى اللغة الأسبانية فى فترة لاحقة ٠

وما زالت لدينا الأعمدة الحجرية ، أى النصب التى أقامها المايا فى

مدنهم كل خمس وعشر وعشرين سنة ليسجلوا عليها أهم الأحداث ، غير ان نظام المايا فى تسجيل أحداثهم يختلف عما نتبعه نحن ، ومن ثم ليس من اليسير أن نربط الأحداث الفردية بنظامنا فى تسلسل الوقائع ٠

وكان بين رجال الدين الأسبان الأوائل فى يوكاتان عالم أو اثنان تعلما قراءة الكتابة المايوية بل كان بوسع بعضهم كتابتها ٠ وبالرغم من ذلك لقد اندثر هذا الفن بمرور الزمن ، واليوم يتخبط فى دياجير الظلام أعظم الخبراء فى شئون أمريكا القديمة – ولكن ، من ناحية أخرى ، أمكن فك رموز النظام العددى للمايا – وهو نظام يقوم على التنقيط ٠ لقد كان نظاما عشرينيا (أى يعد بالعشرين) كما كانت الأعداد ترتب رأسيا لا أفقيا ، واستخدمت النقط للدلالة على الأعداد من واحـــد الى أربعة ، والشرطة للعدد خمسة ، كما كان الرقم تسعة عبارة عن شرطة وخمسة نقط ٠ وكان هنالك رمزان آخران للدلالة على الرقمين عشرين وصفر ، وكان الرمز التكميلى فى العادة يمثل محارة ، وبمهارة فائقة استخدم المايا تلك الوسائل البسيطة للتعبير عن أرقام تصل الى عدة ملايين ٠ وكان ينظر الى الرقم السفلى على أساس قيمته الظاهرية بينما كانت الأرقام الثانى والرابع وما يليهما من صفوف تمثل عشرين مرة قيمة الصف الذى يليها مباشرة ، ولكن الصف الثالث لم تكن قيمته سوى ١٨ مرة من قيمة الصف الثانى ، بهذا النظام العددى تفوق المايا على ما عداهم من أجناس فى أمريكا بل على اليونان والرومان أنفسهم ٠

وكان المايا ولا ريب ، أكثر تقدما فى فن الكتابة كما تدل على ذلك الحروف الدقيقة التى استخدمت فى كتابة مخطوطاتهم ، وان تعذر علينا فك رموزها لكنها تحدثنا بالطبع عما تنطوى عليه الحضـــارة المايوية من تماثيل ومبان وأدوات ٠ ذلك ان المايا لم يزخـــرفوا مبانيهم وتماثيلهم بالنقوش فحسب بل آنيتهم الفخارية على حد سواء ٠

وكان للمايا جماجم صغيرة وجبهات غائرة ، وهى سمة بدنية كانت موضع اعجابهم وفخارهم الى الحد الذى حاولوا معه احداثها صـــناعيا اذا لم تتوفر طبيعيا ٠ وكانت بشرتهم شاحبة كلون القرفة ، كما كانوا قصار القامة وان كانوا أقوياء البنية ٠ أما الحول فكان من سمات الجمال الفائق الوصف ، وكانت الفتيات والنساء على حد سواء يزين وجوههن بطلاء أحمر وابيض واسود ٠

وكان الفرد من المايا تحكمه منذ مهده الى لحده عقائد دينية ونظام كهنوتى واسع النطاق قوى ٠ فكان يتعبد لكل ما تراءى له فى الطبيعة قويا يكتنفه الغموض ، وفى قلب كل مدينة حلقت الأهـــرامات المدرجة الشاهقة وفوق قممها الشاهقة وفوق قممها المسطحة شيدت الهياكل ٠

ولو طلب الى المرء ترتيب آلهة الأجناس الوثنية جميعها على أساس ما يمارسونه من نشاط لاحتل آلهة المايا مركزا قريبا من المؤخرة ولا يعقبهم غير آلهة الازتيك • فكان آلهة المايا على الدوام جوعى ، ولم يقوموا بعمل يذكر من شأنه أن يحقق لهم البقاء حتى ان الحزن أخذ يستبد فى النهاية بأتباعهم من جراء ما كان يتمخض عن تلك الظاهرة من ضحايا بشرية • لقد ظل الباحثون ردحا من الزمن يحسبون ان القرابين البشرية لم يكن لها وجود فى امبراطورية المايا القديمة • بيد ان الحضارة التى قطعت شوطا كبيرا فى التطور تحتاج الى طعام وشراب وبالأخص الشراب • ولما كان المايا يعتقدون ان بوسعهم ارضاء آلهة الشمس والأرض والمطر التى يتعبدون لها بتقديم الدم لهم لجأوا الى القرابين البشرية وكانت الضحايا تمد فوق كتلة خشبية خاصة بالقرابين فوق مذبح الهر ثم تنتزع قلوبها ، ثم تطرح الجثث من فوق حافة الهرم فتهوى فوق درجاته الى الأرض حيث تقطعها الجماهير المنتظرة اربا اربا ، ويحمل كل منهم قطعة الى داره حيث يقوم بطهيها والتهامها •

وفى مكان معين من بيدراس نجراس (Piedras Negras) نقشت هذه العملية على الحجر • وكانت الضحايا تضم محاربين وأطفالا وشابات فكلما كانت بوادر المحصول تبدو سيئة أو يتعرض البلاط لقحط يطول مداه هرع بتقديم بعض العذارى التى كانت تستخدم أيضا فى ارضاء الآبار والينابيع ، وكان المايا يقذفون بهن دون احتفال وبلا اعتبار يذكر لما يتمخض عن ذلك من عواقب صحية ، ولا يفوتنا أن نذكر انه لم يكن لتلك الأجناس سوى معلومات جد بدائية عن الطب والوسائل الصحية وان كانوا قد عرفوا كيف يستخلصون دواء الحمى من لحاء الشجر ويستخدمون بعض الأعشاب الطبية ، وكان يمكن لشوكة فى القدم أن تفضى الى تسمم قاتل فى الدم كما لم تكن ثمة وسيلة لمقاومة الأوبئة ، وكان أطفال المايا يطعمون بأطعمة الكبار بعد فترة وجيزة من فطامهم ولذا فان بقاء تلك الأجناس قرونا عديدة واستمرار سلالاتهم على قيد الحياة الى اليوم يبدو كظاهرة خارقة •

ولم يكن المايا يعرفون شيئا عن صناعة الألبان أو حيوانات الجر ولعلهم كانوا يجهلون العجلة وان وجد من الأدلة ما يثبت عكس ذلك • فكان لابد من أن تحمل الأثقال جميعها على ظهور الرجال • وفى الوقت نفسه برع المايا فى الحساب وكان لديهم تقويم دقيق مذهل يضم ٤٠٥ دورات قمرية فى ١١٩٦٠ يوما • أما التقديرات الفلكية الحديثة فتقدرها بـ ١١٩٥٩٫٨٨٨ أى أقل من التقدير المايوى بـ ٠٫١١٢ من اليوم فحسب • كما وضع علماء الفلك المايويون تقويم فينوس الذى يقوم على معرفة دقيقة

رائعة لحركة الكوكب فينوس ، وليست هناك سوى اختلافات طفيفة بين أرقامهم وأرقامنا ، ومما يزيد اعجابنا بعلماء المايا انهم كانوا يلاحظــون حركة فينوس بالعين المجردة ٠

واننا على بينه من الرموز الهيروغليفية المايوية الدالة عـلى الأرض والشمس والقمر وفينوس ومارس وجوبيتر ، كمـا نعرف رموز العشرين يوما في شهرهم والثمانية عشر شهرا فى عامهم ، واننا على الما أيضا برموز بعض الآلهة والاحتفالات والجهات الأربع الأصلية للبوصلة ٠ وجدير بالملاحظة ان علم الفلك الحديث قد أعاننا على فك بعض الرموز التى تتفق التقديرات المايوية مع العلم الحديث فى هذا الميدان على وجه الخصوص ٠

وكان المايا صناعا مهرة ، وكانوا يرتدون الملابس والنعال ويصنعون المنسوجات القطنية والمخمل كما كانوا فنانين موهوبين ، وما حققوه فى ميدان فن العمارة من انجازات كالهياكل وتخطيط المدن ، يعد رائعا حقا ٠ ومن بين الأنقاض التى لا تزال قائمة الى اليوم يمكن المرء أن يتحقق من الهياكل والمنازل والميادين العامة وصالات الرقص وشبكات الشـوارع والقصور التى تضم غرفا عديدة والطرقات والساحات المكشوفة ٠

ومن الألغاز التى لم تحل بعد ما يطلق عليه اسم نصب « ب » فى مدينة كزبان ٠ ففوق رأس الاله المنقوش فوق هذا النصب صور واضحة لرءوس فيلة بخراطيمها ، وهى فيلة هندية يمتطى الفيالة أعناقها ، ويمعن الخبراء فى شئون أمريكا القديمة التفكير لمعرفة كيف استطاع المايا الحصول على تلك الفيلة حيث انها كانت قد انقرضت من أمريكا قبل حضارة المايا بآلاف السنين ٠

فما مصدر هذا كله ٠٠ مصدر الدافع الذى حمل المايا على رسم الأشياء على نحو ما فعلوا ، ومنبع الالهام الذى ابتدع أساليب الزينـة والتصوير التى هى شبيهة بما كان سائدا فى مصر والهند من فنون ، بل ومن فن البوذى ؟ أهى بعض التيارات الثقافية التى حملها التيـار آلاف الاميال عبر المحيطين الهندى والهادى ؟

لسنا ندرى ٠٠ ولن يتسنى لنا معرفة ذلك اطلاقا ٠

أمريكا الوسطى

انهم أيضا أقاموا أهرامات التيوتهواكان والتولتك

هل انت متعب ؟ لسنا مخولين ان نغامر فى الدنيا الا
فترة وجيزة تكفى بالكاد لتدفئة انفسنا ..

ترجمها ساهاجون من اللغة الازتيكية

كان الأب بيرنهاردينو دى ساهاجون (Bernhardino de Sahagun) راهبا تقيا أشبه ما يكون بارستقراطى أسبانى له من القدرة ما يمكنه من اجتياز ما يعترض سبيله من عقبات . وكان قد وفد الى المكسيك كمبشر سنة ١٥٢٩ ولم تمض ثمانى سنوات على قهر مدينة المكسيك . جاء فى وقت لم يزل فيه تاريخ الآزتيك حيا فى الأذهان شأنهم فى ذلك شأن التولتك وان كانت حكومة التولتك قد انهارت قبل الغزو بثلاثمائة وخمسين عاما .

وكانت أية محاولة لحمل سكان البلاد المقهورة حديثا على اعتناق الدين المسيحى تقتضى الالمام بجوهر طبيعتهم وأفكارهم وأساطيرهم وعقيدتهم وآلهتهم وادراكا منه لهذه الحقيقة قضى الأب ساهاجون سنوات يصغى خلالها الى كل ما استطاع حكماء الآزتيك أن يفضوا به اليه ، ولو أراد تدوين كل ما سمع لاقتضى الأمر منه مائة عام ، ومن ثم أوصى تلاميذه الشبان بأن يسجلوا روايات الآزتيك بلغتهم الوطنية الاهواتل (Ilahuatl) وأحيانا بالحروف اللاتينية كما كانت تنطق ، وراح هؤلاء التلاميذ يعملون ليل نهار ، وكانت المخطوطات ، التى سطروها على نوع رقيق من الجلد

أساس المؤلف التاريخي الشهير الذي نقله الى الأسبانية الأب ساهاجون نفسه ٠

ومن يقلب صفحات هذا المؤلف الذى يسمى بالمصدر الأصلى فانه يحس بأنه يدنو رويدا رويدا من امبراطوريتى الآزتيك والتوليتك اللتين قد اختفتا من الوجـود ويجد أوصافا لآلهتهم وملابسهم وخصـائصهم ، كما يعثر على توائم بأعيادهم السنوية ويلتقى بكوتيزالكوتل الملك الاله والأمير الذى يحوطه الغموض ونبى التولتك ٠ كما انه يقرأ عن مقر الموتى وتعليم الأولاد ، وعن السحرة والمشعوذين والمنجمين ثم عن قهـر الأسبان لمدينة المكسيك فى النهاية ٠

لقد شهدت المكسيك أربع حضارات متطورة هى : التيوتهواكانية والمايوية والتولتكية والازتيكية ٠

أما بناة الحضارة التيوتهواكانية فشعب لا نعرفه بل ولسنا على بينة من الاسم الأصلى لتلك العاصمة التى كانت ذات يوم مركزا لحضارة عظيمة ، ولعل تيوتهواكان هى الترجمة الأزتيكية الحديثة لاسـم المدينة السابق مع اننا نجهل تماما اللغة التى نقلت عنها حيث ان لغة سكانها ذاتها لا تزال كتابا مغلقا ٠

وتكاد بداية الحضارة التيوتهواكانية تتفق مع مولد المسيح كما تجىء نهايتها مع نهاية عمر الحضارة المايوية القديمة حوالى سـنة ٩٠٠ م ، ومازالت أنقاض مدينتهم التى تتسم بروعة التصميم والتخطيط قائمة الى يومنا هذا على مبعدة اثنين وعشرين ميلا شمال شرقى مدينة المكسيك ٠

وكانت ديوتهوا كان قد أقيمت على جانبى طـريق فسـيح مستقيم كانت له دلالة دينية يطلق عليه اليـوم « طريق الموتى » ، وفى الطرف الشمالى للطريق هرم القمر ، وفى الشرق هرم الشمس الذى يفوقه حجما وفى الجنوب الشرقى أقيم معبد الاله كوتيزالكوتل الذى يسمى كويداديلا (Cuidadela) أو الحصن ، ولعل كويداديلا اسما مستعارا فمن المحتمل أنه لم يكن هناك حصون فى ذلك الوقت ٠

وهذه المجموعة الضخمة الرباعية الشكل هى فى الواقع مدينة الهرم التى تتألف من البقايا السفلى لمعبدى هرم كبيرين وخمسـة عشر معبدا أصغر من السابقين حجما ، وكان هذا المكان المقدس بأسره قد أقيم تكريما لاله الريح الذى يسيطر على السحب المحملة بالأمطار والذى بيده الخصب كما عثر هنا على تماثيل من الحجر رائعة من بينها رءوس حيات وغيرها من الصور الغريبة التى يفترض انها تمثل اله المطر تلالوك (Tlaloc) وكانت تلك التماثيل ذات يوم تطلى بألوان براقة ، فالافريزات الضخمة

والشرفات والدرج والمنصات هى نتاج فن كان له أبلغ الأثر ان لم يكن قد بلغ مرتبة الفن الرفيع . وهنا نجد كرتيزالكوتل نفسه وقد نقش فوق الحجر ، فهو يصور على الدوام فى شكل حية ذات ريش كما كانت العينان الجاحظتان فى رأسه تقطعان من زجاج طبيعى .

وتعادل رقعة الأرض التى أقيم فوقها هرم الشمس مساحة هرم مصر الأكبر ، هرم خوفو الذى يوازى ضعف هذا الهرم ارتفاعا وحجما . وهرم الشمس ليتوتهوا كان قد ملئ بالتراب (بينما ملئت أهرامات المايا الأصغر حجما بالحصى) وغطى بالحجر المصقول ويدل هرم الشمس على ان بين شعب تيوتهوا كان ثمة خبراء فى فن العمارة ليس من يباريهم وأما الظاهرة التى تبعث على الدهشة فى هذا الهرم فهى ضخامة حجمه وما يبدو عليه من ارتفاع شاهق كما انه يترك فى النفس انطباعا مذهلا بأنه غير محدود الارتفاع والمساحة . وكان هرم الشمس يتكون من خمس درجات أو شرفات تربطها معا سلسلة من الممرات الشديدة الانحدار ، وفوق قمته أقيم معبد اله الشمس حيث كان الاتصال يتم بين الكهنة والآلهة .

وقد شق علماء الآثار فجوات الى داخل هرم الشمس لكنهم لم يعثروا على أية سراديب أو أنفاق كتلك الشائعة فى الأهرامات المصرية ، فالبناء بأسره عبارة عن كتلة من الأرض الصلبة ، كما انه لم يبن على مراحل شأنه شأن عدد كبير من الأهرامات لكنه بنى دفعة واحدة بموجب خطة أعدت سلفا ، وتدل عظمة « المشروع » التيوتهواكانى على ان عقيدة دينية عميقة الجذور هى التى حملت على بنائه . وهذا شأن الثقافات القديمة جميعها بما فيها بناء الأهرام فى عهد الأسرة الثالثة فى مصر ، لقد كان أعظم المبانى وأكثرها خلودا هو على الدوام وليد الحماس الدينى .

وكان سطح الهرم التيوتهواكانى يغطى بطبقة من الحجر بيد ان أنقاض الأجر القديم والطين بداخله كانت بمثابة مصدر هام يستمد منه علماء الآثار معلوماتهم . اذ كان يحتوى على أوان وتماثيل صغيرة من الطين وأدوات من الحجر ترجع ، ولاشك الى قدماء التيوتهواكان أو الى أسلافهم ، كما تدل على ان الهرم قد بنى فى مرحلة مبكرة نسبيا من مراحل الحضارة التيوتهواكانية . وسوف تظل معرفة ذلك اليوم خافية علينا تماما وكل ما نعرفه هو ان هذا الجبل الصناعي اقد أقيم لأحد الآلهة وليس كمقبرة لملك من الملوك .

ولم تبلغ الحفريات فى هرم القمر ما بلغته فى هرم الشمس رغم ان موقع الأول فى نهاية ما يعرف اليوم « بطريق الموتى » يدل على انه أكثر من الثانى أهمية وان كان حجمه لا يربو على ربعه .

ولم يتم الى اليوم اكتشاف الكثير من المبانى فى تيوتهواكان ، بيد ان عدداً كبيرا من الخرائب يضم غرفا تحت سطح الأرض تزدان جدرانها بصور رائعة ، كما تزخرف جدران مجموعة من المبانى ، ويطلق عليها هيكل الزراعة ، بصور الفاكهة والزهور المتعددة التى كانت تقدم قربانا للآلهة ، لكننا لا نعرف شكلها الحقيقى فكل ما يتوفر لدينا عبارة عن صور قد رسمت فى فترة لاحقة كما ان الحفريات قد أماطت اللثام عن أجزاء من جدران يحتمل انها كانت مسكنا للكهنة ، أما الأكواخ التى وجدت فى أطراف هذه العاصمة الدينية فقد استحالت أنقاضا منذ أمد بعيد خلال ال ١٤٠٠ سنة الماضية •

ويتعذر علينا أن نحدد بصورة قاطعة بداية الحضارة التيوتهواكانية ونهايتها وان وجد من يحسب أن هرم الشمس قد أقيم فى القرن الثانى الميلادي وأن تيوتهوكان قد دمرت سنة ٨٥٦ م بيد ان الذى نعلمه علم اليقين هو ان المدينة لقيت نهايتها فى حريق مروع أتى عليها •

وما الذى حمل على تحديد تلك الحضارة بعام ٨٥٦ م ؟

لقد ساد الاعتقاد فى أمريكا الوسطى بأن عام ٨٥٦ م هو التاريخ الذى شهد مولد مدينة لم تكتشف الا سنة ١٩٤٠ م ، ويعد اكتشافها من الانتصارات الكبرى التى حققها علم الآثار فى عصرنا ، تلك هى مدينة تولا (Tula) التى خلفت تيوتهواكان كمركز ثقافى ، والتى تقع خرائبها على مقربة من تولا (Tula) الحديثة بولاية هيدالجو بالمكسيك على بعد نحو ستين ميلا شمال مدينة المكسيك • ولقد أسس مدينة تولان قوم تدفقوا من الصحارى الشمالية ، وكان أولئك المتبربرون الذين كانوا ينطقون بلغة ناهواتل ، ينتسبون من الناحية اللغوية الى الأزتك شأنهم شأن جماعة الشيشميس (Chichmeces) • ولقد سمى هؤلاء التولتك على اسم عاصمتهم تولان كما كانت الصلة الوحيدة التى تربطهم بمدينة تيولتهواكان القديمة هى انهم قهروها • وسرعان ما كشفت عمليات التنقيب فى تولا انه قد تم أخيرا العثور على عاصمة التولتك الأسطورية ، تلك العاصمة التى كان كيانها مازال عالقا فى الأذهان فى جميع أنحاء أمريكا الوسطى •

لكن أعمال التنقيب لم تكشف عن خرائب تولا برمتها ولقد عثر حتى الآن على أهرامات وقصور وتماثيل ضخمة من الحجر وصور الآدميين منحوتة فى الصخور والجدران الحجرية الى جانب الأفاريز التى رسمت فوقها صور النمور والنسور وهى تلتهم قلوبا بشرية • وكانت تلك المدينة مزودة بنظام بديع للصرف ، وعلى الرغم من ذلك فلعل الملعبين المخصصين لألعاب الكرة أروع الاكتشافات وأهمها • فممارسة ألعاب

الكرة فى البلاط فكرة نبعت فى أمريكا الجنوبية وقد مارسها المايا القدامى .

وتكمن أهمية تولا الأساسية فى حقيقة انها كانت مقرا لكوتيز الكوتل ملك التولتك وكاهنهم كولتزال هو أحد أنواع الطيور وكوتل معناها حية . وكانت تلك الشخصية مبعث اضطراب بالغ للمؤرخين وعلماء الآثار فكان كويتز الكوتل الهـا بالنسبة للحضارة التيوتهواكانية . وفى حضارتى المايا والتولتك كان ملكا كاهنا . كما كان يعرف فى يوكاتان باسم كوكولكان وأصبح كوتيز الكوتل فى ظل الحضارة الأزتيكية لقبا .

وحاول الكثيرون من المؤلفين المعنين فى الخيال أن يروا فى كوتيز الكوتل مسيح المكسيك ، وحسبوه تجسيدا جديدا للمخلص . ولقد كرس الكاتب لورد كنجسبورو ، عالم الآثار الايرلندى (١٧٩٥ ـ ١٨٣٧) حياته بجملتها لهذه النظرية وراح يجمع كل ما توفر من معلومات عن حضارات المكسيك القديمة المتقدمة وألف كتابا رائعا من تسعة أجزاء بعنوان « آثار المكسيك » . وكان هدف كنجسبورو أن يثبت ان شعوب المكسيك القديمة هى من سلالة أسباط اسرائيل الضالة العشرة ، وفى محاولة منه لتدعيم نظريته بالوثائق شرع يجمع الأعمال الادبية لكل من العالمين القديم والحديث ، والروايات التى ترجع الى ما قبل العصور الكولومبية الى جانب الكتب التى كان الرهبان الأسبان قد جمعوها بهمة واجتهاد أيام الفتح والحقيقة هى انه أنفق الأموال الطائلة فى جمع المعلومات وفى البحث والنشر حتى أفلس فى النهاية ، فما كان من صاحب المطبعة الا أن زج به فى سجن الدائنين بدبلن . وكان وهو فى السجن يحلم بأن يبرهن للعالم بأن المسيح قد ظهر بين التولتك على أية حال . لكن السجن كان رطبا ومليئا بالحشرات فأصيب كنجسبورو فى نهاية الأمر بالتيفوس ووافته المنية .

وعلى أية حال كان لكنجسبورو أتباع كثيرون حاولوا أن يثبتوا ان شعب المكسيك القديم كان يعرف سفر التكوين ، كما كان للمكسيك روايتها الخاصة عن الفيضان . كما وجد ان هناك ملامح سامية فى آخر من بقى على قيد الحياة من الآزتيك وتماثيلهم القديمة وكان مايا الاتزا يعبدون ، كاليهود ، الها واحدا ولم يصنعوا له صورة أو تمثالا ، كما كانوا مثلهم ينجهون فى صلاتهم تجاه الشرق ، فهل يمكن أن تكون قبلتهم شطر أورشليم ؟ كما ان التولتك يقدسون الحية كالوثنيين الذين ورد ذكرهم فى التوراة ، وفى النهاية أنجبت عذراء تدعى شيمالمان (Chimalman) من تولان ، عاصمة التولتك ، ابنا هو كوتيز الكوتل الذى صار ملك

التولتك وكاهنهم ونبيهم والههم وحامل حضـــارتهم وعالما للفلك فى عهدهم ٠

ان المقارنات التى تعقد بين مسبح الغرب وكوتيز الكوتل التولتك لتثير الدهشة دون ما حاجة الى خيـــال خصب ٠ اذ كان يفترض بأن كوتيز الكوتل رجـــل أبيض وليس أسمر البشرة كالتولتك ، وتذكر الروايات ان اله الآلهة بعث به الى بنى الانسان وصار بشرا وعلم الفنون جميعها وبشر بالحكمة والصـــلاح وحقق للتولتيك عصرا ذهبيـــا ، بل وشاركته الطبيعة ذاتها أعماله الصالحة ٠ ويقال انه بعد أن زار أهل المايا أهدى التولتك تقويمهم المايوى ٠

وبناء على ما ترده روايات التولتك فان كوتيز الكوتل قد جلب على نفسه فى النهاية غضب اله الآلهة ، وكان ذلك بمثابة نهـــاية التولتك ودمارهم ، فما كان من كوتيز الكوتل الا أن لاذ بالفرار الى المحيط الشرقى (أى ساحل الأطلنطى) ليقضى عشرين عاما فى مدينة شولولا حيث شيد أكبر هرم فى أمريكا تكريما له ٠

واليوم لا يزيد ذلك الهرم كثيرا على تل تغطيه الشجيرات ، لكنه لايزال من حيث الحجم أكبر مبنى فى العالم ٠

وما أن بلغ كوتيز الكوتل محيط الأطلنطى حتى جعل يبنى لنفسه زورقا من جلد الثعبان وأبحر عبر المحيط متجها صوب أوربا الى دولة اسطورية تدعى تلابالان (Tlapallan) ولا يعلم أحد أين كانت تقع تلك البلاد ٠

واختفى كويتز الكوتل من الوجود ، بيد ان الأمل فى عودته فى وقت محدد لم يتبدد الا انه لم يعد قط ، اذ فى العام نفسه المحدد لمجيئه الثانى أتى شخص آخر اسمه ايرناندو كورتيز ٠

أمريكا الوسطى

أطاح بأمم كبيرة قوية

ايرناندو كورتيز

لعله كان من المقرر ان يشـــاب فى عـــالم افضـــل ، ولا يساورنى فى ذلك ادنى شك ، فقد كان فارسا هماما واشد النـــاس اخلاصا فى ابتهالاته الى العـــذراء والى الرسول بطرس وغيره من القديسين ٠

برنال ديازديل كاســتيلو فى مؤلفه التـــاريخ الحقيقى لهزيمة اســـبانيا الجديدة عام ١٥٦٨ ٠

فى سنة ١٥١٨ تكشفت المعـــالم الرئيسية ، على أســـوأ الفروض ، للقنطرة الطويلة الضخمة التى تشكلها فلوريدا وكوبا وجزر الهند الغربية وسواحل فنزويلا وبنما ٠ وما كان ينتظر أن يكشف عن غير دولة واحدة هى المكسيك وشبه جزيرتها المترامية يوكاتان التى هى أقرب الأراضى الى الطرف الغربى لكوبا ٠

وكان ايرناندو كورتيز هو الذى عهد اليه حاكم كوبا بمهمة القيام بحملة الى البلاد التى كانت الشـــائعات حـــول ما بها من كنوز الذهب قد جعلت تتسرب الى العـــالم عن بكرة أبيـــه ٠ وكان كورتيز قد بلغ الرابعة والثلاثين ربيعا كما كان مغامرا لم يشهد العالم له نظيرا ، وما كاد الحاكم يصدر أوامره لكورتيز بالاستعداد للحملة حتى أصابه الحسد وحاول أن يلغى الأوامر التى صدرت عنه ، بيد أن كورتيز ورجاله كانوا قد أبحروا بسفنهم التى جمعت على عجل والتى لم تعد اعدادا كافيا ، وحين بلغ الحاكم

المتقلب الشاطيء كانوا قد قطعوا نصف الطريق خارج الميناء · لقد سبق كورتيز الى المكسيك ثلاثة أسبان غيره ، بيد أن الفتح لم يتم الا على يديه ·

وأبحر كورتيز بأســـطوله الى يوكاتان فى فبراير من عام ١٥١٩ ، وما أن بلغ جزيرة كوزوميل حتى أمر بتدمير أصنام السكان وآلهتهم وأقام مذبحا فى أحد المعابد الهندية زوده بتماثيل العذراء وطفلها ·

واضطر كورتيز وقوته الصغيرة أن يخوضوا فى تاباسكو معركة مع قوة من الهنود تفوقهم عددا ، ولما كانت هذه أول مرة يشهد فيها أهل تلك البلاد الجياد ، ولاعتقادهم أن الراكب والجواد شيء واحد ولوا الأدبار امام تلك الوحوش الضارية · لكنهم مالبثوا أن عادوا فى اليوم التالى حاملين الهـــدايا من بينها عشرون امرأة ، احداهن أمة ازتكية بارعة الجمـــال من تاباسكو اسمها مالينشى أطلق عليها الأسبان اسم مارينا ·

كانت مارينا تنطق باللغتين المايوية والازتكية فأضحت مع الأســير الأسبانى والذى أنقــذه كورتيز من المايا ، احدى حلقتى الاتصـــال بين الأسبان والازتيك ولأول وهله استبان لمارينا أنها وقعت فى غرام كورتيز، ولما كان الحب معلما لا يبارى فسرعان ما تعلمت اللغة الأسبانية ، وعملت باديء ذى بدء ســكرتيرة لكورتيز ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت محظية اذ كان قوامها ممشوقا كما كانت تتدفق حيوية وشبابا وتتسـم بالمهارة والبراعة · وظلت على اخلاصها الدائم للأسبان ، وكثيرا ما أنقذتهم من مواقف خطيرة فى الوقت الذى كانت فيه تحافظ على شعبها من الدمار بين الفينة والفينة · وعلى الرغم من أنها رزقت من كورتيز بابن ، هــو « دون مارتن » ، فلم يحدث قط أن تزوجها ، اذ كان متزوجا من أسبانية ·

وابحر كورتيز بأســـطوله على طول الســاحل · وفى يوم الجمعة الكبيرة ــ فى ٢١ أبريل من عام ١٥١٩ ــ نزل بميناء فيراكوز (Vera Cruz) ميناء المكسيك الحديث ·

وكان الأسبان قد سمعوا منذ أمد بعيد عن مونتزوما (Montezuma) ملك الأزتيك القوى · وأبلغت جماعة الكشافة الملك مونتزوما ؛ الذى كان يترقب عودة الاله كوتيز الكوتل الأبيض تلك السنة ؛ أن سفراء كوتيز الكوتل قد نزلوا بالميناء وسرعان ما أعلن منجمو الملك أن ثمة احتمالين هما : انه لو قابل الملك النزلاء بعداء كان الهلاك نصيبه؛ ولو أنه استقبلهم بذراعين مفتوحتين خسر عرشه · وبعد التشـــاور قرر الملك الترحيب بالغرباء فأرسل اليهم الهدايا التى ما أن وقعت عينا كورتيز عليها حتى أدرك أن هذه هى الأرض التى كان الفاتحون الأسبان يحلمون بها ···

الأرض التي ينبغي الظفر بها مهما كان الثمن ، وتكدست أكوام الذهب أمامه : من آنيه ذهبية في حجم عجلات العربات ، وأطباق من الذهب تمثل الشمس وأخرى من الفضة تمثل القمر ، والفيروزج وعباءات من الريش ؛ وحيوانات من الذهب والفضة الى جانب خوذة مليئة بالذهب ؛ وهناك قوائم حديثة دقيقة بالكنوز التي استولى عليها كورتيز الذي كانت الهدايا بمثابة مغنطيس حمله مع رجاله على التغلغل في داخل البلاد ٠

وسرعان ما علم كورتيز أن لمونتزوما العظيم أعداء كثيرون يتمثلون في عين القبائل التي كان الأزتيك يشنون ضدها على الدوام حربا من أجل الحصول على الأسرى لتقديمهم قرابين لآلهتهم فوق قمم أهراماتهم الشامخة ، وهزم كورتيز قبائل التوتوناك (Totonacs) والتلاكساكلان (Tlaxcalans) وغيرهم في المعارك التي خاضها ضدهم والتي اضطروا بعدها الى أن يصبحوا حلفاء له ، وأدرك كورتيز أنه يزحف الى دولة تحفها آلاف الأخطار وليس بصحبته غير حفنة من الرجال ، وأنه سوف يتعرض دائماً ومعه بحارته الذين يستبد بهم القلق لخطر الحرب والتمرد ، فضلا عن أن الموت كان يقف له بالمرصاد ولذا اتخذ قرارا يكاد يكون فريدا من نوعه في تاريخ العالم ، ففي بلدة غريبة لا يعرف من أمرها شيئا حيث يفصله عن وطنه محيط شاسع عقد العزم على اقناع رجاله بأن التراجع مستحيل وأن عليهم القتال حتى النصر أو الموت ٠ ومن ثم أمر بتدمير كل ما بحوزته من سفن ولم يبق غير سفينة صغيرة لحمل الرسائل ٠

وانطلقوا يزحفون في الجبال وأخذ الأسرى من سكان البلاد يتأوهون وهم يجرون المدافع فوق المضايق المنحدرة كما بلل العرق جياد النقل وهي تنوء تحت عبء أثقالها ، واخترق الأسبان بيداء جرداء وحقولا مترامية من الذرة ٠ ورغم المقاومة التي تعرضوا لها في بادىء الأمر في بلاد التلاكساكلان فانها صارت حليفة لهم في النهاية بعد أن لحقت الهزيمة بشعبها ٠

وأخيرا بلغ الأسبان شولولا (Cholula) ، مدينة التولتيك المقدسة حيث ألقوا عصا الترحال ٠ لكن عندما أرخى الليل سدوله تسللت مارينا من فناء الهيكل حيث كان الأسبان معسكرين وعلمت أن شولولا في تحالف مع مونتزوما وأن كميناً سوف ينصب للأسبان عند رحيلهم من المدينة ، فما كان من كورتيز الا أن أمر بمذبحة رهيبة شاملة كما انهار الهيكل القائم فوق الهرم العظيم ونصب مكانه على الفور صليب ضخم من الحجر ٠ فسارع مونتزوما بارسال رسل الى كورتيز لدعوة الأسبان

لزيارته فى عاصمته تينوكتيتلان (Tenochtitlan) مدينة المكسيك الحديثة .

وتنفس الأسبان الصعداء ، ولا غرو ، عندما تطلعوا لأول مرة من أعالى الجبال الى وادى المكسيك ببحيراته المتلألئة ودياره ومدنه ، كما كانت اهرامات تيوتيهوكان تحلق من على بعد تليها العاصمة تينوكتيتلان، وهى أشبه ما يكون بمدينة البندقية فى المكسيك القديمة . ورحب مونتزوما بالأسبان بنفسه واذا بكورتيز يرى أمامه فى نهاية الأمر حاكم امبراطورية تفوق أشد أحلامه تطرفا ، أما مونتزوما فقد رأى فى كورتيز مبعوث الهه كوتيز الكوتال الذى تنبأ الوحى بعودته منذ أمد بعيد ، وقدم للأسبان قصرا من قصوره الخاصة ولما عاد الملك العظيم الى هودجه انبطحت الجماهير على الأرض ، وظلت بغير حراك .

وكتب برنال دياز المؤرخ الأسبانى الذى رافق كورتيز الى تينوكتيتلان يقول : « لن يبرح مخيلتى قط ذلك المشهد حين كانت الجماهير تنطلق الى الشوارع ، وتتفرس الوجوه التى لا حصر لها من كل باب ونافذة ، ويتلاحم السكان فوق أسطح المنازل يحملقون فى الأسبان فى ذهول . وكان للمدينة سوق فسيح وصفوف طويلة من ـ المبانى وآلاف من الكناسين الذين ينظفون الطرقات يوميا ، ولما كانت مياه بحيرة تينوكتيتلان تميل بشدة الى الملوحة نقلت المياه العذبة من مستودع جبلى الى المدينة عبر أنابيب خزفية ، وكانت الخزانات العديدة فى تينوكتيتلان تستمد مياهها النقية من ذلك المستودع .

وكان مونتزوما يملك قصورا منيفة عديدة وترسانة مكدسة بالأسلحة وبالمهمات العسكرية وكان شباب علية القوم الأزتيك يتبارزون ويؤدون أدوارا شبيهة بما يقع فى الحروب ، كما كانت هنالك مخازن للحبوب وأخرى كبيرة للبضائع وقفص كبير لحفظ الطيور ذات الريش المزركش البديع التى كان يأتى بها من جميع أنحاء الامبراطورية . وفى فصل سقوط الريش ، كان الريش المتعدد الألوان يجمع لصناعة الثياب الفضفاضة التى برع فيها الفن الازتيكى بنوع الخصوص ، كما كانت هنالك حديقة للحيوان تضم حيوانات مفترسة وثعابين الى جانب احتفاظ مونتزوما بالعمالقة والأقزام وغيرهم من المخلوقات البائسة وكانت تحوط بتلك المبانى جميعها حدائق فسيحة انبتت فيها الزهور والشجيرات والأشجار والأعشاب الطبية كما كانت النافورات البراقة تبعث بقطراتها المنعشة الى الحدائق الغناء ، وطيور الماء والأسماك من كل لون تسبح فى برك الأسماك العشر الكبيرة التى أقامها الملك .



٦٢٥ ميل
الاطلنطي
خليج المكسيك
كوبا
فيراكروز
(مدينة المكسيك) تنوشتلان
هندوراس
البحر الكاريبي
فنزويلا
زومبانجو
اكسوكوتلا
تنوشتلان
(مدينة المكسيك)
اميكاميكا
تلاكسكالا
شولولا
جالابا
كمبوالا
انتجوا
فيراكروز
بوبوكاتبيتل
طريق كورتيز الى تنوشتلان (مدينة المكسيك)

أما قصور مونتزوما فكانت مزودة بكل ما يخطر ببال المرء من ترف بما في ذلك أجنحة خاصة لنساء حريمه ، تلك المحظيات التى كانت تحظى بكل متعة ولذة ، وكن ماهرات فى النسج والحياكة وفي صنع الثياب الفاخرة من الريش كما كان يشرف عليهن عدد من المسنات للتأكد من أن اللائى يخضعن لاشرافهن يغتسلن بالقدر الكافى ٠ أما مونتزوما نفسه فكان يبدل ثيابه أربع مرات يوميا وما كان يرتديه مرة يلقى به الى خدمه ، ولو وجد هنرى الثامن نفسه فى عهد مونتزوما لحسده ، فلقد دأب الملك الأزتيكى على تناول طعامه في جو من البذخ ، اذ كان يجلس فى عظمة على انفراد بينما تكدس مئات الأطباق أمامه فوق الحصر ويمضى الخدم ، عريقو المنبت فى حمل الطعام الذى أعدته فتيات لم يخترن الا لما هن عليه من رشاقة وفتنة ، وكان الملك يجلس على وسادة متخفيا وراء ستار ، بينما يقف مستشاروه المبجلون على مبعدة منه على استعداد للرد على ما يطرحه عليهم من أسئلة ٠ كانت الأطباق الذهبية تصف فوق مفرش من القطن وتضاء غرفة الطعام بمشاعل تزود بنوع من اللبان تنطلق منه رائحة عطرة عند احتراقه ٠ وما كاد الملك يفرغ من تناول طعامه حتى تقدم اليه طاس الأصابع لغسل يديه يعقبه غليون يدخن فيه أعشابا مسكنة تسمى التبغ ٠ وأثناء تلك الفترة الممتعة التى يقضيها بعد العشاء ، كان يسلى نفسه بمشاهدة المشعوذين او مهرج البلاط وكان راقصو القصر يحتلون حيا كاملا من المدينة لقد كانت نفقات البلاط باهظة ومع ذلك وجد حساب دقيق للوارد والمنصرف الى جانب تدبير شئون بيت الملك بأسلوب فريد مثالى ٠

وشهدت تلك الفترة لعبة القط والفأر ٠ لقد أخذ مونتزوما كورتيز وأراه أحد أهراماته ووقف الاثنان الى جوار لوح من اليشب مخصص للقرابين البشرية حيث تنبعث رائحة دماء نتنة ٠ ورأى كورتيز آلهة الأزتيك تحلق فوق الأبراج المقدسة أمامها قلوب البشر فى طسوت ذهبية فوق المذابح ٠

وأراد كورتيز ازالة هذه الأوثان جميعها بغير ضجيج ليحل محلها صليب المسيحية فما كان من مونتزوما الا أن استبد به الغضب واعترض بقوله : « تلك هى الآلهة التى أفضت بالآزتيك الى النصر » ٠

وتفقد الأسبان ثروة مونتزوما وكتب دياز يقول : « لقد تبدى لناظرى كما لو أن كنوز العالم بأسرها قد وجدت طريقها الى « مكان واحد » وعاد مونتزوما الاسبان فى مقرهم ، فرد الأسبان الزيارة ، بيد أن كورتيز عقد العزم على أن يأسر مونتزوما ٠ فاختار خمسة فرسان بواسل وانطلقوا لزيارة مونتزوما الذى استقبلهم بروح الود والترحيب بل عرض على كورتيز احدى بناته زوجا له ٠

ولم يكـن أمرا هينا أن يحول كورتيز هذه المباسطة الى حديث أكثر جدية غير أنه طلب اليه فى نهاية الأمر أن يغادر قصره وينتقل ليعيش مع الأسبان • وانصاع مونتزوما للأمر ورحل عـن القصر الذى لم يقع عليه بصره بعد ذلك •

واستبد السخط بشعب الآزتيك ، ولما ظهروا خارج أحيـاء الأسبان يلوحون بأسلحتهم خرج مونتزوما الى الشرفة لتهدئتهم ، فنظروا الى حاكمهم نظرتهم الى حيوان مفترس استأنسه الأعداء ووضعوه منصاعا فى قفص •

وانطلقت الجماهير تردد « امرأة ، جبان • لقد أحالك البيض امرأة لا تصلح الا للغزل والنسيج » واندفعت الرماح تهتز عبر الهواء وتدفق سيل من الأحجار والسهام المواجهة الى صـدر الامبراطور • فسـارع الأسبان بتغطيته بدروعهم ، لكن بعـد فوات الأوان ، فقد أصيب مونتزوما بجراح نافذة مميتة •

وجثا الأب أولميدو الى جوار الرجل المحتضر وقال « احتضن الصليب رمز فداء الانسان » فما كان من مونتزوما الا أن دفعه عنه بعيدا اذ لم يبغ مـن المسيحية شيئا • وفى ٣٠ يونيو من عام ١٥٢٠ وافته المنيه وهـو فى احضان أشراف الآزتيك ممن سمح لهم الأسبان بمصاحبة حكامهم •

وأما بقية الرواية فتنطوى على ثورة وتمرد ومذبحة وأشلاء لقد انهارت معـابد الآزتيك وعـلى أنقاضها قامت الكنائس والأديرة التى بنيت من أحجارها القديمـة واضمحلت امبراطورية الآزتيك العظيمة واختفت من الوجود •

كريت

تيه عمره خمسة آلاف عـام

كان القصر الذى اكتنفه الغموض، هو كل ما عرف عن الآثار الأوربية او عما كان يفترض انه قائم من هـذه الآثار فى تلك المنطقة ٠

سيرارثر ايفانز

بعيدا عن الساحل الجنوبى لليونان ، وعلى مسافات تكاد تـــكون متساوية من سواحل آسيا وأفريقية تقع جزيرة كريت ، موطن أقـــدم حضارة متقدمة ، والتى كان يصفها هوميروس «بأرض فى قلب بحر قاتم كالنبيذ » ٠

وكريت هى أول حلقة فى سلسلة الحضارات الأوروبية الرائعة ، وأشدها قدما ٠ وحين بلغت اليونان ذروة مجدها كانت كريت غارقة فى بحر من الأساطير والخرافات ولما كانت رحى الحرب دائرة على قدم وســاق حول طرواده (١١٩٤ ـ ١١٨٤ ق٠م) ، كانت لكريت حضارة تمتد الى ألفى عام خلت ٠ ولما ولد المسيح كانت ضـحكات النساء الرشــيقات والعاهرات فى قصر كنوسوس قد خفتت وأطبق الصمت منذ ١٤٠٠ عام ٠ كما تحولت ترابا تلك الثياب الفاخرة والجونلات الفضفاضة التى تبارى أحدث مبتكرات باريس الى جانب الصديريات وأطراف الثياب الموشـاة بالدانتللا والأكمام المنتفخة ٠ وظل كل ما يتعلق بكريت نحوا من ٢٠٠٠ سنة ضربا من الأساطير ثم أصبح منذ خمسين عاما حقيقة واقعة لايتطرق اليها الشك ٠

ففي سنة ١٨٧٨ عثر التاجر الكريتي « كالوكيرينوس » ذو الاسم الطنان والشهرة الواسعة ، على عدة أشياء ضاربة في القـــدم فوق تل بجنوب كانديا (Candia) وبعد مضى ثمانى سنوات ، أى فى عام ١٨٨٦، زار المنطقة رجل ألمانى يدعى هنريك شليمان • كان نحيل الجسم متبرما ذا احساس عميق بالانقاض التى ظلت فى طى النســـيان تحت ســـطح الأرض آلافا من السنين ، وكان قد أعاد بالفعل اكتشاف مدينتى ميسينا (Mycenae) وطـــروادة ثم وقف فى كريت وراح يؤكد أن قصـــــور كنوسوس الأسطورية انما تقبع ، ولا ريب ، أسفل قدميه •

كان شليمان قارئا مدققا للكتب اليونانية القديمـــة وكان على يقين دائم من أين يحفر وعما يبحث ، وبدأ مشاوراته مع أصحاب الأراضى رغبة فى أن يبدأ التنقيب دون تأخير ولما طلب مالك الأرض ثمنا باهظـــا أرجأ شليمان المشروع وأرجئت معه فرصة مواصـــلة النجاح الذى حققه فى طروادة ، فقد وافته المنية بعد فترة وجيزة .

وعثر الدكتور آرثر ايفانز ، عالم الآثار البريطانى ، على عـــدد من الحجارة الصغيرة المنقوشة فى متجر للعاديات بأثينا وقيل له انها جلبت من كريت حيث ترتديها الفلاحات كتمـــائم ، بيد أن ايفـــانز كان أكثر اهتماما بالكتابة الهيروغليفية المنقوشة فوقها والتى لم تفك رموزهـــا ، وحتى ذلك الحين كان يعتقد أن أوربا لم تـــكن كالمصريين والسومريين والبابليين ، اذ ظلت تسودها الأميـــة حتى نقـــل اليونانيون الحروف الأبجدية عن الفينيقيين • ولما كان يتعين على عالم الآثار البارع أن يكون قادرا على سبرغور الأشياء أفلح ايفانز فى أن يثبت بالمقارنة أن الأثر الهيروغليفى قد امتد الى كريت • ومن ثم انطلق الى الجزيرة وأخذ يطوف بأرجائها يجمـــع تلك الآثار التى كانت قد خرجت الى النور بين الحين والحين • وفى نهاية المطـــاف ابتاع الأرض التى يقبع أســـفلها قصر كنوسوس واستأجر مائة وخمسين عاملا للتنقيب عنه •

وظل العمال يحفرون تسعة أسابيع بعدها أماط ايفانز اللثام عـــن قصر مينوس (Minos) بكنوسوس الذى يعد من أغنى ما توصـــل اليه علم الآثار الحديث من كنوز •

وكتب ايفانز يقول : « لقد كنا نرتاد عالما لم تمتد اليه يد وكانت كل خطوة نحو الأمام انما هى خطوة فى قلب الظـــلام • فلم يكن ثمـــة ما يهدينا السبيل من أبنية ، الأمر الذى حال دون القيام بعمليات حفر منظمة • والقصر الذى يكتنفه الغموض هو كل ما كان يعرف عن الآثار الأوربية أو عما كان يفترض وجوده هناك . وأما الظاهرة الغريبة فهى

أن القصر لا يحمل طابعا يونانيا أو رومانيا ··· فحقبته العظيمة تمتد الى ما قبل الحضارة الموكنية على أسوأ الفروض ·

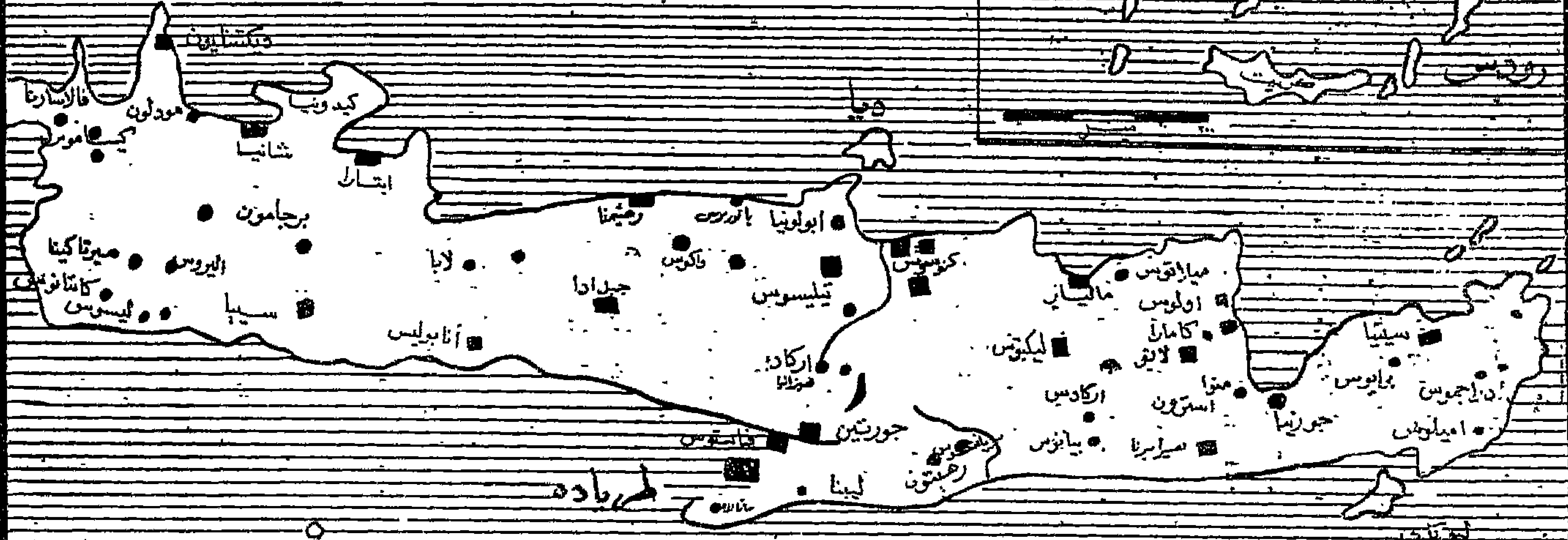
وعثر ايفانز على آلاف من الآجر والألواح الفخارية تحمل الكتـــابة الهيروغليفية نفسها التى نقشت على تميمة كان قد ابتاعها من امرأة فى أثينا · أما الحضارة الرائعة لشعب تميز بمواهب فكرية وفنية لا مثيل لها فقد أصبحت من جديد ماثلة تحت شمس البحر المتوسط ·

ولم يعد خافيا أن المدن تنمو وان الحضـــارة القديمة تتراكم فى طبقات الواحدة فوق الأخرى ، تمثل الطبقة العليا أحدثها والدنيا أقدمها· ولقد أثبت ايفانز أن عصر مينوى البرونزى يرجع الى ثلاثة آلاف سنة ق·م على حين أن حضارة العصر الحجرى الحديث التى تقبع أسفلها تمثل فترة حالية تمتد الى عشرة آلاف عام ، وعلى هذا الاساس فان قصر كنوسوس وحضارة مينوى ينتميان ، ولا شك ، لعصر ما قبل التاريخ الامر الذى يصيبنا – ونحن محصورون فى نطاق تفكيرنا التاريخى – بشىء من الدوار حين نمعن التفكير فيه · ومن الواضح أن الحضارة المينوية المتطورة لـم تظهر فجأة من العدم قبل ميلاد المسيح بألفى أو ثلاثة آلاف عام · ومع ذلك فأينما يممنا وجهنا فى العالم نكاد نكون على يقين دائم من أن أقدامنا انما تسير فوق طبقات ضخمة تكونت من انقاض خلفتها جهود الانسان ونضاله من أجل التقدم ومن ثم يمكن أن نقطع بأن الحضارة المينوية قد مرت ، كغيرها من الحضارات العديدة ، ،بمرحلة بطيئة من التطور المستقل دامت عدة آلاف من السنين ·

وفى عام ١٩٣٦ فحسب فرغ ايفانز ، وكان آنذاك قد أصبح أرثر ايفانز الحائز على جوائز أكاديمية وتقديرية عديدة ، من مؤلفـــه الخالد المكون من ستة أجزاء بعنوان « قصر مينوس فى كنوسوس » ، أنه عمل رائع وحصيلة جهود عمر بأكمله ، كما أنه ينطوى على سمة خفية تجر القارىء أعمق فأعمق الى عالم غريب أسطورى فاذا هو يلقى نفسه فى قلب حضارة البحر المتوسط يطوف بأرجاء عالم ملوك كنوسوس الاسطورى ·

لكن ايفانز ينقل الكثير دون فحص وتدقيق ، وعلى من يطالع مؤلفه أن تكون له حصيلة متينة من المعرفة لو أراد فهم ما تضمنته تلك المجلدات الضخمة ، ومن الطبيعى ، مثلا أن نتساءل عما حدا بعالم الآثار الى التركيز على كريت دون سواها وهو يبحث عن ذلك القصر فى كنوسوس وعلى الأخص ذلك القصر الذى يقال ان ملكا يدعى مينوس اتخذ منه مقرا لحكمه ·

ويتعين علينا ألا ندفع عنا كل أسطورة قديمة بحجة أنها ضرب من الخيال ، بل من واجبنا أن نتذرع بالشـــجاعة لنتابع الروايات والملاحم


آسيا الصغرى
رودس
برجامون
ميرتاكيتا
شانيا
سيبا
أنابوليس
لابا
رهيمنا
ابولونيا
تيليسوس
كنوسوس
اركادس
جورتين
فايستوس
ليبنا
ليكتوس
ماليا
ميلاتوس
اولوس
سيتيا
جورنيا
اميلوس

القديمة بحرفيتها على قدر ما تستطيع . فأقدم ما لدينا من مصادر أسطورية حول كريت هما الالياذة والاوديسة لهوميروس. وفيهما يذكر هوميروس، الذى عاش حوالى ٨٠٠ ق.م تقريبا ، الملك مينوس وقصر كنوسوس كما يذكر امورا عديدة تتعلق بالملك الكريتى . ويصف هيرودوت «أبو التاريخ» الذى عاش فى الفترة ما بين ٤٨٤ و ٤٢٥ق.م مينوس وأسطوله والحملة التى وجهتها كريت ضد صقلية . كمايحدثناتوسيديدس (Thycydides) الأرستقراطى الأثينى والباحث المدقق الموضوعى فى شئون التاريخ الذى ولد نحو ٤٥٥ ق.م عن قوة مينوس البحرية . أما أرسطاطاليس ، وهو ابن الطبيب اليونانى الذى ولد بمدينة مقدونية الصغيرة سنة ٣٨٤ ق.م فقد ذكر بأن كريت تحظى بموقع جغرافى مكن الملك مينوس من أن يفرض سلطانه على العالم الايجى بأسره .. أى جزر بحرايجه وما يحف به من دول .

وتحدثنا الأساطير والروايات اليونانية بما هو أكثر من ذلك : فلقد كان فى كنوسوس ، فيما يبـدو وحش هائـج يطلق عليه مينوتور (Minotaur) هو عبارة عن نصف انسان ونصف ثور ، فهل كان ذلك من صنع الخيال فحسب ؟ .

ان كلمة مينوتور تتركب من اسم الملك مينوس واللفظ اليونانى توروس ومعناه « الثور » وفى أثناء عمليات التنقيب فى كنوسوس أمكن العثور على صور كثيرة متباينة للثور مما يدل بوضوح على ما كان لهـذا الحيوان من أهمية خاصة ، كما كانت مصارعة الثيران تقام فى بلاط الملك، وكان على الفتيان والفتيات أن يركضوا ويمسـكوا بالثور من قرونه ويقفزوا فوق ظهر الحيوان الضارى وهناك صورة لفتاة تجلس فوق قرنى الثور وهو يقفز . ومن الجائز أن كان الأطفال المأسورون يتدربون على ممارسة هذه الرياضة . فان كانت أثينـا قد دانت يوما للملك مينوس وأدت ما فرضه عليها من جزية لاستبان لنا السبب الذى حمل الأثينيين على أن يجعلوا من الملك والثور مخلوقا يثير الرعب .

وتمضى الأسطورة فى القول ان الملك مينوس حبس المخلوق الرهيب فى مبنى يسمى بالتيه ، فهل كان هذا بمجرد ضرب من الخيال ؟ انه لم يكن كذلك اطلاقا !

فلقد كانت أقدس آلهة كريت أم الآلهـة التى دعاها اليونانيون رهيا (Rhea) والتى كانت تصور فى الغالب الاعم وهى بصحبة اله لعله ابنها . وكان من الإله والآلهة يحمل رمزا لجلب السعد ، وهو نوع من المساخيط يمكن الاختفاء فيه حسب الارادة : وهو يتمثل فى بلطة

ذات حدين ، ولما كان اللفظ الكريتي الذي يعبر عن هذه البلطة هو هذا الرمز (Labry) الذي نعثر عليه في كل مكان في القصر الذي اكتشف في كنوسوس ، فلا غرابة أن يسمى القصر نفسه (Labyrinthos) ومن ثم فان كلمة (Labyrinth) قد تبعث في كنوسوس منذ خمسة آلاف عام ، ان لم يكن قبل ذلك بكثير .

ولسنا نعلم ما اذا كان القصر نفسه هو التيه الأصلي أم أن بوسع المينويين أن يتذكروا تيها آخر سبق أن اختفى منذ زمن بعيد . وفوق الاختام التي امكن العثور عليها في كنوسوس وفي قصر مينوس صورة لاحد المباني الذي كان يبدو تارة مستديرا وتارة مربعا ، يخترقه ممر طويل واحد يتعرج وينعطف في الزوايا القائمة . وكان الوصول الى قلب المبنى يستغرق ، ولا شك ، وقتا طويلا واذا دخله المرء مرة تعذر عليه الخروج منه ، ولعل هذه كانت تصميمات التيه المشهورة .

وفي الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٩ م ثار بركان فيزوف بايطاليا ودمر مدينة بومباي الشهيرة عن آخرها ، وتحت أكوام الرماد والحمم امكن العثور على مفتاح آخر للسر ، ففوق أحد الجدران رسم طفل روماني متاهة كتب أسفلها بخط يده الكلمات التالية « التيه : هنا يقيم المينونور » وهكذا كان هذا الطفل الروماني يعرف التيه الكريتي وقصة المينوتور ، كما أننا نعلم شيئا آخر هو أن تلك «الرواية الخيالية» ظلت في منهج المدارس الرومانية تعد مسألة تاريخية .

ويفترض أن شخصا يدعى ديدالوس كان مهندس الملك مينوس الذي اضطلع بتشييد قصر كنوسوس وابتدع التيه ، لعله كان شخصا حقيقيا ، وبناء على ما تذكره الاسطورة فانه كان — فيما يبدو ، شبيها بليوناردو من حيث انه كان يفاجيء سيده باختراعات جديدة وبأعمال بارعة مبتكرة . كما كان نحاتا عبقريا . ويقال انه عندما سجنه الملك مينوس مع ابنه ايكاروس في التيه الذي لا يمكن لأحد الخروج منه صنع أجنحة لكليهما حلقا بهما فوق جدران التيه وطارا بعيدا فوق سطح البحر . ولقى ايكاروس حتفه وهو يحلق في الجو من جراء اقترابه من الشمس ، أما ديدالوس فهبط في صقلية حيث أدخل ثقافة كريت وصنع بعض التماثيل الرائعة من بينها تمثال لأريادني (Ariadne) ابنة مينوس وهي ترقص ، ويقال ان هذه الأعمال ظلت قائمة حتى سنة ٢٠٠ م ، كما لم يخالج اليونانيين أدنى شك في حقيقة ديدالوس التاريخية .

ومن الجائز أيضا أن أسطورة تيسيوس وأوريادني قد وقعت فعلا ، ويقال ان الملك مينوس كان يطالب مدينة أثينا بتقديم سبع فتيات وسبعة فتية قربانا للمينوتور مرة كل تسع سنوات ، وفي احدى هذه المناسبات تطوع

تيسنيوس ، ابن الملك آجيوس ، أن يذهب إلى كريت كواحد من تلك الضحايا اذ كان قد عقد النية على قتل الوحش . لكن ما أن أبصرت ابنة الملك مينوس ، اريادني ، الأمير الآثيني الشاب حتى وقعت في حبائل غرامه ، فأعطته سيفا وأرته كيف يفك بكرة خيط من خلفه وهو يخترق التيه ليتسنى له الخروج منه ، وقتل تيسيوس الوحش واهتدى بخيط اريادني الذى أفضى به الى خارج التيه وهرب مع ابنة الملك الى ناكوس حيث تزوجها كما وعد ، ثم ما لبث أن أبحر مع رفقائه وهي نائمة .

ولا يكاد المرء يصدق أن قصصا كقصة تيسيوس واردياني هي من صنع الخيال فحسب ، كما أن الروايات التى تتحدث عن المبانى المعقدة كالتيه يندر أن تكون ضربا من الأساطير ، ومع ذلك لم يتضح بعد متى شيد ذلك التيه على وجه الدقة وما اذا كان شعب كنوسوس قد عرفه أم أنه لم يكن يعلم من أمره سوى الذكرى غير الواضحة ومن ثم لم يكن على بينة مما اذا كان هذا التيه مربعا أم مستديرا .

UNITS	– I = 1, ⁞⁞ = 5
TENS	– • OR – OR – = 10, •••, ⁼⁼, ☰, = 50
HUNDREDS	– O = 100, OOO OO = 500
THOUSANDS	– ⦶ = 1000, ⦶⦶⦶ ⦶ = 4000
EXAMPLE :	⦶⦶ OO OO ☰☰☰ ⁞⁞⁞ = 2496

ولما كان مينوس هو الذى كان يتولى زمام الامور فى قصر كنوسوس وتدين لحكمه امبراطورية بحرية مترامية كما كان من المرجح أن اسمه هو لقب ملكى ، شأنه فى ذلك شأن اسم فرعون بالنسبة للمصريين فقد سمى ايفانز حضارة كريت القديمة باسم الحضارة المينوية — وأثبت بما قام به من حفريات أن العصر الحجرى الحديث ظل قائما فى تلك البقعة

(*) اعداد معينة من المؤكد انه بهذا الأسلوب يمكن كتابة اي رقم ، مهما يكن كبيرا ، أما اسلوب كتابتنا فمنقول عن العرب .

الى حوالى سنة ٣٤٠٠ ق٠م٠ عند بداية العصر البرونزى ، وقسم ايفانز الحضارة المينوية الى ثلاث مراحل : المرحلة المينوية الأولى (٣٤٠٠ — ٢١٠٠) والمرحلة المينوية المتوسطة (٢١٠٠ — ١٥٨٠) والمرحلة المينوية الأخيرة (١٥٨٠ — ١٢٥٠) وكان الوصول الى هذا التصنيف جد عسير ، فلم يخلف المينيون أية بيانات أو حقائق تاريخية بيد أن المصريين قد زودونا بتواريخ دقيقة غاية الدقة ، وبفضل ما كان بين مصر وكريت القديمة من علاقات تجارية وثقافية يمكن تحديد أحداث تاريخية بعينها شهدتها كريت بدقة مقبولة ٠

ونحو سنة ٢١٠٠ ق٠م٠ انطلق أمراء كموسوس وفياستوس وماليا يشيدون قصورا ضخمة ترتفع الى عدة طوابق وتضم غرفا لا حصر لها ودور صناعة ومخازن وأذ ية وسلالم ، « ودرابزين » ، وأقيمت المعابد والمذابح ومشروعات معقدة لتزويد تلك الأبنية بالماء ، كما زخرفت جدران القصور العديدة بالصور الزاهية الألوان وبالكتابة الطولية التى تطورت عن الهيروغليفية التى كانت تستخدم قبل ذلك بألف عام

⊢	⊢	ta
⋀	↑	ti
ǂ	ǂ	pa
ᑫ	ᑫ	po
+	+	lo
[illegible]	Z	ra
[illegible]		ni
[illegible]		re
[illegible]	[illegible]	ma
[illegible]	M	mi

* أقدم أبجدية أوربية اليسار : كريتيه ، والوسط : قبرصية ، واليمين : النطق بناء على عملية فك الرموز التى قام بها ايرنست سيتيج ٠

ويلوح أن كارثة مروعة حلت بكنوسوس سنة ١٧٠٠ ق٠م أتت على قصرها المنيف ٠ فهل كانت زلزالا أم هجوما شنته عليها فياستوس المنافسة لها ؟ وهذا محتمل على أسوأ الفروض ، فمن الغريب حقا أن القصر القائم فى فياستوس لم ينهر الا بعد ذلك ٠ وما زلنا لا نعرف اجابة هذا السؤال فى حين ان الأرض تمدنا بشواهدها الواحد بعد الآخر ٠ ففى فترة لاحقة انهارت مدن كريتية أخرى من بينها موخلوس وجورينا وباليكاسترو وكثير غيرها فما لبثت أن عادت الحيـاة تدب فى تلك المدن نحو ١٦٠٠ ق٠م ، وانطلقت المبانى الجديدة تحلق شاهقة فوق الانقاض ، واقيمت فى كنوسوس وفياستوس ونايليسوس وهاجيا وترايادا وجورنيا قصـورا أشد روعة وجمالا من سابقتها وباتت تلك الدول تنعم بثراء وترف لم تحظ اليونان بمثلها الا بعد ألف عام فكانت المسرحيات تمثل فى ساحات القصر والمبارعون يتبارون مع الحيوانات الضـارية ، كما أخذت أذواق الناس ترتقى رويدا وازدهر الأدب وتطورت الحرف واكتشف الأغنياء سبلا جديدة للاسراف ٠ ففى الحقبة ما بين ١٦٠٠ و ١٤٠٠ نعمت كريت والحضـارة المينوية بعصر ذهبى جعل بحر ايجة بأسره يتلألأ عندما انعكست عليـه أشعة شمس كريت الدافئة ، لكن انهار كل شىء بغتة حوالى سنة ١٤٠٠ ق٠م فقد أتت كارثة مروعة على كل ما ابتدعه الفكر والجهد والعبقرية عبر آلاف السنين ٠ ترى ما الذى حدث ؟

كريت
السقوط الغامض

« ويل لسكان ساحل البحر ، امة الكريتيين »

صفنيا : ٢ : ٥

انهارت الحضارة المينوية حول سنة ١٤٠٠ ق٠م كما لو كانت يد تفوق قوتها قوة البشر هى التى قضت عليها ٠ فكانت الكارثة التى حلت بمدن كريت ساحقة شاملة اذ عثر فى مدن مثل كنوسوس وفياستوس وهاجيا وتريادا وجورينا وموخلوس وماليا وزاكووس صغيرها وكبيرها ، على آثار تدل على حدوث تدمير وحريق بها فى آن واحد بينما انهارت مدن غيرها كباليكاسترو وبسيرا وتيليبسوس دون أن يشب فيها حريق ٠

ولم يخلفوا لنا رواية أصلية عن تلك الكارثة التى وقعت منذ ٣٣٥٠ سنة ٠ ولم يكن هنالك ، فيما يبدو ، وصف لانهيار الحضارة المينـــوية المتطورة ، كما أننا لا نعرف لها تاريخا دقيقا ، وكل ما نستطيع أن نستند اليه فهى بحوث علماء الآثار ٠ ومما يثير الدهشة أن الباحثين استطاعوا تحديد الشهر الذى وقعت فيه تلك الكارثة وان تعذر على علم الآثار أن يحدد أكثر من العام على وجه التقريب ٠

ولقد تبين أن ذلك العام هو سنة ١٤٠٠ ق٠م بعد دراسة جد دقيقـة لطبقات الأنقاض التى تحت الأرض كل منها على حدة ٠ تلك الدراسة التى اكدتها الروايات الخاصة بالكريتيين (كيفتى (Kefti) التى عثر عليها اخيرا فى مصر والتى ترقى الى عهد الفرعون أمينوفيس الثالث (١٤٠١ —

١٣٧٥ ق.م) ، وقد يتجاوز هذا التطور بضع سنوات ، فان لم تكن الكارثة الكبرى قد وقعت سنة ١٤٠٠ ق.م فمن المؤكد أنهـا حدثت بعد ذلك بقليل .

هذا يأتي بنا الى آثار النار أو بالأحرى آثار الدخان التي مازالت ترى بوضوح فوق جدران الخرائب التي تم اكتشافها ، وبوسعنا أن نرى الريح التي حملت سحب الدخان بين جنبات القصر المتأجج بالنيران فقد خلف الدخان آثاراً واضحة على المباني الضخمة تدل على أن عاصـفة جنوبية غربية هبت من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي هي التي كانت تدفع النار والدخان الكثيف على طول الجدران المتصدعة . ويسمى العلماء المعاصرون هذه الرياح بالرياح الغربية التي تهب في أشهر الربيع محملة بسحب رملية واسعة النطاق من الصحراء البعيدة والتي تبلغ ذروة قوتها في شهر مارس ، ولم يكن لغير الرياح الغربية القوية أن يترك آثار الدخان التي وجدت فوق جدران كنوسوس ومن ثم أصبحنا على يقين من أن هذه المدينة قد دمرت في شهر مارس الذي فيه وحده يمكن لهذا العدد الكبير من المدن أن يشتعل دفعة واحدة ، فلا يمكن لغير ريح عاتية أن تؤجج النيران بمثل هذه القوة والفعالية .

لكن كيف شبت تلك الحرائق ؟ ان ايفانز على يقين من أن كنوسوس شأنها شأن المدن الأخرى في كريت ، قد انهارت ابان زلزال عنيف أعقبه حريق مروع . وتشير الدلائل كلها الى أن نهاية عاجلة قد أخذت السكان على غرة ، فقد عثر في قاعة العرش ، وهي أقدس بقعة في كنوسوس ، على ما يدل على أن مسرحية غريبة كانت تمثل في اللحظة الاخيرة كما عثر على جرار الزيت الذي لم يكن يستخدم الا لأشد المراسيم قدسية ، كانت قد أعدت في عين اللحظة التي وقعت فيها الكارثة ، لقد حلت الفاجعة ، فيما يبدو ، أثناء ممارسة بعض الطقوس المقدسة كما أن ورش المدينة قد كشفت على أن الكارثة قد داهمت الفنانين وأصحاب الحرف وهم يزاولون أعمالهم ، ولو أن العدو هو الذي زحف على الجزيرة وأحدث مثل هذا الدمار لما بلغت الدهشة ما بلغته على الأقل من وجهة نظر ايفانز الذي تنم آراؤه عن اقتناع بالغ .

والعالم الآثار الشهير ج.د.س. بندلبوري ــ الذي يعرف كنوسوس عن كثب نظرية مغايرة ، فهو يرى أنه في الأزمنة الغابرة لم يكن من المحتم أن تعقب الزلزال الحرائق التي هي أساسا نتيجة للغاز الحديث والكهرباء واستشهد بذلك الزلزال العنيف الذي اجتاح طوكيو عام ١٩٢٣ ، زد على ذلك الزلازل ، اذا كان حقيقة قد وقع ، لدمر بين ما دمر بئر السلم الضخم في كنوسوس ، ذلك البناء الذي ثبت أنه ظل قائما بعد الموعد المحدد

لوقوع الكارثة بزمن طويل ، ولذا يعتقد بندلبورى أن الأدلة جميعها تشير الى أن الدمار قد حل بالمدينة عن عمد بأيد بشرية ٠

ولنفترض أنه في سنة ١٤٠٠ ق٠م لم تعد كريت هى التى تحكم الموطن الأصلي بل كان هذا الاخير — أو اليونان الحديثة — هى التى فرضت سلطانها على جزيرة كريت ، فمن المعقول اذا أن تكون مدن الجزيرة ، الواعية لحضارتها القديمة المستقلة قد ضاقت ذرعا يوما بتلك السيطرة الأجنبية وعقدت العزم على التخلص منها بثورة عارمة ضد القوى الأجنبية جميعها ٠ ومن المعروف أن الكريتيين أعادوا بناء مدنهم بعد وقوع الكارثة وعاشوا حياة طابعها الاستقرار النسبى ، كما أن ما كانوا يتقبلونه من الثقافة الأجنبية بعد مائتى عام يقل عن ذى قبل ، وهذه الحقائق كلها تؤكدها الحفريات ، ومن ثم تبدو نظرية الثورة معقولة تماما ٠

ومن الناحية الأخرى لو أن كريت كانت لا تزال حتى عام ١٤٠٠ ق٠م تفرض سيطرتها على العالم الايجى وأن الدول السائرة فى فلكها قررت تحطيم سيادة الدولة الأم لبات نزول اليونانيين الميسنيين بكريت وما أعقبه من غزو للجزيرة أمرا يمكن تصوره وهذا ما يؤكد أن الأسطول الحربى المعادى الذى دمر مدن كريت كان بارع التنظيم وكان الدافع على هذا التدمير المرير ، فيما يبدو ، سياسيا بحتا ، وحيث ان العدو لم يكن يهدف الى الاستقرار والاستعمار فلابد أنه انسحب من الجزيرة بمجرد أن دمرها تاركا الكريتيين يعيدون بناء مدنهم ويعيشون حياة مغمورة زهاء مائتى عام أخرى ٠

والنظرية الثانية أى نظرية الغزو هى التى يرجحها بندلبورى الذى أشار الى أن اليونانيين الميسينيين ورثوا كريت فى سيادتها على منطقة ايجه كما انها تتفق دائما مع أسطورة ثيسيوس ٠

وان كانت كريت قد طلبت حقا فى فترات منتظمة بعض فتيان أثينا وفتياتها ليقدموا قربانا فى كنوسوس ، وان وجد بالفعل شخص مثل تيسيوس تزد قتل المينوتور آكل البشر فى تيه كنوسوس ، فربما كانت مغامرة ثيسيوس حملة انتقامية وجهت ضد كريت استحالت الى أسطورة ، ومهما تكن الحقيقة فان كريت قد سقطت فى أيدى اليونانيين ولبثت قرنين آخرين من الزمان كدولة تسير فى فلك العالم اليونانى ، فخنقتها الثقافة الهلينية التى تفوقها قوة وحيوية واندمجت فى عالم جديد كان فى بداية حياته ٠

وكان شعب كريت ينتمى لجنس البحر المتوسط ، كما كانوا بحارة لهم علاقات تجارية مع مصر والشرق الأدنى ومع دول بحر ايجه والبحر

المتوسط حتى ايطاليا وأسبانيا غربا ، بل وبلغ أسطولهم قوة لم يشعروا معها بحاجة الى تحصين كنوسوس ٠

ولم يكن للكريتيين لحى على الاطلاق ، مما يدحض الرأى الذى دائما ما يثار حول الحضارة الكريتية ـ الموكينية ، فقد كان اليونانيون الميسينيون شديدى الاهتمام بلحاهم على حين أن الكريتيين كانوا يعتزون بشفراتهم حدا دفعهم الى حملها معهم الى قبورهم ٠

أما نساء الحضارة المينوية فكن يرتدين قبعات كبيرة مخروطة الشكل وأحذية من الجلد الأبيض موشاة (لو كن من الاثرياء) وثيابا بهيئة خصرها ضيق تستر أجسادهن ماخلا صدورهن ٠ وكان الخصر النحيل من سمات الجمال ، فكانت نساء كريت منذ أربعة آلاف عام تشد أجسامها بصدرية جميلة ، وكان النصف السفلى من ثيابهن يقوى بأضلاع معدنية تجعله منتفخا فيصبح أشبه ما يكون بالتنورة مبطنة بسلك وتبدو كالجرس ٠ وكانت ألوان ثيابهن متناسقة بديعة وحلاقوهن غاية فى البراعة كما كن يصبغن وجوههن بمساحيق على نحو من الاتقان لا يبارى فى يومنا هذا ٠ وكان الشبان والرجال بدورهم يشدون خصرهم بأحزمة معدنية مع أنهم لم يرتدوا غير جلد الأسود مما جعلهم يبدون فى نظر اليونانيين أشبه بالعراة ٠

وكانت نساء كريت تتزين بالحلى الثمينة ، وهى نوع من الزينة لم يزدر به الرجال أنفسهم ويبدو أن رجال كريت قديما كانوا يكنون لنسائهم تقديرا بالغا ، اذ أن نساء مصر أنفسهن نادرا ما تمتعن بمثل زينتهن المبالغ فيها ٠ وليس من قبيل الصدفة أن تكون أم الآلهة هى أعظم الآلهة بين آلهة كريت ٠

ولا يسع المرء الا أن يقف مشدوها أمام المدن التى تم اكتشافها فى كريت بشوارعها المنسقة النظيفة المزودة بمياه الشرب وبحمامات ومجارى وحوانيت الصياغ والتجارين وصناع الأوانى والأحذية ، ومعامل لتكرير البترول ومصانع النسيج ٠

وكان لكنوسوس منازل يصل ارتفاعها الى خمسة طوابق تطوى أبوابها وتنيرها مصابيح الزيت ٠ وكان الكريتيون يمارسون لعبة ممتعة شبيهة بالشطرنج ، كما أن فنونهم تكشف عن جهود بناءة طابعها المرح تبذل فى سبيل تحقيق ما هو دقيق وجميل ، فلقد برع الكريتيون فيما هو دقيق من الأشياء ، ولم يكن يشيع البهجة فى نفوسهم غير ما هو دقيق وثمين وبديع فى الحياة العامة ٠

وقد نجح سير آرثر ايفانز فى أن يقدم لنا حضارة أوربية متطورة

غاية التطور ترقى الى ٣٥٠٠ سنة خلت وان لاحت حديثة على نحو مثير للدهشة . ولم يكن ايفانز ، مع ذلك يهدف الى احياء أوربا قبل التاريخ فحسب بل كان مرماه أكثر جرأة ، فقد كان يرغب فى أن يضيف الى تاريخ أوربا ألف عام ولما كان التاريخ يبدأ عادة بالكتابة ، وعلى هـذا الأساس فان تاريخ اليونان على هذا الاساس بدأ كما نعرفه سنة ٧٧٦ ق٠م فلو أراد ايفانز الرجوع بتاريخ أوربا الى أقدم من ذلك كان لابد له من العثور على أمثلة من الكتابة الأوربية أكثر قدما من تلك التى وجدت قبـل ذلك ٠ والواقع أن الرغبة فى اكتشاف وثائق أوربية هى التى حملته ، قبل غيرها ، على زيارة كريت ٠

ولقد عثر ايفانز فى الحقيقة على نوعين من الـكتابة أطلق عليهـا « الكتابة الخطيـة » « أ » والكتابة الخطيـة « ب » ويبدو واضـحا أن الكتابة الخطية كانت تستخدم فى جزيرة كريت فى وقت مبكر يرجع الى ١٦٠٠ ق٠م ، تلك الحقيقة دون سواها قد أضافت الى تاريخ أوربا المكتوب حوالى ٨٠٠ عام ٠

ولقد تم اكتشاف الكتابة الخطية « أ » فى أربع عشرة بقعـة فى الجزيرة ، فعثر فى ثلاث عشرة منهـا على مجموعة من واحـد وخمسين نقشا متباينا وفى الرابعة عشرة عثر على مجموعة ثانية — فى هاجيا ترياذا — من ١٦٨ نقشا ومن بين مجموعة الواحد والخمسين — وجميعها مقتضبة — وجد أربعة عشر منها على ألواح من الطمى المفخور ، وثمانية على أوانى زهور فخارية ، وستة على موائد القرابين ومثلهم على أختام وهكذا ، ومن بين المائة وثمان وستين نقشا التى عثر عليها فى هاجيا ترياذا فى المقـر الصيفى لأحد الأمراء على مقربة من وسط الساحل الجنوبى لكريت نجد أن مائة وأربعة وخمسين منها حفرت فى ألواح من الطين وهى تتضمن مذكرات — موجزة قليلة الشأن حول تدبير شئون البيت ومدونة بحروف موجزة غير واضحة لا شك فى أنها لا تدل على سلاسة فى الكتابة ، بل ويمكن القول انه ليس فى الكتابة الخطية « أ » نقش واحد بخـط سلس ٠

فلماذا لم يعثر الا على أمثلة ضئيلة العدد للغاية ؟ اذا كانت الكتابة الخطية « أ » لم تكتشف الا فى أربعة عشر موقعا ولم يعثر عليهـا منقوشة الا فى سبعة عشر جسما متباينا فمن الانصاف أن نفترض أننا لا نملك غير جزء يسير للغاية من كل ما دون بهذه الكتابة ٠ والادهى من ذلك أننا لسنا على بينة مما اذا كان أى نوع من الورق أو الحبر قد تم اختراعه آنذاك أو أن ما بقى لم يكن سوى الامثلة التى كانت أقل عرضة للتلف ، ولعل الكريتيين كانوا يكتبون على سعف النخيل كما يحدثنا « بلينى » فى كتابه

« التاريخ الطبيعي » ومع ذلك لو أن ما كتب يفوق ما تدل عليه اكتشافاتنا لتعذر علينا ادراك السر في أن تلك النقوش تبدو وكأنها قد نقشت بأيد غرة ان لم يكن قد كتبها مبتدئون غير مجزيين ، ولعلنا ندنو من الحقيقة لو افترضنا أن فن الكتابة لم تكن تمارسه غير الصفوة الممتازة في ربوع كريت .

وفضلا عن ذلك فانه رغم ما تميزت به الفترة ما بين ١٦٠٠ و ١٤٠٠ ق . م في كريت من ثقافة رفيعة ومستويات فنية لا تقل عنها روعة فان الكتابة في رأيهم لم تكن تصلح لغير البيروقراطيين ، والواقع ان الكتابة لم تكن تستخدم الا في السجلات الخاصة بتدبير شئون المنزل التي توحي بأنها لم تكن ذات شأو ، وهذا هو السر في أننا لم نعثر على أمثلة كثيرة من الكتابة الخطية « أ » وفي عدم انتقالها الى أى مكان آخر ، فقلما عثر على هذا الأسلوب من الكتابة في أي مكان آخر من منطقة ايجه وكل ما عثر عليه خارج كريت نقشان في ميلوس وآخر في ثيرا ومن ثم لا يمكن ان نلقي بتبعة العثور على نماذج تافهة من الكتابة الخطية « أ » على النقص في أعمال الحفر وحده .

وأما الأسلوب الآخر المعروف بالكتابة الخطية « ب » فأشد غموضا وابهاما . فبينما كانت الكتابة الطولية « أ » تستخدم في جميع أنحاء الجزيرة ابتداء من سنة ١٦٠٠ ق.م — فصاعدا فان الكتابة الطولية «ب» ظهرت لأول مرة عام ١٤٥٠ ق.م وفي مكان واحد هو قصر كنوسوس الذي تحصل فيه على جميع نقوش الكتابة الخطية « ب » التي عثر عليها في كريت والتي ترجع الى الفترة السابقة لعام ١٤٠٠ ق.م مباشرة ، ومن ثم فانها تمثل سجلات الحكومة لجيل واحد على الأكثر . وبينما مضت بقية كريت تستخدم الكتابة الخطية « أ » استخدم كتبة القصر كنوسوس الكتابة الخطية « ب » في حساباتهم ، وفي عمليات الجرد وتسجيل الشئون التجارية المتعددة ، وكل ما عثرنا عليه من أمثلة لا تخرج عن كونها سجلات وعمليات حسابية تتعلق بالادارة المالية ، ولقد عثر ايفانز على ألواح صغيرة بيضاوية الشكل من الصلصال في القصر تحمل جميعها نقوشا بالكتابة الخطية « ب » كانت مختزنة في صناديق موصدة من الخشب .

وفي سنة ١٩٤٩ عثر عالم الآثار الأمريكي كارل و . بلجن ورفيقه اليوناني كوروبيوتيس (Kowrouniotis) في غرب ميسينيا (Messenia) على مجموعة من المحفوظات شبيهة بما عثر عليه في كنوسوس تضم ٦٠٠ لوح من الفخار . وكان هذا الاكتشاف المذهل على مبعدة أحد عشر ميلا شمال مدينة بيلوس (Pylos) حيث عثر في انقاض القصر على آثار شبيهة بما وجد في كنوسوس من بينها بيانات تجارية وقوائم وبطاقات نقشت

جميعها بالكتابة الخطية ، وترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وفى سنة ١٩٥٢ تم العثور على أربعمائة لوح ، وعلى ما يربو على الخمسين فى ١٩٥٤ ، أى أنه فى ذلك المكان وجد ما يقرب من ١٠٥٠ لوحا ٠

وفى النهاية اكتشف آلان ويس (Alan Wace) عالم الآثار البريطانى سنة ١٩٥٢ المزيد من نماذج الكتابة الخطية ب فى « دار تاجر الخمور » فى موكناى وهى عبارة عن حسابات التاجر ، ويعتقد ويس أنه من المتوقع أن نعثر على مثل هذه الألواح فى كل بيت وقصر وجد فى هذه الفترة الممتدة من ١٣٠٠ الى ١٢٠٠ ق٠م

وتكشف تلك الألواح جميعها ، ألواح كنوسوس وعددها ألفان ، وألواح بيلوس وعددها ١٠٥٠ وألواح موكناى وعددها ٤٢ ، عن تشابه واضح ، كما أن هذه المجموعات الثلاث قد نقشت بالكتابة الخطية ب ، وحين انتقل هذا النمط من الكتابة الى البلد الأم لأول مرة قبل عام ١٤٠٠ ق٠م لم يكن لدى اليونانيين أى نوع من الكتابة ، وفى سنة ١٣٠٠ بل ربما فى حوالى ١٤٠٠ أخذ سكان تلك البلاد يكتبون ، ثم لبثت الكتابة أن اندثرت فى اليونان سنة ١١٠٠ ق٠م فى الوقت الذى فيه قضت المأساة التى حلت بكريت عام ١٤٠٠ على كل من الكتابة الخطية أ و ب ٠ وتمثل اليونان الحالة الوحيدة فى تاريخ أوربا التى اختفى فيها فن الكتابة تماما بعد استخدامه عدة قرون ، فاليونانيون لم ينقلوا نوعا جديدا من الكتابة الا سنة ٨٠٠ ق٠م حين اخذوه هذه المـرة عن فينيقى ثيرا بجـزيرة سانتورين ٠

وظلت النقوش الكريتية عشرات السنين لم تجد من يقرؤها حيث ان أحدا لم يحاول فك رموز كتابتها ، وفى سنة ١٩٢٨ ذكـر ادوارد ماير (Edward Mayer) مؤرخ الآثار القديمة الألمانى « انه لم يزل غير مؤكد ما اذا كان اكتشاف نموذج موفق سيعيننا يوما على فك رموز هذه الكتابة ومما يزيد المشكلة تعقيدا أننا لا ندرى شيئا من أمر اللغة الأصلية ، بل ولا الأسماء » ٠٠

وفى سنة ١٩٤٠ ذكر مايكل فنتريس (Michael Ventris) العالم البريطانى المتضلع فى اللغات وفلسفتها : « ان النقوش المينوية التى تم العثور عليها فى كنوسوس وغيرها لا تزال ٠٠ الكتابة الوحيدة الواسعة الانتشار فى العالم القديم التى يتعذر قراءتها وفهمها » ٠

أما عالم اللغات الأمريكى كوبر (Kober) فذكر سـنة ١٩٤٨ « أننا نتعامل مع ثلاثة مجاهيل هى : اللغة والكتابة والمعنى ٠٠ واللغة اذا كانت مجهولة وكتبت بنوع غير معروف من الكتابة لا يمكن حل رموزهـا سواء كان نصها مكتوبا بلغتين أو بلغة واحدة ٠

وحول أرنســـت ســـيتيج (Ernst Sittig) خبير اللغات الألماني مع غيره من الباحثين الذين ينتمون لجنسيات عديدة ، فك رموز الكتابة الكريتية فقد جعلته دراساته للغات القـــديمة ، السامية والســلافية والاتروزية والقبرصية وغيرها من اللغات النادرة بما فى ذلك لغات آسيا الصغرى ، أهلا للاضطلاع بتلك المهمة على أكمل وجه ٠

وافترض سيتيج ، كما فعل ايفانز ومايرز وصندوال من قبل ، وجود تشابه بين كتابة كريت القديمة والكتابة القبرصـــية ، ففى قبرص استخدمت الكتابة القديمة المقطعية مدة ألف عام أخرى ذلك الاسلوب من الكتابة الذى يكاد يكون مقصورا على احدى اللهجات اليونانية ، بل أيضا على لغة سابقة للغة اليونانية كان مخصصا لها اساسا ، وعلى أساس الحروف راح سيتيج يقارن تركيب اللغة اليونانية السابقة بتركيب اللغة الكريتية القديمة واثبت ما بينهما من تشابه ، ومن ثم حصل على قيم لفظية مؤكدة لعدد من الرموز الكريتية المقطعية ٠ وبهذا أقام ســيتيج الأسس لطريقة فك رموز الكتابة المينوية التى استخدمتها كريت وقبرص القديمتان ٠

وفى سنة ١٩٥١ نشر بنيت (Bennett) فى أمريكا ما أمكن العثور عليه فى بيلوس من نقوش ٠ أعقبتها تلك التى اكتشفت فى كنوسوس والتى قام بنشرها جون مايرز سنة ١٩٥٢ نقلا عن ابحاث صديقه إيفانز بعد أن وافته المنية ، ومن لندن حدث سنة ١٩٥٣ تطـــور مذهل حيث أثبت ج٠ شادويك ومايكل فنتريس أن اللغة الاساسية المنقوشة فوق ألواح كنوسوس وبيلوس وموكناى لم تكن هندية أوربية فحسب بل يونانية على حد سواء ، ومن بين الرموز البالغ عددها نحو ثمانين رمزا استطاع فنتريس وشادويك فك رموز خمسة وستين رمزا منهـــا ، وهى التى قام هانزل ستولتنبرج الذى ينتمى الى جيسن حديثا بتصحيح ترجماتها والاسهاب فيها ٠

ولا مراء من القول دون رغبة فى الحط من شأن ما أحرزه فنتريس من نجاح ومع وضع البحوث السابقة جميعا فى الاعتبار ، بأن افتراض اللغة اليونانية كلغة أساسية لرموز الكتابة الخطية ب لم يكن بالجرأة التى يبدو بها ، فمثلا لو أن المرء جمع ثلاثة رموز مينوية من تلك التى فكهـــا سيتيج Ri Ti (أو Re حسب الحالة) و Po التى تكون الكلمة Tiripo أو Tripos أى اللفظ اليونانى لكلمة (Tripod) — لا تضح بجلاء أن تعبيرا يونانيا أو آخر قد استخدم وخاصة لأن أحد النقوش التى عثر عليها فى بيلوس مثلت عليه صورة ركيزة ثلاثية القوائم (وهى تمثل مدلول الكلمة — المكونة من هذه الرموز) خلف هذه الرموز

الثلاثة • ما افتراض ويس وبلجن القائم على أسس تاريخية ، بمعنى ان اللغة اليونانية كانت تستخدم في ميسينا وبيلوس ، بل ربما في تيرتيز ، أي في مدن الحقبة الموكنية الحصينة •• هذا الافتراض قد ثبتت صحته بما لا يتطرق اليه الشك •

ولكن كيف انتقلت الكتابة الخطيـــة ب من كنوسوس الى بيلوس وموكناى ؟ وما الذى وقع سنة ١٤٠٠ ق•م ؟

ويلوح أن بعض الأشخاص في كنوسوس قد طوروا الكتابة الخطية « أ » الى أخرى تعبر عن الألفاظ اليونانية ، وهكذا وجدت الكتابة الخطية « ب » ولأول مرة ينطور نوع من الكتابة يوائم اللغة اليونانية • وحيث ان الكريتيين لم يكونوا من أصل يونانى يثور السؤال حول من الذى كان يقطن كنوسوس فى ذلك الحين ومن الذى اولى اختراع كتابة للغة اليونانية اهتمامه •

ويبدو محتملا أن حكاما من اليونان الأم كانوا يعيشون فى كنوسوس سنة ١٤٠٠ على الأقل ، وأن أسرة من اليونان هذه قد قهرت كنوسوس دون سواها من مدن الجزيرة ، وأن هؤلاء الحـــكام هم الذين أدخلوا الاختراع الجديد الى بيلوس وموكناى •

وقد يقال أيضا ان الكتابة الجديدة ، وهى الكتابة الخطية «ب» قد نقلت الى كنوسوس من اليونان الأم • بيد أن هذه النظرية يضعفها أن الكتابة الخطية « ب » ترتبط بالكتابة الخطية « أ » التى وجدت فى كريت من قبل (والحق هو أن نحو نصف رموز الكتابة الخطية « أ » يظهر فى الكتابة الخطية « ب ») • وعلى هذا فان الكتابة الطولية ب تطورت ، ولا شـــك ، من الكتابة الخطية « أ » ، وحقيقة أن معظم الألواح الفخارية التى نقشت بالكتابة الخطية « ب » عثر عليها فى كنوسوس ـ ٢٠٠٠ مقابل ١٠٥٠ فى بيلوس ـ تؤكد أصـــلها الكريتى وهكذا فان الكتابة الخطية « ب » قد تطورت من الصورة اليونانية للكتابة الخطية « أ » ، ألتى كانت قد وضعت أساسا لتلائم اللغة الكريتية وهى لغة أجنبية لا يوجد بينها وبين اللغـة اليونانية أى تشابه •

لكن ما نوع اللغة اليونانية التى كانوا ينطقون بها آنذاك ؟

ومن المحتمل أن سكان بيلوس موكناى كانوا ينطقون باللهجة الآخية القديمة ومن الواضح أن اللغة التى وجدت على الألواح الفخارية الصغيرة هى الآخية القديمة التى تدخل ضمن مجموعة اللغة الأركادية القديمة •

وكان المينويون يعرفون النظام العشرى الذى أخذوه اما عن المصريين أو أن أصابعهم العشرة هى التى أوحت لهم به • وان كان لا يوجد لديهم

رمز واحد للدلالة على الرقم « خمسة » فلا يغيب عن بالنا أن الرمز (5) منقول عن العربية يتركب من خمسة رموز منفصلة ، ولم يكن لدى المينويين رمز للصفر ، واستخدموا شرطة رأسية بسيطة « ׀ » للدلالة على الرقم واحد . وللرقم اثنين شرطتان « ׀׀ » وللعدد ثلاثة « ׀׀׀ » ، وللعدد ٤ شرطتان من أعلى وأخريان أسفلهما ، وللعدد ٨ أربع شرط رأسية ومثلها من أسفل ׀׀׀׀ ، وللعدد ٩ تستخدم ثلاث مجموعات فوق بعضها يكل منها ثلاث شرط رأسيه ׀׀׀ . وكانوا اذا أرادوا تغيير الرقم ٩ الى ٨ لم يزيلوا احدى الشرط التسع بل الرقم كله يحل محله الرقم الدال على ٨ وهو أربع شرط فوق أربع مثلها ، وأما الرقم ١٠ فكان يمثل شرطة أفقية ـ والرقم ٢٠ يمثل شرطتين أفقيتين = ، وهكذا حتى الرقم عشرة آلاف الذى يمثله الرمز اليونانى —⊕— الدال على هذا الرقم . ولقد اكتشفت أخطاء حسابية عديدة على الألواح الفخارية كما عثر فى بعضها على اشارات شبيهة بعلامة الضرب (×) التى نستخدمها ، بيد أن هذه لم تكن ســوى علامات وضعها أولئك الذين كانوا يضطلعون بمراجعة الحسابات ، ولقد وجدت على تسع وثلاثين وثيقة من الوثائق المدونة بالكتابة الخطية ب .

بهذا النظام المبسط تعذر على المينويين تطوير عملياتهم الحسابية وان كان كافيا لاعداد قوائم بمدفوعات الجـزية وحسـابات أصحاب الحـرف والعمال وسجلاتهم .

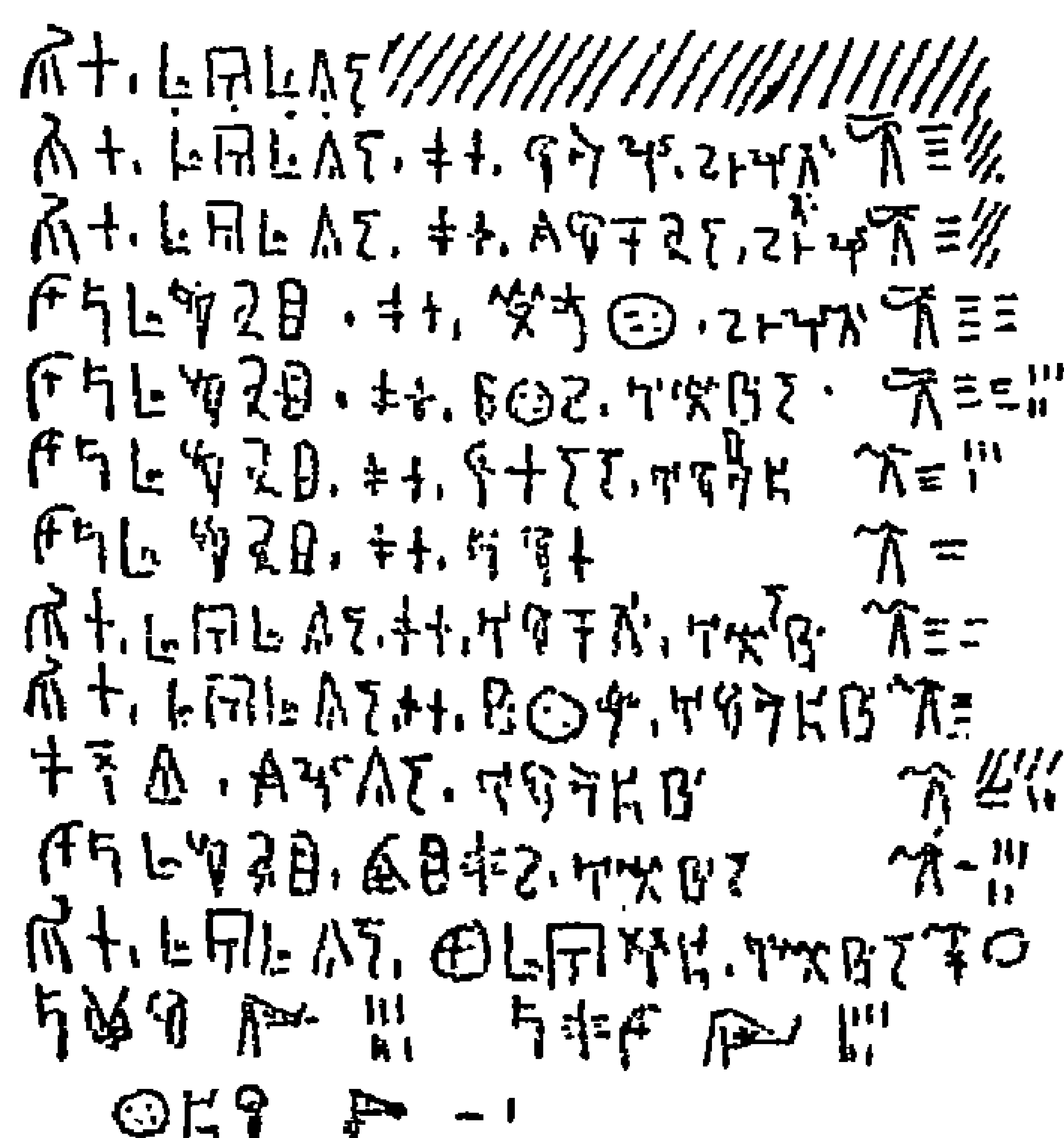
وبعد سنوات قضاها فنتريس فى دراسة هذه الكتابة أعلن أنه كلمـا تعمق المرء فى دراسة الكتابة الخطية ب كلما ازداد دهشة أمام تمـاثل (شكل الكتابة) فى تلك الألواح اذ أن تشابهها لا يقتصر على الحـروف واللغة ، ويفترض فينتريس وجود كتابة مألوفة ذات أصل وبيئة مشتركة ، وطالما ظلت الكتابة الخطيـة ب تستخدم فى كنوسوس وبيلوس وموكناى استخدم الناس الحروف الغريبة دون أن يدخلوا عليها أى تعديل وكانوا فى هذا الصدد أشد تحفظا من الفينيقيين الذين خلفوهم ــ ويصعب القول بأن الحضارة المينوية قد خلفت « نتاجا ادبيا » ، فأولئك القوم الذين بلغوا الذروة فى الفن لم يخلفوا أى انتاج أدبى ما خلا سجلات الحسابات .

ومع ذلك فان فك رموز الكتابة الخطية ب سوف يعيننا رويدا رويدا على معرفة اليونان قبل هوميروس ، اليونان التى هى أقدم من التى نعرفها بنحو ألف عام ، الأمر الذى سوف يكون له أبلغ الأثر على ما نلم

به من تاريخ اليونان القديم ، وسوف يأتى اليوم الذى فيه يبدأ تاريخها بعام ١٤٠٠ ق٠م وليس ٧٧٦ ق٠م ٠

ملاحظة النـــاشر ٠٠

عندما كان هذا الكتاب فى طريقه الى المطبعة أعلن سيروس هـ٠جوردون بجامعة برانديس بمدينة والتهام بولاية ماسا شوسيت أنه باستخدام نموذج حل الرموز الذى وضعه مايكل فنتريس تسنى له حل رموز نماذج من الكتابة المينوية الخطية « أ » واثبات أن اللغــة التى كانت بها هى اللغــة الآكادية لغة بابل السامية ٠ وعلى الرغم من أن هذا يحل مشكلة الكتابة الخطية « أ » فان لغة كريت الأصلية مازالت لغزا غامضا كسابق عهدها ٠



صورة طبق الأصل من الحروف المنقوشة على احد الألواح بالكتابة الخطية ب ٠ وقد عثر كارل ٠ و٠ بلجين وك٠ كورنيوتيس على مئات من هذه الألواح فى غرب ميسينيا عام ١٩٣٩

اليونان

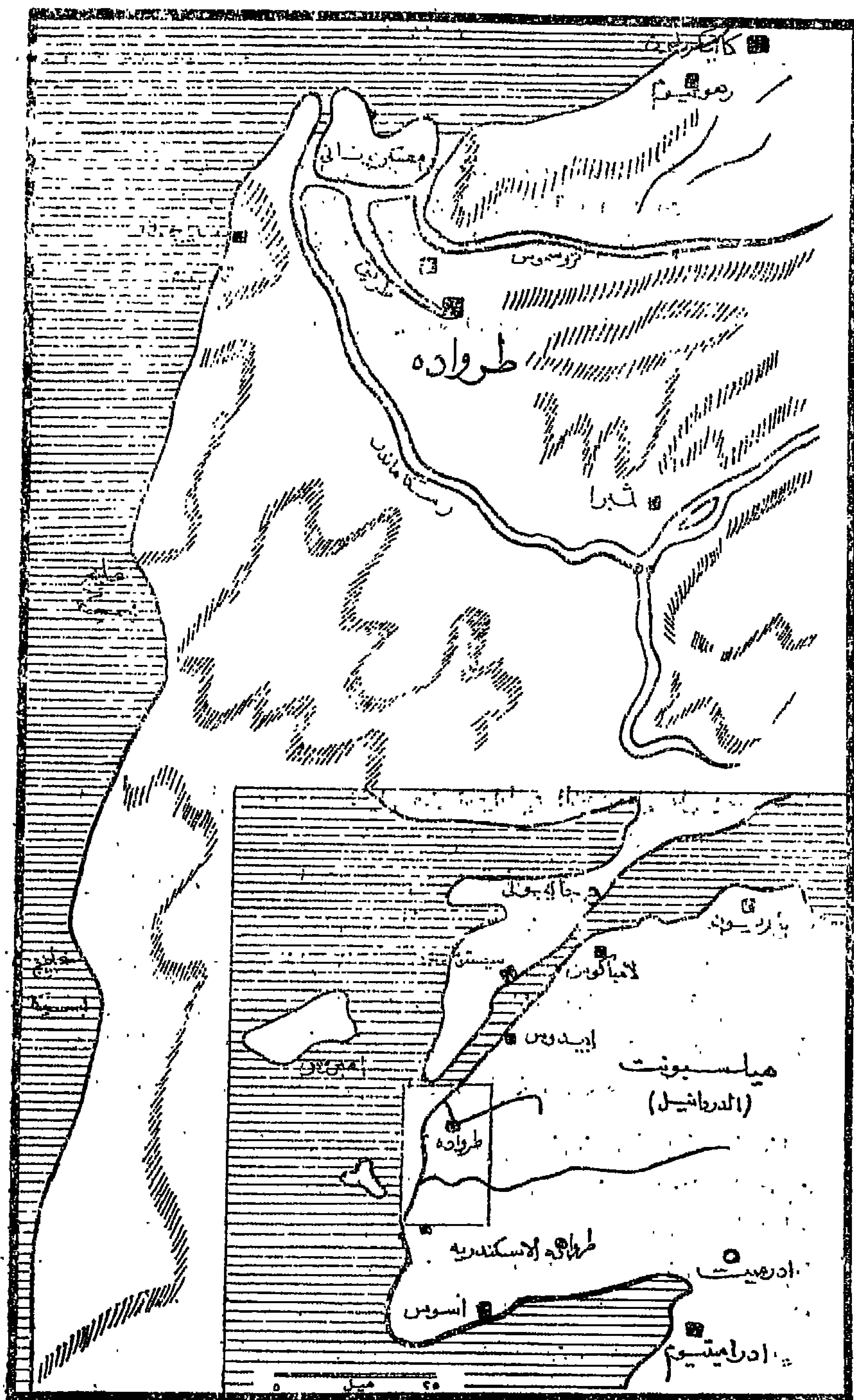
مدينة بريام

وحينئذ قلت « ابي ، لو ان مثل هذه الأسوار كانت قائمة في وقت ما ، لما امكن زوالها كلية ، ولكن من المحتمل ان تكون مختفية تحت التراب والرديم المتراكم عبر القرون

(هاينرش شليمان وهو في الثامنة)

على امتداد ميلين ونصف الميل من شواطىء الدردنيل تل يسميه الأتراك بتل حسارلك ، وهو موقع مثالى لانشاء حصن أو قلعة أو مدينة لوقوعه بعيدا عن البحر كما أنه ليس عرضة لهجوم مباشر من البحر وان كان يتحكم فى مدخل الدردنيل . فلا عجب اذن أن تظل انقاض عشرات المدن والقرى مطمورة أسفل تل حسارلك ، وكان الاعتقاد السائد فى بادىء الأمر أن التل لا يضم أكثر من تسع طبقات متباينة ، فما لبث علماء الآثار أن أماطوا اللثام عن أن الطبقة السابعة تتكون من نوعين مختلفين من الأنقاض وقسموها الى طبقتين هما : السابعة « أ » والسابعة « ب » .

كانت الطبقة الدنيا تتكون من أنقاض ترجع الى خمسة آلاف عام خلت أما الطبقة الثانية ـ أو طرواده الثانية ـ فتضم أنقاض مدينة كانت يد أحد الأعداء قد أحرقتها منذ ٤٢٠٠ سنة تقريبا ، على حين أن الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، (طروادة ٣ ـ ٥) تغطى حقبة تتراوح ما بين ٢٢٠٠ و ١٧٥٠ ق٠م٠ فطروادة السادسة تمثل حضارة مضمحلة ازدهرت فى الفترة ما بين ١٧٥٠ و ١٣٠٠ ق٠م ٠ ويرى بلجن ، عالم الآثار الامريكى أن الأسوار الهائلة التى تنتمى لتلك الفترة والتى مازالت فى حالة جيدة



طرواده
هيلسيونت
(الدرداشيل)
ايدوس
لامپاكوس
طرواده
طرواده الاسكندريه
ادرميت
اسوس
ادراميتيوم

تشبيا قد قوضتها هزة أرضية ، واستند فى هذا الافتراض على حقيقة أن الأسوار العديدة غير المترابطة تكشف جميعها عن تصدع فى اتجاه واحد ، أما عالم الآثار فيلهيلم دوربفيلد (Wilhelm Dorpfeld) فقد اعتبر أن طروادة السادسة هى طروادة هوميروس . بيد أن الصواب قد جانبه .

أما طروادة السابعة « أ » فقد دمرت فى حوالى ١٢٠٠ ق٠م ، وهذا يتفق مع ما تردد من أحاديث منقولة قديمة تحدد تاريخ دمار طروادة بسنة ١١٨٥ ق٠م ويزعم بعض أن مدينة هوميروس فى تلك الطبقة . والواقع أنه فى هذا المكان تقبع ، فيما يبدو ، مصادر ملحمة من أعظم ملاحم البطولة فى تاريخ الانسان . ويعتقد براندانشتين (Brandenstien) الأستاذ بجامعة جرانس ، أن الطبقة السابعة « أ » هى طروادة الهوميروسية ولم تضلله ، على النقيض من دوربفيلد ، أسوار الطبقة السادسة التى هى أشبه ضخامة ، وأما الطبقات الثلاث الباقية من طروادة ٧ ب ـ ٩ فتشمل الفترة الممتدة من ١٢٠٠ ق٠م الى ٤٠٠ ميلادية ٠

وقد تعرض التل مرارا لعمليات التنقيب وامتزجت الطبقات العديدة وتعقدت حتى أصبح يتعذر على من يزور الربوة اليوم أن يتصـــور كيف استطاع علماء الآثار أن يفصلوا الفترات العشر كلا على حدة او أن يكتشفوا أن الطبقة السابعة تضم مدينتين مختلفتين ٠

وطبقة الرديم العاشرة ، أو العليا ، فتنتمى الى الأزمنة الرومانية ، ولما رأى ـ الرومان المثقفون أنه تقليد طيب أن يزوروا طروادة ، شاهد السياح قيثارة باريس والحجر الذى نقشت فوقه صور ابطال طروادة وهم يمارسون لعبة شبيهة بلعبة الشطرنج ٠ وكانت طروادة موضع اهتمام من جانب سياح روما القديمة خاصة بعد أن نشر فرجيل الانيادة (Aeneid) التى كشفت للرومان أنه بعد سقوط طروادة هاجر اينياس (Aeneas) وابنه اسكانيوس (Ascanius) الى ايطاليا حيث أسس الأخير مدينة البالونجا فى لاتيوم ... روما المستقبل ٠

ولما نقل قسطنطين الأكبر عاصمته من روما الى القسطنطينية سنة ٣٥٠ م جال بخاطره بادىء ذى بدء أن يتخذ من طروادة عاصمته الجديدة ، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك البيزنطيون طروادة تتحول ـ لأسباب خفية ـ انقاضا ، كما أن الأتراك الذين دالت البلاد لسلطانهم منذ سنة ١٣٠٦ ، لم يقيموا اية مدينة فى تلك البقعة ، وأما القرية التى على مقربة من الانقاض فلم يتم تشييدها الا منذ عهد قريب ٠ وتمثل طروادة استثناء عجيبا بين أقدم ما شيدته يد الانسان من مدن فالموقع الذى حمل الأجيال العديدة على أن تقيم فوقه مدينة بعد الأخرى ، غالبا ما يظل تحتله احدى العواصم ، والدليل على ذلك مدينة الاسكندرية (تأسست سنة ٣٣٢ ق٠م) أو باريس

« لوتنيا التى ترجع الي ثلاثة آلاف سنة خلت) أو القدس (شيدت نحو سنة ٢٠٠٠ ق ٠ م) أو لويانج فى الصين (عمرها خمسة آلاف عام) أما طروادة فكانت قد استحالت أسطورة حين بلغت اليونان عصرها الذهبي ولم يبق من مجدها شيء البتة ، أو بالحرى ، لم يبق من طروادة القديمة ما يمكن للعين البشرية أن تراه ٠

لكن اذا لم يكن ثمة ما هو ظاهر منها ، ولم يكن كل الناس على بينة من وجود تلك المدينة ، فما الذى يحملهم على البحث عنها وكيف أمكنهم التحقق من موقعها ؟ ٠

فى حوالى سنة ٨٥٠ ق٠م نظم أحد الشعراء قصيدة أطلق عليها « غضب أخيلوس » ، ولكننا نعرفها أكثر باسم « الاليـاذة » على اسـم اليوم (Ilium) وهو اسـم آخر لطروادة ، وتعد الالياذة ، ولعلها أولى ملاحم الغرب كافة ، الأساس الكلاسيكى لأدب العالم الغربى ومهد الشعر التمثيلى فى أوربا ؛ ولا يفوق اهميتها الفنية بالنسبة لنا شيء ٠

فهذا العمل الفنى يشمل العالم بأسره من أرض وبحر وسماء وبدر وشمس ساطعة ٠ كما أنه يعكس جوهر الانسانة ومتاعب الحياة ومباهجها والعمل الدائب فى الأرض طوال العام ، والأعمال اليومية التى يضطلع بها الراعى والصـياد والحطاب ، ولحظـات التجلى متمثلة فى رقص الفتيات الرشيق وأغنية الشاعر ٠ فمن واقع الآلهة السامي الى أغوار العالم السفلى ومن الحرب والثورة والخداع والقسوة المريرة الى أرق مشاعر العطف والمودة والحب بين الزوج وزوجه ٠٠ ليس هنالك ما لم تنطو عليه تلك الملحمة الشعرية الخالدة ٠

وتنسب هذه الالياذة دائما الى الشاعر هوميروس ٠ لكن من هـو هوميروس هذا ؟ هل وجد على قيد الحياة ؟ وهل خلق هذا العمل الضخم بمفرده أم كان هنالك غيره عدد من المساهمين لا يعد ولا يحصى ؟ ٠

وعلى الرغم من عمليات الدس بين سطورها فى فترة لاحقة،فان الالياذة تمثل عملا متجانسا في الأسلوب والتنظيم ، مما يحملنا على الافتراض بأن عبقرية خلاقة ، لا سواها ، هى التى ترتبط بها تلك « الحقيقة الخالدة للماضى الحاضر أبدا » على حد وصف جوته للملحمة العملاقة ٠

وأول من ذكر اسـم هرميروس هو زينوفين المنتمى الى كلوفون Xenphanes Colophon وذكر أنه شاعر وفيلسوف يونانى عاش فى الفترة ما بين ٧٥٠ و ٤٨٠ ق٠م وكتب هيرودوت « أبو التاريخ » ، الذى نقلنا عنه مرارا ، يقول : « لقد سبقنى هوميروس الى الحياة بأربعمائة عام » ومعنى ذلك أنه وجد حوالى سنة ٨٠٠ ق٠م ٠

ومما يدعو الى الدهشة أننا لا نعرف سوى النزر اليسير عن أعظم شاعرين أنجبهما العالم الغربى وهما : هوميروس وشكسبير ، ولقد تعذر حتى فى الأزمنة الغابرة التحقق من شخصية هوميروس ، وتنافس ما لا يقل عن سبع مدن حول شرف ولادته فيها. لقد كان يونانيا، ولاغرو، ولعله عاش فى آسيا الصغرى ، ومن الجائز أنه ولد بمدينة سميرنا (Smyrna) اليونانية بآسيا الصغرى، وربما كان أعمى كما يدل اسمه على ذلك وكما يذكر المؤرخ اليونانى افورس (Ephorus) • ويدور الجدل حول عدد مؤلفات هوميروس ، بل ويحتدم حول ما اذا كان هيرميروس قد كتب كلا من الالياذة والأوديسة حيث ان الزمن يفصل بين الاثنين بنحو مائة عام •

وتصف الالياذة حرب طروادة ، بيد أن الشاعر لا يتعرض للسنوات العشر كلها ، منذ وصول اليونان حتى سقوط طروادة ، بل ينصب اهتمامه على واحد وخمسين يوما خلالها نعيش زمن هذه الحرب بما فى ذلك تدمير المدينة • بيد أن تقسيم الالياذة الى أربعة وعشرين جزءا لم يكن من تفكير هوميروس ، فعلماء الاسكندرية الذين جاءوا بعدئذ هم الذين قاموا بتقسيمها على أساس عدد حروف الأبجدية اليونانية ، ولم تكن تلك الجماعة بحسب تكوينها هيئة محترفة ، ولو كان العبقرى الأعمى على قيد الحياة لهز رأسه مستنكرا ما قام به هواة الأدب • ويحتمل أيضا أن تكون الالياذة القديمة أقصر الى حد ما من نسخة الاسكندرية الحالية أو أنها قد ازدادت طولا فى أثينا منذ وقت مبكر يرجع الى عهد بيزستراتوس (Pisistratus) أى سنة ٥٥٠ ق٠م ، وما من شك فى أن قسطا وافرا من الحواشى المختلفة قد عرف طريقه الى الالياذه من بينها بعض الأساطير التى نبعت فى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى •

وكما انتقى شكسبير عقدة معظم مسرحياته من روايات قديمة أو أعمال تاريخية ، نظم هوميروس ملحمته الرائعة من الأدب الشعبى القديم والأحاديث المنقولة. وليس ثمة شك فى أن ما انطوت عليه الياذة هوميروس من أحداث عسكرية قد وقع سنة ١١٨٤ ق٠م وهو العام الذى حدده الباحثون القدامى لدمار طرواده •

ولقد وقعت عبقرية هوميروس فريسة الاغراء على تصوير مواطنيه على نحو أفضل من أعدائهم ، وعلى سبيل المثال ، حين أحصيت الخسائر فى الأرواح التى لحقت بالشعبين المتقاتلين لم تزد الخسائر اليونانية على خمسين قتيلا بالمقارنة بخسائر طرواده التى بلغت المائتين ، بل لم يرق ما حققه أهل طروادة من انتصارات الى مستوى ما أحرزه اليونانيون وغالبا ما يصور اليونانيين البواسل بصورة من طعنوا من الخلف أو وقعوا فى اشراك رماة السهام المتخفيين •

كانت طروادة ترتبط فى خيـال الأوربيين بشعر هوميروس وظلت أنقاض المدينة قابعة أسفل تل حسارلك دون أن تمتد اليها يد • ولما كان من المتعذر أن تكون حرب طرواده القديمة من وحى خيال هوميروس ليس الا ، وحيث أنه يتعين وجود اساس تاريخى لكل هذه التفاصيل ، ولما كان كل من اليونان والرومان قد زعما بأن طرواده الهوميرية تكمن بالقرب من التل ، الذى بات يعرف بعد ذلك بفترة طيلة بتل حسارلك ، فاننا نكاد نقطع بأن المدينة القـديمة تقبع فى مكان ما عـلى مقربة من تلك البقعة •

كان الملاحون المحليون هم الذين اعلنوا أن طرواده تقبع أسـفل حسارلك فما كان من فرانك كالفرت (Frank Calvert) ، وهو مواطن بريطانى يعمل قنصلا للولايات المتحدة فى الدردنيل، الا أنه ابتاع فى نهاية الأمر جزءا من تل حسارلك بهـدف التنقيب • ومع ذلك كان المشروع يتطلب نفقات باهظة ، ولما رفض المتحف البريطانى المساهمة فى عمليـات الحفر التجريبية عزف كالفيرت عن فكرته ، وذات يوم زاره واحـد من أصحاب الملايين ، وهو رجل غريب فاجأه بالقـول انه يرغب فى كشف طرواده والعثـور على كنز الملك بريام Priam فملأت الغبطة نفس كالفيرت حيث ان هذا الغريب العجيب الذى يدعى هاينرش شليمان قد أراحه مما كان يقض مضجعه •

كان شليمان واحدا من أمتع الشخصيات التى شهدها القرن الماضى، فالرجل الألمانى الذى أصبح مواطنا أمريكيا ، والفقير الذى أضحى من أصحاب الملايين ، سرعان ما نراه رجل أعمال وباحثا وخياليا وواقعيا ، وعبقريا وساذجا ورحالة قلقا وعالما من أشد علماء الآثار صبرا واصرارا من بين الذين قاموا بالتنقيب فى طرواده مكان أحلام شبابه •

وروت ابنته أندروماش الشهيرة (Andromache) ما وقع وهى طفلة حين ابتدرها أبوها بالسؤال عما كانت تقرأ فأجابته « ايفانهو (Ivanhoe) لسير وولترسكوت فقال أبوها : «اقرئى لى عبارة من عباراته» فلم تكد اندروماش تقرأ بضع كلمات حتى قاطعها أبوها وراح يتلو عليها من الذاكرة صفحة تلو الأخرى ، اذ كان قد حفظ الكتاب عن ظهر قلب وهو فى التاسـعة عشرة من عمره وما برح يذكره كلمة كلمة وهو فى سن الستين •

ان سيرة هاينرش شليمان تبدو أشبه ما تكون بقصة خيالية فهو ابن لقسيس رقيق الحال من نوببكوف التى فى مكلينبورج ـ شفيرن ، وقع فى غرام فتاة لم تكن قد ناهزت الرابعة عشرة من عمرها اسمها مينا ميكى، ومع ذلك فقد بادلته الغرام ، وهى حادثة سعيدة ألهمت طموحه وأحجبته •

وكان هاينرش يعمل مساعدا فى متجر عام صغير فى فورستنبورج فما لبث أن انطلق الى هامبورج حيث اتفق على أن يعمل خادم قمرة فى السفينة الشراعية دوروثيا التى أبحرت من هامبورج فى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٨٤١ ، ولكن الباخرة غاصت الى الأعماق فى ليلة الثانى عشر من شهر ديسمبر ، وأنقذ شليمان من الغرق ، وعمل بأحد المراكز التجارية بامستردام حيث علمه الكتابة خطاط من بروكسل .

وجعل هاينرش يكرس جهوده لدراسة اللغات الأجنبية فتعلم الهولندية أولا ثم الانجليزية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والايطالية والسويدية والبولندية والروسية ، ولاح ذلك لعقله القلق وكأنه يستغرق وقتا طويلا مع أنه تعلم كل تلك اللغات فى غضون أشهر معدودة .

وأخيرا نجح شليمان فى عمله كممثل تجارى فى سانت بطر سبورج الى درجة أنه عقد العزم على أن يطلب يد مينا ولكنه علم أن عشيقة طفولته قد تزوجت قبل ذلك بأيام قليلة فرحل الى الولايات المتحدة ، وفى الرابع من شهر يوليو عام ١٨٥٠ أصبحت كاليفورنيا ، أثناء بقائه بها ، ولاية ، وبات سكانها ، ومن بينهم شليمان ، مواطنين أمريكيين . ولما عاد الى أوربا سنة ١٨٥٢ منح وكالة فى موسكو لتسليم مشتروات الجملة ، من النيلة وأخشاب الصبغة ونترات البوتاسا والكبريت والرصاص ، وشرع فى وقت فراغه يتعلم اليونانية ويقرأ جميع الكتب الكلاسيكية (وخاصة الالياذة والأوديسة) المرة بعد الأخرى ، باليونانية القديمة . وكان شليمان الى اليوم الذى فاضت فيه روحه يحفظ الالياذة والأوديسة عن ظهر قلب .

كان شليمان فى ذلك الحين قد صار واسع الثراء فترك التجارة وبدأ لأول مرة فى حياته يلقى نظرة عميقة على العالم فسافر الى السويد ومنها الى الدنمرك وايطاليا وألمانيا ومصر والنوبة وسرعان ما تعلم العربية، كما زار سورية وسميرنا وأثينا وجزيرة أثاكا (Ithaca) . ولما رفضت زوجته الروسية أن تترك وطنها وترحل معه ، طلقها وأعلن فى الصحف عن رغبته فى الزواج من فتاة يونانية واختار ، وهو فى السابعة والأربعين ، من بين الصور التى وصلته ، فتاة يونانية عمرها تسعة عشر ربيعا . كما أنه سمى ابنه آجاممنون (Agamemnon) .

وفى سنة ١٨٦٤ رحل الى تونس وزار خرائب قرطاجة ، وفى طريقه زار مصر للمرة الثانية ومنها انطلق الى سيلان ومدراس وكلكته وبناريس وأجرا رلوكناو ونيودلهى وجبال الهيملايا وجاوا وسايجون والصين وتسلق شليمان السور العظيم وواصل رحلته الى اليابان ثم عبر الباسفيك الى سان فرانسيسكو وأثناء رحلة الباسفيك التى استغرقت خمسين يوما

كتب كتابه الأول « الصين واليابان » ومنذ ذلك الحين ألقى عصا الترحال في باريس وكرس نفسه لدراسة الآثار ٠

وأتى اليـوم الذى التقى فيه صاحب الملايين بفـرانك كالفيرت ، الرجل الذى كان يملك نصف تل حسارلك ٠ وفى الحادى عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٧١ بدأ شليمان أول عملية من عمليـات التنقيب الأربع الواسعة النطاق التى قام بها فى الربوة والتى استغرقت أحد عشر شهرا من العامين التـاليين ٠ وما أن انقضـت تلك الفترة حتى كانت طروادة قد أعيد اكتشافها ٠

ووقع العالم النابه أثنـاء التنقيب فى خطأ اذ شق طبقات طروادة جميعها حتى الطبقة السفلى ٠ وأثناء عملية التنقيب صادفته بعض الحصون، أنقاض مدينة ضاربة فى القدم كانت قد أحرقت ، كما عثر على كنوز هائلة من الذهب واللآلىء ، ووصف شليمان هذا الاكتشاف « بكنز بريام » (تلك الآثار التى كادت جميعها أن تدمر فى برلين ابان الحرب الأخيرة) وحسب انه عثر على طرواده هوميروس ٠ وعلى الرغم من ان المدينة التى اكتشفها ترجع الى فترة سابقة فانه فى الواقع اكتشف طروادة ، أما خطؤه الوحيد فيكمن فى انه خلط بين الطبقات ٠ ومما يثير الدهشة ان شليمان قد تعمق فى الحفر فذهب الى ما هو أبعـد من طروادة هومـيروس (الطبقـة السابقة أ) ، فما عثر عليه من ذهب ، وفضة ، والقصر الخرب ، انما ينتمى الى طرواده الثانية التى تم تدميرها حوالى سنة ٢٢٠٠ ق ٠ م وبرغم ذلك فقد حقق هدفه الرئيسى باكتشافه أين تقبع المدينة الأسطورية ولم يتبين شليمان خطأه الا قبل أن يلقى حتفه بفترة وجيزة وحين فات الأوان لأن يبدأ الحفر من جديد ٠

وقبل أن ينفرط عقد حياته الرائعة اضطلع شليمان بعمليات حفر فى موكناى واتاكا واوركومينوس (Orchomenos) وأماط اللثام عن جزء من تيرنيتر كما كان ينوى كشف قصر مينوس بكريت ، غير ان الفترة التى يقضيها الانسان على الأرض قصيرة مما يحتم عليه أن يترك لغيره مهمة اتمام المشروع الذى كان قد بدأه أو رسمه ٠

وكان فيلهيلم دوربفيلد ، عالم الآثار النابه الذى وافته المنيـة سنة ١٩٤٠ ، بعد أن بلغ السادسة والثمانين من عمره ، صـديقا حميما لشليمان ، ودوربفيلد هو الذى اكتشف أولمبيا القديمة وبرجاموم ومضى يكمل رسالة شليمان فى حسارلك بمثابرة وصبر حتى دبت الحياة على

يديه فى طرواده التى اكتشفها حجرا حجرا • ولقد ابتدع هذا الرجل الموهوب أسلوبا للحفر يستخدمه الآن علمـــاء الآثار فى ربوع الأرض قاطبة •

ولقد دفن شليمان فى أثينـا وهى أنسب البقاع لدفنه ، ذلك انه الرجل الذى أكد ما ظل موضوع شك لعدة قرون وهو ان طروادة والملحمة البطولية التى تدعى الالياذة ليستا من وحى خيال هوميروس الملتهب ، فقد وجدا حقا •• وجدا فى الحجر والذهب بلحمهما ودمهما •

اليونان

القبور تذيع أسرارا

لقد وجد اجا ممنون على قيد الحياة شانه شان هيرقل اقوى رجل عرفه التاريخ ، ولم تكن ميسينا اسطورة ولا تيرينز ضربا من الخيال • واكتشفت حقبة ما قبل تاريخ اليونان حجرا حجرا بكل ما تنطوى عليه من شخصيات اسطورية ومدن هوميرية وكان كل شيء حقيقيا

التاريخ هو الماضى المكتوب ، ولا يعود نبأ هذا التاريخ الا حيث تتوفر الكتابات والنقوش لتروى لنا ضروب نشاط الانسان على الأرض •

بيد أن الجانب الأكبر من تاريخ البشرية يكمن فى تلك الأزمنة الغامضة التى لم تكن تعرف الكتابة بل كانت تعتمد على الأحاديث التى يتناقلها جيل بعد آخر ، ان هذه العصور السحيقة التى تسبق مصادرنا التاريخية المكتوبة والتى تفتقر الى سجلات مكتوبة أو تاريخ محدد ، هى ما نسميه بفترة ما قبل التاريخ ، والتربة وحدها ــ ولا شيء غيرها ــ هى التى تروى حقيقة ما جرى فى تلك الأزمنة ، كما أن الخبراء الحقيقيين فى حقبة ما قبل التاريخ هم علماء الآثار الذين يعملون على الطبيعة .

ولقد بلغت الأساليب الحديثة لدراسة الآثار حدا يتسنى لنا معه الحصول من شظية واحدة من احدى الأوانى الفخارية على فكرة دقيقة واضحة للتواريخ وذلك بالطريقة الخاصة التى يشظى بها الحجر الى جانب طريقة الاشعاع الكربونى (ك ١٤) التى طورها ليبى (Libby) الأستاذ بجامعة شيكاغو. فعلماء الآثار الذين يقومون باكتشاف التربة هم رجال

المخابرات الذين يميطون اللثام عن الأعمال الخيرة وأكثر منها ، فيما يبدو، الأعمال الشريرة التى ارتكبها الناس فى الأزمنة الموغلة فى القدم • وقد يفضى أصغر مفتاح ى الكشف عن معتقدات دينية غريبة أو خرافات أو غيرها من مظاهر النشاط الانسانى ، وخلاصة القول ان مثل هذا المفتاح قد يؤدى الى ما أوتى من أعمال واقترف من مساوىء ، كبيرة كانت أم صغيرة، وهى التى تشكل ما يعرف بفترة ما قبل التاريخ •

ويغطى تاريخ اليونان كما تحدده الوثائق المكتوبة ، حقبة من الزمان تربو على ستمائة عام تبدأ بأول أولمبياد أقيم سنة ٧٧٦ ق٠م وتنتهى بعام ١٤٦ ق • م حين خضعت اليونان لاشراف حاكم مقدونيا الرومانى بوجه عام •

ولقد سبق تلك الحقبة عصر طويل استغرق حوالى ثلاثة آلاف عام تضيع فى غياهب الأساطير والخرافات وروايات البطولة التى تناقلتها الاجيال ولم تدون الا بعد فترة طويلة لاحقة •

وعلى أساس ما كان يستخدمه الانسان فى صنع أدواته وأسلحته من مواد ، قسم العلم حقبة ما قبل التاريخ الى العصور الرئيسية التالية : العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث والعصر البرونزى والعصر الحديدى • ففى بادىء الأمر صنع الناس أسلحتهم ومعداتهم من الحجر ثم اخترعوا الفخار وتعلموا كيف يحرقون الأوانى الفخارية وما لبثوا أن اكتشفوا استخدام المعادن وسبائكها • لقد سبق الحجر البرونز الذى أعقبه الحديد • هذا ما حدث فى ربوع الأرض قاطبة •

ويبدو أن اليونان لم تكن عامرة بالسكان ابان العصر الحجرى القديم فثيساليا (Thessaly) ، مسقط رأس اخيلوس ، هى التى لعبت دورا حاسما فى توطين المنطقة اذ ، فى غضون العصر الحجرى الحديث ، وفد عدد من القبائل من آسيا الصغرى الى فيالى واستقروا بها ، كما أن أقدم حضارة وجدت فى اليونان تعرف بحضارة سيسكلو التى اكتشفت فى ثيساليا . والتى دامت من ٣٠٠٠ الى ٢٨٠٠ ق٠م• وبسطت نفوذها ابان تلك الفترة على اليونان بأسرها •

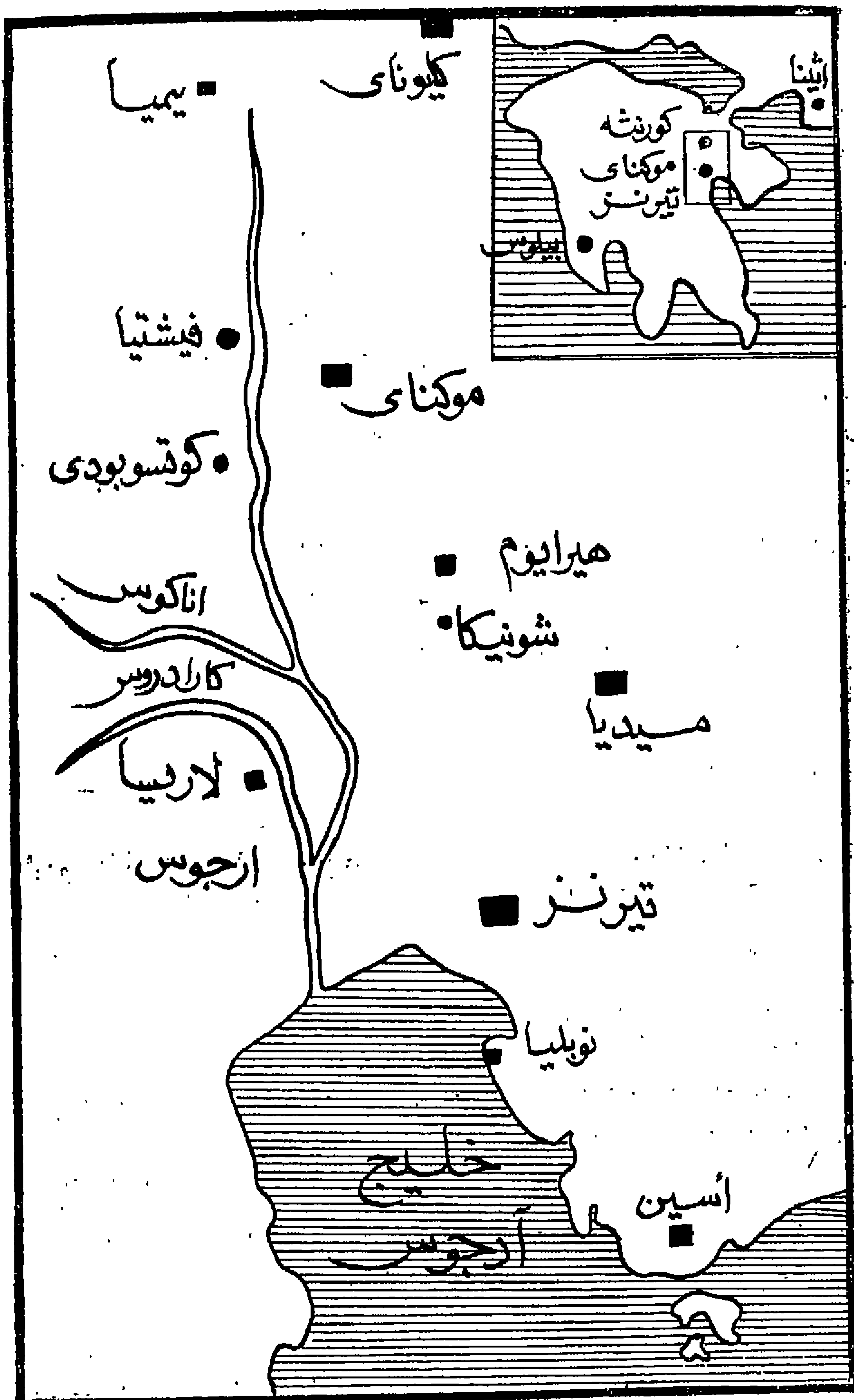
وجاءت الهجرة التالية من البلاد الواقعة على طول نهر الدانوب ،ووصل المهاجرون فى موجتين وحاول بعض العلماء المجتهدين ، على أسس غير كافية ، تصنيف أولئك المهاجرين ووصفهم بالهندوأوربيين الأول ، ولم تتعد الموجة الأولى حدود فيساليا حيث تعرف حضارتهم بالحضارة الديمينية Dimini وهو اسم الموقع الرئيسى الذى اكتشفت فيه • أما الموجة الثانية فقد بلغت البليبونيز (Peloponnesus) الشمالية فى الوقت الذى كانت فيه بقية اليونان تمر بمرحلتها الهيلاديكية Helladic الأولى التى

امتدت من حوالى ٢٥٠٠ الى ٢٤٠٠ ق٠م والتى تمثل فترة الانتقال السابقة لعصر المعادن ٠

ولا تزيد المرحلتان التاليتان عن مجرد مرحلتى تطور تعرفان بالمرحلتين الثانية والثالثة ٢٤٠٠ ـ ١٩٠٠ ق٠م من الهلينية المبكرة ، وهما تمثلان الدخول الى عصر البرونز ٠ وفى سنة ١٩٠٠ ق٠م ظهر عنصر جديد من الشمال وقضى على عدد كبير من المستعمرات وفى هذه المرة نجد مبررا معقولا للافتراض بأن الغزاة كانوا من الهندو أوروبيين لكن اذا توخينا الدقة قلنا انه ليس ثمة ما يدل على أنهم كانوا يونانيين ٠ كانت تلك بداية فترة ما قبل العصر البرونزى الموكنى (كما يعرف بالمرحلة الهيلاديكية المتوسطة) ، والمرحلة الانتقالية الثقافية للفترة الهيلاديكية الاخيرة أو العصر البرونزى الموكنى الذى أعقب ذلك حول سنة ١٦٠٠ ق٠م٠ ولعل ظهور ما يسمى بالمركبه الحربية ـ وهى عبارة عن عربة خفيفة ذات عجلتين تستخدم فى السباق والقتال أدخلت وقتئذ الى الشرق الأوسط عن طريق الهند ـ مما يدل على أن عنصرا جديدا قد وصل بالفعل ، وهو يتمثل فى اليونانيين الموكنيين ، نفس الشعب الذى انحدر منه أبطال هوميروس ٠

وقد اندثرت تماما الحضارة الميسيثية التى كان لكريت أبلغ الأثر عليها ، قد اندثرت تماما نحو سنة ١٢٠٠ ق٠م تحت وطأة ما تعرف بالهجرة الايجية ٠ ومما لا شك فيه أن لهذا الحدث الخطير علاقة بأعظم موجات الهجرة فى عصور ما قبل التاريخ الا وهى هجرة شعب « حقل أوانى رماد الموتى » ٠٠ وكان الباحثون المهتمون بعصور ما قبل التاريخ قد أطلقوا عليهم هذا الاسم اذ كانوا يحرقون موتاهم ويودعون رفاتهم أوعية كبيرة يطمرونها فى قلب الأرض فى مدافن منتظمة تشكل حقول أوانى « مخلفات حرق الجثث » التى تعد المخلفات الوحيدة التى تركها لنا أولئك القوم ، أما الهجرة الكبرى فقد نبعت فى وسط ألمانيا وأحدثت فى نهاية المطاف ثورة كادت أن تشمل كل حضارة من حضارات العالم المعاصر حين انطلق شعب بعد الآخر ينتقل من مكانه ٠ وقبل أن يحل عام ١٢٠٠ ق٠م كان أولئك الغزاة قد قوضوا أركان اليونان بأسرها فانطلق اليونان الدوريون (Dorian Greeks) بعد ذلك يطوفون فى ربوع البلاد مع القبائل الاليرية (Illyrian)

واشتهرت خلال العصر البرونزى لليونان ، فى فترة ما قبل التاريخ مدينتا موكناى وتيرنير ٠ وكانت المدينتان فى اقليم ارجوليس البليبونيز ولو لم يذكرهما هوميروس فى الياذته لما نقب الباحثون المعاصرون عن أى منهما ٠ وكانت موكناى ، بناء على ما يذكره هوميروس ، معقلا لأجاممنون، الأمير الذى حاصر طرواده ٠



كليوناى
يميا
أثينا
كورنثه
موكناى
تيرنز
بيلوس
فيشتيا
موكناى
كونتسوبودى
هيرايوم
أناكوس
شونيكا
كارادروس
ميديا
لاريسا
ارجوس
تيرنز
نوبليا
خليج
آرجوس
أسين

ويدور جدل طويل حول ما اذا كان اجاممنون شخصية تاريخية أم انه لم يزد عن كونه شخصية أسطورية ، ذلك أن عددا كبيرا من الأساطير اليونانية قد نشأ في الحقبة الموكنية ، وهي أحد عصور ما قبل التاريخ الذى يتردد ما بين ١٠٠٠ ، ٢٠٠٠ ق٠م٠ وفي غضون المائة سنة الماضية تسنى لعلماء الآثار نقل مدينة أسطورية تلو الأخرى وبطل أسطورى بعد الآخر من عالم الخيال الى الواقع ، ولم يعد اليوم خافيا علينا أن آجاممنون الرجل الذى حاصر طروادة ، قد وجد على قيد الحياة فعلا ٠ ويحدد « ألان ج٠ ب٠ ويس » بسنة ١٢٠٠ ق٠م على وجه التقريب ٠ كما يذكر هوميروس اسم ابنه آتريوس Atreus وأخيه مينيلاوس Menelaus وكان هؤلاء الرجال بدورهم شخصيات عظيمة لا ريب ٠

كما تحدثنا احدى الأساطير عن « هيرقل اليوناني » الذى كانت سلالته تمثيل أبطال الهجرة الدوريانية ، وهي آخر موجة كبرى من المهاجرين تتدفق على اليونان ٠ وكان هيرقل قد استقر بتيرنيز في خدمة سيد موكناى ، عمه الشرير يورستيوس Eurystheus وعرف هيرقل بأنه أقوى رجل في العالم ، وظلت أعماله الخارقة تتردد على مسامع تلاميذ المدارس حتى في عصر الرومان ٠ وكان يورستيوس سيد موكناى يشعر فيما يبدو بقلق بالغ لوجود مثل هذا التابع القوى هيرقل على مقربة منه فتيرنيز لم تكن تبعد عن موكناى بأكثر من تسعة أميال ، وفي محاولة منه للقضاء على ابن أخيه عهد يورستيوس الى هيرقل اثنتى عشرة مهمة ، كل منها أشق وأعوص من سابقتها ٠ وحملت تلك المهام هيرقل بعيدا عن بلغ في نهاية الأمر مضايق جبل طارق ، مدخل المحيط الأطلنطى ، التى أصبح القدماء يطلقون عليها « أعمدة هيرقل » ٠

ويلوح جليا أن مدينة ارتبطت بأسماء طنانة مثل يورسيثيوس وهيرقل واتريوس وأجاممنون قد وجدت قطعا في مكان ما ، بيد أن موقعها المزعوم يغطيه اليوم تل غريب الشكل ٠ ولقد قام رجلان بريطانيان (اللوردان الجين وسليجو) لا يعرف اليأس اليهما طريقا ، مع حاكم تركى (فيلى باشا)، بعمليات حفر في تلك البقعة ٠ ولم يكن اهتمام أولئك الرجال بالبحث عن عصور ما قبل التاريخ قدر رغبتهم في العثور على التماثيل والكنوز القديمة٠

أما هاينريش شليمان فكانت تحركه دوافع مغايرة تكمن في تقديره لعلم الأساطير وفي ايمانه بما تنطوى عليه عصور ما قبل التاريخ من حقيقة راسخة ٠ كان على يقين من أنه يستطيع اثبات صحة ما وصفه هوميروس تاريخيا ٠ وبعد أن إكتشف طروادة بدأ سنة ١٨٧٤ عمليات حفر تجريبية في تل موكناى آملا في العثور على قبر أجاممنون وكنز آتريوس ٠ وكانت

مهمة جريئه ، فمن ذا الذى يجرؤ اليوم على التنقيب عن الكنز الشهير لجماعة نيبلونج ؟ (١) ٠

ولما بدأ شليمان أعمال الحفر بصورة جدية سنة ١٨٧٦ فتح أمام علم الآثار عالما جديدا بأكمله ، حين عثر على خمس مقابر ملكية ترقى الى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، مقابر لم تعبث بها يد انسان ولا عوادى الزمن ، حيث أنها لم نفتح ولم ينهب ما بها ٠ وكلفت عمليات التنقيب شليمان أموالا طائلة بما فى ذلك أمواله الخاصة ، لكنه كان يعلم علم اليقين أن شهرته قد أطبقت على الآفاق وأن اسمه قد انضم الى سجل الخالدين ٠ وكتب يقول : « ما كان بوسعى أن أتوقف عن الحفر فى موكناى قبل أن أكتشف جميع المقابر الملكية ٠ ولم يعد خافيا على أحد ما حققته حفرياتى من نجاح رائع وما كشفته من كنوز هائلة غنية أثريت بها أمة اليانون ٠ ولسوف يشهد المستقبل البعيد السياح من ربوع الأرض قاطبة وقد تدفقوا على العاصمة اليونانية لزيارة متحف موكناى وللوقوف مشدوهين أمام ثمار جهودى المضنية والانكباب على دراستها » ٠

وبين عامى ١٨٧٧ و ١٨٧٨ واصل عالم الآثار اليونانى ستاماتكس (Stamatakes) مهمة شليمان فعثر على مقبرة سادسة سماها « مقبرة أجاممنون أو كنز آتريوس » وفى نهاية القرن حذا عالم يونانى آخر يدعى تسونتاس (Tsountas) حذو شليمان ، وبذلك أخذت صورة دقيقة للحضارة الموكنية تتكامل ٠ وساهم كيراموبولوس وعالم الآثار الألمانى رودنفالدت بنصيبهما فى هذا العمل ، وانطلقت المدرسة البريطانية فى أثينا تعمل فوق التل منذ عام ١٩٢٠ حتى تمكن فى النهاية العالم البريطانى الموهوب آلان ويس من اكتشاف الموقع ، وهذا الرجل هو الذى أدرك بوضوح أن الثقافة الميسينية فى الفترة ما بين ١٤٠٠ — ١٢٠٠ ق ٠ م ما هى الا تعبير مبكر عن روح اليونان ، كما أنه هو أيضا الذى عثر على الاثنين والأربعين لوحا المنقوشة بالكتابة الخطية « ب » ٠

وهكذا ألقى علم الآثار الضوء على عصور ما قبل التاريخ ثم على الذين خلفوا وراءهم سجلات مكتوبة ٠

وكانت القلعة فى موكناى آهلة بالسكان فى ٣٠٠٠ ق ٠ م أى منذ خمسة آلاف عام وبعد مضى قرون عديدة هاجرت القبائل اليونانية الاولى ، فيما يبدو ، نحو سنة ٢٠٠٠ ق٠م ٠ وكان وصولهم بداية لعصر المدنية الذهبى ، وراحت موكناى تقيم العلاقات مع كريت رويدا رويدا كما أخذت

---

(١) الاسم الأصلى للأقزام فى ليل بوت — والقصة كما نعلم خرافية فى جملتها المراجع ٠

عن الجزيرة عاداتها وتقاليدها وفنها وخبرتها الصناعية وكتابتها ..... وموجز القول انها نقلت كل ما ينضوى تحت مفهوم الثقافة . وعلى الرغم من ذلك فان الحضارة الموكنية لم تبلغ ذروة مجدها الا بعد أن تحطمت قوة كريت وباتت الولايات حرة فى أن تطور نفسها مستقلة عن غيرها . وفى عام ١٣٥٠ ق.م اتسع نطاق المدينة وشيدت أسوارها الأسطورية المستديرة ببوابتها التى تعرف « ببوابة الأسد » . ولم تصدق الأجيال اليونانية التى خلفتهم أن أناسا كسائر بنى البشر تسنى لهم بناء مثل هذه الكتل الحجرية الضخمه ، فاذا هم ينسبون ذلك العمل الى العمالقة ، وهم العمالقة العـــور الذين أطلقوا عليهم جماعة سيكلوب أو « العيون المستديرة » أما قلعـــة تيرنيز فكانت تلفها أسوار مستديرة مماثلة ، ولعل تيرنيز وموكناى كانتا أقدم مدينتين كبيرتين محصنتين فى أوربا .

وكانت سلسلة كاملة من القلاع تمتد عبر اقليم ارجوليس من تيرنيز عن طريق نوبليا واسين وميدايا وأرجوس وبروسيمنا الى موكناى التى كانت اكبرها مساحة وأشدها بأسا . وتدل معظم هذه المواقع على أنها تعرضت ، ولا شك ، لتدمير عنيف حوالى سنة ١١٠٠ ق.م حين نهبت القلاع ثم أشعلت فيها النيران فأتت عليها . ولسنا ندرى الى متى ظلت موكنـاي غير آهـلة بالسكان ، ولكننا نعلم أن أناسا عادوا ليقطنوها فى الفترة ما بين ١١٠٠ ــ ٧٥٠ ق.م. وما أن أقبل عام ٤٦٨ ق.م حتى قامت مدينة آرجوس المجـاورة التى كانت تحسدها ، وشنت عليها هجوما فدمرتها ــ ولما قام عالم الجغرافية اليونانى باوزانيوس (Pousanias) بزيارة موقع تلك المدينة فى القرن الثانى الميلادى رآها وقد استحالت أنقاضا ــ ومن الغريب حقـــا ان المدينة لم يعد بناؤها ولبثت قابعة تحت الأنقاض حتى أصبحت فى النهاية تلا مثلها فى ذلك مثل طروادة .

ومما يدعو الى الدهشة أن القبور تكشف الكثير عن دقائق حيـــاة الناس اليومية ، فالقبور الستة التى عثر عليها شليمان فى ميسيتا والتى ترجع الى القرن السادس عشر قبل الميلاد تروى قصة حضارة برمتها ، وفيها تعثر على هياكل الانسان العظمية وقد تمددت على الظهر بينما تتجه رءوس غالبيتها صوب الشرق . لقد كان الناس يدفنون ومعهم أسلحتهم كما كانت وجوههم تستتر بأقنعة من ذهب. تلك الأقنعة ، كما يذكر هيرمان بنجستون، هى أولى المحاولات فى ميدان فن التصوير فى أوربا . ولقد تحللت الجماجم أما الأقنعـة فظلت على نحو يتسنى لنا معه رؤية وجوه الأمراء الموكينيين كماكانوا يبدون وهم على قيدالحياة. فهم ينتمون اما الى الجنس الشمالى أو الى جنس البحر الأبيض المتوسط ، ويمكن أن نميز بوضوح بين الأنماط المتباينة للحـــاهم . ولقـــد عثر فى تريبنيشتسى (Trebenishtshe)

بجنوب يوغوسلافيا على أقنعة مماثلة من الذهب ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد ٠

وكانت قبور موكناى تضم نتفا عديدة من الأوراق الذهبية المتناثرة حول الهياكل العظمية وفوقها وأسفلها ويبدو أن تلك النتف من الاوراق الذهبية كانت في وقت ما قد حيكت في الأكفان التى كانت الجثث تكفن فيها٠أما الأسلحة والمعدات التى عثر عليها الى جوار الميت فكانت تشمل آنية من المعدن وأوانى فخارية ودروعا وسيوفا وخناجر وسكاكين وأزاميل،ومن الواضح أن القبور كانت بمثابة مدافن الأسرة ، فكان القبر رقم ٤ يضم جثث خمسة أشخاص بالغين وطفلين بينما اكتست الجثث الثلاث التى عثر عليها فى القبر رقم ٣ بالحلى الذهبية ٠ وأمكن العثور على تاجين كبيرين من الذهب فوق جمجمتين بالاضافة الى كومة من الرماح عددها ٣٥ رمحا وجثتى طفلين وقد اكتستا بالذهب تماما ، مما يدل على أن الطفلين قد دفنا ليستريحا وقد غمرا برعاية تنم عن حب فائق ٠

أما نساء الحضارة الميسينية فقد اهتممن بالزينة اهتماما بالغا كما نستدل على ذلك من الملاقيط الفضية وأوانى الزينة الصغيرة والملاعق، ويشير المشط العاجى شبه المستدير والأقراط والعقود والخواتم والسبعة والثلاثون زرارا من الذهب ، التى عثر عليها فى اناء من المرمر الى أن الحلى وأدوات الزينة كانت واسعة الانتشار فى تلك المنطقة منذ ٣٥٠٠ سنة ٠ وبرغم ذلك فقد كان من النادر ، فيما يبدو ، أن تتطلع نساء ميسينا الى المرآة حيث لم يعثر على غير مرآة واحدة من المعدن ، بل ويشك علماء الآثار فيما اذا كان ما عثر عليه مرآة أو شيء آخر مغاير تماما ٠

وكان الرجال يرتدون مآزر قصيرة أو سراويل كما كان العرى فى عرفهم ظاهرة شائنة ، أما نساء الطبقة الراقية فكن يرتدين أقمصة طويلة وسترات خفيفة ذات أكمام قصيرة تكشف عن صدورهن فى بعض الأحيان ٠ ولا نعلم شيئا مما كانوا ينتعلون به فى أوائل العصر البرونزى وفى منتصفه ٠ لكن من الغريب حقا ان قطعا من الكتان لم تبل رغم تلك الفترة الطويلة ٠ وكان من بين الأشياء الأخرى التى وجدت فى المقابر قطع من الخشب (أجزاء صغيرة من الخشب السرو) وشفرات للحلاقة ، وورقة للشطرنج ، ومشابك وريش الخوذات الذهبية وآلاف الأدوات التى تستخدم فى الحياة اليومية ٠

ونعلم ان الميسينيين كانوا يألفون النسور والعصافير والفراش ونوعا من القواقع البحرية والأخطبوط ٠ ويبدو ان وحوش البحر قد لعبت دورا هاما فى حياتهم ٠ وكانت جدران مقابرهم الحجرية تحمل الصور القديمة لعربة حربية ذات عجلتين كما وجد فى هيلاس ، وكانت الثيران

والأغنام والخنازير والماعز والحمير هى حيواناتهم الأليفة الأساسية الى جانب تربيتهم للدجاج والبط والأوز ، ولقد عثر على صور كثيرة للخيل ، ويبوح ان الكلب كان دائما الصديق الوفى للانسان ، ومن ثم دأب حكام تلك الأزمنة السحيقة على أن يصطحبوا كلبهم المفضل معهم الى القبر كما يدل على ذلك ما عثر عليه من هياكل الكلاب العظمية .

ولقد أماطت القبور اللثام عن حياة غنية متنوعة على نحو يدعو الى الدهشة ونفض أبطال القديم عن أنفسهم طبقات الثرى والحجارة والأنقاض وأخذت الحياة تدب من جديد فى عالم ما قبل التاريخ الذى يرقى الى أربعة آلاف سنة خلت بعد أن ظل قابعا فى عالم الأساطير ردحا طويلا من الزمن .

اليونان

أول نظام ديمقراطي في العالم

لقد قاتلنا نحن الأثينيين ، ملك الفرس في ماراثون دون ان يشد احد ازرنا ، ولما عاد ولم تكن بالقوة التي تمكننا من الدفاع عن انفسنا برا ، ركبنا جميعا سفننا وخضنا مع اليونانيين الآخرين ، غمار معركة سلاميس البحرية ٠

ثوكيديديس ١ ، ٧٣

اليونان شبه جزيرة صخرية تكاد تكون خالية من الأشجار مجدبة عديمة الأهمية صغيرة الشأن منسية تقع في ركن قصي من البحر الأبيض المتوسط ٠ ومع ذلك فان تاريخ شبه الجزيرة يشكل أساس الحضـــارة الغربية ٠٠ بصرف النظر عن اعتقادنا بأن ذلك التاريخ امتد ستة قرون حسب ما جرى عليه العرف سابقا أو على أساس انه امتد قرابة ١٣٠٠ سنة كما تقطع الاكتشافات الحديثة ٠

وكما سبق أن ذكرنا فان تاريخ اليونان قد بدأ تقليديا سنة ٧٧٦ق٠م مع اقامة أول دورة أولمبية ، وانتهى بخضوع العـــالم اليوناني للســـيطرة الرومانية سنة ١٤٦ ق٠م ٠ وفي غضون ٦٠٠ عام صنع اليونان تاريخا أعظم من تاريخ أي شعب آخر في العالم الغربي ففي البدء كانت اليونان ، وقد اعتمدت على ثمار تجربتها عشرين قرنا ٠

ففي تلك البقعة من العالم استطاعت جماعة صغيرة نسبيا من أن تطيح بآلهة الشرق التي ظلت تفرض سلطانها على العالم آلاف السنين ٠ وشق اليونانيون طريقهم عبر مفاهيم الأساطير الشرقية الخاطئة المعقدة حتى

بلغوا حد الاعتقاد ان الكون منظم وبوسع الانسان ادراك كنهه باستخدام المنطق ، وسلم اليونانيون بمبدأ الفضيلة وكانوا أول من جعلوا الحقيقة العلمية هدف كل تفكير ، والى اليونانيين ندين بأفكارنا عن الحـــرية السياسية والمساواة امام القانون ، ولم يقلل مرور ألفى عام من عظمة هذه التركة التى لا تنضب ، وهى هذا الأساس الصلد للحيوية التاريخية العجيبة وهذه الحضارة الكلاسيكية فى البداية الأولى للفكر الغربى وهذه المعجزة الفكرية الممثلة فى اليونان ، هى التى تشكل دائما الأساس الذى لا غنى عنه لفهم الحاضر .

ونقل اليونانيون حصـــيلة معرفتهم الى الرومان ، وفى روما امتزج النظام الروحى لليونان بالمسيحية ، فى وحدة تدعم صرح الحضارة الغربية بل ان هذه الوحـــدة هى الحضارة الغربية بعينهـــا . فلولا هذا الأساس لرجعنا القهقرى ألفى عام ..

وفى غضون الألف سنة الثانية قبل الميلاد غزت اليونان موجة تلو الأخرى من المهاجرين .. وهم قبائل جبلية هندو ـ أوربية توغلت شطر الجنوب رويدا رويدا حتى احتلت البليبونيز فى النهاية . فقد وفد بعد الآخيين (Achaeans) الأيوليون (Aeolians) والأيونيون (Ionians) ثم الدوريون (Dorians) الذين منهم انحدر اليونانيون القدامى الذين استقروا فى البليبونيز وكريت ورودس وفى غيرها من الجزر العديدة ، وهذه الهجرة الدورية بسطت نفوذها على الحضارات المينوية والمسينية القديمة وأطاحت بالآخيين ممن كانوا قد سبقوهم الى ذلك المكان بقرون عديدة .

ولم يحدث يوما أن كونت القبائل اليونانية المتعددة دولة واحدة ، ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم شعبا واحدا وما عداهم أجانب متبربرين، فعلى الرغم مما كان بين القبائل اليونانية من اختلافات ، ربطت بينهم اللغة المشتركة والمعتقدات الدينية ومعبد دلفى (Delphi) والعصبة الأمفكتيونية، وهى نوع من عصبة الأمم ، واحتفالاتهم القـــومية العظمى ـ الأولمبية (Olympie) والبيثية (Pythian) والاستمية (Isthmian) والنيمية (Nemean) التى كان من أشهرها الاحتفالات الأولمبية . وكانت جميع القبائل التى تنطق باليونانية ويربط بينها معبد دلفى وعصبة الأمفكتيونيز والاحتفالات يلقبون أنفسهم بالهيلنيين ويطلقون على بلادهم اسم «هيلاس» أما لفظة « اغريق » التى نعرفهم بها فمصدرها ايطاليا حيث يحتمل أن أول من أقاموا مدينة يونانية فوق الأرض الايطالية هم الجراييون (Graiei) والترجمة اللاتينية لهذا الاسم هى جرايكى (Graeci) التى هى أساس كلمة « اغريق » (Greek) المعروفة لنا .

ولا تحدثنا معظم كتب التاريخ الا عما بلغته الشعوب اليونانية من تقدم مذهل ولو كان لنا أن نفهم سر الانتصارات الثقافية الهائلة التى حققها اليونانيون نتعين علينا محاولة تحليل الخصائص المميزة للقبيلتين السائدتين وهما : الدوريون والأيونيون ، وكان الدوريون شعبا يقطن الجبال ، بينما اتخذ الايونيون من المناطق الساحلية موطنا لهم ، وقد برهنت اسبرطة على ان الدوريين شعب عملى كادح طابعه التعـــاون والمحافظة ودماثة الخلق ، أما الأيونيون فربما كانوا أعنف طبعا وأوسـع خيالا ، وكانوا جوابين للبحار وتجارا لا يتقيدون بوطن وهم الذين يمثلون العنصر المثقف فى ذلك الخليط • ولقد قاموا برحلات واسعة وشاهدوا الجانب الأكبر من العالم وتحدثوا عن تجارتهم وعقبوا عليها وابتدعوا الدراما • ان هاتين القبيلتين الكبيرتين المتباينتين تمام التباين هما اللتان حـــددتا مصير اليونان ونجاحها فى نهاية المطاف ، فقد كانت القبيلتان مزيجا موفقا كما كان حال الانجلوساكسون والكلت فى المملكة المتحدة •• أى الانجليز والاسكتلنديون فى الوقت الراهن •

وانطلق اليونانيون يقيمون المستعمرات على سواحل آسيا الصغرى بجنوب ايطاليا وصقلية ، وعلى الشواطىء الشمالية لأفريقية ، بل توغلوا حتى بلغوا جبل طارق وأقاموا المستعمرات الايطالية التى تعرف بتارنتوم (Tarentum) وسيباريس (Sybaris) وكروتون (Croton) وكوماى (Cumae) ونيابوليس (Neaplis) الى جانب سيراكيوز (Syracuse) بصقلية وبرقة على ساحل أفريتيـــة الشـــمالى ، كمـــا كانت ماسيليا (Masilia) (مرسيليا الحديثة) مركزا لتجارة اليونانيين •

وعلى الرغم من ذلك لم يكن الوطن بالنسبة لليونانيين هو هيلاس ــ أو اليونان ــ بل كان هو المدينة أو دولة المدينة • فكانت اليـــونان منقسمة الى مئات من هذه الوحدات السياسية الصغيرة التى مرت عـــلى وجه العموم بأربع مراحل ، بدأت بالنظام الملكى فما لبث أن أزيح الملوك عن عروشهم فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد لتحل محله الملكية الأوليجاركية أى « نظام حكم الأقلية » وأفسحت الأوليجاركية بدورها الطريق للحكم الاستبدادى ، بيد ان السخط كان يعم دائما طبقة اجتماعية أو أخرى • وكان الطاغية يتبوأ السلطة على أساس قوة برنامجه فما ان كان يحنث بأى وعد قطعه على نفسه حتى يطاح به (بالاغتيال عادة) وبذلك يأتى دور الشعب وتطبق الديمقراطية أو «حكم الشعب» •• ولقد برهن تاريخ اليونان على ان الحكم الاستبدادى أو حكم طاغية هو المرحـــلة التمهيدية الأكيدة للديمقراطية ، وغالبـــا ما يحدث حكم الطاغية بين الأوليجاركية والديمقراطية •

وفى سـنة ٥٢٧ ق.م. سلم الطاغيـة الكهـل بيزاستراتوس (Peisistrtus) ، قبـل أن بقضى نحبـه ، مقاليد الحـكم لابنيه هيباس (Hippias) وهيبارخوس (Hipparchus) • وكرس هيبياس ، الابن الأكبر ، نفسه لشئون الدولة بينما آثر هيبارخوس الاهتمام بالشعر والغرام •

وفى ذلك الحين كان يعيش فى أثينا شاب وسيم اسمه هارموديوس (Harmodius) كان قد أحب أحد المواطنين اسـمه اريستوجيتون (Aristogeiton) وظلت الصداقة القوية تربط قلبى هذين الشابين اليونانيين حتى أخذ هيبارخوس يتغنى بمفاتن هارموديوس الخـلابة فما كان من الأخير الا أن زجره ونقل القصة كاملة الى صديقه اريستوجيتون الذى سرعان ما ملأت الغيرة قلبه غضبا •

ورفض هارموديوس أن يطارحه هيبارخوس الغرام مرة ثانية فقرر الأخير الانتقام ، وحدث أن كانت لمن أحبه أخت شابة عذراء وقع عليها الاختيار « لتحمل السلة » فى الموكب الدينى ، أثنـاء الباناثنايا (١) العظيم لسنة ٥١٤ ق•م • وسعى هيبارخوس لسحب هذا الشرف من الفتاة بحجة أنها « شر من أن تضطلع بتلك المهمة » ، تلك الاهانة التى ملأت هارموديوس وصديقه اريستوجيتون غضبا وحقدا • فعقدا العزم على الانتظار حتى يقبل يوم الاحتفال الكبير ليثأرا لنفسيهما من هيبارخوس ويطيحا بالطاغية • وكانت الفرصـة مواتية اذ كان يسمح لمن يحضر الاحتفال أن يحمل السلاح دون أن تحوم حوله الشبهات ، وما أن أتت الساعة حتى انهالا على هيبارخوس بوحشـية وراحا يطعنانه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة •

واستطاع أرستوجيتون الفرار لفترة ، أما هارموديوس فلقى مصرعه فى مكان الجريمة ، فاذا كانت مقاليد السلطة فى يد رجلين مستبدين ، فضلا عن كونهما شقيقين ، فلا جدوى من وراء قتل أحدهما ، ومن سوء الحظ فشلت محاولة قتل الأخ الأكبر فى وسـط الاضطراب ، وحينئذ أصبح هيبياس حذرا واستبد به الخوف • فأمر باعدام عدد كبير من الأثينيين وراح يعذب ارستوجيتون حتى فاضت روحه • ويقال ان فتاة حسناء اسمها نيايتا كانت قد وقعت فى غرام هارموديوس الوسيم ، نالت بدورها حظها من التعذيب لكنها أبت أن تفصح عن أسماء المتآمرين بل قطعت طرف لسانها فى اصرار وقذفت به فى وجوه معذبيها •

---

(١) الباناثنايا عيد كانت أثينا تحتفل به كل عام ، فى تاريخ يقع فيما يقابل شهرى يوليو/اغسطس حاليا ، باعتباره تاريخ ميلاد الالهة أثينا ــ وفى كل أربع سنوات كان هذا العيد يتخذ مظهرا أكثر روعة من الأعياد العادية ــ المراجع •

وظل الطاغية هيبياس ممسكا بأعنة الحكم ثلاث سنوات أخرى أقصى عن العرش سنة ٥١٠ ق ٠ م واستطاع ، تحت حراسة مشددة ، أن يبلغ بلاط داريوس ملك الفرس ، وبعد مضى عشرين عاما حين أصبح طاعنا فى السن تسنى له أن يرى قوة الديمقراطية الضاربة عندما شهد، وهو بين صفوف الفرس، بنى وطنه الأثينيين وهم يظفرون بمعركة ماراثون، وبات ما قام به هارموديوس وأرستوجيتون من عمل بطولى رمزا لحرية أثينا ٠ ولما ولى كلابستينز (Cleisthenes) الحكم فى أثينا سنة ٥٠٨ ق ٠ م أقام بها أول حكومة ديمقراطية فى تاريخ العالم ٠ ومنذ ذلك اليوم بات نفى الخطرين ، أى أولئك الذين أظهروا ما يدل على كونهم ثوريون مستبدون ، أمرا ممكنا ، فمن كانت الغالبية ، التى لم تكن تقل عن ٦ آلاف مواطن ، ترى أنه خطير يطرد من البلاد ليعيش بعيدا عنها لمدة عشر سنوات ٠ وكان الناس يدلون بأصواتهم بحفر أسمائهم على قطع من الطين ٠

وفى هذه الأثناء أصبحت اسبرطة أقوى ولاية عسكرية فى اليونان ، وفى وقت لا تزال فيه اسبرطة تتمسك بنظام الحكم الملكى البدائى وتلتزم بالقوانين الصارمة التى وضعها ليكورجوس (Lycurgus) وراحت تراقب أثينا ، منافستها الديمقراطية بغيرة متزايدة ٠

وكان هذا هو تقريبا الوقت الذى شرع اليونانيون فيه تنمية القدرتين اللتين قدر لهما أن تجعلا منهم أمة فريدة فى تاريخ العالم ٠

كان طاليس (Thales) أول فيلسوف يونانى ، أحد مواطنى ميليتوس الذى حظى باعجاب شامل فى اليونان عندما تنبأ بوقوع كسوف الشمس فى ٢٨ مايو سنة ٥٨٥ ق٠م وصدقت نبوءته ٠ وكان طاليس يعتقد ان للكواكب والمعادن والحيوانات روحا خالدة كالبشر تماما ، وحيث سئل عما هو عويص فى عرفه أجاب طاليس « أن أعرف نفسى » ولما سئل عما يراه أمرا سهلا قال : « أن أسدى النصح » ٠

كما كان فيثاغورس (Pythagoras) ـ الذى ولد بجزيرة ساموس فيلسوفا يونانيا لكنه انتقل ليعيش فى كروتون بايطاليا ابتداء من سنة ٥٢٩ ق٠م ٠ ويقال انه كان اكثر علماء عصره نشاطا ، فلم يكن الكلل يعرف اليه طريقا٠وفى كروتون أصبح مركزا لرابطة دينية نذرت نفسها للفلسفة ولنظام أخلاقى جديد فى آن واحد ٠ وجدير بالذكر أن خلود النفس كان أهم ما نادى به فيثاغورس قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون : فلم يكن ذكاؤه المدهش مقصورا على الرياضيات والهندسة بل تخطاهما الى وضع قوانين الموسيقى ودراسة تآلف الألحان ، كما كان فلكيا ذائع الصيت ٠

أما هيراكليتوس (Heraclitus) من أفسوس فقد كان ناسكا ومفكرا عاش في الفترة ما بين ٥٤٠ و ٤٧٥ ق٠م ولعله كان أبا الميتافيزيقيا او صاحب نظرية الوحدة المطلقة وتماســك الحياة برمتها ، فهو يرى أن الحرارة والبرودة والخير والشر والنهار والليل تكون جميعها وحـدة واحدة ، وما هي الا أنصاف شيء واحد يكمل كل منها الآخر ٠ كما كان يعتقد أن النار هي المادة الأساسية وأن الايقاع هو منطق الكون ٠

وكانت حياة هيراكليتوس المنعزلة واحتقاره للانسانية ، وعمق فلسفته وألفاظه المبهمة العابسة سببا في أن يلقب بالفيلسوف العابس ، بينما كان اليونانيون يطلقون على ديموكريتوس (Democritus) المنتمي الى أبدير، والذي كان يعيش في تماس نحو سنة ٤٥٠ ق٠م «بالفيلسوف الضاحك» لقد جادت عبقرية ديموكريتوس باثنين وسبعين مؤلفا من بين موضوعاتها دراسة الذرات وفلســفة الكائنات وأصــل الكون والنفس والعواطف والأخلاق وعلم اللاهوت ، وكان يرى أن الطبقات العليا للهواء تسكنها مخلوقات تتكون من أدق الذرات ٠ ومن ثم فهي أقل عرضة للتحلل من بني الانسان ، وان كانت برغم ذلك ، فانية غير خالدة ٠

وأعظم شاعرة بين اليونانيين هي سابهو (Sappho) التي ولدت بليسبوس جزيرة الخمر والزهور ، نحو سنة ٦٣٥ ق٠م ويقال انها نظمت تسعة دواوين تضم قصائد وأمثالا ومراثي ٠ والى عهد قريب لم نكن نعرف من أشعارها الا ما نقله المؤلفون القدامى ، كما لم يتم العثــور على أوراق البردي في مصر التي تحمل نصوصا صحيحة من مؤلفات ســـابهو الا في غضون الخمسين سنة الأخيرة ٠ وبات اليوم في اكسفورد وبرلين وفلورنسا وهال وجراتس أجزاء من تلك الأوراق ٠

وكانت سابهو من أعظم العشاق في التاريخ بيد أنها نذرت حياتها لتهب الحب للآخرين ، وربما كانت أول امرأة في أوربا تضع نفسها ، مع ابتعادها عن الرجال ، في خدمة أفروديت ، وتخلد ذلك الحب في الشعر٠ كانت كاهنة وشاعرة في آن واحد ، وانطلقت الفتيات في جزيرة ليبسبوس يكون جمعيات مقدسة سميت (Thiasoi) وهدفها الاعداد للزواج ٠ كانت هذه الجمعيات تعبد أفروديت وتعد عرائس المســـتقبل للزواج وتشرف على تعليمهن وتغرس في نفوسهن جميع ألوان الفنون الجميلة بما في ذلك الموسيقا والغناء والرقص الجماعي ٠ كما كانت بمثابة مدارس للسلوك والرشاقة والجاذبية أما عاصمة ليسبوس ، ميتلين (Mytilene) فكانت تضم عددا من تلك المدارس التي كان أهمها يخضع لادارة سابهـو التي كانت شهرتها قد اطبقت على الآفاق٠ وعلى الرغم مما لحق باسمها من سب وافتراء خلال القرون اللاحقة فلعلها كانت أعظم معلمة مخلصة في شئون المرأة في التاريخ ، وبتكريس نفسها لتعليم الفتيات وتهذيبهن

كانت أول امرأة تختبر الآلام وتبلغ التسامي ، وهذا هو حـظ المعلمات جميعهن • كانت سابهو تدرك النقائض الكامنة الراسخة فى نفوس البشر وعرفت السبيل الى الصفح عنها كما كان يستبد بها القلق ويعصف بها الحزن ويدفعها الحنين وتقبل على العيادة ، كما كانت طويلة البال ، رقيقة التوبيخ لا تدخر جهدا فى مواساة غيرها من الناس ، كانت ترقب فتياتها فى غدوهن ورواحهن بينما ظلت وحيدة تحس بالفراغ ، بيد أن حياة الآخرين كانت دائما تثير اهتمامها وتشدها اليها •

وتحدث سترابو (Strabo) عالم الجغرافيا اليونانى الشـهير (٦٣ ق•م — ١٩ م) عن سابهو فقال : « لم نسمع عن شاعرة واحدة تضارعها فى عصور التاريخ الطويلة » ، ووصفها أفلاطون « بعروس الشعر والأدب العاشرة» ولما وافتها المنية فى مبتلين كرموها ودفنت كما يدفن الأبطال الصناديد ، ولم يبق من مؤلفات هذه السيدة العظيمة الا جزء يسير عبثت به يد الزمن ، حتى أن أشعار سابهو « طاهرة الذيل » رقيقـة الابتسامة ، على حد وصف الشاعر اليونانى الكايوس (Alcaeus) ولن يتسنى لنا الالمام بها كلها ، بيد أن عصرنا الذى لا يثق بأحد ولا يؤمن فى الواقع بشىء عاد ليتناول حب سابهو المرهف ، واخلاصها الطاهر ، وحياتها الخاصة الزاخرة بالأحلام والرؤى ، وعودها النحيل الذى كان يتوق الى الحب والصـلاح الخالدين وراح يحرقهـا على مذبح التحريف والتشويه • وظل الحال هـكذا حتى اكتشف جرنيفيل وهنت (Hunt) بعض الأكفان من الورق المضغوط فى اوكسيرنكس (Oxyrhynchus) (١) بمصر ، تلك الأكفان التى كانت تتألف من أوراق البردى القديمة التى تحمل نصوص بعض قصائد سابهو •

وبينما أخذت الروح اليونانية وأسلوب الحكم اليونانى طريقهما الى الخلود اذا — بالسحب التى تنذر بالشؤم تتجمع فى سـماء الشرق • فكانت بلاد الفرس ، الدولة الآسيوية الكبرى آنذاك ، قد أخذت ترقب عن كثب نهضة شعوب اليونان الحرة اذ كانت أثينا تمد يد العون للمغلوبين على أمرهم من اليونانيين فى آسيا الصغرى مما أسفر عن حروب بين الفرس واليونان كانت تمثل ذروة الصراع بين أعظم دولتين فى العالم ومبادئهما •

ولم يكن ثمة تعاطف أو تفاهم بين شعبى اليـونان وفارس فكان اليونانيون يرون ان ما حققوه من انتصارات على الفرس بقيادة داتيس (Dat is) وأرتافيرنس (Artaphernes) عام ٤٩٠ ق•م ما هو الا نتيجة

---

(١) فى مصر الوسطى بمنطقة الفيوم وهى مكان البهنسـا الحالية وكانت عاصمة الاقليم ١٩ من اقاليم الوجه القبلى — المراجع •

لتفوقهم الأخلاقى وكان يستبد بهم الاحساس بأن رعايا الحاكم المستبد يبرهنون ، ولا شك ، فى النهاية ، على أنهم أقل شأنا من مواطنى الدول الحرة ومن ثم كان الفرس يخوضون غمار الحرب عن ارغام وقسر • أما اليونانيون فعن ايمان واقتناع •

ولقد كانت معارك ماراثون وثيرموبيلاى وسلاميس وبلاتايا وميكالى تمثل صراعا بين العملاق الفارسى والقزم اليونانى • وكان الظفر حليف القزم فى النهاية ، فما سر ذلك ؟ السبب هو أن القزم اليونانى كان يفوق العملاق الفارسى أخلاقيا وفكريا •

وذكر الباحث الألمانى الكلاسيكى العظيم ، أولريخ فون فيلاموفتز مولندورف « ان أيام ماراثون وسلاميس قد صنعت عصرا برمته اذ أكدت بالنسبة للحاضر والمستقبل أنه سوف تكون هنالك ثقافة أوربية مستقلة ونظام سياسى واجتماعى لا يضارعه ما كان لشعوب الشرق ، الآرية والسامية على السواء ، من ثقافة ونظم •

اليونان

عصر بركليس

ان ذلك هو ما يعنيه الخلود على الأرض ·· ان يسمى
احد العصــور الحضارية العظيمة باسم بركليس ــ ان
الرجال الذين بلغوا ذروة العظمة لا يمكن بحال تعويضهم

« ليوبولد فون رانكه ١٧٩٥ ــ ١٨٨٦ »

كان ثيمستو كليس (Themistocles) أعظم ساسة اليونان ، وواحدا من أوائل الشخصيات التى ظهرت على مسرح التاريخ الأوربى ، أنه الرجل الذى أرسى حجر الأساس لأهمية أثينا التى عمت أرجاء العالم وكان موهوبا الى درجة ان حكمته كانت تبدو تهورا وتدنو من الخيانة العظمى ، ولم يكن فى الغالب الاعم يلتزم بالمبادىء فيما كان يستخدم من أساليب لبلوغ مرماه ، لكن تفكيره كان على نحو غير مألوف من المرونة واذا لم يكن احد قبله قدم لأثينا مثل هذه الخدمات العظيمة فلم يكن هناك أيضا أحد قبله قد طالب وحصل فى مقابل ذلك،على مثل مانال من أجر باهظ· كان يعتبر أنانيا وشرها وماكرا وغير متبصر بعواقب الأمور ، كما كان حتى فى شبابه ، تواقا الى المجد والشهرة · وبعد موقعة ماراثون حين كان يجول بالنهار غارقا فى تفكر قابض كئيب ويقضى الليــل فى أرق وسهاد ، ساله أحد أصدقائه عما دهاه فأجاب بأن التفكير فيما جلبه النصر لميتياديس (Militiades) لا يبارحه ·

ولعل ثيمستوكليس ولد سنة ٥١٤ ق·م ، أما عن حياته المبكرة فلا نكاد نعرف شيئا · بيد أنه شق طريقه الى السلطة بعنف ، فقد كان

يدين بأفكار معينة وعقد العزم على أن يخرج بهـا إلى حيز التنفيـذ ، وكانت اليونان عن بكرة أبيها ترى الخطر الذى يتهددها من الشرق حيث انطلقت امبراطورية الفرس ، بكل ما تملك من مصادر غنية ، تبنى جيوشا قوية وأساطيل ماهرة • بيد أن ثيمستوكليس دون سواه هو الذى كان يعلم ، بما يتحتم الاضطلاع به ، وراح بمفرده يضع خطة الاجراءات المضادة الفعالة وتسنى له بالحجة القوية اقناع شعب أثينا ببنـاء مائتى سفينة وتحصين مينائهم وتشييد أسـوار أكثر ارتفاعا وقضى بأن تكرس أثينا كل طاقاتها حتى تصبح قوة بحرية • وهكذا أضحت بيرايوس (Piraeus) معقلا بحريا ، وأثينا دولة بحرية من الطراز الأول ، وثيمستوكليس هو أول سياسى محنك عرفته اليونان •

وسرعان ما أبحرت سفن أثينا التجارية الى جميع أنحاء العالم المعروف فبلغت آسيا وتوغلت صوب الغرب حتى « أعمدة هيرقل » وأخذت خزائن المدينة تمتلىء بالذهب • وخرج الجميع ، بما فى ذلك النساء والأطفال للعمل فى الأسواق الجديدة•لقد كانت الدقيقة فى حياتهم ثمينة•وارتفعت الأرصفة الضخمة والمخازن الواسـعة جنبـا الى جنب مع الترسانات والأحواض الجافة التى لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل •

وراح أهل اسبرطة يرقبون قوة أثينا المتزايدة بمشاعر مضطربة ، بيـد ان ديبلوماسية ثيمستوكليس أثبتت انها أعظم من حسد سبرطة ، وما لبث ثيمستوكليس أن انتصر فى معركة سـلاميس البحرية • ولما اقترب الأسطول الفارسى المهول من الحاق كارثة اتجه الاثينيون وقد خيم عليهم اليأس والقنوط الى كاهن دلفى الذى تنبأ بأن كل شىء قد ضاع وولى ، وحين طلبوا منه النصيحة للمرة الاخيرة أشار بضرورة أن يختفى الاثينيون خلف الأسوار الخشبية • أما ثيمستوكليس الذى لم تعيه الحيلة أبدا فسرعان ما فسر النصيحة على النحو التالى : ليست الأسوار الخشبية غير السفن ، ويتعين على الأثينيين جميعا أن يركبوها • فاذا بآلاف الأثينيين يهجرون ديارهم تاركين الفرس ينزلون بأرضهم دون مقاومة • ويشعلون النيران فى الاكربول (قلعة أثينا القديمة) بمعابدها وأشجارها المقدسة •

ونصب اكسرتيس ، ملك الفرس ، عرشه فوق قمة الجبال المطلة على خليج سلاميس آملا أن يتسنى له ، من هذا الموقع الممتاز ، أن يرى بعينى رأسه الضربة القاضية وهى توجه الى هيلاس ، والأسطول اليونانى هو يغوص الى الأعماق والسفن الفينيقية وقد حققت النصر • بيد أن الاسطول الفارسى الضخم لم ينتشر بانتظام فى الخليج الضيق فانتابته الفوضى وعمه الاضطراب وسرعان ما غربت شمس ذلك اليوم •

وعلى الرغم من التكريم البالغ الذى كاله اليونانيون لثيمستوكليس

بعد انتصاره سرعان ما آخذوا يرتابون فى أمره وتساورهم الشكوك حوله. وكان الأسبرطيون ، أشد المنافسين لأثينا ، هم الذين حاولوا فى النهاية نزع الثقـــة من الســـياسى المحنك واكتشفوا ان حاكمهم باوزانياس (Pausanias) كان على اتصال سرى بالفرس وأكدوا أن ثيمستوكليس كان بدوره شريكا فى مؤامرة مع ملك الفرس ، وتناهى هذا النبأ الى سمع الاثينيين فصدرت الأوامر بالقبض على ثيمستوكليس ، وبذلك انتقمت اسبرطة لنفسها من مشيد أسوار أثينا العظيم ــ أما الملك باوزانياس فقد سجن فى معبد خالكيوكوس بأثينا حيث تركه الاسبرطيون يموت جوعا ٠

ولاذ ثيمستوكليس بالفـــرار الى آســـيا وأبلغ ارتحشستار ، ابن اكسيركيس ، أن اليونانيين يضطهدونه من جراء صداقته للفرس ، وأعجب الملك الشرقى بذكاء ثيمستوكليس الوقاد (وكان الزعيم اليونانى قد تعلم فى هذه الأثناء الحديث بالفارسية) فوافق على استقباله ونصبه أميرا على مدن كبيرة فى آسيا الصغرى ، وعاهد ثيمستوكليس ملك الفرس بأن يعمل مستشارا له ليعينه على قهر اليونان قاطبة ، ولكن قبل أن يخرج بخططه الانتقامية ضـــد وطنه الأصلى الى حيز التنفيــذ عاجله الموت فى مجنيسيا نحو عام ٤٦٠ ق ٠ م ٠

وكان ثيمستوكليس قد قارب الخامسة والستين من عمره عنـــدما قضى نحبه ، ذلك الرجل الذى كان موضع اعجاب شديد وكراهية مريرة فى ربوع عالم البحر المتوسط، لقد عبده أهل مجنيسيا كاله واقاموا نصبا تذكاريا رائعا تكريما له ، وأما اليونانيون فلم يسمحوا بدفن جثمانه فى موطنه ، فما كان من بعض أصدقائه الا أن عادوا برفاته سرا الى اتيكا كما أن ضريحه فى بيرايوس قد زين وكرم فيما بعد ٠

وأحس ثوكديديس ، المؤرخ الأثينى ، وهــو يكتب بعــد وفاة ثيمستوكليس بنحو ٤٠ عاما بأن ذلك السياسى كان جديرا بأبلغ الثناء وأعظمه ٠ وأشار الى أن ثيمستوكليس كان يتحلى بالقدرة عــلى اتخاذ القرارات العاجلة عند مواجهة كارثة مفاجئة ــ وبموهبــة التكهن الدقيق بالأحداث ، بل وفى المجال الذى لم تكن له فيه خبرة مباشرة جاء حكمه فى الغالب الأعم صائبا لا يقبل التعديل ، ويرجح ثوكديديس ان ثيمستوكليس قد قتل نفسه بالسم اذ تعذر عليه الوفاء بوعده لملك الفرس ويخضـــع اليونان بأسرها لسلطانه ، لكن ثوكديديس كان يونانيا ومن المسلم به انه لم يكن شديد الحماس لرثاء ثيمستوكليس على الرغم من اعجابه البالغ بالبطل الظافر ، ببطل النصر فى سلاميس ، وعلى هذا الأساس يرجح أن مؤسس القوة البحرية اليـــونانية قد مات موتا طبيعيا يحوطه الثراء الفاحش والترف العظيم ٠

وليس من شـــك فى أن للمعلمين تأثيرهم البالغ على تنمية أفكار تلاميذهم وشخصياتهم بيد أن التطور الفكرى للتلميذ غالبا ما يكون بقـدر أهمية معلمه • تلك هي الحقيقة التى أوجزها تلميذ الفيلسوف اليونانى ، أناكساجوراس ، الذى ولد سنة ٥٠٠ ق.م •

وكلنا نعلم بأن القلق هو السلسلة التى يشدها كل منا خلفه طيلة حياته • وكان أناكساجوراس ينادى بأن الأشياء التى نمتلىء منها خوفا من المستقبل المجهول انما هى فى حقيقتها أحداث طبيعية ، ومن ثم لا حاجة الى أن نخشاها أكثر من الطبيعة ذاتها ولا ينبغى أن ندعها تعكر صفو حياتنا• وتشبع تلميذه بركليس بهذه الفلسفة فى سن مبكرة وشب رجلا متحررا من الخرافة ، لا يعرف القلق ولا تساوره الشكوك • وليس بمستغرب أن يرتقى الرجل الذى سار على تعاليم الفيلسوف العظيم بكل اخلاص وأمانة قمة المجد السياسى بسرعة فائقـــة ــ كان بركليس ديمقراطيا ينظر الى الشعب (demos) ككيان مستقل ينبغى الظفر بعطفه وتأييده المرة تلو الأخرى •• ولم يكن ، دون ريب ، أمرا هينا توجيه شعب أثينا والتأثير فيه • ومع ذلك يحدثنا ثوكديديس أن بركليس لم يتبع الجماهير وانما الجماهير هى التى سارت من خلفه • لقد كانت السلطة مركزة فى الشعب بيد أن بركليس وجه المجلس النيابى على النحو الذى أصبحت معه قــوة الشعب أساسا لسلطانه ، وقلما شهد التاريخ ما يضارع مثل هذا التعاون البناء بين الشعب والفرد •

ولم يكن بركليس يعرف طريقـــا غير الذى كان يمتد من داره الى المجلس حيث كان يخطب ببراعة لم يرق اليها أى خطيب سبقه ، وكان يأمل دائما ألا تفلت من بين شفتيه كلمة نابية لا تليق ، ولم يحدث قط أن أنغمس فى نوبات عصبية أو حماسية ، فلا مراء فى أنه كان تشرشل عصره من حيث كونه عضو برلمان نابه يتغاضى عن الاساءة وعما يلقاه من اهانة دون التحول قط عن هدفه ، كما كان عادة واحدا من القادة وكبار المسئولين فى الحكومة (Strategoi) الذين لم يتجاوز عددهم العشرة ، فكان مسئولا عن الحفاظ على الأمن فى دولة المدينة وعن الاشراف على الاحتفالات العامة ــ وهى فى غاية الاهمية ــ والاهم من ذلك أنه كان منوطا بتدبير شئون الخزانة •

وكان بركليس يدرك ، مثله فى ذلك مثل ثيمستوكليس من قبله ، أن القوة البحرية أهم لأثينا من القوة البرية ، وانه لا غنى عن أسطول دائب الحركة من أجل المحافظة على سلامة أثينا وأمنها •

وفى ظل بركليس تطورت الفنون التشكيلية فى اليونان وارتقت الى

درجة لم تصل اليها قبل عهده أو بعده ، وفى عصره الذهبى أعاد الاثينيون أبناء الأكروبول الذى كان الفرس قد دمروه ..

وفوق هذا الاكروبول أقيم فى الفترة مابين ٤٤٧ و ٤٣٧ ق.م بناء مذهل باشراف اكتينوس وكاليكراتس هو مبنى « البارثنون » ، المعبد الرخامى الهائل الذى كرس « لأثينا بارثنوس » الهـة أثينا الحامية . ولعله أعظم التصميمات المعمارية فى أوروبا كمالا واتقانا فدرجات السلم الأفقية التى تكون الطبقة السفلى من البناء قد قوست فى وسطها قليلا الى أعلى لتحول دون خداع البصر الذى يجعلها تبدو ـ ان خلت من هـذا التقوس ـ كأنها مقعرة الى حد ما ، كذلك لم تكن أعمدة البارثنون عمودية تماما . بل كانت تميل قليلا الى الداخل لأن الأعمدة الرأسية تبدو كأنها تميل الى الخارج ـ وفى قدس الأقداس بالمعبد أقيم فى ٤٣٨ م تمثال ضخم للالهة أثينا يكاد ارتفاعه يبلغ ٤٠٠ قدم قام النحات فيدياس بصنعه من الخشب والذهب والعاج وبعد أن حظـر الامبراطور تيودوسيوس الثانى (Theodosius) العبـادات الوثنية جميعـا نقـل التمثال الى القسطنطينية سنة ٤٣٥ م . ومنذ ذلك الحين اختفى التمثال ولم يعثر له على أثر .

واشترك فى تنفيذ اللوحات الفنية والتماثيل فى البارثنون فنانون من كل مرسم فى أثينا كانوا يزاولون نشاطهم تحت اشراف فيدياس . وكان اليونانيون يقيمون أعيادا قومية هامة فى أولمبيا ودلفى وفيميا وخليج كورنثوس .. كمـا كان لأثينا عيـدها الخاص وهو الباناثنايا ، الذى كان يقام كل أربع سنوات وأصبح حدثا عالميا مشهودا ، فلا غرابة ، اذن أن يكون موكب احتفال الباناثنايا هو الذى أوحى بفكرة افريز البارثنون الذى يبلغ طوله أصلا ٥٢٥ قدما ، ولم يبق اليوم فى موضعه غير طـرف من الجانب الغربى الضيق حيث أن الجزء الأكبر من الافريز ، مع معظم ما بقى من تماثيل ، قد فكه لورد الجين وقام بنقله الى لندن سنة ١٨١٦ حيث يستقر اليوم فى المتحف البريطانى .

وكان الاركثيوم الذى تم تشييده فوق الاكروبول قد سـمى باسم الملك اركثيوس (Erechtheus) وفى مكان هذا القصر الملكى القديم كانت توجد ذات يوم أشياء مقدسة عديدة مثل شجرة زيتون أثينا المقدسة والبقعة التى عندها فاق بوسيدون (Poseidon) الصـخرة ، وقبر الملك سكروبس ، والمذابح المكدسـة لأثينـا وبوزيدون واركثيوس نفسه . وكان بركليس يهدف الى جميع هذه الأماكن المقدسة داخل بناء واحد هو الاركثوم بيد أن خطته لم تخرج الى حيز التنفيذ الا بعد وفاته ، فيما بين ٤٢١ و ٤٠٦ ق.م .

كما أقام بركليس البروبيلايا Propyiaea وهى البوابة الكبيرة التى كانت تمثل مدخل الأكروبول وواجهته الغربية والتى عهد ببنائها الى منيسكلس ـ مهندسه المعمارى ، تلك البوابة التى أضحت نموذجا يحتذى فى بناء البوابات جميعها حتى هذا اليوم •

والى الشمال الغربى من الاكروبول كان يحلق ، فوق تل السوق التسيوم (Theseum) وهو محراب مكرس لهيفايستوس (Hephaestus) ساد الظن الخاطىء فى بادىء الأمر ، أنه معبد ثسيوس لما بين الاسمين من تشابه • وانه أفضل معابد اليونان حالا • والى الجنوب الشرقى عند أسفل القلعة أقيم الأوديوم (Odeum) تلك القاعة التى كانت تعد أجمل بناء فى أثينا ، والتى كانت تقام بها فرائض عقيدة ديونيسوس (Dionysus) اليونانية • ولقد أمكن اكتشاف الأوديوم لكن لم يبق منه غير أساساته •

وقدم الأثينيون ، شأنهم شأن أعضاء حلف أتيكا التضحيات المالية الكبرى فى سبيل بناء تلك الأماكن المقدسة ، وتدلنا تكاليف المبانى التى ظلت محفورة فوق الحجر على أن البارثنون قد تكلف وحده ٤٦٩ وزنة أو نحو ٥٠٠ ألف دولار ، وهو مبلغ المال الفانى الذى بذل من أجل عمل فنى خالد •

وكانت اليونان مصدر ما نعرفه من تعبيرات مثل جيمنازيوم وليسيوم وأكاديمية وفى عهد بركليس ارتفعت تلك المؤسسات حجرا حجرا فوق تربة أثينا الجرداء لتثقف الشباب عقليا وبدنيا وتنير طريق العلم أمام الحضارة الغربية بأسرها • وفى الوقت الذى كانت فيه الأماكن الأخرى من اليونان لا تزال قرى كبيرة أو مدنا صغيرة صارت أثينا عاصمة حقيقية وان بدت صغيرة بالقياس الى مدننا الحديثة الكبيرة والفضل فيما بلغته أثينا حتى أصبحت معجزة العالم الثقافية فى عهد بركليس يعزى الى عدد كبير من العباقرة وذوى المواهب الخلاقة • وفى مقدمة المهندسين والفنانين يقف فيدياس الذى صنع مثل هذا العدد الضخم من التماثيل الرائعة وأشرف على سير عملية البناء فوق الاكروبول وقام بنحت معظم تماثيل البارثنون بمعاونة تلاميذه ، وكان بركليس يقف من خلف فيدياس ويؤازره دائما اذ أنه قد عقد العزم على أن تفوق مبانيه اقصور برسيبوليس (Persopolis) وهذا هو وجه آخر من أوجه المنافسة بين اليونان وبلاد الفرس •

وتكشف لنا كتب التاريخ عن عبقرية بركليس المتعددة الجوانب وتنعته بأنه رجل أوتى قدرة فائقة على ضبط النفس وحكمة بالغة وحصانة هائلة ، بيد أنها تغفل الجانب الانسانى فيه ، ومن الواضح أن أول زواج لبركليس لم يكن أسعد زيجاته ، كما لم يخطر له ببال أنه قد يقع يوما

فى غرام امرأة غير اثينية ، اذ كان قد سن قانونا يحرم الزواج بين الاثينيين وغير الاثينيين ، وعندما انفصل عن زوجته الاولى أحب أمرأة من ميلتيوس تسمى اسباسيا (Aspasia) وبذلك وقع ضحية تشريعه اذ كان من المستحيل أن تصبح أسباسيا ، بحكم أنها غير أثينية ، زوجا له ، وكان من الطبيعى أن تلوك ألسنة الأثينيين تلك العلاقة • فقد كانت أسباسيا أجنبية • وقد يكون حقيقة انها كانت قبل صداقتها لبركليس تزاول مهنة شائنـة اذ كانت تدير مؤسسة كبيرة للرفيقات (Hetaerae) وهؤلاء كن فتيات لا ينتمين لأية أسرة وان كن يتميزن فى الغالب الأعم بخصائص فكرية عظيمة •

وكانت أسباسيا امرأة حسناء ومثقفة ، افتتحت مدرسة للبلاغة والفلسفة وجذبت انيها الفتيات والنساء والرجال ، أصبح من شهرتها كمضيفة أن الفيلسوف سقراط نفسه أعلن أنه قد تعلم منها فن الكلام ، وجمعت أسباسيا حولها البارزين فى عصرها من العلماء والفنانيين والأدباء ، ناهيك عن السفسطائيين الذين يصفهم ادوار ماير « بأولئك المجددين الوقحين الذين حاجوا فى المعتقدات القديمة » •

وكان المؤرخ هيرودوت والشاعر العظيم سوفوكليس والفيلسوف اناكساجوراس من كلازوميناى ، وميبود اموس من ميليتوس ، أشهر مخططى المدن فى عصره ، وفيدياس أعظم المثالين •• كان هؤلاء جميعا وبلا أستثناء من حاشية بركليس واسباسيا • ولم يكن للمرأة نصيب يذكر فى المجتمع الأثينى فراحت أسباسيا الأجنبية تنشر تقليدا جديدا يسمح للمرأة ان تلعب دورها فى المجتمع • ولقد وصفها الشاعر كراتينوس « بالمحبوبة » كما ملأت شهرتها الآفاق حتى ان قورش الصغير المطالب بعرش الفرس أطلق اسمها على اسم عشيقته المقربة الى نفسه •

وقضى بركليس العامين الأخيرين من حياته فى غمار حروب بين أثينا وأسبرطة دامت من ٤٣١ الى ٤٠٤ ق•م • ، والتى كانت الغلبة فيها لاسبرطة فى النهاية بيد أن الظافر الحقيقى كان طرفا ثالثا هى امبراطورية الفرس •

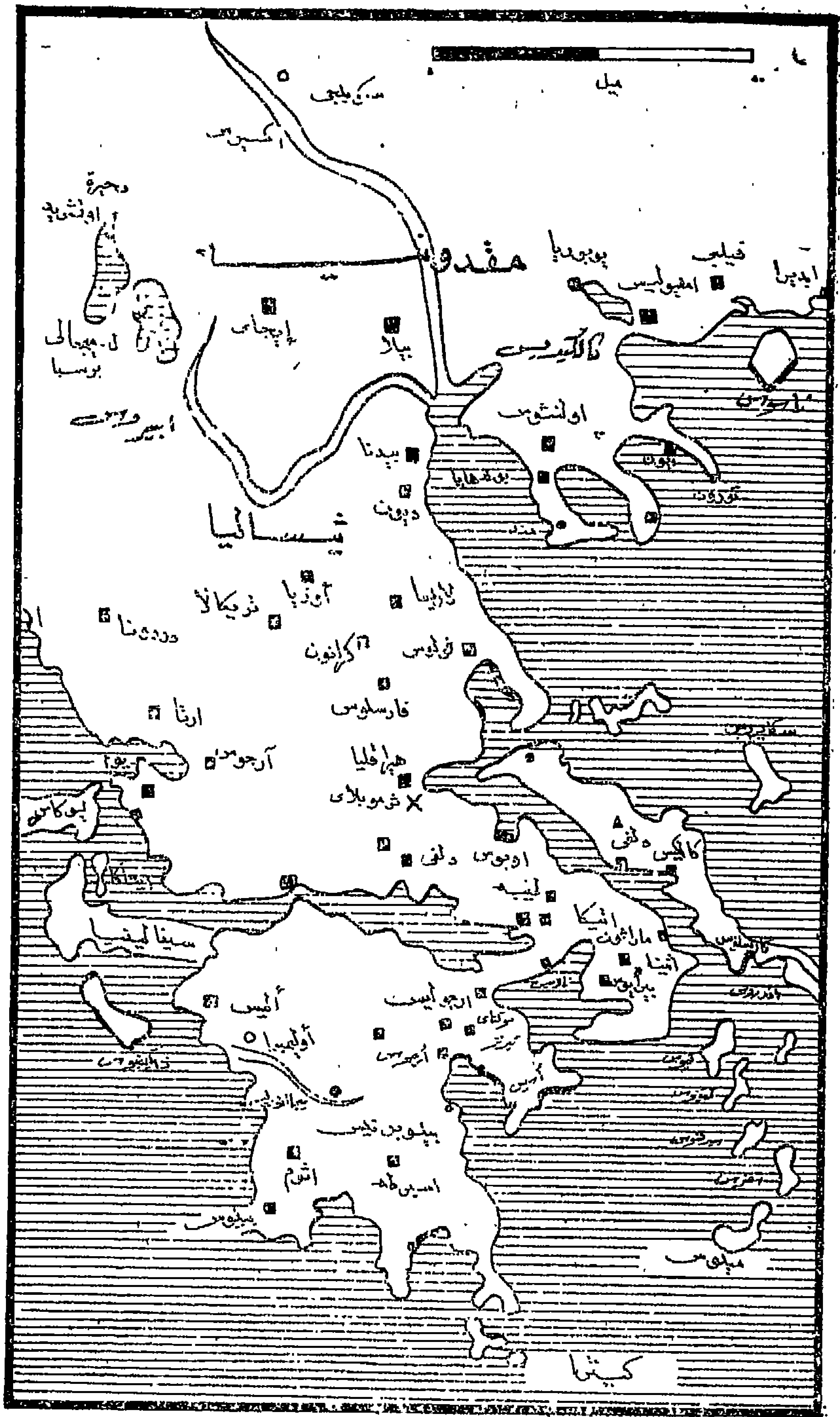
ولقد وجد الصراع المرير فى توكيديديس ، مؤرخا عالج التاريخ كعلم لأول مرة وعلى حد وصفه « ليس بالضرورة سار أو مسليا بل كعمل يعول عليه مفيد ودائم النفع ، وذهب هيجل الى حد القول ان مؤلفات ثوكيديديس انما هى الكسب الذى ظفرت به الانسانية من الحرب البليبونيزية التى تمخضت ــ الى جانب ذلك ــ عن هزات عنيفة وأعمال وحشية ومرض وشقاء ، كما أخذت اليونان منذئذ تنسحب من المسرح العالمى وترقب ، من على بعد ، فارس ومن بعدها مقدونيا ثم ايطاليا كل تتخذ مكانها لتؤدى دورها فى مسرحية البشرية لفترة ما قبل المسيحية •

وكان وقع الحرب عنيفا مفجعا اذ لم تكن اسبرطة أو أثينا راغبتين فى القتال ، فاسبرطه قد تناقص أهلها وأصبحت تخشى أن يقوم عبيدها أو رقيقها بثورات جديدة فضلا عن أن مركزها الاقتصادى والمالى لم يكن قويا وكان حلف البيليونيز أقل جدارة فى الركون اليه عن حلف أتيكا البحرى التابع لأثينا • كذلك يلوح جليا أن اسبرطة لم تدخل الحرب مختارة •

ولم يكن بركليس ، على الجانب الأثينى ، يرغب ، بدوره فى القتال • ومن الواضح أن كورنتوس وحلبفاتها ، الذين كانوا لا يطيقون تجارة أثينا العالمية الناجحة ، هم الذين حرضوا على الحرب ، بيد أن كورنتوس دفعت اسبرطة على خوض غمار الحرب معها ، وما كان بوسع بركليس تجنب الصراع دون أن تلحق بأثينا مهانة بالغة ، كانت هذه هى الاسباب المباشرة للحرب وأما الدوافع الخفية فتكمن ، ولا ريب ، فى المنافســـة بين أثينا واسبرطة وفيما تنتهجانه من نظم سياسية متعارضة •

وفى العام الثانى من هذا الصراع الانتحارى أصبح هدف بركليس مقصورا على الدفاع عن أثينا ، ولما كانت اسبرطة هى القوة البرية المسيطرة وأثينا تبسط سيطرتها على البحر قرر بركليس التضحية بالمنطقة الريفية المكشوفة للعدو ، ومن ثم أمر أهــل الريف بترك مزارعهم والالتجــاء الى المنطقة المثلثة المحصورة بين السورين الكبيرين اللذين يربطان أثينا ببيرايوس (Piraeus) وفاليرون (Phaleron) اذ طالما ظل الأسطول الأثينى فى مأمن من الهزيمة ، وفشل الأعداء فى فرض حصار ناجح على هـــذا المعقل الهائل ، حيث ان القوات البحرية كانت تمول وتقوم بحماية طرفه الوحيد المكشوف الذى كان يطل على البحر • وقد بدأت موجة كبيرة من الهجرة حين تدفقت الآلاف الى أثينا تحمل معها أمتعتها للاحتمـــاء خلف الأسوار ، كما قام الكثيرون منهم بفك ديارهم وجرها الى منطقة الأمان •

وعلى حين غرة ألمت بأثينا كارثة لم تكن فى الحسبان ، حين انتشر بين سكان بيرايوس وباء لا تزال طبيعته موضع جدل حتى اليوم • لكن أعراضه ، على أية حال ، كانت ارتفاعا فى درجة الحرارة • واحمرارا فى الوجه وجحوظ العينين والتهـــاب الحلق الى جانب نفس مختلج كريه الرائحة ، ويعقب ذلك ، كما يذكر توكيديدس ، بحة فى الصوت ، وكحة عنيفة وافرازات الصفراء ، وآلام مبرحة وتقلصات تعقبها « أورام فى البطن واسهال واعياء تنتهى بانفراط عقد الحياة ، بل كان يفقد عدد كبير من المصابين أطرافهم أو نعمة البصر أو الذاكرة وكانوا يعانون من ارتفـاع شديد فى درجة الحرارة يجعلهم فى لهفة شديدة الى الماء البارد ومن هول ما ألم بهم من عذاب كانوا يقذفون بأنفسهم فى أحواض الماء وهم يعانون من ظمأ لا يرتوى • وكان الوباء ينتشر بسرعة البرق ، وسرعان ما أصبح



ميل
فيلبي
أمفيبوليس
مقدونيا
بيدنا
تيساليا
لاريسا
فارسلوس
هيراقليا
ثرموبيلاى
دلفي
أتيكا
ماراثون
أثينا
سيفالينيا
أليس
أولمبيا
أرجوليس
ميلوس
كيثيرا

عدد المرضى أكبر من أن يعالج ، وعدد الموتى أكثر من المدافن ٠٠ كان الناس يخشون الاقتراب من المصابين ، كما انمحى من الوجود عدد كبير من الأسر ٠ وفى ذلك الصيف المروع من عام ٤٣٠ ق٠م كان الجو حارا والأكواخ الضيقة خانقة ومكتظة بالسكان ، كما كانت الجثث ملقاة فى كل مكان حتى فى المعابد ، وفى لحظات الآلام المبرحة الأخيرة كان الرجال والنساء يترنحون فى الطرقات ويتجمعون حول النافورات ، وانقلب الرجال من جراء ما أصابهم من هلع ورعب الى حيوانات وانطلقوا ينقضون على أكوام الحطب التى أعدها غيرهم لحرق موتاهم ليضعوا فوقها جثث موتاهم أو أن يقذفوا بتلك الجثث الى أول كومة من الحطب جذب لهبها أبصارهم ٠

واستبدت بمعظم الناس رغبة فى التمتع بالحياة فى اللحظات الاخيرة ولم يعد أحد يخجل من أن يكشف عن رذائله الخفية أو من الانغماس فى الملاذ أو الاسراع ببعثرة امواله ، وماكان احد يخشى الآلهة ، حيث انها لم تبق على أحد ، أو يحترم القوانين مادام يبدو أنه ليس من المحتمل أن يطول الأجل بالمرء الى أن يعاقب على مخالفتها ، وبالرغم من ذلك ظلت المحاكم فى وسط هذا الاضطراب تزاول مهامها كما كانت الاتهامات توجه كل يوم حتى وان كان الموت محدقا ٠ وفى سماء المدينة خيمت سحب الدخان الكثيفة المنبعثة من الحرائق الجنائزية نهارا وليلا ، كما امتد الوباء الى أسطول أثينا ٠

ومما يدعو الى العجب حقا أن الوباء لم يلحق باسبرطة وبليبونيز عند رفض البليبونيزيون قبول الأسرى وراحوا يقضون على كل من وقع فى قبضتهم خشية أن يلحق بهم الوباء ، وفى هذه الأثناء كان وباء آخر قد أخذ يتفشى فى مدينة مجهولة بايطاليا ، ومن الواضح أنه عين المرض الذى ألم بأثينا وكانت هذه المدينة المغمورة هى روما ٠

واستبد اليأس بالأثينيين وملك القنوط عليهم حياتهم ، وذلك حين شن البليبونزيون هجومهم الثانى ضدهم فأنزلوا بهم الدمار والخراب ، وعندما واجهوا ما تمخض عن الحرب من مشكلات عامة وما أسفر عنه المرض من متاعب خاصة ٠ راحوا يلقون بتبعة ما ألم بهم ـ وهذا أمر يكاد يكون محتوما ـ على بركليس ـ ألم ينصحهم بخوض غمار الحرب ؟ وألم يهون من شأن الأخطار ؟ ألم يحط كذلك من قدرة الاسبرطيين على القتال ؟

وعلى الرغم من الأخطار المحدقة لم يلحق بركليس أذى ، فكانت عبقريته لا تزال توجهه ، وفوق هذا كله ، كانت أسباسيا ما زالت معه ، بيد أن الأثينيين لم يتركوها وشأنها وأخذ مؤلفو الروايات الهزلية يسخرون منها وانطلقت النكات الدنسة تتردد حولها همسا بل وقدمت للمحاكمة

بتهمة الالحاد والسلوك المعوج • تلك التهم التى حاول بركليس نفسه أن يدفعها عنها بفصاحة بالغة وأخلى سبيل اسباسيا وأما بركليس فقد بدا منذئذ وكأنه فقد ما اتسم به فى الماضى من تكامل الشخصية وتنزه عن الخطأ وقدرة على الاقناع • حقا كان الأثينيون شعبا صعب المراس دائم السخط ، راح يطيح المرة بعد الأخرى بقادته العظام لولعهم الشديد الذى لا ينتهى بالمؤامرات والوشايات وتوجيه الاتهامات •

ولما كان فيدياس صديقا لبركليس ، وله أعداء كثيرون فان المحاولة التالية للنيل من شهرة بركليس أخذت صورة قضية ضد المثال الذى اتهم باختلاس أموال كانت قد خصصت لتمثال أثينا • وحكم عليه بالأشغال الشاقة وقضى نحبه بين جدران السجن وما لبث أن اتجه الأثينيون الى الفيلسوف اناكساجوراس ، الذى لم يرجع خلق الكون الى الصدفة بل الى عقل صاف منزه عن الهوى ، واتهموه بنشر مبادىء الكفر والالحاد ورغم دفاع بركليس عن صديقه صدر الحكم ضد اناكساجوراس وفرضت عليه غرامة قدرها خمس وزنات أى ما يقرب من خمسة آلاف دولار •

وكان اليأس آنذاك قد استبد بشعب أثينا حتى بات يرهف السمع لأية وشاية ، وفى نهاية المطاف اتهم بركليس النزيه بالاختلاس وأعفى من منصبه فى خريف ٤٣٠ ق٠م عقب فصل الصيف الرهيب الذى شهد الوباء ، ولم يعد من كبار القادة فى أثينا • لكن ما كاد عام واحد يمر على اقصائه من منصبه حتى أعيد اليه اذ تبين للأثينيين ساعة المحنة أنه أكفأ رجل بينهم ، ويقول توكيديدس « ماذا ينتظر من أناس جبلوا على هذا الطبع ، لقد عادوا ليجعلوا منه واحدا من القادة العشرة الكبار ، وأوكلوا اليه مهمة تدبير شئون البلاد قاطبة ، بيد أن قوة بركليس كانت قد فارقته ، كما حرمه الوباء من اثنين من أبنائه وما لبث هذا الوباء أن داهمه وفتك به سنة ٤٢٩ ق٠م وهو يباشر مهامه •

اليونان

اخطر صديق لأثينا

احبه كل انسان ، اما هو فلم يحب سوى شخصين : نفسه وسقراط

كان ثيمستوكليس أعظم ساسة اليونان ، ومنقذ أثينا والظافر في سلاميس ، والرجل الذى دفع الخطر الآسيوى ، المثل فى الفرس ، بعيدا عن بلاده ، وكان بركليس أعظم بناة أثينا كما كان أرستقراطيا بمولده وفطرته ، وأشد أعضاء البرلمان اليونانى ذكاء وحذقا ، والرجل الذى وهب لبلاده العصر الذهبى الذى عرف باسم «العصر البركليسى» أما الكيبيادس (Alcibiades) فكان معبود أثينا ، وشيطان أثينا ، وخادع أثينا ومحطم أثينا . لقد وجهت الى الرجال الثلاثة تهمة الخيانة وخذلتهم أثينا ، فلم يظل أمينا لنفسه ووفيا لأثينا غير بركليس ، أما ثيمستوكليس والكيبيادس فقد قضى كل منهما نحبه فى بلاد الفرس عدوا لدودا لبلاده .

كان الكيبيادس وسيما على نحو خارق ولم يفقد يوما قوة سحره وقدرته على الظفر بحب الآخرين ، فكان يجمع بين بنية قوية وعدد من القدرات البدنية والعقلية الهائلة . لقد كان الأثينيون يرون كل شىء فيه ساحرا خلابا حتى لثغته التى كانت من سماته المميزة فقد سعت المدينة عن بكرة أبيها لمحاكاته .

كان عاطفيا متهورا وسريع الغضب طموحا ومع ذلك كان الكيبيادس فى قرارة نفسه يحتقر الأثينيين ، لقد أحبه الجميع اما هو فلم يكن يحب سوى شخصين هما : نفسه وسقراط ، أعظم فيلسوف يونانى . كان كل

امرىء يتملق الشاب ويسعى الى رفقته وصداقته ، لكنه ابتعد عن المعجبين به من الأثرياء والأرستقراطيين في الوقت الذى كان فيه يتناول طعام الغداء مع سقراط بين الفينة والفينة ، ويتدرب معه علـــى المصـــارعة ويشاركه خيمته في الحملات الحربية • أما بالنسبة لغير سقراط من الناس فلبث على ما هو عليه من ازدراء لهم واستعلاء عليهم •

ولم تكن نوبات الفرار الجنونى لالكيبيادس تعرف حدودا ولم يذرف يوما دمعه الا عندما لامه سقراط ، فحين كان يحاول الفرار من سقراط كان الفيلسوف الكهل يطارده ويمسك به ، وعندئذ يستبد الخـــوف بالكيبيادس ويعتريه الخجل • ولقد أنقذ سقراط حياة تلميذه مرتين : احداهما ابان الحملة الموجهة ضد بوتيديا (Potidaea) والثانية فى معركة ديليون (Delion) •

وفى مقابل لكمة وجهها الكيبيادس الى أذن أحد الأشخاص حصل على زوجه فقد صفع هيبونيكوس — وهو رجل أثينى ثرى ينعم بالاحترام البالغ — ليظفر برهان كان قد عقده مع بعض أصدقائه ، لكنه في صبيحة اليوم التالى طرق باب الرجل الذى أساء اليه وراح يعرب عن استعداده لأن يسحق نظير فعلته ، فتأثر الرجل الثرى بهذا المسلك أيما تأثر وعرض على الكيبيادس ابنته هيباريت لتكون زوجا له • كانت الفتاة فاضـــلة أحبت زوجها حبا جما بيد انه ظل على علاقته الدائبة بمحظيات أثينا ، مما اضطرها الى أن تلجأ الى بيت أخيها ، وما أن ظهرت هيباريت أمام رجال القضاء تطلب الطلاق حتى أقبل الكيبيادس وخطفها وحملها الى منزله عبر السوق ، ومنذ تلك اللحظة عاشت فى كنفه راضية بفتات حبه الذى كان يمنحه اياها بين الحين والحين حتى وافتها المنية بعد فترة وجيزة •

وكان الكيبيادس خطيبا مفوها، بيد أن اصراره على استخدام ابلغ الكلمات وأفصح العبارات التى لم تكن الذاكرة تسعفه بها دائما ، كان يحمله أحيانا كثيرة على التوقف وسط الخطبة ويظل صامتا برهة دون ادنى حرج ليواصل خطابه بالفصاحة نفسها التى بدأه بها •

وواجه الكيبيادس منذ فجر حياته السياسية بعض المنافسين الأقوياء وعلى رأسهم نيكياس (Nicias) الذى كان يكبره سنا ويعـــد أكفأ قادة أثينا العسكريين ، والذى كان اليونانيون يؤكدون بأنه لو تولى القيـــادة لنجح في انهاء الحرب ضد اسبرطة • أما الكيبيادس فقد قرر والغيرة تملأ نفسه أن يخرق الهدنة مع اسبرطة وحالفه النجاح الباهر حتى أصبح تصفيق المجلس العام أمرا مسلما به وكل خطاب يدلى به كان يحظى بتأييد جماعى •

وكانت جزيرة صقلية حتى فى أيام بركليس موضع أحلام الأثينيين وآمالهم ، لكن صقلية كانت تخضع جزئيا لسيطرة مدينة سرقوسـه Syracuse وادراكا منه لما لصقلية من اغراء بالنسبة للأثينيين أشار الكيبيادس اليهم بارسال أسطول ضخم لقهر الجزيرة وهو يرسم صورة مشرقة للمستقبل • فمن صقلية يتسنى للأثينيين مواصلة النصر وفتح قرطاجة وأفريقية وايطاليا وبسط نفوذهم على كنوز غربى البحر المتوسط بأسره • أما نيكياس فقد أشار الى ما تنطوى عليه مثل هذه المهمة من مشاق غير ان حماس الشبان لخطط الكيبيادس لم يفتر أو يتزعزع •

كما نصح سقراط بدوره بعدم القيام بتلك الحملة وحين سمع ميتون Meton الفلكى والمنجم بخطط الكيبيادس الجنونية تملكه الغضب حتى انه أمسك بشعلة متوهجة وأشعل النار فى داره ورغما عن ذلك مضى الأثينيون فى طريقهم قدما وعهدوا بقيادة الحملة الى الكيبيادس ونيكياس وقائد ثالث يدعى لاماكوس Lamachus •

وكان كل شىء على أهبة الاستعداد حين وقع ما يعنى هزيمة أثينا فى نهاية المطاف •

فأمام ديار المواطنين وأبواب المعابد كانت تقف تماثيل مقدسة تلقب بهيرماى Hermae (١) ، لم تزد عن كونها أعمدة من الحجر تعلوها رأس لا جمال فيها ، ومع ذلك كان الأثينيون يجلونها أيما اجلال ، وفى عشية الآدونيا ، وهو عيد افروديت وأدونيس عبثت يد مجهول بالتماثيل الحجرية المقدسة وهشمتها •

وكان لالكيبيادس أعداء كثيرون فى أثينا فأنحى باللائمة عليه وعلى صحبه ، ولما طلب السماح له بالدفاع عن نفسه أدرك أعداؤه انه لو وقف ليلقى خطابا لتفوق عليهم ومن ثم أعلنوا أنه من غير اللائق أن يؤتى بقائد حملة ليمثل أمام المحكمة • ولم ترق لالكيبيادس فكرة أن يبدأ حملته فى جو مشحون بالشكوك والريب ، لكن الأوامر صدرت اليه بالابحار ، فاقلعت مائة وأربعون سفينة من مرساها ، وما أن بلغ ايطاليا حتى استولى على ريجيوم (Rhegium) وأجبر كاتانيا (Catania) على التسليم بعد أن عبر الى صقلية •

وفى تلك المرحلة الحرجة استدعى الأثينيون الكيبيادس ليواجه تحقيقا قانونيا وكان التغيب فى مثل هذه الظروف أمرا خطيرا لانتشار الشائعات الكاذبة بسرعة مذهلة • وما أن أقبلت سفينة لتقله حتى

---

(١) أنظر ص ٤٠٩ •

انهارت روح القوات اليونانية فى صقلية ، وبعد أن استقل السفينة تبين أن الأثينيين قد حكموا عليه غيابيا بالاعدام ، فما كان منه الا أن عقد العزم على أن يثبت لهم انه لم يزل قويا • ولما بلغ رهورى Rhuri تسلل الى الشاطىء واخترق بليبيونيز ولجأ الى اسبرطة حيث وعد بمساعدة الاسبرطيين ضد الأثينيين وأشار اليهم بارسال قائد الى صقلية ليسهم فى تحطيم قوة أثينا البحرية • وراح فى الوقت نفسه يحرضهم على شن هجوم ضد أثينا نفسها ، ولم يمض وقت طويل حتى أضحى الكيبيادس موضع اجلال أهل اسبرطة واعجابهم •

وكان الكيبيادس ممثلا قديرا فاستطاع أن يكيف نفسه مع أى ظرف واجهه • ولما كانت الحياة فى اسبرطة طابعها البساطة والاعتدال بمعنى انها كانت حياة اسبرطية ، أخذ الكيبيادس الأنيق يحلق شعره ويستحم بالماء البارد ويتناول خبز الشعير والحساء القاتم الشهير ، وتملكت الدهشة أهل اسبرطة حين رأوا الرجل الذى كان يستعين يوما ما بأفضل طباخ وأحسن عطار ، يعيش بغتة حياة يغلب عليها الطابع الاسبرطى أكثر من الاسبرطيين أنفسهم • وطاب لالكيبيادس تمثيل هذا الدور ، لكنه لم يستطع ، لسوء الطالع ، أن يكبح جماح شهواته ، فوقعت عيناه الهائمتان على تيمايا زوجة آجيس ، ملك اسبرطة ، هذا البطل الذى كان قد انطلق مسرعا من شرفة نوم زوجته عند وقوع أحد الزلازل فأصيب بضعف لم يمكنه من الاقتراب منها منذ عشرة أشهر ، واستغل الكيبيادس ما كان قد فرض على تيمايا من عزلة ليغرر بها • ولما أنجبت ولدا لم يكن ثمة شك فى أبوة الطفل ، والأنكى من ذلك ان تيمايا كانت متيمة بعشيقها حتى انها همست فى آذان صديقاتها جميعهن بضرورة أن تسمى الطفل الكيبيادس •

وفى هذه الأثناء منى الأثينيون فى صقلية بهزيمة منكرة ، والأدهى من ذلك ان الكيبيادس تمكن من فصل ايونيا (Ioina) بأسرها عن أثينا • لكن الملك آجيس استشاط غضبا أولا لما بلغه الكيبيادس من شهرة واسعة ومن جراء ما اقترفته زوجه من فسق ودعارة • ومن ثم لم يعد الكيبيادس آمنا فى اسبرطة فلجأ الى تيسافيرنس ، حاكم فارس الذى كان متبربرا قاسيا مرهوب الجانب ويكره اليونانيين • وكان لدهاء الضيف الجديد ومكره أثره على تيسافيرنس ، ومن ثم أخذ الكيبيادس يستخدم ما أوتى من بلاغة وقدرة على الاقناع لتأليب الحاكم ضد اسبرطة ، كما جعل فى الوقت نفسه يتآمر مع مجلس الأربعمائة وهى الهيئة التى كانت الثورة قد شكلتها أخيرا لتولى مقاليد الحكم فى أثينا •

كانت قوة أثينا فى تلك الآونة متمركزة فى ساموس حيث كان

أسطولها مشغولا فى سحق حلفائها السابقين الذين خرجوا عليها وفى الدفاع عن ممتلكات أثينا ، وانضم الكيبياد الى الأسطول الأثينى ، وما لبث أن أصبح قائدا للفرقة البحرية المرابطة فى شواطىء هليسبونت (Hellespont) وألحق الهزيمة بأسطول اسبرطة ثلاث مرات وفتح خالكيدونيا (Chalcedon) وبيزنطة (Byzantium) وبهذه الانتصارات العظيمة التى تدعم موقفه قرر الكيبيادس العودة الى أثينا ٠

وكانت عودة الظافر المنتصر إلى أرض الوطن فزينت سفنه جميعها بما استولى عليه من دروع الأعداء ٠ لكن الكيبيادس لم يجرؤ على مغادرة زورقه الكبير قبل وصول معظم أصدقائه المخلصين لاستقباله ، ورافقه ، وهو يخترق المدينة وسط الابتهاج العظيم ، الأثينيون الذين أخذوا يتوجونه بأكاليل الغار ويرفعون أطفالهم لرؤية البطل المغوار ٠ أما الكيبيادس فراح يصف أمام مجلس خاص ، والدموع تترقرق فى عينيه ، ما وقع عليه من جور ٠ فما كان من الشعب الا أن قدم له التيجان الذهبية ونصبه قائدا أعلى لقواته البحرية والبرية ٠

وعلى الرغم من ذلك لو كان ثمة رجل أضرت به شهرته فان ذلك الرجل هو الكيبيادس ٠ وكان الأثينيون يعتبرونه انسانا معصوما من الخطأ وقال هو لهم ان النجاح سوف يكون حليفا له فيما يضطلع به من مهام ٠ والواقع ان خطأ واحدا قد حطمه وقضى عليه ٠

كان الاسبرطيون قد أمروا أسطولهم بالتحرك بقيادة ليساندر (Ly Sander) ورغبة فى جمع الأموال اللازمة لدفع مرتبات القوات تنازل الكيبيادس مؤقتا عن قيادة الأسطول اليونانى لأحد قادة السفن يدعى انطيوخوس (Antichus) وزوده بتعليمات مشددة محذرا بعدم الاشتباك مع الاسبرطيين فى معركة ابان غيابه بيد ان انطيوخوس تجاهل التحذير فهزم ولقى حتفه فى المعركة ٠ ونتيجة لما يتسم به الأثينيون من تقلب تقليدى سرعان ما لحق بالكيبيادس الخزى والهوان ، واضطر الى أن يولى الأدبار من جديد ٠ وداهم ليساندر الأسطول اليونانى فى ايجوستبوتامى (Aegostpotami) ٤٠٥ ق ٠ م وحاصر أثينا معرضا اياها للجوع ، ثم استولى عليها وأشعل النيران فى سفن أثينا جميعها وأمر بهدم الأسوار الحامية وهكذا تقرر مصير اليونان ٠ لقد سقطت أثينا وسقطت معها هيلاس، عن بكرة أبيها ٠

ولم ينتظر الكيبيادس من الأثينيين شيئا وبات يخشى الاسبرطيين على حد سواء ، فما لبث أن جال بخاطره نيمستوكليس الذى لجأ الى ملك الفرس ، فعبر فريجيا (Phrygia) ليقابل الحاكم الفارسى فارنابازوس آملا فى الحصول على توصية لملك الفرس ٠

لكن الكيبيادس لم يكن الرجل الذى يتركه العالم يعيش فى هدوء وسلام • فالاسبرطيون لم يشعروا بآن نصرهم كامل فى أثينا مع بقائه على قيد الحياة • ولذا طلب ليساندر الى فارنابازوس أن يدس لالكيبيادس من يقتله •

ولم يجرؤ الرجال الذين أوكل اليهم قتل الكيبيادس على مهاجمته والاشتباك معه فى معركة بالأيدى ، وانما حاصروا منزله وأشعلوا فيه النار فأسرع بجمع الأقمشة والطنافس ليخمد بها ألسنة اللهب ، ولما أوشك الدخان أن يخنقه لف عباءته حول يده اليسرى وأمسك سيفه باليد اليمنى وشق الأتون وخرج منه ، فما كان من البرابرة المتوحشين الا أن ارتدوا على أعقابهم أمام من يقف بمفرده ، فهو أخطر رجل فى اليونان ، ولم تكن لدى أحدهم الجرأة على اعتراض سبيله أو معارضته • فما أن ابتعد عنهم وصاروا بمأمن منه حتى راحوا يرمونه بالسهام والحـــراب فسقط الكيبيادس وسالت الدماء منه غزيرة من عشرات الجـــروح • وقضى الكيبيادس نحبه سنة ٤٠٤ ق • م وهو على شفا الخمسين من عمره •

وتبددت قوة اليونان بعد أن مزقتها الانقسامات والمنافسات وصارت فريسة سهلة للاسكندر الأكبر المقدونى ، ثم للقوة الجديدة التى كانت قد أخذت تتألق فى الغرب • وعلى الرغم من سقوط اليونان فى قبضة القوات الرومانية فان فكر اليونان وفنها وثقافتها هى التى خلقت عن طريق روما حضارة أوربا الغربية •

اليونان

سقراط ... رجل قديس

سوف تقتلني بغير اكتراث ، ثم تمضي لتقضي حياتك برمتها في سبات ما لم يمن عليك الله برحمته ، بحياة اخرى .

سقراط في عام ٣٩٩ ق.م (اعتذار أفلاطون)

شهد عام ٤٧٠ ق.م مولد رجل رفع بحياته الحكمة والمنطق والفكر والأخلاق الى مستويات لم ترق اليها قبله ، فقد دفع البشرية الى الأمام مئات السنين ليقربها من الحضارة الانسانية الحقة ومن الله .

كان والد سقراط ، سفرونيسكوس (Sophroniscus) مثالا ومواطنا يلتزم بالقانون لا يحيد عنه وكانت أمه قابلة اسمها فيناريت، ومات الوالدان مغمورين كما عاشا ، أما ابنهما فقد تحدى القانون ، وحكم عليه بالاعدام ، وصار من الخالدين .

ومصادرنا التي نستقي منها المعلومات عن حياة سقراط تنحصر في ما ذكره عنه كل من المؤرخ اليوناني زينيفون (Xenophon) والفيلسوف الأغريقي أفلاطون (Plato) . ولما كان الاثنان يصغران سقراط بنحو خمسة وأربعين عاما فان رواياتهما ــ واقعية كانت أم خيالية ــ لا تستند الا على الاتصال الشخصي به في السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الأخيرة من حياته .

كان زينيفون رياضيا عاطفيا ، وضابطا اقطاعيا يحس بحكم انتمائه

للطبقة الأرستقراطية بأنه غريب في أثينا الديمقراطية ، فانطلق الى بلاد الفرس واشترك في احدى الحملات التى قام بها قورش الصغير ، ثم قاتل الى جانب الإسبرطيين فنفى من أثينا ولما وافته المنية سنة ٣٥٤ ق ٠ م ترك وراءه مكتبة هائلة تضم مؤلفاته من بينها تاريخ هيلاس ، وكتابا عن دولة اسبرطة ، وراوية بعنوان كيروبايديا (Cyropaedia) ذات ميول تربوية وسياسية والأناباسيس (Anabasis) الشهير الذى يصف زحف عشرة آلاف من جنود اليونان المرتزقة من فارس الى تراقيا ، وكتابا حول واجبات الضابط فى سلاح الفرسان والمأدبة (Banquet) وهو كتاب عن العلوم المنزلية وواجبات ربة البيت ٠ ، وأربعة مجلدات فى التراجم بعنوان أبو منيمونيوماتا (Apomnemoneumate) يدافع فيها زينيفون عن سقراط وما وجه اليه من اتهامات وان كانت لا تنصف ذلك الفيلسوف حيث انها تنزع الى أن تحط من مكانته التى يرفع أفلاطون من شأنها ويعظمها ، ومرد ذلك إلى أن زينيفون كان رجلا محدود المواهب بينما كان أفلاطون واحدا من المفكرين العظام فى تاريخ العالم ٠

وجاءت معظم أعمال أفلاطون فى صورة حوار ، وكان سقراط هو البطل دائما باستثناء حالة واحدة لا غير ٠ وفى أحيان كثيرة يصعب التمييز بين الخيال والواقع عند أفلاطون ، مع أن تصويره للفيلسوف يبدو حقيقيا ومقنعا على نحو يصبح معه عبقريا وعظيما كسقراط ، لو أن ذلك كله كان من ابداعه ٠ كان أفلاطون ، دائب البحث ، كمعلمه ، على أساس ثابت يقيم عليه تفكيره وقد بقى كل ما ألفه من أدب منثور ، وهو يشكل صرحا ضخما من التفكير البشرى كما أنه أيضا أعظم ذكرى خلدت سقراط ٠

أما سقراط نفسه فلم يكتب اطلاقا ، وعلى الرغم من المامه بشيء من الهندسة والفلك فانه عزف عن القيام بأية أبحاث فى هذا الصدد رغبة منه فى تكريس نفسه كلية لدراسة الأخلاق والارتقاء بالانسان ٠ وحاول الابتعاد عن السياسة كما أفلح فى تجنب أى منصب حكومى بحجة أن الوظيفة الحكومية تضطره الى المساومة على نزاهته ٠ وما كان سقراط بالرجل الذى يساوم وقال ان من يرغب فى الدفاع عن العدالة عليه أن يقود حياة خاصة لا عامة ٠ « فلا مراء ، أيها الأثينيون ، اننى لو شاركت فى الشئون العامة لكنت قد انتهيت منذ وقت طويل وأصبحت عديم النفع بالنسبة لكم ولنفسى » ٠

وكان شعراء أثينا يسخرون فى مسرحياتهم الهزلية من فقر سقراط ، فمن الواضح أنه لم يكن يعبأ البتة بالملكية الخاصة ولعله لم يتزوج باكسانثيبى (Xanthippe) التى أنجبت له ثلاثة أبناء الا فى أواخر أيامه ٠ وان كانت الأسطورة القائلة بخضوع سقراط لسلطان زوجته،والتى

تقطع بأن اكسانثيني كانت سليطة اللسان ، غير صحيحة ، فان زينيفون يذكر أنها كانت حادة المزاج عصبية الى حد ما ٠

وكان سقراط ، فيما يبدو ، قبيح الشكل وان كان جنديا باسلا (اشترك في ثلاث حملات) اذ كان قصير القامة مستدير الجسم ، جاحظ العينين ، ذا أنف أمدس ومنخرين واسعين وفم كبير ، ومع ذلك فان « هذا الرجل الذي يعتبر أحكم رجالات عصره وأشدهم ذكاء » ، كما وصفه أفلاطون ، كان في أعماقه ينفعل ويشع ويضيء ويتوهج بنار خفية ، وكانت قدرته على كبح جماح النفس والاحتمال تجل عن الوصف ، فقد تمرس على انكار الذات الى حد أنه كان يقنع بأقل قدر من ضروريات الحياة ، مع أنه في نفسه لم يكن ناسكا متقشفا اذ كان يعرف ما يسمى بمباهج الحياة ولذاتها ، رغم انه لم يطلبها الا نادرا (ومع ذلك فقد ورد في حوار أفلاطون (Symposium) (١) ان سقراط كان يحتسي كل ما يجده أسفل المنضدة) وعند حضوره حفلا أو اجتماعه بالأصدقاء كان سقراط يبدو مرحا سريع البديهة مما جعله دائما مركز الانتباه ٠ وكان على يقين راسخ من أنه لم يبلغ درجة الكمال شأنه شأن من يجلس الى جواره ، كما كان يعتقد ان الرسالة التي أوجده الله من أجلها هي أن يخدم بني جنسه بأن يهديهم السبيل الى المنطق الذي يقودهم الى الخير والصلاح ، وكان يدرك عن كثب ان أفضل السبل الى اقناع الناس هو كسب صداقتهم ونيل ثقتهم ، وكان الى جانب ذلك يعطف على الضعفاء وأواسط الناس ورقيقي الحال ٠

وأمضى سقراط جل حياته في الخلاء ، وفي الطرقات وفي ساحة السوق وفي الملعب الرياضي ، بيد أن حياة الريف لم تكن تروقه ٠ وقال عن نفسه ، « اعلم أنني لا أعرف شيئا » وعندما كان يخاطب الواهمين بأنهم حكماء ويستخلص من حديثهم أنهم عاجزون عن اقامة الدليل المنطقي على حكمتهم يصبح على يقين من أنه أحكم من أي انسان آخر حيث أنه الوحيد الذي يدرك حقيقة جهله ٠ وكانت المعرفة عند سقراط أسمى غاية ، ولقد ملكت عليه حياته رسالته في بسط معنى المعرفة والفطنة للناس جميعا حتى بدا ما عداها لناظره تافها وضيع الشأن ٠ وواجه الفقر والجوع والضحكات الساخرة برباطة جأش منقطعة النظير ، وكان الموت أهون على نفسه من التخلي عن مبادئه ٠ ولم يرتد سقراط قميصا ولم ينتعل حذاء ، كما كانت العباءة الوحيدة التي يملكها تكفيه العام بأكمله ٠ ولم يكن يعبأ البتة بآلاف الأشياء التي تستحوذ على اهتمام اخوانه من بني البشر ، فلا غرابة اذن أن يذكر انتيفون (Antiphon) أنه لو أجبر عبد على أن يعيش

---

(١) سلسلة تعاليم افلاطون وردت في هيئة حوار أو مناظرات ـ المراجع

حيـاة سقراط للاذ بالفرار • كان سقراط ابنـا بارا بأثينا مسقط رأسه ووطنيا مخلصا ورجلا شيمته الشجاعة الأدبية النادرة ، وعلى الرغـم من الاتجاهات الشعبية والآراء التقليدية وما تميز به عصره من عادات فكرية وسلوكية مكتسبة فان سقراط قد اتخـذ لنفسه موقفا مستقلا وراح يعلم بأن العقل البشرى هو المصدر الوحيد للمفاهيم جميعا وللأفكار الأخلاقيـة برمتها • واعترف ولم يكن يعلم شيئا عن الباحثين عن الله فى بلاد ما بين النهرين واسرائيل ، بأن ثمة ظواهر لا يدرك كنهها غير الله وأن حكمـة الهية لا نظير لها تعمل فى الظواهر جميعها ، وكان سقراط يعتقد أن العقل البشرى الذى يرتبط بالآلهة هو واحد من مخلوقات هذه الحكمة العليا •

وغير ذلك كان هناك شىء ما ، شىء غامض يمكن حدسه فحسب ، لكنه غير معروف •• انه علاقة غير منظورة بين الانسـان والاله أحس سـقراط بأنه قادر على سبر غور مداها فى ذاته • كذلك كان هناك شىء آخر يحذره كلما شرد ، وهذا هو روحه ، اذ كان سقراط راسخ الايمان بخلود الروح • واستطاع قبل ميلاد المسيح بأربعمائة عام أن يقترب بالتفكير اليونـانى الى روح العهد الجديد على نحو يدعو الى الدهشة • وليس من قبيل الصدفة أن تكون الحضارة الغربية متأصلة فى الديانات المسيحية وفى سقراط الذى أرسى بغير قصد منه الأساس الأخلاقى لوحدتهما النهائية •

كانت الفلسفة قبل سقراط تهتم أساسا بدراسة الظواهر الطبيعية وبعد ظهوره اضطر الفلاسفة الى الاهتمام بالفضيلة وبتصرفات الانسـان وسلوكه ، ولم يطلب سقراط المعرفة لنفسه فحسب بل استخدمها أيضـا لانارة الآخرين وانطلق يعلم بأن الهدف الأوحد لجميع الدراسات هو الارتقاء بالانسان ، كما كان أول من خلص الفلسفة مما كان يكتنفهـا من غموض وغرسها فى قلوب البشر ، وأضحى مؤسس علم الأخلاق الفلسفى Ethics وهو اللفظ المشتق من الكلمة الاغريقية Ethos ومعناها المواقف النبيلة والأخلاق المهذبة •

وفى عهد سقراط ازدهرت مدرسة الفلاسفة فى أثينا الذين حملوا لواء حركة فكرية هامة تسمى « السفسطة » Sophism والكلمة اليونانية Sophistes تعنى « رجل الحكمة » وكان أولئك الحكمـاء معلمين جائلين يقدمون العلم نظير أجور باهظة ومن ثم أصبح هذا اللون من التعليم مقصورا على طبقات الأغنياء • وكانوا يلقنون الفلسفة والأدب والفن وقواعـد اللغة والرياضيات والفلك ، وفوق الكل العلوم السياسية ، واستطاعوا أن يخلقوا من تلاميذهم رجالا أكفاء للأعمال الخاصة والعامة •

ويرى السوفسطائيون أنه ليس ثمـة ما يسمى بالحقيقـة المطلقة أو الفضيلة الخالصة • وقضت تعاليمهم على ما كان يربط الفرد بالدين والمجتمع

من روابط وأضحى اصرار السوفسطائيين على التخصص لا يقل خطورة عن المغالاة فى التخصصات التى يتميز بها عصرنا وشاعت الانانية واتبع الناس المبدأ المادى القائل « ما هو نافع مباح » ، وعلم السوفسطائيون تلاميذهم أن يكون تأييدهم او معارضتهم لأية قضية عن اقتناع ، لكن بمثل هذا المبدأ كان يمكن الدفاع بنجاح عن القضية الخاطئة على أنها صائبة ٠وأضحت الأخلاق العامة فى نهاية الأمر يتهددها انهيار شامل ٠٠ تحول لم يقصد اليه السوفسطائيون على الاطلاق ٠٠ لكن سقراط أدرك هذا وانطلق يهاجم السوفسطائيين ٠

ولا يغيب عن بالنا أن اليونان أيام سقراط كانت لا تزال تعبد آلهتها القديمة ، والأدهى من ذلك أن اليونانيين كانوا يخلعون على هذه الآلهة خصائص بشرية لا تمت للأخلاق بصلة فانطلقت الأساطير والقصص تروى علاقات الحب فى أعنف صورة ومؤامرات العشق والغرام فوق جبل أوليمبوس كما امتلأت اليونان بمعتقدات دينية غريبة يكتنفها الغموض ٠ وان سورة الغضب التى استبدت بالأثينيين بسبب التمثيل بآلهتهم المعروفة «بهيرماى»(١) واختيار أعداء الكيبيادس تلك الجريمة البشعة الخطيرة بالذات كى يخلصوا أنفسهم منه ليدللوا على أن الناس كانوا لا يزالون أسرى عقيدة تعدد الآلهة البدائيه ٠ وهكذا سبق سقراط عصره بشوط طويل حين أعلن جهارا أن سائر الأساطير اليونانية انما هى من وحى الخيال الشاعرى ، وكان يمسك بكل من يلتقى به ويحاول أن يثبت له بمنطق رائع أن المصدر الوحيد للمعرفة هو العقل البشرى وأن الله لا سواه هو الذى يسمو فوق معرفة البشر ، وأضحى سقراط عامل رعب وفزع للمدينة ، ولم يعجب به أو يجله غير عدد ضئيل من الأنصار ، أما بقية أثينا فقد أساءت فهمه وسخرت منه ، كما شوه أرسطوفانيس ، أعظم كاتب مسرحى فكاهى فى عصره ، صورة الفيلسوف حين صوره حافى القدمين فى ملهاته «السحب» التى كانت ترمى الى أن تكشف كيف كان سقراط يقود شباب أثينا الى الفساد والالحاد ٠

ومع ذلك كان بوسع الأثينيين التغاضى على نحو أو آخر ، عن كل ما قاله سقراط لو لم يهاجم المبدأ الأساسى للديمقراطية ، حين قال سقراط ان الأخلاق نتاج المنطق المستتر وأن أكثر الناس استنارة ، كما علم الملك سليمان فى العهد القديم ، هم الذين ينبغى أن يمسكوا بأعنة الحكم وليس الشعب على الاطلاق ، وربما كان من سوء حظ سقراط أنه عاش فى زمن لم يكن فيه حاكم يتمتع بمثل هذا الذكاء الخارق ، ولم يكن الكيبيادس يرقى ولا شك ، الى هذا المستوى ٠ وفى سنة ٤٠٤ ق٠م أرغمت اسبرطة أثينا على التسليم بعد أن انهدمت أسوارها وكان النصر حليفا لاسبرطة ٠

(١) راجع ص ٤٠١ ٠

وفى سنة ٤٠٤ ق٠م٠ صدر عفو عام مما حال دون ادانة سقراط على ما ارتكب قبل ذلك وهكذا صيغ الاتهام الذى وجه ضده سنة ٣٩٩ق٠م٠ بعبارات عامة غير محددة وهي : « افساد الشباب والازدراء بالآلهة القديمة وعبادة أخرى جديدة بدلا منها » ٠

وكان ميليتوس ، المدعى العام ، شخصية مغمورة وضيع الشأن ، لكن يقف وراء ميليتوس ، الزعماء الديمقراطيون المسئولون الذين خاطروا بحياتهم عن اخلاص لتحرير أثينا سنة ٤٠٣ ق٠م٠

وكما أن أعظم العشاق كانوا يمجدون ويصبحون من الخالدين فى أذهان الناس حين يختتمون حبهم بالموت ، كذلك يبدو أنه كان على أعظم معلمى المبادىء الأخلاقية فى العالم أن يكللوا جهودهم بالموت قبل أن يؤمن الناس بتعاليمهم ٠٠ موت بالتعذيب أو بالحريق أو فى المجتلد (١) أو فوق الصليب ٠ وكان على سقراط أن يشرب كأسا من الشوكران (٢) ، لكن ما أظهره من نبل فى ساحة السوق ، وفى شوارع أثينا ، كان مثالا تحتذيه الأجيال المتعاقبة ٠ وبعد مضى أربعمائة وثلاثين عاما على اعدام سقراط دوت الصيحة عينها فى شوارع أورشليم الضبقة تردد « اصلبه » ولم تمر ألف وخمسمائة سنة أخرى حتى انطلقت الحناجر فى « روان » تصيح « هيا بالساحرة الى الحريق » ٠

ولقد أعدم سقراط شأنه شأن جان دارك بتهمة الهرطقة والواقع ان لفظ « هرطقة » لم يكن قد ابتدع بعد ، غير أن التهمة التى وجهت الى سقراط هى أنه أبى الاعتراف بآلهة أثينا وراح يتعبد لأخرى بديلة وكان ما أسماه المدعون العموميون « بالآلهة الأخرى » هو الصوت الداخلى الذى كان سقراط يطيعه ٠٠ السوط الداخلى الذى كان يتحدث اليه فى الأحلام فيحسبه رسالة مقدسة وأطلق على هذه العلامة السماوية « معبودة » كذلك أشار الاتهام الموجه ضده الى افساده للشباب ٠٠ فاذا كان الحض على الفضيلة — وليس مجرد العلوم الطبيعية ، باعتبارهما هدف الفلسفة الأسمى — يعد فسادا حقيقيا فان المدعين كانوا على حق فيما ذهبوا اليه ٠

وكان الموت هو العقوبة التى طالب بها الادعاء وأسفرت المحاكمة عن قرار بالادانة «بأغلبية ٢٨١ صوتا ضد ٢٢٠» وعن حكم بالاعدام (بأغلبية ٣٠٠ ضد ٢٠١) وفى « تبرير «Apoloyy» » أفلاطون الشهيرة نجد النص الكامل لدفاع سقراط الذى ساقه حتى أجبر قضاته على الحكم بأنه

---

(١) حلبة المصارعة — المراجع

(٢) نبات مخدر سام — المراجع

مذنب ، وأثبت في الوقت نفسه أنهم مخطئون · لقد حمل قضـــاته على ادانته رغم براءته حتى تنفذ تعاليمه الى البشر على مدى الأزمان ، وبذلك وضع نفسه في مصاف أعظم الشخصيات التى ظهـــرت فى العالم · ويعد خطاب سقراط ، كمـا نقله الينا أفلاطون ، من اعظم الأدلة وأبلغها عـلى العبقرية الفذة الفريدة التى كانت جريرتها الوحيدة هى رفض المساومة على النضال من أجل تحقيق عالم أفضل ·

وعـاش سقراط خلال الثلاثين يوما التى أعقبت ادانته حياته العادية وراح يدلى بأحاديثه كالمعتاد· لقد كان فى الحقيقة راضيا كل الرضى بسجنه، ذلك أن السجن بأغلاله يقـــود الى التفكير الفلسفى ولذا قال : « لا يخفى عليكم أنه حينما كنت فى ساحة السوق كان الناس على اختلاف أنواعهم يصرفوننى عن التفكير » ·

وفى آخر يوم من أيام حياته وبعد أن فرغ من الاغتسال وأتوا اليه بأبنـــائه ونساء أسرته لرؤيته تحدث اليهم فى حضرة صديقه كريتو (crito) الذى حاول اعداد العدة له كى يلوذ بالفرار ، وأعرب لهم عن أمنياته الأخيرة ، ثم طلب اليهم الانصراف ، وكانت الشمس قد مالت الى الغروب حين أقبل نحوه السجان وقال : « أدرك ياسقراط أننى لن أجد نفسى مضطرا لأن أشكوك كما يحملنى غيرك على ذلك ، وانهم يثورون فى وجهى ويكيلون لى اللعنات حينما أطلب احتساء الســـم · انك فى ناظرى لأنبل وأعظم وأروع ممن وفدوا الى هذا المكان جميعا · وداعا ، حاول أن تواجه القضاء المحتوم بقدر ما استطعت من اللامبالاه والاستخفاف · وتحول عنه الحارس ومضى وهو يجهش بالبكاء تاركا سقراط يتابعه بنظراته قائلا: يا له من رجل رقيق الفؤاد ، لقد أحسن معاملتى طيلة بقائى هنا ، وها هو الآن يبكينى » ·

قال كريتو : « ما برحت الشمس فوق التلال ساطعة ، وانها لم تغرب بعد واعلم أن غيرك من الرجال لا يشربون الكأس المسمومة الا فى ساعة متأخرة ، فهم يأكلون ويشربون بنهم ، بل ان بعضهم يطلب فتيات ، انهم ليسوا فى عجلة من أمرهم ، وهناك متسع من الوقت » ·

فما كان من ســقراط الا أن أجاب « أن الذين ذكرتهم من الرجال كانوا على صواب تام فيما فعلوا اذ خال لهم أنهم بذلك يحققون شيئا · أما أنا فلا أعتقد بأننى أسـتفيد شـيئا من وراء تأخير شرابى قليلا وانما سأبدو فقط أضحوكة فى عينى نفسى لو تعلقت بالحياة » ·

وأومأ كريتو الى خادمه الذى خرج وعاد مسرعا بصحبة الرجل الذى أوكلت اليه مهمة تقديم السم الى سقراط · وأمسك بالجرعة أمامـــه فى

قدح . وما أن رآه سقراط حتى قال : ــ « حسنا » أيها الخل الوفى ، لعلك تفهم كيف يمارس المرء تلك الأمور ؟

وأجاب الرجل : ــ « ما عليك الا أن تحتسى هذه الجرعة وعندما تفرغ من شرابها سر قليلا الى أن تحس بثقل ساقيك فاضطجع وســـوف تعمل الجرعة عملها دون عون من أحد . وبهذا القول سلم الكأس الى ســـقراط الذى تناولها فى ثقة دون ارتعاد أو تغير فى ملامح الوجه » .

« حسبى أن أدعو الآلهة أن يجعلوا رحلتى من هنا رحلة مثمرة . تلك هى صلاتى ، فلتكن كذلك » . وما أن فرغ من هذا القول حتى رفع الكأس الى شفتيه وارتشف ما بها فى هدوء .

اليونان

عرائس وزوجات ومحظيات

لماذا تكلف نفســـك عناء كتابة رسائل مطولة ؟ لست بحاجة الى الرسائل بل الى خمسين قطعة من الذهب فان كنت تحبني فامنحني اياها ؟

من المحظية فيلومين الى كريتو

ان نفحة عارضة من الحظ السعيد حفظت لنا حــذاء صغيرا أنيقا ليونانيـــة دأبت على أن تجوب الشوارع والطرقات منذ ٢٤٠٠ سنة ، وتثبت في نعل حذائها عبــارة « اتبعني » على نحــو جعل هــذه الدعــوة السفيهة تنطبع فى وحل الشوارع حين تطؤها قدماها ٠ لقد كان الاغريق شــعبا صريحا نابها ولا يعرف التكلف دون ريب ٠ « كان هنالك الحب الغامر والرغبـــة الملحة والدلال الأخاذ والاستعطاف الرقيق الذى كان يسلب لب الحكماء أنفسهم » ٠ هكذا يصف هوميروس أفروديت ولعل كلماته تنسحب على الاغريق كشعب ٠

ويبدو أن المرأة فى عصر هوميروس ، أى نحــو سنة ٨٠٠ ق٠م ، كانت تحتل فى كل من البيت وخارجه مكانة أكثر احتراما وأشــد تبجيلا من تلك التى عاشت في فترة لاحقة من تاريخ اليونان ٠

فما الذى جعل مكانة المرأة اليونانية تسوء شيئا فشيئا حتى باتت فى مركز شقيقتها فى الشرق ؟

ولماذا أصبحت المرأة اليونانية موضع سخرية الرجال وازدرائهم ؟

ان هذه الأسئلة لم تلق اجابة قاطعة ، وما هو مؤكد أنه فى غضون حقبة قرون قليلة انحدرت مكانة المرأة اليونانية من « الكيان المستقل » الى مجرد « أداة من الأدوات » وأن أفضل السبل الى التعرف على مكانة

المرأة فى اى عصر من العصور هى دراسة عادات الزواج • لقد كانت الفتاة فى عهد هوميروس لا تزال تشترى من والديها فما لبث أن انخفض ثمن العرائس بمرور الزمن حتى انقلبت الأوضاع فى نهاية الأمر حتى تعين على الأب اما أن يدفع لابنته « مهرا » أو أن يبقيها الى جواره •

وخلف لنا رجال اليونان ثروة ضخمة بما كانوا ينعمون به من حرية ، وكان كلما زادت حرية الرجل الشخصية ، فقدت المرأة حريتها ، كما شاعت فى الوقت نفسه عادة مضاجعة الذكور ••• وهو انحراف جنسى لم يكن معروفا فى عهد هوميروس •

كان الرجل الأثينى يقضى حياته فى الخلاء ، أو فى ساحة السوق أو فى الملعب ، أو فى مكان عمله أو فى الاجتماعات العامة ، اما المرأة فكانت تقضى جل حياتها رهينه الدرا • ولم يكن يسمح للفتيات الشابات برؤيه أى رجل أو للرجال بمشاهدتهن ومن ثم لم تتح لهن الفرصة لطارحه الغرام ، ولم تتم زيجات أساسها الحب الا نادرا • ولم يكن تبادل نظرات الحب يتم الا فى الاحتفالات العامة أو المحافل الدينية أو ساعات الدفن أو تقديم القرابين فى المعابد • ولذا كان الاحساس بالاضطراب يستبد بالفتيات اليونانيات عند التفكير فى حضور احدى حفلات الدفن مثلما ينتاب الفتاة العصرية المحجبة عند حضور حفل من الحفلات ، وما من شك فى أن الفتاة لم تكن تسأل عمن تريد الزواج منه ، وكل ما فى الأمر هو أن تتزوج فى سن مبكرة ، مفضلين أن يتم ذلك فيما بين سن الخامسة عشر والعشرين ، على حين أن الرجال اليونانيين لم يعتبروا أهلا قبل بلوغ الثلاثين أو الخامسة والثلاثين عاما • فكانت القاعدة هى أن عمر الأزواج ضعف سن زوجاتهم •

وكان الفيلسوف اليونانى أرستوكسينوس (Aristoxenus) الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، يؤمن بضرورة شغل وقت الأبناء وانهاك قواهم بكل أنواع الرياضة حتى لا يشعروا بجنوح نحو الجنس قبل سن العشرين ، وعندما يبلغون هذه السن ينبغى ألا ينغمسوا فى ملاذ الحب الا نادرا •

وفى غضون الفترة الكلاسيكية كان الاغريق ينظرون الى النساء على أنهن أقل شأنا من الرجال ، من حيث التفكير وغيره ، وليست لديهن القدرة على الاسهام فى الحياة العامة ، ولا يصلحن لغير اشباع الغرائز وانجاب الأطفال • وساد الاعتقاد بأن الطبيعة حبت النساء مركزا يقل كثيرا عما للرجال ، وانه ليس لنشاط النساء أهمية فيما عدا ما يقمن به داخل بيوتهن ، وكان يتعين على المرأة أن تطيع زوجها وتربى أطفالها

وتشرف على خادمات المنزل وأعمـــال النسيج والتطريز • وتحافظ على جاذبيتها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ولم يكن للمرأة الأثينية أية حقوق مدنية ، وكانت تعامل طيلة حياتها على أساس أنها أقل شأنا من الرجل ، ولم يكن لتصرف الرجـل أية صـلاحية قانونية طالما أنه يتم بنـاء على نصيحة المرأة أو بطلب منها •

أما تعليم البنات فكان متروكا لأمهاتهن وللتابعات لهن ومعنى هذا أن النســاء المثقفـــات كن قله نادرة • وعـلى حـين أن ما يســـمى « بغرفة المرأة » gynacconitis لم يكن سجنا بالمعنى الدقيق أو حريما مغلقا ، الا أنه ، مع ذلك ، كان مكانا ضيقا يقضى فيه النساء بقية حياتهن • كما كانت تفرض على الفتيات رقابة مشددة حتى يبلغن سن الزواج ، ولم تكن الزوجة الشابة تجرؤ على مغادرة الدار دون اذن زوجها الذى كان من حقه أن يحبس زوجته ، فتضحى صحبتها قاصرة على الخادمات • وعلى الرغم من ذلك كان وضع المرأة فى اسبرطة مغايرا تماما • فقد كان للفتيات حرية الارتباط بالرجل ، وان تعين على المتزوجات أن يعشن فى عزلة ، وكان رمز المرأة الأثينيـــة الأســـيرة هو السلحفاة التى وضعها المثال فيدياس تحت قدمى يورانيا (Urania) التى سحقت هذا المخلوق ، كما كان الكثيرون من اليونانيين يبقون زوجاتهم بعيدا عن الأبصار ، كمـا كانوا يغلقون باب « غرفة المرأة » امعانا منهم فى الحذر والحيطة •

وتمخضت تلك العزلة ، وخاصـــة بين الفتيات ، عن سذاجة وخجل ومغالاة فى التحفظ مع أنهـــا حبت الأثينية التى هى فى طور الشباب جاذبية وسحرا وأضفت عليها روح الخضوع والأناة التى لا تتـــوافر اليوم الا بين اليابانيات • وكان حياء العذراء الأثينية يقف ــ ولا شك ــ على النقيض ، مما يتســم به سلوك شقيقاتهن فى اسبرطة والمنـــاطق المتبربرة من جرأة • وجدير بالذكر أن الاغريق كانوا يقسمون عالمهم الى هيلينيين ومتبربرين ، فمن لم يكن ينطق باليونانية يدخل فى عداد المتبربرين ، سواء أكان من قبيلة تراقيـــا الهمجية أم مصريا بلغ مـن التحضر دروته أم فارسيا متكلفا • وكان وقع لغـات العالم غير اليونانى على سمع الاغريق أشبه بـ (Bar—Bar) و (Barbara) وهو الاسم الذى كان يطلق أصلا على الاماء الأجنبيات •

وكان وجه المرأة الأثينية المتزوجة يتورد خجلا وتنســـحب من نافذ تهالو رماها رجـل بنظرة عابرة ، بيـد أن احترام الزواج ومراعـاة الآداب العامة كانا سائدين على نحو ندر معه أن يرفع الرجال أعينهم نحو النوافذ العليا •

لقد قيض للفتاة أن توهب لرجــل لم تعرفه فى زواج يدوم مدى الحياة وأن تنجب له أولادا وان تكون جزءا مما يملك عندما يقصى نحبه • وجرت العادة أن تحضر العرائس ــ وهذا بوجــه عام فى الثامنــة عشرة أو السادسة عشرة أو السابعة عشرة من أعمارهن ــ فى عشية زواجهن دمياتهن بخصلة من شعرهن الى المعبد ويرفعنها قربانا الى أرتميس (Artemis)

كان الجانب المــادى للحب فى نظر الاغريق ضربا من المرض بل صورة عنيفة من صور الجنون ، كما كانوا يحسبون الحب مدعاة لاختلال التوازن بين الجسم والروح وأن الشهوة غمامة مؤقتة للعقل بيد أن هــذا بالطبع لم يحل دون الاستسلام بصورة سافرة لتلك الغمامة التى تحجب العقل واطلاق العنان لشهواتهم • وتصف النصوص الاغريقية العديدة العلاقات الوثيقة بالمحظيــات والمأجورات من العاهــرات • ولفظ محظية يعنى « رفيقة » أو « زميلة » وهذا لفظ رقيق يطلق عليهن لو قورن بغيره مثل « فتيات الكوبرى » أى الفتيــات اللائى يتسكعن حــول الكبارى • والجائلات » لمن يطفن بالطرقات « والذئاب من الاناث » وكناسات « الشوارع » « وزهرات النرد » اللائى ينتقلن من شخص الى آخر ، كما أن بعض المحظيات كن على درجة رفيعة من الثقافة والذكاء ، ولم يكن ثمة غضاضة فى الاتصــال بهن بل كان رجال اليونــان يجــدون فى صحبتهن الاثارة الفكرية التى كانوا يفتقرون اليها فى بيوتهم •

ولعل أسباسيا من ميليتوس التى أصبحت محظية بركليس ، كانت اذكى المحظيات على وجه الاطلاق ، كما كانت جليسوا (ومعناها الحرفى « الجميلة ») عشيقة الشاعر مينــاندر ، وكان يطيب للمحظية جناثانيا (الوجنة الصغيرة) ان ترى وهى تطوف بالطرقات مع حفيدتها الصغيرة التى كانت تحدد لها أجرا يوازى ما كانت هى تتقاضاه نظير خدماتها ، وكانت اليونان عن بكرة أبيها تقف على حد تعبير بروبرتيوس (Propertius) ذليلة أمام باب ليس (Lais) الشهيرة •

وأما فيرين (Phyrine) واســمها الحقيقى منيساريب ، فكانت أكثر محظيات أثينا جمالا ، وأوسعهن شهرة وأشهدهن خطورة ، حتى ان المثال العظيم براكسيتيليس (Parxiteles) سحره جمالها فاتخذ منها نموذجا لتمثال أفروديت الذى قام بنحته •• وكانت أعمالها المخزية حديث المدينة طرا • ولما اتهمت بانتهاك حرمة المعابد ، دافع عنها الخطيب هيبريدس (Hyperedes) الذى مزق ثوب عميلته الحسناء من فوق جسدها عندما تبين ان خطابته لن تجديه فتيلا • فلم يجرؤ القضاء على محاكمة « كاهنة

« أفروديت » فارتدت فيرين الشيتون (Chiton) – قميص يلتصق بالجسم – ولم تعد تظهر بعد ذلك فى الحمامات العامة على الاطلاق لكن حـــدث يوما حينما اجتمع شعب اليــونان للاحتفال بعيـد بوسيدون (Poseidon) أن نزعت فيرين ثيابها على مرأى من الناس ، وأرخت شعرها ونزلت البحر عارية ويقال ان هذا المنظر ألهم الرسام ابليس (Apelles) بابداع صورة لأفروديت المولودة من الزبد وهى تصعد من الأمواج •

ولم تكن المحظيات بطبيعة الحال يخلصن لرجل بعينه ، فقد كن فى الغالب الاعم يبدلن عشاقهن مما يسفر عن مشاكل عاطفية بالغة الخطورة بين عملائهن كما كان طابعهن المميز،فيما يبدو،هو الطابع التجارى الى حد كبير ، وعلى سبيل المثال بعثت فيلومين الى كريتو برسالة تقول : « لمـــاذا تكلف نفسك عناء كتابة رسائل مطولة ؟ اننى لست بحاجة الى رسالة بل الى خمسين قطعة من الذهب ، فامنحنى اياها ان كنت تحبنى ، وان كنت تحب نقودك فلا تزعجنى بعد اليوم ، ووداعا ! » •

كانت المحظيات يقصصن شعرهن ويطلين أظفارهن ، ويرتدين الثياب الأرجوانية الفضفاضة الأنيقة•وخلف لنا أرسطوفانيس (Aristophanes) قائمة بأدوات زينة النساء ، تلك التجـــارة الرائجة بين محظيات أثينا ، التى كانت تشمل الأوشحة والشرائط والمرايا والمقصات والأقنعة وشباك الشعر والأحزمة والبيجامات وأقمصة النوم والقمصان والثياب بأهدابها الطويلة الى جانب دهـــان من الشمع لتجميل الوجه وتصفيف الشـــعر ، والصـــودا والرصاص الأبيض والخفاف وأحمر الشفاه والخلاخيل ورقع التجميل والأقراط والعقود الموشاة بالجواهر والأحجار الكريمة ومائة غيرها من أدوات الزينة والتجميل •

كما كانت الكتيبات تصدر للمحظيات بصورة منتظمة • ولقد تضمن احداها توجيهات تقول : « ينبغى عليك ، قبل كل شىء ألا تكونى مخلصة البتة ، وأن تجيدى فن الكذب والنفاق ، أما عن الحياء ••• فانك لا تعرفين لهذه الكلمة معنى ، ولو ثار عشيقك وانتزع شعرك فلا بد من شراء الصلح بالهبات والعطايا ، وليكن حارس دارك مثقفا ومدربا وعليه أن يطرد الفقراء ولا يفتح الباب الا للأثرياء ولا ينبغى احتقـــار العبيد أنفسهم طالما كانت جيوبهم عامرة بالمال • وما الفائدة التى ترجى من شاعر يتوجك بشعره لكنه لا يقدم لك الهدايا ؟ » •

وبالرغم من ذلك فللشاعر فائدته فى بعض الأحايين ، فلقد صارت أركنياسا الحســـناء – وهى محظيـة من كولوفون – من الخالدين بقصيدة قصيرة تنسب لأفلاطون الذى كان قد وقـع فى حبائل غرامها ، بيد أن هذا

أمـر غير مؤكد ، وعلى الرغم من أن أعمال المحظية لا ترقى بها الى مرتبة الخلود الا أن بيثينونيس كانت محظية أخرى استطاعت أن تحظى بشهرة خالدة حين أقام لها الحاكم هاربالوس بعد موتها نصبين تذكاريين أحدهما في أثينا والآخر في بابل وخصص لها معبدا ذا فناء فسيح الى جانب مذبح . ولقد عصف به الحزن فحفر على الرخـــام العبارة التالية : « بيثيلونيس أفروديث » .

وبالرغـــم من أهمية الدور الذى لعبته المحظيات كان الاغريق يحبون زوجاتهم وخلفوا لنا أمثلة رائعة كثيرة تدل على وفاء الزوجين . ومهما مرت آلاف من السنين فان الكلمات التى ترجع الى القرن الثانى الميلادى والتى كتبها زوج يدعى ماراثونيس فوق شاهد ضريح زوجه نيكوبوليس ستظل تحـرك مشـاعرنا وهى « أسفل هذا الحجر وارى ماراثونيس زوجـــه نيكوبوليس الثرى لتستريح ، وفوق التابوت الرخامى راح يذرف الدمـــع وعبثا كانت الدمـــوع . فماذا يبقى لرجـــل فارقته زوجه وتركتـــه وحيدا فى العالم ؟ » .

اليونان

يلعنون سيدهم من وراء ظهره

ان قوة الله تملأ قلوب العبيد أيضا

ايسخليوس

لم تكن الشعوب غير الاغريقية تهتم بغير نفسها ، فراحت تحملق فى قلاعها الملكية وتقيم الصلاة فى معابدها ، وترقص حول معبوداتها ، وترفع القرابين لمعبودها مولوخ ، أما الاغريق ، فعلى النقيض من ذلك ، لم يعملوا على فهم طبيعتهم فحسب بل طبيعة غيرهم على حد سواء ، ولولاهم لما تيسر لنا غير النزر اليسير من أخبار العصور الغابرة ·

كانت للاغريق حاسة لا تخطىء فى تمييز الهام من الأمور ، كما كانت الحرية فى نظرهم ، أسمى غاية ، وكان كل ما اضطلعوا به وكابدوه من آلام انما حدث فى جو من الحرية ·· تلك من الظواهر التى ميزتهم عما عداهم من سائر الشعوب المعاصرة وكانت الحرية الشخصية بالنسبة لهم النعمة الكبرى على وجه الأرض ·

وحاول الاغريق الالتزام بالعدالة وان لم يحالفهم التوفيق دائما · فلم يكن ثمة جواب آنذاك للسؤال : « ما هى العدالة ؟ » كما هو الحال فى تلك الأيام ومع ذلك فان الشعب الذى كان يدرك أكثر من غيره من الشعوب قيمة الحرية الشخصية قد حرم الملايين حريتها وحط من قدرها الى حد أنها أضحت فى ناظره مجرد أدوات أو حيوانات أليفة نافعة أو سلعة رائجة فلم يكن الاغريق يتصورون عالما بغير عبيد ، وكان العبيد الذين ولدوا وترعرعوا فى أحضان الذل والمهانة جيلا بعد جيل ، يشكلون طبقة مستقلة ،

وما كان يمكن ، في عرف الاغريق ، أن تقوم للفرد أو للدولة قائمة بغير عبيد ، أما قضية الرق وما يتعلق بها من عدل أو جور فلم تبرز على الاطلاق ٠

ومن أين جاء الاغريق بعبيدهم ؟

لقد ولد بعضهم عبيدا ، بيد أن ذلك لم يكن مصدرا غنيا للحصول عليهم ، خاصة وأن عدد النساء كان أقل من الرجال ، كما كان شراء العبد أزهد ثمنا من تربيته ٠ وكان بوسع الآباء الأحرار بيع أبنائهم عبيدا ، وهو تقليد شاع في ربوع الأرض ما خلا أتيكا ٠ وكان اللقطاء يصيرون عبيدا شأنهم شأن الأحرار الذين يبيعون أنفسهم ، كما كان المدين المفلس ، حتى عهد سولون (Solon) (٦٣٨ - ٥٨٨ق٠م) ، يصبح تلقائيا عبدا لدائنه، ومع ذلك كانت الحروب هي التي أمدتهم بالأسرى ، أهم مصدر للعبيد ، ولم يكن هناك عبيد آسيويون وتراقيون فحسب بل اغريق أيضا ، وهم الرجال الذين أسروا ابان الحروب العديد التي دارت رحاها بين الأشقاء والتي اجتاحت اليونان فدمرتها ٠ وكان السارقون والقراصنة دائمي البحث عن الفريسة البشرية الرائجة ، ومن ثم كانت الحياة على سواحل البحر المتوسط تحفها المخاطر ،ولقد ازدهرت تجارة الرقيق عبر السنين وأضحت سوريا وبونتوس وليديا ، وملاطيا ، وعلى رأسها تراقيا ، دولا رئيسية لتصدير العبيد وان كانت مصر والحبشة وايطاليا قد اضطلعت بدورها في تقديم تلك السلعة البشرية ٠ وكان العبيد الآسيويون أكثر رواجا ممن عداهم اذ كانوا يعتبرون أشد قدرة على التكيف وبارعين في ألوان الترفيه جميعها ، مع أن العبيد الاغريق كانوا أبهظ منهم ثمنا ٠ وكانت تجارة الرقيق تزود بلاط ملوك الشرق بالغانيات والراقصات والعازفات على آلات الطرب ٠ وكانت أثينا مركزا هاما لتجارة الرقيق حيث فرضت الدولة ضريبة مبيعات باهظة على مثل هذه الصفقات الى جانب مراكزها في جزر قبرص ورودس وأفسس ٠ وفي مقدمتها خيوس ٠

وكان العبيد يعرضون للبيع اما عراة الأجسام أو تنزع ثيابهم عنهم عنوة لصالح المشتري ، اذ كان محظورا على التاجر أن يخفي ما في سلعته من عيوب بدنية ، كما كانت الأسعار تتراوح بين « مين » واحد وعشرة « مينات » طبقا للسن والنوع والمهارة والشخصية ٠

وماذا كان الأثيني يدفع ثمنا للعبد ؟ كان « المين » مائة « دراخمة » الذي كانت قيمته الشرائية في عهد بركليس تساوي حوالي خمسة دولارات، وبذلك تبلغ قيمة « المين » ٥٠٠ دولار ٠ وعلى هذا الأساس كان ثمن العبد يتراوح مابين خمسمائة وخمسة آلاف دولار ٠ لقد كان الفقراء في تلك الأيام أقل بكثير مما هم عليه في الوقت الراهن ، وأية أسرة ميسورة الحال

كانت تحتفظ بما لا يقل عن سبعة عبيد ، والواقع ان امتلاك سبعة عبيد فقط كان دليلا على رقة الحال ، اذ لم يكن من اللائق أن يصحب ربة الدار عند خروجها أربع اماء فحسب ، كما كان الخروج للتنزه من غير عبيد دليلا على شدة العوز والفاقة ، ولما شاهد الناس زوج رجل يدعى فوكيون لاتصحبها غير خادمة واحدة راحوا يتندرون عليها وبلغ التهكم حدا نوقشت معه المسألة على المسرح • أما الرجال فكان يصحبهم في العادة ثلاثة عبيد أو أكثر وخاصة في أسفارهم •

ولم يكن غريبا ، في رأى أفلاطون ، أن يمتلك المرء خمسين عبدا أو أكثر • كما ان نيكياس أجر ألفا من عبيده للعمل في مناجم اتيكا • والحقيقة أن السواد الأعظم من العبيد الاغريق كانوا عمالا يؤجرهم أصحابهم للمصانع أو المزارع أو مقاولى المبانى ذلك أنهم كانوا يعتبرون نوعا من استثمار رأس المال • أما العمال اليدويون من بين العبيد فكانوا بوجه عام أكثر استقلالا من عبيد المنازل •

وكان العبد الاغريقى أوفر حظا من زميله الرومانى ، ولعل العلاقة بين العبد والسيد في أثينا كانت أفضل حالا مما كانت عليه في ايطاليا في فترة لاحقة ، وعلى سبيل المثال يتحدث بلوتارك عما كان يتسم به العبد الرومانى من « طاعة عمياء » والاغريقى من ثرثرة مألوفة » وان كان كل شيء يتوقف بالطبع على ما للسيد من طباع ، كما أن أرسطوطاليس قد أوصى بألا يعامل العبيد بقسوة شديدة أو بلين مفرط ، ولم يكن الأثينيون يرون في مزاح السادة مع عبيدهم مسلكا لائقا ، حيث انه يضعف من سيطرتهم عليهم ،وأوصى أفلاطون بالكلفة الشديدة نحو العبيد وأشار بضرورة السماح للعبيد أن يأملوا في التحرر كمجازاة لهم في نهاية المطاف ، ذلك الأمل الذى كان موضع اعتزاز دائم ، والذى غالبا ما تحقق على نحو مثير للدهشة •

وكان للسيد أن يضرب عبده أو يكبله بالأغلال أو يعاقبه كما كان بوسعه أن يسلمه الى أحد القضاة لكى يوقع عليه الجزاء اذ لم يكن يسمح له بقتله • ولو كانت للعبد شكواه فله أن يطلب بيع نفسه ومع ذلك لم يكن من حقه الالتجاء الى القضاء ولو أن سيده شدد قسوته فلا ملاذ له سوى الهروب الى المعبد حيث يجد عند مذابح الآلهة ملجاه في انتظار ذلك اليوم الذى يجبر فيه سيده على بيعه • وغالبا ما كان عبيد المنازل يضربون ذكورا كانوا أم اناثا ، كما كان العبيد في المصانع يسامون العذاب ألوانا اذ كان يشرف عليهم ويراقب أعمالهم عبيد مثلهم •

وكان العبيد الذين يفلحون الأرض ويعملون في المناجم يكبلون بالأغلال في الغالب الأعم ، لا كضرب من العقاب بل للحيلولة دون هروبهم،

كما كانت ثمة اتفاقيات بين الدول بموجبها تتم عملية القبض على العبيد الهاربين واعادة تسليمهم ، ومن كانوا يهربون مرة يرسمون حتى لا يعاودوا الكرة • ولم يكن للاغريق ، بعكس الرومان، عبيد متعلمون يشتغلون بالبحوث العلمية فقد كان المعلمون الاغريق من الاحرار دائما ولم يحدث قط أنهم كانوا عبيدا ، ومع ذلك فان العبيد الامناء الذين لم يكونوا أهلا للقيام بعمل شاق كان يوكل اليهم برعاية الأطفال ، مما كان يسفر فى الغالب الأعم عن علاقات وثيقة وعاطفية بين هؤلاء العبيد ومن فى رعايتهم ، وأما عبيد الترفيه، أمثال الموسيقيين أو الراقصين أو الممثلين ، فلم يعرفوا الا فى فترة لاحقة حين أخذ النفوذ الروماني يقوى فى ربوع اليونان ، غير أن الزنوج والخصيان كانوا محببين لدى الأثرياء ، وكان غرور الناس يجعلهم يحبون استعراض عبيدهم ، واشتد الطلب على الخصيان بصفة خاصة حيث كان يعهد اليهم فى غالب الأحيان بتصريف أمور سادتهم المالية اذ كانوا أهلا للثقة • ولكن ليس هناك ما يدل على أنه كان يعهد اليهم بحراسة النساء •

وكانت بعض النساء يحتفظن بالعبيد كعاشقين وخلف لنا الشاعر هيروندا س (Herondas) الذى كان يعيش فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وصفا للحياة اليومية يحدثنا فيه عن امرأة ملأت الغيرة قلبها فاتهمت عشيقها العبد بالخيانة وأمرت بتكبيله بالأصفاد وبالهاب ظهره بألفى جلدة •

وعلى الرغم من أن الاماء كن أقل من العبيد عددا الا أنهن اضطلعن بالقسط الوافر من العمل فى كل أسرة ميسورة الحال ، فكانت تسند اليهن مهام صون النظام والنظافة والطهى الى جانب العمل كممرضات وتابعات والقيام على خدمة ربة المنزل •

وكان البؤس والشقاء من نصيب الفتيات اللائى كلفن بطحن الحبوب على الرحى ، تلك الآلة التى كان صوتها يدوى فى سماء كل قرية اغريقية والتى غالبا ما كانت الفتيات البائسات يواصلن العمل بها حتى يسقطن على الأرض مغشيا عليهن حيث ان المشرفين كانوا ينسونهن تماما ولم تكن عملية الطحن على الرحى غير كابوس يجثم دائما على صدر كل أمة فى اليونان •

ولم يكن بمستهجن أن يعاشر الأحرار من الرجال الاماء ولم يعتبر أطفالهم أحرارا الا فى حالات نادرة ، فلم يكن العبيد سوى أدوات فى أيدى الأحرار الذين كانت فضيلتهم لا تقاس بفضيلة العبيد ذكورا كانوا أم اناثا (وكان الاغريق أشد ما يكونون ايمانا بذلك) كما أن الحيوانات تحتل مرتبة دنيا من عالم بنى الانسان • ومرد ذلك من ناحية الى حقيقة أن أهل الولايات الاغريقية كانوا يعيشون فى خوف دائم مفرط من السكان العبيد فمثلا كان الاسبرطيون يخشون من ثورة يضطلع بها العبيد خلف الخط الأمامى كلما اندلعت نيران حرب من الحروب • وما أن منى الجيش الأثينى بالهزيمة

في صقلية واحتل الاسبرطيون ديسيليا (Deceleia) تحت لواء الملك اجيس سنة ٤١٣ ق ٠م حتى هجر ألفان من العبيد ، ومعظمهم ممن كانوا يعملون في المناجم ، سادتهم الاثينيين في آتيكا دفعة واحدة ٠

وكان هناك احتكاك دائم بين الولايات المتعددة نتيجة ايواء احدى الولايات للعبيد الفارين من ولاية أخرى ، كما كانت تبذل محاولات دائبة ابان الحرب ترمي الى تحريض عبيد العدو على الهجرة ، مما يحمل على القول بوجه عام أن الولايات الاغريقية لم تكن تشعر باطمئنان نحو عبيدها وتستغل طاقتهم الى اقصى حد ممكن الا في أوقات السلام والاستقرار ٠

وكان العبد الذي يبدي بسالة في القتال يكافأ بالحرية في أحيان كثيرة ومع ذلك فان الادب الاغريقي يزخر بقصص العبيد الذين قتلوا سادتهم ويحدثنا زينيفون ان المواطنين قاموا بتشكيل لجنة دفاعية من المتطوعين لمقاومة خطر العبيد ، ولكي يشعر صاحب الضيعة بالطمأنينة والأمن كان عليه أن يكون اول من يستيقظ صباحا وآخر من يأوي الى فراشه ليلا ٠

ومن الناحية الأخرى كانت سمات العبودية تختلف اختلافا بينا من ولاية اغريقية الى أخرى ، مما يحول دون استنباط سمات عامة ، فعلى سبيل المثال لم يظهر الأثينيون ما يدل على أنهم كانوا يخشون عبيدهم أو ثوراتهم ، في الوقت الذي استبد فيه هذا الخوف بولايات أخرى ٠

ويوحي الحوار الذي دار بين أكسانثياس واياكوس في مسرحية «الضفادع» الشهيرة للكاتب المسرحي الكوميدي أرسطو فانيس ببعض ماكان يدور بخلد العبيد ويحسون به فمنهم من يغرزون اصبعهم في كل فطيرة محشوة ويصغون الى ما يتفوه به سيدهم ، فلا يلبثون أن يطلقوا شائعة أو شائعتين ، وبعد أن يوسعوا ضربا تتملكهم روح السخط والتذمر خارج الدار كما يجدون في لعن سيدهم من وراء ظهره غبطة غامرة ٠

ايطاليا

الأترووريون الغامضون

مروا بشـــعوب كثيرة حتى التقوا بشعب اومبريا حيث
انشئوا المدن واقاموا بها منذ ذلك الحين ٠

هيرودوت

منــذ زهاء ثلاثة آلاف سنة خلت نزل بشواطىء ايطاليا شعب غريب وبعد أن بسط نفوذه رويدا رويدا على الاقليمين المعروفين حاليا باسـمي توسكانى (Tuscany) أومريا (Umbria) راح يقيم المدن ويطور ثقافته ويعنى بعلم الفلك ويشـيد الأسوار الضخمة ، ويصنع التماثيل والرسوم النادرة التى ما زال بعضها قائما الى اليوم ، فكانوا أول شعب يخلق حضارة متقدمة فوق التربة الايطالية ٠

كان أولئك الأترووريون شعبا غريبا لا يزال الجانب الأكبر من أسراره الساحرة خافيا علينا ، اذ لم يحاول أحد بعد فك رموز كتابتهم ، وقـد استمروا زهاء ٧٠٠ سـنة ، ما لبثوا بعدها أن اختفوا من التاريخ ، وكلما ازدادت عمليات الحفر التى يضطلع بها علماء العصر الحديث واتسـع نطـاق اكتشافاتهم ، وحاولوا جاهدين فهم لغـة الأترووريين التى طواها النسيان كلما أصبح فهم الطبيعة الحقيقية لهذا الشعب ، أكثر صعوبـة ٠ واذا كان الأترووريون قد سجلوا تاريخهم فان تلك السجلات لم يتم اكتشافها بعد ٠ لكن ما الذى أتى بهم الى ايطاليا ؟ ومن أين وفدوا ؟

سبق أن ذكرنا أنه فى نحو سنة ١٢٠٠ ق٠م تعرضت دول شرقى البحر المتوسط لحدث هز العالم المعروف طرا ٠ كانت كارثة مروعة تمخضت عن انهيار الحكومات وبعثرة الشعوب واسـتحالت المدن رغاما ورمادا

وانطلقت شعوب عن بكرة أبيها في هجرة لم ير العالم آنذاك لهـا نظيرا ، وتدفق من الشمال الى الجنوب سيل من الغزاة لم ينقطع • ولا تلقى النقوش الأشورية وما ورد بالتوراة والمصادر المصرية سوى نصيص من الضـوء على هذا الانقلاب الشامل الذى يعرف بالهجرة الايجية ، ذلك أن المنطقـة المحيطة ببحر ايجة كانت أشد المناطق تأثرا بما وقع ، فقد حملت الشعوب المهاجرة معها كل ما تملك من أمتعة وسلع •

وجاءت هذه الهجرة الايجية بالدوريين الى اليونان فقضت على الحضارة الميسينية القديمة . ونتيجة للضغط السكانى عينه من ناحية الشمـال زحفت مجموعة من الناس أطلق عليهـا الاغريق اسـم التيرسانيين (Tyrsanei) ومنهم انحدر الاترووريون فى ايطاليا •

والمصدر الوحيد لأقدم ما يتوفر لدينا من معلومات عن أصل الأتروورين هو ما خلفه المؤرخ اليونانى هيرودوت الذى يذكر أنه فى عهـد الملك آتيس Atys وقعت مجاعة كبرى فى بلاد الليديين (تقع ليديا على بحر ايجـة فى وسط الساحل الغربى لتركيا الحديثة) ودامت ثمانى عشرة سنة • ورغبة فى وضع حد لتلك المجاعة أمر ملك الليديين نصف رعاياه بالهجـرة وعين ابنه تيرسانوس قائدا لهم • وتسنى لهذا الشعب الطريد أن يحصل فى سميرنا (Smyrna) على سفن حملوها أمتعتهم وراحت تمخر عبـاب مياه البحار بحثا عن موطن جديد • وبعد أن حلوا بأمم عديدة ، الواحدة بعد الأخرى ، أتوا الى أومبريكوى (Umbrikoi) حيث أنشأوا المدن وأقاموا بها ومع ذلك لم يسموا أنفسهم بالليديين بل التيرسانيين ، بعد اسـم ابن الملك الذى قادهم الى تلك البقعة •

فمن هم أولئك التيرسانيون (Tyrsanoi أو الترسينيون (Tyrsenoi) أو التيرانيون Tyrhenoi) على حد تباين الالفاظ التى أطلقها عليهم الاغريق؟ ان الاغريق أنفسهم لم يربطوا دائما بصورة قاطعة بين أولئك القـوم وبين تيرسانوس ، ابن الملك ، بل بكلمة تيرسيس (Tyrsis) ومعناها قلعـة • فلقد أقام الأتروريون مدنا ضربوا حولهـا أسـوارا بعضها لا يزال يشاهد الى اليوم كما فى فولتيرا (Volterra) •

ويزداد الباحثون اقتناعا بأن التيرسانيين أو الأترووريين كانوا مهاجرين أجانب وفدوا من آسيا الصغرى ، ومعنى هذا فى الواقع أننا نعـود الى النظرية القديمة لهيرودوت حول رحلة بحرية طويلة • وتشير ثقافة الاترووريين وفنهم وعقيدتهم وأساطيرهم الى أنهم ينحدرون من آسيا الصغرى حيث ان فنهم شبيه بفنون بلاد ما بين النهرين وسوريا وكريت وقبرص ومصر بينما تلوح آلهتهم وشخصياتهم الأسطورية وكأنها أبطال الاساطير الآسيوية وآلهتها • كما يتفق تاريخهم والمفاهيم الكلدانية • أما تفسير الحياة

أهم مستعمرات الاتروريين

وتصورات الاحياء العديدة وهي التي تقوم عليها طقوسهم الدينية فلا نعثر عليها الا بين البابليين والحيثيين • فكان تخطيط مدنهم يتم على غرار النظام البابلي ، في صفوف مستقيمة ، كما كانت جذور عاداتهم في الدفن ، وهي التي تتضمن حفظ رفات الميت في قطع من القماش وفي أوعية مكشوفة ، تمتد الى آسيا الصغرى وزيادة على ذلك فان ايطاليا لم تكن تعرف المقابر التي على شكل قباب قبل وصول الأترورين ، وان كان الموكنويون قد أقاموا مثل هذه المقابر ، هذا ويلوح أن آسيا هي مصدر اللغة الأترورية أيضا وهنا نواجه برغم ذلك ألغازا لم يتم حلها بعد •

وثمة مؤلفات بأكملها تتناول اللغة الأترورية وكتابتها، كما أن المجلدات التي كتبها عدد كبير من العلماء الذين قتلوا هذه المشكلة بحثا بعمق وحماس بالغين تملأ مكتبة ضخمة • وان كان بوسعنا التحقق من الحروف المشتقة من اللغة اليونانية القديمة في الأبجدية الأترورية الا أن معنى النقوش المنحوتة على الحجر أو المنقوشة على الطين أو المحفورة في المعادن ما برح سرا خافيا •

ولدينا اليوم قرابة تسعة آلاف نقش اتروري لا تزيد في معظمها على أسماء أو عقود تمليك موجزة أو شواهد قبور والنص الطويل الوحيد الذى بين أيدينا هو مايسمى «بكفن المومياء» زاجرب (Zagreb) وهو عبارة عن درج من الكتان يضم نحو ١٥٠٠ كلمة ، يمثل تقويما خاصا بالقرابين • وكان هذا الكتان قد استخدم في تحنيط أميرة مصرية وهو الآن موجود في متحف زاجرب •

ويضم متحف برلين لوحا فخاريا من سانتا ماريا دى كابوا (Santa Maria di Capua) حفرت عليه نحو ثلاثمائة كلمة ، هي [illegible] فيما يبدو عبارة عن ارشادات في بيروجيا (Perugia) نقشت فوقه ، كما يلوح واضحا اتفاقية عائلية حول استخدام مكان الدفن ويعد الكبد البرونزي الذى عثر عليه في بياكنزا (Piacenza) ، بما عليه من أسماء عديدة للآلهة هامة للغاية اذ يزودنا بفكرة عن استخدام الأتروريين لأكباد الحيوانات كوسائل للتكهن ، وان المحاولات الحديثة الرامية الى اماطة اللثام عن تلك النقوش تقوم على أساس ترجمة الألفاظ العددية الأترورية كما كانت تستخدم في تسجيل احصائيات الموتى •

ومن يعتقد من العلماء أن اللغة الأترورية ضمن اللغات الهندو ـ الأوروبية فقد جانبه الصواب ، ذلك أن تركيب اللغة الأترورية مماثل لتركيب مجموعة لغات الأورال ـ التايك (Ural-Altaic) أى الفينو ـ

اوجريك (Finno-Ugric) ، ونحن على بينة مما كان للغة الأترورية من أثر على اللغة الايطالية بل ومن أن اسم روما نفسها عاصمة ايطاليا مستمد من اللغة الأترورية .

ولقد كتب الامبراطور الرومانى كلوديوس (Claudius) الذى ولد سنة ١٠ ق.م ، تاريخ أتروريا فى عشرين مجلدا ... ذلك العمل الذى لم يعد له وجود لسوء الحظ مع أنه لو لبث قائما لحامت الشكوك حول قيمته ، حيث ان اتروريا كانت قد ازدهرت قبل عصر كلوديوس بأكثر من خمسمائة عام ، كما ان الامبراطور لم يستق معلومات من مصادر أتروية ذلك أن الآتروريين على حد معرفتنا ، لم يتركوا تاريخا مدونا .

وكان الأتروريون ، برغم ذلك ، أول شعب فى ايطاليا يشيد المدن فى صفوف فوق منحدرات التلال وأن كورتونا وخيوسى (كلوسيوم) وفولتير وبيروجيا هى أمثلة لتلك المدن التى أقيمت على التلال . وكلما كان الأتروريون يشيدون مدينة على ضفة أحد الأنهار أقاموا على الضفة المقابلة أخرى للموتى . ومن ثم كان مقر الموتى على مرأى دائم من الأحياء ، كما هو الحال فى فولشى (Vulci) وشيرفيتيرى (Cerveteri) (كايرى) وتاركوينا (Tarquinia) . وكانت الأسوار الضخمة تلف كل مدينة كما كان المعبد يحتل وسطها كما هو شأن بابل ، ورغبة من الأحياء فى الاتصال بموتاهم حفرت آبار عميقة فى الأرض ليتسنى لهم أن يكونوا على مقربة ممن فارقوهم .

وكانت ايطاليا فى أيام الأتروريين مازالت كثيفة الغابات اذ أن ما شيده الأتروريون من بيوت وهياكل وقناطر وأماكن مقدسة كان من الخشب .

ووصف الرومان الرجال الأتروريين بأنهم جماعة من الناس طابعهم العربدة والشراهة وسمتهم المميزة هى ضخامة الأبدان ولكن لايغيب عن بالنا أن الرومان ظلوا مئات السنين يقاتلون الأتروريين ولم يبدوا يوما اعجابهم بأعدائهم البواسل لقد ضرب الرومان حصارا حول فيى (Veii) أهم مدينة بجنوب أتروريا دام عشر سنوات قبل أن تسقط فى أيديهم سنة ٣٩٦ ق . م . وبالرغم من استمرار القتال العنيف زهاء ثلثمائة عام أخرى الا أن الاستيلاء على المدينة كان بحق بداية لنهاية الأتروريين .

وأما الذين قادوا الأتروريين فى معارك فيدناى (Fidenae) (٤٢٦ ق.م) وسوتريوم (Sutrium) (٣٥٦ ق.م) فهم الكهنه الذين يلوحون بالثعابين الحية والمشاعل الموقدة ولبث الرومان بعد ذلك ثمانى سنوات يقاتلون قتالا مريرا ضد مدينة تاركونيا حيث قدم الأتروريون

٣٠٧ أسيرى رومانيين قربانا لآلهتهم ، فما كان من الرومان الا أن انتقموا لأنفسهم برجم وقطع رؤوس ٣٥٨ فردا من الطبقة الأرستقراطية في السوق الفسيح سنة ٣٥٣ ق٠م ٠ ومع ذلك تعذر عليهم الاستيلاء على مدينة فولسينى (Volsini) الأترورية قبل عام ٢٦٥ ق٠م ولم تمنح الجنسية الرومانية للأترووربين الا فى ٨٩ ق٠م ٠ غير أن بعض المدن الأترورية القليلة المنعزلة واصلت بعد ذلك مقاومتها مما اقتضى من سولا قتالا وحشيا دام ثلاث سنوات قبل أن يبسط نفوذه نهائيا على بوبيولونيا (Populonia) وفولاترای (Volaterrae) عام ٧٩ ق٠م لقد أظهر الاتروريون ولا ريب دفاعا بطوليا ، وليس من المعقول أن يكون مثل هؤلاء القوم مترهلين ومنغمسين فى لذاتهم كما يصفهم الرومان ٠٠

وكانت نساء الأتروريين يقفن على قدم المساواة مع رجالهن فى الحقوق وكن يشاركنهم الاحتفالات والألعاب والاجتماعات ٠ وتشهد التماثيل والصور العديدة على حب الزوجين الأتروريين الذى كان يسمو الى حد التضحية بالنفس والتوافق التام بل يذهب البعض الى حد القول بأن المجتمع الاتروری كان من النوع الذى يدين لسلطان ربة الأسرة ٠ ولقد كان لروما ملكة أترورية تدعى تاناكويل كانت ، فيما يبدو ، من أعظم نساء العالم القديم اذ أنها قد وهبت القدرة على كشف الأسرار ومنحت من القوى السحرية ما مكن لها من أن توجه عواطف عرائس روما على النحو الذى يروقها ٠ هذا وكانت النساء الأتروريات يعرفن بجمالهن الساحر ٠

وكانت الحياة المقبلة هى التى تحكم حياة الأتروريين على الأرض فلم يحى الأتروريون حياة طابعها الاستهتار وعدم الاكتراث ، بل جعلوا فكرة الموت ماثلة على الدوام أمام أبصارهم ٠ وكان نظام الكهنوت يتحكم فى الرعية ويوجهها كما يشاء كعهدنا به فى بابل ومصر كما أن الشوارع والمعابد والبوابات والميادين العامة كانت تكرس لواحد أو آخر من أهم الآلهة الثلاثة : تينا (Tina) وأونى (Uni) ومنيرفا (Minerva) ٠

وكانت الجنائز تتميز بما يقام من احتفالات كبرى تكريما للميت ، وبالمسابقات الرياضية ، وبالرقص والغناء على الناى والتمثيل الصامت ، والواقع أن أسلوب تفكيرهم فى الحياة السرمدية الى جانب ما قاموا به من مبان وصور للموتى هى التى أماطت اللثام عن الجانب الأكبر مما يتوفر لدينا من معلومات عن الحضارة الأترورية ٠ فلقد كشفت المدافن فى سيرفيتيرى وتاركونيا ، على سبيل المثال ، عن بيوت كاملة للموتى حفرت فى بطن الأرض كما عثر فى مدافن أتروريا على أدوات ثمينة وآنية رائعة

للزهور وحلى ذهبية وصور بديعة · وبينما كان العبيد الرومان يدفنون فى مقابر مشتركة فان رفات العبيد الأتروريين كان يودع فى الغالب الأعم أوعية تحيط بتابوت سيدهم ·

ويرجع الفضل أساسا الى الأتروريين فيما نقلته روما عن الشرق من ثقافة وحكمة فمنهم تعلم الرومان فن بناء المدن وعنهم نقلوا واقعية النحت الأتروري وتأثرت حياة روما الفنية بشدة بأزياء اتروريا وموسيقاها ومسرحها · كما أن الأتروريين هم الذين أدخلوا الى ايطاليا العرافة والتنجيم والعلوم الطبيعية الى جانب نظرية منطقية حول البرق · ومن ثم ظلت آثار الأتروريين باقية بعد أن دمر الرومان مدنهم بفترة طويلة ، وكان الأباطرة الرومان ، جالبا Galbia وفسباسيانوس (Vespasian) وهادريان Hadrian واسكندرسيفروس (Alexander Severus) ودقلديانوس (Diocletian) من أنصار نظريات العرافة الأتروربة التى كانت تستخدم فيها أحشاء الحيوانات ، كما استلهم دانتى (Dante) الذى كان يظن أن ملامحه أترورية ـ تصويره للجحيم من جدران قبور الموتى الأترورية بعد ذلك بزمن طويل ·

وعلى الرغم من أن سيطرة الأتروريين على ايطاليا لم تدم أكثر من سبعمائة عام فان ثقافة هذا الشعب الذى يكتنفه الغموض والذى يضم العرافين والمنجمين ما زالت حية وأصبح عدد مقابرهم الذى يكتشف يتزايد باستمرار ، والوجوه المنحوتة فوق توابيتهم وتنم عن ذكاء خارق تتطلع الينا فى ابتسامة وكأنها تنعم النظر فى الخلود · تلك الوجوه التى تنم عن قسط وافر من الحكمة والنبل ممزوج بشىء من السخرية والتهكم كما أن شفاههم الصامتة تبدو وكأنها تهمس قائلة : « أن حياتك بدورها لن تدوم سوى يوم واحد ، فلمن اذن تكون الأبدية ؟

ايطاليا

أرض العجول

عند قاعدة تل البلاتين ، وهو احد تلال روما السبعة ، ارض سبخة داب الرومان الأول على دفن موتاهم فيها ثم اصبحت هذه البقعة فيما بعد مكانا للسوق الرومانية (Forum) • وفي هذا المكان من روما الخالدة أمكن منذ سنوات معدودات اكتشاف رفات الرجال الذين قضوا نحبهم منذ ثلاثة آلاف سنة •

ان تاريخ روما ومعه تاريخ امبراطورية عالمية يبدأ بقنطرة •

فعلى مسافة نحو اثنى عشر ميلا من بحر التيرانى تعترض نهر التيبر (Tiber) عقبة صغيرة ••• عقبة كئود هى عبارة عن جزيرة ظلت قائمة فى تلك البقعة منذ الأزل ، ومن هنا تسنى للناس عبور نهر التيبر دون مشقة فوق قنطرة من الخشب • وكانت القنطرة ضاربة فى القدم بل أشد قدما من العصر البرونزى الذى تلاه العصر الحديدى سنة ٢٠٠٠ ق٠م على وجه التقريب • ولم يدق في القنطرة مسمار واحد ولم يستخدم في بنائها غير الخشب الذى كان يحاط بالقدسية التى كانت يوما من خصائص غابات أوربا الكبرى فى غياهب أزمنة ما قبل التاريخ • وقد ظلت للخشب الخصائص السحرية للأشجار المقدسة التى كان سكان أوربا البدائية البيض يتعبدون لها ذات يوم

وعند الطرف الأيسر للقنطرة وفى قلب سهل « لاتيوم » (Latium) الخصيب قامت مدينة روما الخالدة ، حيث دأب راقصو روما على التجمع كل ربيع ليتواثبوا فى رقصات حربية عنيفة بينما تصلصل أسلحتهم وتئن من ذلك الانشاءات الخشبية كما تنتقل الأغانى الساحرة عبر النهر الى الضفة المقابلة • وكان الكهنة يحرسون قدسية تلك القنطرة ويشرفون على

طقوسها ، كما أن أحد هؤلاء كان مسئولا عن صنع واصـــلاح القنطرة (Pontifex)

كان ذلك قبل ميـــلاد المسيح بأكثر من ألف عام ، ومع ذلك فان الرجل الذى يقوم اليوم ، أى بعد ثلاثة آلاف عام ، ببناء القنطرة التى تربط الأرض بالسماء ، والتى يتعين على المؤمنين الحقيقيين جميعا عبورها ، لايزال يدعى رئيسا (Pontifex) للكهنة وما زال البابا يقطن روما ذاتها التى أقيمت فيها أول قنطرة عبر التيبر • حقا ان روما مدينة خالدة •

وحين نلقى نظرة من شوارع روما الحديثة الى الســـوق الرومانية القديمة تلك الأعمدة الرخامية المتداعية المختلطة بعضها ببعض،والأقواس والتماثيل الرومانية يجول بخاطرنا ، والرعب يكاد يملأ نفوسنا ، ماضى المدينة الخالد ــ وعندما نقف بذلك المكان يلوح وكأن عقارب الساعة تعود الى الوراء ــ تعود آلاف السنين الى اللحظة التى أرسى فيها الحجر الأول ، عندئذ تنتابنا الفكرة التى ربما طرأت لملايين لا حصر لها من البشر عبر أزمنة لا تحصى وهى : منذ ألفى أو ثلاثة آلاف عام سار أناس عبر هذه الحجارة عينها ، أناس مثلنا تلم بهم الهموم وتغمرهم الأفراح وتستبد بهم الأفكار ــ الصالحة والطالحة • ولكى نرى السوق يتعين علينا أن ننظر الى أسفل حيث انه يقل عن مستوى الشارع الحديث قليلا ، مما يبرهن على أن المدن لم تكن تنمو الى أسفل الى أعماق قبورهم وسراديب موتاهم ، بل أيضا الى أعلى ، حين أخذت تحلق فوق الأنقاض ــ التى خلفها جيل بعد جيل •

ومع ذلك تجول بخاطرنا فكرة مذهلة أخرى حول مدى صغر مساحة روما القديمة وضيق حدودها ، رغما عن مبانيها العظيمة الرائعة •

ومن بين تلال روما السبعة (وقد انبسط اليوم جانب منهـــا) تلان أحدهمـــا يسمى « بالبلاتين » والآخـــر « بالكابيتولين » يتخللهما واد به مستنقع كئيب وثلاث برك • وفى شمال شرقى الكابيتولين تل كويرينال الذى كانت تقطنه قبيلة تعرف بالسابين ، كما كانت قبيلة اللاتين تعيش فى تل بلاتين، بيد أن أولئك القوم لم يكونوا من أهل المدن كما كانت روما لا تزال أبعد من أن تكون مدينة ، فقد كان سكانها يعيشون فى أكواخ من الطين تغطيها جذور النباتات كما كان دخان نيرانهم يندفع الى الخارج عبر الأبواب وكانت الأحياء الآهلة بالسكان تحوطها حظائر الحيوان كمـــا كانت الماشية تجوب الطرقات • لقد كان أسلاف سادة العالم مستقبلا بالفعل ، شعبا من الفلاحين الأشداء •

وفى الوادى أسـفل تل البلاتين وفوق الموقع الراهن للســـوق

كانت توجد منطقة للدفن ، وكان الرومان أيام شيشيرون (Cicero) على بينة من أنه أسفل سوقهم انما تقبع مدينة قديمة للموتى ، تعرف بدوليولا (Doliola) ٠ وكان المحظور فى هذا المكان بالذات البصق على الأرض أو رفع الصوت اذ كانت تكمن أسفلهم بقايا خزفية تنذر بالشؤم ترقى الى أزمنة ما قبل التاريخ الى جانب أوعية تضم رفات سكان روما الأول ٠

كان هذا التقليدالقديم هو الذى حمل جياكومو بونى (Giacomo Boni) عالم الآثار الايطالى (١٩٢٥) على التنقيب هناك ٠ وفى الطرف الشمالى من الوادى ، عند أسفل معبد انطونيوس وفوستينا ، ثم كشف منطقة للدفن ترجع الى العصر الحديدى الأول (من القرن التاسع الى السادس قبل الميلاد) وهى أقدم دليل على وجود كائنات بشرية فى السوق ٠

ولكن اذا ما عدنا الى اللاتين فوق تل البلاتين وجيرانهم السابين فوق الكويرينال فانه يمكن استنتاج أن الحروب نشبت بين التلين تماما كما كانت تقوم فيما بعد بين المدن ثم بين الولايات وأخيرا بين الدول ٠ ومع ذلك أتى اليوم الذى أبرم فيه سكان ضلخا قاوا بعده بتصريف مياه المستنقع القابع أسفل التلين وراحت القرى تمتد وأصبح وسط المستنقع سوقا عامة ٠

وفوق الصخور النابتة من المنحدرات السفلى لتل الكابيتولين آقام الرومان مذابح لهيهم ســـاتورن (Saturn) وفالكان (Vulcan) كما أنهم شيدوا فوق تل البلاتين معبدا للآلهة فيستا (Vesta) ودارا لكاهناتها من العذارى الراهبات ٠

وكان لشعب روما القديم مجموعة عجيبـــة من الآلهة أمثال باليس (Pales) . الإلـه الحامى لقطعـان الماشـــية ، وديفـيرا (Deverra) الهة عصا المكنسة وجانوس (Janus) . الاله ذو الرأسين الذى يحرس الباب الأمامى الذى كان بدوره مقدســـا ٠ هــــذا الى جانب فاونس (Faunus) اله الغابات الذى كان « الرجال الذئاب » يحتفلون بعيده المقدس « اللوبركاليا » ويرقصون وهم عراة الأجساد فوق تل البلاتين ويلهبون ظهور النساء بالسياط لحثهن على الاخصاب ولتسهيل عمليـــة الولادة ٠

وأما الرجال الذئاب فلهم رواية مســـتقلة : كانت ايطاليا فى ذلك الحين أرضا تغطيها الغابات البكر التى كانت الذئاب تتسلل منها الى المدينة وتعوى عواء يبدد سكون الليل من فوق منحدرات التلال السبعة ، فضـــلا عن انقضاضها بين الحين والحين لتخطف طفلا أو طفلين ٠ ويقال ان أنثى الذئب هى التى أرضـــعت الأخوين التوأمين رومولوس (Romulus)

وريموس (Remus) اللذين تنسب اليهما الأســـاطير تأسيس روما سنة ٧٥٣ ق٠م ٠

وكان رومان تلك الأيام شعبا متبربرا يرتدى ملابس وأغطية للرأس من الجلد ورغم أنهم كانوا على دراية بالمذابح والمعابد الا أنهم لم يكونوا بعد قد بدءوا يشيدون المعابد ويقيمون الأصنام ٠ وكانت الماشية فى اليونان فى عهد هوميروس تستخدم كنوع من العملة (نحو سنة ١٠٠٠ ق٠م) كما هو الحال فى روما ٠ وهكذا نجد كلمة (Pecunia) الرومانية التى تعنى « نقود » مشتقة من اللفظ (Pecus) ومعنـــاه « ثور » وحين بلغت الحضارة اليونانية ذروة مجدها ٠ كان اللاتين مازالوا يصنعون الأسلحة البدائية من البرونز ويقدمون العجول قربانا للآلهة فوق جبال البانوس (Mons Albanus) ٠ ولعـــل القبيلة التى كانت تتحدث اللغـــة التى نسميها اليوم باللغة اللاتينية كانت أكثر مهارة من جاراتها ؛ ومع ذلك كانت المصطلحات التى استخدمتها تلك القبائل جميعها متقاربة على نحو حملنا على أن نطلق عليها اليوم (Italic) كما بات الشعب نفســـه يعرف بالايطاليين ٠

وكان الايطاليون الأوائل يشتغلون أساسا بتربية الماشية تلك الحرفة التى أخذت عنها ايطاليا اسمها كما تذكر احدى الروايات المنقولة فاللفظ (Itolos) هو الكلمة اليونانيـــة التى تعنى « عجل » وبالتالى فان ايطاليا «Italia» هى « أرض العجول » ٠

وكان نهر التيبر هو الحد الفاصل بين اللاتين والأتروريين ، ولما دأب الأتروريون على شن هجومهم على قـــرية روما تعلم الرومان فنـــون الدفاع والقتال فى مرحلة مبكرة من تاريخهم ٠ كما نقلوا عن الأتروريين الفيلق ، وهو تشـــكيل لقوات المشاة المدججة بالسلاح التى كانت ترتدى الخوذات والدروع وتحمل الحراب والتروس ٠ ذلك التشكيل الذى كان الأتروريون قد أخذوه بدورهم عن اليونانيين ٠

ولم يكن الرومان حتى سنة ٧٠٠ ق٠م ، يجيدون القراءة أو الكتابة وهذا فن آخر تعلموه من الأتروريين فصاغوا حروفهم على نمط الأبجدية اليونانية التى كان الأتروريون يستخدمونها رغم أنهم كانوا يكتبون من اليسار الى اليمين بعكس ما كان الأتروريون يفعلون ، وهذا هو التعديل الذى أدخله الرومان على الأبجـــدية اليونانية وهو الذى ورثناه نحن فى نهاية الأمر ٠

وفى سنة ٦٠٠ ق ٠ م خضع اللاتين لسيطرة جيرانهم ، وأصبح

« التاركوين » الأترووريون أول ملوك روما • فما أن حل عام ٥٠٩ ق • م حتى أطيح بأولئك الملوك وصارت روما جمهورية •

وأفلح الرومان فى التخلص من السيطرة الأترورية لكن المستعمرين اليونانيين ظلوا يحتلون جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية • وكان هذا الجزء من شبه الجزيرة يعرف باليونان العظمى (Magna Graecia) كما كانت تارنتوم وهيراقليا وريجيوم ولوكرى مدنا يونانية فى ذلك الحين •

لكن كيف استطاعت تلك المدن الحفاظ على قوتها حين كانت اليونان الأم منهوكة القوى وعلى شفا الانهيار • وحينما كان الاسكندر الأكبر ، محارب مقدونيا الذى قهر الجميع يحمل الى مثواه الأخير ، كان عدد كبيرمن الفنانين والعلماء والشعراء مازال موجودا فى اليونان وفى الشرق بصفة عامة كما أن المسرح اليونانى كان يخرج مسرحيات رائعة ، ولكن حينما يصبح الممثلون آلفا من كتاب المسرح تكون النهاية فى العادة قد اقتربت • ولم يحدث أن أقامت اليونان ودول شرق البحر المتوسط حفلات أكثر روعة أو تناولت أطعمة افخر أو نعمت بملاذ أعظم مما شهدته آنذاك • كما ازدهرت التجارة ومع ذلك كان الشرق ضعيفا عسكريا • وكانت روما قد بسطت بالفعل سلطاتها على الجزء اليونانى من جنوب ايطاليا •

وحدث فى تلك الفترة الحرجة أى قبل أن تفرض روما الصغيرة ، حاكمة العالم مستقبلا، نفسها على مسرح الأحداث ــ أنالتقت رومابيروس (Pyrrhus) آخر قادة اليونان العظام •

وكان بيروس ملك ايبروس (Epirus) من أقرباء اوليمبياس (Olympias) أم الاسكندر الأكبر • وظل طيلة حياته (٣١٨ ــ ٢٧٢ ق • م) يشير الى نفسه بأنه من سلالة اخيلوس ، البطل ألذى خاض غمار حرب طروادة • لقد كان بيروس بدوره بطلا ولكنه كان تلك المأساة الأخيرة ، رجل ولد بعد فوات الأوان •• أى رجل فى أعماقه ما زال واحدا ممن يحملون أمجاد اليونان القديمة ، الا أنه كان ينتمى لعصر كانت اليونان فيه قد أنهكت قواها وسلكت طريق الانهيار •

كا نبيروس غلاما صغيرا حين تولى العرش فخلقت مدرسة الحياة منه رجلا حكيما بارعا ، ثم جاء به ديمتريوس (Demetrius) الى بلاط بطليموس كرهينة وكان بطليموس ، الذى كان من القواد المقربين الى الاسكندر ، قد تربع هو الآخر على عرش كان يسود العالم فى وقت ما وقد أسس أسرة البطالمة فى مصر • وفى بلاطه تزوج بيروس من انتج (Antigona) ابنة زوج بطليموس

وأما معقل الهلينية في ايطاليا ـ فخر المراكز الاستعمارية اليونانية فكانت مدينة تارنتوم (Tarentum) الرائعة. وفي عام ٢٨١ ق.م شنت روما هجوما على تارنتوم التى سارعت بطلب يد العون من البلد الأم . فأرسل بيروس الى ايطاليا وزحف لمواجهة الهجوم رأس قوة قوامها ٢٥ ألف مقاتل من بينها الفرسان والفيلة . واشتبك مع الرومان فى هيراقليا (Heraclea) وهزم القنصل الرومانى فالريوس لايفينوس (Valerius Laevimus) فى المعركة التالية . بيد أن المعارك كبدته خسائر فادحة فى الأرواح حتى ان أى نصر باهظ الثمن أصبح حتى الآن يوصف بأنه « نصر بيروسي » .

وكاد بيروس ان يبلغ أطراف روما وألحق الهزيمة مرة أخرى بالجيوش الرومانية ، لكن الرومان أبوا فى اصرار وعناد أن يطلبوا الصلح ، واستطاع بيروس الباسل أن يحقق من الانتصارات العديدة ما أنهك قواه فى نهاية الأمر ، فعبر الى صقلية بهدف طرد القرطاجيين من الجزيرة . فما لبث أن تحالف الرومان مع القرطاجيين وثارت مدن صقلية ضد ما اتبعه القائد اليونانى من أساليب تعسفية . وظل بيروس فى صقلية ثلاث سنوات قبل أن يجرب حظه من جديد فى ايطاليا ، ويشترك في معركة دارت رحاها فى بنفينتوم (Beneventum) عام ٢٧٥ ق . م . ولم تمض على ذلك خمس سنوات ، أى سنة ٢٧٠ ق . م ، حتى سيطر الرومان على جنوب ايطاليا قاطبة .

وقبل أن يغادر بيروس ايطاليا ، وقد استبد به اليأس ، ليعود الى بلاده تكهن بنبوءة جديرة بالاهتمام حول الصراع الرهيب الذى سوف يدلهم بين روما وقرطاجة . لقد مد بصره الى ما بعد أحد عشر عاما ليرى حربا كتب لها الاستمرار أكثر من قرن من الزمان فهتف قائلا « يالها من معركة رهيبة » بين روما وقرطاجة تلك التى أتكهن بها » . هكذا كان الحال فى تاريخ العالم دائما ، دولتان تتحدان فى وجه عدو مشترك فى بادىء الأمر ، فما أن يتم التخلص من هذا العدو حتى يبدأ الصراع بين المنتصرين ؛ تلك هى حقيقة الأمر بالنسبة لما حدث بين روما وقرطاجة ولا تزال تصدق الى يومنا هذا .

واستولى الرومان فى حروبهم ضد بيروس على غنائم كانت من الكثرة بحيث مكنتهم من بناء أشهر قناة فى العالم بلغ طولها ٣٤ ميلا ، تلك القناة التى كانت تنقل الماء النقى من الجبال الى روما والتى كانت راسخة البناء ترتكز على الأقواس الرومانية التى حملتها فى رحلتها الطويلة عبر الريف

ولا يزال أجزاء كبيرة منها باقية الى اليوم ، على الرغم من مضى ما يربو على ٢٢٠٠ عام ٠

ولبث الرومان قرونا يحتسون المياه التى كانت تنقلها اليهم القناة المعلقة في الهواء ، والى هذا اليوم يقف الناس مشدوهين أمام تلك المعجزة الشعب صاعد ، أمام هذا الرمز للقوة التى تحلت بلبـاس من الجمـال وقد انتقلت منها هذه القوة الى ملايين الأوربيين فيما بعد باســم الحضارة والثقافة ٠

قرطاجة

فيلـــة وزوارق

عاشوا بلا اكتراث ، على غرار ما فعل اهل صيلون ،
فى سكينة وطمانينة

سفر القضاء

فى سنة ٣٠٠ ق ٠ م كان الناس يقولون «من الآن فصاعدا لن يكون فى الامكان احراز مزيد من التقدم،فقد بلغنا ذروة المعرفة والحكمة والعبقرية».

فقد كان بروسوس (Berossus) الكاهن البابلى والمؤرخ والمنجم والفلكى يقوم بصـــنع مزولة هائلة ، وكان الرواقيون ، فى القاعة الشرقية بأثينا ، يتباحثون فى معنى الحياة ويناقشون الفضيلة على أنها هى وحدها مصدر السعادة • كما تبين للفلكى الاغريقى أرستارخوس (Aristarchus) أن الشمس هى مركز كوكبنا ، بل وتوصل الى ماهو أعظم من ذلك اذ اكتشف أن الأرض لاتدور حول محورها فحسب بل وحول الشمس أيضا ؛ وسعى الكاهن والمؤرخ المصرى مانيتون (Manetho) الى ربط عظمة مصر ومجدها السالف بالغرب • هذا وقد عجب السوق فى روما بالجماهير الجذلة اذ أصبح بوسع أفراد من العامة أن يتقلدوا المناصب الحكومية منذ ذلك الحين •

وقد غزا شعب غامض أقاليم روما الشمالية ونهبها ثم استقر بها فى نهاية المطاف ، وهؤلاء كانوا هم الكلت Celts) • وفي هذه الأثناء ظهر فى حقول وسط أوربا اختراع جديد هو محراث من الحديد قد زود بآلات مستديرة تعد اول عجلات يشهدها عالم الغرب الشمالى •

وقد حدث ذلك قبل ميلاد المسيح بثلاثمائة عام !

كان أهل قرطاجة يقضون الوقت فى تقاعس فوق أسطح ديارهم ذات الشرفات المكونة من ستة طوابق يحتسون نبيذ جزيرة ساموس وهم فى غمرة الاحساس بأنهم سادة العالم ولم يتصوروا أن يكون هناك من هو أوفر منهم غنى وأكثر منهم قوة وعظمة اذ أنهم فى الواقع بلغوا ذروة التقدم .

وتقسم ايطاليا وجزيرة صقلية البحر المتوسط الى شطرين : شرقى وغربى ، ويقع خليج تونس حيث يكاد شمال أفريقية يحف بجزيرة صقلية ، وبالقرب من شواطىء هذا الخليج وعلى مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة تونس الحديثة ، يشق أحد التلال الساحل ، هذا التل هو اليوم موقع الدير الفرنسى للآباء البيض ، وكاتدرائية القديس لويس والمتحف الأثرى الذى يضم كنوز قرطاجة القديمة التى اكتشفها الأب ديلاتر (Pere Delattre) ولكلمة (Purse) « كيس نقود » الانجليزية أصل طريف ، اذ أن اللفظ اليونانى Byrsa كان يعنى « الجلد » أو حافظة نقود من الجلد ثم أصبح بعد ذلك يطلق على المكان الذى تتم فيه المعاملات التجارية (وهو بالفرنسية (Bourse)) ومن ثم يتضح كيف بات وسط قرطاجة اكبر مدينة تجارية فى البحر المتوسط ، يعرف باسم بيرسا (Byrsa) ، هى أيضا اسم التل، قلعة قرطاجة ، الذى يعد أقدم جزء من هذه العاصمة المذهلة . وفى هذا المكان تم اكتشاف أقدم المقابر البونية ، لأن القرطاجيين كانوا هم البونيين (Punians) وهم الشعب نفسه الذى نعرفه باسم الفينيقيين أو البونيين (Poeni) وهو الاسم المشتق من الصفة (Punicus) أى أنهم من سلالة الساميين ، نفسها ، الذين أطلقوا على وطنهم اسم خاتان (Chanaan) ، بعد اسم « كنعان » التى جاء ذكرها فى التوراة . وكانت صور وصيدا أقدم عاصمتين لها . ولقد أرسى قواعد قرطاجة نحو سنة ٨٠٠ ق.م المستعمرون الفينيقيون من صيدا ، ومن ثم فان المعنى الحرفى لاسمها هو « المدينة الجديدة » .

ويتعين على من يزور تونس اليوم أن يقوم برحلة قصيرة الى الشاطىء ويتسلق تل بيرسا الذى لا يقل ارتفاعه كثيرا عن مائتى قدم ، غير أن المنظر من فوق قمته جد رائع . ومما يثير انتباهنا على الفور السيطرة الكاملة التى كانت قرطاجة تبسطها على البحر ، وعلى الأراضى الداخلية غير المنبسطة التى تمتد غربا الى تونس وبحيرة تونس .

ووصف المؤرخ الاغريقى بوليبيوس (Polybius) ، الذى كتب تاريخ العالم فى ٤٥ مجلدا نحو سنة ١٥٠ ق.م ، قرطاجة بأنها

اغنى مدينة فى العالم فقد كانت أهم مركز تجارى للفينيقيين وتضم الموانىء الفسيحة المحصنة ضد العواصف العاتية ، وفوق تل بيرسا أقيمت الأسوار التى يزيد ارتفاعها على ٦٠ قدما . وكانت المدينة فى أوج مجدها تبسط نفوذها على ساحل شمال افريقية بأسره الممتد من مصر حتى جبل طارق بما فى ذلك جنوب أسبانيا وجزر سردينيا وكورسيكا والشطر الغربى من جزيرة صقلية . وكان البحر المتوسط الممتد من صقلية حتى جبل طارق هو ، فى الواقع « بحر قرطاجى » وعن طريق مخازن السلع فى قرطاجة انتقلت تجارة ذهب الشرق ولآلئه وأرجوان صور ، وعاج افريقيا وجلود أسودها ونمورها ، وعطور شبه الجزيرة العربية ، وكتان مصر ونبيذ اليونان وأوانيها الخزفية . ونحاس قبرص، وفضة أسبانيا وقصدير انجلترا وحديد البا (Elba) . كما توغلت سفنها فى قلب الأطلنطى حتى بلغت جزر كانارى (Canary) وربما وصلت الى جزر آزور (Ezore) أيضا . فهل ثمة غرابة فى أن قرطاجة اصبحت قوة عالمية ؟ .

كان أهل قرطاجة ، حوالى سنة ٣٠٠ ق.م ، شعبا مثقفا يعيش بمعزل عن الشعوب الأخرى ويتسم بشىء من النظام ، كما كانت مدينتهم تفخر بماضيها الذى أمتد خمسمائة عام عاشها فى ثراء وسؤدد . وكان الزائرون الأجانب يحملقون فى دهشة عند رؤية المعابد الرخامية بأعمدتها الذهبية والفضية والتماثيل الرائعة التى صنعتها يد النحاتين الاغريق المهرة ، ومنشآت الميناء التى كانت تعد أكبر ما فى العالم المعاصر كالأرصفة والأحواض والمخازن والورش والمصانع . (لقد بنيت كاتدرائية بيزا الرائعة من كتل الرخام التى نقلت الى ايطاليا من أنقاض قرطاجة) . وأقام سكان قرطاجة الشركات التجارية وطوروا أحدث نظام اقتصادى فى العالم القديم ، وأتوا بكل ما يتعلق بالقروض الحكومية ، واخترعوا أول « أوراق مالية » تصنع من مادة ليست لها سوى قيمتها الاسمية . وكانت ترساناتهم وفيرة المعدات اذ كانوا يعرفون كيف يصنعون الآلات وينتجون الأسلحة ومن المرجح انهم أقاموا أقدم مدفعية فى العالم الى جانب اسطبلات تتسع مساحتها لثلاثمائة فيل . وكان يباع فى سوق المدينة أكثر الاماء جمالا وأشد العبيد الزنوج صلابة فى افريقية . كما كان الزارعون فى قرطاجة يمتلكون أراضى ليبيا الخصبة التى استخدموا العبيد فى زراعتها فقد بلغ ما كان بحوزة بعض المواطنين ٢٠ ألفا من العبيد .

وكان بقرطاجة فيلات وقصور الى جانب العمارات الضخمة الشاهقة والمبانى الحكومية ، وأخذت المدينة بنظام الشوارع المستقيمة المتقاطعة مثلها فى ذلك مثل منهاتن تماما اذ يبلغ كل مجمع من المبانى ٣٦ ياردة

عرضا و ١٣٦ طولا ، تلك هى الشبكة المذهلة التى كشفت عنها عمليات التنقيب ، وفى ميناء قرطاجة كان يوجد ٢٢٠ مكانا لرسو السفن الحربيه. بينما كانت فى وسط الميناء جـــزيرة يتسنى منها للادميرال ألبونى أن يستعرض أسطوله بارتياح ٠

ولو وجد يوما ما يسمى بالبلوتقراطية ، أى حكم الأثرياء ، لكان ذلك فى قرطاجة حيث كانت أكثر الأسر ثراء تسن القـــوانين وتوجه السياسة بشتى ألوانها ٠ أما الرئيسان اللذان كان يتم انتخابهما سنويا فكانا يدركان حق الادراك ان الذهب والفضة عاملان حاسمان فى الحروب ، فالذهب والفضة هما اللذان مكنا شعب قرطاجة من بناء سفنه وتجنيد المرتزقة الأجانب الذين كانوا على استعداد للتضحية بنفوسهم من أجـــل سادتهم الأثرياء ، كما ان الذهب والفضة ساعداهم على الظفر بمعارك بحرية دون أن يعرضوا أنفسهم للأخطار المصاحبة لمثل هذا العمل البغيض وكانت بعض أسر أرستقراطيه تقدم الأدميرالات الا أن أصحاب الملايين فى قرطاجة كانوا بوجه عام يؤثرون البقاء فى ديارهم حيث ينعمون بحدائق سطوحهم الغناء تروح لهم الاماء وهم يطرون الأثواب الأرجوانية لنسائهم الأنيقات ٠

ولم يكن ثمة شك فى أن قرطاجة أغنى دول العـــالم طرا كما كان سكانها يؤمنون بما للذهب من قوة وأثر ، ولم يكن سادة العـــالم فى أبراجهم العاجية على استعداد للتضحية بغير الذهب الا فى أوقات الخطر البالغ ، حين كان أهل قرطاجة يحرقون أبناءهم أحياء ارضاء للبعل مولوخ وللتخفيف من حدة جوع الالهة تانيت (Tanit) وعلى الرغم من ذلك كان أولئك القوم على دراية بوسائل للظفر بالحروب أفضل من الرائحة الكريهة التى تنبعث من الأجساد المحترقة ٠ اذ كانوا يعتمدون عـــلى شجاعة البرابرة المأجورين وفرق الفيلة الكبيرة المدربة على القتـــال ، والأسطول الهائل القوى الى جانب الذهب الذى يفوقها جميعا أهميـــة وفاعليه ٠

ولكن كيف أصبحت تلك العاصمة التجارية على هـــذا النحو من الثراء ؟ ٠

الأمر فى منتهى البساطة فقد كان يسمح للسفن الأجنبية ، وخاصة السفن الرومانية بأن تتجر مع قرطاجة مباشرة دون مستعمراتها ٠ وبفضل هذا الاجراء الحكيم كانت الســـــلع بلا استثناء تمر بسجلات المدينة وأما السفينة التى كانت تخالف الحظر المفروض عـــلى الاتجـــار مع المستعمرات مباشرة فكانت تتعرض للاستيلاء وطرد بحارتها منها ٠ ولقد

راح آدميرال قرطاجي يقول مزهوا : « ليس بوسع الرومان حتى غسل أيديهم في البحر الأبيض المتوسط دون اذن منا » ٠

ونشبت ثلاث حروب ضروس بين قرطاجة وروما هي الحروب البونية الشهيرة التي دامت ١١٩ عاما ٠ وكانت اراقة الدماء بصورة بشعة رهيبة قد بدأت سنة ٢٦٤ ق ٠ م وانتهت عام ١٤٦ ق ٠ م بتدمير قرطاجة التي اضحت أراضيها أحد الأقاليم الرومانية في افريقية ٠

فهل كان شعب قرطاجة جبانا ؟ ألم يبق في مدينة التجار أبطال ؟ ٠

في تلك الأيام كان عبور بحارالعالم المحددة المعالم ، ناهيك عن غير المحددة ، يتطلب قلوبا جريئة باسلة وقد برهن الفينيقيون على شجاعتهم المرة تلو الأخرى ودافع هؤلاء الساميون الذين يسميهم مومسن (Mommsen) بالآرامين عن سيادتهم القومية ضد ما انطوت عليه الحضارة اليونانية من اغراء ، وضد أساليب القسر جميعها التي لجأ اليها المستبدون من الشرق والغرب، باصرار لم يرق اليه أي شعب من الشعوب الهندوأوربية ، مستخدمين في ذلك لا من الاسلحة الروحية ودمائهم » ٠

بيد ان التنظيم السياسي هو ما كان يفتقر اليه القراطجة ، فنحن نقرأ في التوراة : « لقد عاشوا بغير اكتراث ، على غرار ما فعل أهل صيدون ونعموا بالهدوء والطمأنينة » (سفر القضاة) وعندما حققت روما النصر في النهاية ، كان الرجال الذين عاشوا الحرب البونية الأولى والذين خاضوا غمار الثانية قد ماتوا منذ وقت طويل ٠

كيف بدأت شرارة الحروب تندلع ؟ ٠

كانت مدينة مسينا بصقلية هي السبب المباشر ٠ فبادىء ذي بدء نزل بها الحاكم الروماني كايوس كلوديوس (Caius Claudius) وألقى القبض على القائد القرطاجي هانو (Hanno) ، فما كان من القراطجة الا أن أعلنوا الحرب بعد تفكير طويل وأناة ٠

وبالطبع كان السناتو الروماني على يقين من ان أي تدخل في صقلية قد يعني نشوب الحرب مع قرطاجة ، ومع ذلك كانت الغلبة للفريق المناصر للحرب في روما ، وهكذا بدأ أعنف فصل من فصول تاريخ العالم وأكثرها دموية ، وانتهى بأن بسطت روما سيادتها على البحر المتوسط ٠

ولقد فاق القراطجة سائر شعوب العالم في بناء السفن اذ كانوا يبنون سفنا حربية خماسية أي ذات خمسة سطوح للتجديف ويقوم

بتسييرها عبيد تملكهم الحكومة ممن كانوا يتلقون أروع التدريبات ، على حين ان ربابنة السفن كانوا رجالا مهرة طابعهم الجرأة والاقدام ٠

ولم يكن الرومان ، من الناحية الأخرى ، يرقون كثيرا عن المزارعين كما كانوا يجهلون بناء السفن كلية ٠ ثم أتى اليوم الذى تحطمت فيه احدى سفن قرطاجة على ساحل روما ، وعلى غرار تلك السفينة المحطمة استطاع الرومان بناء ١٢٠ سفينة فى فترة وجيزة زودت كل منها بنحو ثلاثمائة حداف ومائة وعشرين جنديا ٠

ولم يكن الظفر بالمعارك البحرية فى ذلك الحين يتحقق بغير هجوم بمقدمات السفن القوية على سفن الأعداء لاغراقها ، تلك المناورة التى كانت تتطلب خبرة فائقة كان الرومان يفتقرون اليها ولكن الحاجة أم الاختراع وهكذا بدأ الرومان أهم اختراع فى تاريخهم حين راحوا ينصبون فى مقدمة سفنهم كبارى متحركة ، وهى أرصفة ثلاثة يمكن أن تتدلى فوق المقـــدمة أو على أى من الجانبين ٠ فلو ان احدى سفن العدو هاجمت واحدة رومانية ألقى الرومان « الكوبرى » المتحرك ليستقر على ظهر سفينة العدو ويثبت فى الخشب بوساطة خطاف حديدى ٠ وكان قادة سفن قرطاجة الذين لم يتدربوا الا على أسلوب تدمير السفن لا يحتفظون فوق ظهر السفينة الا بنفر من الجنود لا يتعدى أصابع اليد الى جانب ثلاثمائة جداف ٠ وما أن يثبت الرومان خطاطيفهم فى سفينة العدو حتى يندفع نحو مائة وعشرين مقاتلا عبر سقالة المركب ويقاتلون بسيوفهم ، وهكذا حول الرومان معركة ميلاى (Mylae) البحرية (٢٦٠ ق٠م) الى نوع من الحرب البرية وتاريخها ذو أهمية بالغة اذ يشهد أول انتصار بحرى عظيم للرومان ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد خسر الرومان ، مع مرور الأيام أسطولا بعد الآخر حتى بلغ ما غاص فى أعماق البحر المتوسط سبعمائة سفينة رومانية ومائتــا ألف مقاتل ، وما لبثت روما أن استدعت آخر ما بحوزتها من الاحتيـــاطى وأقامت أســـطولا جديدا فهزمت البونيين (القراطجـة) راستسلمت لها قرطاجة ، وبذلك وضعت الحرب البونية الأولى أوزارها سنة ٢٤١ ق ٠ م بعد معارك دامت ٢٤ عاما ، وفرض الرومان عـــلى قرطاجة تعويضات قدرها ٣٢٠٠ وزنة من الذهب الى جانب ضم ممتلكاتها فى غرب صقلية الى روما ٠ ولاح كما لو ان قرطاجة قد اضمحلت ولم يعد لها قائمة ، فلقد تصدعت قوتها البحرية ووقع تمرد بين صفوفها واندلعت ألســنة اللهب لترسم فى سماء المدينة طبقة حمراء متوهجة نذير شؤم ونحس ٠ وبالرغم من ذلك أخذ النظام يستتب شيئا فشيئا وعاد القراطجة الى احتساء النبيذ فى شرفات ديارهم ، يهب عليهم نسيم الماء البادر ٠

وأما الرجل الذى أخمد حركة التمرد التى وقعت بعد الحرب فكان قائدا عسكريا يدعى هاميلكار (Hamilcar) الذى بعد أن أنهى مهمته فى الداخل أبحر بصحبة ابنه الشاب الى جنوب أسبانيا وراح ، فى تحد ، يحصن ممتلكات قرطاجة فيما وراء البحار ويوسع فى نطاقها . فلم يكن من سبيل آخر للانتقام .

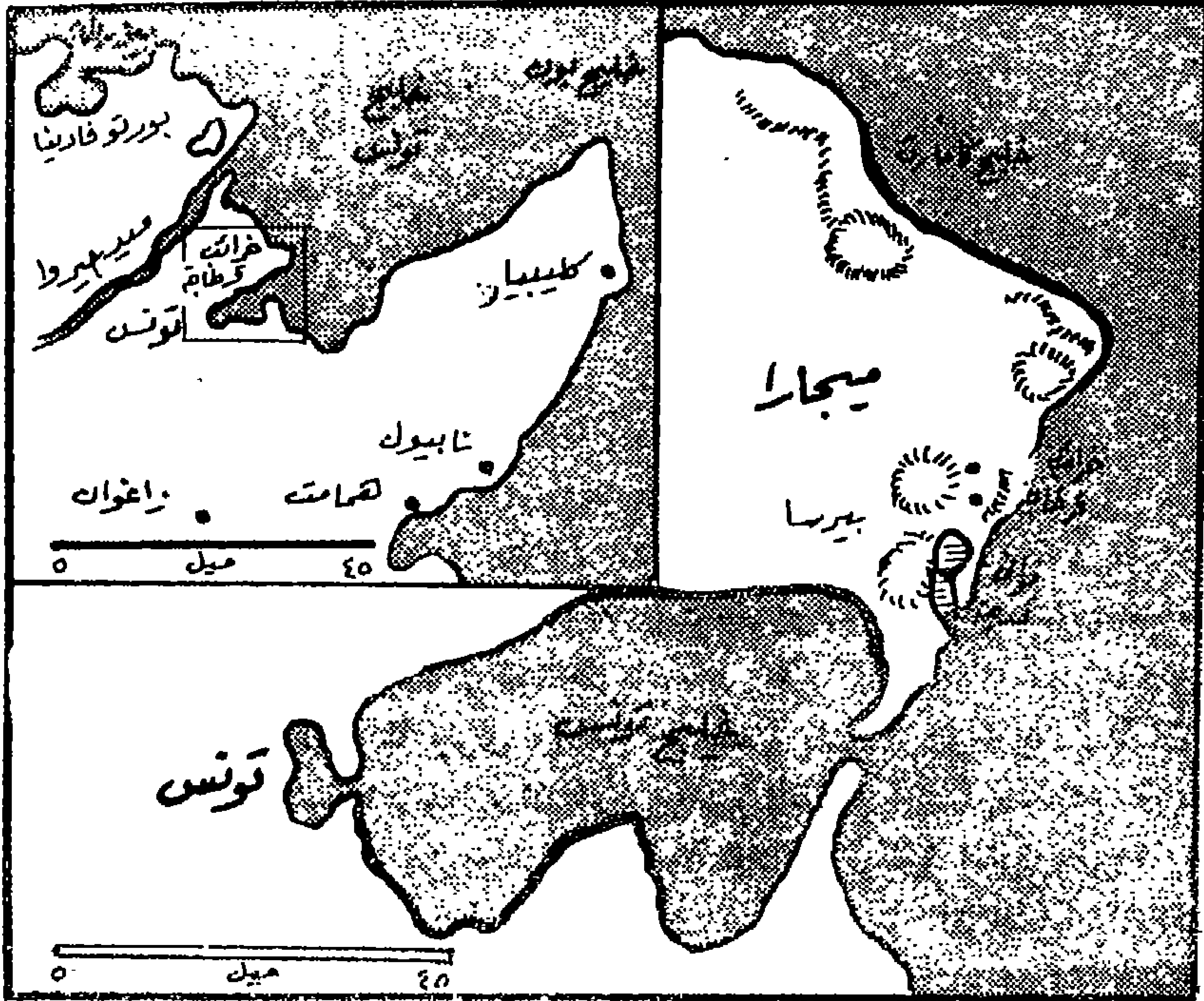
وأقسم هانيبال (Hannibal) الصبى البالغ من العمر تسعة أعوام وهو الى جوارهاميلكار ـ بأمر من أبيه على ان كراهيته لروما سوف تدوم وهكذا ضمن الأب مستقبل خطته .

ومات هامليكار وأخذ نجم هانيبال الشاب يتألق فى العالم على نحو لم يسبقه اليه أى قرطاجى آخر ، ففى العشرين من عمره تولى قيـــادة الفرسان ، وفى الخامسة والعشرين أصبح قائدا عاما لجيش قرطاجة فى أسبانيا . لقد قهر هانيبات أراضى واسعة وحاصر ساجو (Saguntum) (وهى مدينة بجنوب الابرو) ، ولما كانت ساجونتوم ترتبط بمعاهدة دفاع مع روما فقد حذره رسلها من ان المدينة تقع فى منطقة نفوذ روما ، لكن التهديد لم يثن من عزم هانيبال وسقطت ساجونتوم فى قبضته بعد ثمانية أشهر ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى ظهر فى قرطاجة وفد رومانى يطلب تفسيرا مقنعا لما جرى وأعلن المتحدث بلسان روما بعـــد أن ضم أطراف ثوبه الفضفاض معا ، ان الأمر يعنى السلام أو الحرب وعلى قرطاجة أن تختار . فما كان من حكماء قرطاجة الا أن تركوا القرار لروما التى لم يكن مبعوثها دبلوماسيا فآثر الحـــرب ، وأومأ القراطجة بالموافقـــة واندلعت نيران الحرب البونية الثانية .

وسرعان ما أرسلت روما قواتها الى أسبانيا فى الوقت الذى أخذت فيه تستعد لشن هجوم ضد قرطاجة ذاتها . بيد ان هانيبال وضع خطة أكثر جرأة ، وعلى رأس قوة ضالعة فى الحروب ومدربة على فنون القتال اخترق اسبانيا وعبر جبال البرانس (Pyrenees) وشق طريقه فى جنوب فرنسا ، وفى النهاية عبر الألب الى ايطاليا آخذا معه مجموعة من الفيلة ، ولقى الآلاف من جنوده ، الذين اعتادوا مناخ أســـبانيا وأفريقيا الدافىء مصرعهم من شدة الجوع والبرد فوق ممرات الألب الشاهقة ، ومع ذلك بلغ هانيبال فى النهاية وادى نهر بو (Pc) دون أن يمس نصف جنوده ســـوء .

وهذا المشروع يعد من أعظم الانجازات الحربية أهمية فى تاريخ العالم ويمكن ان نصفه بأنه أفضل ما عمل فى علم اطعام الجنود وايوائهم

فى الميدان ٠ ولقد احتدم حول اختراق هانيبال لجبال الألب جدل علماء الجغرافياوالمؤرخين والخبراء العسكريين ـ وعلماء الأثنولوجيا على نحو يجـدر معه تحمل مشقة متابعة قائد الفرســـان العظيم وخبير التنظيم والاستراتيجية فى رحلته عبر المرتفعات المكسوة بالجليد التى يحتمل أن تكون من بينها ممر « سانت برنارد » ٠



قرطاجة
(ماساة هانيبال)

وبهذه المناسبة ارى ان تدمير قرطاجة امر لا مندوحة منه
كاتو (Cato) فى السناتو الرومانى

حلف تيتوس ليفيوس (Titus Livius) المؤرخ الرومانى وأحد المعاصرين للمسيح، وراءه ، عملا أثريا رائعا فى مائة واثنين وأربعين مجلدا، وولد ليفى (Livy) كما نعرف سنة ٥٩ ق٠م ومات فى عام ١٧ م ٠ ولم يبق من مؤلفاته سوى خمسة وثلاثين كتابا ٠

وبحكم أنه رومانى أصيل رفع ليفى من شأن الفضائل الرومانية التقليدية ، وأضفى على ماضى روما طابعا مثاليا ، وأتى بما اعتبره العالم القديم بالمجد المتوج لفن كتابة تاريخ روما ، وما من شك فى أن سببا وجيها حمل ليفى ، وهو الرومانى المتقد غيرة وحماسا لبلاده ، على الاشادة بهانيبال أخطر عدو واجهته بلاده (وجدير بالذكر أن السواد الاعظم من المؤرخين الرومان واليونانيين قد كتبوا عن هانيبال بأسلوب امتزجت فيه الكراهية بالحسد) فلنستمع الى ما يقوله ليفى عن القائد القرطاجى ٠

« لقد واجه هانيبال الأخطار بحذر بالغ ، كما كان فى اللحظات الطارئة يتصرف باتزان ورباطة جأش ، فلم يدع المصاعب تفت فى عضده أو توهن من روحه المعنوية ، ولم يأكل أو يشرب الا ما يمسك الرمق وليس من أجل المتعة ٠ وما كان لفترات يقظته ونومه ارتباط بالليل أو النهار فكان ينام اذا اتسع وقته دون ما حاجة الى فراش وثير أو سكينة للهجوع وغالبا ما كان يشاهد وهو مضطجع على الأرض بين نقطتين للحراسة ملتفا بكاب (رداء يغطى الكتفين) عسكرى قصير فحسب ، ولم يحدث الا نادرا أن ارتدى ثيابا مغايرة لما كان رجاله يرتدون ، بيد أن أسلحته وما له من جرأة فائقة

على الاقتحام والهجوم انتزعت اعجاب الجميع · كان دائما أفضل فارس وأبسل جندى بين مشاة جيشه العظيم ، اذ كان أول من يخوض غمار المعركة وآخر من يترك معمعة القتال » ·

وكانت خطة الرومان ، هى أن ينقلوا جيشهم الرئيسى من صقلية الى أفريقية عبر البحر ويهاجموا قرطاجة ، وفى هذه الأثناء يوجهون جيشا ثانيا الى أسبانيا للابقاء على العدو مشغولا هناك · فلم يكونوا ، بحال من الأحوال ، راغبين فى القتال فوق الأراضى الايطالية بيد أن هانيبال عقد العزم على أن ينقل الحرب الى أبواب روما ذاتها ·

كانت فكرة جريئة محفوفة بالأخطار ، فمنذ أن انتصرت روما فى الحرب البونيه الاولى أصبح أسطولها يفوق كثيرا أسطول قرطاجة ، ومن ثم واجهت هانيبال معضلة نقل الحرب الى ايطاليا دون ارسال جنوده عبر البحر الأبيض المتوسط · فما كان منه الا أن وضع خطة ــ ولا يغيب عن بالنا أن ذلك وقع سنة ٢١٨ ق·م ــ تعد من أجرأ خطط الاستراتيجية العسكرية فى تاريخ العالم · فلئن تسنى له أن يقود جيشا عبر اسبانيا وجنوب فرنسا ثم يتسلق جبال الألب وينحدر الى وادى نهر البو لبعث الرعب فى نفوس الرومان وأثناهم عن فكرة شن هجوم على قرطاجة ·

لكن هانيبال لم يندفع عشوائيا نحو تنفيذ خططه الضخمة بل راح يمعن التفكير فيها ويرسمها بكل دقائقها ، والحقيقة أنه أعد حملته ضد ايطاليا بحذر يفوق ما اتسمت به حملات الاسكندر الأكبر ضد آسيا من حيطة ، والعامل الذى كان يؤازره فى خطته هو خضوع شمال ايطاليا للغال الذين كانوا مصدر قلق دائم للرومان ، ولو أنه بلغ الجانب الجنوبى للألب لتسنى له الاعتماد على تأييد الغال ومناصرتهم له ·

وحشد هانيبال جيشا قويا فى أسبانيا ، ورفض الاعتماد على المرتزقة لكنه جمع قوات قرطاجة المدربة التى زودها بأحدث الاسلحة · وأرسل فرق الكشافة عبر الالب لاكتشاف الطرق والممرات العديدة اذ أن المنطقة فى ذلك الحين كانت بالكاد معروفة ، وبعث برسل الى الغال فى شمال ايطاليا لاستمالتهم الى تأييد خططه قبل وصوله بوقت طويل ، كما أنه عقد معاهدات الصداقة مع عدد كبير من قبائل الغال حيث أقام السفارات وقدم المعونات ، ولم يقلل هانيبال من شأن الاخطار البالغة التى كانت تجابهه ، بيد أنه كان يدرك فى الوقت نفسه ما للمفاجأة من أثر وفاعلية ·

وكان الرومان دهاة لا يتهاونون فى صغائر الأمور ولكنهم كانوا مهملين فى عظائمها ، فتركوا قرطاجة عشرين عاما حتى تستبرد قوتها ، تلك الفترة التى كان بوسعهم ابانها غزو أفريقية ، كما كانت الفترة كافية لأن تؤجج

روح العدوان فى القراطجة وفات روما أن تدرك ما انطوى عليه الغزو البوني لأسبانيا من أخطار وتهاونت فى اخماد الكلت والسيطرة على ممرات الألب، وكان قرارها الوحيد هو أن تخوض غمار الحرب البونية التالية فوق الأراضى الأفريقية ، ومضت تحلم بهذه الفكرة الى أن اختار القراطجة مكان معركتهم .

وكان هانيبال قد بلغ فى شـــهر مايو من عام ٢١٨ ق٠م الحادية والثلاثين من عمره حين قاد جيشـــه العرمرم من قرطاجة الجـديدة وهى قرطاجنة الحالية ٠ وكانت الصفوة المنتقاة فى هذا الجيش من القراطجة الضالعين فى القتال ومن الليبيين والأسبان كما كان ثلثاه من الافريقيين القراطجة ، وهم رجال صقلتهم المعارك يتميزون بالنظام وبالوفاء التام لقائدهم ٠ ومما يتفق مع الصورة التى فى أذهاننا لهذا القائد المغوار بما له من قوة شخصية وقدرة على كبح جماح النفس أنه أعاد زوجه الأسبانية الحسناء اميليكيا (Imilcea) وابنه الصغير الى قرطاجة قبـــل رحيله لتمضى ستة عشر عاما دون أن يضمها الى صدره مرة أخرى ٠

وفى أواخر شهر مايو عبر هانيبال نهر الأبرو وزحف فوق البرانس وبعد أن عبر الرون اخترق وادى نهر الايسير (Isere) الأعلى وبلغ جبال الألب الشاهقة بالقرب من ممر « سانت برنارد » الصغير ، حيث تعرض طوال هذه الرحلة ، وخاصة فى جبال تارينتس ، لهجوم دائم من جانب قبائل الكلت المعادية ٠

واحتدم الجدل بين المؤرخين والجغرافيين حـــول الطريق الذى ســـلكه هانيبال واخترق فيه جبال الألب ٠ اذ يعتقد بروفسير جيتانودى سانكتيس (Gaetano de sanctis) وهو عالم مرموق من علماء الآثار بجامعة روما أن هانيبال سلك ممر الألب المعروف بجبل جنيفر ، وهذا خطأ أكيد ويجدر بدائرة المعارف البريطانية أن تصحح ما ورد بهـــا حول هذا الموضوع ومصدرنا الوثيق هو المؤرخ اليونانى بولبييوس الذى ولد عام ٢٠١ ق٠م وشاهد قرطاجة تحترق سنة ١٤٦ ق٠م ووافته المنية عام ١٢٠ ق٠م وتنطوى معالجته للحرب البونية الثانية على تفاصيل دقيقة للغاية حـــول المسافات التى قطعها هانيبال ابان زحفه ٠ ويصف ليفى (Livy) بدوره زحف هانيبال عبر الألب ، لكنه عاش بعد وقوع الحادثة بمائتى عام ولكن روايته على درجة من جمال الكتابة تجعل من العسير تصديق كل ما جاء فيها ٠ أما بوليبيوس فكان مغرما بالأمور العسكرية وسجل روايته بعد حملة هانيبال بما لا يقل عن جلين ٠ وفى عهـــد قريب تجشم الليفتنانت كولونيل ثيودور ايرولت دودج الأمريكى مشقة تقصى حقيقة روايات كل من بوليبيوس وليفى فجعل يطوف بطرق الألب وهو يمسك بكتابيهما فى يده حتى وثق من ممر سانت برنارد الصغير ، وعند ذلك وضع كتابا

من الطراز الأول عن هانيبال فنفد فيه روايات غيره من المؤرخين بما فيهم نابليون نفسه الذى كان شديد الاهتمام بالطريق الذى سلكه هانيبال وكان يعتقد أنه اختار مونت سنى (Montcenis)

وعند أسفل ممر سانت برنارد ترتفع الصخرة البيضاء الشهيرة (La Roche Blanche) وهى صخرة طباشيرية تشرف على الطرق المؤدية الى الممر حيث عسكر هانيبال بقواته وقضى ليلة كاملة يشرف على عملية التسلق الشاقة لفرسانه وبغال الحمل فى جيشه والفيلة ، وحدثت معارك دامية أثناء الليل الا أن الوصول الى القمة قد تم فى اليوم التالى حيث أذن هانيبال لجيشه بالراحة على شواطىء بحيرة ـ صغيرة عند منبع نهر الدوريا ٠

كان قوام هذا الجيش نحو ٥٠ ألف مقاتل من المشاة وتسعة آلاف فارس وسربا من الفيلة عدده ٣٧ فيلا ، تلك الفيلة التى تثير أمامنا معضلة تاريخية أخرى جديرة بالاهتمام فالقراطجة كانوا قد أخذوا فكرة الفيل المدرب على الحروب عن ملوك الاغريق ، ربما عن بيروس (Pyrrhus) أو الاسكندر نفسه ، وكانوا يستخدمون الفيلة الافريقية وليست الهندية ولو أن سائقيها كانوا هنودا ٠ وربما كانت المنطقة التى عاش فيها الفيل المتوحش أكثر امتدادا نحو الشمال مما هى عليه الآن والا للجأ القراطجة الى وسط أفريقية لاحضارها عبر طريق القوافل التى تخترق البيداء ٠

وما يمكن أن تقطع به هو أن هانيبال قد اصطحب تلك الفيلة أساسا لاثارة الرعب فى نفوس شعوب الكلت والغال اكثر منه لاستخدامها فى القتال حيث يتعذر على المرء التثبت من مدى صمود هذه الحيوانات المفترسة فعلى الرغم مما تثيره من رعب فى نفوس من لم يسبق لهم رؤيتها ، كان هياجها فى الغالب الأعم أشد خطرا على أنفسهم منه على أعدائهم ، ولهذا دأب سائقو الفيلة فى الحرب البونية الثانية على حمل مطارق خشبية ثقيلة وأوتاد حديدية طويلة يمكن غرسها خلف أذن الحيوان وقتله لو أنه هدد بالتمرد ٠

وعبر هانيبال جبال الألب ، بعد أن فقد فى الطريق أكثر من نصف جيشه ولم يستطع أن يحشد غير عشرين ألف جندى وستة آلاف فارس وعدد من الفيلة يتراوح بين خمسة عشر وعشرين فيلا ، والأنكى من ذلك أنه أصبح فى بلاد بوسعها ، من الناحية النظرية أن تعبىء ٢٨٠ ألف رجل وتجند حوالى ضعف هذا العدد من بين حلفائها ٠ ومع ذلك لم يكن لدى الرومان أكثر من ٤٠ ألف مقاتل تحت السلاح ، وما أن احتشد أول جيش للرومان فى وادى البو حتى تفوقت عليه قوات قرطاجة ٠

وانضم الغال الى قوات هانيبال وفق خطة مرسومة فضاعفت من قوتها وعند بحيرة تراسيمينوس استطاع أن يقضى على جيش ثان لروما · وفى تلك الساعة الحاسمة سارع الرومان بتجنيد المزيد من القوات وأسندوا قيادتها الى تابيوس وهو رجل أرستقراطى مستبد حذر يعرف فى التاريخ « بالمعطل » (Cunctator) ذلك أنه على الرغم من تتبعه لجيش هانيبال أينما ولى لم يجرؤ قط على أن يشتبك معه فى معركة حامية ·

فما كان من روما الا أن أسندت القيادة العليا لقنصلين (*) ، وصدرت اليهما الاوامر بتوجيه ضربة قاضية لهانيبال ، والتحم الجيشان ودارت المعركة فى سهل ضيق بالقرب من كاناى (Cannae) فى ٢١٦ق·م كان الجيش الرومانى أكبر عددا من القرطاجيين بيد أن هانيبال كان أكثر براعة فى وضع الخطط الحربية الى جانب تفوقه فى سلاح الفرسان فما أن باغت هانيبال الجييش الرومانى بهجوم على جناحه ـ وهو التدبير الذى أدى الى حرمان جنود الرومان المثقلين بالعتاد من القدرة على المناورة واحالتهم الى حشد واهن ـ حتى أعمل الذبح فيه ، ففى ذلك اليوم قضى على ٥٠ ألف من قوات روما وحلفائها وأسر عشرة آلاف · ولما بلغت الأنباء روما أصدر السناتور قرارا يحظر على النساء اللائى فقدن آباءهن وأزواجهن وأبناءهن ، العويل والبكاء ، وراحت المدينة تعد نفسها للحصار بيد أن هانيبال لم يظهر ليضرب حولها الحصار ، ففرسانه الذين ظفروا بالمعارك عجزوا عن مهاجمة الأسوار ، اذ أن هانيبال لم يستطع أن يحمل معه أية قذافات حربية أو آلات لهدم الأسوار فى حملته الطويلة الأجل ·

وكما يحدث عادة فى الأزمات تخلى عن روما بعض حلفائها مثل مدينتى سرقوسة وكابوا الكبيرتين ، وبرغم ذلك ظل السناتو الرومانى رابط الجأش هادئا،وبينما انطلق هانيبال يخترق ايطاليا ويدمر البلاد أخذ الرومان يجندون فرقا جديدة كل عام · لكن حقول ايطاليا كانت قد دمرت مما حمل على استيراد الحبوب بأسعار أوقات الحروب الباهظة · وفى نهاية الأمر حاصر الرومان كابو وسرقوسة بهدف تلقينها درسا وكى يبقى غيرهما من الحلفاء الى جانبهم · وهلكت مدينة كابوا جوعا أما سرقوسة فتم نهبها ونقلت تماثيلها الرخامية العظيمة الى روما ·

وفى ساعة محنتها عثرت روما على قائد شاب نابه يدعى بوبليوس

(*) القنصل هى أعلى وظيفة فى عصر الجمهورية وكان هناك قنصلان ينتخبهما الشعب ولفترة طولها عام واحد · وكان القناصل ، يزاولون سلطات عسكرية نظرا لأنهم خلفوا الملوك فى سلطانهم ، أما فى عصر الامبراطورية فقد أصبحت القنصلية وظيفة شرفية الى حد كبير · (المترجم)

كورنيلوس سكيبيو (Publius Cornelius Scipio) الرجل الذى أسر قرطاجة بأسبانيا •

فى ذلك الحين كان هانيبال بجنوب ايطاليا ينتظر تسليم روما ووصول أخيه الاصغر ـ هاسدروبال (Hasdrubal) من أسبانيا بالتعزيزات • وقد عبر هاسدروبال جبال الألب فعلا مقتفيا آثر خطوات هانيبال ولكن قوات روما هزمته عند الميتوروس وأردته قتيلا وبلغ احساس الرومان بمرارة هزيمتهم أعواما حدا جعلهم يقذفون برأس هاسدروبال الى قلب معسكر هانيبال •

وانتظر هانيبال • ومع أن الهزيمة لم تحقق به الا أنه راح يضعف عاما بعد اخر لعدم وصول التعزيزات اليه اذ كان سكيبيو الشاب فى أسبانيا يبيد ما يصل منها فئة بعد أخرى وما لبث أن عاد الى روما ظافرا مزودا بجيش وأسطول وأبحر ليغزو قرطاجة • وانقلبت الأمور رأسا على عقب وسرعان ما وقف سكيبيو الرومانى أمام اوابات قرطاجة التى أجبرت على التسليم وطلب الصلح واستدعاء هانيبال من ايطاليا • ولم يكن هانيبال قد خسر معركة واحدة من المعارك التى خاضها فى غضون خمسة عشر عاما خلت ، وكان يقف ذات يوم على مبعدة ثلاثة أميال من روما • ولم تعد حقول ايطاليا تنبت غير العشب ولم يبق من مئات المدن ، غير الاطلال ، وابيضت عظام جنود قرطاجة ودواب الحمل فوق ممرات الألب ولقيت مئات الألوف من قوات روما وحلفائها مصرعها • هذا ما حققه هانيبال الذى كان واحدا من أعظم العباقرة العسكريين فى العالم القديم ولعل الاسكندر الأكبر هو الوحيد الذى يسبقه فى الترتيب ولكن كل ذلك كان هباء •

وعاد هانيبال الى قرطاجة وسرعان ما أقنع حكام بلاده بضرورة المضى قدما فى الحرب واشتبك مع سكيبيو فى زاما (Zama) حيث منى بأول هزيمة فى حياته وأجبرت قرطاجة على دفع مبلغ خيالى قدره ١٠ آلاف وزنة والتخلى عن جميع سفنها الحربية وعن أفيالها باستثناء عشرة منها • والأنكى من ذلك أنها حملت على التعهد بعدم الاشتباك فى أية حرب دون موافقة روما وعلى التنازل عن جميع ممتلكاتها فى أسبانيا •

وتقلد هانيبال منصبا حكوميا هاما فى قرطاجة ، لكن الرومان أصروا على اقصائه فيمم وجهه صوب الشرق وهو لم يزل على كراهيته لروما • واقتفى الرومان أثر عدوهم الذى لا يصفح ، فما كان من هانيبال ، الذى أبى أن يقع فى قبضة الرومان ، الا أن قتل نفسه بالسم •

وانتهى تاريخ قرطاجة بعد ذلك بخمسين عاما ، وكان الثراء قد عاود أهلها مرة أخرى كما استعادوا شجاعتهم فشنوا هجوما ضد ماسينيسا

(Massinissa) ملك نوميديا (Numidia) الذى كان صديقا لروما — وفى ذلك الحين كان فى روما رجل طاعن السن من أسرة ثريه تنتمى لعامة الشعب اسمه (Gatc) كاتو مارس مهامه كرقيب بأشد ما يكون صرامة وراح يطارد كل من أساء تصرفه بمعايير الاحترام التى حددها كما كان يشن حملة هجاء لا هوادة فيها ضد أى رومانى يجنح الى ثقافة الاغريق أو فلسفتهم أو الى لون من ألوان الترف • لم يكن يريد لروما الا أن يكون مدينة فلاحين وجنود عتاه ، وكان من رأيه أن النساء خلقن للعمل والطاعة وأنه يتعين بيع العبيد بمجرد أن يتقدم بهم العمر ويعتريهم الوهن ، وزار كاتو قرطاجة ليتأكد بنفسه مما حققته عدوة روما السابقة من انتعاش اقتصادى ثم عاد الى روما يحمل معه بعض منتجات قرطاجة الزراعية • ومنذ ذلك اليوم راح يدعو الى الحرب ضد منافسة روما الخطيرة ، مختتما كل خطاب يدلى به بالعبارة « لا مندوحة من تدمير قرطاجة » •

وما لبث الرومان أن أخذوا بنصيحته فى النهاية • وحين أعلنت قرطاجة الحرب على ماسينيسيا أرسلوا قواتهم العسكرية الى أفريقية واندلعت نيران الحرب البونية الثالثة • ولما عرضت قرطاجة على الرومان ثلاثمائة من أبرز مواطنيها كرهائن أصر الرومان على سحق قرطاجة وقالوا أن بوسع أهل قرطاجة أن يبنوا مدينة جديدة بشرط أن تبعد عن الشاطىء بما لا يقل عن عشرة أميال • ونتيجة لهذا المطلب جعل شعب قرطاجة يحول كل مسمار ران عليه الصدأ الى سلاح ، واستجمعوا شجاعتهم وقاوموا بعنف • وظل الرومان يحاصرون المدينة عامين وفى العام الثالث شنوا عليها هجوما ساحقا •

ودافع شعب قرطاجة عن مدينته بيتا بيتا ومجمعا سكنيا بعد الآخر ولم تستسلم تلك العاصمة الرائعة التى كانت تضم نحو ٥٠٠ ألف نسمة الا بعد أن غرق كل شىء فى الدماء وغاص بين الانقاض ، ولم يبق على قيد الحياة سوى ٥٠ الف مواطن بيعوا فى سوق الرقيق ، ولقد أخذت ألسنة اللهب تلتهم كل شىء وتداعت الديار والمعابد والشرفات الجميلة واستحالت حطاما كما انهارت أرصفة الميناء وسقطت المنائر ، ولم تقم لقرطاجة قائمة الا بعد أن أعاد يوليوس قيصر تأسيسها كمستعمرة رومانية بعد أكثر من مائة عام •

وهكذا وضعت الحرب البونية الاخيرة أوزارها عام ١٤٦ ق•م ولو لم تدمر قرطاجة ، أو أنها ظلت قوة عالمية ، النقل اليها أهلها حضارات البحر المتوسط القديمة • وهكذا انتقلت سيادة العالم الى الرومان وبذا أصبحت روما حلقة الوصل الثقافية بين تراث البحر المتوسط وأوربا الحديثة •

روما

٣٦٠ ألف مشاهد فى السيرك العظيم

من يحب يحسن صنعا، ومن لايعرف كيف يحب سيهلك
لا محالة • أما الذى يحظر الحب فسوف يهلك مرتين

« كتبت فوق جدران بومبى قبل دمارها سنة ٧٩ ق٠م »

السيطرة على العالم صعبة المنال والحفاظ عليها أشد صعوبة • لقد بسط الرومان سيادتهم على العالم طرا ، وما لبث أن أتى اليوم الذى أفلتت فيه هذه السيطرة من بين أيديهم فمثلهم فى ذلك مثل جميع الامبراطوريات العالمية الأخرى عبر التاريخ ، ومن الواضح أنه ما كان لشعب أو قطر ، أن يبسط سلطانه أبد الدهر ، الا أن روحه وثقافته يمكن أن تظل بين من يخلفونه على السلطان •

قبل ظهور روما كان مسرح التاريخ العالمى قائما فى الشرق ثم نقلته روما الى الشمال والغرب ولم تستطع بابل ولا طيبة ، ولا حاتوسناس ، قلعة الحيثيين الجبلية ، ولا اسبرطة أو أثينا ، ولا الاسكندرية ولا قرطاجة أن تفرض سلطانها على البحر المتوسط برمته،وتوحد صفوف العالم الغربى• ولم ينلح فى بلوغ هذا الهدف غير روما ، المدينة الخالدة ، وما من مدينة أخرى أظهرت قدرة على الاحتمال أو طاقة على العمل كذلك المركز القديم للثقافة الغربية بما فى ذلك كنوسوس وأثينا وبيزنطة وميلان وآخن وفينا • فروما هى أقدم عاصمة للغرب وما فتئت مركزا روحيا الى هذا اليوم • لقد جذبت روما الى فلكها الروحى معظم دول أوربا كما أن روما هى التى ساعدت عالمنا الغربى على أن يكون عالما متحضرا •

وبعد أن وضعت الحروب البونية أوزارها كان الشرق عن بكرة ابيه يتحدث عن جمهورية قوية في الغرب لم يعل فيها التاج هامة أحد • وبزغ نور نظام جديد لم يكن معروفا من قبل حين قامت جمهـــورية بسطت نفوذها على العالم •

وخليق بنا أن ننقل ما ذكره ليفي ، أحد المؤرخين الرومان المعاصرين للمسيح ، حين تناول باعجاب عصر الجمهورية فقال :

« ما من دولة فاقتها عظمة أو ثراء في الأمجاد والرجال الأفذاذ ، وما من مدينة عاشت طويلا في وفاق ووحدة صف قبل أن يقوض أركانها الاسراف والجشع • وما من مكان سواها ارتفع فيه دائما شأن الفقر والاقتصاد ، فكان كلما قل ما بحوزة النـاس ضعفت حـدة جشـــعهم • ومـع ذلك لم يمض وقت طويل حتى ولدت الثروة البخل وأطاحت الرغبة في اشباع الملاذ والعيش في ترف وفجور بكل شيء وبكل انسان » •

كان عصر الجمهورية الذهبي قصير الأمد ، فقد نشبت ثورات العبيد واندلعت نيران حـروب أهليـة دامية • وكان تيبريوس (Tiberius) وجايوس جراكوس(Gaiuis Cracchus) قد سبقا زمنهما بكثير في النضال من أجل عالم أفضل ، لقد نذرا حياتهما للفلاحين والطبقات المحرومة في ايطاليا وكافحا في سبيلهم ولقيا حتفهما دفاعا عن مثلهما وحينما كانت كورنيليا ، أم الجراكيين ، تتحدث عن أبنائها فانها لم تذرف دمعـــا ، بل كانت تعدد انجازاتهم كأنها حدثت في أحد عصور ما قبل التاريخ • لقد أنجبت أحد عشر ولدا ، سبقها جميعهم الى الموت ، وكانت أول امرأة تقيم لها روما نصبا تذكاريا تكريما لحزنها •

وجاء اليوم المحتوم الذى تحلى فيه أحد أبناء روما بالحلة الأرجوانية وعلا التاج هامته : انه يوليوس قيصر الذى أحال الجمهورية المحتضرة الى ملكية والذى شغلته حملاته الواسعة النطاق على نحو تعذر معه أن يقضي في العاصـمة أكثر من خمسـة عشر شهرا متقطعة في الفترة ما بين عامي ٤٩ و ٤٤ ق • م ولقد تسنى له في الفترات القصيرة من تاريخه المذهل أن يقرر مصير عصره ، بل يمكن القول ، ومصير المستقبل أيضا • ونقلت الحضارة الغربية عن قيصر آراء لا تحصى ولا تعـــد حول الادارة والحكومة والقانون ، وتدين له لغتنا باسم شهر يوليو كما أنه هو الذى أدخـــل التقويم الحديث •

ولا غضاضة في القول أن قيصر قد استطاع أن يمزج بنجاح مفهومي الديمقراطية الحرة والحكم المطلق المتعارضين • لكن عصر الأباطرة الذين خلفوه قد برهن على أن النار والماء لا يمتزجان • وأوصى قيصر باقامـة

تمثاله الى جوار تماثيل الملوك السبعة القدامى فوق تل كابتولين ، وعندما كان يظهر للملأ ارتدى حلل ملوك « البالونجا » (Albalonag) السابقين ٠ لكن اللقب الملكى ذاته كان موصوما باستبداد الكثيرين من حكام الشرق وطغيانهم ، فآثر قيصر أن يمارس سلطانه كملك تحت لقب مغاير٠وفى التاسع من شهر فبراير سنة ٤٤ ق ٠ م عين دكتاتورا مدى الحياة ، وكان هذا من الناحية السياسية معادلا فى حقيقة الأمر لأن يكون ملكا ولو أن هذا اللفظ المعيب قد أمكن اجتنابه ٠

ولم يحدث قبل قيصر أن ظهرت صورة انسان على أية عملة ، فحطم قيصر ذلك التقليد ، وفى السنوات الأخيرة من حياته رأى الناس أن من الاهمية بمكان أن يعيشوا بمقربة منه فارتفعت الايجارات فى الحى الذى كان يقطنه ارتفاعا باهظا ٠ ولو لم يلق قيصر مصرعه فى الخامس عشر من شهر مارس عام ٤٤ ق٠م لتدعمت وحدة الغرب الروحية فيموت قيصر قبل الاوان انقسم الغرب الى شطرين : أحدهما غربى والثانى شرقى ٠

ويبدأ عصر الأباطرة الرومـــان بأوكتافيوس أغسطس (Octavianus Augustus) ومن المحتمل أنه كان أعظم ساسة العصر القديم بعـــد فيليب الثانى المقدونى وقد يفوق قيصر حكمة وان كان الأخـــير قد فاقه عبقرية ، ولولا النزعة الانسانية الأصيلة لهذا الرجل الذى حمى الحرية والرخاء ، ولولا ذاك الحاكم الفذ الذى ظل يحكم العالم المعروف أربعة وأربعين عاما لما دام العصر الامبراطورى الرومانى تلك السنين الطويلة ٠

وبفضل حكم أغسطس الذى اتسم بالحرية بلغت روما ذروة الحكمة السياسية وتحت لوائه تألقت روح روما وارتقى نشاطها المبدع الخلاق الى القمة ، وكان لا يزال يدوى فى آذان الناس صدى ما كانت تنطوى عليه خطابة شيشرون (Cicero) التى لا تبارى من رثاء واتهامات ، ذلك الرجل الذى رفع من شأن اللغة اللاتينية قبل مقتله سنة ٤٣ ق٠م كما ان هذا هو عصر الشاعر اوفيد (Ovid) وهو الابن الحقيقى للمدينة الكبيرة الذى كان يدرك بوضوح ما أوتى من مواهب ، وهو الرجـل الذى كتب ما يسمى المسوخ (Metamorphoses) فى خمسة عشر ديوانا نهج فى نظمها الوزن السداسى ، وكانت تلك هى الحقبـة التى تغنى فيها هوراس ـ الذى ظل عزبا طول حياته ـ بالحب والخمر وعظمة روما وجمـــال الطبيعة ، وهو الوقت الذى تلا فيه فرجيل الخجول أمـــام أغسطس وأوكتافيا عدة أجزاء من الانيادة ، أعظم ملحمة وطنية رومانية ، وقـــد أبدى رغبته فى أن تحرق عند موته ولكن أغسطس استخلصها من ألسنة اللهب ٠ كذلك كان هذا هو الوقت الذى كتب فية ليفى المؤرخ عمـــلة

الخالد في مائة واثنين وأربعين جزءا ، لم يبق منها سوى خمسة وثلاثين ، وقبل هذا العصر كان كاتولوس (Catullus) الفيرونى المرهف الحس قد كشف عن خلجات قلبه للسبيا (Lesbia) التى كانت بارعة الجمـــال تشين سمعتها بعض الشوائب ، فأبدع أروع ما فى اللغة اللاتينية من أشعار الحب والغرام ، وفى أعقاب هذا العصر حاول سنيكا (Seneca) الفيلسوف أن يفضى بقدر من حكمته لنيرون ابن روما الطائش ·

وقضى أغسطس نحبه وهو بين ذراعى زوجته بعد ظهر اليوم التاسع عشر من أغسطس سنة ١٤ م بالغا من العمر ستة وسبعين عاما وهو يردد « ان كنت قد أحسنت القيام بدورى فاهتفوا لى » وفى لحظة آلامه الأخيرة همس فى أذن زوجته يقول « ليفيا ، اذكرى زواجنا السعيد ·· وداعا » وبذلك انصرمت من تاريخ روما خمسون عاما طابعها الاستقرار والمجد والجـــلال ·

وعلى الرغم من ظهور شخصيات بارزة جديرة بالتقدير بين أباطرة روما فقد تولى حكم المدينة أيضا رجال مرعبون حقا ، لقد مر بتاريخ روما حكام يختلفون فيما بينهم اختـلافا بينا من حيث الطباع والشخصية ، فمنهم المجانين العطشى الى الدماء والمغنون الماجنون والراقصون المستهترون والعباقرة ، والمقاتلون البواسل ، والفلاسفة ، والمنظمون من الطراز الأول وكان تيبريوس (Tiberius) الكهل الذى قضى جل فترة حكمه رابضا فى قصره بجزيرة كابرى أقرب ما يكون الى شبح مخيف منه الى انسان · وكان يخشى الأفراد أكثر من الجمـــاهير ، وان محاكماته لضحاياه التى ذكرت فى مؤلفات تاكيتوس (Tacitus) التاريخية تدينه الى هـــذا اليوم · وكان الامبراطور ينسل ، أشبه بلص يسترق السمع لما كان شعب المدينة يهمس به من جزيرته الى أسوار روما ·

أما الامبراطور كاليجولا (Caligula) الذى دأب على أن يطوف بسجون عاصمته ويختار بنفسه بعض الأسرى ليقذف بهم الى الوحوش المفترسة فى السيرك · كما كان الامبراطور كلوديوس (Cloudius) مغرما بالقيام بدور القاضى ويصدر أحكاما بالاعدام، وكان ينسى أحيانا أولئك الذين أمر باعدامهم · وذات يوم ، بعد مقتل زوجه ميسالينا (Messalina) ، تساءل وهو شارد الذهن : « لماذا لم تظهر الامبراطورة على المائدة ؟ وكثيرا ما كان يستدعى الرجال الذين أمر باعدامهم لعقـــد اجتماع أو للعب الداما · ولما كان مثولهم بالطبع أمرا مستحيلا لا يلبث أن يبعث اليهم برســـل يبلغونهم بما هم عليه من غباء مستحكم · وكان نيرون ، الممثل والمغنى والمصاب بجنون الحريق والمضطهد للمسيحيين ، وبرغـم ذلك كله ، الشاعر الأصيل ، وكان أشقر ضاربا الى الحمرة سميك العنق ، حســير

النظر ، وهو الذى شيد أكبر منزل فى روما ، المنزل الذهبى المشـــهور الذى تم الكشف عن قبابه وتمكن زيارته الآن ٠

ومع ذلك كانت تحكم العالم الرومانى بين الفينة والفينة شخصيات نبيلة عالية الهمة أمثال الامبراطور تيتوس (Titus) الذى يبدو بحق أشبه ما يكون بالشمس الساطعة فى سماء تاريخ روما الامبراطورى المعتم فكان دائب الاهتمام بامبراطوريته المترامية الأطراف وبرعاية شعبه ، ومن سوء الطالع أن يثور بركان فيزوف ابان حكمه سنة ٧٩ م ويحيل بومبى (Pompeii) وهيركولانيوم (Herculaneum) وستابياى (Stabiae) رمادا ، كما أعقب ذلك وباء مهلك ، ثم حريق شب فى روما فى النهاية ٠

ولم يكن الامبراطور نرفا (Nerva) بأكثر من رجل رقيق الفؤاد ، حسن التدبير على حين كان تراجان (Trajan) واحدا من أقوى الشخصيات فى تاريخ روما ٠ لقد شـــيد الســـاحة الامبراطورية كمـــا أقام موانى انكونا (Ancona) وأوستيا (Ostia) وكيفيتافيكيا (Civitavecchia) ومد قناطر قوية عبر نهر الدانوب ليتسنى للقوات الرومانية أن تمـــر دون مشقة لقمع قبائل الداكيين المعادية ٠ وفى أفريقية أسس مدينـــة ثاموجادى (Thamugadi) التى ظلت أنقاضها قائمة فى رمال الصحراء ، وأقام طريقـــا يخترق المستنقعات البونتينيـــة (Pontine) الى جانب ما شيده من قلاع وقناطر الأنهار فى جيرمانيا ، ولقد بلغت الامبراطورية الرومانية فى ظل حكمه أوج مجدها اذ هى امتدت من البرتغال ومراكش عبر دجلة والفرات الى حدود بارثيا (Parthia) ومن اليونان الى قلب الصحراء وفيما وراء أول شلال من شلالات النيل فى مصر ، وكل من يقوم بجولة على طول حدود تلك الامبراطورية السابقة ، فى أوربا وآسيا وأفريقية ، ويشهد الممرات المائية والقنوات والحمامات والملاعب والمنـــازل والقصور والأسواق والبوابات والأسوار والأبراج والحصون التى شيدها الرومان أينما حلوا ٠ ومما يثير الدهشة أن مدينة صغيرة كروما يكون لها مثل هذا الأثر البالغ الواسع النطاق ٠ حقا لقد كان تراجان هو « الأفضل » (Optimus) كما كان يسميه مجلس الشيوخ الرومانى ٠

أما هادريان (Hadrian) ، صديق اليونان وأمير السلام ، فكان بدوره امبراطورا كتب لنفسه ، الخلود بما شيده من مبان رائعة ، ولعل البانثيون (Pantheon) الرومانى يعد من الناحية الفنية من أعظم المبانى التى بلغت حد الكمال فى فن العمارة العالمى ، وهو هيكل جميع الآلهـــة الذى أمكن الحفاظ عليه الى اليوم ، فالردهة المستديرة التى تتوسطه هى أروع وأبدع ما يتصوره العقل وما من وصف مهما سما شأنه يوفى جمالها المتناسق حقه ٠ كما أمكن فى عهده اتمام معهد زيوس أولمبيوس بأثينا

الذى استغرق بناؤه ستمائة عام • كما شيد لنفسه قصرا منيفا بالقرب من تيبور (Tibur) ، تيفولى (Tivoli) الحديثة ، بل ان تصميماته الأرضية لتكشف عن روعة هذا القصر وفخامته • وأخيرا أقام هادريان قبره الذى يعد أضخم وأروع ضريح فى العالم الرومانى فقد بلغ من الصلابة ما جعل الرومان يتخذون منه حصنا منيعا لعدة قرون ، وهو الآن حصن سانت انجيلو •

وكان انتونينوس بيوس (Antoninus Pius) معتدلا ومتواضعا يسعى دائما للحفاظ على السلام ، ولولا احتجاج هذا الامبراطور نفسه على مثل هذا التكريم لعرف شهرا سبتمبر وأكتوبر باسمى « انتونينى وفوستينى » ى باسمه واسم زوجه فوستينا (Faustina) •

وفى الليالى الطويلة التى كان يقضيها ماركوس أوريلوس وحيـــدا أثناء حملاته ضد الماركومانيين (Marcomanni) وغيرهم من قبائل بوهيميا والنمسا ، ولعله كان أكثر أباطرة الرومان استنارة وفهما ، ظل يناضل دائما مع مشكلة واحدة هى : ما هو سبيل المرء الى الطمأنينة وراحـــة البال ؟ بل وترك لنا كتابا طريفا حـــول هـــذا الموضوع ، نطلق عليه « التأملات » ، وهو بعنوان « الى الذات » وتحت لواء حكم سبتيميوس سيفيروس (Septimius Severus) حظى شـــمال أفريقية بازدهار لم يسبق له مثيل ، فقد انحدر سيفيروس نفسه من سلالة الفينيقيين الساميين المشتغلين بالبحار • وكان قرطاجيا يتحدث اللاتينية بلهجة قرطاجة ، وهو الذى أحال قرطاجة مرة أخرى الى عاصمة ، بل أقام فى آسيا الصغرى نصبا تذكاريا تكريما لهانيبال •

ثم عـــاد ليمسك بأعنة حـــكم الامبراطورية الرومانيـــة كاراكالا (Caracalla) المعتوه الشرير الذى سفك دم أخيه ، مع أن سيفيروس الأسكندر كان يتسم بالفضيلة وتكامل الشخصية محبوبا من الجميع ، وكفرد مثالى عرف بطاعته الدائمة لأمه التى قتل معها فى النهاية • ومن مدينة تدمر (Palmyra) الصحراوية جاء أورليان (Ourelian) بالملكة الشهيرة زنوبيا (Zenobia) الى روما منتصرا وقد كبلها بسلاســـل من ذهب كجزء من أسلابه ، وبنى دقلديانوس (Diocletian) أعظم عبقرية تنظيمية ظهرت فى القديم ، قصرا فى سالونا (سبليت الحديثة بيوغسلافيا بلغ من الاتساع أنه قد تم بداخله بناء مدينة بأكملها فى القرون الوسطى، ومع ذلك فان قسطنطين (Constantine) هو الذى أصبح أول امبراطور مسيحى فى العالم •

وانجذب الناس ، كما لو كانوا ممغنطين ، من الشرق والغرب على

السواء الى روما مدينة الساحات والأقواس والأبنية المستطيلة الرخامية والمدرجات الضخمة والسيرك ودور الكتب الثماني والمسارح الثلاثة والبوابات السبع والثلاثين والأحد عشر حماما عاما والثمانمائة وستة وخمسين من الحمامات الأخرى ، وهيكل الكابيتول والسوقين والميادين الثمانية الفسيحة .. مدينة الألعاب وضروب التسلية التي لا تنقطع ، مدينة الفضائح المنتشرة والأباطرة الذين يموتون قتلى فى الغالب الأعم .

وفوق تل البلاتين غرب السوق وعلى مقربة من التيبر قام الحى الذى عاشت فيه الأسر الفنية حياة مترفة ، بيد أننا لم نعد نرى تلك المساكن حيث انها تقبع أسفل القصر الذى بناه الامبراطور دوميشين (Domitian) ولم يبق الا جزء من منزل ليفيا ، زوجة أغسطس ، ومما ساعد على التحقق من ذلك أن أنابيب الرصاص التى كانت تستخدم فى نظام الصرف والتى عثر عليها فى ذلك المكان تحمل اسمها .

وبوسعنا الى اليوم أن نطوف ببعض غرفه ونسترجع كلمات المؤرخ الرومانى سوتونيوس (Suetonius) الذى ذكر ، بشىء من المكر والدهاء أن ما يميز المنزل لم يكن رحابته أو روعته وجلاله .

لم يكن بالغرف زخارف رخامية مع أن أرضيتها قد غطيت بالموازيكو الجميل . وفى غرفة واحدة عاش أوغسطس ما يربو على أربعين عاما صيفا وشتاء . لقد ولد أغسطس فوق تل البلاتين حيث عاش شيشرون وكراسوس السياسى فى بيت من أعظم بيوت روما وأفخمها ، كما انه فوق هذا التل بنى الأباطرة قصورهم ، ومن ثم أطلق على كل مسكن فاخر فى العالم كلمة قصر Palace المشتقة من (Palaine) ومن وصف بلينى الصغير للفيلا الخاصة به التى عرفت باسم «لورنتوم» والتى كانت تقع على مبعدة ستة عشر ميلا جنوب روما الى جوار البحر بالقرب من كاسالى دى كابوكوتا الحديثة نتبين ان أثرياء الرومان كانوا يعيشون فى ترف ونعيم . ولم تمض على ميلاد المسيح مائة عام حتى زود هذا القصر الريفى بصالة أعمدة على شكل «D» ونوافذ زجاجية وردهات عديدة للطعام كانت احداها تطل على البحر فاذا ما هبت رياح جنوبية غربية ارتطمت أمواج الشاطىء بجدرانها الخارجية ، وكان يضم غرفا للاستقبال ومكتبات وحجرات للنوم عديدة واستراحات وقاعة بعيدة عن الرياح حيث كان العبيد يتدربون على الجمباز وحمامات ثلاثة تطل على البحر الى جانب غرفة للتدليك وللألعاب الكرة ومخازن للنبيذ وكان القصر مزودا بوسائل التدفئة وتحوطه الحدائق والشرفات ومن ثم فحين يتساءل « بلينى » ألا تحسبنى محقا حين أعتبر هذا المقر الريفى مسكنى المفضل ؟ فاننا نتفق معه على الفور .

بيد أن روما لم تكن مجرد مدينة مدرج الفلافيان (Flavian Amphitheater)

الذي يتسع لخمسة وخمسين ألف نسمة أو السيرك العظيم . Circus) Maximus) و ذلك الاستاذ الضخم الذى يتسع لنحو مائتين وستين ألف مشاهد ويضم مكانا للسباق الخطر حيث المركبات تتسابق والمتصارعون يتقاتلون حتى الموت ، كما انها لم تكن مدينة الأسواق الرائعة ومعبـــد جوبيتر ومسرح مارسيليان فحسب بل ولا مجرد مدينة بحمامات (Thermae دقلديانوس وكاراكالا العامة ـ وهي أكبر حمامات عامة وجدت على وجه الأرض وزودته بضرب من تكييف الهواء الذى كان ينظم درجات الحرارة في غرفها بارسال تيار من الهواء الساخن عبر ثغرات في الجدران ـ اذ كان لروما ، فوق ذلك كله ، وجه آخر ٠

لقد كانت روما مدينة صاخبة خطيرة من جراء أزدحامها بالســـكان وشوارعها الضيقة المكتظة بجماهير الناس الصائحة الهادرة ٠ وبناء على آخر ما توصلت اليه الأبحاث الحديثة من احصائيات كانت روما فى عهد أغسطس تضم ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة وكانت عربات النقل المحملة بأكداس الاخشاب تهتز وتتمايل والبراميل تدحرج عبر الشوارع والأحمال الأخـــرى تقرقع فوق العربات ، فكان الرخام ينقل من ساحل ليجوريا (Liguria) أقليم جنوا الحديث ، عبر الشوارع فيلحق بالمارة الضرر البالغ حين يتحطم محور العجل ويسقط الحمل ويسحقهم ولقد تساءل الشاعر الرومانى جوفنال (Juvenal) « من ذا الذى يعنى بأطراف وعظام وجثة أحد العامة ؟ » ، وقد تهوى عصا على رأس أحد الأفراد أو يغوص مسمار فى اصبع آخر ، حيث التعرض لشظايا الزجاج التى تتطاير أو لرشح اناء يتساقط من نافذة مفتوحة ٠ وقال جوفنال « لو أنك طفت بشوارع روما ليلا دون أن تكتب وصيتك لكنت من المستهترين » ٠ فقد كانت المدينة صاخبة على نحو حرم سكانها النوم ليلا ٠ وفقد الأصحاء صحتهم والمرضى حياتهم ، وكانت ايجارات المنازل مرتفعة والغرف ضيقة رطبة معتمة ، وعربات النقل فى حركة دائبة لا تهدأ ، وأحيانا كان أحد قطعان الماشـــية يخور وسط الشارع لوقوعه فى شرك حركة المرور ٠

وكان العبيد الليبورنيو (Liburnian) طوال القامة يحملون الأثرياء فوق هامات الجماهير المتلاصقة ٠ فقد كان أولئك العبيـد من ليبورنيا بايليريا (Illyria) من القوة مما حمل الرومان عـلى استخدامهم حمالين ورسلا وحراسا ٠ وكان الأثرياء يسترخون فى محفاتهم وقد أخذتهم سنة من النوم ، لكنهم كانوا على الدوام يتمايلون فوق أعناق أربعة أو ستة بل ثمانية من البشر عبر المدينة على حين إن المواطنين الأقل ثراء لم يكن يحملهم غير عبدين ٠

كان هذا الزحام يشكل خطرا بالغـــا حين يشب حريق ٠٠ ومن ثم

عاشت روما فى رعب دائم من النيران وبالأخص عندما يرخى الليل سدوله • فدخان يتصاعد من الطابق الثالث لأحد المنازل وشخص يرى وهو يحزم أمتعته من أحد المبانى ، وما أن يصل الشارع حتى تكون النار قد أتت على الطابق العلوى تماما • وقد تم اكتشاف بعض المنازل فى هيركولانيوم التى حفظها رماد بركان فيزوف سنة ٧٩ م ، وفيها يمكن الى اليوم مشاهدة درج السلم والأرضية والموائد والدواليب الخشبية • وخلف لنا فيرتوفيوس (Virtuvious) المهندس المعمارى للامبراطور اغسطس ، الوثيقة القديمة الوحيدة التى تعالج فنون البناء وأجهزة التشييد • ويذكر أنه ما أن كانت النيران تندلع حتى تتحول المنازل ذات الهياكل الخشبية المغطاة بالواح الى « مشاعل منتظمة » • وكان سماسرة العقارات والمهندسون والمعماريون من الرومان يؤثرون هذا النمط من المبانى لرخص ثمنه وسرعة تنفيذه • لكن هذه المنازل كانت تنهار بسرعة تشييدها نفسها • لقد حظر أغسطس أى بناء يزيد ارتفاعه على سبعين قدما (وهذا يعادل ارتفاع منزل حديث من أربعة طوابق) لكنه فشل فى القضاء على المنازل القائمة على حوامل بالتشريع) •

ومع ذلك أقام أغسطس سورا ضد النار يبلغ ارتفاعه ٤٠ ياردة يفصل بين ساحته وحى سوبورا المكتظ بالسكان ، وحدث ذات مرة أن نشبت حرائق فى أماكن متفرقة فى آن واحد فلم يتوفر من القوى البشرية ما يمكن من اخمادها • فما كان من أغسطس الا أن شكل لواء للحريق قوامه سبعة آلاف رجل ، موله بفرض ضريبة على بيع العبيد قدرها ٤ فى المائة •

وكان حى سوبورا ، الذى يقع عند سفح تلى كايليان (Caelian) واسكويلين (Esquiline) يعج بالناس دائما ويسوده الصخب والضجيج وتنبعث منه رائحة كريهة ، كانت تباع فيه جميع ألوان الطعام ويشاهد العاهرات ابتداء من الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم وهن جالسات فوق مقاعد مرتفعة اما عراة كما ولدتهن أمهاتهن أو متسربلات بأقمصة من حرير شفاف • كان هذا الحى سيء السمعة اذ كان وكرا للصوص حيث تحاك مؤامرات القتل ، كما كان الحى الذى يبتاع منه العبيد حاجاتهم المنزلية • وكان به عدد لا حصر له من الزرائب التى يديرها تجار الصوف وناسجو الكتان والصياغ وصناع الشعر المستعار والحلاقون كما كان رجل الشرطة يقف على أهبة الاستعداد « تتساقط قطرات الدماء » من هراوته على حد ما يذكره الكاتب الرومانى مارتيال (Martial) •

أما الاثرياء وعلية القوم من الرومان فكانوا يعقدون صفقات مشترواتهم عند حافة ساحة مارتيوس ، بالقرب من الميدان فى حى سعبلى •

حيث كانت روما تعرض كنوزها وأفضل عبيدها فى أكشاك مقفـلة الى جانب العاج وظهور السلاحف والأقداح البلورية واليشب وأحجار الشرق الثمينة بمختلف أنواعها. وهنا انطلقت سيدات روما المدللات كما انطلق نبلاؤها يطوفون ، وراح العشاق يهمسون أسفل البواكى .

وكانت روماء حقيقة، متعددة المظاهر، فكانت تتميز بالشهامة والسخاء وكرم الضيافة وتستقبل الأجانب جميعهم بأذرع مفتوحة وتنقـل الروح الاغريقية والفن والأدب والعلوم والفلسفة الاغريقية.. بل الثقافة الهيلينية برمتها فى حقيقة الأمر . اذ دأب اليونان من جزر اندروس وساموس ، أو من ألابانداً بكاريا ، حيث كان الناس يعيشون فى ترف وبذخ ، أو من تراليس (ايدين الحديثة فى غربى تركيا) على التدفق الى ساحة السوق وكان هؤلاء اليونان قادرين على التكيف والتغير أذكياء أكفاء فى كل مهنة اذ كانوا خطباء وفقهاء وسحرة ورسامين وخبراء فى اعداد الأدوية ومدلكين الى جانب من كان يسير فوق الحبال المشدودة . وسرعان ما كانت الأموال تكثر بين أيديهم وكانت الأسر البارزة تستقبل الكثيرين منهم . لقد شهدت المدينة أعداداً غفيرة وفدوا اليها من الشرق حتى خال لجوفنال أنه من الجائز القول « على نهر سوريا (الفرات) » : يفرغ مياهه فى نهر التيبر فلقد كانوا يفدون من كل مكان ، من أرمينا وكابا دوكيا وسوريا حاملين معهم عاداتهم وخصائصهم كاللعب على الناى والقيثارة السورية ذات الأوتار المائلة والطبول والدفوف وفتيات فاسقات يرتدين قبعات موشاة ويختلسن النظر بأعين يتطاير منها الشرر أمام « السيرك العظيم » كان بوسع هؤلاء الأجانب أن يتصرفوا كما يشاءون باستثناء شىء واحد ، هو انه لم يكن مباحاً لهم ارتداء الشملة اذ كانت وقفاً على الرومان تميزهم عن سـائر الأجناس الأخرى . وعلى الرغم من ذلك أتى اليوم الذى أصبح السوريون والأفريقيون أباطرة لروما .

كانت روما عنيفة وداعرة ولا حـدود لشهواتها التى لم يكن ثمة ما يشبعها فبطون الرومان القدامى امتلأت بأطايب وملاذ لا تحصى كالسمان والسمنة البشاروش والطاووس والغرنوق واللقلق ، وأكباد الأوز والديكة المخصبة المسمنة ، والحمر الوحشية والخنازير ، والسـمك المفلطح ، والحفش وملايين الجالونات من أنقى أنواع النبيذ الفاليرى . وكان المحار يرد الى روندسيوم من روتوباى (وهى اليوم ريتشبورو فى مقاطعة كنت) حتى أن مونتانيوس (Montanus) البدين الأكول، الذى كان يشارك نيرون حفلات عربدته ، كان يمكنه بقضمة واحدة من المحارة أن يحكم بأنهـا جاءت من باجاى أو من مناطق المحار على ساحل انجلترا . وكان العبيـد يقدمون الأطباق الفضية المكدسة بجراد البحر وكشك الماز كمـا كانت

أشهي أنواع الأسماك تقلى فى أنقى أنواع الزيت المستورد من مدينـــة فينافروم (Venarrum) .

كانت روما مشرقة متألقة كما كانت تعمها الفوضى والاستهتار ويغلب عليها طابع الغطرسة والعنف والاستخفاف • فكان عبيدها يستغلون فى أتروريا ولوكانيا فى مناجم الحديد وبناء الأكواخ ، وفى المناجم الأسبانية فى موسم جنى زيتونها وعنبها وحين يجن الليل تعتق العبيد من العمل الشاق ليسترخوا فى سجن العبيد أو الارجا ستولوم (Ergastulum) • ومع ذلك كان العبيد يشكلون خطرا بالغا ، ومن كان يتحرر منهم يصبح اشد قسوة من سادته ، ويذكر جوفنال أنه « كلما اتسعت دائرة الأسرة ازداد عبيدها وقاحة » •

وكان مصير الفتيات العبيد دائما هو الطحن على الرحى ، وحـــين كانت احداهن تبدى صخبا فسرعان ما كانت عصا ربة المنزل تتحطم فوق ظهرها ، وأما ذوات الحظ العاثر من بينهن فكن يقمن بخدمة الثريات من الرومان والعناية بجلدهن وشعورهن وكن يزاولن مهمتهن وقدتعرت الاجزاء العليا من أجسادهن ، ولو حدث أن وضعت احداهن خصلة من شـــعر سيدتها فى غير موضعها بالضبط فانها تتعرض لضرب مبرح بسوط من جلد البقر •

كانت روما عطشى الى الدم ومجردة من المشاعر الانسانية فكانت تبقى على أسرى الحرب سنوات طويلة تمتد الى نهاية حيـــاتهم نزلاء الثكنات العسكرية حيث يعدون للمعركة التى تودى بحياتهم فى السيرك أو الامفتياتر (المدرج) ويقوم بتدريبهم العنيف مدربون لا يعرفون الرحمة • وفى مدرج الفلافيان وفى السيرك العظيم ، وفى سيرك فلامينيوس كانت أنظار الآلاف تتطلع بعين الازدراء الى المتبارزين الذين نذروا أنفسهم قاتلين أو مقتولين •

وكان الرومان شعبا غاضبا يتعذر سبر غور أهدافه • فحين كان المصارع الجريح يتطلع فى بحر من الوجوه الصائحة من فوقه ، وهو يدمى وعلى وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، محاولا أن يتبين ما اذا كانوا يلوحون بمناديلهم وهذا يعنى انقاذ حياته أو أن ابهام أيديهم يشير الى أســـفل وهذا يعنى انه لم يبق على حياته سوى بضع ثوان، فانه يلقى حينئذ نظرة أخيرة الى الشمس ، وفى وسط ضجيج النظارة وصياحهم يطيح به سلاح منافسه •

وعندما كان المبارز بالشبكة يقف فى قلب الساحة محاولا أن يلقى بشبكته فوق منافسه ليشل حركته ويتسنى له قتله بمطرقته الحديدية

ذات الأفرع الثلاثة المدببة عند طرفها ، كانت تنبعث من عينى الامبراطور كلوديوس (Claudius) أمارات الغبطة الواهنة أما إذا كان النصر لمنافس المقاتل بالشبكة ، وهو الرجل الذى يحمل درعا وسيفا أو كرة من حديد تتارجح فى طرف سير من الجلد ، فان كلاديوس كان يصدر أمرا لا يرد بقتل المبارز بالشبكة وحيث انه يقاتل بلا خوذة أو قوس .. فانه كان فى الامكان إمعان النظر الى وجهه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة .

لقد انطلقت حناجر الرومان تعبر عن اغتباطها من مشهد اكاروس .. وهو رجل حكم عليه بالاعدام أطلق فى الهـــواء من فوق ارتفاع شاهق فتحطمت أجنحته الصناعية وتناثرت أجزاؤها . وكانت النمرة والأســود والدببة الجائعة المستثارة الى أبعد الحدود تطلق من عربتها تحت أرضية السيرك فلم تكن روما الامبراطورية ترغب فى ضياع قطرة واحدة من الدماء وكان على الجماهير أن تتذوق كل شىء وأضحى الاعدام من المشاهد المألوفة فيها التى يبدو فيها المحتضرون وكأنهم نجوم فى مأساة ، كما ان بعض المجرمين الذين قضى باعدامهم كانوا يمزقون اربا اربا وتفصل أطرافهم بعضها عن البعض .

ولم يكن بشهد مناظر الرعب ، سباق المركبات ومبارزة المصارعين، غير الشبان الشجعان ، فكان شباب روما ، من أغنياء وفقراء ، عظماء وغير عظماء ، وفى مقدمتهم جميع الأباطرة ، يحتشدون فى يوم مهيب بهيج وان كان المشهد موت انسان أو مصرعه . وأشار أوفيد ، على شباب روما، بزيارة السيرك ليلتقوا بالحسناوات أو ليختلوا بالعذارى كما يذكر جوفنال.

كانت المرأة الرومانية أكثر تحررا من رفيقتها الاغريقية ولم تكن ، ولا شك ، سجينة الحريم على غرار ما يحدث فى الشرق ، ولم تكن المرأة الرومانية تحتسى الخمر الا نادرا ولم يسمح لها بالاتــكاء على الارائك فى الحفلات العامة أسوة بالرجال ، ومع ذلك كان بوسعها أن تخرج الى السوق لتبتاع ما تريد كما كانت تصحب زوجها الى السيرك بين الفينة والفينة .

ولم يكن أمام فتيات علية القوم مجال متسع للغزل ، فقد كان زواجهن يتم فى سن مبكرة من أزواج يتولى اختيارهم آباؤهم . وكانت العرائس يحملن الدمى الى آلهـــة الأسرة Lares ثم تمثل مع العريس دور الاختطاف احياء لذكرى اغتصاب السابنيين (١) ، ولم تكن فتيات الأسر العريقة يتعلمن القراءة والكتابة والحساب فحسب بل الغنـــاء والرقص والعزف عـــلى السنطير (٢) أيضا . الى جانب تلقينهن الأدب الاغريقى

---

(١) جماعات كانت تسكن فى وسط جبال الابنين ـ المراجع

(٢) آلة موسيقية تشبه القانون ـ المراجع

واللاتينى • أما النساء المتزوجات فكن يشغلن أنفسهن بالتطريز والاشراف على العبيد وشئون البيت كافة ، وكانت الشريرات وقساة القلوب بين نساء الرومان ندرة ، فقد كان السواد الأعظم منهن طابعه البساطة والصراحة والولاء والرقة والاخلاص كما كن أمهات مثاليات ، فقد أبت أورليا الثرية أم قيصر ، وآتيا ، أم أغسطس ، أن تعهدا بتربية أبنائهما الى العبيد بل قامتا بتربيتهم بنفسيهما •

ان النقوش التى وجدت فوق جدران « بومبى » وهيركولانيوم وستاباى بغض النظر عما اذا كانت قد وجدت فوق جدران أماكن مقدسة أو غير مقدسة ، وفى أماكن خاصة أو عامة ، تقرب الرومان منا كما لو كانوا يعيشون بالأمس القريب • « هنا تعيش فيليستا » ، فهل كانت هذه العبارة مقدمة لشيء ما ؟ • أم أن العاشق وضعها كعلامة للمنزل تمكنه من العثور عليه عندما يعود • وماذا كان يدور فى خلد الرجل الذى نقش على الجدران « أريد تحطيم ضلوع فينوس » وما نوع الفتاة التى كتب أحد الشبان فى وصفها العبارة : « لو كان ثمة من لم ير صورة فينوس التى رسمها أبللس (Apelles) فليتطلع الى محبوبتى » كما كتب آخر « ان كنت تصدقين ان ثمة اخلاصا بين الناس ، فثقى انى أحببتك دون غيرك منذ أن التقينا » ولعل امرأة كانت تعانى من الضنى ما حملها على أن تسطر « اذا كان باستطاعتك أن تعود ، ولكنك لا ترغب فى ذلك، فلماذا ، اذن ، ترجيء السعادة وتجعلنى أعيش على الأمل ؟ لماذا تردد الوعد بأنك تعود غدا ؟ اذا فلتدفعنى الى الموت مادمت تجبرنى على الحياة بدونك ، أرجوك ألا تعذبنى ، فما انتزعه الأمل لابد وأن يعيده الى المحب » •

وتحدثنا المدن التى كانت مطمورة عن جانب دنيء من العواطف حيث نقرأ « احببت فتاة حسناء يشيد بها الكثيرون •• ولكننى لم أجد فى أعماقها غير دنس ورجس » كما تم العثور على ثلاث كلمات ترجع ، فيما يبدو ، دمار بومبى الى قضاء الهى ــ كلمات بسيطة تحملنا بعد مضى ألفى عام على التفكير والتأمل فى « سدوم وعموره » •

فهل كانت ضربا من التنبؤ بالمستقبل ، مكن أحد الأشخاص من رؤية ذلك المحتوم، ومهما تكن شخصية ذلك المرء فلا مراء فىأنه سمع عن تلك المدينتين اللتين ارتكبتا الخطيئة على الرغم من أن ألفى عام كانت تفصله عن المأساة التى وقعت شمال البحر الميت •

لكن ما أهمية بضعة آلاف من السنين اذا ما حسبت بساعة الأبدية التى تقيس ايقاع التطور الانسانى ، ان كل ما نضطلع به ونفكر فيه

وتبديه إنما يقوم على أساس عريض راسخ من الحضارات القديمة فلولا الشرق القديم .. لولا سومر وبابل واشور ومصر ، لما قامت لأعمال اليونان العظيمة قائمة ، كما ان حياة الاغريق وخيالهم العظيم الخصب ونشاطهم الخلاق هي التي أشعت بنورها عبر شرقي البحر المتوسط فأضاءت ايطاليا ، ولو لم تنقل روما الينا ثقافة الاغريق لما انتشرت روح اليونان وعمت العالم الغربي عن بكرة أبيه ، لقد تفوق الكثيرون من شعوب العالم القديم على الرومان وحققوا أكثر مما حققوه في ميادين الفنون التشكيلية والأدب والعلوم لكن الرومان سبقوهم جميعا في فن السياسة الذي دعموه بثقافة تساعد على الوحدة الفكرية وما كان أحد ليستطيع توحيد الدول الواقعة حول البحر المتوسط في رباط من السلام غير روما - لقد اختبر الرومان الحياة بكل معانيها وكان العمل رائدهم ، لقد برعوا في السياسة وفي التنظيم السياسي على نحو تحتم معه أن يظل خيالهم الفني في المرتبة الثانية . فلم يكونوا موهوبين كاليونان أو المصريين في ميدان الفنون لكن ربما كانوا كساسة أكفأ من وجد على وجه الأرض .

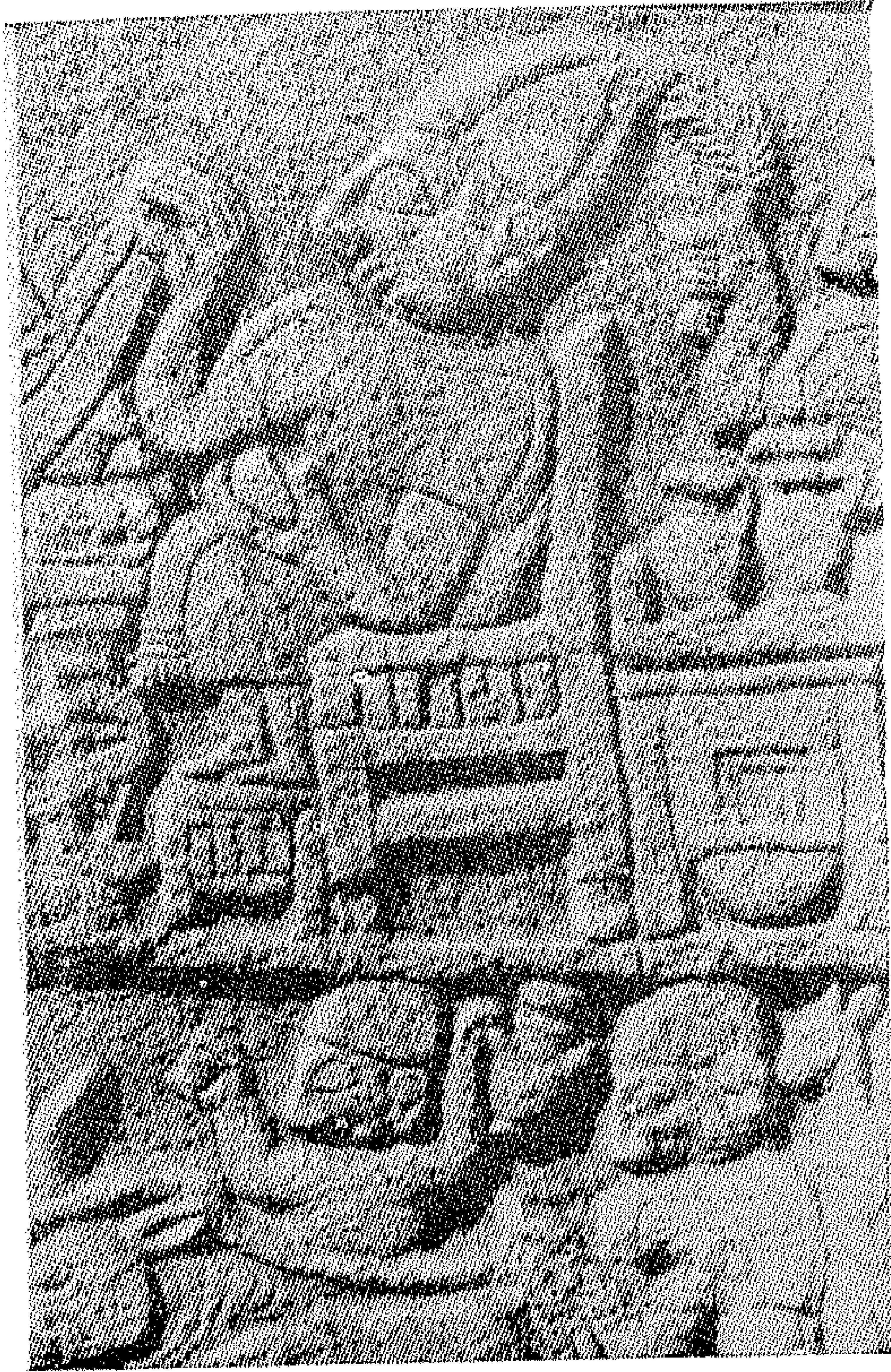
ولاتزال عجلات التاريخ تعبر الكون والمشهد في تغير دائم . فحضارات تقبل وأخرى تدبر وتمضي أجيال عقب أجيال على طول الطريق الذي لا ينتهي عبر آلاف السنين . ذلك الطريق الذي مر بحضارات عظيمة مذهلة كحضارات بلاد ما بين النهرين وأهرامات الأسرة الرابعة في مصر والملوك الذين كانوا آلهة ، والارستقراطيين التجاريين في فينيقيا وقصور برسيبوليس وحريم اكسركيس ومدن موهنجو - دارو التي يكتنفها الغموض وأبراج سور الصين العظيم ، وعددها أربعة آلاف برج ، وبهو الملك مينوس ، وكمال الفن اليوناني ، والأصالة التي لا تدع مجالا لمزيد من الكمال . ويقضي الانسان حياته في تحقيق الانجازات الكبرى وتضمحل الدول التي ندين لها بتراث هائل عظيم وتزول من الوجود وتعلمنا الامبراطوريات المندحرة تقلب القدرة ودورة الحياة الخالدة بأسرها على الأرض .

يا له من طريق هائل حافل بالاختبارات الانسانية وكم يطيب لنا أن نقف برهة في صمت لننظر الى الوراء ونتأمل كي نتعلم من كل ما مضى ، لكن ما أرحب الطريق وأطوله ، والانسان ضعيف وقاصر .. انه لم يزد عن كونه ذرة في كون يظل أبد الدهر أبعد ما يكون عن فهمه وادراكه » .



(١)

تخمير الجعة فى مصر منذ حوالى ٥٠٠٠ سنة ، وكانت الجعة تصنع من الخبز المتخمر والماء ، كما كانت مثل هذه التماثيل الصغيرة تصحب الموتى المصريين الى قبورهم . يصل طول التمثال الى ١٥¾ بوصة .



(٢)

نقش بارز يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد من مشـــهد لاحدى الولائم ٠ وقد عثر على هـــذا النقش على أحد جوانب عمـــود بمدينـة كاراتيبى فى أواخر حكـم الحثيين ، وذلـك تحت اشراف البروفسير هـ٠ت٠ بوسرت ٠ الصورة المتوجة هى لملكة أو الهة ٠ وفى أعلى يســـار الصـــورة وعاء به أرغفة من الخبز ، وفى أسفلها رجلان يقودان ثورا لتقديمه ذبيحة ، كما أنهما يمسكان بقدر للتقدمه ٠

(٣)

الموسيقيون فى موكب وهم فى احدى الحفلات ٠ لقد عثر أيضا على هذا النقش البارز على أحد الأعمدة بجوار المدخل الجنوبى لقلعة كاراتيبى فى أواخر عهـــد الحثيين (تيرس جويل باذن من البروفسير هـ٠ت٠ بوسرت)



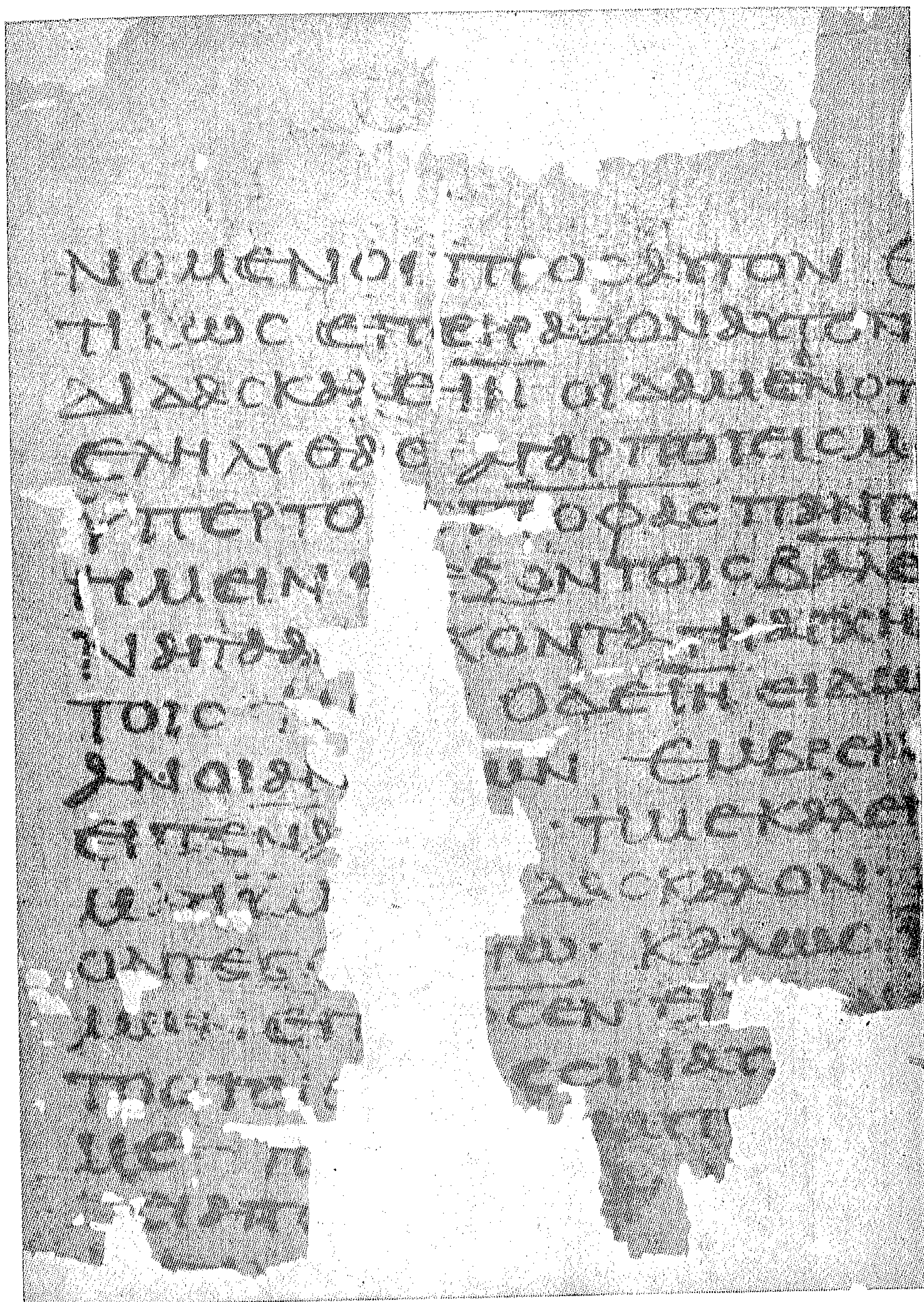




(٤)
قناعان من الخزف لرجلين يشبهان الوجوه الفينيقية التى تم اكتشافها فى مقابر قرطاجة .

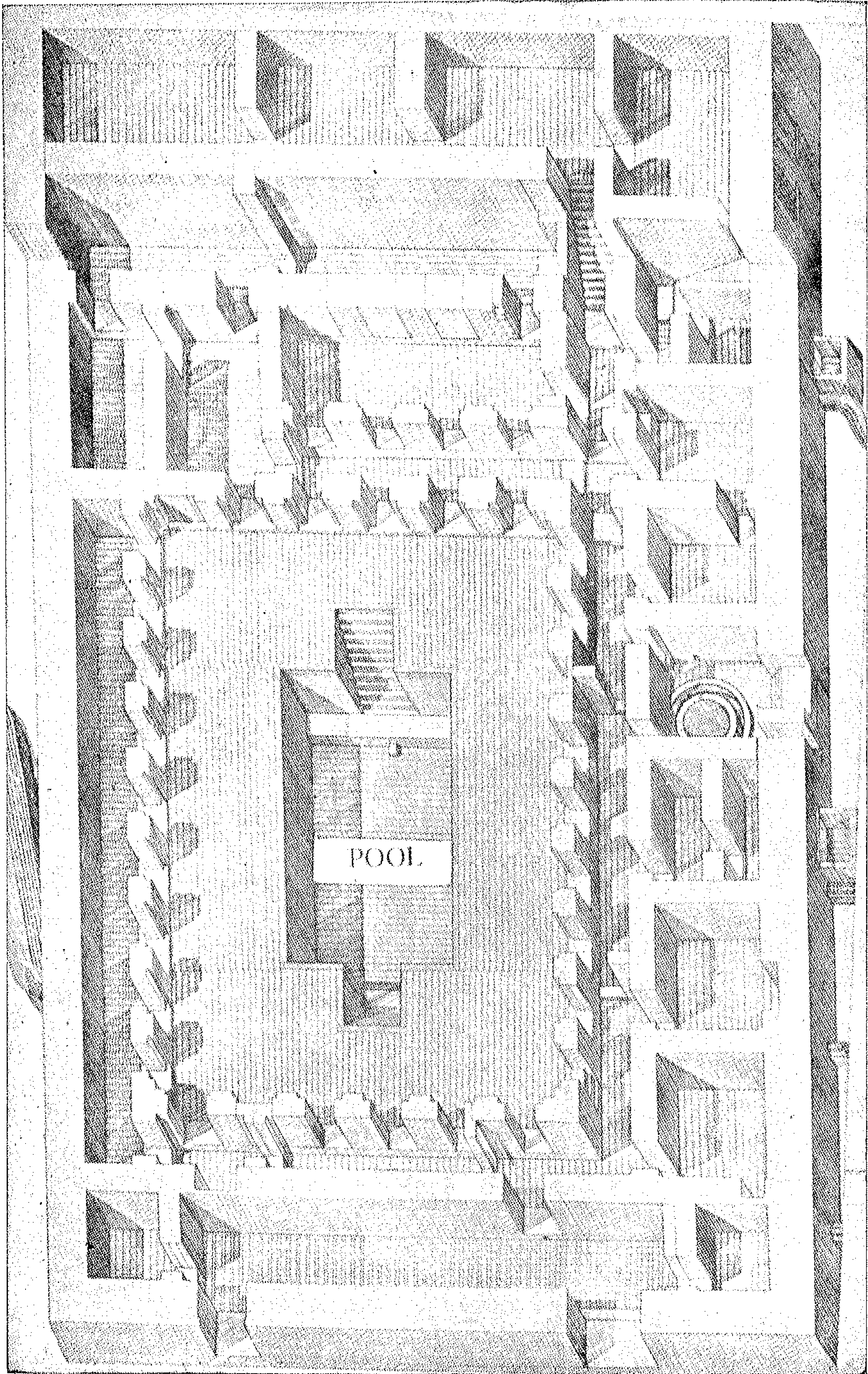


(٥)
تمثال من البرونز لأحد الهة الفينيقيين ، وقد يرجع تاريخ هذا التمثال الى سنة ١٢٠٠



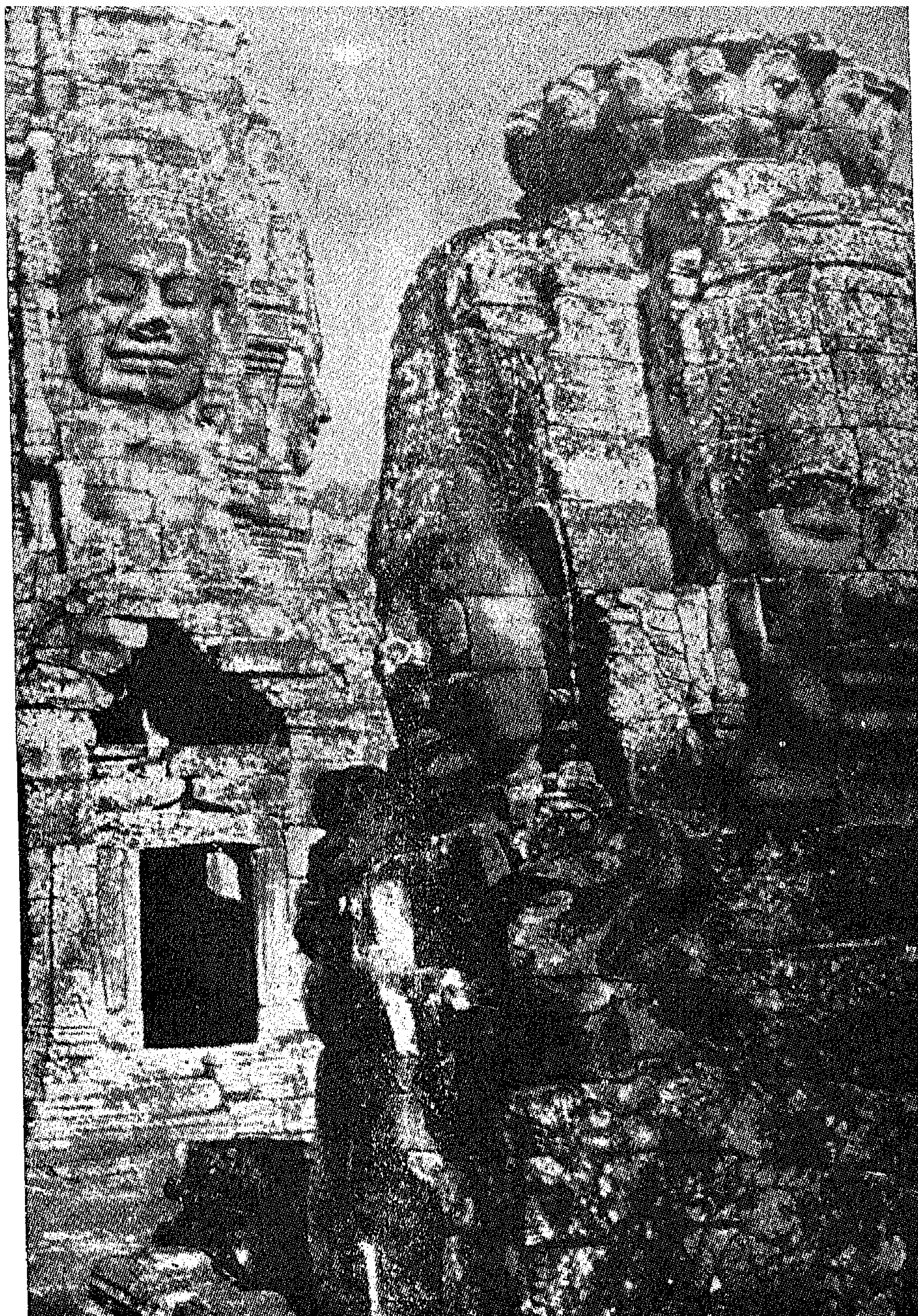
(٦)

« البردية المصرية » التى لم تكتب الا فى الحقبة ما بين ٧٠ و ١٢٠ م · انها تستند ، كما تؤكد فى وقت مبكر الأناجيل الاربعة · ولعل الكاتب نفسه كان معاصرا للسيد المسيح · وكان أول من أثار الانتباه الى نشر هـذا الجزء من البردية عام ١٩٣١ هو البروفسير هـ·أ· بيل وت·ج سكتب · وتعتبر هـذه البردية آهم دليل قوى على ان (سيدنا) عيسى وجد على قيد الحياة ·



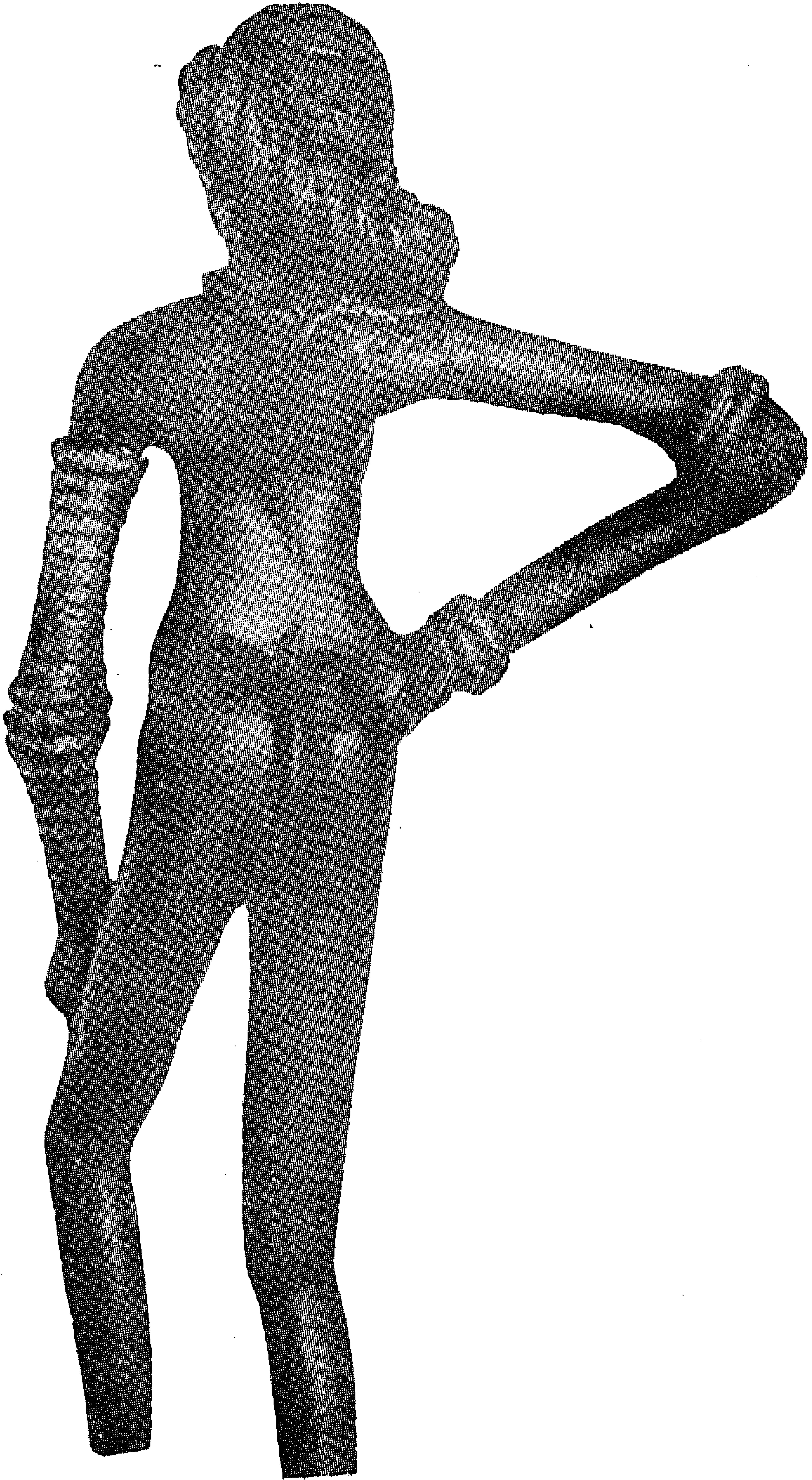
(٧)

حمام سـباحة عظيم فى موهنجو دارو · ولا يزال هـذا الحمام قائما رغم مضى ٥٠٠٠ سنة على انشائه · لقد كان تغيير الماء فى هذا الحمام يتم بواسطة بالوعة صرف وقناة تمتد تحت الأرض · كما كانت به حمامات البخار والحمامات الباردة وغرف الملبس الى جانب كافة وسائل الراحة التى تتوفر فى حمامات السباحة الحديثة ·

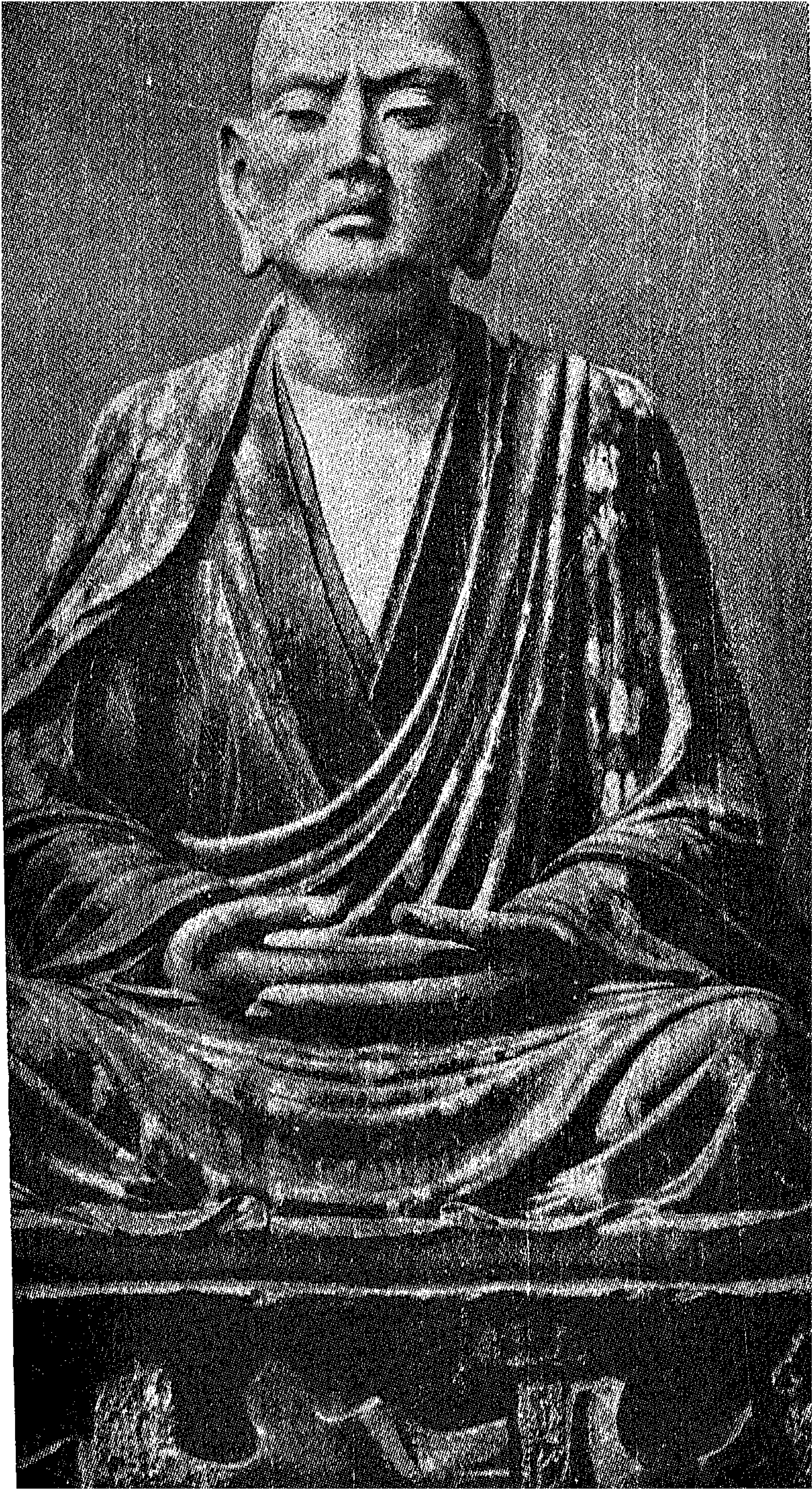


(٨)

يضم معبد بايون فى انجور توم خمسين برجا من هذه الأبراج ، يزدان كل منها باربعة وجوه للبراهما . وكانت انجور توم قد أصبحت عاصمة لأمة خمير فى عام ١٨٩٠

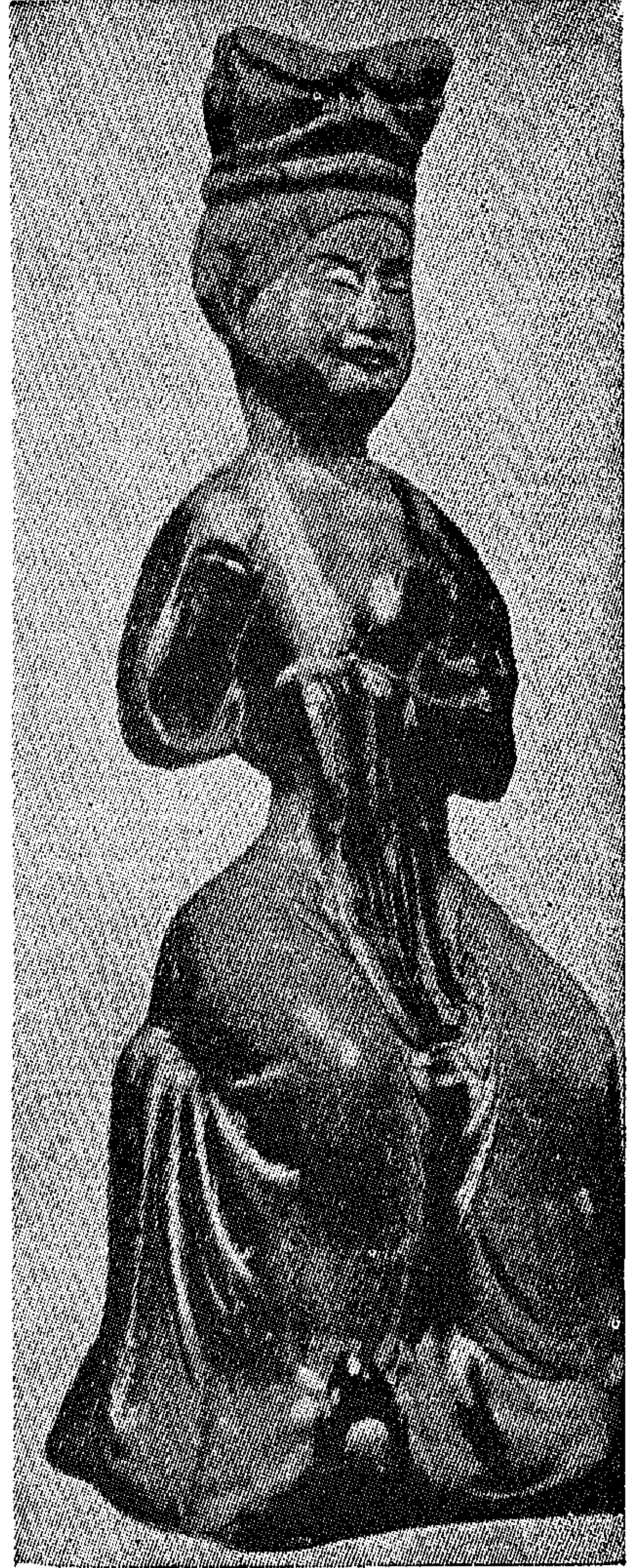


(٩)
تمثال من البرونز لفتاة ترقص من
موهنجو دارو



(١٠)

تمثال من الخزف المصقول من اسرة تانج (٦١٨ ـ ٦ م)



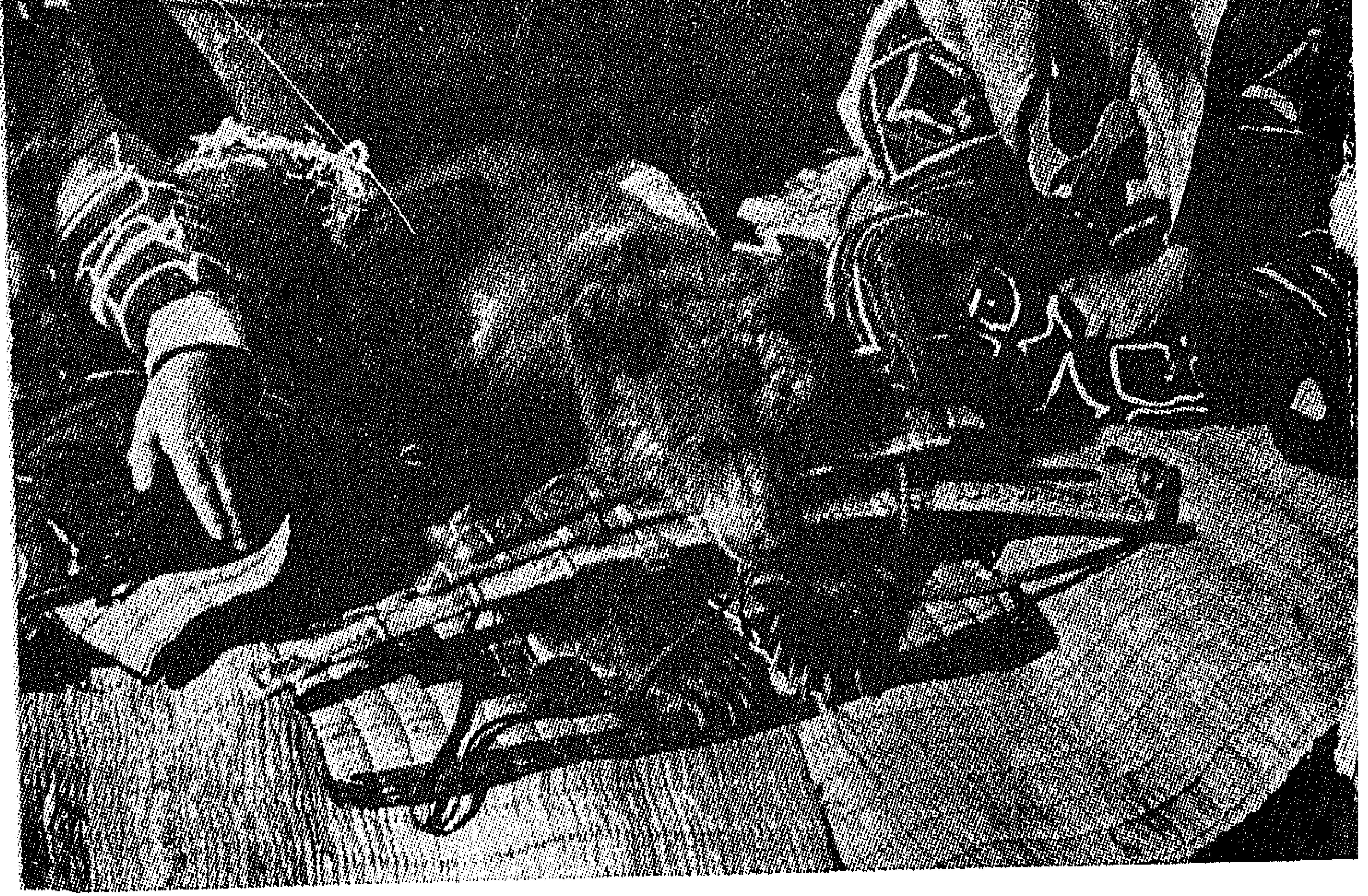
(١١)

تمثال من الخزف من عهد تاريخ (٦٠٠ ـ ٩٠٠ م) للالهة تاوست عثر عليه في أحد المقابر ٠



(١٢)

كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩) معلم وفيلسوف وسياسي وعالم اجتماع ٠



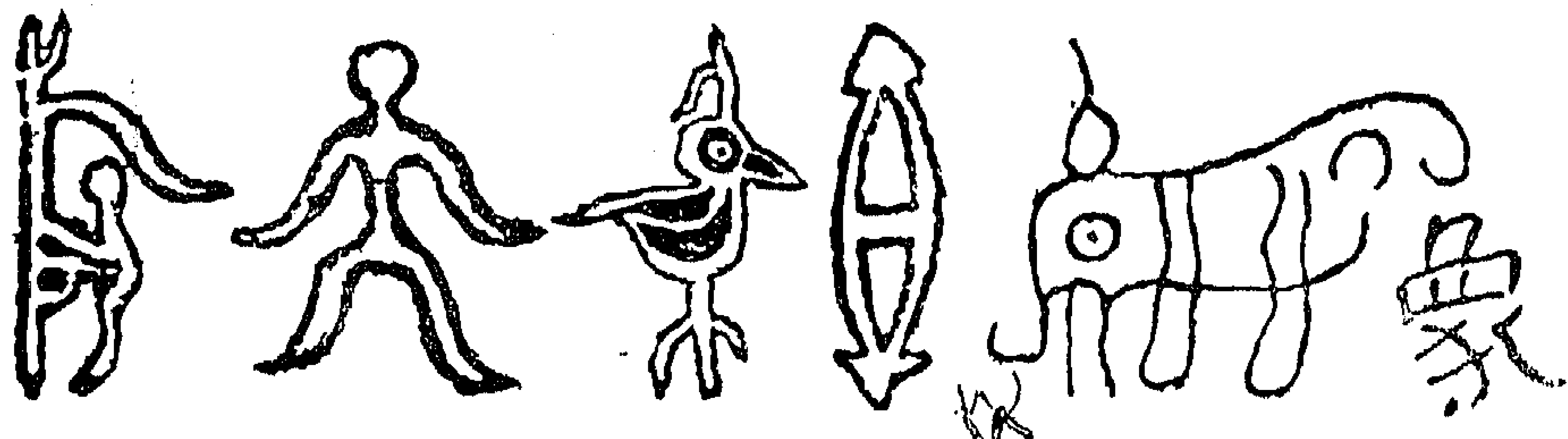


(١٣)

عبد الدب ايتو الذى ينتهى بوليمة حول جسم الحيوان المنحور ، وتنطلق روح الكائن الميت الى مجموعة من النجوم تعرف « بالدب الصغير » .

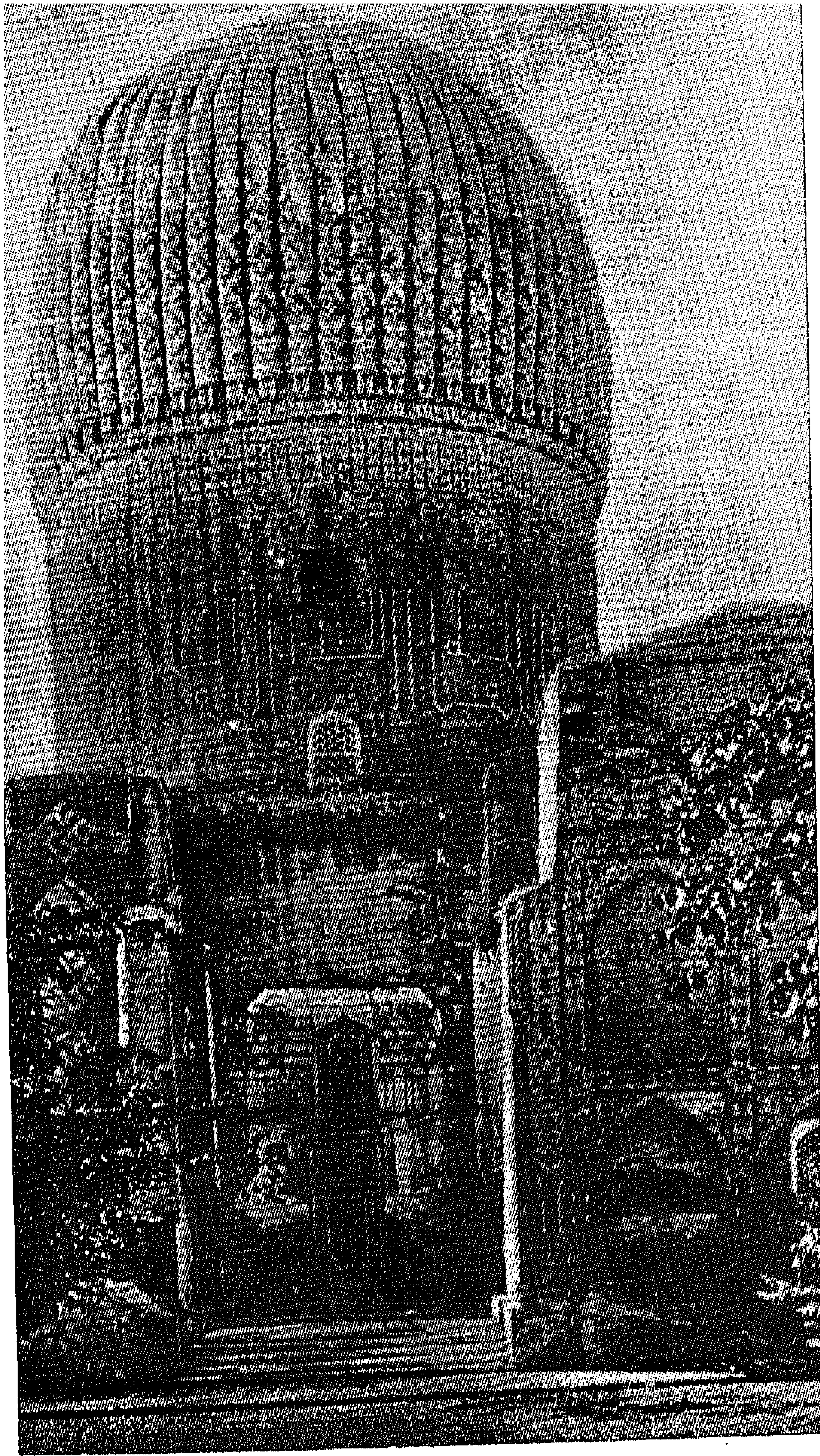
(١٤)

عنق وعاء للدفن ذات ملامح بشرية يرجع الى حضارة يانج شاو في العصر الحجرى البرونزى·
ويمتد تاريخه الى فترة ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة · توحى العينان بحول مغولى واضح ·



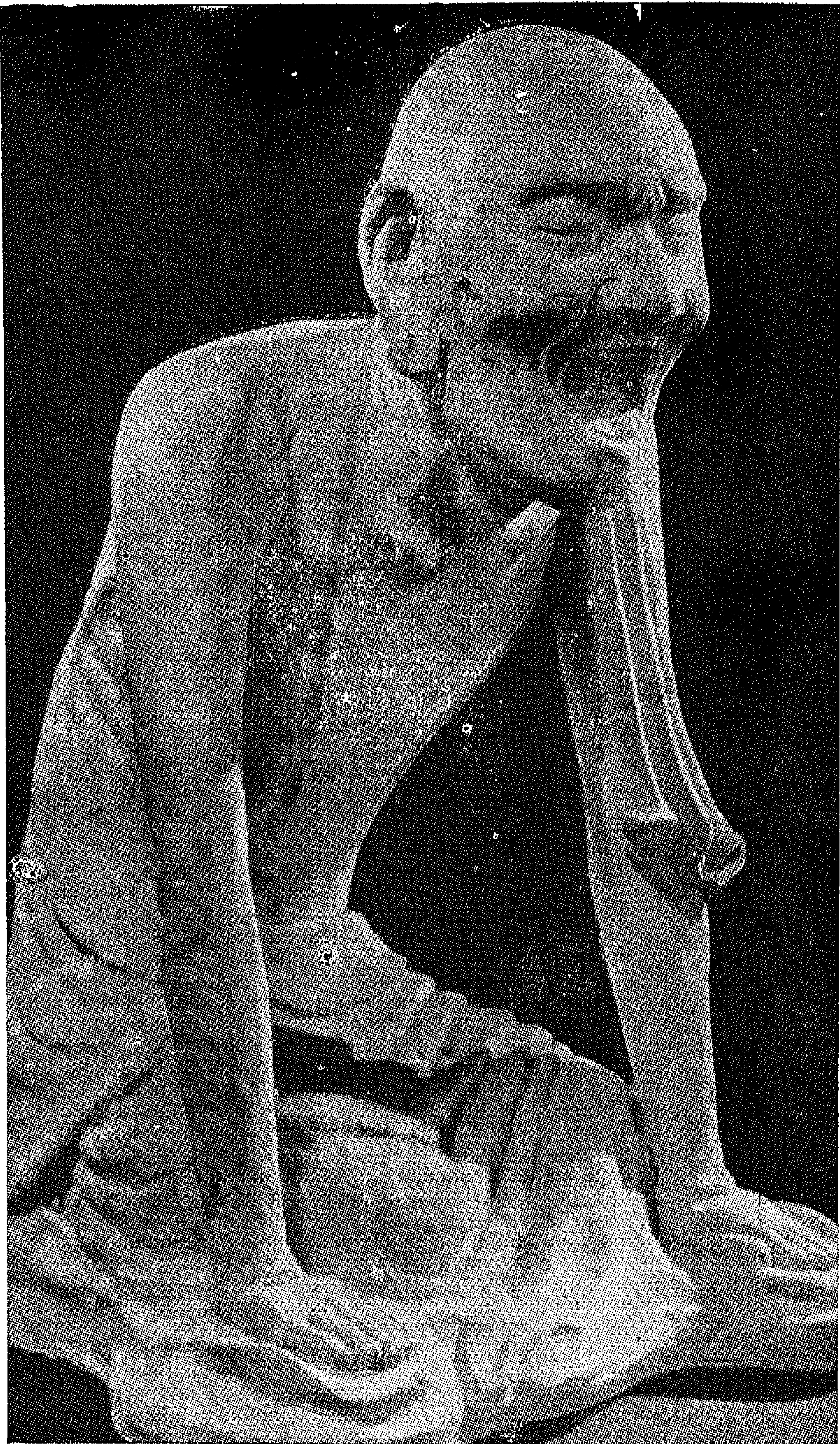
(١٥)

أحرف الكتابة الصينيه القديمة وتقرأ من اليمين الى اليسار



(١٦)

شيد تيمورلنك لنفسه هذا الضريح الفخم المتين وهو على قيد الحياة فى سمرقند التى تضمها الآن جمهورية أوزبجستان السوفيتية .



(١٧)

التمثال الباكي . يحتفظ بهذا التمثال فى هوريوجى بالدير المشهور الذى يعرف بفنه أقدم مبنى خشبى فى اليابان . وهو قائم بحديقة الغيد المقدس فى نارا .



(١٨)

رسم خشبى لفتاة وهى تتزين فى الصباح ق للفنان **توبوكوني**



(١٩)

عاشقان أسفل مظلة للفنان أوتامارا



(٢٠)

كان السحر الطبيعى للنســاء الجميلات من بين أفراد الشعب هو الموضوع المفضل لدى الفنان تورى كيوناجا الذى عاش فى ييــدو (طوكيــو حاليا) فى الفترة من ١٧٥٢ - ١٨٠٤



(٢١)

رسومات بأحد كهوف سكان استراليا الأصليين ، عثر عليها فوق جدران كهف بالقرب من نهر هميرت شمالى البلاد .

(٢٢)

كان أسلاف قبيلة ورورا يدفنون فى أحد الكهوف بالقرب من ميناء جورج الرابع ومنذ عهد سحيق كان من يذهب لزيارة المكان المشئوم يترك أثر يده فوق الجدران الصخرى ، حتى أن الصورة تبدو وكأنها صورة شبح .





(٢٣)

صورة فرق عضادة الباب من باكشيلان بالمكسيك ، وتوجد فى المتحف البريطانى بلندن . يرى فيها التائب على اليمين وهو يشد حبلا من الشوك عبر لسانه ، فتجرى الدماء الى حوض التضحية . كما يستخدم الكاهن عودا خاصا من نبات الذرة .



(٢٤)

درع من الخشب تعلوه رأس أحد الأسلاف من غينيا الجديدة ، كان يعتقد انه يوفر الحماية المادية والسحرية ضد الأعداء (متحف بميونخ تصوير هربرت ليست)



(٢٥)

تمثال لسيدة من ساحل خليج المكسيك . وقد يكون لشكل الأسنان الغريب دلالة سحرية . وصورة التمثال مستمدة من المنطقة التى كان يسكنها التوتوناك ، وهم أول قبيلة يتصل بها الغزاة الأسبان . أما الأقراط فهى من الأشياء المميزة لأمريكا فى عصر ما قبل كولومبوس اذ كانت علامة مميزة للطبقة المحظوظة كما هو حال الانكا . ويبلغ طول الصورة التى عثر عليها بأحد المقابر ست بوصات .



(٢٦)
تمثال من الخزف من متحف كوزاكا يذكرنا بالتماثيل المصرية القديمة ، وهو من صنع الزابوتيك ، الذين كانوا يعيشون على الساحل الجنوبي للمكسيك فى نفس عصر المايا تقريبا

(٢٧)

نموذج من الخزف وجد على ساحل فيرا كروز ، يرجع الى عهد التولتيك (٩٠٠م) ، ويعتقد انه يمثل اكسيبى تولتيك ، اله الربيع · تزين الأذنان بقرط أزرق ·



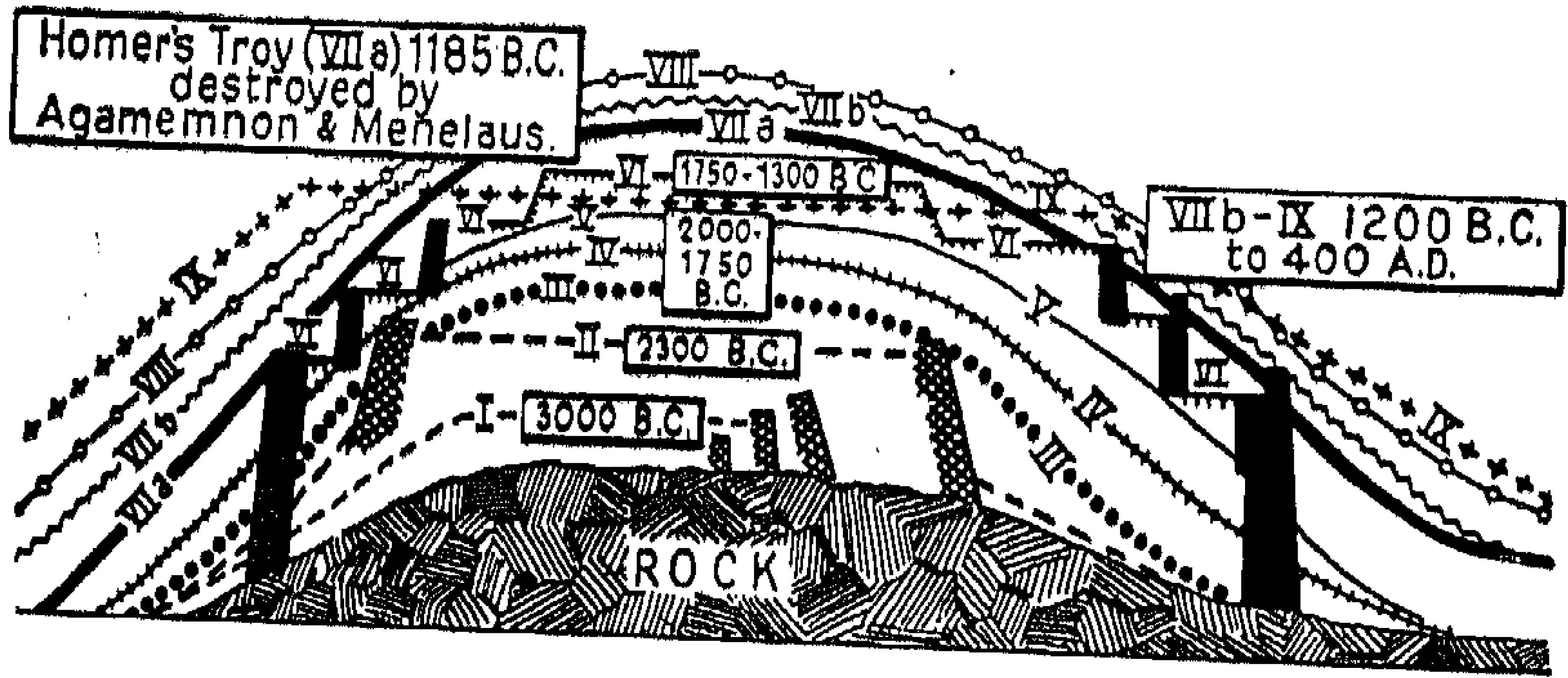
(٢٨)

قناع من الذهب يرجع الى حضارة الشيمو فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر عثر عليه على الساحل الشمالى لبيرو · وكانت مثل هذه الأقنعة توضع فوق وجه المومياء كنوع من وجه صناعى ، وكانت تصنع عادة من الخشب أو القماش القطنى أكثر من الذهب أو النحاس ·



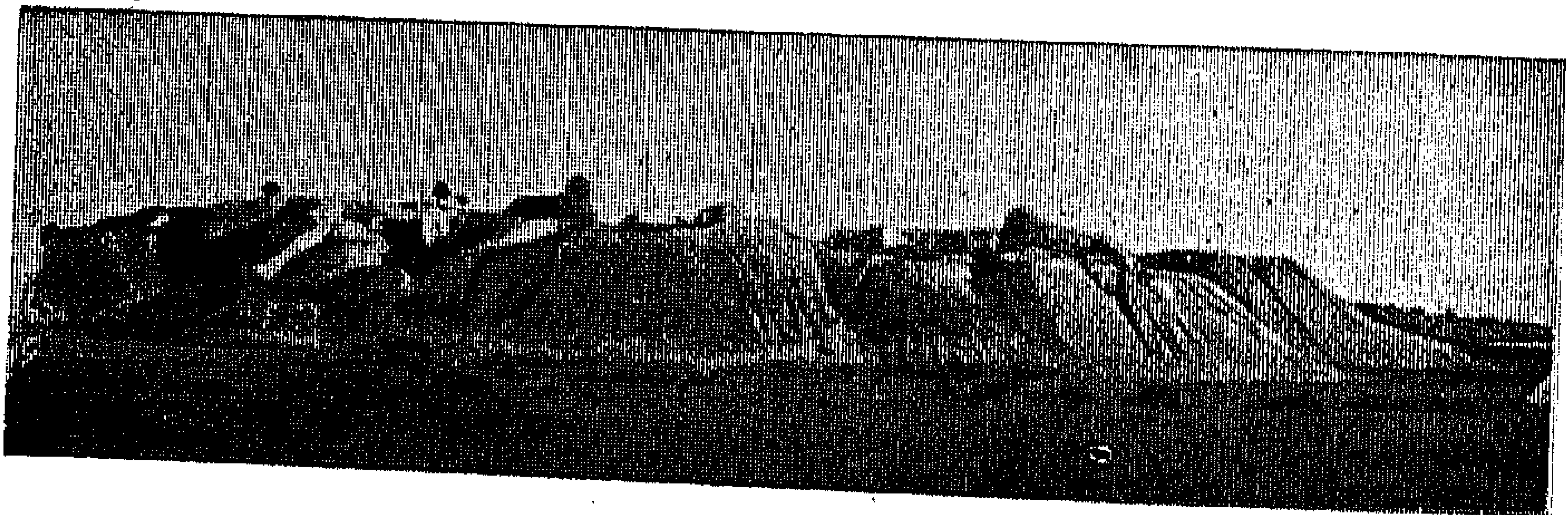
(٢٩)

الى اليسار : عملة من الفضة فئة ٢ دراخمه عليها صورة رأس تبكى : الوسط : عملة سيراقوسية فئة ١٠ دراخمة ترجع الى سنة ٤٠٥ ق٠م (كان ثمن الثور يصل الى ٥ دراخمه) اليمين : عملة أخيية فئة ٢ دراخمه عليها صورة الالهة أرتميس ٠



(٣٠)

يعتقد بروفسير براند نشتين بمدينة جراس وكارل بليجن ، عالم الآثار الأمريكى ، أن الطبقة السابعة ، تضم مدينة طرواده التى وصفها هوميروس فى الالياذه ٠

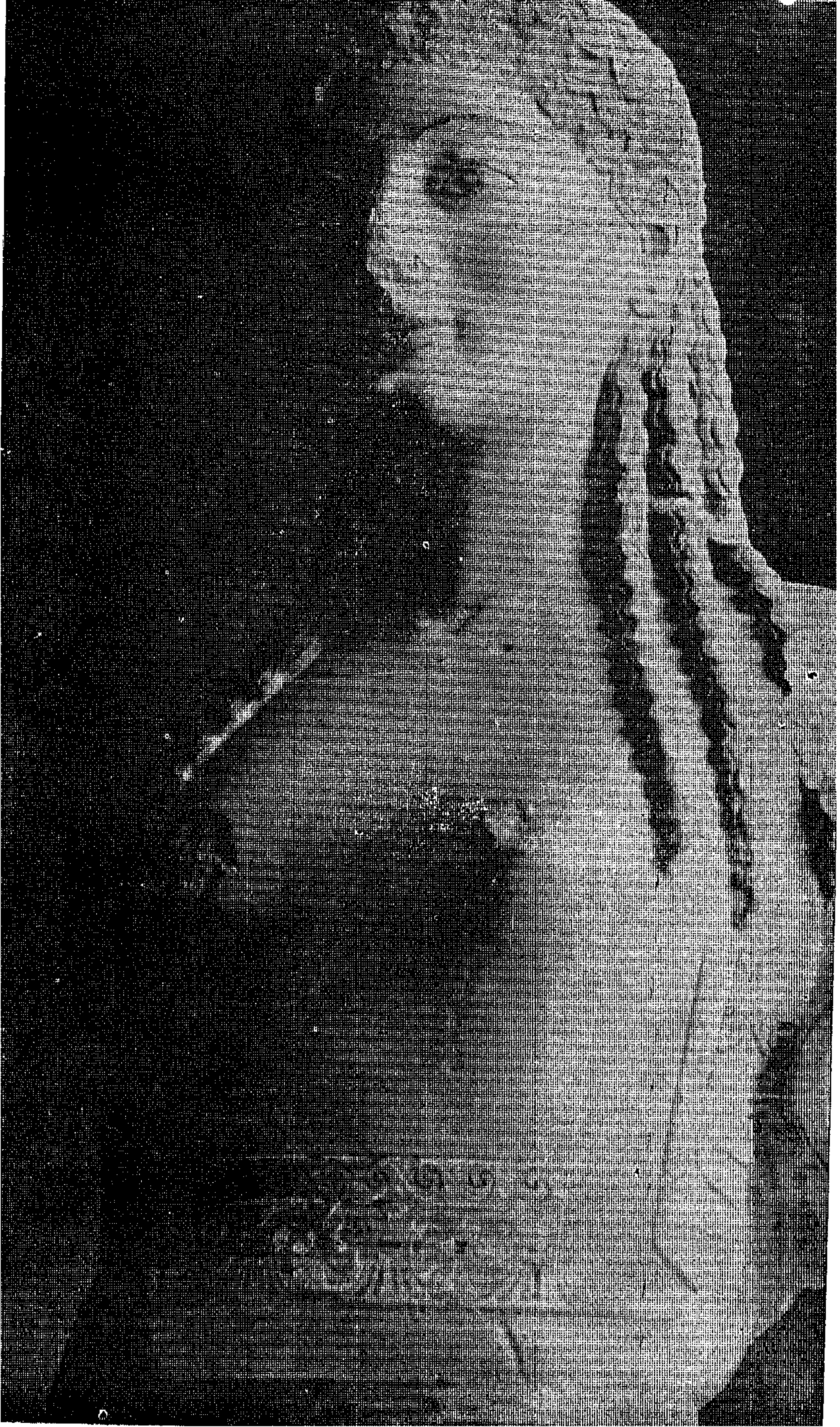


(٣١)

تل هيسارليك الذى يبعد مسافة ميلين ونصف الميل عن شواطىء الدردنيل بتركيا ٠ لقد عثر اسفله على انقاض عشر مستعمرات منفصلة ٠

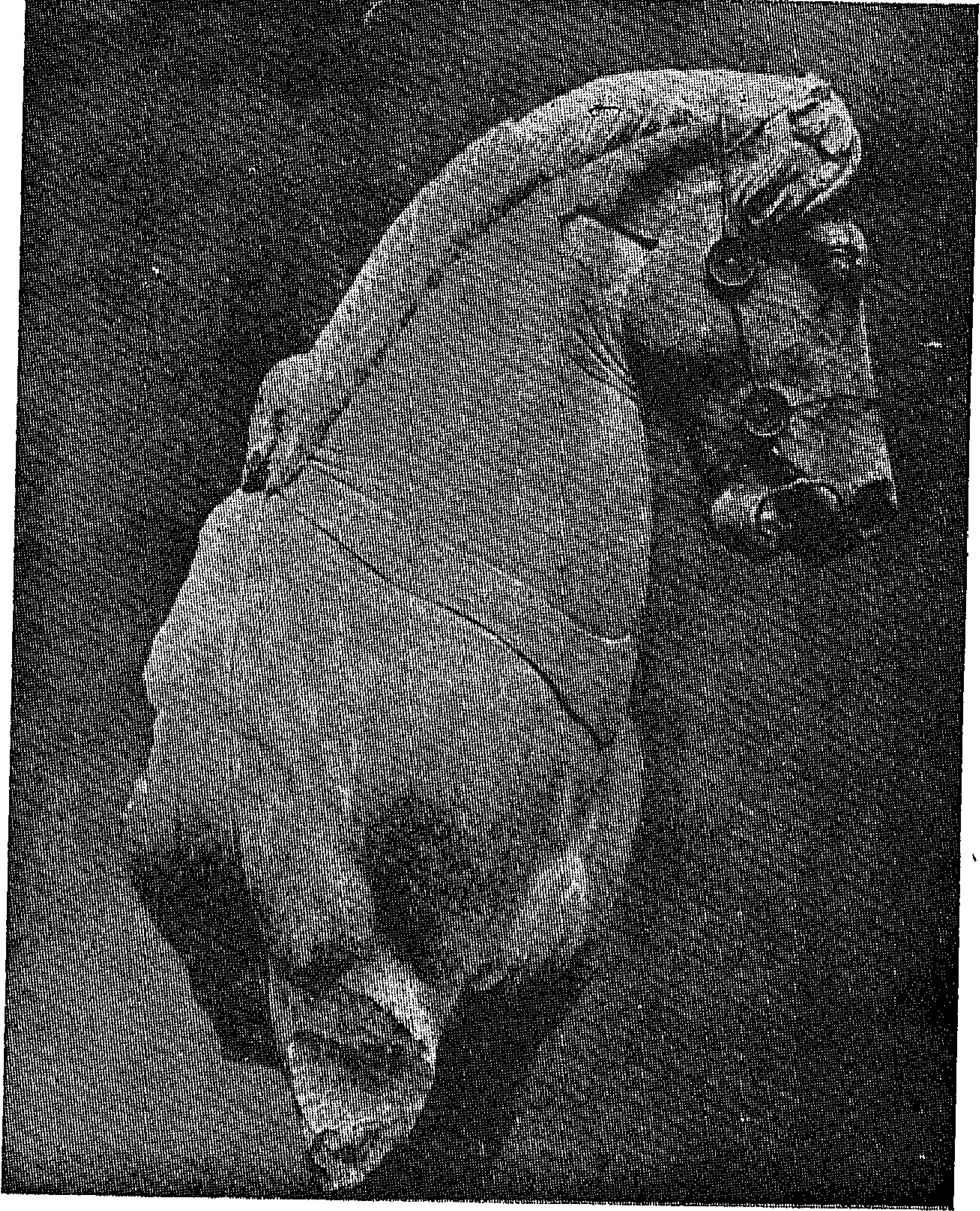


لتمثال فی معبد زیوس بأولیمبیا
ق.م ، بعد مولد سقراط بعشر
وهو تمثال لفتاة لابثية ، أی أنها
- الشعوب الأسطورية فی صقلية .
ج مليكهم بيريثوس كان ضمن
بعض القنطور (كائن خرافی نصفه
فه فرس) تمنوا وحاولوا اغتصاب
ولا تزال فی شعر الفتاة يد واحد
ر المفصولة عن جسده .



(٣٣)

تمثال للالهة برسيفونا يرجع الى الحقبة التى تمتد من ٥٤٠ ـ ٥٣٠ ق٠م ٠ ويوجد فوق الاكروبول ، قلعة أثينا المقدسة ٠



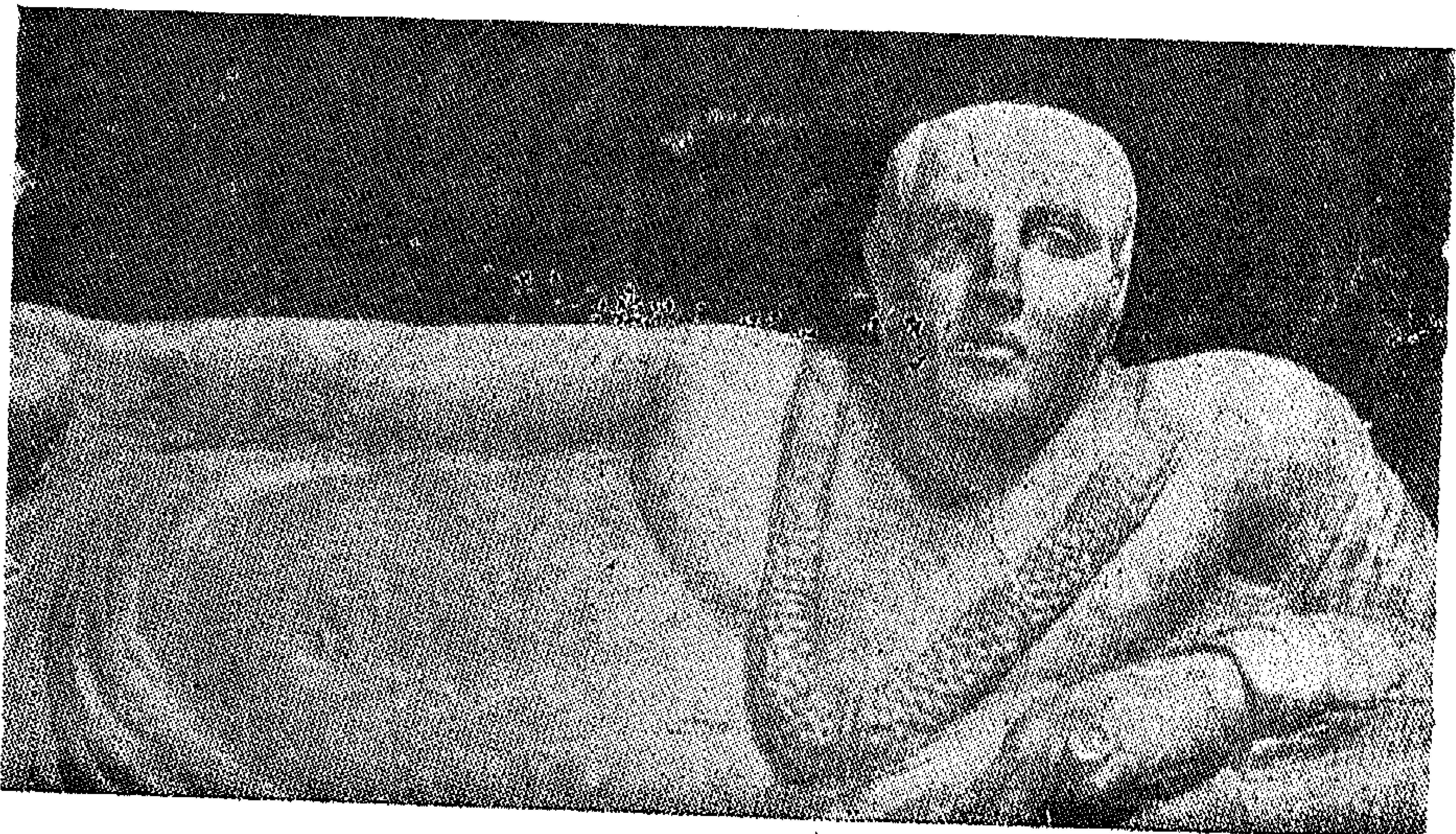
(٣٤)

جزء حصان من قمة ضريح موصوليوس بمدينة هاليكارناسوس ، يرجع الى حوالى ٣٥٠ ق٠م ٠ وينسب التمثال الى النحات الاغريقى بريثوس ، ويوجد الآن فى المتحف البريطانى ٠



(٣٥)

هذان الزوجان الأتروريان يزينـــان تابوتا حجريـــا فى ضريح بمدينـــة كابرى باترووريا القديمة • وكان الاتروريون يتكئون على وسائد أثناء الولائم



(٣٦)

قمة ضريح تمثل اتروری قوى تم العثـــور عليهـــا فى شـــوزى على الطريق من روما الى فلورنسا • وقد ترجع الى القرن الثالث قبل الميلاد (بمتحف فرنســـا • تصدير كارلو •ج• موندت) •



(٣٧)

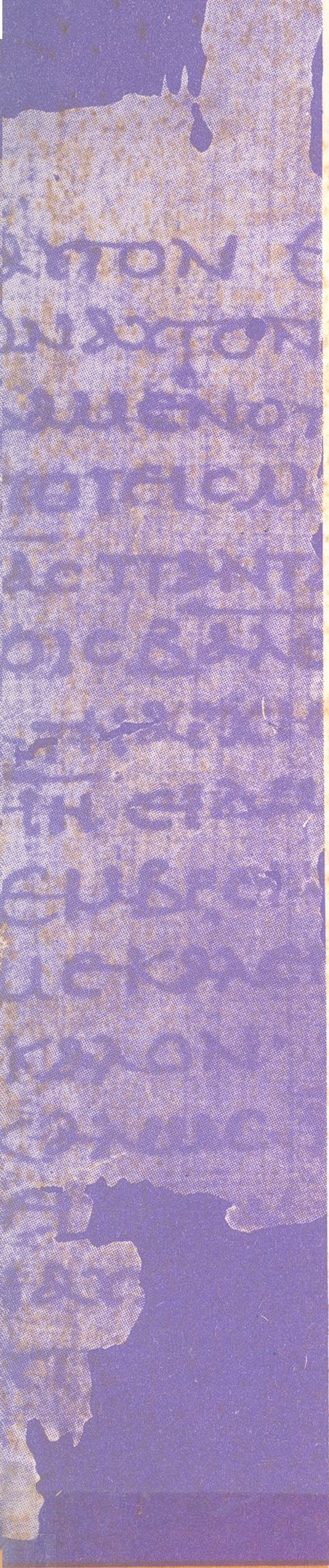
قناع اغريقي لممثل تراجيـدى يرجع الى الحقبة الممتدة بين القرن الرابع والثـالث قبل الميلاد ويوجد أصل القناع الرخامى بالمتحف الرئيسى بنيويورك • ويوجد فى فتحة الفم لعدد كبير من هذه الأقنعة نوع من أنابيب التخاطب يزيد من رنين الصوت • كما كان القناع يحول دون أى تغيير فى التعبير • لكن لا يغيب عنا أن النظارة كانوا فى العادة يشاهدون ويسمعون الممثلين من على مسافة كبيرة •

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٥٢/١٩٨١

ISBN ٩٧٧ ٧٣٤٠ ٧٢ ـ



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٠٠ قرش